آثار الخليج العربي

٥٠٠٠ - ٣٢٣ ق.م

مايكل رايس

ترجمة

صالح محمد علي   سامي الشاهد

مراجعة

د. أحمد السقاف   ناصر العبودي


٩٣٩
ر أ أ ث
رايس، مايكل.
آثار الخليج العربي ٥٠٠٠- ٣٢٣ ق.م / مايكل رايس؛ ترجمة صالح محمد علي، سامي الشاهد؛ مراجعة أحمد السقاف، ناصر العبودي.- أبوظبي؛ المجمع الثقافي، ٢٠٠٢.
٤٦٥ ص .
١- الآثار الخليجية.
٢- دول الخليج العربي - تاريخ قديم.
أ- صالح محمد علي، مترجم.
ب- سامي الشاهد، مترجم.
ج- أحمد السقاف، مراجع.
د- ناصر حسين العبودي، ١٩٥٥- ، مراجع.
هـ- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

تُرجم هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي



آثار الخليج العـــربي



عيلام
am
ULF
ملوخا
Melukhkha
Indus Valley
وادي السند
Magan
مجان
المحيط الهندي
INDIAN OCEAN

هضبة الأناضول
Anatolia

MEDITERRANEAN
البحر الأبيض المتوسط

أكاد
Akkad

سومر
Sumer

ARABIAN G
الخليج العربي

Dilmun
دلمون

Egypt
مصر

الجزيرة العربية
Arabia

RED SEA
البحر الأحمر

المحتويات

مقدمة

هذا الكتاب نتاج سنين عديدة من الاهتمام بشؤون شبه الجزيرة العربية ودول الخليج ، فهو كتاب يهتم بماضيها، خصوصا دولة البحرين التي تقع في وسط الخليج – جغرافيا وتاريخيا – بقدر ما يهتم بالسياسات المعاصرة في المنطقة ، وبصفة خاصة، ببعض المسائل الناتجة عن مدى اعتماد العالم الغربي على احتياطيها من النفط، ومن الناحية الأخرى، كشف قِدَمَها غير العادي. ولعله من الصعب تصور منظورين متباعدين بهذا القدر، لكن الوقوف عليهما معا قد منحني قدرا كبيراً من السعادة وقليلا من الامتعاض أحيانا. ولقد تعلمت الكثير عن أهالي المنطقة الذين أصبحوا أصدقاء لي، وأعتقد أنني أحرزت فهما للدور الذي لعبته الجزيرة العربية والخليج في بناء العديد من العقائد المشتركة لدى أولئك الذين يستمدون تراثهم الثقافي من الأراضي التي تقع غربي جبال زاغروس.

إن علم الآثار في شبه الجزيرة العربية فرع جديد من فروع المعرفة إلى حد بعيد، ولقد كنت محظوظا بصفة خاصة بانشغالي به في الفترة التي شهدت أعظم نشاط له في قرابة الثلاثين عاما التي خلت. ولقد سبق اهتمامي بآثار العالم القديم زيارتي الأولى للخليج في الستينيات بأمد بعيد. وحين قدمت إلى البحرين اطلعت على العمل الرائع الذي قامت به البعثات الدنمركية التي رعاها متحف فورهستوريك بمويسجارد، الذي يقع في مكان رائع وهادئ في شبه جزيرة جوتلاند في شمال غربي أوروبا ويمتد شمالا من ألمانيا إلي حيث يكون جزءاً من الدنمرك. وكان الدنمركيون قد سبق لهم العمل داخل البحرين وحولها لبضع سنوات عندما وصلت، ولقد ذعرت كغيري من المستكشفين بسبب خطورة عدم فهم أهمية آثار البحرين، وكمية المشغولات الإنسانية التي استخرجت منها. وحثثت أصدقائي في الحكومة البحرينية على بناء متحف لاحتواء ما تكشفه الحفريات ووضعها في شكل ما من أشكال المضمون العلمي المتماسك.

وفي نهاية المطاف طلبت الحكومة مني ومن زملائي أن نجهز المتحف ، الأمر الذي

أصابني بقدر من الدهشة حيث لم يكن لدينا إلا القليل من المعرفة في مجال التصميم والاتصالات. وهذا ما قمنا به بالتعاون الوثيق مع جيوفري بيبي من البعثة الدنمركية، والذي يروي كتابه "البحث عن دلمون" عمل البعثة في البحرين ودول خليجية أخرى. ووضع المتحف في البداية في مقر الحكومة، ثم نقل لاحقا إلى المكان الذي كان صالة للطعام لضباط القوات الجوية البريطانية في المحرق. حيث لقى ترحيباً كبيراً، وكنا قادرين على العمل بحرية وإدخال أفكار، الجزيرة الشقيقة للبحرين، في تصميم المتاحف المعاصرة. كانت حين ذاك في بداية تطبيقها.

ومنذ ذلك الحين وأنا وزملائي غارقون في دراسة ماضي الجزيرة العربية وربطه بالحاضر كنتيجة لهذه السابقة البحرينية المبشرة بالخير. وخلال الفترة صممنا وأنشأنا متاحف في قطر، وعمان، والمملكة العربية السعودية. وكنا أيضاً مهتمين بصفة خاصة بإعداد أفلام عن ماضي المنطقة، وتحرير وإصدار دوريتين هامتين تعنيان بآثار الجزيرة العربية، والمساعدة في تكوين وإعداد وتطوير دوائر آثار في العديد من دول المنطقة. ويتولى الإشراف على هذه الدوائر اليوم أبناء تلك البلدان بأنفسهم؛ وكذلك الدوريتين يتم تحريرهما ونشرهما من قبل كفاءات محلية بصورة متزايدة وهذا ما ينبغي أن يكون.

وفي فترة التخطيط للمتاحف المتعددة، والتي كنا مسؤولين عنها، كنا أكثر اهتماما بالبحث الذي ينبغي أن يقوم عليه أي عرض متحفي جيد. وكنا في بعض الحالات نقوم بالبحث بأنفسنا، أونتولى على الأقل توجيهه؛ وفي بعض الحالات الأخرى نعمل عن كثب مع العدد المتزايد من الباحثين المتخصصين في دول شبه الجزيرة، وبريطانيا، وأوروبا والولايات المتحدة، والذين أصبحوا الآن من المنخرطين في دراسات ذات صلة بالجزيرة العربية والخليج.

ومن بين ثمار العمل في المتاحف في الجزيرة العربية والخليج أن الناس الذين يستخدمونها مستعدون لقراءة نصوص توضيحية أطول بكثير مما يفعله المشاهدون

الغربيون. وبالنسبة لأمثالي وزملائي من المهتمين بالاتصالات فهذا يعطي شعوراً بالرضا إلى حد كبير، وهذا هوالسبب في كون القدر الأكبر من مادة هذا الكتاب في متناول اليد.

وكنت أيضاً مسئولاً عن التخطيط والتنظيم والنشر لمؤتمر آثاري وتاريخي كبير عقد في البحرين في ديسمبر عام ١٩٨٣. وتوفر أوراق المؤتمر المنشورة الأساس لقدر كبير من البحوث الجديدة ولعدة سنوات قادمة: فالنتائج التي توصل إليها العديد من الباحثين البارزين الذين أسهموا فيها ستكون ذات فائدة للكثيرين. وهذه الأوراق والعديد من الكتب التي نشرت في السنوات الأخيرة كانت عونا كبيراً لي في إعداد هذا الكتاب. كما تلقيت عونا لا يقدر من العمل الذي توليناه جماعيا في تجهيز المتاحف المحلية الستة التي عهدت بها إلينا دائرة الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية، وهذا المشروع مشروح بتفصيل أكبر في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وأشعر بالامتنان بصفة خاصة لزملائي ديريك دالبي، رفيقي في العمل لعدة سنوات، وويل فاسي، الذي كان مسئولاً عن تنسيق الكثير من البحث الذي اتبع لجعل المتاحف مؤسسات كاملة، وهذا هو ما أراه فيها.

وأدرك (رغم عملي الدؤوب والمخلص للمنطقة ولآثارها) أن ما أعرضه هنا في معظمه من مكتشفات أناس آخرين. وقد قيل مراراً إن هناك نوعين من علماء الآثار: "المنقبين" و"المصنفين". وأعتقد أني أنتمي إلى الصنف الثاني، ولكني أرجو أن يقبل صنف ثالث وهو" العارضون"، ففي علم الآثار يبني العارضون هم حياة الذين عاشوا في القديم إلى من يعيشون اليوم.

وأقر ممتنا أشد الامتنان بما أدين به لأولئك الباحثين الذين يشكل جهدهم جوهر هذا الكتاب. فما به من حقائق فهو لهم، أما الكثير من التفسير فهو لي، و أما الأخطاء والحذف فمسئوليتي.

مايكل رايس

تمهيد

ذكرنا غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ بمدى ما أصبحت عليه أهمية الخليج وشرق الجزيرة العربية بالنسبة لرخاء العالم. ولقد اتضح هذا الاهتمام في قسوة رد الحلفاء على ضم العراق للكويت، وإن رأى البعض أن رد الحلفاء يبدي معايير مزدوجة في التعامل مع سياسات جزء من العالم عانى أكثر من غيره بكثير من تدخل المصالح الأجنبية، إلا أنه كان عموما محترماً كرد فعل ضروري على ابتلاع دولة صغيرة مستقلة من قبل جار أكبر وأكثر عدوانية. فمعظم الناس من ذوي التفكير السليم قدروا نتيجة جهد الحلفاء وإن لم يعجبوا دائما بأساليب عملياته أو الأخلاقيات التي بدت في بعض الأحيان أساسا لها.

ولقد كشف الهجوم على الكويت أيضاً مدى ضآلة المعروف عن ماضي هذا الجزء من العالم الذي صار فجأة بؤرة الاهتمام المستحوذة على انتباه وسائل الإعلام الدولي فإذا علمنا أن القسم الأكبر من العالم الصناعي يستمد طاقته من المواد البترولية المستخرجة من هذه المنطقة ولأكثر من نصف قرن من الزمان، فإن مثل هذا الافتقار إلى العلم بتاريخها الغني كان أمراً غريباً ومؤسفاً إلى حد كبير، خصوصا حينما ندرك مساهمته الفريدة في تاريخ جنسنا البشري.

كانت إحدى مفارقات الحرب في الخليج اكتشاف الكثيرين أن دول الخليج تمثل كياناً أكثر تماسكاً مما لدى الكثيرين في المنطقة الواقعة ما بين النهرين، التي يطلق عليها اليوم العراق. والتراث الذي يستمتع به العالم اليوم من الحضارات المتعاقبة لبلاد ما بين النهرين تراث هائل. وبينما بقيت ثقافة الخليج، والمعروفة تاريخيا بدلمون، ذاتاً متميزة منذ ظهورها لأول مرة في شرق الجزيرة العربية في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد، وحتى الأزمنة الإسلامية والعصر الحاضر من خلال الدول الحديثة التي ورثتها، فقد ظلت بلاد ما بين النهرين مجزأة، ونادراً ما خضعت لسيطرة مركز قوة واحد. وكانت ممالك المدن، غالباً محصورة في بضع مئات من الأفدنة، وشكلت الوحدة السياسية السومرية المميزة.

واستمرت الإمبراطورية الأكادية لقرن أوما يقرب القرن، ثم جاء البابليون والآشوريون وذهبوا بالقدر ذاته من السرعة رغم التأثير القوي الذي أحدثوه في الشرق الأدنى.

ولعل من السهل البحث عن موازيات تاريخية على مدار فترات طويلة من التاريخ الإنساني، لكن الأراضي الشمالية من الخليج كانت منطقة متنازعاً عليها لمدة أربعة آلاف سنة على الأقل، مع أنها ليست المنطقة المتمثلة اليوم بالكويت: إذ كانت تلك منذ نحو ٢٠٠٠ قبل الميلاد جزءاً من دلمون، ومن ثم جزءاً من الخليج بما لا يقبل الجدل. أما شط العرب، الواقع إلى الشرق والذي يشكل الحدود بين العراق وإيران، فقد كان سببا في الدمار النهائي للحضارة السومرية عندما قام ملك عيلام في إيران بأسر إبي-سين، ملك أور(Ur) المنتمي لآخر الأسر الحاكمة السومرية نحو العام ٢٠٠٦ قبل الميلاد.

ولكن المعارك بين بلاد ما بين النهرين وإيران ليست المقياس الصحيح لأهمية الخليج في التاريخ الإنساني، بل إسهاماته في توسيع مدارك الإنسان لما حوله من العالم، وذلك من خلال التعرف على حيوية الأساطير، والحماس الذي تميز به السعى نحو المعرفة، واختراع التجارة، والفنون والآداب، والغموض الذي يكتنف أصول وجذور الحياة.

لقد حدث الكثير في علم الآثار في الخليج في العقد المنصرم أوما يقارب ذلك منذ أن بُدئ بنشر المعلومات عنه لأول مرة. ومن الممكن الآن الحديث عن آثار الخليج كمنطقة متماسكة، ومد قصة أهلها إلى كامل مدى التاريخ المدون وإلى ما وراءه. وهذه هي القصة التي يحاول هذا الكتاب سردها.

شكر وتقدير

يتقدم المؤلف بالشكر والتقدير إلى كل من: دائرة الآثار والمتاحف في دولة البحرين، ودائرة الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية، ودائرة الآثار والمتاحف في الكويت، ودائرة الآثار والمتاحف في الإمارات العربية المتحدة، ودائرة الآثار والمتاحف في سلطنة عمان، ودولة قطر، ومتحف البحرين الوطني، والمركز الوطني للبحوث العلمية، ومتحف فورهيستوريك بميسجارد، ومتحف اللوفر، ومتحف الآثار والتراث بالرياض، والجمعية الملكية الآسيوية، وأوصياء المتحف البريطاني، ومطبعة جامعة شيكاغو، ومطبعة الجامعة الهندية، ومطبعة جامعة برنستاون، ومؤسسة بن المحدودة ، وي جي بريل، وفيبر وفيبر المحدودة، وبنجوين للكتب المحدودة، وتيمز وهدسون المحدودة، وإلستريتد لندن نيوز، ومديري بعثة لندن – البحرين، والدكتور د. ب دو، والسيدة شيرلي كاي، والدكتور باولو كوستا، وبصفة خاصة، إلى زميلي إيان كوك من جرافيك ديزاين انترناشيونال لما قدمه من خرائط.

الفصل الأول

الخليج العربي في الزمن القديم

قبل أربعة آلاف سنة مشى رجل حافي القدمين على مسطبة حديثة الإنشاء في بناية غريبة على جزيرة صغيرة قريبة من المياه الهادئة في بحر مغلق بعيد .أي نوع من البشر كان ذلك الرجل؟ لا نملك سبيلاً لمعرفته عدا أن قدميه كانتا كبيرتين بشكل واضح . ونعلم أيضاً أنه لم يكن وحيدا بل كان واحداً من بين عديدين مشوا فوق القصارة المطروحة على المسطبة ، وأنه كان يصطحب كلبا . ولا ندري إن كان عاملاً مشتغلاً في بناء الصرح ، غريبا لم يكن على علم بالعمل الذي كان جارياً على هذا القدر من القرب من البحر الهامس، أو ربما تعثر ليلاً في الظلام فوق السطح الذي لا يزال رطباً .

والمهم في هذا الحدث البعيد هوالموقع، وليس الماشي على الشاطئ، فقد كانت البناية مكاناً مقدساً، جزءاً من مجمع أبنية تذكارية أقيمت لتمجيد الآلهة التي كانت تعبد من ذي قبل هناك ولمدة ٥٠٠ عام في معبد أنيق من الحجر، في الوقت الذي مشت فيه الأقدام المستهترة فوق المسطبة المقصورة، مثلما كانت تعبد في أبنية أقل فخامة، ربما لمدة أطول من ذلك. ومنذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد كان قد أقيم معبد على هذا الموقع تحيط به أشجار النخيل ويحتضنه البحر الضحل القريب . هنا سعى الإنسان لتكريم واسترضاء قوى الطبيعة والمجهول الذي خلدوه على هيئة آلهة . ومن الممكن فقط أن نخمن بشأن اسم الإله الرئيس الذي خلد في هذا المكان العتيق، لكن كل ما هومعروف عنه الآن يوحي بأنه كان إلها عظيماً، رب وحامي شعب منسي تماماً؛ذلك الشعب الذي لولا وجوده ما كان العالم على ما هوعليه اليوم .

تقف المعابد على هذه الجزيرة القصية على نقطة محددة في الزمان والمكان : فمن أقدمها إلى أحدثها تمتد فوق فترات من التاريخ الإنساني حيث كانت تتوالى أهم التغيرات الاجتماعية والتقنية والثقافية . ولعلها مفاجأة للبعض أن يعلموا أن الجزيرة ومعابدها تقع قريباً من أصول العالم الحديث، ولقد كان البحث عن الأصول الشغل الشاغل لهؤلاء الناس الذين ارتبطوا أشد الارتباط بالجوانب الغامضة في المعابد . ويشكل هذا البحث جزءاً من جوهر هذه الدراسة .

الجزيرة ذاتها مركز جغرافي إلى جانب كونها موطن الكثير من الأساطير والمعتقدات الدينية المعقدة . ولقد امتدت شهرتها بعيداً إلى الشمال وإلى عمق العراق، وجنوباً إلى المحيط الهندي وراء آفاق شبه الجزيرة العربية ، فهي من الناحية الجغرافية أحد توابعها .

وتقع الجزيرة في المياه الضحلة في الخليج العربي (الذي يسمى أحياناً الخليج الفارسي)، ويطلق عليها اليوم "البحرين" . وحملت في الأزمنة الغابرة أسماء مثل : دلمون، تيلمون، تايلوس ، عراد ، سماك، أوال ، ولكن أيا كان اسمها، فقد كانت المركز المؤثر لمنطقة قدر لها أن تمارس تأثيراً عميقا في تاريخ العالم الغربي . وكانت تلك المنطقة محاطة بمستنقعات جنوب العراق إلى الشمال، وإلى الجنوب بجبال عمان . وتقع في هذه المنطقة مشيخيات صغيرة تشكل دول الخليج، وتقع إيران إلى الشرق .

وفي الماضي القريب جداً فقط تذكر العالم وجود هذا الجزء الصغير منه، ليس لأسباب تتعلق بعراقته، وليس لما أسهم به في الوصول إلى فهم لبعض من أقدم إهتمامات الجنس البشري . أما بالنسبة لشعبه فقد مرت آلاف كاملة من السنين من الإهمال والنسيان .فقبل خمسين عاما أوأقل وفّرت شواطئ الخليج العربية العيش لأقوام كانوا أقل سكان العالم حظاً يعيشون في مستوطنات صغيرة على حافة الصحراء القاسية الشحيحة . وبمعاناة لا حدود لها، وفي مواجهة مناخ لا يرحم في أغلب الأحيان انتزع شعبها قوت الكفاف المجرد من البحر والقطعان الهزيلة من الأغنام والجمال التي كانت الأرض لا تكاد تقيتها . ولكن في

الأزمنة الحاضرة تغيرت مقادير الحظ الإنساني وأعيد تشكيله تشكيلاً كاملاً من جديد، فاليوم يتمتع شعب الخليج بأعلى مستويات الدخل في العالم، وبمستوى من الازدهار والرخاء الاجتماعي يجعل منهم هدفاً للحسد والحقد من جانب أولئك الناس الأقل منهم حظا.

ولقد أحدث النفط هذا التحول الاستثنائي من الفقر المدقع إلى الثروة الطائلة التي لا يحدها إلا اتساع البحيرات السوداء التي يطفو عليها معظم جنوب غربي آسيا. ومع بروز تلك الثروات الطائلة جاءت مشاكل السياسة والألاعيب المعقدة للدول القوية التي سرعان ما رأت في السيطرة على أراضي الخليج مكسبا يستحق أي قدر من الصراعات والخداع والحيل.

ولقد ترك نصف قرن من النفوذ الخارجي بصماته على تاريخ المنطقة الحديث، وهوالنفوذ الذي لم يكن كله ضارا دائماً. ولكن الأمر الغريب، أنه برغم جحافل المسئولين الغربيين والمهندسين ورجال الأعمال وأسراب الصحفيين المرافقين لهم ورجال العلم من جميع الأصناف الذين اقتفوا أثرهم، فالقليل منْ فكروا في العهد الذي سبق قفزة الخليج المفاجئة إلى القرن العشرين.

وَيُحْسَبُ لبعضهم أنهم قد فكروا. فقد أجريت حفريات أثرية من نوع ما بدرجات متفاوتة من الكثافة والفعالية والإدراك طوال قرن من الزمان، وبصورة ملحوظة في البحرين. وأعمال السنوات الأخيرة، وتقنيات الحفر المطورة، والتحليل المتوفر الآن لعالم الآثار بدأ يظهر ولو بقدر لايزال ضئيلاً الدور الذي لعبته هذه المنطقة في القرون الأولى من تطور الثقافات الحضرية ونشرها على مسافات شاسعة.

وكغيره من علوم كثيرة أخرى شهد علم الآثار في العشرين سنة التي خلت إعادة تشكيل للعديد من مفاهيمه القديمة التي ظل يدافع عنها بحماس شديد. ويهتم علم

الآثار باستخراج وتقويم تلك الأدلة المادية من الماضي والتي يمكن استعادتها أوإعادة بنائها. ولقد أسهم المزيد من المنهجية العلمية، وإدراك العدد الأكبر من الأمم لمغزى هذا التراث، وكذلك المعالجة المعقدة ونشر نتائج عدد متزايد من الحفريات في جميع أرجاء العالم، في تغيير ما يعرفه الإنسان المعاصر عن أسلافه وأصوله. وفي الوقت ذاته، كان هنالك إدراك زائد واهتمام لا محدود بأصول هذه المجتمعات التي أسست في غضون مسيرة تقدم من طابع وحشي إلى حاضر مستنير. ومما يثير السخرية، أن التلفزة والسياحة، قامتا بالكثير في سبيل فهم العامة للأزمنة الغابرة.

ولا يزال الشرق الأدنى برغم التنافس المتزايد من مناطق أخرى، أكثر المناطق أهمية لدراسة ماضي الإنسان. ولكن المثالب الحتمية لاعتماد علم الآثار على الدليل المتوفر فعليا لا تظهر بصورة جلية في أي موضع بأكثر مما تظهر في موقع الجزيرة العربية من العلم. وحتى عهد قريب فإن القليل جداً من الأعمال التاريخية والأثرية قد تضمن إشارة للخليج في فهارسها، أوحتى للجزيرة العربية في عصورها قبل الإسلام، عدا تجارة العطور. وكان هذا يذكر عرضا بإشارة عابرة للممالك العربية الجنوبية التي ازدهرت بسبب تلك التجارة، ولا شيء أبعد من هذه اللمحات في الحقيقة.

وهكذا استطاع هنري فرانكفورت، أحد أكثر علماء الآثار بصيرة في هذا القرن أن يكتب في مقدمة كتابه، "ميلاد الحضارة في الشرق الأدنى القديم": لقد حصرت نفسي بمصر وأرض ما بين النهرين، مركزي الحضارة في الشرق الأدنى القديم، لأن الحضارة نشأت في المناطق المحيطة بهما متأخرة، وكانت دائما مستمدة من غيرها."

وفي هذه الحالة كان فرانكفورت واقعا تحت تأثير مُضَلِّلْ إلى حد ما. ومع ذلك لم يكن متوقعا أن يعتقد بالعكس، لأنه نادراً ما توفر الدليل في زمانه كي يسود رأي أكثر استنارة أو معرفة، رغم إدراك بعض الباحثين أن الجزيرة العربية وسواحلها كانت فعلاً تمثل صفحة بيضاء في تاريخ الإنسان. ومنذ أن كتب دراسته أعيد تقويم مناطق أخرى مثل الأناضول،

والمشرق، وحتى غرب أوروبا، وقبلت مساهماتها في تطور مفهوم الحضارة المحير بقدر أكبر وبكثير مما كان بمقدور فرانكفورت إدراكه.

من الصعب تجاهل شبه الجزيرة العربية، «جزيرة العرب»، تلك الكتلة العظيمة من اليابسة التي تفصل إفريقيا عن آسيا، والتي تعادل مساحتها مساحة أوروبا الغربية تقريباً. ومع ذلك نجح علماء الآثار والمؤرخون نجاحاً كبيراً في تجاهلها منذ أواخر العهود الرومانية وحتى الماضي القريب. ورغم هذا التجاهل لا يمكن القول إن الجزيرة العربية كانت أرضاً مجهولة حقا، فلقد ظلت ولأكثر من ١٤٠٠ عام مركزاً لأحد أهم المعتقدات قوة وانتشاراً في العالم (الإسلام) حيث فُرِضَ على أتباعه أداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية مرة في العمر. وهذه الحقيقة وحدها أدت إلى تراكم قدر هائل من الحركة البشرية والخبرة على مر القرون، وكان هذا التجمع معروفا للأوروبيين منذ العصور الصليبية، إن لم يكن قبلها.

ولم تفتقر الجزيرة العربية إلى الأجانب المتحمسين الذين سعوا لاختراق قفار شبه الجزيرة الداخلية من رمال وصخور جرداء. وعن طريقهم جاءت أسطورة سكان الخيام الشجعان الشرسين طيبي القلب، الذين يطلق عليهم عرفا اسم "البدو"، وإن افتقر ذلك الاسم للدقة وكانت الصحراء تغص بآثار المستكشفين ذوي العزيمة من جميع الأشكال والأصناف الذين سعوا وراء [لا أحد يدري] أي نوع من السحر أوالانطلاق في النقاء القاسي في الأرجاء العربية الرحبة الخالية.

وأيا كانت الأسباب، فإن القليل من مستكشفي الجزيرة العربية كان لديهم الميل - المتواضع - إلى علم الآثار، وكان ما يعثر عليه قليلاً مقارنة بمصر والشرق وأرض ما بين النهرين. وتجاهلت السياسة أيضاً الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر تاركة شبه الجزيرة عموماً باستثناء ساحلها الغربي والجنوب الذي يتحكم بالطريق إلى الهند ترزح تحت القوة الهائلة للإمبراطورية العثمانية. أما مصر فقد كانت مفتوحة للغرب ولمساعي الباحثين، أولاً

من خلال حملة نابليون (الذي صاح في جنوده قائلا: إن أربعة آلاف سنة تطل عليكم)، ثم محمد علي وسياسات تقليد الأوروبيين. وجذبت بلاد ما بين النهرين اهتماماً مبكراً وكانت مواقعها تحفر، وإن تم ذلك بدون خبرة، في وقت مبكر من القرن التاسع عشر. ولكن كما كانت الحال على أوضح ما يكون بالنسبة للمشرق والصحراء السورية الفلسطينية، كان أحد أهم بواعث أنشطة علم الآثار في بلاد ما بين النهرين إثبات الحقيقة التاريخية للكتاب المقدس.

وبقيت التوجهات المتصلة بالكتاب المقدس سائدة في الكثير من علم الآثار الأوروبي حتى عهد قريب في القرن العشرين حيث كان لا يزال الكتاب المقدس يعتبر مصدراً أساسياً وإن كان انتقائياً إلى حد ما لفهم أساليب العالم القديم قبل الميلاد. واستمر دبيب جيش من أهل العلم فوق أراضي الشرق الأدنى القديم، في بعض الأحيان بامتعاض بالغ ولكن أحيانا بثقة أكيدة. وكانوا غالباً من رجال الدين الذين ربطوا بين ما تنم عنه هذه القطعة الصغيرة أوتلك من الصحراء أوضفة النهر أنها موقع لكذا أوكذا من تدخل العناية الإلهية المدون في شؤون الإنسان. ولم يثنهم أبداً عدم التطابق الطوبوغرافي، ولوعلى الأقل حسب الجهات المنسوبة للكتاب المقدس.

ومن المحزن أن رياح الزمن قد عصفت في أغلب الأحيان بالنظريات التي بنوها بمشقة. ولكن نادراً ما شاركت الجزيرة العربية في هذه الحفريات الكتابية، ربما لأن المواقع في الجزيرة العربية لم تكن بارزة بروزاً كبيراً في ثنايا الكتاب المقدس. وحتى بأخذ العبارات الملتهبة التي يبدو أنها حددت طبيعة الكثير من علم الآثار الكتابي بالاعتبار، فإن قليلاً من الباحثين غامروا عن قناعة بالدخول في هذه المناطق غير الواعدة. فالجزيرة العربية، رغم كل جهود الجمعيات التبشيرية في ذلك الزمان، رفضت رفضا قاطعا قبول وصايا المبشرين المسيحيين، وقاومت بشدة كل محاولة من جانب الكفار للتدخل في الأراضي العربية قاطبة.

فمن هذه الأرض، (باعتقاد أهلها)، ظهر آخر وأعظم الأنبياء والوحي الإلهي النهائي لمراد الله من الإنسان. وكذلك جندت القيود الأيديولوجية، ضد كشف براهين مادية عن العصر الجاهلي والذي كان يمثل للمسلم الورع كامل مسيرة التاريخ الإنساني قبل عام ٦٢٢ ميلادية. كما ظهر اشمئزاز عميق من تصرفات أولئك الذين يعبثون بقبور الموتى، حتى ولو لم تكن في مدافن المؤمنين.

ثم كان هناك حقيقة بسيطة غير أنها قاهرة ، وهي قسوة العمل البالغة في الجزيرة العربية. فبينما لم يثبط هذا الأمر عزيمة الباحثين المهتمين، لكن متعة الحفريات في وادي النيل أوشواطئ بحر إيجة المشمسة أكبر بصورة واضحة من تلك المصاحبة للعمل ذاته في الجزيرة العربية. كما كان هنالك أيضاً الحقائق المزعجة المتمثلة في الاتساع المحض للصحراء ، وانعدام الحماس تجاه الغرباء الباحثين عن الذهب (حيث إن البحث عن كنوز الذهب حقيقة معروفة لكل قاطن في الصحراء عن كل عالم آثار) والتي بلغت في بعض الأحيان حد قتل الباحث على يدي أهلها.

علم آثار الجزيرة العربية في الواقع ظاهرة من ظواهر القرن العشرين من الناحية الجوهرية، فهو في كل الظروف نتاج ما بعد الحرب العالمية الثانية لاستكشاف احتياطيات النفط في شبه الجزيرة العربية، والذي يتعطش له العالم الصناعي تعطشاً شديداً. ويتناسب مع هذه الدراسة كون احتياطيات نفط الجزيرة العربية موجودة تحت المقاطعة الشرقية في المملكة العربية السعودية ودول ساحل شبه الجزيرة الشرقي التي تشكل مادة هذا الكتاب.أما التجارة بأي معنى جدي منظم فقد بدأت هنا قبل أكثر من ٤٠٠٠ عام خلت؛ والسعي وراء المكسب التجاري هو الذي أعاد المنطقة إلى بؤرة اهتمام العالم.

لقد كان السعي المتواصل وراء المصدر الوحيد للثروة – وهوكل ما تملكه معظم الأراضي المحملة بالنفط – أمرا مريباً، فقد أنهك الغرب نفسه في ابتكار آلات واقتصاديات تعتمد

برمتها على هذا المصدر الفريد لشعب لا يعتمد رخاؤه على تلك الآلات والاقتصاديات فحسب، بل غالباً ما ينظر إلي هذا الرخاء باستياء مرير. أما الآن فقد منحت القوة السياسية التي تستمد عنفوانها من ملكية هذا القدر من مصادر طاقة العالم دول شبه الجزيرة العربية نفوذاً مربكاً على حياة جزء هام من الناس الذين يعيشون على هذا الكوكب. ولعله من المستحسن أن نحاول فهم بعض الشيء من تاريخهم، وسنجد أننا نكتشف الكثير عن تاريخنا.

لقد تحدثنا بهذا القدر عن العرب وشبه الجزيرة العربية، وعلينا الآن أن نكون أكثر تحديداً مقلصين البؤرة إلى جزء صغير من شبه الجزيرة. وهذه المنطقة هي تلك التي تضم الكويت، والمقاطعة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، ودولة قطر، ومجموعة الجزر التي تتكون منها دولة البحرين، والمشيخات السبع المكونة لدولة الإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان بمفهوم الجغرافيا السياسية المعاصر. ويطلق على هذه المنطقة مجتمعة شرق الجزيرة العربية، وهي أيضاً الساحل الغربي للخليج الذي يفصل الجزيرة العربية عن إيران، والذي بسبب الخلاف حول نسبة الخليج الإقليمية (عربي أم فارسي) فإنه يجرد غالباً من النسبة فيسمى "بالخليج" مجردا من صفات تنسبه لأي طرف، مما أدى إلى ارتباك لا حدود له للذين يعيشون في الأمريكتين حيث العبارة المجردة لهم خليج المكسيك. ولعل الصراع الذي دار في الخليج العربي على إثر اجتياح الكويت قد عمل على تعرّف الأمم كلها عليه.

وعليه فإن هذه القصة تعنى بالتاريخ القديم لشرق الجزيرة العربية والخليج، ومن هنا فهي محدودة وجزئية تصرف النظر بالضرورة عن القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية وتركز على ربع منها فقط. ولهذا الأمر أسباب ثلاثة.

أولها: أنه بالمقارنة مع بقية أجزاء الجزيرة العربية، تم بحث الربع الشرقي بصورة أفضل بكثير لدرجة أن من الممكن وضع تسلسل تاريخي بقدر معقول من اليقين على أساس الدليل المكتشف وعلم الجيولوجيا معا. ففي غضون الخمسين سنة المنصرمة كان وصول غير

المسلمين إلى شرقي الجزيرة العربية أسهل من الوصول إلى أي جزء آخر من شبه الجزيرة، لأنها المناطق المنتجة للنفط في الجزيرة العربية) ومن ثم فقد حرصت الدول على إيجاد درجة معقولة ومتزايدة من الاتصال بالعالم الخارجي، كما وفرت سبل العيش لكثير من الأجانب بمن فيهم الأوروبيون والأمريكيون. وثانياً: كانت فرص تحقيق الحياة الاجتماعية والثقافية في الماضي محصورة في هذه الأرجاء غالباً وبصورة ملحوظة. وتبعاً لذلك اتجه الأجانب الذين يقيمون في شرق الجزيرة العربية إلى علم الآثار بقصد التسلية. أما العامل الثالث: فيوفر جوهر هذا الكتاب: إذ يوجد في شرق الجزيرة والخليج الكثير من أقدم الآثار والمادة الأسطورية التي تشرح العديد من المعتقدات الراسخة العميقة في العالم المعاصر.

ولقد أدى انشغال الأجانب في السنوات الماضية بعلم الآثار- وإن كان في الأصل على يد الهواة- إلى إدراك علماء الآثار المحترفين أن المنطقة بالفعل تحتوي على مادة هامة ظلت حتي هذا الوقت مهملة إلى حد بعيد. وبالتدريج باشرت الفرق المحترفة العمل بحرية ، هنا في العديد من الدول وبدعم ومشاركة رسمية.

في باطن شبه الجزيرة العربية قدر كبير من الاحتياطي العالمي من النفط في الطبقات الحاملة له مستقراً منذ مئات الملايين من السنين. ولقد حدث أول استغلال تجاري للنفط من الخليج العربي عام ١٩٣٢ حينما صدرت أول كمية تجارية من البحرين. وتبدوهذه الفرصة ملائمة بصورة غريبة على ضوء ما سيبدو أهم دور غامض كانت البحرين قد مارسته في المنطقة كأرض بداية الأشياء. فمنذ عام ١٩٣٢ أصبحت المنطقة أحد أهم الأسواق الاقتصادية والمالية التي تشد الرحال إليها في العالم. وعلى الرغم من ذلك، نبالغ إن قلنا اليوم أن دول الخليج هي المركز الفعلي للتجارة، لكنه لم يكن في الأمر مبالغة كبيرة قبل ٤٠٠٠ عام خلت.

وخلال قدر كبير من الألفية الثالثة قبل الميلاد، وفي القرون الأولى من الألفية الثانية كان الخليج الطريق الرئيسة لحركة التجارة الدولية، وكان الطريق يمر من غرب الأناضول وحتى

نهري بلاد ما بين النهرين، دجلة والفرات، ومن خلال الخليج إلى الباكستان وحتى وادي السند إلى مدن تاريخية مثل هرابة وموهنجو-دارو. وهذا الطريق أيضاً وصل أو اتصل مع طرق أخرى إلى مناطق أكثر بعداً. ولعل التجار قد شقوا طريقهم غربا إلى وادي النيل.

وهكذا لعب الخليج دوراً رئيساً في تلك الفترة الاستثنائية من عام ٣٣٠٠ إلى عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد، حين بدا أن دفعة عظيمة من الطاقة استحوذت على سكان وادي النيل ووادي دجلة والفرات، والأراضي المجاورة لها. ونتيجة لذلك،تم وضع الأساس للعديد مما اعتبر لاحقا العلامات المميزة للحضارة والثقافة. وبالفعل، لم يعهد جنسنا البشري أي فترة مثيلة من التغير الديناميكي يمكن أن تقارن بها حتى القرن الحالي.

إن تنظيم المجتمعات المدنية، وإدارة وتوجيه مجموعات كبيرة من المواطنين، والري والتقدم الزراعي السريع، وإدخال التنظيم الهرمي، والملكية، والعمارة الضخمة، والكتابة، والشعائر الرسمية الدينية والمدنية، وتدوين الشرائع، والتخصص في الحرف، ونموالأنظمة الدفاعية والحشود العسكرية، بل وحتى أدوات المجتمعات المتطورة التي ظلت على حالها دون تغيير إلى حد بعيد حتى يومنا هذا، إما أن تكون قد انبثقت إلى العالم في تلك الفترة القصيرة من التاريخ الإنساني أو أنها تطورت خلالها إلى حد عدم إمكان تعرّفها وتمييزها عن أشكالها الأولى. ومنذ ذلك الحين تغير كل شيء تغيراً كلياً في المجتمعات التي اختبرت هذه الظواهر وتلك التي انحدرت منها، بما في ذلك مجتمعاتنا. وبرزت من شعوب الوادي تلك، ومن خلال طاقة استثنائية عمليا وفكريا، الثقافات الرائعة لمصر الفرعونية وسومر،والأولى هى الأكثر إنسانية وسحراً وجلالا من بين المجتمعات القديمة؛ بينما الثانية هي الأكثر ابتكاراً وديناميكية.

ولم تقلل اكتشافات ما بعد الحرب من روعة منجزات الشعبين الشهيرين اللذين أنجبا تلك الحضارات. وينسب الفضل للسومريين في أصل الممارسة الإنسانية في البناء والعيش في المدن، وبالتأكيد كان على لفظة مدينة أن تنتظر بزوغ دولة المدينة السومرية في أوائل

الألف الثالث قبل الميلاد حين تكون المدينة قد اكتسبت صيغتها المميزة، من حيث التنظيم الهرمي، والتنظيم والبناء كي يتعرف الإنسان المعاصر شيئا شبيهاً بما لديه. ولكن قبل آلاف السنين حتى بدايات المدن السومرية التي تأسست في إريدو (Eridu) على جزيرة صغيرة في أقصى جنوب مستنقعات ما بين النهرين- وكانت قد بنيت في أريحا مستوطنة محصنة على عشرة هكتارات (حوالي ٩٠٠٠ قبل الميلاد) بعيداً إلى الغرب في فلسطين. وقد حمت أبراج مراقبة ضخمة أسوار أريحا من غزوات قبائل الصحراء الوحشية التي سعت للسيطرة على الآبار التي حفرها ونظمها شعب أريحا من أجل اقتصادهم في الألف العاشرة قبل العهد المسيحي (الميلاد). والأروع من ذلك على ما يبدو - وقبل ٣٠٠٠ عام من تشييد أولى المعابد على جانبي نهر النيل المفعم بالآلهة، أقيمت المزارات المزينة بالرسومات تحمل الدليل على الشعائر والعبادة المعقدة داخل المدينة التي ازدهرت فوق سهل الأناضول على موقع أكبر من موقع أريحا بثلاث مرات.

وحتى في هذه الفترة البعيدة الغامضة من تطور الإنسان، على الأقل منذ ٧٠٠٠ سنة خلت، انتعش الفن المتطور والذي كان أكثر المنجزات الإنسانية روعة. فمنحوتات ورسومات أبناء المدن الأناضولية لها صفة غريبة ومخيفة. ويبدوأن آلهتهم الرئيسة كانت إلهة ضخمة ولود، مرسومة مع حارس صبي تستند على نمرين، وتتجلى قوتها في الثيران . ويبدو أن عبادة الثيران كانت إحدى الشعائر في كتال هيوك، (Catal Huyuk)* والتي كان لها تأثيرها في ثقافات بعيدة إلى مناطق جزر الخليج، ومصر، وكريت في بحر إيجة. وبعد بضع قرون من الحياة الثرية، اختفت المستوطنات الأناضولية وخيم ليل طويل حتى بزغ فجر ثان جديد لتلك الحضارات التي كان لها أن تضع النسق لجميع الأجيال التي لحقت بها. وباختراع الكتابة في أول عهدها في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، بدأ التاريخ وبدأ معه سجل الإنسان الحضرى.

---

* موقع أثري بالأناضول (د. السقاف).

لقد أتت لحظة في خبرة الإنسان حين كان كل شيء جديد تحت الشمس. ولكثير من الناس، المثقفين ثقافة تقليدية، كان العالم القديم يعني صورة ذاتية وغالباً عاطفية لحياة شبيهة بالحياة في اليونان و روما . ودعم هذا الرأي المربون في القرن التاسع عشر من أمثال وتكلمان، والدكتور آرنولد، غالباً لإرضاء حاجاتهم العاطفية الخاصة وتبرير السلوكيات الخلقية والسياسية في أوروبا في أيامهم. وفيما عدا ذلك، وبإيماءة عابرة إلى المصريين، يمكن حل مشاكل عصور التاريخ الإنساني الغابرة بسهولة بالاعتماد البسيط على نصوص الكتاب المقدس.

الأسطورة والمعتقدات الدينية وقصص الجنيات لا تعترف بالحدود. فطوال التاريخ الإنساني شعر معظم الناس أنهم مجبرون على البحث عن الزمن الذي كان فيه العالم فتيا وحرا، حين كان الإنسان والحيوان يعيشون معا. وفي عملية البحث هذه، والمتمثلة غالباً ببلاد خيالية تعمها البراءة والوفرة، أعلن الإنسان احتجاجه على وضع إنسانيته المضطربه المحمله بالإثم. ومن خلال حاجته لتفسير وجوده جاء أمله بأنه لم يكن وحيداً كلياً وأن العناية الإلهية قد رعته قليلاً. وهكذا أوجد الإنسان كوسيلة للمواساة ، سلسلة من الأساطير الرائعة بحثا عن جنة عدن، فكشف عن شيء مما تاق إلى أن يكون عالمه مثله.

ومع الكشف عن العصر الجيولوجي للعالم، بدأ حتى أكثر أنصار جنة عدن التي وضعها الكتاب المقدس يفقدون الثقة في قدرتهم على اكتشاف المكان الذي بدأ فيه تاريخ خطيئة الإنسان على وجه الدقة. والاكتشاف الذي هدم الكثير من البحث الديني في ذلك العصر، والذي عجل في تدنيه من مرتبة النبوغ الأثري إلى المكان الثانوي نسبياً الذي يحتله اليوم كان كشف الحضارات القديمة في سهل ما بين النهرين الواقع بين النهرين العظيمين، دجلة والفرات، وحولهما. وكانت هذه المنطقة على الدوام في المرتبة العليا بين المتنافسين على موقع جنة عدن المزعوم، لكن تاريخها كان ضبابيا أبعد من الأزمنة الحديثة نسبياً ، والذي تطرقت إليه كتب تاريخ الشعوب اليهودية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع

عشر تبين أن تاريخ بلاد ما بين النهرين كان قد تخطى حتى زمن الآشوريين والبابليين، وكان على قدر من الأهمية لدرجة أن اسمهم أطلق ذات مرة على دراسة المنطقة برمتها. وأخيراً، كشف الباحثون الذين لم يثقلهم حمل ضرورة إثبات تاريخية الكتاب المقدس في بلاد ما بين النهرين ثقافة لا شك فيها أبداً، إنسانية وعالية التعقيد والحساسية والأدب مع تلميحات عن الروعة المعمارية والفنية نافست جلال مملكة مصر القديمة ، أولعلها ساهمت فيه.

في أساطير وخرافات السكان الغامضين لهذه البلاد اكتشف النموذج الأصلي لجنة عدن، ليس مجرّد موقع جغرافي يصلح لوضعه على الخريطة، ولكن على أنه المكان الذي تشرق منه الشمس، أرض تهفو النفس إليها،وهي الموطن الأصلي للآلهة والإنسان. وباختصار، اكتشف الآن الأصل المحتمل للأسطورة التي تردد صداها لأكثر من ٢٠٠٠ عام بعد كتابتها لأول مرة على يدي مؤلفي سفر التكوين.

وحين اكتشف المزيد عن الشعب الذي أبدعت بصيرته الشعرية أسطورة الجنة الأرضية، كشف المزيد أيضاً عن العديد من أكثر معتقدات خلفائهم رسوخاً. وهذه المعتقدات، المتناقلة عبر حكايات نيران مضارب خيام القبائل الرحل الذين عاشوا على الغزو على تخوم الثقافات المتفوقة تفوقاً شاسعاً، انتقلت بدورها إلى العبرانيين، والإغريق والرومان ومن ثم إلى العالم المعاصر.

ولقد أطلق سكان جنوب بلاد ما بين النهرين القدماء على بلادهم اسم سومر، أوعلى وجهة أكثر دقة، نطقوا بها "شومر" . كما أطلقوا أيضاً على أنفسهم ، أصحاب الرأس الأسود" . وكانت حضارتهم أقدم الحضارات العظيمة التي تكتشف بأي قدر من التفصيل حتى ذلك الحين. وتراثهم الذي أورثونا إياه لا يقدر بثمن ، ومع ذلك ظلوا غير معروفين نسبياً بالمقارنة مع المصريين. ولعل ذلك عائد إلى كون التراث المذهل لمصر القديمة قد وصل إلينا على هيئة صخور ومعادن ، بينما خلف لنا السومريون هدية من الكلمات والأفكار

والأساطير التي اكتشفت على أنها لهم فقط بعد ٤٠٠٠ سنة من انتهاء وجودهم كأمة. وكان اختراعهم الهائل والذي يشكل مجدا خاصا هو ابتداع الكتابة، ولم يعرف نظام للكتابة غير نظامهم من قبل. ولولم يقم السومريون بأي شيء آخر، لظل الجنس البشري مديناً لهم إلى الأبد لأكثر الاختراعات نفعاً من بين جميع الاختراعات العظيمة. ولكنهم قاموا بما هوأكثر من ذلك بكثير.

ولقد أدى اكتشاف أن لأسطورة جنة عدن أصلٌ في سجلات السومريين إلى مسعى آخر، ألا وهو موقع جنتهم الأرضية، ويكتب اسمها اليوم " دلمون". وكان علماء آثار السومريين على أرض أكثر صلابة من أسلافهم الكتابيين، إذ سرعان ما اتضح أن دلمون كانت بالنسبة للسومريين ومن بعدهم الأكاديين والبابليين والكاستيين والآشوريين جعلت دلمون أرضا خرافية وموقعاً جغرافياً على حد سواء.

ولم يجعل العبرانيون من فردوسهم سوقاً، ومع ذلك كانت أساطير السومريين حول وجود الإنسان البدائي في أرض الأحياء المباركة (أحد أكثر نعوت دلمون تكرارا) تقارن بسجلات واقعية لشحنات التمور والبصل والأحجار والمعادن والأخشاب واللؤلؤ التي تأتي من دلمون. وبالنسبة للذين يجدون مثل هذه المساعي في مسالك البحث أمرا مقبولا فإن دلمون كانت أرضاً تستحق البحث عنها، فهي أكثر إنسانية من جنة عدن، وأكثر سعادة بتراثها للإنسان. وفي الواقع، فإن أي تمييز بين دلمون الأسطورية ودلمون التجارية تمييز مصطنع وغير وارد في أي مصادر سومرية. فالإلهات وربابنة البحر ممتزجون دون تمييز في الآثار الأدبية. واشتملت منتجات دلمون على النحاس والتمور والبصل مشحونا إلى حواضر «أور»، ودورة كاملة من النباتات نبتت في مكان اجتماع الآلهة. فهي مقر «زيوسودرا»، النسخة السومرية عن نوح، وصغار الملوك المنحنين باحترام أمام الحكام المطلقين المدعين المعينين من ذات أنفسهم لحكم بلاد ما بين النهرين.

حول موقع دلمون

وحتى القرن التاسع عشر أونحو ذلك كان هنالك جدل أكاديمي جدي حول مسألة أين يمكن أن تقع دلمون؟ ورغم الحدة التي تتسم بها مثل هذه الخلافات، فإنه لايمكن القول بأن الجدل حول دلمون قد احتد، حيث إن العلم الدلموني علم متواضع.

وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر استقرت الرؤية الأكاديمية على أن حاضرة دلمون، الفردوس الأرضي والسوق المنتعشة، كانت تقع في الكثير من تاريخها في البحرين. وكانت هذه التسمية تضم من حين لآخر مناطق أكثر اتساعاً من الأرخبيل المرتبط بهذه التسمية في الوقت الحاضر.

وكان أحد الألقاب المستخدمة مراراً للخليج ذاته " بحر الشمس المشرقة". وهذا يبين خطورة التعامل مع القدماء بجدية في مسائل الوصف الجغرافي. فلا أحد يمكن أن يصدق أن السومريين كانوا على هذا القدر من البلاهة أوضعيفي الملاحظة حتى يتخيلوا أن الشمس تشرق من جنوب بلادهم، وهو ما يمكن أن يكون الاستنتاج الوحيد إذا أخذت عبارة " بحر الشمس المشرقة " على حرفيتها.

وسوف يطرح السؤال لاحقا في هذه الدراسة فيما إذا كان السومريون قد أتوا من بلاد ما بين النهرين من الجنوب: فإذا كانوا قد أتوا بمحاذاة الطريق المحيط بشواطئ الخليج الغربية، فإن من المفهوم أن الخليج حصل على هذا الوصف من ملاحيه الأوائل متمحوراً على الشواطئ العربية الأمامية ومتطلعاً نحوالسماء الشرقية. فمن اليابسة العربية تبدوالشمس بازغة عبر البحر، خارج البحرين ذاتها، التي من شأن بروزها الأوسط - جبل دخان - أن تقع عليه أشعتها الأولى، لكنها مقدمة لا سند لها البتة. فمحور الخليج يمتد من الجنوب إلى الشرق وكلما أبحرت السفينة جنوبا في مياهه تحول المحور أكثر فأكثر من الغرب إلى الشرق. وهكذا، في خط عرض البحرين، مبحرين جنوبا باتجاه مضيق هرمز، فإن الشمس

ستشرق على ما يبدومن أفق البحر الشرقي. ولكن بالمثل، من خط عرض أور، إحدى أهم المدن السومرية، وفي أوقات معينة من السنة، تبدوالشمس مشرقة إلى الجنوب والشرق، وبعبارة أخرى فوق الخليج العربي.

وكانت النخلة على وفق تقاليد سومر قد جلبت إلى أرضهم من الخليج، وقد نظر السومريون إليها باحترام نظراً لجدب أرضهم، للإكثار منها. كما أنهم دمروا العديد من الغابات والنباتات في سعيهم لتوفير الوقود لواحدة من صناعاتهم المستقرة، وهي صهر النحاس. ولكن النخلة كانت الفائقة في تقديرهم إذ كانت مكرمة في الشعائر والأساطير. ففي ترنيمة مكرسة لننسينا (Ninsinna)، تعلن الآلهة عراقة مدينتها ايسن (Isin) فهي أقدم حتى من دلمون، وتقول: " بيتي وجد قبل دلمون، وكان طرازه من شجر النخيل." وتعترف الآلهة هنا بالدور بالغ الأهمية الذي لعبته النخلة في معتقدات وأساطير السومريين. ولأنها تنمومستقيمة وطويلة، فقد كانت « شجرة الحياة » للسومريين، وهي مصورة كذلك في فنهم. وتقليدياً، كانت النخلة قد جلبت من دلمون، وهي مكررة في نقوشهم وعلى أختامهم (التي نشأت صيغتها على الأرجح في البحرين). وكانت مستنبتة بصورة مكثفة في البساتين المزروعة جيداً في أرجاء سومر. وكان الناس قد اكتشفوا مبكرا القيمة السُّعْرية العالية للتمر، ومارسوا التلقيح الصناعي لأشجار النخيل لتعزيز نموها في بلادهم الخالية من الأشجار. من المعروف أن شجرة النخيل زرعت حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في جنوب العراق، وهي أحد الانتصارات التقنية للسومريين الدائبين على الابتكار. وعلى الرغم من أنه يحتمل ألا تكون شجرة النخيل موجودة الآن في حالة برية حقيقة، إلا أن أجزاء من الجزيرة العربية الشرقية عليها أعداد من النخيل غير المزروع ولا تعود إلى مناطق كانت مزروعة في القدم أو عرفت أنشطة الإنسان الأخرى. ولعل بعضها بقايا معدلة من الأصول البرية، ومن الممكن أن تكون أشكالها المزروعة قد تطورت هنا في المنطقة الساحلية للخليج العربي، كما كان السومريون أنفسهم يعتقدون.

كانت أشجار النخيل في دلمون على قدر من الشهرة حتى إنها دخلت اللغة العامية للسومريين على أنها معيار الامتياز. وهكذا يقال إن الملك يعز بمقدار " نخلة من نخيل دلمون" . وعند تمجيد مدينة نيبور (Nippur) المقدسة ، مسكن سيد الآلهة إنليل (Enlil) بذاته، يقول المرنم" : مدينتي نيبور وجدت قبل دلمون، وقد نبتت فيها شجرة النخيل" . وهذا بالطبع احتفاء بعراقة دلمون .

هنالك مديح شجي للشجر من إحدى شعائر تموز الدينية التي تذكر دلمون: وكان تموز يدعى « ديموزي » إله النبات والمزروعات السومري.

على يميني أرزة ، وسروة على يساري،

أمي الحبلى أرزة مكرسة

أرزة من هاصور

شجرة سمراء من تلمون.

ويذهب البعض إلى أن هاصور تمثل منبع النهرين العظيمين في سومر ، دجلة والفرات، وتلمون (اللفظ السومري لدلمون) مصبهما. وهذا أيضاً إشارة إلى الفكرة القائلة إن ينابيع البحرين الجوفية ومقاطعة الإحساء في المملكة العربية السعودية كانت متعلقة بالأنهار وليست جزءا من طبقة المياه الجوفية في الجزيرة العربية كما نعلم في الحقيقة.

إن الإشارة المتكررة لدلمون في الكتابات السومرية والبابلية على أنها سوق جزيرة تابعة بلاد ما بين النهرين في أوقات لاحقة ، ومصدر لأفضل التمور في العالم القديم، معترفين بأن الساحل الشرقي لما يعرف الآن بالعربية السعودية كان متضمنا من حين لآخر في الوصف الجغرافي، فإن كل ذلك يؤكد وجهة النظر القائلة بأن دلمون كانت تقع في الخليج، وأن البحرين هي الموقع المقنع لمركزها. وإذا كان السومريون شعبا مهاجراً في جنوب بلاد ما بين

النهرين ، وإذا كانوا قد أتوا أصلاً من الجنوب فإن بروز يابسة الجزيرة الأول الذي أمكنهم تبينه في شمال الخليج الذي بدا لهم بحرا خطيراً غادراً، لابد أنه كان البحرين.

وهكذا فلا بد أن الجزيرة الصغيرة أثارت ذكريات امتنان من الشعوب التي أظلتها، ومن الممكن أن بروز الصخرة المتدلية في وسطها المسماة جبل دخان، وينابيع المياه العذبة المدهشة التي تترقرق في البحر حول الجزيرة ، قد أضافت لمسة من الغموض والدهشة على شواطئها. ومن الواضح أنها كانت أرضا تذكر بالآلهة.

وطالما خلبت الجزر ألباب الرجال ، وهنالك الكثير من الدلائل على أنها تمتعت في كافة أرجاء العالم القديم بسمعة خاصة على أنها أراضي الآلهة فكان لها قدسيتها. ولقد شاركت العديد من جزر البحر المتوسط في هذه الصفة من القداسة، وكثير منها أقاليم للآلهة الأم العظيمة الممعنة في القدم. ونظرا لأن الخليج قليل الجزر. فإن أكبر الاحتمالات أن أي شعب يستوطن شواطئه سيجعل أكبر الجزر أهمية حرما. ولقد كشفت ثروة الأدلة التي ظهرت في السنوات الأخيرة نتيجة للعمل الأثري الذي تم في البحرين المدى الكامل والمميز لتاريخ البحرين القديم وآثارها الفريدة.

ومنذ عام ١٩٥٠ ثبت أن البحرين كانت منذ أواخر قرون الألف الثالث قبل الميلاد مركزاً دينياً هاماً ، على قدر من الأهمية يجعل منها موقعا لمجمعات المعابد التي يغلب عليها الطابع السومرى الممتزج بتأثيرات أخرى. كما عثر على آثار عقائد دينية وحاجات يومية ذات طابع خاص ببلاد ما بين النهرين، ولايزال هناك الكثير الذي ينتظر الاكتشاف. وعلى الأقل ترعرعت مدينة واحدة هناك، فثلاثة من المواقع الرئيسة: قلعة البحرين، باربار (Barbar) ، وسار (Saar) مهمة بكل المعايير الأثرية.

ومن ناحية أخرى، فإن للبحرين حق فريد في دخول كتب التاريخ القديم في الشرق الأدنى، فهي غالباً ما توصف بأنها أكبر مدن الموتى في العالم القديم. ففي شمال الجزيرة

تغص الأرض بروابي أو شواهد المدافن بحيث تبدوكالصورة المألوفة لكوكب مات قديماً. وهناك مائة وسبعون ألف قبر (وربما أكثر من ذلك) دفن فيها شعب قديم غامض، وحتى عهد قريب، غير معروف.

ودلمون هي المكان الذي اختاره السومريون لتفسير أصول الزراعة والري، بل يعتقد أنها المكان الذي نشأ منه الإله الذي جلب سر العلم والكتابة وكل الفنون إلى سومر، كما أنها المكان الذي تجتمع فيه آلهة السومرين العليا التي كانت ميالة إلى اتخاذ القرارات بطريقة جماعية.

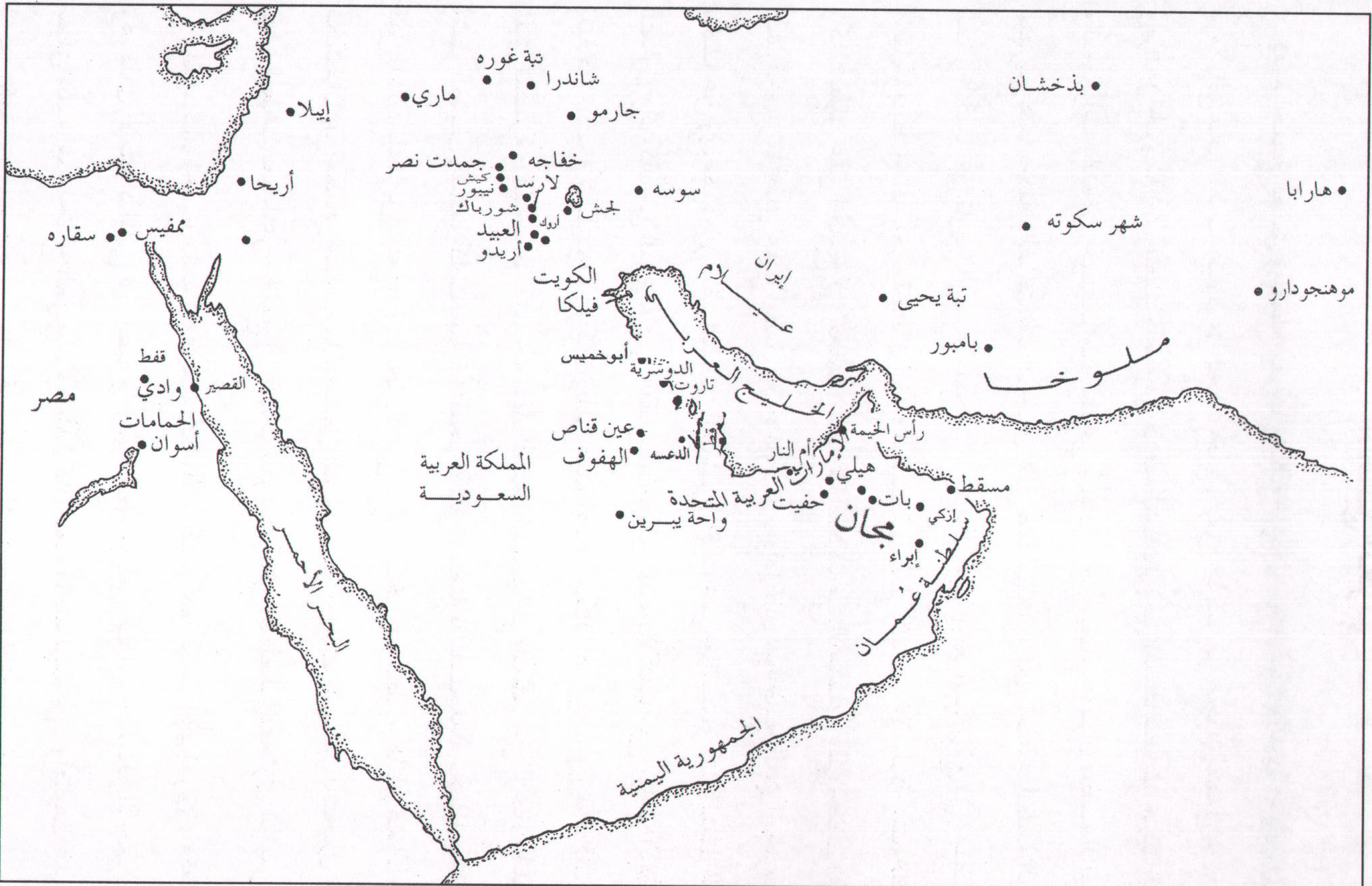
وعلى الرغم من أهمية موقع دلمون في سجلات التاريخ السومري وثقافات خلفهم الآكاديين والبابليين ، إلا أن حقيقة وجودها في قلب أقدم الأساطير الباقية المدونة خطياً، ممتعة بصفة خاصة في هذا العصر. وتحتل دلمون مكانا هاما في حكاية الطوفان السومرية الأصيلة التي ترتكز عليها بلا شك نسخة العهد القديم. وأسطورة الطوفان حادثة في تواريخ الملاحم الأولى في العالم (وأعظمها) التي تقدم أقوى وأكثر شخصيات الأسطورة القديمة صموداً البطل جلجامش. فحبه للإنسان يدفعه للبحث عن سر تجدد الشباب وهو سر اعتقد أنه موجود فقط في أرض دلمون المباركة عند التقاء المياه حيث يعيش زيوسودرا، الذي منحته الآلهة من بين جميع الفانين موهبة الحياة الأبدية (انظر الفصل العاشر)

وعلى صعيد آخر تماماً كانت السيطرة على تجارة دلمون موضع اهتمام واعتزاز ملوك بلاد ما بين النهرين. فمن مرافئها المكتظة خرجت شحنات الحجر والمعادن والمواد الغذائية والبضائع الأخرى الحيوية للاقتصاد السومري. وظلت الطرق التجارية مفتوحة مع جنوب الجزيرة العربية، بل على الأرجح مع مصر أيضاً، وأخيرا وفوق كل شيء مخرت سفن دلمون شرقا إلى حضارة وادي الهند الشاسعة والمحيرة.

الخليج العربي

يقوم الخليج الضيق والمضلع تقريباً والبالغ طوله ١٠٠٠كم ، والذي حتى بروزه عبر مضيق هرمز إلى بحر العرب عبارة عن بحر داخلي، يقوم بأكثر من مجرد الفصل بين الجزيرة العربية وإيران (الخريطة١) . فعند رأسه في طرفه الشمالي في المستنقعات حيث تبدو السماء والبحيرات والبحر جميعا متحدة في كيان واحد،يغذيه نهران عظيمان في بلاد ما بين النهرين هما دجلة والفرات اللذان جرى على ضفافهما وعلى امتداد أنظمة الري بالقنوات، القدر الكبير من تاريخ الإنسان المتحضر. ومن الناحية الجغرافية، يقع في وسط جنوب غربي آسيا، ويربط الحافة الغربية لتلك القارة العظيمة بأراضي الهضبة الإيرانية وشبه القارة الهندية. وكان يطلق على الخليج في العصور القديمة العديد من الأسماء. فإلى جانب «بحر الشمس المشرقة»، ربما أطلق عليه أيضاً " مياه الموت" . وإذا كان هوالخليج الذي أبحر فيه جلجامش بحثا عن زيوسودرا (انظر الفصل العاشر)، فإنه على ما يبدو كان لتلك العبارة بعض التداول وإن كان من النوع الأدبي. فقد كان يطلق عليه بالآكادية في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد «تانتيوم شابليتوم». وكان يطلق عليه أيضاً "مكان العبور"، أو ربما مكان الحكم، وربما تليق تسمية " البحر المر" بملوحة المياه الضحلة نسبياً في الكثير من أرجاء الخليج خاصة في أشهر الصيف، بينما كانت عبارة «البحر الأدنى» العبارة المستخدمة تكراراً منذ الألف الثالث قبل الميلاد للتفريق بينه وبين البحر الأعلى ، أي البحر المتوسط. وهاتان هما العبارتان اللتان تكشفان عن مصادرهما من بلاد ما بين النهرين، إلى جانب التبشير بالتحول التدريجي في نهاية المطاف بعيداً عن الخليج إلى البحر المتوسط كشريان العالم التجاري الرئيس.

ولقد كان الخليج بالنسبة لهيرودت والإسكندر هو البحر الإيريثري ، وتعني الأحمر، وهوذلك الامتداد المائي بين مصر والجزيرة العربية المعروف اليوم بالبحر الأحمر ، والذي كان يطلق عليه اسم الخليج العربي ، وهكذا كان معروفا لبطليموس. وأضيف على مياه الخليج البحر الأحمر، وبحر العرب كلها تحت اسم الايريثري في أوقات متعددة.



الخريطة الأولى للخليج العربي ، ما بين النهرين، عيلام، وادي السند ،وتبين المواقع الأثرية الواردة في الكتاب.

ومهما كان الاسم الذي عرف به، فقد كان الخليج في الألف الثالث قبل الميلاد بؤرة تطور ونشاط كبيرين . فعلى محاذاة الشاطئ العربي، وبخاصة على الجزر القريبة من الساحل ، قامت مستوطنات نمت إلى مدن كبيرة ومزدهرة . والمواقع الرئيسة لمثل تلك المدن التي تم تعرّفها حتى الآن وجدت على جزيرة فيلكا التابعة للكويت وعلى تاروت(Tarut) الجزيرة الصغيرة الواقعة قريباً من اليابسة السعودية ، وفي الداخل حول أبقيق، وعلى جزيرة البحرين ، والتي كانت في أوقات مختلفة المركز السياسي للمنطقة ؛ ومستوطنات في أبوظبي والإمارات الأخرى في الإمارات العربية المتحدة؛ وفيما يبدومدن صغيرة متعددة في سلطنة عمان، حيث كان يستخرج النحاس الذي كان السلعة التجارية الأساسية للمدن الأولى في بلاد ما بين النهرين .

مدن سومر

كان النمو غير العادي للحضارة المدنية في جنوب ما بين النهرين أكثر الأحداث إثارة للدهشة في الفترة المتأخرة من الألف الرابع قبل الميلاد لكون الأرض التي نمت وترعرعت عليها المدن السومرية أرضاً قاحلة خالية تماماً من المواد الخام – كالأخشاب والحجارة والمعادن – التي تعتمد عليها المدن في صناعاتها التحويلية سريعة التطور . فهذه كانت متخصصة ومنظمة تنظيماً جيداً من الأصل مما أدى إلى إنتاج فائض أكبر بكثير عن حاجة المواطنين . ووسع اختراع القارب الشراعي آفاق المدن المجاورة للنهر توسيعاً جوهرياً مما أتاح لهم الخروج في حملات إلى مسافات كبيرة بحثاً عن المواد الخام التي كانت تفتقر إليها بلاد ما بين النهرين وبحثا عن أسواق لتصريف الفائض الصناعي الذي كانت تنتجه اقتصاديات المدن المنتعشة .

وبعد الخبرة الأولية المكتسبة من السفن النهرية الأبط الأصغر ، والتي لاشك غامرت أحياناً إلى المياه المفتوحة نسبيا في الأهوار التي كانت تقع جنوب بلاد ما بين النهرين مترعة بها، يمكن توقع تجارب تصاميم بحرية أكثر جرأة . وقد تم تطوير الشراع وبالتالي قدرة

القوارب على الحركة في مواجهة الرياح، فكان بالإمكان التفكير في رحلات إلى مدى أكثر بعدا ، بينما كان بالإمكان بناء سفن تفوق حمولتها من حمولة القوارب التي تحركها المجاديف ، وخروجها في رحلات بعيدة المدى. ومع ذلك كانت القوارب الشراعية التي اعتمدت عليها هذه الرحلات بعيدة المدى صغيرة، إذ كانت إزاحة القارب النموذجي في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد تقدر بتسعة عشر طنا. وكان مداها محصوراً في مقدار الماء العذب الذي استطاعت حمله، وكان ربابنتها بحارة يتسمون بالحذر ويفضلون الابحار بوعي بحذاء الساحل، ويتوقفون مرارا طلبا للماء والمؤن الطازجة للمرحلة التالية من الرحلة. واستطاع الساحل العربي وحده أن يقدم لهم المأوى والتسهيلات المطلوبة: وكان الساحل الفارسي أقل حظا من الموانئ الطبيعية والمداخل بينما حالت شواطئه الجرداء الصخرية دون ظهور اليابسة.

والفوارق بين شطيه هي التي أعطت الخليج بكامله شخصيته التاريخية ، فعلى ساحله الغربي قدمت الجزر المأوى للسفن ، كما وفرت الماء والطعام، وعملت كقواعد آمنة نسبياً لعمليات الشحن والتفريغ الداخلي وإعادة التصدير على السواء. والماء في الجانب الغربي ضحل، وهذا مناسب لتفريغ وتحميل البضائع. وعلى الجانب الشرقي بالمقابل فإن الماء عميق حيث ينحدر قاع الخليج بشكل حاد، والساحل غالباً شديد الانحدار، وأقل سخاء من الجانب العربي. ويبدوأن الجزر الواقعة على الجانب الشرقي للخليج ، عدا بعض تلك التي تقترب من مدخله عند مضيق هرمز، لم تحظ بالقدر ذاته من الأهمية التي حظيت بها الجزر على الجانب العربي ، فالعديد منها جزر جرداء.

وتكمن الشخصية الفريدة للخليج، تاريخياً بقدر ما هو أثرياً، في كونه ثقافة جزر، الوحيدة ذات الأهمية في نصف الكرة الغربي في الزمن القديم. وهذه الحقيقة هي التي تعطي الخليج في الأزمنة الغابرة شخصيته الخاصة، وتصبغه بصفات تجعل منه شيئا مختلفا عن أي ثقافة عالية من ثقافات العصور القديمة.

ولقد قامت التجمعات السكنية المنتشرة على طول الساحل الشرقي للجزيرة العربية منذ نشأتها بالعديد من الوظائف : أولا، كانت نقاطاً ملائمة للتزود بالمواد اللازمة، على الأقل قبل الرحلة الطويلة من عمان إلى مدخل وادي الهند البعيد شرقا؛ وثانياً، وفرت الوصول إلى المواد الخام التي كانت بلاد ما بين النهرين بحاجة لها؛ وثالثا، وفرت المستودعات والمنافذ للبضائع المصنعة التي كان بالإمكان تبادلها مع شعوب المناطق النائية.

وبالإضافة لدورها كمخازن، وأماكن شحن سواء أكانت مواد خام أم منتجات صناعية، كانت بعض المدن الساحلية ذاتها مراكز إنتاجية. وهكذا، وفي فترة من الفترات، قامت في البحرين صناعة صهر النحاس لتحول الخام الذي استخرج في عُمان إلى سبائك ؛ كما كان يصهر أيضاً في عُمان نفسها. أما الزراعة ، وبصفة خاصة زراعة النخيل والبصل، فكانت عنصراً هاماً في اقتصاد شرقى الجزيرة العربية على الأقل منذ الألف الرابع قبل الميلاد فصاعداً، كما كان صيد السمك هو الأكثر خصوصية والطريقة النموذجية للحياة القائمة في المنطقة منذ قيام أقدم المستوطنات.

وهكذا فإن وجود أدوات حجرية صغيرة ، في أواخر الألف الخامس وأوائل الألف الرابع ق.م، في مواقع في شرق الجزيرة العربية ، مثل المخارز والمقادح، توحي بوجود صناعة صيد اللؤلؤ، أهم صناعات المنطقة حتى عهد قريب. وتوحي تلال نفايات المحار الضاربة في القدم في مواقع في البحرين ومواقع أخرى بأن مصايد المحار كانت تستغل لاستخراج اللؤلؤ وليس لمجرد توفير إضافة راقية على مائدة سكان المنطقة. وحقيقة فإن صيد السمك احتل مكانة في الأيديولوجية والتكوين الفلسفي للسومريين بادية من خلال عراقة معتقدات الدينية المتعلقة بالسمك في المنطقة وبتعرّف واحد على الأقل من آلهة سومر العالين ، «إنكي»، الذي له صلات معتبرة بالبحرين والخليج ، والسمك وصيد الأسماك.

وشأنها شأن منجزات البشر الأخرى كلها، كان مُقَدَّراً لعلو مكانة الخليج كطريق بحرية

تجارية أن تستمر لبعض الوقت فحسب. ومع حلول القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد كان محور السياسة والتجارة العالمية قد أخذ بالانحراف بعيداً عن الشمال والغرب إلى الشرق ، ومن ثم إلى شرق المتوسط وإلى بلاد بحر إيجة والتي كانت قد بدأت في الظهور. ومن الممكن أيضاً أنه كان هنالك شكل ما من أشكال نزوح السكان من الأراضي الخليجية العالية إلى الساحل الشرقي، وربما بفعل تغيرات المناخ البارزة قصيرة المدى والتي يبدو أن المنطقة قد تعرضت لها دائما ، أو بفعل عدم مقدرة المستوطنات الساحلية على دعم مستوى السكان المتطور إبان الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. ولعل مثل هذا التغير الجذري قد حدث نتيجة للغزوات في الشرق والشمال، والتي يبدو أنها قد عصفت بكل شيء في وقت من الانشقاق والارتباك السياسي في طول وعرض بلدان الشرق الأدنى، خصوصا بين دول المدن في جنوب بلاد ما بين النهرين في القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد.

تاريخ الخليج المتأخر

غرق الخليج وجنوب الجزيرة العربية في بحر من النسيان النسبي بعد القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد، مع دخول عرضي بعض الأحيان في السجلات المعاصرة لتبديد الغيوم التي تخيم على العصور. وكان حكام بلاد ما بين النهرين يزعمون من خلال التقاليد واسترجاع رونق الفاتحين القدماء يدعون السيادة على الخليج بقدر ما كان ذلك بدافع الحاجة الحقيقية للسيطرة على ما كان قد أصبح حرفيا موضعا خلفيا منعزلا. واستمر هذا الوضع الذي استمر لما يزيد على الألف عام ، وحوالي القرن الثامن قبل الميلاد ، ظهرت أدلة على عودة الرخاء والازدهار شرقى الجزيرة العربية وجزر الخليج.

ونتجت هذه النهضة في المنطقة – والتي يحددها تطور المدن التي كان ثراؤها ورخاؤها مضرب المثل– مباشرة من الثروات المصاحبة لتجارة التوابل ، والتجارة غير العادية في

العطور مثل البخور والمر الذي كان ينمو بوفرة في جنوب الجزيرة العربية ، والتي أوجدت تجارتها مجتمعات كان هدفها خدمة القوافل أوجبي المكوس (الجمارك) منها . ولقد جعلت هذه التجارة المدعومة باستئناس الجمال على نطاق واسع الطرق بعيدة المدى أمراً ممكناً، مقارنة بمداها مع الطرق البحرية القديمة،ودفعت بالجزيرة العربية مرة أخرى إلى بؤرة اهتمام القوى الكبرى في العالم في ذلك الزمان .

ولقد كانت تجارة التوابل يوم ذاك عاملاً هاماً في اقتصاديات الجزيرة العربية في الألف الأول قبل الميلاد، قدر أهمية النفط الخام وصناعة النفط التي نمت لاستغلاله، في الجزيرة العربية في الوقت الحاضر. ولقد تأسست جرها (Gerrha) في شرق الجزيرة العربية قرابة عام ٦٩٠ قبل الميلاد وقيل عن شعبها على لسان ارغترشيدس أنهم كانوا أغنى شعوب العالم .

ولقد أقام نابونيدوس Nabonidos (٥٨٩-٥٥٦ ق م) آخر أباطرة البابليين عاصمته في تيماء في شمال الجزيرة العربية، كما تم الكشف عن مدافن في البحرين يعود تاريخها إلى البابلية الحديثة. ومما لاشك فيه أن البابليين كانوا هناك بغرض التجارة كما توضح نقوش ذلك العصر.

اليونانيون وأصل المدن الشرقية

لقد تزامنت عودة الجزيرة العربية إلى بؤرة اهتمام العالم مع وعي الموجات الأولى للفضول العلمي الجاد المصحوب بديناميكية فكرية للعالم اليوناني الصاعد . فمن أيام هيرودوت فصاعداً بدأ ظهور أخبار الخليج وشرق الجزيرة العربية في الكتابات التاريخية والجغرافية والأبحاث العلمية الأخرى التي أبدع الإغريق وخلفاؤهم الرومان في إنتاجها .

وفي بداية كتابه الأول يتبصر هيرودوت طبيعة الإغريق و "الآسيويين" (الفرس بعبارة أخرى) وأصول صراعاتهم. وبالنسبة للفرس يقول إنهم يلقون مسؤولية الصراع على الفينيقيين الذين يقول علماء الفرس إنهم " أتوا إلى بحارنا من البحار المسماة الحمراء،

وأقاموا في البلاد التي لا يزالون يحتلونها، وشرعوا في القيام برحلات بحرية طويلة" . وفي الكتاب السابع ، حين يحلل تركيبة قوات زيركس يسرد كيف " أسهم الفينيقيون والسوريون من فلسطين بثلاثمئة من رجال القبائل. . . هؤلاء القوم لديهم تقليد أنهم عاشوا في الأزمنة القديمة في الخليج العربي لكنهم هاجروا إلى الساحل السوري حيث يوجدون اليوم" .

وأصر شعب صور، تلك المدينة القديمة التي اتسمت بالفخامة فيما مضى ، على أصلهم الخليجي. وكان يطلق على الجزيرة الرئيسة في البحرين ذات يوم اسم « تايلوس ». وعلى أية حال ظهرت تايلوس متأخرة في التدوين ، وبالتأكيد بعد قيام صور. وحتى العهد القديم، الذي لا يعتمد عليه دائماً في دقته التاريخية، يحتفظ بذكرى صور بالارتباط مع جنة عدن. وهكذا في سفر النبى حزقيال يقول: "آه يا صور، لقد قلت: " أنا كاملة في الجمال". حدودك في قلب البحر. . . لقد كنت في جنة عدن، جنة الله: كل حجر ثمين كان غطاء لك."

ويمكن ملاحظة أنه في هذه الترجمة على الأقل، يقال إن حدود صيدا في قلب البحر، وهو وصف غير ملائم تماماً لمدينة ساحلية لا يمكن القول إنها في قلب البحر، لكنه ملائم تماماً لجزيرة.

ولم يكن هيرودوت أول من حقق في الاعتقاد بأن الفينيقيين قد جاءوا أصلاً من سواحل الخليج، وبصفة خاصة من الجزر. فلقد كان معاصراً الإسكندر ، أندروسثين واحداً من الذين اقتبس مؤلفون كلاسيكيون بإسهاب من عملهم الضائع الآن، ومن بينهم سترابو الذي كان الأكثر تأثيراً. فهو يدون التقليد القائل إن سكان جزر الخليج في زمانه (القرن الأول الميلادي) اعتقدوا أن المدينتين الفينيقيتين صور وصيدا كانتا مبذورتين بمستوطنين من جزر الخليج التي حملت أسماء مثل تايلوس (Taylus) وعراد (Arad) [البحرين والمحرق كما هما معروفتان اليوم].

ولقد تم مراجعة الدليل بشأن الاستيطان الخليجي للساحل الفينيقي، والمصداقية المحتملة للتقليد المشار إليه هنا في السنوات الأخيرة. وهذا يقبل بالتقليد الفينيقي كما يرويه هيرودوت ، على أنه تعبير حقيقي عن قناعات هؤلاء الناس حول أصولهم ، كما يوحي أيضاً بأنه في القديم المتأخر انتشر هذا الاعتقاد حول أصول الفينيقيين انتشاراً واسعاً.

وهنالك اعتبار تجاهله المفسرون الآخرون تجاهلاً كبيراً، إذ ويسترجع سترابو إشارة في الأوديسا يتحدث فيها هوميروس عن الصيداويين بالارتباط مع شعوب جاؤوا من شواطئ ما يعرف اليوم بالبحر الأحمر. ويفترض سترابو أن هؤلاء الصيداويين ليسوا في الحقيقة سكان صيدا ، بل أولئك الذين يسكنون في الخليج العربي و الذين انحدر منهم الصيداويون الأصليون، ويرسم متوازيا بين الصيداويين وسكان صور وعراد كمستوطنين بالمعنى نفسه من جزر الخليج .

وفي الزمن القديم المتأخر، في العالم اليوناني – الروماني على الأقل، كان هناك تقليد واسع الانتشار يتعلق بأصول المدن الساحلية الفينيقية، بأنها كانت مستوطنة من جزر الخليج. بل إن هيرودوت يحدد تاريخا يعتقد أن الهجرة الأصلية تمت فيه ، وهو ٢٣٠٠ سنة قبل عَصْرِهِ. وكان هيرودوت يكتب في قرابة عام ٤٥٠ قبل الميلاد ، مما يعني أن الهجرة حدثت حوالي عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد. وهذا بالتأكيد في أواسط الفترة التي في الحقيقة لا يوجد فيها إلا دليل ضئيل على الاستيطان في البحرين، وإن كان يبدو أن قدراً كبيراً من الاستيطان كان جاريا في المقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية. وعلى أية حال ، يرتبط التقليد تحديداً مع جزر الخليج وليس هنالك سبب يدعولافتراض العكس.

وغالباً ما يكشف واحد من جوانب الكتابة التاريخية لهيرودوت على أنه لم يكن في أحسن حالاته، وذلك عندما يتعامل مع التسلسل التاريخي للأحداث، وهوالموضوع الذي كان القدماء يتخبطون فيه، كما هو الحال في فهمهم للاتجاه أوالمسافة. وإذا طرحنا من

تاريخ هيرودوت ألف عام، فإن التاريخ المحتمل لتحول السكان من الخليج إلى بلاد الفينيقيين يقع تماماً في نهاية الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، حين بدأت الثقافة الدلمونية الراقية والتي سادت طوال الخمسمائة سنة السابقة في الإضمحلال بصورة حادة. وهذه هي النقطة التي لم تعد عندها مدن وادي السند تمثل أسواقاً مربحة جاهزة في الشرق، وجاء سكان الجبال الكاشيون (Kassite) إلى المدن البابلية والخليج. ومن شأن الهجرة في هذا التاريخ أن تكون مقنعة، وبالفعل، هنالك دليل ما على حدوثها.

وفي وقت لاحق من هذه المراجعة للتاريخ الخليجي القديم سوف يخصص قدر من الاهتمام لموقع جزيرة فيلكا، في خليج الكويت؛ ففيلكا تبدو مرتبطة بشكل خاص بالأعياد والعقائد الدينية التي تتمركز حول الثيران. فإذا كانت فيلكا مشمولة في هذه الهجرة المزعومة، والتي يحتمل أنها كانت عملية تدريجية نسبياً امتدت عبر عدة أجيال بدلا من أي شكل من أشكال النزوح الجماعي (على الرغم من أن هنالك دليلا بالفعل عما بدا وكأنه إخلاء متعجل وسريع للجزيرة في الأزمنة البابلية القديمة)، فإن بعض القصائد الدينية المرتبطة مع الكثير من الأجزاء الغربية في العالم القديم، بما فيها تلك التي تخص الثيران في كريت على سبيل المثال، يمكن أن يكون لها أصول في جزر الخليج. ولقد سبق وافترضنا أن أحد تغيرات المناخ المتكررة قصيرة الأجل في الخليج يمكن أن تكون مناسبة وجد فيها السكان أن من الضروري تقليل عدد مستوطناتهم الأم والانطلاق بحثاً عن أماكن جديدة يقيمون فيها. وبما أن التجار الدلمونيين كانوا يسافرون إلى عمق سوريا وشمال الأناضول لقرون خلت فلا بد أنهم كانوا على علم تام بالساحل الفينيقي والأراضي الغنية التي امتدت وراءه. ولا بد أن ولعهم بالجزر الساحلية كان قد تحقق تماماً برؤية ما أصبح لاحقا صيدا وعراد.

واستمرت جزر الخليج في الظهور المتقطع في تقارير كتاب العصر القديم المتأخر، فبعد تلك الفترة بدت زاوية غرب أسيا هذه وقد دخلت في فترات من الإضمحلال النسبي،

المصحوب – بطبيعة الحال –بخروج من دائرة اهتمام العالم ومرة أخرى، يمكن أن يكون سبب الاضمحلال مناخياً أونتيجة حروب. ولم يشغل المؤرخون المسلمون أنفسهم كثيراً بالأزمنة السابقة للإسلام، على الرغم من أن القرآن ذاته كما سنرى لاحقاً، يقدم عنصراً لغزيا وغامضاً في تاريخ المنطقة، أوبعبارة أدق، في أساطيرها*. وفيما عدا ذلك، مرت قرون طويلة نسي فيها العالم الأهمية التي اكتسبتها المنطقة.

وبعد القرون الرائعة للإمبراطورية العربية ، حين دفع التعطش للتجارة السفن العربية عبر العالم من الخليج إلى الصين، تسبب العبث المغولي، وظهور الإمبراطورية العثمانية، والتمزق الداخلي، والغزو الخارجي في ركود غريب في بلاد الشرق الأوسط والأدنى. وعلى الرغم من أن مسافرين عابرين قد اخترقوا الجزيرة العربية وعادوا بروايات غريبة عن شعب بعيد ذي معيشة وتقاليد مختلفة بصورة ملحوظة عن سلوكيات العالم الغربي الذي كان ينمو واثقا أكثر فأكثر في دوره في إدارة الأمم، وهكذا تركت شبه الجزيرة لتنام دون إزعاج. ومع مرور القرون، انصب حمل البيروقراطية العثمانية على شرقي الجزيرة العربية، وامتد في أعوامه الأخيرة حتى قطر عبر الخليج على مقربة من البحرين.

الخليج في العصر الحديث

بدأ الخليج يدب في الوعي الأوربي مرة ثانية في القرن الثامن عشر الميلادي، وكان الشاب الدنمركي « كارستين نيبور »، أشد الرحالة صلابة وأكثرهم التزاماً، إذ جابه طولاً

* نختلف مع المؤلف في ذلك ؛فقد أيدت المكتشفات الأثرية والنقوش الكتابية الكثير من الإشارات التاريخية الواردة في القرآن الكريم فعلى سبيل المثال لا الحصر ما ورد عن الجنتين التي أشار إليهما القرآن في سورة سبأ أيدتهما النقوش السبئية المكتشفة ،وقصة أصحاب الأخدود أيدتها مجموعة من النقوش الحميرية .كما يجب التذكير بأن القرآن ليس كتاباً في التاريخ وبالتالي فهو غير معني بذكر تفاصيل الأحداث التاريخية وما يعرضه من إشارات في هذا الجانب تأتي في سياق خاص هدفه التذكير والاعتبار.(د. السقاف)

وعرضاً وكتب عنه التقارير في كتابه الرائع حقا الذي نشر عام ١٧٧٤م (بالطبعة الفرنسية) والذي استرعى بعض الانتباه المعتدل بين الباحثين والعلماء. وكانت قوة بريطانيا المتنامية في الهند العامل الذي حفز مع الزمن التغير الرئيس في المواقف الأوروبية، وأدى إلى إحياء الاهتمام العلمي بماضي المنطقة. وفي السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر نجحت بريطانيا المهتمة بحاجتها لحماية طرقها البحرية إلى الهند، والتي كانت حيوية لرخاء مدنها الصناعية الآخذة بالتطور، في استبعاد المنافسة الفرنسية في الجزيرة العربية وتخوم الخليج السفلية. وكان الوجود الفرنسي قد بدا يشكل تهديداً كبيراً لما كانت بريطانيا تراه سيادتها الضرورية في المنطقة. وكان الفرنسيون قد أقاموا موطئ قدم لهم في مسقط، وقام البريطانيون بطردهم منها عام ١٧٩٨م ودخلوا بأنفسهم في معاهدة مع حاكم عُمَان. ثم أطلت مشكلة أخرى برأسها قدر لها أن تستدعي عملاً بريطانيا، ألا وهي أنشطة القراصنة* المشهورين البشعة في شرق الجزيرة العربية.

وبالطبع فإن كلمة قراصنة هي العبارة التي أطلقها الأوروبيون على قطاع الطرق الذين أبحروا في مياه الخليج الجنوبية والذين كانوا يشكلون إزعاجاً كبيراً لحرية مرور السفن التجارية المبحرة من موانئ الإمبراطورية الهندية وإليها. ويفضل الكتاب العرب المعاصرون النظر إليهم على أنهم مناضلون من أجل الحرية يتسمون باستقلالية التفكير، ويقاومون وجود القوة الاستعمارية ، ويعتبرون أنفسهم أقدم بكثير من معظم الشعوب الأخرى .

وسواءً كانوا قراصنة أم مناضلين من أجل الحرية ، وغير هذا وذاك، فهم حقيقة بَدْوُ بَحْرٍ** رأوا أي غريب لا يخضع لحمايتهم صيداً سهلاً، مثلهم في ذلك مثل إخوانهم المقيمين

---

* أشار الأوربيون إلى أهل الخليج المدافعين عن أوطانهم بكلمة قراصنة ،بينما نعلم أن الأوربيين وعلى رأسهم الإنجليز هم الذين أتوا لاحتلال المنطقة في الخليج العربي(العبودي)

** لا يوجد مفهوم بدو بحر بل بحارة ،وهم يشكلون فئة من السكان تعيش على السواحل وفي الجزر ولها حياتها الخاصة (العبودي)

على اليابسة. فالبضاعة الثمينة التي كانت تنقل من الهند وإليها، بريطانية أوغيرها، كان لها أيضاً جاذبية لكونها محمولة على سفن الكفار مما يجعل نهبها عملاً من أعمال الجهاد مثلما هوعمل من أجل المكسب.

ولقد أدت سلسلة من المعاهدات الحكيمة مع شيوخ ساحل الخليج إلى قطع الدعم البري لِقُطَّاعِ الطرق في نهاية المطاف، وتوقفت أنشطتهم تدريجياً، ولوحظ غيابهم بأحداث درامية مرعبة من حين لآخر مثل واقعة القرصان القطري رحمة بن جابر. فحين حوصر في الخور بعد زمن من إزعاج لا يرحم للموانئ الساحلية والنقل البحري، احتضن رحمة عام ١٨٢٦ ابنه البالغ ١٠ سنوات من العمر في صدره، وأشعل حملاً من البارود في معقله، فنسف نفسه وابنه وسفينته، بعيداً عن الساحل، قرب الدمام في المملكة العربية السعودية. ومع محافظة البريطانيين على عين ساهرة على البحار حول الخليج، والنشاط الدبلوماسي البريطاني المنصب بصورة رئيسة على الشيوخ الذين كانوا أسلاف حكام الدول الحديثة، ظلت الأمور هادئة نسبياً طوال القرن التاسع عشر، يتخللها فقط اضطرابات عارضة حين كان الخلاف العائلي أوالقبلي بين الشيوخ وأتباعهم يتخذ أبعاداً لا يمكن تجاهلها. وكانت مثل هذه المناسبات التي تستدعي التدخل البريطاني نادرة؛ فقد سبق لبريطانيا أن نصبت نفسها مسؤولة عن العلاقات مع القوى الأجنبية التي يمكن أن يكون لها مصالح في المنطقة، من خلال معاهدات كانت قد أبرمتها مع الشيوخ. وهكذا منعت بصورة فعالة أية قوة أخرى غيرها الافادة مما كان يجري في زاوية من العالم كانت في أعين معظم المراقبين الأجانب بعيدة وغير ذات أهمية.

ليس غريباً في مثل هذه الظروف أن معظم المسح الأثرى المبكر والحفريات في الخليج قام به علماء وهواة بريطانيون؛ مع أن معظمهم كما سنرى لاحقا مثابرون على كتابة التقارير عن عملهم. ولم تعتبر منطقة الخليج منطقة يجدى البحث فيها حتى وقت قريب من القرن العشرين.

الفصل الثاني

تقدم علم الآثار في الخليج

يجد أولئك الذين يستمدون المتعة من ملاحظة الشعوب القديمة والأماكن التي عاشوا فيها، إثارة خاصة في وصف الكشف الأول عن الأدلة لحضارات مدفونة ومنسية منذ أمد بعيد، عثر عليها أولئك الذين تعرّفوها في الأصل ودونوا آثار حياتها وموتها. ويحمل التأثير والعفوية، وفوق ذلك كله، حماس تقارير الآثاريين عن تلك الإنجازات الصغيرة التي أصبحت لاحقا العملة الشائعة لعلم الآثار، يحمل ما هو أكثر من التعويض عن عدم الدقة العَرَضِيّة فيها، أو حتى الخيال المفرط في بعض الأحيان. ولا شيء يمكن أن يصرف الانتباه عما توحي به فوراً قراءة ما كتب «كارتر» عن توت عنخ آمون، أو «وولي» عن مقابر أور الملكية، أو «إيفان» مبتدعاً عالماً كاملاً من مقابر كنوسس (Knossos) وإنه لمن دواعي السرور أن تبدأ قصة تطور حملة البحث وعلم الآثار في الخليج العربي بمثل هذا السجل.

ففي شتاء عام ١٨٧٨ جرت الخطوة الأولى في علم آثار الخليج العربي عندما قام ضابط بريطاني شاب هو النقيب «ديوراند» بالرسو على شواطئ المحرق، الجزيرة الصغرى من الجزيرتين الرئيستين المكونتين للبحرين في الخليج العربي، والتي كانت في حينه مركز الاقتصاد ومقر الحكومة. وكان غرضه مسح آثار المنطقة، وهي أول محاولة لمراجعة ماضي البحرين تتم حتى ذلك العهد، على الأقل منذ أيام الرومان، أو منذ إرسال الإسكندر لقادته البحارة لمسح الساحل العربي وجزره. وكان ديوراند أول مساعد ملحق بهيئة المقيم السياسي لصاحبة الجلالة الذي كان يتخذ من بوشهر مقراً له على ساحل فارس الجنوبي.

وكان منصب المقيم السياسي واحداً من تلك الألقاب غير الدقيقة نوعاً ما التي كثر إطلاقها على موظفي الإمبراطورية البريطانية، وكان بكل وضوح رتبة للحاكم الإداري، وكان حاملوه لاحقا يتمتعون بالمزايا الرسمية المخولة للسفراء، وبالفعل فاقوا في الأهمية معظم

السفراء. ففي الخليج لم يكونوا مجرد أهم المسئولين السياسيين العاملين هناك، بل سرت إرادتهم الملكية من الكويت حتى عُمَان، كما حملوا عبء القيادة العسكرية، وكانوا مسؤولين عن القوات البريطانية في المنطقة. واستمرت وظيفة المقيم السياسي في الخليج حتى الانسحاب البريطاني عام ١٩٧١ من معاهدات الحماية طويلة الأجل التي أبرموها مع شيوخ الخليج. وبحلول ذلك الوقت كانت الخدمة بالخليج آخر مواقع الدبلوماسية البريطانية، وظلت وظيفة المقيم السياسي قائمة، ثم تحول مقر المقيم السياسي من بوشهر إلى البحرين ذاتها.

وفي عام ١٨٧٨ كان المقيم السياسي مسئولاً ليس تجاه وزارة الخارجية في لندن بل تجاه الدائرة لحكومة الهند بكلكتا. وكان ديوراند يتلقى أوامره من تلك الدائرة وكان وزيرها أ. س. ليال (سير ألفريد والمستشار الملكي بعد ذلك) هو الذي حمل للمقيم السياسي المقدم ي س روس (سير إدوارد بعد ذلك) بنفسه التقرير الذي أعده ديوراند بعد إتمام مهمته.

وتقرير ديوراند أول وثيقة أثرية عامة عن الخليج وجزر البحرين، كما أنه أهم تلك الوثائق، وقد طبع في نسختين يكشف تفحصهما بعض الفوارق ذات المغزى.

فالنسخة المقتبس عنها والتي يستخدمها علماء الآثار أوالمفسرون عموما هي النص الذي نشر في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (السلسلة الجديدة)، العدد ١٢ (الجزء الثاني)، ١٨٨٠، الصفحات من ١٨٩ حتى ٢٢٧، حيث توصف بأنها مقتطفات من تقرير عن جزر البحرين وآثارها بقلم النقيب ديوراند. وتتوالى نحو اثنتي عشرة صفحة من الصفحات المطبوعة تتخللها نسخ من مشغولات (مكتشفات) البحرين الأكثر شهرة مثل "حجر ديوراند"، ونقش بابلي قديم يدون زعم شخص يدعى ريموم بأنه خادم آلهة دلمون الحارسة. وهذا هوالاكتشاف الذي يعتد به معظم الثقاة لتعريف البحرين على أنها قطعاً

دلمون السومريين وتاريخهم وأسطورتهم فيما بعد . وقد قام بهذا التعريف السير هنري رولنسون ، أشهر الاختصاصيين في زمانه في دراسات بلاد ما بين النهرين، والذي دون سلسلة من الملاحظات على مقتطفات ديوراند، وكان في ذلك الوقت رئيس الجمعية الآسيوية الملكية ومديرها.

وهذه الصيغة من ملاحظات ديوراند نسخة محررة لتقريره الكامل الذي أرسله رئيسه المباشر إلى رئيسه الأعلى في الهند. وهنالك العديد من المفارقات بين النسختين ذات صلة، وفي بعض الحالات مذهلة نوعاً ما، فالتقرير الرسمي مكتوب بحرية أكبر بكثير؛ وهو بالفعل، رائع في بعض المواضع. ومن وجهة النظر التاريخية والأثرية فهو مسهب أكثر بكثير؛ ولعل ديوراند قد شعر أنه كان يكتب لزملائه وأصدقائه الذين سيفهمونه بيسر أكثر مما يفهم قراء المجلة علمه وتعليقاته فيما يخص دراساته في مكان قصي وغير مألوف إلى هذا الحد.

وإضافة على ذلك ، يشتمل التقرير على عنصر هام لم يرد في المقال المنشور بالمجلة ، وهو عدد من الرسوم الدقيقة، بعضها يغطي مساحة صفحات بكاملها، وأخرى تفاصيل مقحمة في النص، جميعها من إعداد ديوراند نفسه. وبالدليل المكون من ١٠٠ رسم أوما يقارب ذلك، والمودع في مكتبة مكتب الهند، يستدل على أن ديوراند كان رسام ألوان مائية كفئاً. ومن المؤسف، لا يبدو أنه قد كتب البقاء لأي من رسوماته البحرينية.

الرسم الأول في التقرير خريطة تبين موقع البحرين في الخليج بالنسبة لشبه الجزيرة القطرية وساحل ما يعرف الآن بالمقاطعة الشرقية في السعودية. وفي الخريطة هيئات عديدة تجعلها غير عادية ، ومن الواضح أنها مبنية على إصدار سابق.

وترى الجزيرة الرئيسة، البحرين ذاتها، بدقة معقولة، وتقع في الشمال الشرقي جزيرة المحرق المتصلة الآن بشقيقتها الكبرى (المنامة) بجسر، وكانت في ذلك الوقت منفصلة عنها

بقناة بحرية. ويبدو غرب البحرين جزيرة أم الحسان،(ربما أم النعسان) . وعديد من المواقع مرصود على ساحل الجزيرة العربية إلى الغرب، وهذه تشتمل على جرية، وعجير، وداحولة صحوة، ولا يوجد إقرار معروف اليوم لهذه الأسماء، ولعل الاسمين الأخيرين مع هذا يخفيان العجير، ودوحة السلوى، بينما يبدو أن الأول يذكرنا بسوق الجرهاء القديمة والتي لم تكن قد اكتشفت حتي ذلك الوقت. ولعل الاسم قد أسيء تفسيره على يدي ديوراند. ويطلق على الخليج العميق الذي يقع الآن خلف البحرين بين شبه الجزيرة القطرية والساحل البري خليج سلوى، وهو مبين في خريطة ديوراند بخط منقط إذ يبدو أنه كان غير متأكد من مخططه عند إعداد الخريطة، وخمن أن البحر يمر جنوباً وشرقاً، ويقطع غالباً شبه الجزيرة القطرية. وتعرف ديوراند على البدع، تلك القرية الصغيرة التي أصبحت الدوحة عاصمة قطر الحالية.

والأكثر إثارة للدهشة أنه قد رصد خور العديد ، ذلك المدخل ذو الجمال المتميز، عند النقطة التي تلتقى فيها الأراضي القطرية اليوم بأراضي الإمارات العربية المتحدة. والوصول إليها صعب، ولا بد من الافتراض أن ديوراند قد أبحر حول قطر إلى هذه النقطة وإن أوضح أنه لم يخترق خليج سلوى.

والسمة الملحوظة في الخريطة أن كامل شبه جزيرة قطر مرصود على أنه البحرين. فحين أرسى ديوراند كانت قطر تحت حكم شيخ مشهور من عائلة آل ثاني اسمه جاسم بن ثاني الذي وصفت مأدبته في الصحراء عام ١٨٥٥ بصورة خلابة على يدي بلجريف في كتابه "رحلات في وسط وشرق الجزيرة العربية" . وعاش الشيخ جاسم حتى القرن العشرين ، ويوجد وصف شهير له كرجل طاعن في السن على ظهر حصان في الصحراء يحيط به جحفل من أبنائه وأحفاده وأتباعه. وعلى أية حال، فإنه في أيام ديوراند،اعتبر أمراء آل ثاني في البحرين أن مدينة الزبارة في شمال قطر، والتي كان قد أنشؤوها في القرن الثامن عشر إبان هجرة قبائل العتوب ، أولاً إلى الشرق ثم إلى الجنوب، معقلهم على اليابسة، وأنهم

الحكام الشرعيون لشبه الجزيرة القطرية. وبالفعل احتفظوا بوجهة النظر هذه حتى اليوم، خصوصا فيما يتعلق بالجزر المتنازع عليها في حوار .(Hawar) ويبدو أن حكومة الهند على الأقل عند هذه النقطة، من خلال كونها القوة الحامية – قد وافقتهم الرأي. وبإطلاق اسم البحرين على شبه الجزيرة القطرية كان ديوراند يخلد تسمية طوبوغرافية قديمة جداً. فحتى في أحدث الأزمنة، وبالتأكيد حتى العهد الإسلامي، غالباً ما كان يطلق على شرق الجزيرة العربية الاسم نفسه الذي يطلق على الجزيرة الرئيسة في مجموعة جزر البحرين، والتي يمكن أن ينظر إليها دائماً على أنها كانت صاحبة النفوذ السائد في المنطقة.

وتقرير ديوراند بنسخته الأصلية التي رفعت إلى مكتب نائب الملكة وثيقة أكثر أناقة من مقتطفات المجلة. فكل صورة مرقمة برقم، وكانت الصفحات طويلة والخط كبيراً وواضحاً. وتبدأ ملاحظات ديوراند بتشاؤم على الأقل فيما يتعلق بمطامح البحرين في التجارة.

«التجارة – ليس هناك الكثير مما يجدر الحديث عنه بشأن تجارة هذه الجزر. فاللؤلؤ والتمور هي الصادرات الرئيسة، وعلى الأغلب الوحيدة، لكن التقارير تتضمن الإحصائيات سنويا. وتنقل التجارة المستوردة المكونة بصفة رئيسة من الأرز والقهوة والأقمشة على بونيات* من الهند، والناس الموجودون هنا في أحوال تجارية متواضعة، ويأتي كبار الرأسماليين إلى هنا في موسم اللؤلؤ فقط.

«ولعل من الممكن توسيع العمليات التجارية لهذه الجزر تحت سيطرة حكومة مستقرة؛ فإذا احتلتها الحكومة البريطانية مثلاً فربما تستقطب تجارة الخليج الفارسي كلها و تجعلها مركزا تجاريا يمكن منه إمداد واستنزاف فارس والجزيرة العربية. وأقول بجرأة إنه لن يكون هنالك تجار في أي من الموانئ تحت سيطرة السكان الأصليين في أرجاء الخليج جميعها من

---

* عن اللفظ "buniahs" وهو غير أصيل في لغة المصدر ولا وجود له في معاجمها ويعتقد أنه مستنسخ عن لفظ عربي أو هندي يعني نوعاً من أنواع المراكب البحرية (صالح).

البصرة وحتى مسقط عدا الوكلاء الضروريين لتخليص الجمارك وتمرير الشحنات إلى اليابسة الداخلية.

« ومجرد نظرة على الخريطة تبين أنه بلا أي عمل يذكر يمكن إنشاء مرافئ ممتازة إلى بوابات المستودعات ذاتها التي يمكن بناؤها على الأرض المستصلحة من البحر».

وهذا التعليق الأخير نبوءة، إذا كان ديوراند قد قصد ما تعنيه كلماته. فعلى ضوء تاريخ البحرين الحديث جدا، حين كانت الزيادة الجوهرية في الأرض الصالحة للسكنى المتوفرة حالياً قد صنعتها سياسة الحكومة في استصلاح الأرض حول شواطئ المحرق والجزء الشمالي لجزيرة البحرين الرئيسة، يبدو من المدهش أن يفترض ديوراند الشيء ذاته عام ١٨٧٩ .

« وتمتد الأرض القابلة للاستصلاح على الأغلب من القلعة البرتغالية إلى جزيرة المحرق وكل ما يمكن أن يلزم لذلك سيكون جدارا من الحجارة التي تنقل في الجزر إن اقتضى الأمر ويبنى بالتدريج. وفي الليالي المقمرة والجزر المنخفض رأيت الأرض تجف حيث تغوص الشعاب المرجانية بصورة حادة في المياه العميقة».

ويقتبس ديوراند ملاحظة بليني بأن العرب يعتقدون أن نهر الفرات قد تدفق إلى الخليج من جدول تحت الأرض خارجاً إلى السطح عند هذه المناطق. وبلا شك كان ذلك محاولة لتفسير جداول الماء العذبة التي تنبثق من قاع البحر والتي يمكن أن تكون السبب في تسمية البحرين بهذا الاسم وسمعتها الخاصة في القداسة في الأزمنة الغابرة

والأخطاء العابرة الموجودة في النص المطبوع في كلكتا تدل على أن ديوراند كان قادرا على قراءة (بروفات) المجلة ولكن ليس (مسودة) التقرير. وحيث إن مقتطفات المجلة تظهر أنها مبنية على نص التقرير الفعلي ، فلا بد أن ديوراند كان قادراً على تصويب أية أخطاء تسللت إلى النسخة المبكرة. ويظهر مثل رائع لاحقا في التقرير حيث يظهر رسام الخرائط الفرنسي الشهير في القرن الثامن عشر، « دانفيل »، متنكراً تنكراً طفيفا تحت اسم الدكتور

انفيل . وكثير من إملاء الكلمات حتى المراجع الكلاسيكية غريب ويدل على أن التقرير قد طبع دون إشراف من جانب المؤلف. ويدعم هذا الانطباع ركاكة الأسلوب من حين لآخر، وعدم التتابع في النص.

ويقارن ديوراند في التقرير المياه الجوفية في البحرين بالقنوات الفارسية، لكنه أبداً لا يشعر، في المجلة، أن الإشارة تدعم حجته، ولعله لم يكن يعلم بوجود القنوات في البحرين، فقد ظلت حتى عهود حديثة تماماً عاملاً مشهوراً في اقتصاد الجزيرة الزراعي.
ويظهر رسم هامشي ساحر في التقرير يوضح تعليقا أبداه حول قنوات مياه الشرب:

«ينقل الماء من هذه الآبار المتعددة في قنوات عديدة غير ذات ضفاف، يمر أوسعها الآن لتبدوكجدول طبيعي. وحيث يلزم إخراجه يتم ذلك من الآبار بوساطة القربة العادية المدلاة من على بكرة، وترفع إلى مستوى الخزان بالدواب التي تسحب أسفل منحدر؛ ومن قنوات ، عموما بفعل الفائدة الميكانيكية المكتسبة من فعل الرافعة لجذع نخيل يتأرجح بلطف بحبال مثبته بإطار، ويوازن طرفه بسلة من التراب مولجة به، بحيث يلزم قليل من الجهد لرفع الماء».

ويكتب توضيحات رسوماته بصورة مختلفة وعبارة " شيء كهذا" . ويسمح ديوراند لنفسه بنثر أكثر وضوحاً في التقرير عما هو الحال في المجلة. وهكذا تصبح القبور المخفية في الأكمات البؤرة الرئيسة في اهتمامه بعلم الآثار (فيطلق عليها " بيوت الموتى") . ووصف الأرض المغبرة المميزة للمنطقة على مقربة من الساحل (الأثر، بعبارات المجلة و" لعلها مساكن قديمة") والتي تظهر في التقرير بنص: " كفن السلالات الفانية ومساكنها")

يحتوي التقرير على نحو ثمانية عشر وصفاً لنباتات الجزيرة البرية وحيواناتها. ويبدومن هذه الأوصاف أن ديوراند أحب الحيوانات واستمتع بمتابعة سلوكها.

«الأرانب بثلاثة أرباع حجم الأرنب الإنجليزي، صغيرة وذات عيون بارزة ومحمّرة اللون،

ونظرة الحول الطفيف هذه ملحوظة في كل حيوان عربي، فالخيل العربية معروفة جيداً، ولكن الكلب السلوقي العربي الذي هو بالفعل عينة جيدة نادرة ومن أجمل الحيوانات ، لكنه خفيف ونحيل ويبدو وكأنه لا يصلح لأي عمل، لكنه حين ينطلق يبدو وكأنه يطير لا يركض. وهذه الأرانب مدجنة، ولدي اثنان منها أنقذا من مخالب صقر وسلوقي على التوالي، وأصبحا بعد أربعة أيام على قدر من الألفة حتى إنهما لعبا في الغرفة» وكانا يقفزان أحياناً لرؤية ما كنت أفعل ثم ينسحبان لخلف صندوق عند وصول شخص غريب.

وفي وصفه لمحنة مزارع النخيل التي كانت ،حتى في ذلك الوقت، مسألة مقلقة، يبدوأنه يحسها بحرارة واضحة:

«الأشجار والنباتات ـ أهم الأشجار شجرة النخيل. وبعض حدائق النخيل جميلة جداً. ومع ذلك فإن الكثير منها قد تلف أوفي طريقه إلى التلف، نتيجة لسوء الإدارة. و في بعض الأماكن التي كانت ذات يوم حدائق غناء لم يبق شجرة مثمرة واحدة.

ومثل كثيرين من زوار الجزيرة العربية، يسهب في وصف مخاطر ركوب الجمال:

«تأتي غالبية الإبل من الجزيرة العربية، مع أنها تتوالد الآن في البراري. ويمتلك الشيوخ الجيد منها لركوبها وهذه تأكل حتى وهي تسير في رهو حاد مما يعطي الراكب غير المتعود شعوراً غريباً بالعجز حيث تبدو رقبة البعير الطويلة في المقدمة ويختلط رأسه برجليه ؛ و لكن سرعان ما يحل شعور بالثقة الضمنية حين تصبح معتادا على الأداء البهلواني وتجد أنه لا ينتج عنه أية أضرار.

ويضع رسماً خلاباً لسمكة في الماء العذب، سمكة لفتت انتباهه بعلامات غريبة عليها. ويصفها ديوراند بمودة، مع أن الأسماك ذات الجلود يمكن أن تبدو ظاهرة غير متوقعة في علم الأسماك.

« هنالك عدة أنواع من السمك في المياه العذبة .وقد لفت انتباهي واحدة ذات علامات غريبة لم يسبق لي ملاحظتها . فالزعنفة الظهرية مركز لثلاثة خطوط دائرية أو بيضاوية، تبدو بكل وضوح مقابل جوانب السمكة الفضية، وتقدم تأثيرا غريبا عندما تسبح . وأكبر سمكة شاهدتها كانت على الأرجح تزن بضع أوقيات فقط، ويبدو وكأنها التقطت اللون من السباحة الدائمة في هذه المياه البلورية الضحلة التي يظللها سعف النخيل الشائك الرفيع ولكن لعل هذا داروينى أكثر من اللازم، إذ على الرغم من أن السمك دائماً يستمد لونه من نوع الماء الذي يعيش فيه، إلا أنه يندر أن تأخذ علاماتها بهذه الطريقة » .

ويبدو أن ديوراند قد تابع التطور الأكاديمي السائد كما تكشف إشارته لداروين، وكان كتاب « أصل الأنواع » قد نُشرَ عام ١٨٥٩ .

وتشير إحدى أكثر مقالاته جدارة بالملاحظة إلى تمييزه لمجموعة من الروابي بالقرب من قرية بربورة (باربار الحالية) باعتبارها ذات أهمية خاصة . ويبين كيف أن إحدى كتل الحجر الكبيرة على السطح قد نحتت، ويصف بدقة جديرة بالملاحظة حفرة مربعة القطع " كما لوكانت عضادة باب" . ولم يتم الكشف عن الموقع حتى أكثر من سبعين عاما على زيارة ديوراند، لكن الحفر عندئذ تكشف عن الحفرة التي شاهدها، والتي كانت لا تزال على السطح كجزء من المدخل إلى المعبد الثالث الذي كان قد بني في باربار إبان أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد .

وفي وصفه لحقول روابي القبور التي كانت الاهتمام الأثري الرئيس في البحرين في عهده، يضع تعليقاً مطولاً حول احتمال الأصل الفينيقي للآثار البحرينية، والقصة الهيرودوتية حول أصول الفينيقيين أنفسهم: ويرجح الفينيقيون أن أصولهم نبعت من الخليج، أوالتخوم العليا للمحيط الهندي. ولأنه يقتبس كثيراً عن " السيد رولنسون" (يُبدو أنه لم يكن على علم بحصول هنري على لقب « سير ») ربما كان حصيفا لاختصار هذه التعليقات في

المجلة علما منه أن رولنسون كان بالفعل سيقوم بالتعليق على مقتطفاتها . وتستحق إحدى الفقرات الاقتباس ولو من أجل اللقب الغريب جداً المستخدم للإسكندر الأكبر الذي أرسل أمراء البحر التابعين له لمسح الخليج وجزره قرب نهاية حياته .

« من النادر يساور أحد الشك في أن جزر البحرين هذه كانت مسكونة في القديم من قبل الفينيقيين، وأن لديهم هنا معابد لآلهتهم التي شاهدها فعليا أندروستين عندما قاد الحملة البحرية بأمر من الصبي المقدوني الفاتح .

لعل هيرودوت كان محقا في اعتقاده بشأن أصول الفينيقيين أكثر من قرن من الزمان بعد ذلك، ولكن نسبة ديوراند أصولا الآثار البحرينية إلى الفينيقيين خطأ تماماً. وتحتوي مقتطفات الصحيفة لديوراند على صفحة رسم واحدة فقط، وتلك مكرسة لأهم مكتشفاته، وهوالنقش المشار إليه تكراراً باسم حجر ديوراند، والذي نذره للإله إنزاك (Inzak) الإله الحامي للبحرين، أوحى إلى رولنسون بتمييز البحرين على أنها دلمون . ويصف التقرير مكتشفاته والطريقة المخادعة قليلاً التي أقنع بها ديوراند خادم المسجد الذي كان الحجر مرصعا في جدرانه بالتخلي عنه . ثم يقول :

« فكرت في البداية أنه ربما يكون قيدوماً أو تمثالاً في مقدمة سفينة قديمة ، وأفترض أن هذا أمر ممكن . وعلى أية حال، فإننا نعلم أن الفينيقيين قد عبدوا فالوس فوق كل شيء وأن الإلهة عشتار، معبودتهم المفضلة وحامية البحارة، كانوا يعبدونها على هيئة حجر مخروطي . ولا أستطيع الجزم عما إذا كانت تترك في قياديم سفنهم بهذه الهيئة ، ولكن كتمثال، أعتقد أن صورتها كانت تستخدم هكذا » .

وهذا على أية حال مجرد تخمين، لكن الكتابة ستحكي قصتها الخاصة بها .

فكيف أمكنه أن يتخيل أن قطعة من البازلت بطول ٦٠ سم (إن كان ذلك ما كانت عليه) يمكن أن تكون تمثال سفينة؟ أمر من الصعب تخيله . وأقل إثارة للدهشة أن يزج

بالفينيقيين مرة ثانية، وهذه المرة في تنكر من القرن التاسع عشر كعبدة لفالوس.

ويواصل ديوراند بعد ذلك في عدة فقرات في خيال تاريخي رائع غريب غير ذي صلة محفوزاً لذلك بالنقش الذي يشمل الأصول الأسطورية للعرب، واحتمال غزوهم لأوروبا في أزمنة قديمة جداً. ويكتب عن النقش:

« ها هنا لغز لغير الخبير. فبعض الأحرف مسمارية عادية، وسواء أكانت بابلية أم آشورية أم أخمينية فإن الطراز يبدو إلى حد بعيد هو ذاته. لكن بعض الحروف المبعثرة فيه هيروغلوفية، إلى جانب شجرة أو جريد نخل يقف يسار النقش، - وهي الحقيقة التي يمكن أن تشير إلى أن الحجر نحت في وقت حين بدأت الكتابة الرمزية تتحول إلى الأبجدية. وهذا أيضاً مجرد تخمين. وعلى أي حال ليست من النموذج الفينيقي الحقيقي الذي علمه قدموس للإغريق والذي نشأت أبجديتهم منه، إذ يفترض أن الفينيقيين قد عرفوا هذه الكتابة قبل الميلاد بنحو ١٥٠٠ سنة.

« وأعتقد أن السيد رولنسون ربما يجعل من كادموس مجرد شخصية خرافية تحت صيغة كيديم الشرق، يبحث عن ايريب الغرب، أو أوروبا، لكنه يقر مع ذلك القوة التجميعية للحجج التي يرقمها على أنها عظيمة جداً تجاه إثبات استيطان فينيقي في بويوتيا.

« ويذهب السيد فورستر إلى أبعد منه فيقول: " يمكن تقفي اسم قدموس هذا خلال (قيدمة) أو (قادماس) التي تشكل لاحقا، كما يقول، لفظة عربية اصطلاحية، ويقتبسها عن ميلو من خلال إيزيبيوس، عن الكسندر بوليهستور الذي يطلقه على ابن إبراهيم (إسماعيل)* من زوجته المصرية، ومرة أخرى إن الملاحظة المباشرة الوحيدة للعرب بين الشعوب الأولى في أوروبا والتي توجد لدى الكتاب الكلاسيكيين قد وردت في كتابات سترابو الذي يشير في تقريره عن تكون شعوب يوبويا من ساحل بوييوتا

* هذه مجرد مقاربات تطلق جزافاً لا يجب أن يأخذها القارئ بجدية. (د. السقاف).

(Boeotia) إلى أن السكان الأوائل كانوا جماعة مهاجرة، من العرب الذين رافقوا قدموس إلى اليونان . وتحمل هذه العبارة في طياتها مصداقيتها حيث إن جميع ظروف القضية تؤكد على صحة معلومات سترابو ألخ . .الخ . . ويضيف أن قدموس ببساطة هي الصيغة اليونانية القديمة المكتوبة "كيديمة" والتي ترد بصيغة "كيدينة" في الفصل ٧٠ ، وتتحول إلى قدموس على يد جوزيفيوس. وقبيلة قيدمة الإسماعيلية ، كما سبق وشاهدنا، كانت تقيم في المكان المخصص ذاته على أرض مستقلة كمهد لكادموس الفينيقي، الشبيه الاسمي ، ويمكن أن نستنتج بصدق بأنه الابن الأصغر لإسماعيل.

« ثم يواصل الإصرار على حجته بتقليد عربي يثبت القرابة القومية بين الفينيقيين والبيويتانين والعرب (الإسماعيليين الزبيديين)*

« ولكي نعود على أية حال بدون التأكد من أن قورش يحكم هذه الجزر، فإننا نعلم أن داريوس قد حكمها حيث كانت تشكل الولاية الرابعة عشرة وكانت تستخدم من قبله كمستوطنة عقابية (ذاك الملك الجوكي نادراً ما كان ليمكنه اختراع ما هو أفضل)

« والملك المناور » بالتأكيد لقب غريب لداريوس، ولعل منشأه بلا شك من الأسطورة عن أصول داريوس وانتخابه غير المحتمل ملكاً أعظما، حيث لعبت إحدى خيوله دوراً حاسماً، لا بل قاطعا. من الغريب أيضاً أن يكون ديوراند يخمن إمكانية النفوذ الفينيقي في اليونان في الأزمنة القديمة، عكس الرأي الذي كان آخذاً بالرسوخ في أيامه، وهوأن اليونان لم تكن مدينة للتأثير السامي (الفينيقي) بشيء أو لغيره مما يمكن أن يكون قد جاء من أفريقيا (مصر).**

«لذا يمكن أن يكون الحجر ينتمي إلى تلك الفترة من حكم الفرس، أو يمكن أن يكون

---

* هذه مقاربة واهية وتخمينية لا أساس لها .(د. السقاف) .

** التأثير السامي والمصري على الحضارة اليونانية ثابت بأدلة كثيرة لا مجال لذكرها .انظر حول هذا الموضوع على سبيل المثال كتاب (اليونان) لمؤلفه د. لطفي عبد الوهاب .(د. السقاف)

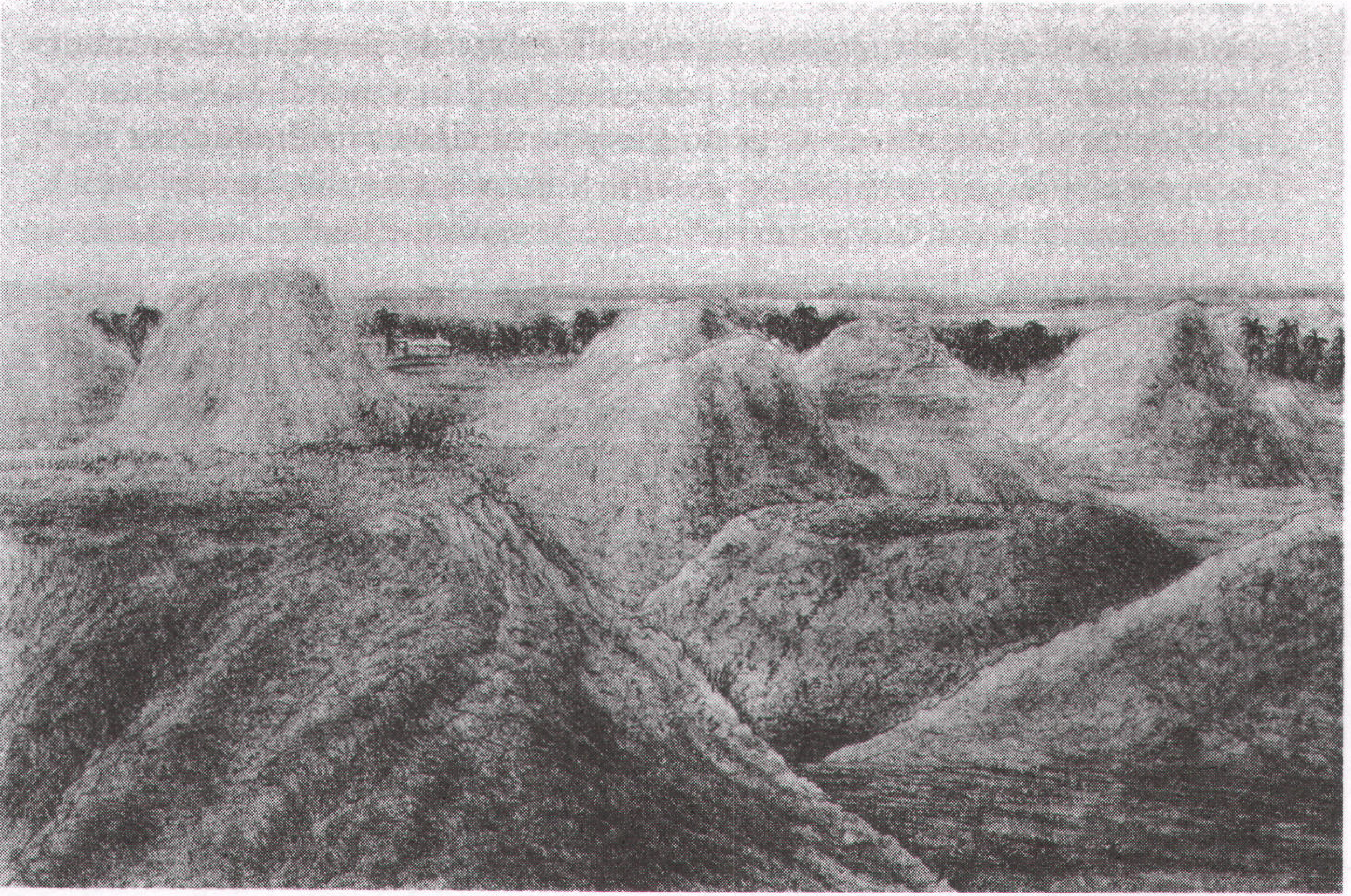
قد جاء بكل بساطة من بلاد آشور. وهذا الرأي الأخير هوالأكثر احتمالاً لأن الكتابة المسمارية تبدو لي مختلفة عن الأخمينية التي رأيتها، والأكثر من ذلك لا يوجد أي علامات تحت تلك الصيغة من الكتابة. وبالطبع يستطيع الخبير البت في المسألة فوراً».

وما يشير إليه ديوراند من احتمال أن يكون الحجر قد جاء من بلاد آشور ليس بالرأى الذي أخذ به معظم العلماء، رغم أنه ليس بالرأى غير المعقول بأي حال من الأحوال. ويمكن طرح السؤال: لماذا يرغب أي شخص في نقل قطعة هامة من البازلت من آشور إلى وسط الخليج؟ وعدم احتمال مثل هذا العمل يبدوا أنه قد أرضى معظم المفسرين منذ أيام ديوراند. ولكن هناك شك قليل بأن النقش الذي نسخه ديوراند ينتمي إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد.

وجاء رسم ديوراند للنقش في التقرير مختلفا تماماً عن الرسم الذي جاء في مقتطفات المجلة فالرسم الذي جاء في التقرير مرسوم من "مضغة"، وهي التقنية الشائعة في القرن التاسع عشر لنسخ المنقوشات بسرعة بوضع طبقة من الورق الممضوغ أو ما يشبهه عليه، والتي حين تنزع تحمل طبعة سالبة للموضوع. وهذا ما يعرضه ديوراند في التقرير. ولا بد أنه قد حير المسئولين في دائرة نائب الملكة للشئون الخارجية، حيث إنه منتج بالمقلوب وبالمعكوس.

وقام رولينسون بترجمة النقش لديوراند، وهكذا قدم مساهمته الألمعية لآثار دلمون. ولكن تلك لم تكن محاولته الأولى، ففي هامش للفقرة السادسة من التقرير يشير ديوراند ممتنا إلى رولينسون ولكن الترجمة مجرد مسودة.

وعند هذه النقطة من التقرير يضع ديوراند رسمين للروابى العظمى في (عالي) في الجزء الشمالي من البحرين [أو (علي) كما يفضل تسميتها]، وهى التي تشكل بؤرة تقريره وقد أشار إليها في وقت سابق متفائلاً حين قال: " فيما يتعلق بالمقابر نقف على أرضية أكثر صلابة ولا يمكن أن نضل بعيداً".



٢-١ تلول المدافن كما رسمها ديوراند .

والرسوم التي أعدها ديوراند للتقرير جميلة حقا فهي تبدي بجلاء الشخصية الأخاذة لروابي (عالي) قبل أن تخضع لمعول عالم الآثار، أو تسترعي انتباه الفخارين من القرية الذين أوشكوا أن يدمروها من خلال تحويل العديد منها إلى أفران. وتنقل الرسومات أكثر من أي عرض آخر الحجم الهائل للروابى ومداها كما بدت بوضوح في زمان ديوراند (شكل٢-١) . وبالتأكيد تتباين نوعية رسوماته بشكل كبير وتتراوح بين التخطيطات السريعة البسيطة والرسومات الأكثر دقة وإتقانا؛ وخرائطه رسومات أنيقة مليئة بالمعلومات، وهذه أولى محاولات تصوير أي من المقابر البحرينية ورسم خريطة المنطقة التي وجدت فيها. ورسمه للحشوة في واحد من المداخل إلى أحد المدافن رائع وقوطي الطراز بصورة إيجابية بالفعل.

ويخمن ديوراند في مقتطفات المجلة والتقرير على السواء طبيعة سكان الجزر الذين شيدوا تلك المدافن الهائلة. وكما يلاحظ: " لم يسبق لي أن سمعت بمثل هذه المدافن فوق سطح الأرض في العالم" . ويعتقد أن البحرين كانت جزيرة مقابر، ومكاناً مقدساً يجلب إليه الموتى للدفن من الأراضي البعيدة ، ربما من المدينة المفقودة (جرها) . ويفترض أن مثل أولئك السكان الذين حظيت بهم الجزيرة قد عاشوا في بيوت بسيطة مبنية من سعف النخيل كما تفعل الطبقات الفقيرة حتى يومنا هذا. ونوع البناية المحلية التي يشير إليها هو البراستي* وكانت حتى تنفيذ مشاريع الإسكان الممولة من الحكومة أكثر أشكال المساكن الشعبية انتشاراً في البحرين.

ويمتلك ديوراند عين عالم آثار طبيعي، وهي الأداة الحرفية المهمة التي يتعين على أى ممارس أن يمتلكها . ومن الواضح أن المقابر الموجودة في بربور والتي يشير إليها في مكان سابق في تعليقاته هى تلك المكتشفة بالقرب من قرية باربار الحديثة. ولقد عثر الدنمركيون على هذه المدافن خلال عملهم في البحرين. وفي حفريات جرت في الخمسينيات والستينيات كشفوا عن سلسلة من المعابد الجديرة بالملاحظة من النوع الذي يبدو أنه يربطها بالمعابد السومرية اللاحقة في جنوب بلاد ما بين النهرين، وربما بالسومريين أنفسهم. وفي أبرز الأبنية التي كشفوا عنها عثر الدنمركيون على بئر حجرية لعلها تشير إلى أن المعبد كان مكرساً لإنكي، إله إبسو أو إبيس العظيم، الذي يشير إليه رولينسون في تعليقاته على تقرير ديوراند تحت الاسم " حيا"، صيغة معطشة من اللفظة الآكادية ، " إيا". وفي ضوء أساليب الحفريات في ذلك الزمان، والمشغولات الدقيقة التي حفظتها مقابر باربار، لعل من حسن الحظ أن ديوراند كان قد تجاوزها، وأنه كان كما يبدو من ملاحظاته، قد قام بذلك آسفا بعض الشيء.

لم يكن ديوراند يعلم بالطبع بالمستوطنات القابعة تحت الروابى بالقرب من المكان الذي

---

* ويقصد بها المساكن المبنية من جريد النخيل (العبودي) .

تقوم عليه قلعة البحرين اليوم. والمنقبون الذين جاؤوا بعده - وأشهرهم الدنمركيون الذين عثروا على الموقع وحفروه - كشفوا عن قيام مستوطنات هناك من الربع الأخير للألف الثالث قبل الميلاد، وتطورها إلى مدينة حوالي عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، وهناك اتفاق عام على أن سكان الجزيرة كانوا قادرين على توفير عددٍ كافٍ من السكان لمدينة الموتى العظيمة التي تنخر في سطح صحراء البحرين الشمالية والوسطى. ونعلم الآن، ولوجزئيا على الأقل، الجواب عن سؤال ديوراند، " إذا كانت هذه الأميال تلو الأميال من الأكوام المكتظة قبوراً، فأين عاش السكان؟"

ولقد قاد سؤال ديوراند وشكه بأن البحرين كانت جزيرة للموتى، مرة ثانية إلى شطحة تاريخية شيقة أخرى، وإن كانت واهية قليلاً من حيث الأدلة. ففي هذه المرة فإن ما يجذبه هم السكيثيون بوجه خاص، مع لفتة عابرة صوب الفينيقيين مرة أخرى.

أسباب مثل خصوبتها، ومعابدها (؟)، وغزارة مياهها التي هي من أجمل المياه، يمكن أن تكون قد أدت بهذه الجزر إلى أن تعتبر أرضا مقدسة.

" وحتى في هذا اليوم يتطلع الهندوسي إلى أن يؤخذ إلى أحضان نهر الغانج، والمسلم المتدين من هذه المناطق إلى أن يوضع في ثرى كربلاء المقدس. ألا يجوز أن قبيلة ما من الفينيقيين القدماء في اليابسة قد تطلعت إلى النوم الأبدي في الثرى المبجل لتلك الجزر المقدسة؟ لعل هذه الفكرة تبدو خيالية إلى حد بعيد، لكن ينبغي أن يكون لي عذري في هذا الاتساع الهائل لسلسلة المدافن، فلم يسبق لي أن سمعت بمدينة موتى أخرى كهذه فوق سطح الأرض في العالم.

«وبالنسبة للمسافة التي قد تنفي هذه الفكرة، قارنها بالمسافة التي يقال إن قبائل السكايثيان قد نقلوا ملوكهم عبرها قبل مواراتهم الثرى أخيراً لينالوا راحتهم في الأماكن المخصصة قبورا لهم في البوريسين في أرض جيري.

و« الشراسيون (Thracians) أو القوط قد دفنوا تحت الأرض، وكذلك السكيثيون والليديون والليبيون ، وبالفعل يبدو أن هذا العرف كان متبعاً بشكل عام من قبل السكان الهندو-أوروبيين على وجه الأرض.

« وبالنسبة لعظام الحيوانات التي عثر عليها، قارنها بعادة السكيثيين. فالسادة حين يكونون ملوكاً كان لدى أحدهم زوجة عزيزة،أو فرس مدللة، أوممتلكات أخرى ذات قيمة تدفن معهم. ولقد كان هذا قاسيا على زوجات الأتباع كما كان كذلك بالنسبة إلى مجموعة الشباب الخمسين الوسيمين والخيول الذين قتلوا، وحنطوا وصفوا حول القبر وكأنهم حراس شخصيون للمتوفي ».

ثم يتحول ديوراند إلى التخمين بشأن موقع مدينة (جرها) العظيمة، أحد أهم أسواق الزمن القديم المتأخر، والموجودة في مكان ما في شرق الجزيرة العربية إلى الغرب من جزيرة البحرين. وفي هذا الموضع يظهر الدكتور أنفيل مشيراً إلى أن جرها يحتمل أنها أقيمت في جرام (Gram). وعلى ما يبدو فإن هذا خطأ في النص، بدلاً من قرين (Grain، الاسم القديم للكويت).

وجولات ديوراند في معارج أسماء الأماكن العربية مبتكرة إن لم تكن مقنعة كلية، فهويحاول المستحيل لجلب السكيثيين ثانية إلى المناقشات بافتراض الصلة بين جرها وأرض الجرهي. ويقر مع ذلك "بالتشابهات الطفيفة (بين الأسماء) الشائعة والموثوقة إلى هذا الحد".

« ونعود إلى جرها الموطن الأول لتلك المقابر التي ثار الجدل حول موقعها، فها هو الدكتور أنفيل يضعها في القطيف، ونيبور في الكويت أو جرام Gram، وهكذا، لكن فورستر يضعها في قاع الخليج خلف البحرين. وإذ هوغير مقتنع بحجته التي تدعمها تقارير بليني وسترابو، اللذين إن لم تنطبق بياناتهما هنا يندر أن تنطبق على أي مكان آخر في الخليج،

ففوستر يجادل إلى أبعد من ذلك بأن الرأي المقبول أن هذه البلد (الإقليم الحالي ، Haar* أو البحرين) قد استمد اسمه الوارد في الكتابات المقدسة واستيطانه البدائي من الاسم الكوشي هافله (Havileh) وقد أحاط نهر بيسون** Pison المذكور في التوراة بهذه البلاد التي كانت اسما لفرع نهر الفرات الذي جرى موازياً للخليج وصب في جزر البحرين.

ويناظر بأن الإثبات المباشر على أن هذه المنطقة حملت الاسم هافله مقدم في أفال، الاسم المحتفظ به لجزيرة البحرين الكبرى.

و« يضع بطليموس جرها في قاع الخليج ذاته، وهو المكان نفسه الذي عينه أبوالفدا نصر الطرزي*** وألوج بيج لمدينة هجر التي يقول سترابوإن منفيي الكلدانيين هم الذين أسسوها.

ويقول فورستر إن كلمة جرها مجرد تصحيف لكلمة هجر التي تقتفي أثر أسلافها في أجراي في الأزمنة القديمة.

« ويود أن يجعل من هجر مسقط رأس الكلدانيين – أبناء خالد (بني خالد) المتصلين بروابط وثيقة مع الإسماعيليين ومؤسسي بابل. ويتتبع (خالد، خليد، خانلة، خيط، حويل هانلان، أول، حويلة على أنها صيغ أفعال من الجذر ذاته.

« وعلى أية حال ، يفترض أن الكلدانيين أصلاً سكيثياً أو طورانياً ،ويستلزم مكتبة كبيرة والكثير من الدراسة قبل الحكم على صحة مثل هذه الاشتقاقات**** .

« ومن الممكن أن تكون أشكال الدفن لدى العناصر المختلفة متميزة بالقدر الكافي لتقديم

---

* كذا في الأصل ولعل صوابه "Hagar" هجر .(د. السقاف)

** أحد الأنهار الأربعة المكونة،طبقاً لما ورد في التوراة، لجنة عدن،والثلاثة الأخرى هي جيحون والفرات ودجلة (د. السقاف) .

***كذا في الأصل ولعله أراد أبا الفداء الحموي مؤلف كتاب البلدان(توفي سنة ٧٣٢) أو أبا الفتح نصر عبد الرحمن الاسكندري مؤلف كتاب الأمكنة والمياه والجبال (توفي سنة ٥٦١ هـ) (د.السقاف) .

**** هذا التخمين – مع احترامنا له – لا نعتقد بصلته لعلم الاشتقاق ولم يعد مقبولاً إزاء تقدم أساليب البحث التاريخي المنهجي وبالتالي لا يلتفت إليه .(د. السقاف) .

دليل ما . وأن مزيداً من البحث بين برية القبور التي لا زالت تحتفظ بحالة جيدة هنا ،قد يلقي بعض الضوء على صفحة معتمة من صفحات التاريخ.

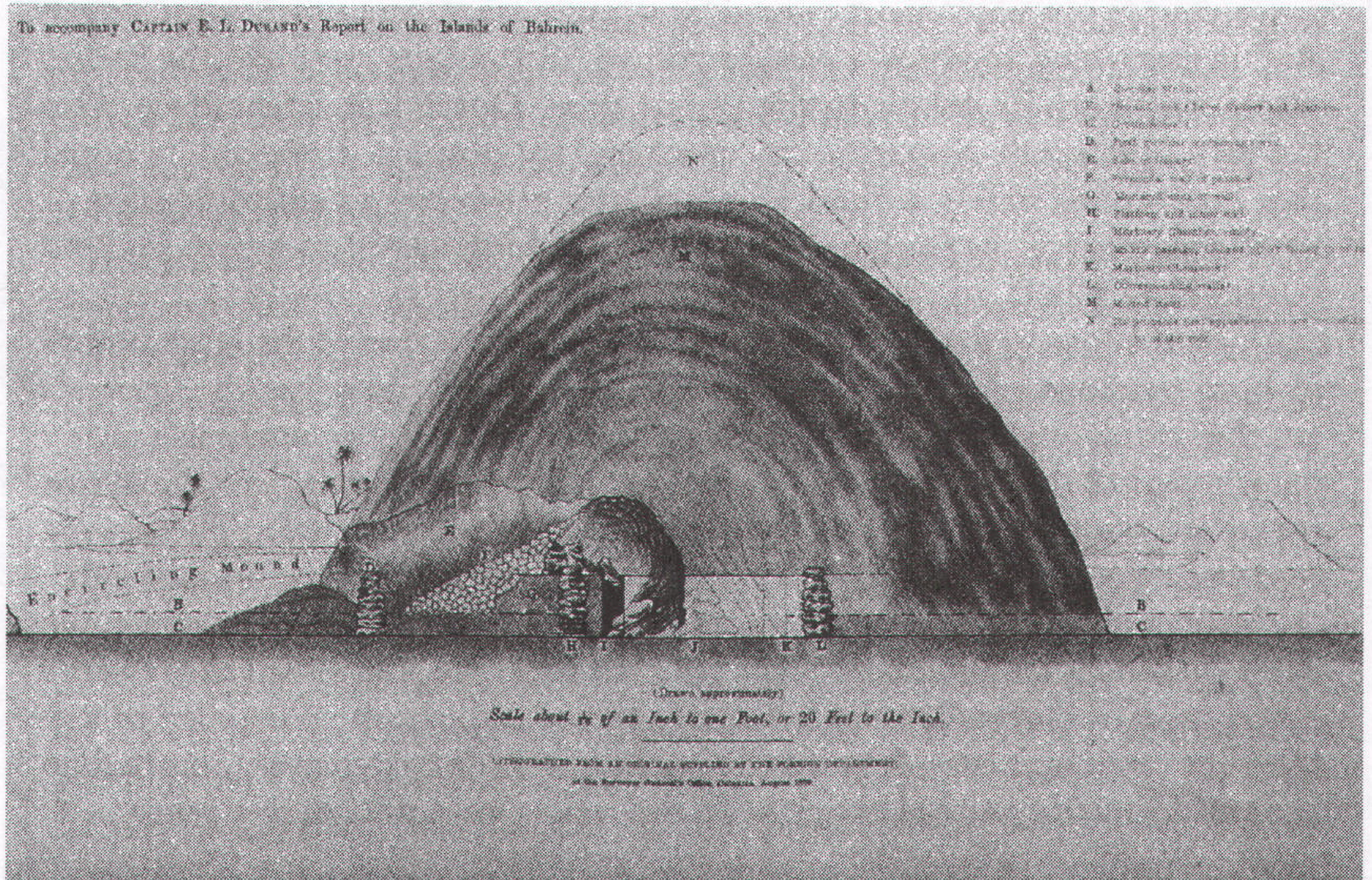
« ولقد أشرت سابقاً إلى عادات السكيثيين في الدفن ونقل الموتى إلى أراضي جرها إلى النقطة التي تصبح عندها البورسثين صالحة للملاحة.

« هل من الممكن أن يكون هنالك أي قرابة عرقية تبرر التشابه في الأسماء بين جرحوس وجرها ، أم هي واحدة من تلك التشابهات الشائعة وغير الموثوق بها؟

« وعلى افتراض أن جرها كانت بالقرب من هذا المكان فما هوالأكثر احتمالاً من أن تكون هذه الجزر قد استخدمت بالأسلوب المشار إليه سابقاً؟

« ولقد أخبرني عرب أن هنالك العديد من الأطلال الكبيرة في البرية ، وأخبرني شخص بصفة خاصة أنهم عثروا على آثار أبنية وحجارة وأعمدة في مكان يستخرج منه الملح. وأعتقد أن قاع الخليج خلف البحرين لم يسبق أن استكشف بعناية».

وكان دافع ديوراند الرئيس في زيارته للبحرين البحث في حقول أكوام القبور التي كانت في أيامه الأثر الوحيد في الخليج الذي له قيمة عالية.. ويحكي ديوراند في كلتا النسختين



٢-٢ مقطع من خندق اختباري تم فتحه بمعرفة ديوراند

عن نبش قبر صغير يقع إلى الغرب من المجموعة الكبيرة. ويضع رسمين صغيرين في التقرير وهما خريطة القبر وارتفاعه. ثم يخصص صفحة كاملة لارتفاع دقيق ورسم مقطعي لواحد من القبور الكبيرة (شكل ٢-٢) وهي الرسومات ذات الجودة والتفصيل، والتي حدت بعلماء الآثار إلى الاعتماد على المقتطفات المنقحة من المجلة بدلاً من الاعتماد على التقرير الأصلي ، هوالأمر المؤسف.

كان دخول ديوراند القبر فرصة أخرى له كي يذهب بعيداً ، وهذه المرة في ذكريات ساحرة حول خشية إزعاج الموتى منذ عهد بعيد، وبقايا جرو "محبب جميل جداً". أمّا ماكان من رأي سادته في مكتب نائب الملكة في كلكتا بشأن هذا كله فهو غير مدون.

«وحين زحفت تحت الثغرة شعرت بالغثيان جراء رائحة لا أستطيع لها وصفاً، ولأني حديث عهد بمهنة نبش القبور فقد اجتاحتني وخزات ضمير حول مدى لياقة تصرفي. وبعد تأمل توصلت إلى نتيجة أن القاعدة الذهبية للحياة كانت " عامل الآخرين .. وإلخ" وبتطبيق هذه القاعدة ووضع نفسي في مكان الفينيقي المتوفى، فكرت أنني إن كنت قادراً على التفكير في مثل تلك الظروف، فإنني على الأرجح لن أهتم بالانزعاج بعد الإقفال علي لبضع آلاف من السنين. وهكذا واصلت العمل بشجاعة، فهذه ليست إلا الخطوة الأولى، ومنذ ذلك الحين أصبحت أكثر قسوة وأحتفظ بالعديد من عظام السادة في سلة بحجرتي. ولقد انزعجت ذات مرة، ولا أقول اكتأبت، عند سماع صوت ناتج عن تنقيبات ذكية لجرو جميل جداً كنت أملكه، فعاتبته إذ اعتقدت أنه كان ينبغي له أن يضع حدا بينه وبين مواد غير غذائية أبداً كهذه، لكن المسألة قد قدمت الغذاء لمزيد من التأملات. وفكرت في أن مثل هذا الموضوع لا بد وأنه قد زود مونتين بنص لواحدة من مقالاته الفلسفية المرحة ، وأنه إذا ما طرقه أرتيموس وارد أو مارك توين، اللذان يشاكلان كاستور وبولوكس في النكتة وخفة الظل ، فلعله أيضاً يصير مضحكاً. وعدت إلى الوراء على أية حال إلى حجتي السابقة، ثم آويت إلى الفراش.

ويصف ديوراند بعض المواد التي عثر عليها في القبور، وإن كان بأسلوب معظم علماء الآثار في زمانه، بعدم إتقان كبير. فهويسير بالفعل إلى "شظايا آنية من الفخار الأحمر الخشن" . ولعل هذا هو أول سجل لخزف باربار النموذجي الذي عثر عليه في قبور (عالي) وفي المقابر الأصغر منها التي يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد . ويواصل قائلا :

« في الحجرة الصغيرة المقابلة للحجرة الأولى عثرنا على عظام بعض الحيوانات الصغيرة ، ربما من عظام الغزلان أوالغنم، وبعض بقايا إناء شرب فخاري رقيق، ومبعثر هنا وهناك في غبار الممر المركزي كثير من القطع الصغيرة غير المشكلة من المعدن الصدئ من النحاس أو النحاس الأحمر، وبعض شظايا إناء من الفخار الأحمر الخشن.

« وقال لي مواطن ذكي أن هذه لم يعد بالإمكان تصنيعها، فقد تغير لون التربة، وأنه عثر على قطع قديمة من قبل كلها حمراء ولكنها الآن يمكن أن تنتج فخاراً بلون أبيض قذر وأصفر فاتح. وأشرت أن عمر الآنية نفسها يمكن أن يكون السبب وراء تغير اللون لكنه لم يقبل بهذا الرأى . »

وبالطبع كان " المواطن الذكي" على حق،فالخزف الذي تشتهر به (عالي) اليوم من لون البسكويت الشاحب حتى اللون الباهت، ومثله مثل الآنية القديمة سيحتفظ بلونه حتى نهاية الزمان . ويفضل ديوراند مصطلح القرن التاسع عشر "Crockery" على مصطلح "Pottery" بمعنى فخار. وينبغي الإشارة إلى أن الحفريات بعد قرابة مائة عام قد كشفت عن مجموعة جميلة من ثلاث عينات من " إناء الشرب الفخاري الرقيق نوعاً ما" الذي يشير إليه ديوراند . (شكل ٧-١٣)

ويختتم ديوراند بوصف دقيق مفصل ورسم لأحد القبور الكبيرة في كلتا النسختين من ملاحظاته . فيلحق بالتقرير رسماً آخرا من رسوماته الصغيرة الهامشية، ويروي أنه « قد استفاد من فصيلتين من كتيبة المشاة الوطنية الحادية والعشرين، نظمهم في مجموعات من بضع رجال لبضع ساعات، محتفظا بهم بعيداً عن المعسكر والأذى . " وكان أولئك جنود

من الجيش الهندي الذين كانوا على ما يبدو في خدمة ديوراند .

ويبين رسم آخر القبر (والذي أمل أنه " ربما يغطي بقايا معبد صغير") بدرجات منحوتة فيه من أعلى . ومن خلال الوصف الذي ورد بالتقرير لدخول ديوراند في هذا القبر، (وهو الأكثر تفصيلاً في أي من النسختين)، يبدو جليا أنه استخدم البارود بكثافة ، أكثر مما يبدو من خلال مقتطفات المجلة . ويشير في التقرير عند أحد المواضع :

« خطوت طريقي بين هذه الجدران الحاجزة مزيلا التراب في أثناء تقدمي، إلى جانب قذف كتل الصوان الجيري الصلب والتربة القاسية من الأعلى معيدا تعبئة الممر خلفي بالتدريج كلما تقدمت » .

وفي مقتطفات المجلة تحول هذا إلى : " خطوت طريقي بين هذه الجدران الحاجزة مزيلاً التراب كلما تقدمت، ثم مخلياً الممر خلفي مع تقدمنا ."

وفي كلتا النسختين يتابع : " زاد ذلك من العمل إلى حد هائل، وكان باعتقادي أنه غير ضروري من خلال تراص الكتلة، والحجم الصغير نسبيا للرواق والانحدار الأمامي للجدران ."

ولكن التقرير يواصل :

« ...مما قدم دفعة سليمة جيدة للقوس الذي أبقيناه فوقنا، ولكن لأني لم أكن مهندساً لم أستطع المجازفة، وبمجرد أن أنسف قسماً من سقفنا، كان من الضروري بحكم واقع الحال مواصلة ذلك، لأن التربة قد تفككت تماماً وأضعفتها صدمة هذا الانفجار الأول . وربما أصبحت الضرورة أكثر وضوحاً عندما وصلنا إلى الجدار الداخلي، إذ أصبح لزاما أن نستخدم البارود هنا » .

وما يرسمه ديوراند بصورة مؤثرة هوالكتل الموجودة في هذا الممر .

وفي نهاية التقرير يتحدث ديوراند عن القبر الذي كان يرغب بشدة أن يحفره ولكنه لم

يجد متسعاً من الوقت، ويطرح رسماً هامشياً آخر يبين ما يصفه بأنه " قبور أصيلة" . كما يوضح رسم مرفق القبر ذاته، « مبالغ في حالته الحالية » .

وجاء تعليق ديوراند النهائي واقعيا: « الموضوع برمته يمكن أن يكون أو لا يكون مستحقا للبحث » . وفي ملاحظة في الهامش يضيف: « من المذهل أن لا تكون قد أرسلت أية جمعيات علمية لتفحص هذه السواحل حيث المناخ مناسب تماماً لحفظ أي شيء لا يهاجمه الإنسان » .

ومن الغريب أن يمر عشر سنوات قبل أن تحظى مبادرة ديوراند بمثل جريء آخر، فمناخ جزيرة البحرين والخليج عموماً للأسف لا يدعم حجة ديوراند أنه " يحفظ كل شيء لا يهاجمه الإنسان" . فرطوبة الصيف الاستثنائية على القدر ذاته من القوة كعامل تدمير، مثلها مثل الإنسان نفسه.

ولقد عاش ديوراند حياته خادماً متميزاً للتاج، ومثله مثل معلمه رولينسون فقد كرمته بلاده، ومنح لقب بارون قرب نهاية حياته. وعاد إلى بريطانيا ومعه تذكاراته* من جولاته في البحرين، بما فيها حجر البازلت ذو النقش الثمين. ولم يسمع عنه لعدة سنوات إلا عام ١٩٧٠ حين أقيم مزاد لبيع حوائج شخصية لأحد أفراد أسرة ديوراند لدى منظمي مزاد كِرستي بلندن. وطرح عليهم استفسار لنقله إلى الأسرة إذا كان هنالك أي شيء معروف عن الحجر الذي عاد به ديوراند قبل قرن من الزمان. وتذكره أحد أفراد الأسرة، فقد ألقي في بيتهم باسكتلندا لعدة سنوات قبل نقله إلى بيت الأسرة في لندن. وهذا على الأرجح دمرته القنابل الألمانية في الحرب العالمية الثانية .ويعتقد أن الحجر الآن مدفون تحت البنايات التي شيدت في الموقع. ومن الممكن أيضاً أن شخصا ما في تلك الأيام المضطربة من الغارات عرف أهمية الحجر وقام بنقله. ولعل التعبير عن ورع ريموم لا يزال موجوداً حتى

* ليس هناك تذكارات في الآثار ،بل نقل غير مشروع للآثار من البلاد العربية لأوروبا تم عن طريق فرق التنقيب الأوروبية (العبودي) .

الآن في مكان ما.

توفي ديوراند عام ١٩٢٠ ، بعد أن خاض جولتين أخريين في التأليف، بالإضافة إلى ورقة بحثية عن البحرين. وكانت إحداهما حول موضوع ليس بعيداً كليا عن الخليج، حياة الملك قورش المنشور عام ١٩٠٦. والأخرى تنم كثيراً عن عصره وعن المشاريع الأدبية لموظفي الإمبراطورية، وكان بعنوان: " بندقية وعصا وحربة في الشرق".

وكانت عودة ديوراند من زيارته إلى البحرين فرصة لإلقاء محاضرة في الجمعية الآسيوية الملكية في غرف بيرلينجتون هاوس في إحدى أمسيات عام ١٨٨٠. وقد عقد الاجتماع تحت رعاية هنري جريسويك رولينسون ذائع الصيت.

وكان رولينسون، ذلك اللواء المتقاعد، والفارس القائد الحائز على وسام الحمام* عالية الشرف، والبارون، وزميل الجمعية الملكية، ورئيس ومدير المجالات الآسيوية الملكية، واحداً من الإنجليز في القرن التاسع عشر الذين امتلكوا اندفاعاً وحماسا غير عاديين ومنجزات في العديد من المجالات. وقضى إجازاته وهوضابط صغير بين القبائل المتوحشة في فارس، واهتم بتشكيلة مذهلة من اللغات القديمة والحديثة. ولقد حقق شهرة حاسمة بتسلقه واجهة نقش بيهيستون ثلاثي** اللغة الذي أدت ترجمته إلى فك رموز اللغات المسمارية وفتح جميع المصادر الهائلة في آداب السومريين والبابليين، وهى العملية التي استمرت حتى اليوم. ولقد كان رولينسون مؤرخا محترما له مداه وقبضته على تدفق وانحسار الأحداث التي من شأنها أن ترهب أي عالم مبتدئ في زمانه. وأصبح في سنواته الأخيرة واحداً من أكثر النجوم لمعانا في المجتمع الفكري اللندني، غنياً بأوسمة الشرف والمنجزات، يشجع على الدوام العلماء الصغار مع أنه كان غيوراً على منجزاته والامتياز الذي منحته إياه.

---

* ألقاب شرف يمنحها التاج البريطاني للمتميزين من رعاياه (صالح).

** موقع أثري قديم يقع حالياً في إيران (د. السقاف).

وبصفته مؤلف لكتاب " نقوش مسمارية من غرب آسيا" الذي يقع في خمس مجلدات، فقد كان له تأثير واسع في الأجيال اللاحقة من المؤرخين وممارسي علم الآثار ، وقد بزغ هذا العلم فرعاً من فروع المعرفة المميزة المنفصلة . وكان يعرف الخليج، على الأقل من الجانب الفارسي، مع أنه لا يوجد دليل على أنه زار الساحل العربي . ولقد كان ديوراند محظوظا إذ قدر لمكتشفاته في البحرين أن تنطلق في المؤسسة الفكرية اللندنية محلقة فوق حافة عقد جديد هو الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وذلك إبان رعاية رولنسون للجمعية الآسيوية.

وملاحظات رولينسون على تقرير ديوراند قسرية بالمعايير كلها ، مع أن الكثير منها لا سند له اليوم. ومثلها مثل أي اعتبار آخر ، فإنه يفوح من نصوصه الحماس المحض والسرور بمهمته، والتي يبدو أنها استحوذت على رولينسون حتى في عقده الثامن (كان عمره ٧٥ عاما عندما نشرت مقالة ديوراند في مجلة الجمعية) . وكانت هذه هي نوعية الحماس ذاته الذي أبداه الإله السومري العظيم إنكي، الذي قدر له أن يصبح مهما في الأديان القديمة في الخليج، عندما كان يحكم العالم في واحدة من تلك الأساطير السومرية، والتي كان رولينسون أحد ناشريها في العالم الجديد .ويظهر رولينسون من خلال ملاحظاته على نصوص ديوراند قدرة على التحرك بيسر، وطلاقة مذهلة من لغة لأخرى ، قديمة وحديثة. ومن الطبيعي أنه كان منغمسا في الكلاسيكيات، العملة السائدة للإنسان المثقف في القرن التاسع عشر وما قبله. فهو يجيد العربية والفارسية والعبرية ، وتمتد هذه المعرفة إلى الآشورية والبابلية ؛ مع أنه لا يستخدم العبارة، التي تشير إلى أقدم المصادر الأدبية، ألا وهي السومرية، والتي كان أحد مترجميها الأصيلين.

ويضع رولينسون تعليقات ديوراند في محتواها بتلخيص ما كان معروفا عند تلك النقطة من تاريخ الخليج القديم. فهويبدأ بالقصة التي دونها الكاتب الهيلينستي بيروسوس في عمله العظيم المفقود، "بابيلونياكا " (**Babyloniaca**)، وهوأسطورة الرجل السمكة أو

أنّس (Oannes) ورفاقه الذين سبحوا في أعالي الخليج، وجلبوا فنون الحضارة إلى بلاد ما بين النهرين. وينسب أولوية تأسيس المدن «لأريدو»، وهى الحقيقة التي يدعمها الاعتقاد السومري وعلم الآثار، وأريدو هي مدينة إنكي وأقدم مؤسسة مدنية في بلاد ما بين النهرين.

ولقد كان لرولنسون بعض الأفكار الرائعة، فهو ينسب أصول التجارة لسكان الخليج الأوائل، وهو الاعتقاد الذي أكدته الأبحاث الحديثة على نطاق واسع. وإنجازه الفائق في هذا الميدان ربطه أرض الجنة القديمة (في النصوص الأقدم المستنسخة للفظة دلمون) بالبحرين. وقبل نسبة رولينسون لم يكن هذا الاسم الذي استخدمه السومريون قبل ٥٠٠٠ سنة دارجاً لألف عام خلت. ولقد كان رولينسون سباقا في المعرفة بصورة ملحوظة في بعض آرائه. فاعتقاده بأن الخليج قد انتشر على مساحة من سطح الأرض في الماضي أكبر مما هى عليه اليوم كان محورا للدراسات الخاصة بخطوط شواطئ الخليج السفلي. وكما نعلم الآن فأن البحر في الأزمنة الغابرة كان يغمر المنطقة المعروفة اليوم بالربع الخالي وأجزاء من ساحل الخليج، كما هو الآن، كما كان جزءٌ كبير من شرق الجزيرة العربية تحت سطح الماء.

ولكن الكثير مما يقترحه رولينسون يبدو غريباً اليوم. فمزيجه من الفلسفة والتخمين والأسطورة يجعل منه زميلاً صعباً للكثير من علماء اليوم. كما أنه قد استنسخ الأحرف المسمارية التي تكتب اسم الجزيرة NiTuk، وهي العبارة التي استمر استخدامها ردحاً طويلاً من الدهر بدلاً من دلمون. وفي الحقيقة فإن الحروف المسمارية غالباً ما كان لها قيم مختلفة، والصيغة Ni NiTuk صفة محددة تعني الأرض أوالجبل، وبهذا لم تلفظ مستنسخة بشكل لائق من اللفظ "دلمون"، وربما يكون لها قيم أخرى أيضاً.

ويكتب رولينسون بشكل جيد عن جزيرة «إيكاروس» في القسم الشمالي من الخليج، ولم يكن يعلم أن اهتمام الإسكندر بالمنطقة التي يدونها سيثبت بهذا القدر من الشهرة باكتشاف نقش الإسكندر (انظر الفصل الثامن) على جزيرة فيلكا المعروف أصلا أنها كانت تسمى إكاريوس في الأزمنة الهيلينستية. وفي هذه الجزيرة الواقعة في خليج الكويت

تم الكشف كذلك عن بقايا هامة تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد.

ويتجول رولينسون بعناية في الدراسات الشرقية، وفي تخمينات كونية، وعلم النجوم. والمصريون البعيدون حنطة لمطحنته، فمثله مثل آخرين تبعوه يخمن حول تشابه أسماء الأماكن في الخليج ومدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط. ويتساءل عن إمكانية حركة السكان على نطاق واسع من الخليج إلى منطقة حوض البحر المتوسط، مع أنه لا يشعر بأن مجرد التصادف في الأسماء شيء مقنع على الاطلاق، معبراً عن وجهة نظر معقدة وعصرية نسبياً. وأي شخص مطلع على تشابه أسماء الأماكن في جميع أرجاء العالم العربي اليوم سيوافقه الرأي.

وعلى الرغم من أنه يكتب بقوة، وبشكل قاطع في بعض الأحيان، فإنه يستطيع أن يسخر من نفسه بأسلوب خلاب جداً، مثلما كتب مشبها كوكب المريخ بدلمون (من خلال نظير المريخ في الأسطورة النجومية لبلاد ما بين النهرين، الإله نيبو، وانشغال ذاك الإله بفن الكتابة والعلم)، فيقول: " توجد أطروحة في مقالتي "حول ديانة البابليين والآشوريين."

مراجعة رولينسون لورقة ديوراند ضمنية إلى حد بعيد، فهو يتطرق إلى أفكار ترتبط بالخليج القديم، مثل عبادة الأسماك في بلاد ما بين النهرين على سبيل المثال، والتي لم تؤخذ بالاعتبار في دراسات لاحقة. وكان أكثر ما يكون أثريا مبدعا عميق الثقافة، غزير الاهتمامات. وفوق كل شيء، كان واحداً من أوائل الرجال الذين استرجعوا دلمون إلى العالم المعاصر والبحث العلمي من خلال تحليله لملاحظات ديوراند. وفي العديد من الجوانب، تعتبر ملاحظات رولينسون أهم إسهام في دراسات البحرين المنشورة في أي مكان حتى بدأ علماء الآثار الدنمركيون سنواتهم في الحفريات في الخمسينيات.

الملاحظة الأخيرة من ملاحظات رولينسون الاستثنائية بعيدة المدى تذكرنا بمؤسستين

عظيمتين أبدتا رغبتهما في دعم العمل المستقبلي في البحرين، فقد كانتا متأثرتين بديوراند ، وبلا شك بمراجعة رولينسون لعمله. فقد عرض المتحف البريطاني الذي لا مثيل لإسهاماته في علم الآثار ١٠٠ جنيه إسترليني من أجل الحفريات التجريبية بالجزيرة. وكانت حكومة الهند قد عرضت في وقت سابق مبلغا مماثلا. وعلى ما يبدو لم تتقدم أي من العلماء المهتمين بالحفريات في البحرين للإفادة من تلك المنح، ولكن كلمات رولينسون كان لها طنين النبوءة : " و لكن البحث وإن توقف، فإنه لم يهجر، ولعله يبحث عن نتائج هامة . " قدر لهذه النتائج أن تظهر بعد قرابة القرن على كتابة تلك الكلمات، وكانت بالفعل هامة.

ولقد مر على زيارة ديوراند عشر سنوات . واحتفلت الملكة فكتوريا بيوبيلها الذهبي، وتوفي ديزرايلي، وشكل جلادستون آخر حكومة له، ونام الخليج، وواصل سكانه الحياة يزرعون النخيل ويصيدون اللؤلؤ.

وكان الزوار اللاحقون الذين دونوا انطباعاتهم عن البحرين وآثارها فريقاً من مستكشفين كتاب ويتألف من زوج وزوجته هما السيد والسيدة جي ثيودور بنت. ولقد مثلا ظاهرة مألوفة من ظواهر القرن التاسع عشر قبل ظهور الوسائل الإعلامية المرئية،وهي ظاهرة كتاب الرحلات الذين جابوا عبر العالم يدونون انطباعاتهم عن حياة الشعوب التي ساعد ظهور الإمبراطورية في الوصول إليها.

فقد وصل الزوجان (بنت) إلى البحرين عام ١٨٨٩ مجهزين بآلات التصوير وبعض تقنيات الحفريات الأساسية. وفتحا في أثناء إقامتهما العديد من تلال القبور، واستخرجا منها العاج والخزف والأشياء المعدنية، وكان العاج بصفة خاصة هو الذي أدى إلى تأكيد الاعتقاد المغلوط تماماً بأن القبور كانت فينيقية الأصل.

وعرض بنت ما عثر عليه في اجتماع للجمعية الجغرافية الملكية في ٢٥ نوفمبر عام ١٨٨٩ في مقر الجمعية في لوثر هاوس بكنسينجتون، ودعم حديثه بشرائح أخذت من الصور التي كانا قد حصلا عليها في أثناء إقامتهما. وهذه من بين أقدم ما سجل عن

البحرين، وهي من نوعية لا بأس بها، وفي واحدة منها يبدو بنت كحارس صيد ضل طريقه الذي درج عليه، مرتدياً قبعة من جلد الغزال يستضيف أعيانا بحرينيين في مقابر (عالي).

البحث الذي طرحه جيد البناء والوضوح في الانطباع الذي يعطيه عن البحرين، فقد كان بنت محترفا. والعديد من ملاحظاته كما سيتضح لاحقا مستمد من مقتطفات ديوراند ورولينسون قبل ذلك بعشر سنوات .أما ملاحظاته هو فهي مشوشة قليلاً أحياناً. فيقول: " يعيش التجار في أبراج ذات قيمة عمرانية خاصة ". وهذا على ما يبدو إشارة إلى أبراج الريح* التي كانت سمة نموذجية في المساكن المحلية من النوع القوى في أرجاء الخليج جميعها وشرق الجزيرة العربية إلى عهد قريب جداً. ويصف فن البناية على أنه " ساراسيني تماما" أيا كان معنى تلك العبارة.

ويلخص بنت تاريخ المنطقة بشكل مفيد، وبدقة مقبولة، من القرن السادس عشر، حين حط البرتغاليون على شواطئها. وهو موثوق وما ذكره بشأن اثنوغرافية البحرين في أواخر القرن التاسع عشر معلومات يمكن الاعتماد عليها.

وعلى الرغم من أن الهدف المعلن لزيارة الزوجين "بنت" كان البحث في المقابر، إلا أن ورقته تتناول الحفريات فيها باقتضاب. ومثله مثل ديوراند فقد ركز هو وزوجته على مقابر عالي، الأكثر إثارة من حيث الحجم من بين جميع المقابر بالجزيرة الرئيسة. والقبور التي فتحوها موصوفة باختصار والمحتويات أيا كانت مراجعة بإيجاز. وسلمت المواد التي أخرجوها من القبور إلى المتحف البريطاني حيث لا تزال باقية حتى الآن.

وفي النقاش الذي أعقب طرح ورقة «بنت» هب الأدميرال ليندسي براين للدفاع عن مظهر البحرينيين الذين قسا عليهم بنت بلا مبرر. وردد السيد سيسل سميث احتمال

---

* يقصد البارجيل المعروف بمنطقة الخليج (العبودي).

الأصول الفينيقية في الخليج، ولأنه كان يمثل المتحف البريطاني، فقد بدا قوى الحجة، . وما ذهبنا إليـه من أن العبـارة المصـرية لاسم لأرض بونت To-Nefer يمكن أن تعني الجزيرة المقدسة، كان مثيراً للاهتمام بصفة خاصة ويستحق النظر فيه بعمق أكبر.

واختتم الرئيس الاجتماع بصورة بدت أنها امتداح باهت لرحلة الزوجين بنت، قائلا: " لم يكن ضرورياً لرحالة يستحق أن يقدم للجمعية معلومات قيمة أن يذهب في الأحوال كلها بعيداً جداً عن الطرق التجارة العادية."

شرع بنت في السنوات التالية على زيارته للبحرين في القيام بعمل قيم آخر، بما في ذلك مراجعة آثار زمبابوى العظمى، وتحقيق في اكسوم في الحبشة، ورحلات في جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر. ومر عقد آخر وكان بنت قد توفي ، ضحية لتلك العلة التي تصيب الرحالة الغربيين من جراء تجوالهم في الشرق، وهي حمى الملاريا. وقامت أرملته التي رافقته في رحلته إلى الجزيرة العربية بنشر كتاب " جنوب الجزيرة العربية" عام ١٩٠٠، وهو السجل الشيق لرحلتهما إلى البحرين وعُمَان واليمن. ولم يكن أسلوب السيدة بنت (حيثما كانت الكتابة لها هى) حميداً بوجه عام، وإن كانت تتدبر أمرها في تدوين النقاط المنيرة هنا وهناك من المعلومات حول الحياة في البحرين في بداية القرن. ويخدمها حديثها عن حاكم البحرين الذي حقق درجة هامة من التقدم والاستقرار للبحرين ليظهر المؤلفة في أحسن أحوالها:

«ذهبنا لزيارته في المحرق،حيث يقيم بلاطه في الشتاء. وعبرنا في بغلة* صغيرة، وكان علينا أن ندفع بعمود لمسافة طويلة وغاطسنا يكشط القاع على الدوام . وكان ذلك يشبه الركوب في عربة على طريق وعرة، وكانت الحمير تركض مستقلة وأرجلها مغطاة بالماء. وسررنا حينما وصلت إلى مقربة منا، وأكملنا رحلتنا على ظهورها.

---

* يقصد سفينة البغلة (العبودي).

كان فناء القصر الذي يذكر أحياناً بفن العمارة في قصر الحمراء* عند وصولنا مكتظا بالشيوخ العرب بكل أشكال الأزياء الخفيفة. وكان رداء جلالته جميلاً للغاية، فهو وعائلته فقط الذين لهم الحق في ارتداء العقال المصنوع من وبر الجمال والمزين بخيوط ذهبية** . وكانت هذه تبدوملكية جداً فوق (الحطة) الحمراء، وعباءته السوداء الطويلة، مع سيفه المرصع بالفضة إلى جانبه جعلته يبدو ملكا بكل جزء منه».

وتظهرها مقدمتها لفصلها الثاني " مقابر عالي" على نحو أقل أهمية، وإن كانت بأسلوب خطابي لاشك أنه كان نموذجاً لعصره:

«والآن انظروا إلينا ونحن نتجه لمواقع عملنا. ستة جمال حملت خيامنا، وحمل سابع قرباً من جلد الماعز مملوءة بالماء. وأنَّتْ أربعة حمير تحت حوائجنا الشخصية، ووضعت دجاجات للاستهلاك فيما يشبه وعاء اللوبستر إلى جانب معاول تطرطق ومقاعد، وكان في حاشيتنا ستة رجال من الشرطة أو العمال الهنود، كل منهم يمتطي حماراً. وكان واحدا منهم يحمل مصباح البارافين بينما يحمل الثاني سلة البيض على راحة يده، ولأنه لم يكن هنالك لا عنان ولا رِكَاب، كان عجيباً أن يسلم أي من هذه المواد. وبالنسبة لنا أنفسنا ركبنا مثلنا مثل الباقين مجانبة متشبثين من الأمام ومن الخلف خائفين مرعوبين، خصوصاً عندما كانت الحمير البحرينية المرحة تربع في سباق عبر الصحراء."

على الرغم من أن كتاب "جنوب الجزيرة العربية" قد عانى إلى حد ما من أسلوب السيدة بنت المسهب، إلا أنه قيم من حيث الوصف الذي اشتمل عليه، ليس فقط للبحرين بل لعمان أيضاً. وبالنسبة للأخيرة تصف المناظر الطبيعية في ظفار، وهذا أحد أوائل الأوصاف التي بقيت من كاتب مهتم بعلم الآثار. ومع ذلك يظل وصفها للأطلال غير

---

* يقصد قصر الحمراء الذي بناه المسلمون في غرناطة بالأندلس في الفترة ما بين عامي ١٢٤٨و١٣٥٤م (د. السقاف).

** يسمى عقال مقصب ،أي المصنوع من وبر الجمال وأشرطة الذهب الأحمر أو الفضة المصبوغة بالذهب(العبودي).

دقيق وإن كان يبدو أنها وزوجها قد قاما بزيارة سمهرم "خور روري»* .

هذان السجلان، سجل ديوراند وسجل بنت، من الرحلات التي جرت في أواخر العهد الفكتوري إلى ما كان يبدو موقعاً بعيداً جداً في أراضي الإمبراطورية، وقدر لهما أن يخطا (سيناريو) لعلم الآثار في المنطقة لعدة عقود. ولعدة سنوات ظل اهتمام الأجانب بالمنطقة قليلاً؛ فقد ثبط البريطانيون همة معظمهم في اختراق جزء من العالم كانوا ميالين إلى أبعد ما يمكن إلى الاحتفاظ به لأنفسهم .ونتيجة لذلك كانت التقارير الأولى ذات المغزى الأثري، والمختلفة عن أسلوب الرحالة إلى المنطقة أوالمستكشف العارض في طريقه إلى أصقاع بعيدة، تميل إلى التركيز على البحرين لدرجة استبعاد بقية الخليج. واستمر هذا الوضع حتى الثلاثينيات حين استقطب التنقيب عن النفط مزيداً من الناس الذين لديهم وقت الفراغ والمهارات المهنية المناسبة إلى شبه الجزيرة العربية .إن عزلة الخليج وشبه الجزيرة عن أي صلة بالاهتمامات العلمية أو الأكاديمية هي السبب في غياب أي إشارة إلى الجزيرة العربية في الأعمال التاريخية أو الأثرية حتى عهود قريبة جداً، ولا مبرر غير ذلك.

وفي الوقت الذي نشرت فيه مقتطفات ديوراند في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية كان كل من حكومة الهند والمتحف البريطاني قد عرض مبلغ ١٠٠ جنيه لمزيد من البحث في آثار جزيرة البحرين ولم يستفد أي شخص من هذه المخصصات السخية في حينه.

وفي عام ١٩٠٤ لابد وأن شيئاً ما قد آثار اهتمام حكومة الهند لمراجعة العمل في البحرين، حيث بلغنا أنه في ذلك العام « وجهت دائرة الآثار في حكومة الهند اهتمامها إلى هذا الموقع القديم ، وأن المدير العام شخصياً ينوى زيارة البحرين بقصد البت في مسألة أصل مدينة الموتى إن أمكن. » كتب هذه الكلمات الرجل الثاني في المسرح الأثرى الخليجي ، السياسي المقيم ذاته ، الكولونيل (العقيد) ف.ب. بريدو.

---

*موقع أثري يقع شمال شرق صلالة بسلطنة عمان. (د. السقاف)

يعد تقرير الكولونيل بريدو الذي نشر في "Archaeological Survey of India" عام ١٩٠٨-١٩٠٩ أكثر الأعمال جودة ودقة ينشر حتى ذلك الحين. ويقتبس بريدو مقال ديوراند الذي نشر في المجلة دون اعتراف بذلك، لكنه يضيف كثيراً إلى معرفتنا عن العهد السابق على الإسلام والقرون الأولى له حين اعتنقت البحرين الإسلام ثم ارتدت ثم عادت في نهاية المطاف إلى حظيرة الإيمان.

ويعتمد في هذه الأزمنة الغامضة عموماً في تاريخ الخليج على كتاب ياقوت الحموي " معجم البلدان" . ويقتبس من بين أمور أخرى ،بشأن أصل تسمية البحرين، أنها تشير من ناحية إلى «بحيرة» مصغر بحر، تلقت المياه الفائضة من ينابيع الحسا (الواحة العظيمة في غرب البحرين) ، ومن الناحية الأخرى إلى الخليج الفارسي.

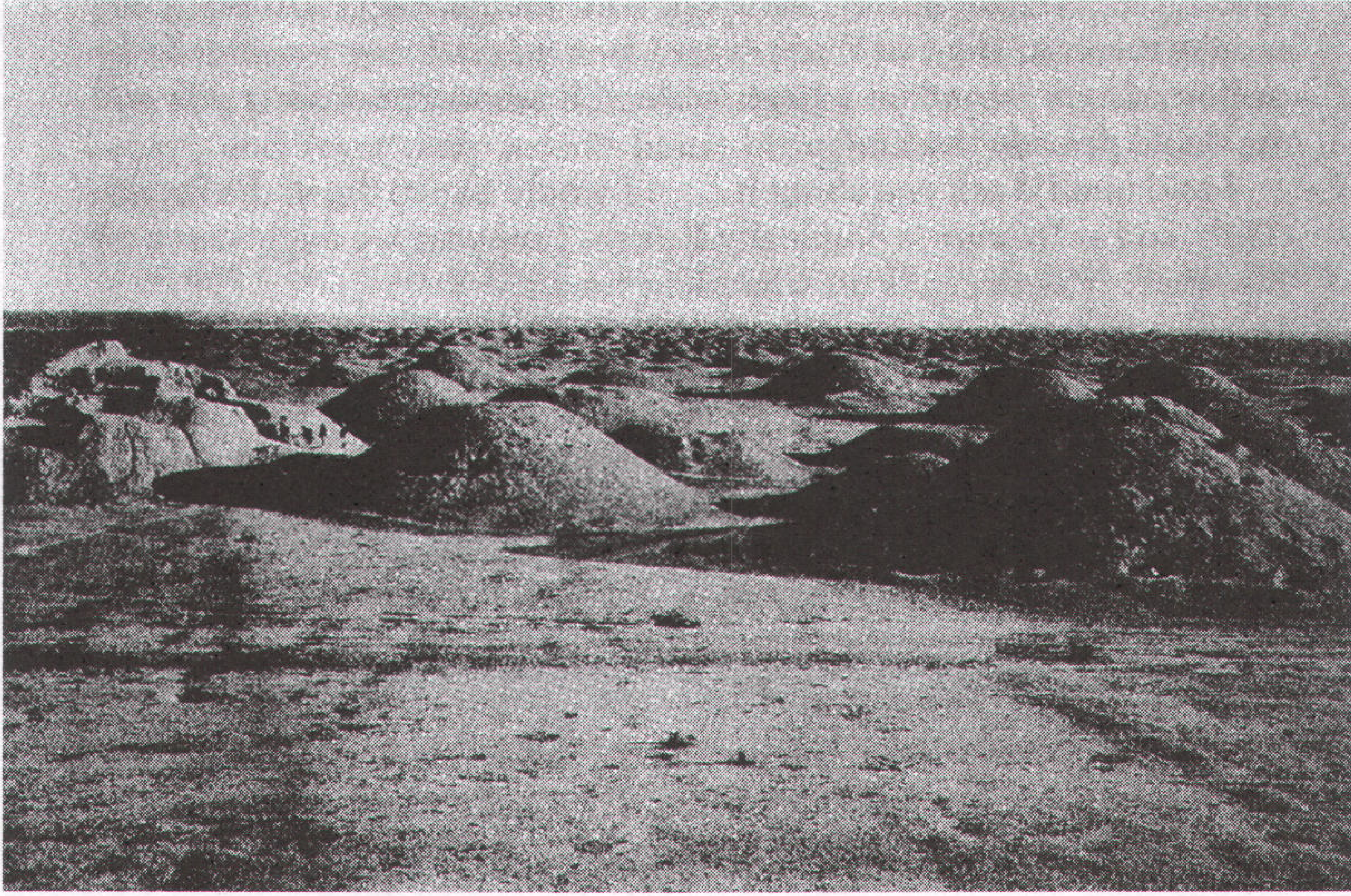
كان بريدو ضليعاً في الثقافة العربية، ويعلق بذكاء على مشكلة تشابه الأسماء بين البحرين والبلدان البعيدة الأخرى، والتي حيرت بعضا من سابقيه. ويقدم أيضاً معجما جغرافيا لأسماء القرى والمدن التي أوردها ياقوت في البحرين والساحل الشرقي للجزيرة العربية، ويقارنها بمواقع في عصره. كما يخمن بدقة معتبرة أن الأطلال التي تعرف الآن بقلعة البحرين يمكن أن تخفي مستويات بابلية* . وهي فعلاً كما يقول، بل وأخرى غيرها أيضاً.

وما يلفت انتباه بريدو بصفة رئيسة هو روابي القبور، فيكتب عنها باقتضاب وبدقة محمودة؛ وهذا هو حقاً التقرير الأول عن آثار الجزيرة الذي يمكن اعتباره عملاً علمياً.

ولقد بلغ مجموع ما تفحصه بريدو من القبور سبعة وستين قبراً (شكل ٢-٣) وعثر على عدد من المكتشفات الصغيرة ، لكنها قيمة، تشتمل على المزيد من العاج؛ وكانت صوره واضحة ومفيدة ، خصوصاً بالنسبة لمجموعة الخزف التي كان أول من دونها فعلاً. ويدخل خريطة لمقابر عالي الرئيسة التي قدر لها أن يعاد طبعها مرارا، وفيها يتعرف القبور

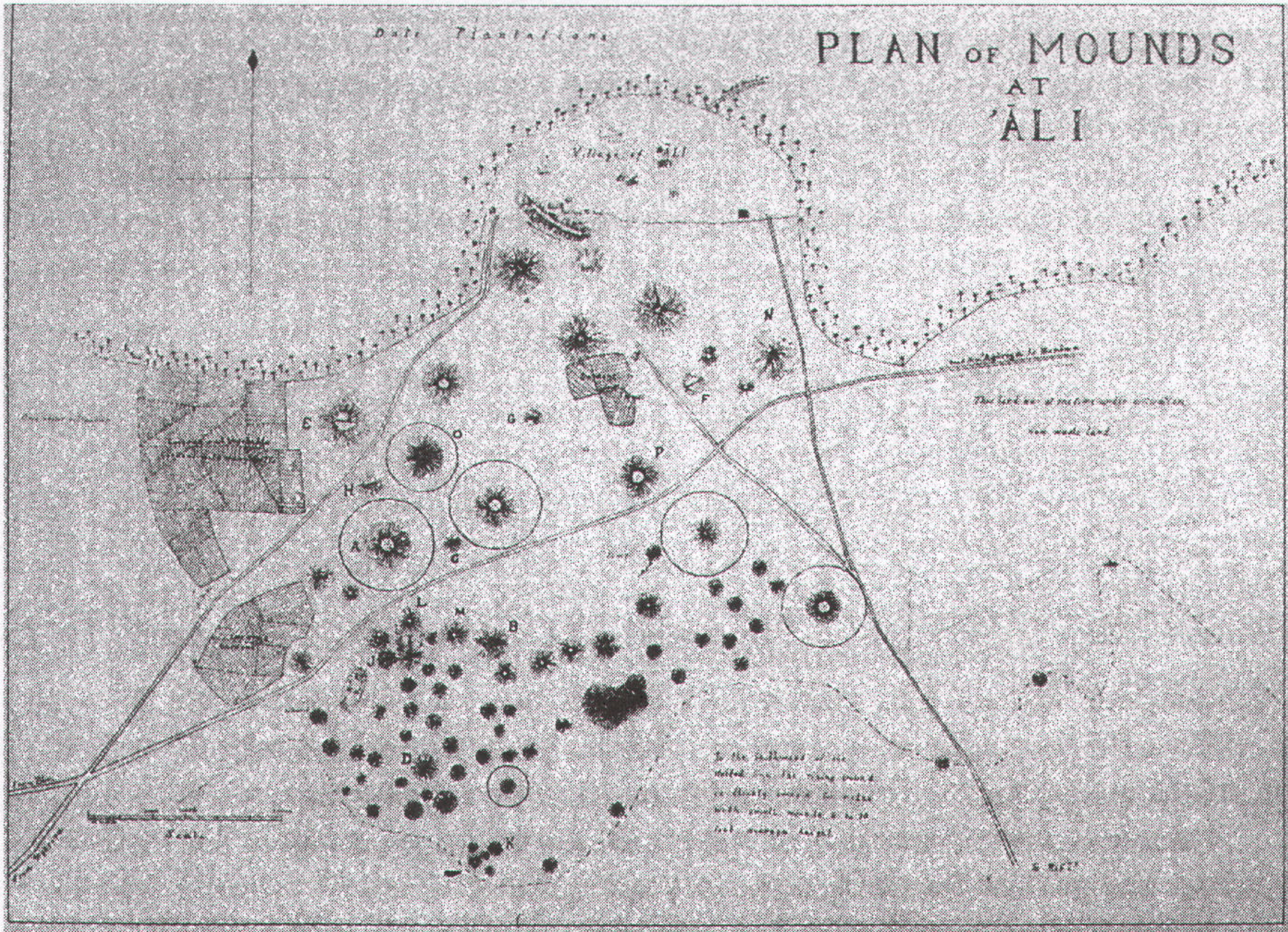
---

* يقصد طبقات سفلية ربما ضمت آثاراً تعود إلى الفترة المشهورة بوادي الرافدين (العبودي) .



٢–٣ تلول المقابر كما صورها بريدو

(من كتاب The Archaeological Survey of India, 1908-9)



٢–٤ خريطة بيردو لمقابر عالي – القبور الملكية، (من كتاب The Archaeological Survey of India, 1908-9)

التي (نبشها) ديوراند، وتلك التي عملت بها عائلة بنت (شكل ٢-٤). وتبين خريطته للمنطقة المقاطعة الشرقية للجزيرة العربية، التي كانت مقسمة آنذاك بين قبائل الحسا المختلفة، على أنها البحرين. وبالتأكيد لم يكن هذا اسمها في زمانه، لكنها تشير إلى احتمال امتداد الجماعة الدلمونية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد.

وهناك ما يبدو للاعتقاد بأن الطباعين الهنود في كلكتا قد واجهوا بعض العناء مع مخطوطة الكولونيل، كما الحال بالنسبة لنصوص ديوراند قبل أكثر من عشرين عاما. ففي الفقرة الثالثة من الملاحظات التمهيدية على "التاريخ" هنالك إشارة وضعت بين قوسين إلى (Phlical Ophir) ولعل المقصود بها: (Biblical) أي خاصة بالكتاب المقدس. وتظهر في أماكن شتى من كتابته مثل هذه التصحيفات، ومن الصعب الاعتقاد بأنه كان يحتملها لوأنه علم بها. وتقرير (بريدو) جدير بالملاحظة بسبب نغمة الحنق العميق التي كتب بها معظمه؛ فهويتذمر بمرارة ومراراً حول تكاليف الحفر والمطالب الباهظة للأيدي العاملة معه.

ويضع تقرير بريدو في مجمله علامة البداية الحقيقية للملاحظة المضبوطة لمقابر البحرين. ولا يعرف الآن أين توجد مواد حفريات بريدو، مع أنه يعتقد أن بعضها لا يزال في الهند.

وفي عام ١٩٢٥ كلف السير فلندرز بتري عالم آثار شاب هو إيرنست مكاي بزيارة البحرين لفحص المقابر. وكان بتري رجلا ذا طاقة بلا حدود، عبقرياً في تركيب الدليل، ميالاً إلى حد بعيد إلى التخمينات الخلاقة الجريئة. وفي عام ١٩١٤ كان قد حاول إثارة اهتمام ت.ي. لورنس، عالم آثار شاب آخر يعمل في الشرق مع بتري في مصر، في الحفر في البحرين لصالح المدرسة البريطانية. ويقول لورنس في رسالة إلى صديقه د.ج. هوجارث في فبراير من عام١٩١٢ :

«تكلم معي البروفيسور بتري مرتين أوثلاث مرات في مصر عن الخليج العربي والعربية

السعودية، وقال لي أن بنت قد استخرج عاجا (في وقت سابق) من البحرين– وعندما وجدنا شيئا غريباً من بلاد ما بين النهرين – مثل أرجل الثور في مواضع من قبل التاريخ (واحدة آمل أن تذهب إلى أكسفورد -حقيقة أشياء جيدة) صرح أنه يعتقد أن العائلات الأولى جاءت من البحر من عيلام أو ما حولها إلى مصر؛ وأن البحرين كانت مسرح مغادرتهم. وأخيرا، وفي أسبوعي الأخير معه اقترح علي الذهاب إلى هناك للحفر ، لنقل العام القادم، كموسم تمهيدي يتبعه ثان على نطاق أوسع، إذا بدا واعداً. وقال إنه يستطيع توفير التمويل.

«قلت له إني سأسألك رأيك في الأمر ... أرغب في أن أحفر في الخليج الفارسي، وبما أن البحرين بريطانية اسمياً، أعتقد أننا نستطيع أن نقوم بالعمل. المسألة كلها تتوقف على ما عثر عليه بنت».

ولم يتمخض عن هذا الاقتراح أي شيء، وتحول لورنس إلى اهتمامات أخرى، توجه من خلالها إلى التاريخ ، بل والأساطير ولم تعد الآثار تهمه في شيء.

وفي خضم مشاغله الأخرى وجد بتري وقتاً لنشر مجلة مشهورة ، "مصر القديمة" ، وفي أحد أعدادها التي صدرت إبان الحرب العظمى تناول الدليل على نفوذ أهل ما بين النهرين أو صلاتهم مع مصر ما قبل الأسر. ويورد بتري في كتابته عن الفن في ذلك العصر:

« لا يوجد للإيحاءات القوية لبلاد ما بين النهرين كما أشرنا من قبل، أي مثيل في الشرق. ويبدو أنهم ينتمون إلى شعب عيلامي أو أصل وفكر ينتمي إلى منطقة نهر دجلة، وتطوروا على منوالهم الخاص. ومن شان وجود الملاحة كعامل هام أن تكون ضد فكرة قدومهم إلى مصر عبر الصحراء العربية. ويبدو الاحتمال المرجح أنهم تفرعوا عن مستوطنة ما في الخليج الفارسي (مثل جزيرة البحرين) أو الساحل العربي الجنوبي، ومن هناك جلبوا من موطنهم الثاني أسلوبه وأفكاره إلى مصر».

ليس واضحاً ما الذي زرع هذه الفكرة في ذهن بتري، ولا نعرف ما الذي عرفه عن " جزيرة البحرين" فقاده إلى هذا الاعتقاد الجدير بالملاحظة. ولكنه عاد إليه ثانية في كتابه " نشؤ مصر" الذي نشر قبيل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . وهذا الكتاب مزيج غير عادي من المعلومات مستمد من العمل لنحو ستين سنة في وادي النيل، ويحاول شرح ما دخل في تكوين المجتمع الذي برز قراب نهاية الألف الرابع قبل الميلاد (وإن كان بتري يعتقد بأن التاريخ كان أبكر من ذلك) ، والذي أدى إلى روعة الملكية المصرية التي تشهد عليها فترات الخلافة الطويلة للأسر. ومن خلال فصل بعنوان "شعب الأسر" يطور بتري مفهومه عن غزو من الشرق كواحد من العناصر الجوهرية في تطور الثقافة المتميزة التي كان لها أن تزدهر لهذا القدر من الزمان.

«إن الشخصية المتميزة للأسرة الأولى ، والتي تميزها عن جميع أشكال الحكم السابقة ، هي غزو وتوحيد مصر كاملة. وهكذا أصبحت خاضعة لقبيلة حوروس حاملة الصقر التي كانت العد والطبيعي للعومو، القبيلة الحاملة للنبتة. وهذه القبيلة الحاملة للصقر نشأت بالتأكيد في عيلام، كما يشير إلى ذلك البطل والأسود على مقبض الأراك للمدية رقم ٣٥ . وذهبوا إلى الخليج الفارسي واستقروا في القرن الأفريقي. وهناك اعتبروا أرض بونت، المقدسة عند المصريين اللاحقين، مصدراً لجنسهم. وأما أولئك الذين ذهبوا إلى البحر الأحمر فقد شكلوا الغزاة المنتمين للأسر الحاكمة الذين غزوا مصر قادمين من طريق القصير – قفط. وذهب آخرون إلى سوريا وأسسوا، صور، وصيدا، وأرادوس المسماة على اسم موطنهم في الخليج الفارسي .(سترابو XVI, iii,4)

من المتفق عليه عموماً الآن أن هنالك آثاراً واضحة لتأثير بلاد ما بين النهرين في الثقافات السابقة على عهد الأسر الحاكمة في مصر، وإن كانت الكيفية التي انتقلت بها إلى وادي النيل غير واضحة. وبالتأكيد فإن أحد الاحتمالات هوأن التجار أوالبحارة الذين استخدموا أوعرفوا قوارب أهل ما بين النهرين وصلوا إلى مصر عن طريق البحر الأحمر. وتوحي بذلك

بصفة خاصة النقوش الصخرية لمثل تلك القوارب في الصحراء المصرية الشرقية، وظهورها في مشغولات فنية من الأزمنة المتأخرة من عهد ماقبل الأسر. وأما الطريق التي تقطع شبه الجزيرة العربية براً فهي احتمال آخر.

وكان إيرنست مكاي مرشح بيترى الأخير، وبديل لورنس في استكشاف آثار البحرين، فقد سبق له العمل في الآثار الفلسطينية في السنوات اللاحقة مباشرة على الحرب العظمى وقدر له أن يكون اسماً معتبراً في الهند بعد ذلك، حيث أنشأ برنامج نشاطه في علم الآثار، ورثه وطوره تطويراً واسعاً بعد ذلك السير مورتيمر ويلر الذي قدر له أن يلعب دوراً صغيراً في تاريخ آثار البحرين فيما بعد.

قدر لعمل مكاي في الهند أن يكون له صلة كبيرة في فهم ماضي الخليج، وبصفة خاصة في البحرين . وحين حان الوقت لفحص الدليل الذي كشف عنه الدنمركيون في قلعة البحرين في الخمسينيات والستينيات بات واضحاً أن هنالك صلة قرابة وثيقة بين البحرين ومدن وادي الهند، نتيجة تجارة الخليج البعيدة المدى في الألف الثالث قبل الميلاد. وفي عام ١٩٢٥ سافر مكاي إلى البحرين للتحقق من " طبيعة القبور ومحتوياتها" . ونشر تقريره في السلسلة التي أسستها جمعية الاستكشاف المصرية والتي أسستها أميليا إدوارد الشهيرة، مؤلفة كتاب "One Thousand Miles up the Nile"، (ألف ميل عَبْرَ نهر النيل) هو من الروائع الصغرى في أدب الرحلات وعلم الآثار. واحتفظت الجمعية التي أسستها بسياسة نشرات سريعة ومفصلة حول حملاتها ، واستجاب مكاي لهذا الإجراء على الفور.

والمجلد الذي يظهر فيه تقريره بعنوان " البحرين والحمامية" نادر بصورة غير عادية. والحمامية موقع ينطوي على خليط من عهد ما قبل الأسر والمصريين اللاحقين ورد ذكره في المجلد نفسه. ومن المحتمل أن يكون محرروه قد قرروا أن البحرين وحدها لا تستدعي مجلداً مستقلاً (والحمامية، بالمصادفة، مشهورة في الآثار المصرية من حيث كونها الموقع الوحيد

من عهدما قبل الأسر نشر عنه حتى ذلك الحين) .

وتقرير مكاي تلخيص حريص وخبير لما أنجزه من أعمال، فهو يصف بإيجاز عمل سابقيه ثم يتابع مباشرة إلى الوصف المفصل للمقابر؛ وهوحقا أول من حلل الأساليب المختلفة للبناء الذي تكشف عنه القبور البحرينية تحليلاً دقيقاً.

وعلى الرغم من أن مكاي كان أكثر ما يكون حريصاً بشأن عمله إلا أنه خرج نوعاً ما عن خط سيره في بعض استنتاجاته؛ فقد اعتقد أن البحرين ما كان لها سكانا بهذا القدر الذي توحى به أعداد القبور، وأن معظم المدفونين قد جيء بهم إلى الجزيرة، مع أنه كان يعلم بوجود قبور مماثلة في عمق الأرض العربية. وهولا يلزم نفسه بمسألة الأصل الفينيقي لعمليات الدفن مكتفياً بترديد تأكيد المتحف البريطاني أن المادة التي عرضها «بنت» على تلك المؤسسة تثبت الأصل الفينيقي للقبور وساكنيها.

ولقد خلص نفسه فعلا من رأي قاطع ، إلى حد القول: إن البحرين لا يمكن أن تكون دلمون، رغم جودة تاريخها المثيرة للإعجاب. ويقول إن هذا ثابت لأن السجلات القديمة تبين أن النحاس كان موجوداً في دلمون ، ولم يفهم على ما يبدو دور الجزيرة كمستودع، مع أن بعض سابقيه كان لديهم على مايبدو معرفة طفيفة بأن ذاك كان جزءاً من قصة دلمون – البحرين. و في أعمال الباحثين المتأخرين اعتراف بتجارة النحاس كعنصر له أهمية عميقة في تاريخ البحرين وتماثلها مع دلمون.

رسومات مكاي ممتازة، وهو أول من طرح مخططات دقيقة للقبور وبنائها . ويقدم صفحة من رسومات الخزف مع أنه لا يعرض أية آنية يمكن تعرّفها على أنها من أوانى الألف الثالث قبل الميلاد المميزة للبحرين والمعروفة بأنها مشغولات "باربار" و"الحافة – السلسلة" . ويستخدم خريطة بريدو ويقر بمديونيته لتقريره بالصورة اللائقة .

وبعد وقت قصير من زيارة مكاي للبحرين ظهرت وثائق لعلها الأكثر غرابة في سجل

تقدم علم الآثار في البحرين على مدى القرن الماضي، وهي "البحرين ، تلمون والفردوس" ، التي نشرت عام ١٩٢٨ في الأوراق الجليلة للمعهد الحبري الكتابي بروما. وكان المؤلف يسوعياً مشهوراً بعلمه حتى بين تلك المجموعة من العلماء الأذكياء ورجال الدعاية في الطائفة الكاثوليكية ، وكان اسمه إدوارد باروز.

ولقد عمل باروز في العديد من الحفريات التي قامت بها الفرق البريطانية وغيرها في جنوب العراق، في الأرض التي كانت تدعى سومر. وكان موجوداً في الحفريات الهامة التي قام بها «ليونارد وولي» في أور، وكان مسئولا عن فك رموز عدد من النصوص القديمة المحفوظة على ألواح من الفخار المحروق من أرشيفات دويلات المدن في بلاد ما بين النهرين.

ولعل اهتمام باروز بأرض فردوس السومريين قد برز إبان هذا العمل. ولقد كان العديد من العلماء الألمان والأمريكان المتخصصين في النصوص القديمة قد تعرفوا فيها إشارات لدلمون (أوتلمون بالصيغة السامية) . وقد حفزت بعض هذه النصوص التخمين المتباين بشأن طبيعة هذه الأرض المقدسة من الطراز البدائي ، وأصلها ، وحتى أصول الشعوب السومرية ذاتها.

ويمكن تناول اهتمام باروز من ناحيتين: الأولى اهتمامه العلمي باعتباره متخصصاً في دراسة النقوش وفقه اللغة الذي يمكنه من تحليل أسماء الأماكن من النصوص القديمة بصورة ملائمة، والأخرى كونه كاهناً مسيحياً بمقدوره التعرف على الأساطير التي كان عليه هو نفسه أن يروجها من خلال قيامه لوظائفه الكنسية.

وعلى كل حال، فقد اتجه باروز إلى دراسة الطبيعة الفردوسية لدلمون – البحرين، والمعنى الذي يمكن إخفاؤه مع اسمها بانكباب ملتزم مثابر، بل ويمكن القول باهتمام يقترب من الاستحواذ .ويبدو أيضاً أن الاستحواذ ظاهر في العرض الفعلي لورقة باروز ،لأن كل كلمة، بما في ذلك الإشارات المرجعية في جميع اللغات التي كان باروز ضليعاً ضلوعاً فائقاً فيها،

مكتوبة بخط اليد بصيغ نقوش مختلفة تشير إلى الخط المائل أوالتنويعات الأخرى. كما يستخدم أيضاً حبراً من ألوان مختلفة من أجل التمييز أو التأكيد بقدر أكبر. وكان باروز رجل دين عبقرى وصبور، وأصدر تقريراً يستحق الذكر وإن كان من الممكن اعتباره غريباً بصورة واضحة. وإن لم يكن لأي شيء آخر، فإن اهتمامه بعلم مفردات الاسم " دلمون" (الذي ما يزال لغزا) يمكن أن يكافئ الدراسة.

وكان اهتمام باروز في جوهره في سبر غور معنى اسم البحرين القديم،فبدأ بالنسخة السومرية، مشيراً إلى أن الأحرف المسمارية NiTuk (مع ki مضافة كصفة محددة لا تلفظ لتدل على أن الكلمة اسم لبلاد) يمكن أن تكتب دلمون. ولاحظ أن تيلمون معروفة في كثير من المرات على أنها مصدر التمور. (ويميل إلى استخدام لفظة تيلمون السامية أكثر تكراراً من لفظة دلمون السومرية) ثم يشير إلى أن NiTuk يمكن أن تلفظ في السومرية ب "Dugud" ، وأن العلامات تحمل معنى " مهيب" أو" جليل" . وفي حالة Dugud أي العظيم يعتقد أن Dugud ممكن أن تكون اسما ملائما لجزيرة مقدسة مثل دلمون: وبهذا المضمون يمكن أن توحي ب " مبجل" التي يود أن يضيف عليها لمسة " مظلم" ناسبا هذا بدوره إلى الكتلة الهائلة المركزية المسماة" جبل الدخان" ، وهوالاسم الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم.

بخطى واثقة مثل تيس الجبل أو الوعل يقفز من صخرة لغوية إلى أخرى متنقلاً بين نخبة مبهرة من الألسن القديمة. فهويتعرف صلة دلمون البحرين بصهر النحاس، رابطا التجارة في العصور الغابرة بسمعة البحرين وشرق الجزيرة العربية التالية في صناعة وتصدير البضائع النحاسية.

وفي نقده جزئية ذات دلالة سلبية ذات مغزى ، فهو يلاحظ أن الاعتراض الذي يمكن تقديمه ضد المعادلة القائلة إن البحرين تساوي دلمون كان غياب أية صلة مع اللؤلؤ في

الأزمنة القديمة. ويبدي ملاحظة أنه كان هناك محاولة لاشتقاق **NiTuk** من الكلمة التي تعني "لؤلؤ" في اللغة التركية واللغة الهنغارية القديمتين، لكنه يستبعد ذلك لأنه لا علم له بالصلة بين الجزيرة الخليجية والتجارة باللؤلؤ. ولقد أثبت علم الآثار اللاحق أن مثل تلك التجارة كانت منتعشة في البحرين وشرق الجزيرة العربية لمدة ٥٠٠٠ سنة على الأقل.

ويغوص في ملحمة جلجامش مجابها البحار المتوهجة المتألقة حول البحرين، ويتعرف جنة «سيرودي» الساحرة وأشجارها من الجواهر (انظر الفصل العاشر) بالتوهج الذي يقدمه الوميض. ويحدد موقع جزيرة سيرودي في الخليج ويذكرنا بأنها في نهاية المطاف أصبحت سيبيل الإيريثرية، الأكثر جدارة بالملاحظة أنها ابنة بيروسوس. ثم كان المؤرخ الكلداني من عصر الملك سيلوسيد الذي دون حكاية أوانس، المخلوق البرمائي الغريب الذي نِصْفه رجل ونصفه الآخر سمكة ، والذي جلب فنون الجنس البشري لأسلاف السومريين ثم عاد ،في كل ليلة إلى مياه الخليج.

والعبرية والعربية مطوعتان لباروز فيبحث بين الجغرافيين العرب عن سند لما لديه من نسب ينسبها. ويأتي بكل الأدلة معا في تقفيلة رائعة يتعرف فيها تلمون والبحرين والفردوس ؛ فالأرض جنة إنكي.

ولقد طالما حير معنى اسم الجزيرة العلماء وأربكهم. فالبحرين ذاتها تعني «البحران»، ولقد ورد بالقرآن واقعة التقاء موسى والخضر في مكان قيل إنه البحرين (انظر الفصل العاشر)، وافترض معلقون سابقون أن هذا يشير إلى مكان بالقرب من السويس حيث يقترب البحر الأحمر من البحر المتوسط اقترابا شديدا. أما اليوم فمعظم الآراء تجمع على أن اللقاء تم في الخليج وتتفق على أن "البحرين*" هي المياه المالحة والمياه العذبة، والأخيرة تتدفق

---

* هذا الإجماع الذي يزعمه المؤلف إن صح لا يستطيع تجاهل حقائق الجغرافيا والناريخ التي تثبت أن سيدنا موسى عليه السلام أرسله الله إلى فرعون مصر وقومه ليدعوهم لعبادة الواحد الأحد ولا يمكن الإنجرار وراء أساطير سومرية لننفي بها حقائق تاريخية ثابتة (د.السقاف).

بصورة مدهشة من ذات قاع البحر شمال جزيرة البحرين.

لقد أشار بعض المفسرين إلى أن كلمة دلمون بصيغتها السومرية تعني: "مكان جلب الزيت"، وهو الاسم الذي تأكد حقيقة بعد اكتشاف النفط فعلا في البحرين عام ١٩٣٢؛ فديمر، العالم الألماني المشهور،كتب عام ١٩٢٠ موحيا أنه في العصور الغابرة كان الايديوغرام **NiTuk** يعني" سفينة زيت.والزيت الذي يشير إليه هو القار بالطبع، والذي كانت الرواسب السطحية منه معروفة للسومريين. وبالفعل، لا يزال للقار دور يلعبه في تطور علم الآثار في الخليج.

وبطبيعة الحال فإنه من غير المتوقع أن يُوَافق العلماء اليوم باروز في كل ما ذهب إليه، لكن أمرا واحداً يظل مؤكداً: ألا وهو العمل الذي باشره بهذا القدر من الجَلَد ، والذي لا يستطيع إلا قلة من العلماء أن يمتلك الانكباب أو المهارات ليقتفيه، مما يجعله جدير بالمراجعة والنظرة الجدية.

وكان آخر علماء الآثار الذين سبقوا الحملات الدنمركية منذ الخمسينيات فصاعدا عالم أمريكي شاب هو «بيتر بروس كورنوول». الذي نشر مقالته " حول موقع دلمون" في أكتوبر عام ١٩٤٦ . وهذه المقالة، وإن تكن قصيرة نوعاً ما، تلخص تلخيصاً أنيقا الكثير من أعمال العلماء السابقين ، وتجمعها معا ، وتطرح الكل في ثنايا عرض مقنع للمعادلة القائلة إن البحرين تساوي دلمون القديمة.

ولقد زار كورنوول البحرين والمقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية في شتاء عام ١٩٤٠-١٩٤١ وكان مقدراً لإسهامه في دراسات دلمون أن يكون على قدر كبير من الأهمية، فقد حفر في الجزيرة بصورة موسعة - وبقدر أقل في الأرض الرئيسة، وكشف عن بعض الأدلة ذات المغزى، لعل أجدرها بالملاحظة البناء المحير الذي اكتشفه في المنامة وشرحه في مقالته، والذي افترض أنه من الممكن أن يمثل حجرة مجلس، ربما تعود إلى ما قبل

الإسلام، وقد وعثر عليه تحت مستوى الشارع في المدينة المفقودة الآن.

وكان كورنوول قبل نشر مقالته في مجلة المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية قد قدم أطروحة لنيل الدكتوراه من جامعة هارفارد بعنوان "تاريخ البحرين قبل سايروس". ومن الواضح أنه كان يتوقع نشر أطروحته، ولكن من المؤسف بالنسبة لإبراز أهمية البحرين القديمة، أن ذلك لم يحدث؛ فقد كانت بحثا ثاقبا جديرا بالملاحظة من بين كل المراجع التاريخية والنصوصية المتعلقة بدلمون في المصادر القديمة، مع تحليل حريص للدليل؛ كما كانت في مداها وحساسيتها تكاد تكون غير مسبوقة. وهكذا تظل منجما من المادة الخلابة ذات المغزى للعالم المجتهد في العلم الدلموني.

وكانت مقالة كورنوول قد نشرت عام ١٩٤٦ ردا على مقالة أخرى نشرها عالم العلوم السومرية الأمريكي «صاموئيل نوح كرامر»، الذي وقف وحيدا بين زملائه ضد قبول مطابقة البحرين بدلمون. وظل كرامر في السنوات الأخيرة صامتا حول هذه المسألة، وترى معظم الجهات أن كورنوول قدم نقيضا مقنعا لحجته.

وقدم كورنوول إسهاماً هاماً آخر لدراسات دلمون حين قام بنشر خطابين من أحد الموظفين الكاشيين يتخذ من اليابسة الرئيسة مقرا له، إلى زميل له في بابل. ويتذمر من سطو العموريين الرحّل على التمور التي تعد للشحن إلى بابل. كما يشير أيضاً إلى امرأة غامضة، لعلها في رأي كورنوول كاهنة (سوتين)، كانت قد عبرت من البرية إلى البحرين (انظر الفصل السابع).

يربط كورنوول دلمون - البحرين ربطا واضحا بسومر، ويضفي اكتشافه لدبابيس شعر (من النوع الذي استخدمه السومريون لتثبيت كعكات شعرهم المميزة) في بعض القبور حيوية على ما قدم من دليل. لكنه غير مصيب في خصيصتين من خصائص علم الآثار:

وهما تاريخ حجر ديوراند الذي يعود إلى القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد، وروابي القبور التي تقع في حقبتين: من النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وإلى القسم الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، والقرون الأخيرة من الألف الأولى قبل الميلاد.

لم تكن الحرب العالمية الثانية بالزمن المناسب لأي نوع من أنواع العمل الجاد في علم الآثار في منطقة على هذا القدر من البعد بقدر ما هوعليه الخليج العربي. وتصاعد الاعتراف بأهمية الخليج حين أدركت القوى اعتمادها على مصادر إمداد البترول لصناعتها وآلتها الحربية. وفوجئت البحرين بقصف الطليان لها، ربما خطأ، ولكن لا يمكن القول بأن الحرب قد أثرت تأثيرا كبيراً في الحياة في المنطقة ككل. ومع ذلك ، كانت أهميتها المستقبلية تتحدد في تلك الأيام، وكان مقدورا لشعبها، وإن كان على غير علم منهم، أن يعيشوا عما قريب تحولا مذهلا في حياتهم، حين تحولت بؤرة احتياجات العالم للطاقة صوب الصحراء العربية.

وفي عام ١٩٥٣، وبعد انتهاء قرابة سبعين عاما من البحث العارض والمتقطع حلت البداية الحقيقية لعلم الآثار الجاد في الخليج، فما سبق من مثل هذا العمل حتى تلك النقطة كان في الغالب نتيجة مبادرات فردية، حماسية في جوهرها وغير منسقة. وعلى الرغم من الاهتمام الذي كانت تكتسبه التقارير الجادة عما تم من عمل هناك، خاصة في البحرين، إلا أنها لم تؤد إلى أي برامج مدروسة أو معززة من جانب مؤسسات جادة، الأمر الذي يثير الاستغراب نوعاً ما. ولكنه في عام ١٩٥٣ وصلت الحملة الدنمركية الأولى إلى البحرين وباشرت العمل. وقدر لهم في غضون السبعة عشر عاماً التالية أن يغيروا حالة المعرفة بآثار الخليج وأن يسترجعوا للعالم حضارة كانت قد نسيت لآلاف السنين.

لقد روى جيفري بيبي حكاية الحملة الدنمركية بصورة لطيفة في كتابه المعروف "البحث عن دلمون". ويستحق بيبي – وقائد الحملة الأصلي– أن يذكرا لا كمنشئين

مشهورين ورجلين يعود لهما الفضل في استرجاعهما للعالم قسماً هاماً منسياً من تراثه فحسب، بل أيضاً لأنهما من بين أكثر علماء الآثار حظا ، والحظ ميزة على القدر ذاته من أهمية الاقتدار التقني، ولوفي علم الآثار على الأقل. ولقد كتبا بالاشتراك مع زملائهما فصلا جديدا في تاريخ العالم ، وأظهرا أنه قبل ٤٠٠٠ سنة أو أكثر انتعشت في الخليج حضارة تضاهي الحضارات العظيمة المعاصرة لها في مصر، وبلاد ما بين النهرين، وفارس، ووادي الهند.

وتظهر الطريقة التي تلقى بها الدنمركيون أولا الإذن بالعمل في البحرين مدى أهمية توفر طالع الحظ لإرشاد علماء الآثار. فقد تلقى المستشار البريطاني لحاكم البحرين، السير شارلز بيلجريف، وهو رجل له اهتمام علمي متواضع وإن كان قليل الخبرة بعلم الآثار، طلبين في أسبوع واحد بالإذن بالقيام بحفريات في آثار البحرين : كان أحدهما من الحملة الدنمركية التي تتخذ من جامعة آرخوس في موسجارد بشمال جوتلاند مقرا لها، والثاني من جامعة بنسلفانيا الأكثر ثراءً ونفوذاً . وإذ شعر بلجريف بعجزه عن إصدار حكم واع بشأن الأهلية المهنية لأي من الجهتين فقد رأى أن أكثر السبل إنصافا في التوصل إلى القرار هي لعبة الحظ بقطعة نقود. وقذفت قطعة النقود! وأصبحت الدنمرك حرة لاستعادة ارتباطها بالخليج. وكانت قد سيرت حملة سابقة قبل ٢٠٠ عام تولاها فريق أرسله فريدريك، ملك الدنمرك، في ظروف مرعبة ، فلم يعش من الفريق غير الضابط البحري الشاب كارستن نيبور. وبمثل هذه الظروف العشوائية صنع تاريخ علم الآثار، ولكن من الصعب عدم التساؤل عما إذا كان بمقدور البنسلفانين الأكثر ثراء أن ينجزوه .

إن ما حَوَّلَ طبيعة ومدى علم آثار الجزيرة العربية في العشرين سنة التي خلت، هوعلى وجه الخصوص مساهمات دوائر الآثار التي أسستها الحكومات المختلفة في المنطقة. وفي الوقت ذاته ، كان هنالك وعي متزايد لدى الحكومات المسئولة عن هذا الجزء من تراث العالم بأهمية ما بعهدتهم؛ فأسست معظم الدول دوائر للآثار؛ وسنت القوانين لحماية

المواقع الأثرية والتاريخية من الكشف أو التنقيب غير المراقب، ومن النهب على حد سواء.

ومن بين الانجازات إصدار مجلات علمية ترصد التقدم العلمي في الماضي في البلد المعني. وتجدر الإشارة إلى اثنتين من هذه الدوريات: أولا، "أطلال، دورية الآثار في المملكة العربية السعودية"، والتي لا تزال تصدر بانتظام منذ عام ١٩٧٧، ورصدت التقدم في مسح الأراضي الرائع في المملكة منذ عام ١٩٧٦ فصاعدا. وفي أثناء المسح تم تصنيف (كتالوج) هائل للمواقع من أرجاء المملكة كلها، والتي لا بد أنها واحدة من أكثر الأراضي صعوبة فيما يختص بانجاز هذا العمل لأنها ظلت أوسع المناطق غير الممسوحة في العالم القديم حتى باشرت دائرة الآثار مع المتحف السعودي ببرنامجها الطموح. أما المجلة الثانية المهتمة بعلم الآثار في شبه الجزيرة العربية فهي "دورية الدراسات العمانية" التي ظهر العدد الأول منها عام ١٩٧٥، وهذه أيضاً قدمت تغطية قيمة لمسيرة التراث الأثري العماني المتميز*.

وكان العمل الثاني الذي حثت الحكومات المختلفة عليه في محاولاتها الوصول إلى فهم لماضي شبة الجزيرة ونقله إلى سكانها المعاصرين إنشاء المتاحف لحفظ وعرض تراث المنطقة العرقي والأثري. ولقد أصبح هذا العمل جانبا خلاقا ومجددا من أعمال دوائر الآثار في الدول المعنية.

وكانت المحاولة الأولى لإنشاء متحف تستخدم فيه تقنيات الاتصالات والعرض المعاصرة تلك التي تمت في البحرين عام ١٩٧٠، وقد افتتح في مناسبة المؤتمر الدولي الثالث للآثار في آسيا، الذي عقد في تلك الدولة في شهر مارس من ذلك العام. وعلى الرغم من أن المتحف كان مؤسسة متواضعة إلا أنه أثار التعليق الحار والاهتمام الكبير في البحرين والخليج على السواء. وكان في جوهره متحفا أثريا، مع أنه حاول أيضاً أن يوصل لزائريه

* كذلك تم إصدار دورية باسم "آثار الإمارات العربية المتحدة"، وقد أشرفت على إصدارها دائرة الآثار والسياحة بالعين (أبوظبي) في بداية الثمانينات (العبودي).

بعض عناصر العديد من الأساطير القديمة والخرافات المرتبطة بدلمون-البحرين، إلى جانب شيء من أثنوغرافيتها الغنية المتنوعة. ولقد قامت البحرين ببناء وتجهيز متحف جديد رائع يشكل قسما من مجمع البنايات على كورنيش المنامة، ويحتوي بلا شك على أهم مجموعات المواد الأثرية من الخليج، كما يحتوي أيضاً على مجموعات أثنوغرافية، ونماذج من الفن البحريني الحديث.

وكانت الخطوة الثانية ذلك المتحف الهام الذي بنى في دولة قطر المجاورة للبحرين. وكان الأمير الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني قد جعل من إنشاء المتحف واحدة من أولى أولوياته المعلنة حين تولى الحكم في بلاده في فبراير عام ١٩٧٢ . وأقيم متحف قطر الوطني على موقع مهجور مهدم يخص عائلة الأمير، على القلعة البحرية في الدوحة العاصمة. ومن حسن الحظ بصفة خاصة إحتواء الموقع على بيوت تقليدية خربة لكنها لا تزال جميلة، وكان الأمير قد ولد في إحداها. وقد تم ترميمها وشكلت جزءاً متكاملاً من المتحف مع البناء الجديد المعروف بمتحف الدولة، والذي ضم المجموعات الأثرية والأثنوغرافية الرئيسة (لعلها الأكثر أهمية في شرق الجزيرة العربية)، إلى جانب متحف بحري وبحيرة ضحلة يرسو عليها نماذج من القوارب الشراعية الخليجية التقليدية.

وشاركت عمان أيضاً في برنامج تطوير المتاحف الخليجية، وافتتح متحفها الأول في السيب لتعريف زوار البلاد الواسعة الغنية ببيئتها وتاريخها. وأخيراً أعيد ترميم واحد من بيوت القرن التاسع عشر العظيمة الجميلة في مسقط وهو" بيت نادر" ليكون متحف العاصمة.

ولعل أجمل متاحف عمان متحف القوات المسلحة السلطانية الذي أقيم أيضاً في منزل مرمم من بيوت القرن التاسع عشر، وهذا منزل ريفي محصن في بيت الفلج في وادي روي الذي يحرس مدخل العاصمة. وقد تم ترميم المنزل ، والذي يعد نموذجا جيدا لفن العمارة العماني في ذلك العهد، ترميما حريصا، ويحتوي الآن على مسح تاريخي للماضي

العسكري الهام للسلطنة.

ودخلت الإمارات العربية المتحدة متأخرة نسبيا في مجال المحافظة على تراثها، لكن لديها اليوم عدة متاحف، أومؤسسات مثيلة أقيمت على أراضيها. ولقد أقيم حديثا متحف في القلعة في دبي، كما تم ترميم قلعة ساحلية أيضاً في رأس الخيمة تحتوي على متحف للدولة ويضم كلاهما على مواد أثرية استخرجت محليا من عدة حملات قامت في الإمارات العربية المتحدة في السنوات الأخيرة*.

واحتفظت الكويت بمتحف أقيم فوق جزيرة فيلكا،التي كانت موقعا للعديد من الاشتباكات واسعة النطاق في أثناء الانسحاب العراقي من المنطقة التي غزاها عام ١٩٩٠ والمجموعات العائدة إلى الألف الثاني قبل الميلاد من مواقع الجزيرة لا تعوض. ومجموعة الفنون الإسلامية التي كونها الشيخ ناصر آل صباح وانتزعها العراقيون نقلت إلى بغداد، ولكن يقال إنها لا تزال سليمة**.

وشرعت حكومة المملكة العربية السعودية في برنامج لانشاء المتاحف هو الأعظم في دول شرق الجزيرة كلها. وكانت إقامة متحف الآثار والأثنوغرافيا في الرياض أول مشروع لدائرة الآثار المؤسسة حديثا عام ١٩٧٤ ؛ ووفر تخطيط الصورة التاريخية للمتحف الفرصة لوضع التسلسل التاريخي للجزيرة العربية في توال يقام بصورة راسخة لأول مرة ممتدا من العصور الحجرية القديمة الدنيا في غرب الجزيرة العربية وحتى ظهور الإسلام وتأسيس المملكة العربية السعودية على يدي الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في العقد الأول من القرن العشرين.

ولقد تم وضع خطط لمتحف وطني مزمع بناؤه على أحد أهم المواقع في مدينة الرياض،

---

* يوجد في الإمارات اليوم ١٥ متحفاً متخصصاً من أبرزها متاحف العين ودبي والشارقة ورأس الخيمة (العبودي)

** وهناك متحف الكويت الوطني ودار الآثار الإسلامية (العبودي).

والذي يحتوي على قصر المربع ، أحد أهم مقار إقامة الملك عبد العزيز. وفي ذات الوقت تم تخطيط ترميم قلعة المصمك، التي احتلها الأمير عبد العزيز في ذلك الحين في بداية حملته لاستعادة إرثه في يناير عام ١٩٠٢ ، وسيحول المصمك إلى متحف لمدينة الرياض يحوي مواضيع العلاقة بين الواحة والمدينة – أحد نماذج التطور الجوهرية في تاريخ الجزيرة العربية – وتوحيد الجزيرة العربية الذي بدأ باحتلال القلعة.

وكان أكثر مشاريع دائرة الآثار ومستشاريها طموحا تكوين شبكة من المتاحف الإقليمية في أرجاء البلاد جميعها، واكتمل منها ستة حتى الآن في جيزان، ونجران، والعلا، وتيماء، والجوف، والهفوف، بالإضافة إلى مخطط لاثنين آخرين في الخماسين، وبين بريدة وعنيزة.

والمتاحف الإقليمية مصممة في الأصل لخدمة المواقع الأثرية والتاريخية ضمن دائرة قطرها ٢٠٠ كلم. وتشتمل هذه المتاحف على محفوظات وسجلات ، وتسهيلات تصوير ورسم، مخازن وغرف لإقامة علماء الآثار الزائرين، وقاعات لعرض المقتنيات التي أتت من المنطقة التي تخدمها. ويحتوي كل متحف على معروضات مشتركة بين المتاحف جميعها تروي تاريخ المملكة وتتعرف علاقة المنطقة التي يمثلها المتحف بالسياق الأكبر لتاريخ المملكة العربية السعودية.

لقد وفر تكوين المواقع أوالمتاحف الإقليمية في جميع أرجاء المملكة العربية السعودية الفرصة لتوسيع وتنقيح المراحل الأثرية والتاريخية التي وضعت في البداية في نطاق دائرة المتاحف والآثار الأكثر تقييدا في الرياض؛ فلكل واحد من هذه المتاحف الست التي اكتملت حتى الآن هدف مزدوج: العمل كمركز للمنطقة الأثرية المحلية، معبرا عن الشخصية التاريخية الجوهرية للمنطقة، وتوفير إطار وطني لتاريخ المملكة العربية السعودية يوضع فيه كل متحف بحيث يحدد إسهام المنطقة في مجمل تاريخ المملكة وآثارها.

وبنيت المتاحف في خطتين أساسيتين متنوعتين بحيث تلائم التضاريس والظروف الطبيعية

المحلية، وسوف تشكل المتاحف في مجملها تأثيرا قويا في تجسيد الوحدة السياسية في بلد على هذا القدر من التنوع والاتساع.

ويجري العمل أيضاً في خطط لترميم وحفظ النصب التذكارية في الموقع الشمالي الغربي الهام في مدائن صالح أو الحجر. وهذا يتألف من منطقة دائرية تقريبا محاطة بالصخر محفور فيها قرابة ١٣٠ قبراً في الصخر أقامها الأنباط بناة البترا بعيداً إلى الشمال.

إن التقدم السريع والباهر الذي أحرزه الدنمركيون في المواسم العشرة الأولى من عملهم في البحرين هوالذي حفزهم على النظر في المحتوى الشامل الذي أقامت فيه دلمون نفسها وانتعش فيه مزيجها الغريب ، بما فيه التجاري والروحي. وفي الوقت ذاته، بدأت تتسرب المعلومات عن نجاح الدنمركيين في الأجزاء الأخرى من المنطقة مما جعلهم يرنون إلى الدول المحيطة بالبحرين، ثم مباشرة العمل في العديد منها.

وكان استكشافهم لتلك المناطق مجزيا، وبدؤوا يضعون الصورة الأثرية لكامل المنطقة من الكويت في الشمال وحتى عمان، وقدمت كل دولة مساهمتها المتميزة في قصة رخاء الخليج القديم. ونتائج ذلك العمل مدونة في ثنايا كتابنا هذا.

ولقد أعربت السلطات البحرينية (التي شعرت بأن كرم ضيافتها أسيئ قليلا من خلال تلك الجولات في أراضي جيرانها)، عن بعض الهواجس، وإن تم ذلك في أرق العبارات. وحين مال عمل الدنمركيين في الدول المجاورة إلى إثبات أسبقية البحرين القديمة في الأهمية في قدر كبير من الحقبة الزمنية التي كانت الثقافة الخليجية فيها في أوج عظمتها، كتموا أية تحفظات كان من المحتمل أن يشعروا بها لولا ذلك.

واحتكر الدنمركيون الميدان لأنفسهم طوال السنوات العشرين الأولى من عملهم من العام ١٩٥٣ فصاعدا. وبعد ذلك في عام ١٩٧٠ جذب قرار عقد المؤتمر الدولي للآثار الآسيوية في البحرين انتباه الجماعات الأثرية من أرجاء العالم جميعها لما كانت تضمه جزر الخليج

والأراضي الداخلية المجاورة لها.

ولقد شارك في المؤتمر، الذي كان أيضاً مناسبة لتدشين متحف البحرين الأول، والذي أوجد جيلا من المتاحف في الخليج، علماء آثار من عدة جنسيات؛ من بينهم اثنان من أشهر العلماء على قيد الحياة هما السير مورتيمر هويلر، وديم كاثلين كنيون. وكان السير مورتيمر ممثلا ليس فقط للأكاديمية البريطانية التي كان أمينا لها، بل أيضاً لعلم الآثار في الهند، الذي كان أحد محدثيه. وكانت ديم قد حفرت على نطاق واسع في الأردن، خصوصا في أريحا، الموقع الذي سيظل دائما مرتبطاً باسمها.

وعرض في أثناء المؤتمر سبع أطروحات تتعلق مباشرة بآثار الخليج، كما استطاع العلماء الذين حضروا المؤتمر، وضيوف الحكومة البحرينية الكريمة التي لا يفوتها من هذا الأمر شيء، زيارة المواقع الأثرية الرئيسة في الجزيرة كافة.

وشهدت السنوات التي تلت مؤتمر عام ١٩٧٠ فرقا أجنبية تباشر تحدي الاحتكار الفعلي الذي استمتع به الدنمركيون. واتجه إلى دول الخليج ممثلون عن أكثر الفروع العلمية تقدما، والتي تم تطويرها في تكنولوجيا علم الآثار من الولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، ومن الأردن والعراق. وتصاعد معدل النشرات التي كانت غالباً مدعومة من دائرة الآثار المحلية تصاعدا هاما، وبدأ الكثير والكثير من الكتب عن آثار المنطقة بالظهور في المكتبات وعلى رفوف المؤسسات العلمية.

ومن بين أحد الأسباب الرئيسة في تقدم دراسة علم الآثار الخليجي ماحدث عام ١٩٨٣ حين عقدت الحكومة البحرينية مؤتمرا واسع النطاق سمي " البحرين عبر العصور" في المنامة في ديسمبر من ذلك العام. وقد صادف العيد مرور مائتا عام على حكم آل خليفة للبحرين. وبتواضع نموذجي ونضج، اختارت الحكومة البحرينية – متجنبة العروض العسكرية والمشاهد التي من شأنها أن تستهوي نظاما أقل استنارة – تخليد هذه الذكرى

بعقد مؤتمر من شأنه أن يبرز الصورة التاريخية لدولة البحرين فيما يربو على خمسة آلاف سنة من وجودها المدون.

وكان مؤتمر عام ١٩٨٣ مغايرا بوضوح من حيث النطاق لسابقه في عام ١٩٧٠ ، فقد حضره ما يزيد على ١٢٠ عالما من أرجاء العالم جميعها ، بدعوة من حكومة البحرين. وعرض ما يربو على ثمانين ورقة في المؤتمر تتعلق بالبحرين في جوانب ظهورها التاريخي جميعها من أقدم الأزمنة وحتى مطلع القرن العشرين.

ونشرت وقائع المؤتمر في مجلدين تحت العنوان العام " البحرين عبر العصور" . ويمتد المجلد الأول "علم الآثار" من الحقبة السابقة على الإسلام مباشرة، والثاني " التاريخ" ويبحث في الحقبة من ظهور الإسلام وحتى بداية تاريخ البحرين الحديث.

ومنذ مؤتمر البحرين ازداد نشر الأعمال الجادة عن آثار الخليج زيادة كبيرة. ويمكن أن نقول اليوم بثقة معقولة إنه قد بدأ تمثيل الخليج في المراجع الأكاديمية بدرجة تتلاءم مع أهمية وتنوع خبراته التاريخية مما يجعله على قدم المساواة مع أقرانه الأكثر رسوخا.

وقام مؤتمر عام ١٩٧٠ في البحرين بدور المحرك لعلم الآثار في الخليج ككل. فقد جاء في الوقت المناسب ، حيث كانت التغيرات السياسية والاجتماعية في دول الخليج تضع في الطليعة قادة أدركوا أهمية الماضي، والحاجة لعرض سجلاته وأدلته المادية، لوضع الأساس السليم للمجتمع المعاصر. وفي الوقت ذاته كانت الاضطرابات في الشرق الأوسط تعني أنه أصبح من الصعب جدا على الفرق الأجنبية العمل في الكثير من البلدان التي كانت تقليديا قد شكلت الأساس لكثير من نشاط العالم الغربي في علم الآثار. فالحرية النسبية في العمل في دول الخليج، وفي العديد من الحالات اهتمامها الواضح بتشجيع إقامة بنية علمية لائقة، قد هيأ الفرصة لكثير من المؤسسات الأجنبية للبدء في حملات في العديد من دوله.

وأثبت الفرنسيون أنهم نشيطون بشكل خاص في هذا المجال. فقد كانت الفرق الفرنسية مسؤولة عن عمل هام يجري في فيلكا (والذي تولوه في نهاية المطاف بعد الدنمركيين) وفي قطر، حيث غيروا تغييرا جذريا التسلسل التاريخي الذي كان الدنمركيون حتى ذلك الحين ينسبونه للأدوات الحجرية التي تشكل جانبا من جوانب الطبيعة المنقحة لشبه الجزيرة القطرية، وفي البحرين حيث عملوا بصورة موسعة على المستويات بعد الدلمونية في قلعة البحرين، وفي الإمارات العربية المتحدة وفي عمان.

وكانت قد تشكلت بعد مؤتمر عام ١٩٧٠ لجنة بريطانية بهدف ترويج مشاركة المؤسسات البريطانية في علم آثار في الخليج، وكانت نشيطة كذلك طوال السنوات التالية. وكان أول أعمالها في قطر في الوقت الذي كان يجري فيه إعداد المتحف الوطني حين كان القيام بمسح أثري للبلاد ضروريا. ومن بين المكتشفات المشهورة (مبينة بتفصيل أكثر في الفصل الثامن) عثرت حملة اللجنة على أول دليل ذي صلة بصانعي خزف «العبيد» من مواقع ما بين النهرين في الخليج السفلي في العديد من المواقع القطرية. وقامت اللجنة بعد ذلك بإرسال حملة في عدة مواسم إلى البحرين. وهذه أيضاً عثرت على آثار عبيدية هامة (في المرخ في البداية) ، وكشفت عن معبد جدير بالملاحظة في الدراز يعود تاريخه إلى الألف الثالث قبل الميلاد. (انظر الفصل السابع)

وكان الأمريكيون أيضاً منشغلين، خاصة في السعودية، حيث كانوا منهمكين في المسح الذي أجرته دائرة الآثار في السبعينيات في طول وعرض المملكة. وكان العديد من الحملات التي بدأتها الدائرة السعودية قد أجريت بمشاركة من المؤسسات والعلماء الأمريكان.

وبوجه عام، كان البريطانيون نشيطين في الإمارات العربية المتحدة وقد قاموا بحفريات موسعة في الدور، على سبيل المثال. وقدم الفرنسيون أيضاً مساهمات هامة لعلم الآثار في الإمارات، في الشارقة، وخاصة في أبوظبي، حيث عملوا في عدد من المواقع التي يعود

تاريخها إلى أوائل وأواخر الألف الثالث قبل الميلاد، في الهيلي والعين. ولم يكن النشاط الألماني حتى ذلك الحين موسعا لكن فرقا من كوتنجن كانت قد عملت في شمل في الإمارات، واحتفظ الدنمركيون باهتمامهم طوال تلك السنوات، وإن كان على نطاق أقل. وكان الطليان نشيطين في سلطنة عمان ، خصوصا في مستوطنة صيد السمك الهامة القديمة جداً في « راس الحد ».

وحديثا أسهمت الدول العربية أيضاً في تقدم علم آثار الخليج، فقد كانت فرق مغربية من المرممين في سلطنة عمان تعمل على ترميم عدة قصور حصينة بهية الزخرفة شيدها حكام البلاد في القرن السابع عشر. وكان الطليان قد سبقوهم في هذا العمل وكانوا مسؤولين عن العديد من برامج الترميم الأصيلة في السلطنة.

وقدم علماء الآثار العرب مساهمات هامة تجاه فهم آثار البحرين ، فكان للفرق الأردنية عدة مواسم عمل بمشاركة المختصين البحرينيين والأمريكيين في روابي القبور ، خاصة في سار. ونتج من هذا النشاط اصداران على درجة من الأهمية (إبراهيم، ١٩٨٣؛ موغال ، ١٩٨٣)

وكانت دوائر الآثار طوال هذه الفترة آخذة في التنامي من حيث الحجم والثقة والمهارات؛ فمزيد من أعمال الكشف عن ماضي منطقة الخليج سوف يقوم به مواطنون خليجيون. وعلى أية حال سيظل المجال جوهريا ، والمنطقة المشمولة واسعة ، الأمر الذي سيجعل بعثات التنقيب الأجنبية موضع ترحاب لزمن طويل في المستقبل.

وطوال القرن التاسع عشر أو في هذه الحدود، والذي تم متابعة النشاط الأثرى في الخليج ظلت الخطوط العريضة لدراسة الماضي القديم للمنطقة ثابتة بقدر ملحوظ. ولقد تعرف ديوراند ، رائد علم الآثار الخليجي، أهمية روابي المدافن ، ورأى فيها دليلاً على حضارة اختفت منذ أمد بعيد. واستوعب أهمية المواقع مثل باربار ، وكان قادرا على رؤية مكانة الخليج الأوسط في علم الآثار بالنسبة إلى أهل بلاد ما بين النهرين وللإسكندر الأكبر.

وكان للفينيقيين نصيب في العديد من الدراسات المبكرة للمنطقة، الأمر الذي يشهد على الأهمية التي احتلها تاريخ المشرق في وعي العلم الأوروبي في القسم الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وعدا مداخلات بيتري الملهمة ، حين يبدو أنه اكتشف بالفطرة صلة بين الخليج ومصر القديمة، وهى البديهية التي لم تكن مقتفاة في حينه، كانت روابي القبور المبحث السائد لمثل هذه الدراسات ، بأي قدر كانت. وتعرف كورنوول متتبعا مكاي أن سلطة دلمون امتدت إلى البرية العربية ، والتي يدل عليها وجود روابي القبور هناك، والتي كانت مشابهة لتلك التي في البحرين.

ويقبع في قلب تاريخ علم آثار الخليج معتقدات رولينسون الاستثنائية الخاصة بمراجعته لملاحظات ديوراند عن حملاته في البحرين في عامي ١٨٧٨-١٨٧٩ ، ومضامين تحليل رولينسون للأهمية العميقة والمدركه للثقافة الخليجية القديمة لدرجة تثير الاستغراب إزاء حقيقة أنه كان على الخليج أن ينتظر حتى وقت متأخر نسبيا من القرن العشرين كي يُقَدِّم له المجتمع المشتغل بالآثار الاهتمام الذي يستحقه بهذا الوضوح.

الفصل الثالث

المناخ، مستويات سطح البحر، الإنسان ورفاقه

لم يكن الإنسان وحده الذي تأثر تأثرا عميقا بمناخ الجزيرة العربية دائب التقلب. فهويتقاسم الأرض والبحر مع مجموعة حيوانية غنية، تكيف الكثير منها بإبداع غير عادي للعيش في بيئة جدباء إلى هذا الحد. وعليه فإنها لفكرة سارة أن يكون وحيد القرن*، ذلك الحيوان الخرافي والسحري، لا يزال يعيش متكيفا تكيفا جيدا في شرق الجزيرة العربية.

ومثله مثل العنقاء، فإن وحيد القرن حيوان صحراوي بقدر ما هوحيوان خيالي، ومن يدري إلى أي مدى كان نتاج حكايات جلبها الرحالة القدماء معهم من التخوم البعيدة للعالم المعروف. ومع ذلك تظل الحقيقة أن وحيد القرن هو المارية**، ذلك المخلوق الذي يجمع بين الضخامة والجمال، والقوة مع الهدوء الظاهر. فوحيد القرن من سكان الأرض الضبابية التي تفصل بين الأسطورة والحقيقة؛ ففي لحظة يكون مرئيا ثم يختفي في الأخرى. وهومشهور بحساسيته للعذارى؛ وحقا على قدر من الحساسية لدرجة أنه يستسلم لآسريه من بني الإنسان إذا كانت هناك عذراء يضع رأسه في حجرها.

وثمة دليل على أن المارية، إن كان هوفعلا النسخة الأصلية من وحيد القرن، يشترك معه في هذا الميل. ولكنه ما من شك أن الصيد الجائر لهذا الحيوان المسكين قد أسهم في إشرافه على الانقراض. ويقدر أنه لا يوجد على الأرجح أكثر من بضع عشرات من رؤوس

---

* يجب التفريق بين وحيد القرن الأفريقي وهذا الحيوان الذي يشبه ذا القرنين الطويلين المائلين للجسم من أعلى الرأس (العبودي).

** يسمى أيضاً المها (العبودي).

المارية باقية في البرية في شرق الجزيرة العربية . ويعود الفضل إلى حد كبير للحكومات في شبه الجزيرة في أن محاولات إنقاذ هذا الجنس قد تكللت بالنجاح .

وتعيش حيوانات المارية في محمياتها في يقظة وإحساس بالعظمة . والدخول بينها مربك، فهي تلتفت إلى القادم الجديد بنظرة طويلة من الإعجاب البارد ثم تخفض رؤوسها الضخمة التي ينمو عليها قرنان رفيعان أسودان حادان كالشفرة . وصغارها مخلوقات رقيقة جميلة؛ ولكن القوة، وليست الرقة، هي سمة الحيوان البالغ ، وبخاصة الذكور . فقرونها الطويلة الرفيعة التي تبدو وكأنها قاتلة، هي السبب في مضاهاة المارية مع وحيد القرن، فهي ترى من الجانب وكأن قرناها قرنا واحداً وتصبح المعادلة دقيقة . واشترك كل من أرسطو وبليني في الرأي بأن المارية هي النسخة الأصلية لوحيد القرن .

ولكن هنالك عاملاً آخر غير غزو الإنسان قد أسهم في جلب هذا المها الجميل إلى حافة الانقراض، وهوحقيقة أن المارية على أرجح الاحتمالات من بقايا فترة مناخية مبكرة، وبعبارات شعبية ، أحفور حي . فهو ينتمي إلى مجموعة حيوانية من العصر الحديث الأقرب، وهو قسم من العصور الجيولوجية التي انتهت قبل نحو مليوني سنة من العصر الحالي، وكان مناخ شرق شبه الجزيرة العربية في ذلك الزمان أكثر سخاء مما هوعليه الآن ،إذ كان بمقدوره أن يقيم ، فيما كانت على الأرجح بيئة من نوع السافانا، أود قطعان من الحيوانات الكبرى ذات الاعتماد الأكبر على الماء والطعام من تلك المخلوقات الباقية في الصحراء اليوم حيث المناخ في الواقع أكثر من قاس . ويروى عن المارية أنه لا يشرب الماء أبدا في البرية ، لكن هذا على أية حال يبدو أشبه إلى حد بعيد بحكاية رحالة منه بملاحظة علمية جادة، مع أن المعروف عن هذا الحيوان أنه لديه قدرة استثنائية على اكتشاف الكميات الصغيرة من الرطوبة الجوية؛ كما أنه يتناول طعامه في الليل حين تكون النباتات في الظروف الصحراوية محتوية على قدر أكبر من الماء مما هوالحال في أثناء النهار .

وتمثل الجزيرة العربية بظروفها الطبيعية القاسية بيئة غير مواتية بالنسبة لبقاء أي من الحيوانات. وهذه الظروف بالغة القسوة – حرارة لافحة، وبرد قارس أحيانا، وضآلة في الخضرة – مفادها أنه كان على الأجناس أن تتكيف من أجل البقاء. وعلى أية حال، فإن الخضرة والماء الوفير في واحة الحسا،إحدى أكبر الواحات في العالم، توفر جذبا قويا للطيور والحيوانات الصحراوية.

ولكي تعيش في الصحراء كيفت الحيوانات أنماط سلوكها وفسيولوجيتها على حد سواء، فهى في أمس الحاجة لتقليل فقدانها للماء في مواجهة درجات الحرارة العالية في أثناء النهار والجفاف البالغ؛ كما أن الافتقار إلى الماء يعني ندرة الطعام، ونقص الفرائس، وندرة العدد في الجنس نفسه. وبالتالي، فإن حدة السمع والقدرة على الحركة والقدرة على تخزين الطعام حاسمة في العديد من الأجناس القاطنة في الصحراء. كما أن انعدام الغطاء يعني أيضاً وجود التمويه اللوني غالباً.

وتخدم المارية في توضيح إحدى الخصائص المميزة لمناخ شرقى الجزيرة العربية والمجموعة الحيوانية التي تقيم عليها؛ فمناخ منطقة الخليج عرضة لتغيرات ملحوظة، كانت غالباً سريعة وجوهرية أحيانا. ولقد تم التعرف منذ أمد بعيد على أن المناخ والعوامل الجيوفيزيائية التي تصاحب مأوى الإنسان قد أثرت في حياته وتطوره تأثيرا عميقا. وحديثا بدأ العلماء يتفهمون مدى عمق مثل تلك المؤثرات والقدرة على تحملها وهى التي تفصل بين الوفرة والدمار، ولكنها كانت مفهومة على الدوام بكل وضوح من جانب سكان الصحراء الذين كانوا يعيشون تحت رحمة نزوات الطبيعة لآلاف السنين.

ولا شك أن الهامش دقيق إذا ما أخذنا درجة الحرارة على سبيل المثال، أو آثار المطر والجفاف طويل الأمد. فبضع درجات من التغير في أي اتجاه يمكن أن يتبعها عصر جليدي آخر أوانتشار الصحاري عبر الأراضي الغنية الخصبة اليوم. ويتشبث الإنسان اليوم بأطراف

العالم المسكون ، لكنه هو ذاته أكثر المؤثرات خبثا في إحداث التغير البيئي كما كان طوال آلاف السنين.

كان مناخ العشرة آلاف سنة الأخيرة أو ما يقاربها مناخا رؤوفا ، وفيها يتركز كامل تاريخ الإنسان القاطن في المدن. ولأن كوكبنا كان ولا يزال يتمتع بمناخ مناسب، فقد قامت المدن، وظهرت الإمبراطوريات، وازدهرت الفنون، ووضع الإنسان قدمه على سطح القمر. ودرجة أو درجتين بعيداً عن المتوسط الكوني يكون تطور الجنس البشري قد انتهى بلا رجعة . ولا يزال هذا قابلاً للحدوث.

الأصول الجيولوجية

تُظْهِرُ طبيعة المناخ القاسية في شرق الجزيرة العربية الآثار التي يمكن أن تحدث بهذا القدر من السهولة نتيجة التحولات المناخية من ناحية، والقدرة غير العادية للإنسان على التكيف، حتى مع أكثر الظروف المناخية قسوة، من الناحية الأخرى. ومن الناحية الجيومورفولوجية، لا تزال الجزيرة العربية نسبيا جزءً متقلباً من سطح الكرة الأرضية . فهي تتحرك منحدرة بصورة حادة في الاتجاه الشمالي الشرقي فاصلة بذلك نفسها عن الاتحاد الأصلي مع إفريقيا، مندفعة بثبات صوب إيران. وكان البحر الأحمر مغمورا في العصر الحديث القريب (قبل ١٢ مليون سنة) حين حدث الانفصال النهائي عن إفريقيا وانكسر الجسر الذي كان يربط شرق إفريقيا، بالجنوب الغربي للجزيرة العربية.

وقبل أن يبرز الخليج للوجود كان ما يعرف اليوم بشرق الجزيرة العربية والعراق مغطى ببحار دافئة ضحلة .وفي حقبة ما بين إثنى عشر مليون إلى مليوني سنة خلت ، و في أثناء العصر الحديث القريب، استمرت شبه الجزيرة العربية بالتحرك إلى الشمال الشرقي نتيجة للزحف القاري مقلصة حجم البحر و مكونة الخليج. وقد برزت جبال زاغروس الإيرانية بفعل اصطدام شبه الجزيرة بإيران. ولا تزال هذه الحركة مستمرة.

ومن المعروف أن المقاطعة الشرقية كانت أرضا جافة لفترة طويلة من هذه الحقبة، إلا أن البحث قد أثبت أنه قبل نحو مليونين إلى ثلاث ملايين سنة،كان مستوى البحر أعلى بمقدار ١٥٠ مترا مما هو عليه الآن. وهذا يعني أن قسما كبيراً من المقاطعة الشرقية والربع الخالي كان تحت الماء. وكان الخط الساحلي يقع بجوار الهفوف ، بمحاذاة هضبة أم السمان، بينما جبل القرا كان جزيرة حيث شكل ارتطام الأمواج كهوفا.

وظهر الربع الخالي في الربع الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة في هذه الفترة متكونا من ترسبات منجرفة من الحجاز وجبال اليمن إلى البحر الضحل.

ويمكن إظهار المدى الذي لا تزال حركة الخليج قائمة عليه عند كلا طرفيه وفي الوسط. وهكذا ثبت أن القسم الكويتي من الدلتا عند رأس الخليج قد انحسر بمقدار ٣٠ مترا في غضون خمسة آلاف السنة الماضية، بينما في حده الجنوبي الشرقي انحسرت شبه جزيرة مسندم في عُمان بمقدار ٦٠ مترا في غضون عشرة آلاف السنة الماضية. ومن الناحية الأخرى يعتقد أن حافة البحرين في وسط الخليج لا تزال آخذة بالارتفاع.

والخليج نتاج الحقبة ال الجيولوجية الثلثية ، فقد تكون نتيجة للحركة التكتونية للطبقات العظمى لسطح القشرة الأرضية المنزلقة بعيداً بعضها عن بعض. وهو غور مضلع تقريبا يبلغ طوله ١٠٠٠ كيلومتر عند رأسه حيث يتدفق نهر الفرات، إلى مضيق هرمز محميا عند الساحل الشرقي بجدران رأس مسندم الشاهقة؛ ويبلغ عرضه ٢٣٠ إلى ٢٥٠ كيلومترا . وينحدر قاع البحر انحدارا حاداً . والساحل العربي ضحل قليلا بينما المياه العميقة جميعها على جانبه الإيراني .ومتوسط عمقه ٣٥ مترا بينما أقصى عمق له ١٦٥ مترا. ويعتقد أن دورة الخليج حركة معاكسة لحركة دوران الساعة باندفاع مياهه تجاه الساحل الإيراني قاطعة رأس الخليج ثم متدفقة أسفل الساحل العربي. وتتراوح درجات الحرارة من ١٥ إلى ٣٣ درجة مئوية، ويمكن أن تصل إلى ٤٠ درجة مئوية.

وعلى الرغم من أن الصورة الفيزيقية للخليج قد رسمت منذ أمد بعيد (وإن لم تكن نسبيا على قدر من البعد كبير من حيث التقدير الجيولوجي لعمر الكرة الأرضية) ، فإنها لم تتخذ الصفة والمظهر الذي نعرفه بهما اليوم إلا في وقت حديث نسبيا .ولقد تأثرت بيئة شرق الجزيرة العربية بتقلبات واضحة في الظروف التي تسمح بالاستقرار الدائم نوعاً ما. وقد استمرت بعض هذه التقلبات حتى العصر التاريخي من حياة الإنسان.

المناخ

مسألة مدى التغير المناخي وتأثيره في منطقة متطرفة مناخيا مثل الجزيرة العربية والخليج مسألة صعبة التحليل والحل. فمهما كان التأثير الحقيقي للتغيرات في طبقات مياه البحر، وفي المستويات المختلفة من النطاق المائي والتنوعات الظاهرة في معدل الترسب، يمكن تحديد أحد المؤثرات في البيئة بصورة محددة ، وذاك هوالإنسان. فإذا كان جيلنا الحاضر وبكل اهتمامه الحميد بحماية بيئة كوكبنا المحاصر بحاجة إلى الدليل من الماضي فإن الدليل الذي يقدمه شرق الجزيرة العربية يشكل تحذيرا مرعبا بما فيه الكفاية، حتى لأشد المتنبئين بالكارثة: الدمار الوشيك للأنواع.

ويمكن إيراد عامل بمفرده لإظهار الهشاشة البالغة للأوضاع التي نعيش فيها والمخاطر التي نعرض أنفسنا ونسلنا لها دون تفكير. وكثير من الثروة التي نعمت بها الجزيرة العربية في القديم كانت مستمدة من اكتشاف الاستخدامات التي يمكن أن يستفاد فيها من النحاس. وبالفعل يمكن وضع معادلة دقيقة من النحاس والتوابل والزيت لتمثل الخمسة آلاف سنة الأخيرة من تاريخ الجزيرة العربية ومجموعها اكتسابية للعالم خارج شبه الجزيرة.ولكن النحاس لا بد من صهره قبل إمكان استغلاله ، والصهر يحتاج إلى درجات حرارة عالية، والحرارة تحتاج إلى الوقود. وحتى الآن فإن هذا مجرد تخمين ، ولكن ليس من غير الجائز افتراض أنه في عمان ، وعلى شرفات الجبل الأخضر، في شمال غرب الجزيرة وسيناء ، حيث كثرت مناجم النحاس في الألف الرابع والثالث قبل الميلاد، وحتى على البحرين

ذاتها، تم التضحية بملايين الأشجار لسد احتياجات صناعة النحاس .فعلى سبيل المثال ، من شأن تجريد سفوح التلال في عُمان أن يقلص هطول المطر تقليصاً فورياً، ومن شأن قيمة الأشجار كمصدات للرياح أن تتبدد، وتتعرى التربة الخصبة بسرعة.

وبناء على ذلك ، فإن السؤال إلى أي مدى كانت احتياجات صناعة النحاس القديمة السبب في وجود الكثير من صحاري اليوم سؤال تجريدي . وبالتأكيد ، يبدو من غير المعقول الاعتقاد بأن بعضا من جوانبها يمكن أن تكون حديثة المصدر، وترتبت على الأقل جزئيا – عدم قدرة الإنسان على المحافظة على بيئته بالصورة اللائقة.

ودرجة التسامح في هذه المسائل طفيفة، ومدى التغيير، سواء أكان في أم المناخ أوفي البيئة، ومستوى تكثف البخار في منطقة معينة بفعل فقدان مجموعة قديمة من الأشجار، يستلزم أن يكون هامشيا فقط حتى يأتي بالتبدل المفضي إلى الكارثة في التوازن الطبيعي. إن العبث بالطبيعة أحد موروثات العالم القديم المريعة إلى أبعد الحدود.

ليس الإنسان بلا عون أبداً في سَلْبِهِ ونَهْبِهِ للعالم من حوله .ففي هذه العملية الخبيثة كان له مساعد مجد للغاية لعب دورا ملحوظا في تعرية المناظر الطبيعية، وذاك هوالماعز، الذي كان استئناسه منفعة ذات حدين.

وثمة قدر من عدم الاتفاق على مدى تأثر الجزيرة العربية بالتجمدين الأخيرين اللذين عما المليون سنة الأخيرة أو نحو ذلك في نصف الكرة الشمالي (شكل٣–١) . وعلى أية حال، فقد رفع التبدد الجليدي في الشمال مستويات البحر في أرجاء العالم جميعها في الحقبة ما بين ٢٠٫٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ سنة ماضية . ومهما كانت درجة مشاركة الجزيرة العربية في هذه التغيرات المناخية الكبرى، فقد كان تقلب مناخها إلى الحد الذي كانت فيه أنساق المناخ خاضعة غالباً لتغيرات قصيرة الأمد تقريبا؛ فعلى سبيل المثال، تكوين جزء من الساحل قادر على إدامة سكان أكثر من ذي قبل، نتيجة لمرحلة رطبة قصيرة . وهنالك أدلة على

عدة مراحل رطبة في شرق الجزيرة العربية، كان من بين أحدثها المرحلة الأولى التي انتهت قبل نحو ١٠،٠٠٠ سنة خلت، بينما بدأت الأخرى قبل ١٠٠٠ مضت واستمرت ٣٠٠ إلى ٤٠٠ سنة .ويتداخل هذا ، على سبيل المثال ، مع نمو واضمحلال مستوطنات صيد الأسماك الصغيرة في "Murwab" والحويلة في قطر، والتي دونتها ونشرتها البعثة الاستكشافية البريطانية عام ١٩٧٨ بعد المسح الناجح لقطر في الفترة من أكتوبر عام ١٩٧٣ وحتى يناير ١٩٧٤.

سجلّ المجموعة الحيوانية

يدل اكتشاف بقايا درايوبستينية* في شمال شرق الجزيرة العربية على مدى اختلاف المناخ في ١٥-١٢ مليون سنة الماضية عن طبيعتها الصحراوية شديدة الجفاف الآن .والحيوانات الدرايوبستينية مخلوقات آكلة للنباتات، تتصيد الأشجار وتنتعش في بيئات على شاكلة غابات السافانا. ومن المحتمل أنها كانت أو لم تكن على خط الأسلاف التي نتج عنها الإنسان لاحقا .ولعل الجزيرة العربية قد بدت في أوج تلك المخلوقات شبيهة إلى حد بعيد بشرق إفريقيا اليوم مع توفر غطاء كثيف يسمح بصيد أوسع نطاقاً.

وفي إبان العصر الميوسيني ، قبل ١٧-١٥ مليون سنة، كان يغطي الجزء الأكبر من شرق الجزيرة العربية وما يعرف الآن بالخليج بحر ضحل. ولا بد أن المستنقعات كانت جزءاً من البيئة الغنية نتيجة للمناخ الحار الرطب.

إن من شأن التضاريس السافانية أن تكون قد دعمت الغزلان والزرافى والخنازير والقوارض والأرانب.(شكل ٣-٢) . وفي الغابات ذات الكثافة الكثيرة والمنغروف الممتدة حتى الأهوار من الممكن أن تكون قد عاشت الفيلة و الكركدانات والدرايوبثكوس. وفي نحو ١٢ مليون سنة خلت أصبح المناخ أكثر جفافا واستمر الاتجاه صوب جفاف أشد في

---

* بقايا من العصر الثلثي الأوسط ،ويطلق عليه أيضاً العصر الميوسيني السابق على عصرنا بمقدار خمسة عشر إلى سبعة عشر مليون سنة (العبودي) .

٣–١ التقلبات في درجات الحرارة في عصر البلوستوسين.

(من متحف الهفوف في السعودية)

العصر البليوسيني .

ويوجد دليل من العصر البليوسيني (من ٥ر٣ مليون سنة إلى ٢ر١ مليون سنة مضت) على أن الجزيرة العربية قد خضعت لمرحلة رطبة طويلة تمتعت فيها على أكبر احتمال بمناخ رطب دافئ. ولا بد أن نباتاتها كانت مورقة واستوائية في ذلك الحين. وإبان هذه المرحلة الطويلة من الممكن أن تكون قد انتعشت فيها مخلوقات شبيهة بالإنسان كتلك التي كانت في شرق إفريقيا في ذلك الوقت. وفي هذه الحقبة الزمنية ظهرت الأودية العظيمة (أنهار جفت أو مسارات فيضانات) مثل وادي الرمة والباطن، ووادي الدواسر والسهباء في فترة كان فيها هطول الأمطار أكبر مما هو عليه اليوم. وكان التعري الواسع لتخوم الأودية العليا يقابله ترسب شعاب من الحصى والطمي المنجرف من التخوم السفلى. وانجرفت رمال كثيرة إلى البحر الذي كان يغطي الربع الخالي في الجنوب. وحين جفت هذه الرمال نقلت وفرزت بفعل الرياح لتكون الصحاري الرملية القائمة اليوم. وفي غضون العصر الحديث القريب تقلب مستوى المياه في الخليج كما كان الحال بالنسبة للعديد من البحار في العالم نتيجة تقدم الأنهار الجليدية وتراجعها في أثناء العصور الجليدية المتعاقبة. وسادت بعد ذلك الوقت ظروف جافة بلغت مستويات شبيهة بمستويات الوقت الحاضر في نحو ١٧ر٠٠٠ سنة مضت. ومنذ ذلك الحين تنوع المناخ عشوائيا ، ويبين الدليل الحديث تناوبا مناخيا بمرحلة جافة تتلوها أخرى رطبة في ثماني فترات على الأقل في سبعة عشر ألف السنة الماضية. (شكل ٣-٣).

ولا يزال سجل المجموعة الحيوانية في الجزيرة العربية في القدم بعيداً عن التمام. وعلى أية حال، يشهد وجود حيوانات ضخمة مثل المستودون* في أبوظبي (جبل براكه)، وفي المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، على التغير البيئي بدرجة ملحوظة على مر آلاف السنين. و في السنوات الأخيرة، أعلن عن عدد من المكتشفات الإحاثية في موقع

---

* حيوان منقرض شبيه بالفيل (العبودي) .



٣–٢ إعادة بناء الظروف البيئية في شرق الجزيرة العربية في عصر الميوسين تُبين الأجناس الرئيسة في تلك الحقبة والتي انقرضت فيما بعد (من متحف الهفوف في السعودية)

العصور	البيئة	رطب/جاف	ألف سنة
الهولوسين	رمال حديثة سطح التربة ▼	شديد الجفاف	5
	أرض عشبية ورمال ثابتة وبحيرات ضحلة	رطب	
البليستوسين المتأخر	الرمال	شديد الجفاف	10 15
	تكُون بحيرات وطمي وأودية	رطب	20 25 30 35
البليستوسين	رمال قديمة وبحيرات ورواسب طمي	جاف	40 45 50
	تكون بحيرات ورمال قديمة ثابتة وأودية	رطب	55 60 65
			70 75

٣-٣ العصور القاحلة والرطبة نسبيا في الجزيرة العربية إبان الستة آلاف وخمسمائة سنة الأخيرة (من متحف الهفوف في السعودية)

بالقرب من جبل الظنة بأبوظبي ؛ كما تم الكشف عن مجموعة من الصخور التي يعود تاريخها إلى العصر الميوسيني ، عرفت باسم « تشكيل بينونة »، وهذه بدورها قد كشفت عن تركيز هام للمجموعة الحيوانية الميوسينية . ولهذا الاكتشاف أهميته في الإسهام في رسم خريطة توزيع المجموعة الحيوانية في أرجاء العالم جميعها في العصر الميوسيني . ففي هذه الحقبة ضم جسر أرضي إفريقيا مع آسيا ، وبهذا وصل إلى آسيا العديد من الأجناس التي نشأت في إفريقيا .

والصخور الحاملة للأحافير في تشكيل بينونة جديرة بالملاحظة نظرا لجودة وسهولة الوصول إلى الدليل المتعلق بالمجموعة الحيوانية التي تحتفظ بها . وحتى الآن من بين تلك التي تم التعرف عليها الدينوثرات (ذات صلة بعيدة بالفيل الحالي) وأفراس النهر والتماسيح والضفادع . كما تم العثور أيضاً على بقايا قرد شبيه بالمكاك وهيباريون ثلاثي القوائم ، وهو من أسلاف الحصان ؛ وكشف عن دليل من التشكيل نفسه على ما يمكن اعتباره حيواناً قديماً منقرضاً . وهذه المجموعة الحيوانية إثيوبية بتميزها، وحين وجدت في الجزيرة العربية لا بد وأن البيئة كانت تشبه برية شرق إفريقيا اليوم: سافانا وغابات، وبحيرات ، ومستنقعات .

وبالاستناد إلى نقوش الصخور الموجودة في أرجاء أخرى من الجزيرة العربية، كانت الأسود، والبابون، والنعام، الجاموس المائي ، وكلها مخلوقات سافانية، منتشرة انتشارا عاما في الأزمنة الأخيرة. فمن هذا النوع من العلاقة البيئية انحدر المارية واستمر بقاؤه مصادفة.

ويظهر في منطقة الربع الخالي في جنوب شرقى الجزيرة العربية ، والذي كان غالباً بؤرة حكايات الرحالة على اختلاف أشكالها، التغير في قدرة شرق الجزيرة العربية على إسناد الحياة في أكثر حالاتها درامية . ففي حافة هذا البحر الرملي الهائل الممتدة كثبانه القاحلة من الأفق إلى الأفق، وفي أعماق مناطق منيعة فعليا على الوصول الإنساني المتواصل توجد

مضارب صيد بري وبحري من العصر الحجري الحديث، وربما مستوطنات أخرى أكثر ديمومة. ويتعين وجود عرب العصر الحجري ، الذين عاشوا هنا قبل ما بين ٦٠٠٠-٥٠٠٠ سنة بالأدوات الدقيقة الجميلة التي صنعوها ،وهي من أجمل المشغولات الإنسانية التي بقيت في الجزيرة العربية من العصر الحجري، بل وحتى في أي مكان آخر. وتم العثور في هذا المكان على بقايا البرانيق التي عاشت ذات يوم على حواشي مستنقعات سلسلة من البحيرات والمياه البرية في عمق الصحراء.

وبوجه عام، لم تتغير المجموعة الحيوانية في الفترة التي سكن فيها الإنسان في المنطقة ، والتي أسهم بعضها في توفير قوته، تغيرا كبيراً على الأرجح؛ فقد كان الأرنب الصحراوي، وثعلب الفنك ، والغزال، وتيس الجبل، والمارية المتناقصة موجودة في ذلك الحين كما هي موجودة الآن . ولعل الأنيجار،وهوشكل من أشكال الحمير البرية، كان ذات يوم متأصلا هنا، لكنه اختفى الآن. والجمل مستأنس الآن ، لكن هذا تطور حديث نسبيا . ولعله كان معروفا في الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي معظم الألف الثاني قبل الميلاد ولكن كحيوان نادر ، وبالتأكيد كحيوان بري. وأسهم بالفعل في غذاء السكان على أية حال. ولقد أدخلت بعض جماعات صيد السمك تعديلا على تلك الوجبة بإضافة كميات كبيرة من الثدييات المائية مثل الدوجنغ أوبقرة البحر التي كان يصطادها مستوطنو أم النار بأبوظبي.

ويستدل على ثراء المجموعة الحيوانية في الماضي القريب نسبيا في الجزيرة العربية من المعلومات التي جمعت في منطقة جنوب وغرب شبه الجزيرة. ففي جنوب غرب الربع الخالي، يتعزز الدليل على وجود أماكن واسعة من المياه الراكدة في غضون حياة الإنسان من خلال سجل مجموعات حيوانية ثرية ومتنوعة تشتمل على الحمار البري الآسيوي (قريب من أقرباء الأونيجار)، والبقر المنقرض الكبير الذي كان ذات يوم يجوب غابات أوروبا، والجاموس المائي، والنعام. ومنذ أن استوطن البرنيق الشرق، فمن المحتمل أن يكون بعض من الأخريات على الأقل موجودا هنا. والاحتمال المرجح هو أن الجفاف المتزايد

وانخفاض النطاق المائي قد دفع بالحيوانات أبعد فأبعد إلى الجنوب والغرب، حتى وجدت في الإنسان أداة تخريب أشد خطورة من أكثر المناخات صعوبة.

وحين كان الربع الخالي بحيرات، فلا بدّ وأن ساحل شرق الجزيرة العربية كان يبدو سلسلة من الجزر الصغيرة ذات مداخل عميقة تمتد إلى الصحراء شبيهة إلى حد ما بالخور الذي تطورت دبي حوله. ومن شأن هذا أن يكون قد أثر في قطر والساحل الشمالي لشبه الجزيرة العمانية حيث توجد اليوم الإمارات العربية المتحدة؛ كما لا بد أنه أثر في البحرين، حيث كان موقع العُبيد الحامل للفخار في المرخ جزيرة صغيرة في فترة حملات صيد السمك نزلت إلى ذلك المكان من حين لآخر. وهوالآن جزء من الجزيرة الرئيسة في أرخبيل البحرين. وفي عمان، تشير الأدلة التي اكتشفت في أم السمان* أن ذراعا من البحر وصل إلى هنا ذات يوم، أما اليوم فهى تبعد عدة أميال عن الساحل ممتدة إلى عمق الحدود مع السعودية.

مستويات سطح البحر

وفي غضون أواسط وأواخر العصر الحديث الأقرب، قبل ٨٠،٠٠٠ سنة خلت تقريبا، تقلب مستوى البحر في الخليج، كما عليه الحال بالفعل في أرجاء العالم جميعها. ففي العديد من الأماكن في الشاطئ الغربي (العربي) من الخليج من الممكن رؤية خطوط الشاطئ في الأزمنة التي كان مستوى سطح البحر فيها أعلى ببضعة أمتار مما هوعليه الآن، كما اكتشفت مستويات أخرى تحت الماء في الخليج. وكانت مثل هذه التغيرات في مستوى سطح البحر نتيجة لتقدم وانسحاب الأنهار الجليدية إبان تتابع التجمدات، والفترات التي تخللت الزحف الجليدي. وأدى تشكيل هذه الأغطية الجليدية إلى حجز كميات هائلة من المياه مما أدى إلى خفض مستوى سطح البحر في أنحاء العالم جميعها..

---

* كذا في الأصل Umm as- Samman ولعل الصواب أم السميم وهي سبخة تقع غربي سيح رول في شمال غرب عمان.(د. السقاف)

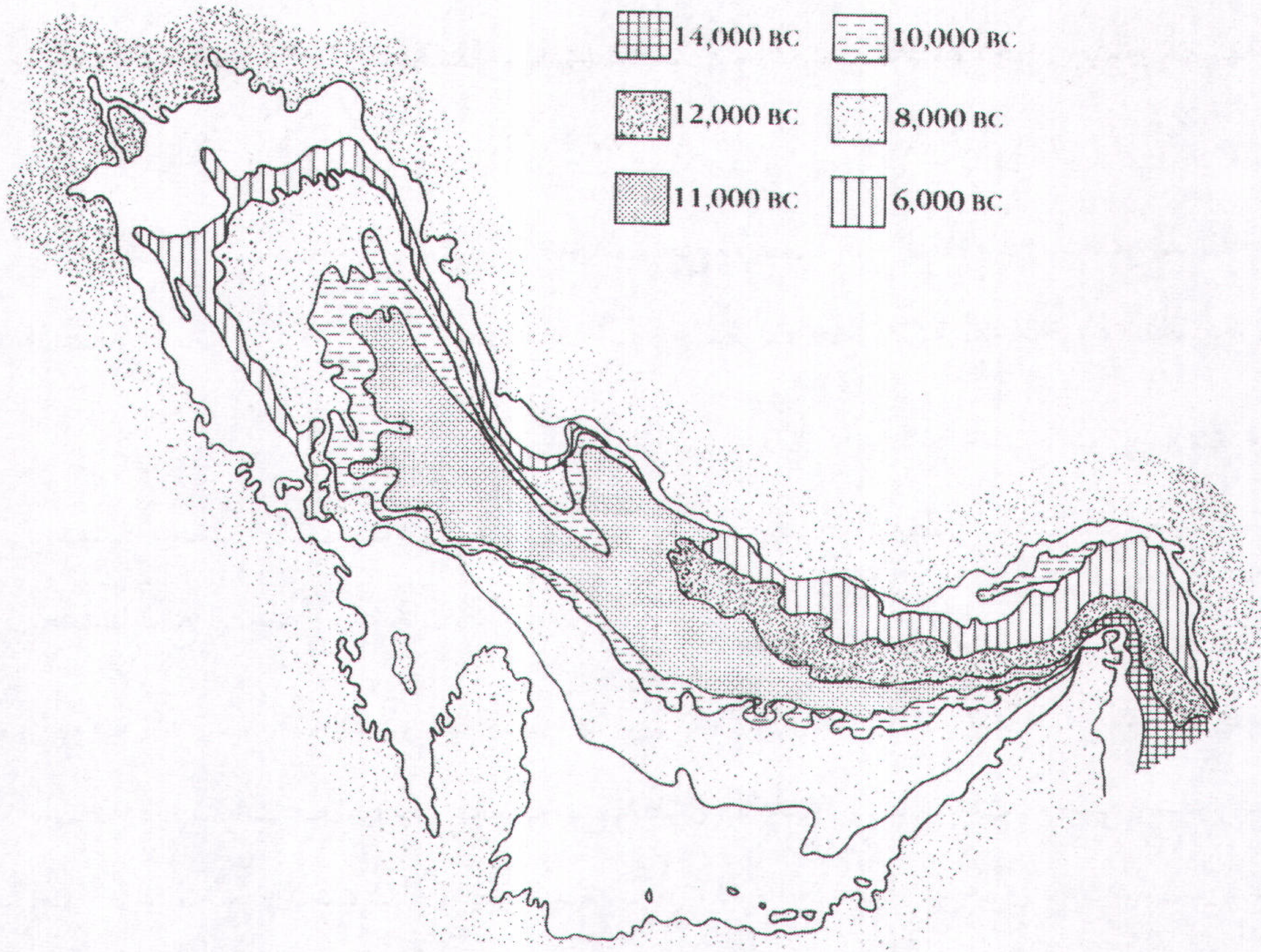
ويبدو أن المستويات في الخليج قد ارتفعت وانخفضت بصورة حادة تقريبا في غضون ١٠٠٠٠٠ سنة الماضيـــة (شكل ٣-٤ ، أ، ب) . وهنالك دليل هام على أنه مــا بين ١٢٫٠٠٠ و١٠٫٠٠٠ سنة مضت انحسرت مياه البحر تاركة أرضيـة الخليج الرملية مكشوفة. ولا بد أنه كان في ذلك الزمان سهلا واسعا مرويا على الأرجح بامتداد من شط العرب الذي يمكن أن يكون قد بلغ حد خليج عمان، ممثلا هبوطا مقداره ١١٠ متراً تحت المستوى الحالي. وقد حدثت أهم الانحسارات الواضحة في مياه الخليج فيما بين ٧٠٫٠٠٠ و١٧٫٠٠٠ سنة مضت، ثم انسحب البحر إلى ما وراء مضيق هرمز.

بيد أن هنالك دليلاً على تغيرات واضحة في مستويات سطح البحر في الخليج، إلا أن مثل هذه التغيرات كانت أقل حدة بكثير في البحر الأحمر إلى الغرب من شبه الجزيرة العربية. ولعل هذا يبدو متناقضا لكن الحيرة التي ترتبت عليه لم تحل بعد.

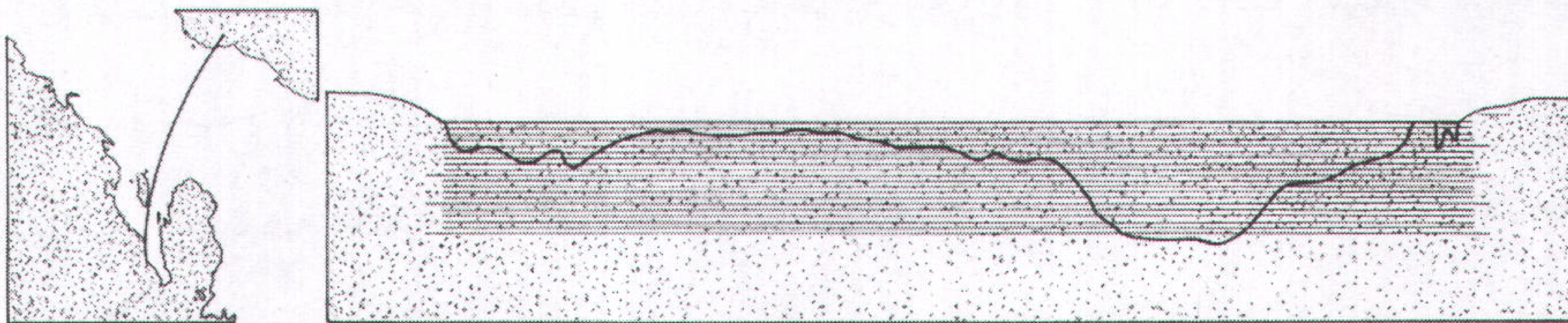
وإبان الذروة الأخيرة من العصر الجليدي، قبل ١٨٫٠٠٠ سنة، انخفض مستوى سطح البحر ١١٠ مترا دون ما هوعليه الآن. فقد كان البحر موجودا في منطقة صغيرة فقط داخل مضيق هرمز. وكانت أرضية البحر المكشوفة تتألف من نسق من الوديان والكثبان الرملية الشبيهة بالجزيرة العربية اليوم إلى حد كبير. ولعل نهري دجلة والفرات اللذين يصبان في الخليج اليوم لم يبلغا البحر بل تدفقا في الرمال.

وبدأ البحر بالعودة قبل نحو ١٧٫٠٠٠ سنة مضت. وتسارعت العملية قبل نحو ١١٫٠٠٠ ، ربما بمقدار ٢-٤ سم سنويا. وأصبحت جزيرة البحرين منفصلة عن البرية الرئيسة قبل ٧٫٠٠٠ إلى ٦٫٠٠٠ سنة ، بينما كانت قبل ذلك بروزا أرضيا على شكل قبة.

بلغ البحر أقصى امتداد له (أي أعلى مستوياته) ما بين ٧٫٠٠٠ إلى ٤٫٠٠٠ سنة قبل الوقت الحاضر. وربما كان في ذلك الحين أعلى بمقدار مترين عما هو عليه الآن؛ ومن شأن مثل تلك الارتفاعات الصغيرة في مستوى سطح البحر أن تتسبب في غمر مناطق واسعة



٣-٤ (أ) مستويات سطح البحر في الخليج العربي من ١٤٠٠٠ قبل الميلاد حتى ٦٠٠٠ قبل الميلاد (من نوتزل ١٩٧٦)



(ب) صورة عميقة للخليج

بمحاذاة الخط الساحلي المنخفض الذي تتصف به الكثير من سواحل الخليج العربية .

وكان ما يعرف عموماً بالمرحلة الرطبة في العصر الحجري الحديث أحد مظاهر ميل الخليج إلى تقلبات مناخية حادة على قدر حاسم من الأهمية في التأثير في المستوطنات البشرية في المنطقة، وبالتالي، في تطور المجتمعات التي استقرت حول شواطئه وجزره المتعددة .

وعلى مر الستة والثلاثين ألف سنة الماضية تقلب مناخ الخليج ما بين الفترات الرطبة نسبيا، حيث كان هنالك زيادة ملحوظة في هطول الأمطار، وفترات الجفاف التي كان بعضها بالغ القسوة ، كتلك السائدة اليوم.

وهكذا شهدت الفترة الواقعة ما بين ٧٠٠٠–٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ظهور ينابيع ناشطة وبحيرات مع زيادة طفيفة في هطول الأمطار تبعا لذلك. وحتى التغيرات الضئيلة إما أن تسمح بالاستقرار وتربية الماشية وزراعة المحاصيل أوتحول دون ذلك. وفي غضون هذا الوقت ظهر دليل واضح في شرق الجزيرة العربية على تكوّن مستوطنات صغيرة ربما كانت موسمية، لأقوام ربما كانوا رواد أكثر صناعات الخليج بقاء وهو ما يستدل عليه من الدليل الذي تحمله أدواتهم، ألا وهو صيد اللؤلؤ.

وهنالك فترة مناخية معطاء ملموسة ما بين ٤٠٠٠–٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وتتصادف مع تكون وتفتح أهم الظواهر الخليجية الثقافية والاجتماعية ، وهي الجماعات التجارية الناجحة المرتبطة بالثقافة الدلمونية.

سجل المراحل الرطبة والجافة

رطبة ٣٤٠٠٠–١٥٠٠٠ ق م

جافة ١٥٠٠٠–١٣٠٠٠ ق م

رطبة ١٣٠٠٠–٩٥٠٠ ق م

جافة ٩٥٠٠-٧٠٠٠ ق م

رطبة ٧٠٠٠-٤٠٠٠ ق م (مرحلة العصر الحجري الحديث الرطبة)

جافة ٤٠٠٠-٣٠٠٠ ق م

رطبة ٣٠٠٠-٢٠٠٠ ق م

جافة ٢٠٠٠-٨٠٠ ق م

رطبة ٨٠٠ ق م - ٢٠٠م

جافة ٢٠٠ م -٩٠٠ م

وتأتي البراهين أيضاً على الأوضاع المتقلبة من مواقع في السعودية في أرجاء شرق الجزيرة العربية وضواحي الربع الخالي جميعها ،بما فيها رواسب بحيرة في جبا بمنطقة النفود. ويمكن تدعيم مثل هذه الأدلة من مواقع في حزام الصحراء العربية الذي ظل دائما وحدة متجانسة مناخيا بفعل التماثل في خط الطول، والارتفاع، والطوبوغرافيا.

إحدى مزايا صفحة الأرض الفيزيائية الواضحة بشكل خاص في أرجاء الدول المطلة على الخليج كافة هي السبخات، تلك الأغوار الملحية الموجودة حول الساحل، وبداخل الأرض حيث كان البحر ذات يوم قد امتد. ومن الناحية الجوهرية، تشكلت السبخات بفعل الشمس على ماء البحر المحتجز في برك ضحلة على سطح الصحراء، فيتبخر الماء نتيجة حرارة الشمس ، وتتشكل طبقة مكسوة بالملح، إذ يبرز الملح للأعلى إلى السطح بفعل التبخر.

والعديد من سبخات الخليج حديث العهد؛ فتلك الموجودة في منطقة أبوظبي الساحلية قد حدد تاريخها باختبار كربون C14 بقرابة ٤٠٠٠ سنة قبل التاريخ الحاضر. وبينما تميل السبخات في الداخل إلى أن تكون بحيرات من حيث المصدر، إلا أن بعضها من بقايا الامتداد البحري؛ وهكذا فإن بعض السبخات التي توجد في المملكة العربية السعودية تمثل

مستوى للبحر قرابة ١٥٠ مترا أعلى مما هو عليه في الوقت الراهن ، ويعتقد أن سبخة أم السمان في عُمان واحدة من تلك البقايا.

وللنطاق المائي، وهوالماء الارتوازي أوالماء الصالح للشرب الذي يقع تحت سطح الأرض أهمية فائقة بصورة واضحة . وينحدر النطاق المائي في الجزيرة العربية باتجاه الشرق مرتفعا تدريجيا في مسيرته هذه. وتغذى الطبقات الصخرية المائية بأمطار الشتاء والثلوج الذائبة من الجبال السورية والأردنية، وكثير من الماء الموجود في الصخور المائية ماء أحفوري، تسرب إلى الأعماق في بعض الأحيان قبل أكثر من ٢٠٫٠٠٠ سنة. وحقيقة أن النطاق المائي يرتفع في أثناء انحداره تجاه الشرق تفسر ظاهرة ينابيع المياه العذبة (أوالمالحة) الملحوظة ، و التي تتدفق من قاع البحر حول البحرين والتي لا بد أنها أسهمت إلى حد بعيد في سمعة الجزيرة القديمة في القداسة واختيارها المخصوص من قبل الآلهة. وربما تفسر أيضاً الاسم الذي لا تزال تعرف به الجزيرة، على الأقل منذ الأزمنة الإسلامية، «البحرين».

وقبل ستة آلاف سنة خلت كانت الحضارة المدنية في جنوب العراق تنفذ مشاريع ري واسعة النطاق سلفا. وكان النقل البري قد تحقق باستئناس الحمار. وفي شرق الجزيرة العربية كانت جماعات شبه رعوية تعتمد على الماعز، والأغنام ، والمواشي المستأنسة منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. ويبدو أن أول استئناس لهذه الحيوانات إلى جانب زراعة القمح والشعير - قد حدث في الهلال الخصيب، والأناضول، وجبال زاغروس ما بين ٩٠٠٠ ، ٦٠٠٠ قبل الميلاد .وعلى الرغم من أنه خارج موضوع هذه الدراسة من حيث الجغرافيا، إلا أنه ربما يكون من اللائق أن ندون ضمن هذا الحديث إحدى أقل النتائج توقعا من المسح الأثري في السعودية، وهو اكتشاف انتشار استئناس الماشية علي نطاق واسع . ويبدوهذا جليا في المنطقة الغربية وشمال شبه الجزيرة .ويمكن فقط دعم قطعان الأبقار الكبيرة في ظروف مناخية معطاء أكثر بكثير مما عليه الحال الآن. وكانت قطعان الماشية عديدة بشكل واضح ، وكون الناس الذين رعوها صيغة فن مفصل خلد تلك الحيوانات؛ وعلى ما

يبدوفوق سطح كل صخرة متوفرة في شمال الجزيرة وأجزاء من غربها صور تمثل الماشية، وآلهة مرتبطة بها ونساء رعتها وحرستها، منقوشة أومحفورة على سطح الصخور.

وفي مراحل الاستئناس الأولى يمكن أن تكون الماعز والغزلان قد أسرت من أجل لحمها. ولعل الحاجة لتوفير العلف لها قد أدت في البداية إلى جمع الحبوب أولا ثم زراعتها قبل نحو ١٠٫٠٠٠ - ٩٫٠٠٠ سنة مضت. ويوجد الشعير ونوعان من الحنطة البرية في الهلال الخصيب. وأدى الرعي و الزراعة إلى تدجين ثم إلى تغيرات بدنية في الأجناس العديدة الناتجة عن عدة انتقاءات لأفضل أفراد الحيوانات والنباتات للاستخدام البشري. وكان مقدرا للخليج أن يستفيد من النشاط الزائد للحياة المدنية التي أتاحت للناس في جنوب العراق تطوير جميع أشكال التخصص الذي شجعهم على البحث جنوبا عن الأرض الجديدة، ومصادر المؤن الجديدة من المواد الخام التي احتاجوها بسبب افتقار أرضهم إلى الموارد الطبيعية.

والتنقيب بحثا عن الأدلة على ماضي الإنسان من المواقع التي عاش فيها وتحليلها واستقراء فرضيات منها -كتلك التي يمكن أن نضعها حول نمط الحياة التي عاشها والحوافز التي حركته - شيء، وتفحص تاريخ الأرض التي حملته شيء آخر. ودليل المناخ في شرق الجزيرة العربية معقد وغامض في أغلب الأحيان، لكن انعدام البحث ذاته في المنطقة، مقارنة بأجزاء أخرى من الشرق الأدنى، يحفز العلماء على محاولة الوصول إلى دلائل حول عوامل المناخ والبيئة المادية قبل أن يمحوها إلى الأبد التطور الصناعي والاجتماعي الزاحف عبر المنطقة بشراسة.

الفصل الرابع

دلمون،ثقافة الخليج القديمة

لكي نضع الخليج وجزره والأراضي الساحلية لشرق الجزيرة العربية في منظور تاريخي وثقافي متماسك، من المفيد أولا أن ننظر في تركيبات وأعراف المجتمعات الملاصقة لها مباشرة ، والتي مارست تأثيراً ملحوظا في المنطقة طوال مسيرتها التاريخية. وأهم هذه البلدان وأكثرها تأثيراً حتى الآن هي بلاد ما بين النهرين. وكانت إيران والجزيرة العربية الداخلية، ووادي السند، وعمان تؤثر تأثيرا متفاوتا في الشخصية القديمة للبحرين والخليج، لكن لا يبدو أن واحداً من هذه البلدان بلغ في عمق تأثيره وعراقته ما بلغته بلاد ما بين النهرين.

ويصدق هذا بصفة خاصة على الفترات القديمة حين كان يفترض أن دلمون موجودة في شرق الجزيرة العربية؛حينئذ كانت الصلة الطبيعية مع بلاد ما بين النهرين براً بقدر ما كانت بحراً. وبالتأكيد كانت آلهة سومر دائما تتطابق مع دلمون (انظر الفصل الخامس). وكانت الأساطير التي تصور دلمون بأنها مكان أصول ومسقط رأس الآلهة أساطير سومرية.ويتضح لاحقا أن مؤثرات من وادي السند بدأت تسود في العديد من الجوانب في المجتمع الذي نشأ في الخليج؛ ولكن هذه كانت تميل إلى المستوى العملي الثابت – نظام أوزان مشترك على سبيل المثال – والتي يبدو واضحاً أنها مستمدة من اعتبارات تجارية وليست دينية. ومن الناحية الفلسفية والفكرية، استمرت بلاد ما بين النهرين في ممارسة أعمق تأثير في الخليج، حتى وإن طور الخليج صيغته النموذجية وأفكاره الخاصة محتفظا بصلاته المستقلة مع شعوب أخرى بعيدة عن بلاد ما بين النهرين.

وبلاد ما بين النهرين اليوم محصورة ضمن حدود الجمهورية العراقية، وتنقسم طبيعيا

إلى منطقتين جغرافيتين،وهما الشمال والجنوب؛ أما أقسامها الأخرى فهي عرقية ودينية ولا تهمنا هنا. وكان الجنوب في القرون القديمة أهم القسمين بلا منازع،على الرغم من أنه كان يدرك تأثير شمال ما بين النهرين مرارا، حتى في أقدم العهود، حتى أصبح سائدا في نهاية المطاف في الألف الثاني قبل الميلاد، ثم فرض شخصيته على كامل امتداد أرض ما بين النهرين.

وكانت الميزة الجوهرية لثقافة بلاد ما بين النهرين تكمن في قدرتها غير العادية على الابتكار، وهذا نتاج عبقرية سكان البلاد الأوائل المشهورين، ألا وهم السومريون. ويبدو أن التقدم في الزراعة العلمية، وإدارة قطعان الماشية يدين بالكثير من أصوله إلى مزارعي بلاد ما بين النهرين الشماليين. ويظل أهم ما يبرز الشعب في بلاد ما بين النهرين كونهم سكان مدن ، وظهور ملحوظ لنمو المدينة بصورة خاصة في الجنوب. وكان بفضل اعتماد السومريين على المدينة على أنها العنصر البنيوي الأساسي في مجتمعهم أن انتشر نفوذهم إلى أبعد بكثير من حدودهم ، مؤثراً في أنماط الحياة في أراضٍ وأزمنة بعيدة جداً عن أرضهم وزمانهم.

المدن الأولى

وكان لنمو الحضارات المدنية العظمى الأولى في مصر والعراق، ثم لاحقا في الهند والصين، في أودية الأنهار مغزى واضح. فلقد أتاحت إقامة المستوطنات على ضفاف الأنهار سريعة الجريان ومتقلبة الأحوال، وما تلاها من إقامة أنظمة للرى، تطوير تقنيات زراعية معقدة. وأدت هذه بدورها إلى ظروف أصبح ضروريا فيها وجود تنظيم سياسي متطور تطورا عاليا، لضمان حشد قوة العمل في الجماعة في نظام جيد، والمحافظة على القنوات والأراضي التي تعتمد عليها مصونة ومحمية بكفاءة لما فيه مصلحة الجماعة. وكان ظهور طبقة المحاربين، وبالتالي طبقة الملوك ذاتها على أكبر الاحتمالات، نتيجة للتقنيات المرتبطة بإدارة الأنهار والقنوات. وهذا يدل على أن التقنية لعبت دورا هاما في تأسيس المجتمعات

القديمة وفي هرمية البناء الاجتماعي الذي نشأ ضمن حدودها، وبنمو الجماعات ، وحين يبدأ القائد الماهر الساحر للجماهير أو صاحب النفوذ الأقوى على تأكيد صيغة ما من صيغ السيادة على مجموعات موزعة توزيعا متباعدا، فإن من شان المَلَكيَّة، أن "تُسَلَّم" إليه ، حسب التعبير السومري ؛ وكان مبدأ الحكومة تحت سلطة حاكم مطلق قد عرف في وقت مبكر، فهو أمر حيوي للسيطرة على المصادر التي كانت تحت تصرف المجتمعات، وكذلك لإنتاج ما كان يلزم لسد احتياجات مجموعة سكانية متنامية .وقد أدى هذا بدوره إلى البنية الطبقية، وتنمية التخصصات والمهارات الفردية لدى أفراد المجتمع ،كما اتسع عمل الفنان الحرفي القديم وامتد إلى آفاق معاصريه وصار من الممكن للحياة في الدولة الموحدة أن تجد تعبيرا عنها في شخص الحاكم وأسلوب حياته ، أو في خدمة الآلهة. ومن خلال اختراع الكتابة والنقوش التذكارية، أصبح أيضاً من الممكن للجيل الواحد أن يتصل بالأجيال الأخرى على مر فترات طويلة من الزمن، واستبعاد الاعتماد الكلي على التقاليد التي اتصفت بها المحاولات السابقة جميعها لصياغة معتقدات موحدة وتراث فكري للجماعة.

وأدى البناء بالحجر والآجر إلى الديمومة لا في فن العمارة فحسب، بل أيضاً في المعتقدات والبنية الاجتماعية. وعلى أية حال، فإن استخدام مواد شديدة التجمل في العمارة، كما هومعروف اليوم، ابتكار أصيل لمجتمعات الشرق الأدنى؛ إذ إن تحديد التاريخ بالكربون ١٤ لبعض الأبنية الأوروبية الغربية من الحجارة الميغاليثية الضخمة يوحي بأن بناءها كان أقدم من جميع الصروح المعروفة حتى الآن في الشرق الأدنى . ولكن المجتمعات التي أنتجت هذه الصروح الجديرة بالملاحظة في فرنسا وبريطانيا ومالطا لم تتطور من حيث البنيان كما تطورت نظيراتها في الشرق الأدنى. وقاد اختراع الكتابة إلى أبعاد من الخبرة جديدة كليا .

ولقد أدت القدرة على الاحتفاظ بالأفكار في صيغة دائمة إلى اكتشاف الإنسان لقدرات كامنة كبرى كانت حتى ذلك الحين مدركة إدراكا غامضا في ذاته. وكانت القدرة على صنع سجلات دائمة قابلة للفهم بواسطة كل من يمتلك المهارة اللازمة أهم تقدم سبق أن

أحرزه الإنسان على الإطلاق . فهي تمنحه صلة خاصة بمستقبل المجتمعات في المنطقة التي نتحدث عنها . وبالمثل، اكتشف الإنسان، من خلال التنظيم الأفضل لمصادره، وسائل إنتاج وفرت أكثر مما احتاج إليه من الضرورات والكماليات في عالمه . وبالتدريج توفر له وقت الفراغ كي ينتج أشياء أفضل ويستمتع بها . ومن اكتشافه الأخير هذا استطاع إنتاج الفائض عن حاجته فأصبحت التجارة والتعامل السلمي مع الشعوب الأخرى مظاهر مألوفة في حياته اليومية .

وسادت في بلاد ما بين النهرين أوضاع خاصة لأن الإنسان استقر هناك متأخرا نسبيا في انتشاره فوق سطح الأرض المعمورة،مع أن مواقع يعود تاريخها إلى العصر الحديث القريب الأدنى قد اكتشفت في الشمال،كما كان بالنسبة لبقايا النيندرثال . وكان النيندرثال النسخة الأولية من مخلوق نصف إنسان ونصف قرد، مخلوق كوابيس ، وقد تعرض وجوده البهيمي للزوال المفاجئ على يد جاره المساوي له في البهيمية . ولكن مكتشفات في شانيدار (Shanidar) بشمالي العراق، وتحليل بقايا أخرى تقدم صورة مختلفة لمخلوق رعى وحمى العجوز والعاجز في جماعته وطفق يجمع في سفوح الجبال الأزهار عند موتهم لدفنها معهم . كما أن اكتشاف أن السعة القحفية للنيدرثال أكبر نوعاً ما في المتوسط مما هي لدى الإنسان المعاصر أخذت سر الصورة التي رسمها له نَسْل النيندرثال المعاصرين . (إذا كان حقا أننا نَسْلُهُ – ولو جزئيا) وبدلا من الوحش متثاقل المشية بحسب الاعتقاد القديم، أخذت مخلوقات النيندرثال بسرعة في اكتساب سمة أكثر رقة ولطفا، وميلا إلى التفكير التأملي .

أصول سكان بلاد ما بين النهرين

يتضح التباين بين الجنوب والشمال في العصور القديمة في بلاد ما بين النهرين . ففي الشمال، في نحو الألف العاشرة من العصر الحديث الأقرب ظهرت بدايات الزراعة وتربية قطعان الحيوانات لأول مرة، قَبل أي مكان في العالم. لكن الجزء الجنوبي من البلاد قدم القليل من الحوافز للمستوطنين لأنه كان مجردا من المعادن ، والحجارة ، والأشجار. وحين تعلم الإنسان السيطرة على بيئته، وبصفة خاصة إدارة الأنهار والأهوار التي كانت تشكل القسم الأكبر من الأرض الجنوبية، وخلق لنفسه الظروف التي يمكن فيها إشباع حاجاته، أصبح الوجود المستقر في القسم الجنوبي لبلاد ما بين النهرين ممكنا.

وانحدرت عبر آلاف السنين إلى بلاد ما بين النهرين مجموعات صغيرة من المهاجرين من الجنوب والغرب حيث امتدت الصحراء العربية، ومن أراضي إيران الجبلية في الشرق، ومن سوريا والأناضول في الشمال. وانتعشت المستوطنات الصغيرة في الشمال، و بدؤوا في وقت مبكر جداً بإنتاج الخزف فائق الرقة والجمال. ومن الجدير بالملاحظة أن بعض أقدم الخزف في العالم هو أيضاً من النوعيات الأكثر جمالا، مثل تلك المرتبطة بموقعي حسونه وحلف، فهي من النوعية الاستثنائية، لا بل من الفائقة.

العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية

ولقد تأثر العصر الحجري الحديث العربي بالثورة الزراعية والرعوية في الهلال الخصيب ككل. ومع ذلك، فإن الافتقار إلى الاستيطان الدائم، والفرق الواضح في الأدوات الحجرية ينطويان على نوع ما من الانتقال من مجتمع صيد وجمع إلى الرعوية المبكرة دون الاعتماد الكبير على الصيد. وأدت القيود والمؤثرات الخاصة ببيئة الجزيرة العربية إلى تطورات زراعية خاصة متميزة عن تلك التي لدى المجتمعات المستقرة الأخرى في المناطق المجاورة.

وقد تم العثور على أدوات من هذه الفترة – أدوات من نوع الشفرة ذات الرؤوس المخروطية ومكاشط– في شرق الجزيرة العربية في المستويات السفلى لعين القناص جنوب واحة الأحساء، وفي واحة يبرين بالقرب من مصادر مياه لم يعد لها وجود ، وفي مناطق تتجمع فيها المياه، وفي الوديان.

وجلب العصر الحجري الحديث تنوعا كبيراً في أنواع الأدوات الحجرية، من خلال التقدم في تقنيات الصناعة، وتعرف قدر أكبر من الحاجات والإمكانات على حد سواء. ونستطيع أن نتعرف من بين صانعي الأدوات هؤلاء الخبراء أوالمتخصصين، ولا يزال بالإمكان تعرف أماكن " الورش" حيث كانت تصنع الأدوات ، أحياناً بصورة فجة ثم تصقل نهائيا على يدي متخصص. وتظهر السلسلة الهائلة من أدوات العصر الحجري الحديث في مواقع من شمال وشرق الجزيرة العربية، وشبه جزيرة قطر . وفي تلك العمليات ساعد المناخ الأكثر لطفا على احتلال المناطق التي لولاه لكانت غير معطاء لشعوب لا تزال تعتمد على الصيد والجمع إلى حد كبير.

العبيد

مع نهاية الألف الخامس قبل الميلاد كانت قد انتشرت ثقافة أخرى عالية التطور نسبيا باتجاه شمال وجنوب ما بين النهرين. ويستمد موقعها الأثري "العُبيد" اسمه من تل صغير ليس بعيداً عن « أور ». ولا يعرف إلا القليل عن البنية الاجتماعية للشعب الذي عاش هناك بخلاف ما يعرف من خلال الآثار التي بقيت في ثقافات تالية، ومن خزفهم المتميز الذي عثر عليه فى منطقة منتشرة انتشارا هائلا ومتشعبة للخارج من بلاد ما بين النهرين إلى الشرق وإيران، ، و إلى مواقع أكثر أهمية لما نحن بصدده في شرق الجزيرة العربية والخليج. أما بالنسبة للدليل على العقائد الدينية فقد تم العثور على تمثال إلهة في مستوطنة جارمو (Jarmo) ويرجع إلي حقبة ماقبل السومرية في شمال العراق، ولكن لا نعرف أي تماثيل آلهة من عهد قديم قابل للمقارنة. ولا يستبعد أن يكون الكهنوت في منطقة العبيد في

الجنوب قد مارس قوة استثنائية، فالعديد من معابد فترة العبيد ضخمة الحجم. ومستويات خزف العبيد مقلدة في مواقع جنوب ما بين النهرين بخزف أروك، ثم بذلك الخزف المطبوع بطابع موقع اكتشافه في «جمدت نصر». ومن حيت التسلسل التاريخي المطلق تمتد أروك فوق القرون الوسطى من الألف الرابع قبل الميلاد وتواصل جمدت نصر حتى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وهكذا تطابق من حيث التسلسل التاريخي المصري حقبة "نقادة الثاني" أو "جرزين"، قبيل أُسَره الملوك الحاكمة الأولى. وهذه الفترات الخزفية في سومر متبوعة بالحقبة المبكرة من الأسر الحاكمة والتي تنقسم من حيث الآثار إلى ثلاث مراحل وتستمر حتى ظهور سرجون الأعظم في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

السومريون

بحلول نهاية الألف الرابع قبل الميلاد كان مجتمع جنوب ما بين النهرين قد أصبح سومريا بشكل مميز من حيث اللغة والعادات وتطوير أكثر المؤسسات سومرية، ألا وهي المدينة. وتذوب الثقافة العُبيدية في الكتلة السومرية السائدة. ومع ذلك، لا توجد علامة واضحة على التحول من العبيدية إلى السومرية؛ فبينما اعتقد ذات يوم أن السومريين كانوا شعبا جديدا وصل عند نقطة غير محددة في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، فإن هذا الرأي غير معتد به كثيراً اليوم. وعلى العكس، يعتقد العلماء أن المجتمع العبيدى تطور إلى السومري، وربما بالامتزاج مع عنصر أجنبي ما، ولكن لا يوجد دليل على حدوث تغير كبير في السكان. ودليل التوالي الخزفي الطويل من الأشكال العبيدية إلى السومرية أحد الحجج المقنعة جدا في دعم الاستمرارية الثقافية في الجنوب في غضون الألف سنة التي تسبق أول ظهور أكيد للسومريين كجماعة متميزة معروفة نحو عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد. أما الدليل اللغوي فأقل وضوحا؛ فبينما يعتقد بأن ألواح الكتابة التصويرية التي توجد في سومر كتبت بالسومرية، فإن العديد من أسماء الأماكن (التي اتخذت لمدن ومزارات سومر) ليست في حد ذاتها أسماء سومرية، وتبدوكأنها تراث سلالة ما قبل سومرية اعتقد

ذات يوم بأنها بقايا لغة للشعب العبيدي – "الفراتية" ، كما كان يطلق عليها في بعض الأحيان .وليس مؤكدا بأية حال من الأحوال أن مثل هذه اللغة المنفصلة قد وجدت، ولا تزال المسألة عنصرا آخر محيراً يستعصى على اليقين في تاريخ هذه الحقبة البعيدة.

ومسألة أصول السومرين أنفسهم واحدة من أكبر غوامض العالم القديم وأكثرها تحييرا. ففي هذا الحين أوذاك، طرحت أعداد لا حصر لها من الأصول، ولا بد من إنتهاء المسألة بعدم اليقين. فلغتهم، وإن تكن في العادة أضمن السبل في الإشارة إلى أصول الجماعة العرقية، إلا أنها لا تحمل أية علاقة مع أية لغة أخرى، حية كانت أو ميتة . فاللغة السومرية لغة إلصاقية ، أي أن أشباه الجمل فيها تبنى بإضافة عناصر مقطعية على الجذر الأصلي، وفي هذا الجانب تشبه اللغات الفنلندية والتركية والهنغارية ولغة الباسك، وإن لم يكن لها صلة بأي من هذه اللغات، ولا بأي لسان آخر معروف.

كانت اللغة السومرية لغة ثرية ومرنة، وسرعان ما أصبحت واحدة من أقوى وسائل التعبير عن العبقرية السومرية الخلاقة والفريدة. والأدب السومري، برصيده المذهل من القصائد الملحمية التي تروي قصص الحكماء والأبطال، "أدب الحكمة"، والترانيم ، والأغاني، والشعر الغزلي، والأمثال والقوانين ، أدب ذو ثراء هائل، ومن دواعي فخره امتلاكه لأقدم مجموعة نصوص أدبية في تاريخ العالم، وهي غاية في النبل في العديد من جوانبها، ومفعمة بالإنسانية باهتمامها العميق بأحوال الإنسان. ولا يمكن لأي حديث عن مناهج الحياة السومرية تجاهل أدب الشعب السومري . وفي هذا السياق سنقوم ، وبشكل موسع، بالافادة من مقتطفات من قسم ذلك الأدب الذي يتعلق بأرض دلمون المقدسة، ما كان موضوعا خاصا لكتاب الملاحم القدماء هؤلاء.

اختراع الكتابة

كان أهم إسهام للسومريون في تقدم الجنس البشري اختراع نظام كتابة بالغ التطور. ومن

الصعب ، أو لعله من المستحيل، التفكير بأي اختراع أسهم بقدر أكبر في تحديد مسيرة الإنسان، أو أضاف بقدر أكبر إلى تمتعه بالعالم الذي وجد نفسه موضوعا فيه بسبب رغبة مفاجئة للآلهة في ذلك.

وليس مؤكدا أن السومريين كانوا السباقين في اختراع مفهوم الكتابة. ففي الأزمنة الحجرية القديمة العليا يمكن أن يكون شكل ما من أشكال الرموز التقويمية قد استخدم لمتابعة سير الفصول ومرور الأيام.

واعتقد بعض المراقبين أن مجموعة من الألواح التي كشف عنها في تارتاريا برومانيا تحمل تشابها بالأشكال السومرية الأولى، وأنها سلف لها. وإذا كانت هذه هي الحال، فإنها تومئ، إلى أصل آخر أيضاً للسومريين أنفسهم. وعلى أية حال، يمكن أن تكون الألواح التارتارية متأخرة أكثر مما اعتقد في البداية، أو يمكن أنها تمثل اتجاها آخر انتقل منه تأثير قوي آخر.

ولقد فتح البحث الحديث أفقا آخر مثيرا وجديرا بالملاحظة حول أصل الكتابة. فلعدة سنوات خلت والعاملون في مواقع في الشرق الأدنى يخرجون كميات من أجسام صغيرة من الفخار المحروق في تشكيلة متنوعة من الأشكال التي تبدو اعتباطية كالكرات، وأنصاف الكرات، والمخاريط ثلاثية الرؤوس وما شابه. ووصفت هذه أوصافا مختلفة – كَدُمى أو أدوات شعائرية – أو صرف النظر عنها على اعتبار أنها غير قابلة للتفسير.

وتوجد هذه الرموز في مواقع يعود تاريخها إلى الألف التاسع قبل الميلاد، وهذا تاريخ مبكر إلى حد يثير الدهشة ، ويتصادف في نهاية المطاف مع الظهور الأول للزراعة في الشرق الأدنى، وهوأكثر التغيرات أهمية وتأثيراً من بين جميع التغيرات التي خبرها الإنسان منذ الأزمنة الحجرية العليا.

ويبدو أن هذه الأشكال المتعددة قد استخدمت على مر عدة آلاف من السنين التي تفصل ما بين ظهورها الأول وظهور الألواح الأولى من سومر لكي تحمل ما يمكن أن يقال

إنه كتابة. وما يضيف مثل هذا الاكتشاف عرضيا هوالتميز بأنها أقدم أداة لتدوين أرقام وأجناس الحيوانات المملوكة للمعبد ، على سبيل المثال ، وأن الكتبة لعدة آلاف من السنين بعد إدخالها استخدموا الرموز ذاتها منقوشة على الصخر أوالفخار، كما كانت ممثلة بالرموز الفخارية.

وفي كثير من الأحيان وضعت الرموز داخل أوعية فخارية مجوفة،بحجم كرة التنس تقريبا. ومحفور على الجانب الخارجي من الوعاء عدد الرموز ونوعها ، لمنع الغش أو تمرير معلومات غير صحيحة. والمثال الوحيد المعروف حتى الآن أنه قد جاء من موقع في شرق الجزيرة العربية، يقال إنه كان " إكتشافا سطحيا معزولاً بالقرب من الظهران في المملكة العربية السعودية" . وعلى أية حال، فإن مثل هذه السوابق كالرموز المستخدمة قبل إدخال السومريين للكتابة لا تقلل بأية حال من روعة المنجزات السومرية ، فقد كان السومريون الأوائل يبتكرون تقنية صنع سجلات دائمة ، ومرنة بالقدر الكافي كي تكون قادرة على التعبير عن المفاهيم والأفكار وتدوين كلام الشعب ذاته إلى الأبد.

وجاءت أقدم الأمثلة المعروفة للكتابة السومرية من كيش وأروك، وهما أقدم مدينتين من عهد ما قبل الطوفان في سومر؛ فتلك التي جاءت من كوش هي الأكبر نسبيا، لكن كلتا مجموعتي الألواح تعودان إلى حقبة أروك. ووجد على هذه الألواح الصغيرة الشبيهة بالوسادة ، والتي كشف عنها من طبقات أرضية يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ قبل الميلاد، رموز تصويرية تمثل الشيء الذي كانت تستلزم تسجيل مقاديره. ومن هذه النقطة تطورت التقنية بسرعة مع توسع الرموز التصويرية حين أصبحت السجلات أكثر تعقيدا. وسرعان ما أدركوا أن التمثيل البسيط للغرض برسم صورة له أمر عائق ومحدود على حد سواء. ثم جاءت القفزة العظمى للأمام بتركيب الرموز التصويرية في تجريديات من شأنها أن تمثل الغرض على أحد المستويات، وأيضاً صورة الكلمة أوالمقطع المعني على المستوى الآخر. وبهذه الطريقة أصبح بالإمكان تطوير شكل من أشكال الكتابة يمكنها تدوين ملاحظات

دون أن تكون معتمدة كليا على تمثيل الشيء فحسب. ويعرف الخط الفعلي الذي ابتكر لهذه الغاية بالخط المسماري حيث كانت الأحرف على شكل إسفين ، نتاج القلم السومري الذي كان عبارة عن قصبة مبرية أنتجت أطراف الكتابة فيها الخطوط والأسافين التي تكون منها الخط السومري بسهولة كبيرة. وفي النهاية كان هنالك نحو ٢٠٠٠ علامة معيارية، ٦٠٠ – ٧٠٠ منها كانت عامة ومتكررة الاستخدام نسبيا. ولا بد أن تعلمها وكتابتها بكفاءة تطلب قدرا هائلا من التعليم للأطفال الذين دخلوا المدارس المخصصة لتدريب الكتبة. وكانت مهنة الكتبة مهنة محسود عليها كثيراً ، وهوالوضع الذي ساد في مصر أيضاً.

وكان تطور المؤسسة الفكرية السومرية حتى في الألف الرابع قبل الميلاد استثنائيا تماماً. ويستدل على ذلك من حقيقة أنه كان لدى السومريين مفردات معقدة وعائقة، وكانت لغتهم غنية خاصة بالأسماء وبعدة كلمات للشيء الواحد الذي يمكن وصفه بالصفات بصورة أيسر. وعند نقطة ما في الألف الرابع قبل الميلاد أعيد إصلاح اللغة فبدلا من ست وعشرين كلمة لأنواع مختلفة من الغنم تقلص العدد تقلصا حاداً واستخدمت نعوت وصفية. وكان هذا بالتأكيد أحد أهم وأعظم القرارات الفكرية التي اتخذت في تاريخ الإنسان.

ومر الخط المسماري ذاته في ست مراحل من التكييف قبل أن يستقر في النهاية في ما يمكن القول إنه صيغته الكلاسيكية نحو عام ١٨٠٠ قبل الميلاد. ثم بدأت الجحافل الناطقة باللغات السامية من الصحاري العربية والغربية بالتحرك إلى داخل الأراضي السومرية، ولأنهم كانوا أميين، فقد تبنوا الخط المسماري شكلاً للكتابة الخاصة بهم مع أنه لم يكن مناسبا للغات السامية. ونتيجة لتبني القبائل له، انتشر استخدامه في دول أخرى تتكلم اللغة السامية في الشرق الأدنى حتى إنه في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وبعد ٢٠٠٠ سنة من اختراع السومرين له، انتشر انتشارا واسعا في أرجاء العالم القديم جميعها مع أن اللغة السومرية كانت قد أصبحت في ذلك الحين لغة شعائر. ولم يستخدم المصريون الخط

المسماري (إلا تحت ظروف الإكراه الدبلوماسي) لأنهم اعتقدوا أنه لا يمكن أن يعدل أي شيء مما لديهم، وفضلوا نظامهم الهيروغليفي والهيروطيقي ، والأول في الحقيقة أروع الخطوط التي صنعها الإنسان. ولقد اقترح البعض أن المصريين لا بد أنهم استعاروا فكرة الكتابة من السومريين لأن مصادفة أن يقوم كلا الشعبين بالاختراع الثوري ذاته في الوقت ذاته تقريبا تحمّل نظرية التطور المستقل فوق ما تحتمل. وتظهر أمثلة من الكتابة المصرية بعد ظهور الكتابة السومرية بوقت قصير. ومع ذلك فإن النظام المصري لا يحمل علاقة كبيرة بالصيغ السومرية، ويبدو غريبا أن يكون المصريون فعلا قد استعاروا الفكرة أصلا. وفي القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد حين كانت الممالك جميعها في الشرق وبلاد ما بين النهرين تستخدم الخط المسماري (حتى كتبة الخارجية المصرية، الذين احتفظوا بمراسلات موسعة نيابة عن الفرعون مع معاصريه)، كانت مضطرة إلي تحرير مراسلاتهم بالخط المسماري. وفي ظل اعتقاد المصريين بتفوق طرقهم على الطرق الأخرى كافة، لابد أن هذا الاضطرار إلى الكتابة بأبجدية قوم آخرين تجربة لا تحتمل.

والنصوص التي بقيت من سومر ، والتي تعد بعشرات الآلاف، محفوظة على ألواح من الفخار، وهي المادة الأكثر ملاءمة والأسهل منالا التي يستطيع الكاتب الحصول عليها ويكتب عنها. وتاليا على الألواح الحجرية الشبيهة بالوسادة كانت الألواح الفخارية تنعم أولا ثم تحزز الحروف عليها بقصبة على شكل إسفين ثم تحرق فتصبح في حالة لا يصيبها التلف. وغالباً ما كانت تختم في مظاريف ثم ترتب في ملفات في غرف أصبحت عناصر مألوفة وهامة في حفريات العديد من قصور الشرق الأدنى ومواقع مدنه.

وكانت نتائج اهتمام السومرين بالكتابة عميقة الأثر في شعوب المستوطنات الخليجية. ولم يخترع السومريون الكتابة أساسا لتدوين ملاحمهم الشعبية أوالأمثال التي تظهرهم كشعب ينعم بالحكمة ، بل كان هدفهم أقل نبلا من ذلك، فقد كانوا مهتمين بالمحافظة على سجلات دقيقة لأنشطتهم التجارية. وكان مقدورا لهذه الأنشطة أن تصبح أعظم

اهتمام لهم . ولم يكن دور التجارة بالدور الصغير في نشر المؤثرات السومرية ومؤثرات بلاد ما بين النهرين على مساحة عريضة من العالم المعروف . وفي هذا الجانب من حياتهم لعبت الجزر والمستوطنات الخليجية دورا هاما بصفة خاصة .

السومريون والتجارة

كان السومريون أول شعب ينظم التجارة كوظيفة موحدة للجماعة، جاعلين منها إلى حد بعيد الأساس الفعلي للمجتمعات . وجنوب بلاد ما بين النهرين جزء غريب من العالم؛ فهو اليوم، كما كان عليه في أيام السومريين أنفسهم، بلاد قاسية ، وصحاري تذروها الرياح، وأنهار سريعة الجريان تقذف بسهول الغرين والطمي القادرة على العطاء الاستثنائي حين تدار بعناية، وأهوار تمتد من الأفق إلى الأفق مترعة بالأسماك والصيد، ولكنها في نهاية المطاف خالية من المصادر الأخرى أيا كانت . فلا يكاد يكون هناك أي حجارة في سومر، والأشجار القليلة الموجودة باستثناء النخلة الواسعة الانتشار ، قليلة القيمة للصانع أو البناء .

وبسبب طبيعة أرضهم، واجه السومريون في الجزء الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد ورطة فريدة : مجهود ملتهب خلاق محروم من التعبير عن ذاته في تحويل منتجات الطبيعة إلى مشغولات إنسانية . وللحصول على المواد الخام التي احتاجتها صناعتهم، اضطر مديرو المدينة والمعابد إلى البحث عن مصادر بعيدة بعدا قصيا عن أرضهم الشحيحة . ونقرأ في الأيام الغابرة عن حملات تجارية تصل إلى بلدان بعيدة جداً، ومعاهدات بين السومريين والقوى الأجنبية لتوريد احتياجات سومر، وشن الحملات العسكرية للمحافظة على الطرق مفتوح، وإخضاع العصابات والبرابرة الآخرين الذين يمكن أن تضر أنشطتهم بالتدفق الحر للتجارة من موانئ سومر وإليها .

ومن خلال تطوير تجارة امتدت من الأناضول حتى وادي السند، ومن الشرق وجزر البحر

المتوسط إلى آسيا الوسطى شمالا وجنوبا عبر البحرين ومدن شرق الجزيرة العربية، ابتكر السومريون تقنيات معقدة لتسهيل تبادل البضائع على نطاق دولي، وتمويل أنشطة تجارهم المحترفين. و من خلال هذا العمل، ابتكروا المصارف، ومفهوم رأس المال، والاحتفاظ بالأسهم العادية، والرهونات، وتقديم سلفيات العمل أوالمجازفة برأس المال مقابل ضمانات، إلى جانب الكثير من احتياجات وأدوات التمويل الدولي التي تدعم التجارة على مستوى العالم حتى يومنا هذا. وسوف نتفحص لاحقا في هذه الدراسة المراسلات الباقية من تاجر بابلي قديم كان يدير في الأزمنة بعد السومرية مباشرة مشروعا تجاريا من حجم ما بين مدينة أور ومدينة دلمون على الشاطئ الشمالي لجزيرة البحرين الرئيسة.

وكانت التجارة السومرية تعمل بطريقتين: أولا، بإقامة مصادر توريد المواد الخام التي كانت الحاجة إليها ماسة، وثانياً، بخلق أسواق تصدير للبضائع الفائضة التي صنعتها المدن نتيجة لجهدهم وإدارتهم الماهرة للقوى العاملة والموارد. وكانت عمليات التصنيع ذاتها منظمة تنظيما عاليا، كما كانت المصانع تدار بقوة عمل جيدة التنظيم ومعتنى بها جيدا، تنتج سلسلة من منتج معين. واشتملت صناعات سومر على الأقمشة والأثاث والمجوهرات والنحاس والبرونز والخشب والحجارة للنقاشين والنحاتين والمعماريين. وكان الخشب يجلب من الغابات الهندية وعمان، والأحجار من فارس، وربما عمان، وفي حالة اللازورد الذي كانت الآلهة تفضله كثيراً، من بدخشان البعيدة. وكان الذهب يستخرج من عيلام (جنوب غرب فارس) وسوريا.

وكان النحاس الأحمر السلعة الأساسية في تجارة السومرين، وتحويله على يدي الإنسان قديم جداً، ويوجد دليل على صهره في الأناضول في الألف السابع قبل الميلاد، وبالفعل افترض بعض العلماء أن المصادر الأناضولية قد ضاعت على السومريين في الألف الرابع قبل الميلاد، وبالتالي أجبروا على البحث عن مصادر إمداد أخرى، وقد عثروا عليها جنوبا. ولعل عمان كانت أحد المصادر الرئيسة التي عثروا عليها في أثناء بحثهم. ولكن فكرة

اكتشاف السومريين للخليج نتيجة بحثهم عن النحاس غير مرجحة. ومما لا شك فيه أن الحاجة للتنقيب في أراضي الخليج عن هذا العنصر الحيوي في اقتصادياتها قد أضاف الكثير إلى معرفة سومر بالمنطقة، لكن ليس هناك الكثير مما يوحي بأن النحاس الأناضولي كان على هذا القدر من الأهمية في تاريخ الشعب المبكر. ومن المؤكد أن البحرين لعبت دورا هاما كمحطة في حركة النحاس من مصادره، وبخاصة عمان، إلى بلاد ما بين النهرين. وثمة دليل على تداول كمية كبيرة من النحاس في البحرين من خلال أرصفة المدن المتعاقبة في موقع قلعة البحرين.

وكانت التجارة تتم كما سنرى أيضاً بواسطة التعبير عن القيمة المكافئة الأكثر تعقيدا بعملة معيارية، وفي حالة السومريين والبابليين بالفضة. ومع ذلك لم يجدوا من الضروري اتخاذ الخطوة النهائية بإدخال العملة النقدية.

الخليج وأصول السومريين

لطالما قيل إن المهاجرين إلى جنوب بلاد ما بين النهرين، الذين أصبحوا السومريين، جاؤوا من الجنوب عبر الخليج أو بمحاذاة الساحل العربي. ولقد لوحظ سلفا وجود فخار "العبيد" في جنوب بلاد ما بين النهرين، كما وجد في السنوات الأخيرة في العديد من المواقع في شبه الجزيرة العربية والخليج. ومع هذا ليس ثمة أدلّة كثيرة على أن ثقافة "العبيد" قد زحفت من الجنوب إلى الشمال. وبالفعل يبدو أن الفخار يوحي بأن أقدم الأمثلة موجود في الشمال، بينما تحليل القطع الفخارية العبيدية الذي أجري على نماذج خليجية يربط بينها وبين فخار أور. ولكن الحقيقة تظل في اعتقادهم بأن فن الحضارة قد جلبه لهم الرجل السمكة أوانس (Oannes) الذي يمكن أن يكون تجسيدا لإنكي الإله الخالق الرحيم الذي سنسمع الكثير عنه قبل أن ننهي هذا العمل. وتجعل أحد دورات الأسطورة التي تظهر في وعي السومريين من دلمون مركزا تجاريا وأرض فردوس مثالية، ومكانا للخلق، وهوالمفهوم

الذي بلا شك اشتقت منه قصة جنة عدن الكتابية*. وهكذا فإن من غير الحكمة أن نرفض رفضا قاطعا احتمال أن القوم الذين أصبحوا السومريين، أومهاجرين آخرين أثروا فيهم كثيراً ، قد جاؤوا عبر الخليج من مصدر جنوبي لا يزال غير معروف.

وكان مركز أرض دلمون الذي مارس جذبا قويا للسومريين هوأرض البحرين الرئيسة. ولم تكن حدودها ثابتة ، ففي بعض الفترات عرف أنها كانت تضم فيما تضم جزيرة فيلكا التي عثر فيها على بقايا هامة من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، ولم تكن دلمون فقط المكان الذي تشرق منه الشمس، بل كانت أيضاً أرض الأحياء، وبالسومرية، Kirlu Ti-La.

ولقد كان هناك تخمين واسع حول ما إذا كان الخليج قد بلغ في العهود السومرية شمالا إلى أبعد مما هو عليه اليوم. وكان هذا هو الرأي السائد به بشدة حتى عهد قريب ، وعززه السجل التاريخي لمدن مثل إريدو (Eridu)، وأور اللتين كانتا تفخران بتجارة بحرية، واللتين تقعان اليوم على بعد ٤٥٠ كم من الخليج. وفي وقت من الأوقات اعتقد أن الخطوط الساحلية للخليج لم تتغير تغيرا كبيراً منذ الأزمنة القريبة نسبيا ، وبالتأكيد منذ وجود الإنسان. وعلى أية حال، يلقي بعض الشك اليوم بظلاله على هذا الرأي. ولعل منطقة جنوب العراق التي يسكنها اليوم بقايا السومريين (بل ما قبل السومريين) كانت حينذاك ، وبأكثر مما هي عليه اليوم، منطقة اهوار تمتد بعيداً في عمق الأراضي السومرية. وهكذا فإن بعض الموانئ السومرية في الجنوب لا بد أنها كانت تقع على شواطئ الأهوار وترتبط بسلسلة تفتح فيها الواحدة على الأخرى، ثم إلى الخليج.

---

* هذا القول غير صحيح فالمؤلف هنا يخلط بين الجنة الأسطورية التي عرفتها الأساطير السومرية واليونانيةوالرومانية والتي تسمى أحياناً «جزر المباركين» وبين الجنة دار النعيم في الآخرة التي أعدها الله للمؤمنين الموحدين من عباده والتي ذكرت في جميع الكتب المقدسة الأصلية غير المحرّفة وذكرها الأنبياء والرسل لأقوامهم وتابعيهم الحقيقيين. (د.السقاف).

إريدو

Eridu

كانت إريدو أقدم المدن السومرية الواقعة في أقاصي الجنوب ، وكانت أعظمها في الحقبة السابقة على الطوفان حيث كان السومريون يحسبون الأزمنة التاريخية من العهود الأسطورية قبل الطوفان. وقد حمل علم الآثار هذا التقليد لتاريخ إريدو القديم ، ويوحي بأنها الحقيقة ، وحتى الآن لم يعثر على مدينة أقدم منها. ولقد نقبت سلسلة طويلة من المعابد في إريدو أربعة منها قديمه، وتصل إلى طبقة الرمال العذراء ، وهي أقدم بنايات يمكن تعرّفها من الحقبة العبيدية.

وفي السياق الخليجي، تبرز حقيقة قدم إريدو بأهمية بالغة لأن إريدوكانت مقدسة لدى إنكي، إله المياه العذبة .وكانت إريدو طوال التاريخ السومري مركز الديانة لدى الآلهة السومرية التي كانت شديدة الميل إلى الإنسانية.

وبناء على دليل الأسطورة ، كانت دلمون وإنكي متلازمين في الاعتقاد السومري، وساد اعتقاد بأن عبادة الإله ربما نشأت في دلمون. وفي بعض الأحيان يدمج إنكي مع أوانس الوحش البرمائي الذي سبح عبر الخليج مصحوبا بمخلوقات بحرية غريبة . ولقد اعتمد ظهور أوانس كدليل على أن السومريين جاؤوا من الجنوب، وقيل إن أوانس كان نوعاً من التجريد للناس أنفسهم، وأنهم في رحلتهم إلى الشمال قد استقروا لبعض الوقت على جزيرة البحرين، وهذا أكثر صلة بهذه القصة. وافترض أن هذا يفسر الحنين الذي عاودهم من ذكرى دلمون، والقداسة التي أحاطوا بها أرضها جاعلين منها في الحقيقة أرض البركة والبراءة.

ولقد استند على القدم الاستثنائي لإريدو لدعم الحجة بأنها كانت أول مستوطنة سومرية حقيقية شكلت بروزات اليابسة للمهاجرين الذين خلدوا رحلتهم البحرية بتكريس مدينتهم الأولى على اليابسة لإله الماء العذب إنكي. وشهدت مدينة أروك في

النصف الثاني من الألف الرابعة قبل الميلاد زيادة ملحوظة ومفاجئة في تعداد السكان، كما ولد فيها جلجامش، أعظم الملوك السومريين الأبطال. ولقد افترض أن هذه الزيادة ربما كانت نتيجة هجرة شعب من منطقة الخليج. وإذا كانت مثل هذه الهجرة قد حدثت (والتي لا دليل أثري عليها حتى الآن) فإن من شأنها أن تفسر دمج الأسطورة بالخرافة المتمحورة حول البحرين – قدسية دلمون باعتبار أنها الموطن الأصلي للآلهة والبشر.

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى أن معظم الجهات ترى تواليا زمنياً غير منقطع في الاستيطان جنوبى بلاد ما بين النهرين منذ العهود العبيدية وحتى أول ظهور للكتابة، و منذ أول ظهور للسومريين حين أصبح بالإمكان وضع اسم لهم في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. ويأتي أقوى الأدلة حجة في تدعيم هذا الرأي من معبد إريدو ذاته: وهو أول مزار متواضع يؤكد على الزقورات العظيمة (والتي كانت مخصصة لإنكي ومجدت إله السمك والمياه العميقة) أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ، وتصور استمرارية مدهشة منذ الاستيطان الأول لأهل بلاد ما بين النهرين حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد وحتى عهد الزقورات العظيم حوالي ٣٠٠٠ سنة بعد ذلك. كما أن الدليل المستمد من الخزف واضح تماماً، فمن منتجات شعب العبيد، ومرورا بالأنواع المرتبطة بفترات أروك و« جمدت نصر » يتضح التوالي في كل نموذج مع سلفه. والفخار معلم أكيد في هذه المسألة ، والدليل المستمد منه لا لبس فيه. وهكذا فإنه إذا كان العبيد أو السومريون قد جاؤوا من الجنوب، فلا بد إذن أنهم قد تحركوا بمحاذاة الشاطئ العربي، ولكن مثل هذا الدليل الفخاري الذي تم اكتشافه الآن في مواقع في جنوب الجزيرة العربية، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية المتحدة في جنوب الخليج يدل على الصلة بالعبيديين المتأخرين، وعلى أرجح الاحتمالات،مع المستوطنات القائمة في بلاد ما بين النهرين.

ويأتي أهم المشغولات منذ البدايات الأولى للحقبة السومرية من إريدو في الحقبة العبيدية المتأخرة، وهوأقدم نموذج للقارب الشراعي يعثر عليه في أي مكان في العالم.

واستمر هذا النوع من المراكب، مع تعديل طفيف، في الإبحار في مياه الخليج وأنهار بلاد ما بين النهرين حيثما كانت صالحة للملاحة ضاربا في عمق التاريخ. ولا شك في أن قارب عصر العبيد كان جديراً الاعتماد عليه فهو يقدم مزيدا من الإسناد للاعتقاد بأن استكشاف وارتياد الخليج كان سهلا على البشر في أزمنة ما قبل التاريخ. ولقد طور الإنسان على سطح مياه الخليج المخادعة ، أومياه أهوار مستنقعات جنوب بلاد ما بين النهرين، فن استغلال الرياح لخدمة أغراضه، فاستخدم قوتها في دفع القوارب الشراعية البدائية التي يعد قارب إريدو نموذجها الأول. ولا يزال المدى الذي بلغته هذه الرحلات البحرية حتى الآن مسألة تخمين، ولكن يمكن اعتبار وجود الأصداف التي يمكن فقط أن تكون هندية المنشأ ، والتي عثر عليها في تبه غورة في أقاصي شمال بلاد ما بين النهرين، دليلاً على وجود طريق إلى الهند عبر الخليج، حتى في هذا الوقت المبكر. ولا يمكن استبعاد الطريق البري استبعادا تاما وإن كانت خبرة الأزمنة التاريخية تجعل منها احتمالا أقل . كما عثر على أصداف من الخليج في قبور مصرية من عهد نقادة الأول* المعاصر لفترة أروك في التسلسل التاريخي السومري. وبالمثل، عثر على اللازورد في سياقات مصرية سابقة على عهد الأسر الحاكمة ، ويمكن فقط أن يكون قد وصل إلى الوادي من الشرق. وبينما لا يمكن استبعاد الطريق البري، فإنه لايمكن إغفال احتمال وصول هذه المواد إلى مصر عن طريق البحر .

ونمت خصائص المجتمع السومري الواضحة جدا من خلال طبيعة الأرض والشروط الضرورية لتنظيمها بطريقة تمكنها من تأمين قوت السكان المتنامين بهذا القدر من السرعة واحتياجات أخرى متصاعدة التعقيد. وتوجد بعض الأدلة على أن الوحدة السياسية السومرية الأولية كانت مجموعة من الرجال الأحرار الذين ناقشوا بقيادة الراشدين المسائل ذات التأثير في الجماعة. ويرى بعض المفسرين في هذه المؤسسة أقدم مثال مدون على

---

* فترة من فترات التاريخ المصري القديم (عهد ماقبل الأُسَرْ) وتقع بين ٤٠٠٠ ق.م، ٣٥٠٠ ق.م (العبودي).

الحكومة الديموقراطية ، أوحتى البرلمانية . ومن المحتمل كثيراً أن تبرز من خلال هذه الظاهرة البقايا العالقة من مخلفات القبلية القديمة في العهود الحجرية الحديثة، ومن المحتمل أن تكون موروثة عن الجماعات العبيدية ، وإحدى الموروثات التي تثبت بجلاء عدم قابليتها للتنفيذ في المراحل الأولى للحقبة السومرية الحقيقية . وعلى أية حال، ظل السومريون طوال تاريخهم شعبا شديد الاستقلالية والنزعة الفردية . ولعله لم يكن بالتأكيد غريباً عليهم أن يطالب المواطنون المشاركة في حكومتهم . فها هوجلجامش ، أكثر الحكام السومريين إلهاما، يبدو أنه يتشاور مع الراشدين في الدولة ثم لا يعمل بمشورتهم، وإن جاء ذلك في سياق أدبي محض .

المعبد السومري

يوجد دليل على أن المعبد كان أقدم مركز للإدارة والسلطة في المدن السومرية الناشئة . وهذا منطقي بما فيه الكفاية لأن المدينة ليست إلا النقطة المركزية في السكن الدنيوي للإله الذي خصصت له المدينة ، ففي القرون الأولى كانت المدينة والدولة التي اعتمدت عليها ثيوقراطية (دولة دينية) يوجهها ويحكمها الإله؛ فكانت الأراضي كلها تدار بشكل مؤسس لصالح الإله على يدي سدنته ، نظار عزبته الذين كانوا بلا شك يشكلون في الأزمنة القديمة (أخوية) قوية من الكهنة تحت حكم كبيرهم الذي يحمل لقب "إن" . وكان هذا اللقب يستخدم أحيانا في محتوى سياسي محض بمعزل عن أي دور عقائدى ، وفي مثل تلك الحالات يمكن ترجمة لفظة "en" بلفظة" السيد النبيل" .

ولعل العالم مدين بالكثير لهذه الكهنوتيات العملية؛ ففي تلك القرون القديمة كانت التجارة، ذلك الجانب الحيوي في المجتمع السومري، بين يدي سلطات المعبد ، وكان التجار يبيعون ويشترون بالنيابة عن المعبد، وكانت البضائع جميعها ملكية المعبد، وكانت الكتابة قد اخترعت من أجل إحداث نظام للمحاسبة لخزينة المعبد، فأقدم النصوص بالرموز التصويرية نصوص موجودات بضائع وحيوانات تخص المعبد على أقرب الاحتمالات .

وإحدى الأحاجي، وأكثرها التباسا، بشأن نشر اختراع كالكتابة في مجتمع على هذا القدر من التشتت الذي كانت عليه المدن السومرية في تلك الحقبة التاريخية هو بلا شك، كيف استطاعوا تطوير نظام كتابة سرعان ما أصبح مقبولا في طول و البلاد وعرضها دون أي اعتبار للتمييز الذي يمكن لمدينة - دولة أن تتفاخر به على الأخرى، أوالادعاءات التي يمكن أن يتقدم بها أتباع أحد الآلهة ضد أتباع إله آخر؟ ويبدو أن صيغة المشاركة الوجدانية التي مثلتها الكهنوتيات كانت قوية بالقدر الكافي ومنظمة بما فيه الكفاية في أرجاء البلاد جميعها لجعل القرارات الجماعية المركزية تطغى على الخلافات أو الميول المحلية. ولعلها أول مثال تاريخي على البيروقراطية في موضع التنفيذ، تحافظ على مصالحها الكبرى على حساب السياسات قصيرة الأجل التي كان من الممكن أن تسود لولا ذلك.

ولكن على الرغم من أن دولهم كانت تحكم إما جماعيا أوفرديا، ظل السومريون برغم ذلك طوال وجودهم يكنون الاحترام للفرد وحكم القانون المطبق على المواطنين جميعا على قدم المساواة، وبدرجة جديرة بالملاحظة في العصور القديمة. ففي معظم المجتمعات القديمة كانت الدولة عموما مطلقة القوة والسلطان، وربما متمثلة بالملك، وتتعرض المصالح الفردية للتضحية بها لصالح حكم تعسفي في الغالب تتمثل فيه المصالح العامة أو الوطنية. وكان السومريون أول شعب يحاول تحديد دور الفرد في المجتمع وإقامة قانون رسمي مكتوب يحكم السلوك ويحدد المسئوليات بين المواطنين تجاه بعضهم بعضاً، وآخر بين المواطنين والدولة . ومن خلال ذلك ابتدعوا القانون واعتزوا به.

المدينة - الدولة

ولقد اعتبر السومريون أنفسهم شعبا واحداً، ومتميزا عن جيرانهم، ولكنهم في وقت مبكر تجزؤوا إلى مجموعة من الدويلات الصغيرة دائمة التغير، والمتنافسة بصخب مع بعضها بعضا، وإن كانت حدودها في بعض الأحيان لم تمتد إلى أبعد من أسوار المدينة. وأخذت الواحدة تلو الأخرى تدعي السيادة على الأخريات ليسيطر عليها بسرعة جار أكثر

قوة ولو بقدر هامشي ، أو أكثر قدرة سياسيا . ويندر أن كانت البلاد تحت سيطرة قيادة واحدة لفترة أطول من عمر الفرد، وعموما ، يتألف التاريخ السومري من سجلات مجموعة المدن دائمة العراك فيما بينها كمجموعة جراء في سلة!.

ولم تكن سومر أبدا دولة وحدوية لأكثر من بضعة عقود في المرة الواحدة، وكانت المدن الفردية تحتفظ بشخصيتها المستقلة حتى في ظل الوحدة. وعندما تم توزيع المدن ، المبنية ربما على مستوطنات عبيدية سابقة، بالنسق الذي قدر له أن يستمر طوال الحقبة السومرية التاريخية، كان بالإمكان القول إن سومر قد امتدت من مكان قريب أسفل بغداد الحالية في الشمال، إلى الأراضي البحرية في الخليج في الجنوب تحدُها الصحراء العربية من الغرب وتلال الهضبة الإيرانية من الشرق. وكانت مساحتها نحو عشرة آلاف ميل مربع، قسم ضئيل جداً من سطح العالم بالقياس إلى النفوذ الذي مارسه أهلها. ومن بين أقدم المدن – إلى جانب إريدو – كانت هنالك أور التي قدمت من المواد الأثرية أكثر مما قدمت سومر، وأروك، المدينة التي كان جلجامش ملكا عليها، ونيبور، التي كانت على الدوام أقدس المدن السومرية والمخصصة لإنليل (Enlil) ؛ كما كانت كيش (Kish)، وبادتبيرا ، (Badtibira)ولجش (Lagash) مدنا أخرى بعيدة القدم. وفي حدود أزمنة حكم الأُسَرْ، في القرون الأولى من الألف الثالث قبل الميلاد، كان هناك نحو عشرين مدينة –دولة تؤلف الوحدة السياسية لسومر.

وانتهجت كل منها نسقا سياسيا مشابها إن لم يكن متماثلا :فهناك ملك أوحاكم لوغال "lugal" أو إنسي "ensi" ، ومعبد للإله الرئيس للمدينة، وعدد من الهياكل الأصغر المخصصة لمساعدي الإله أو الإلهة .وكانت هناك بيوت المواطنين المبنية من الآجر المحروق مقامة حول المحيط المقدس للمعبد وخلفه الذي كان يشكل قلب أي مدينة سومرية (والذي كان بالفعل السبب في وجود المدينة حيث كانت المدينة ملكية شخصية للآلهة ومقرا لإقامتها) .وكانت الطرق تتقاطعها أزقة مسورة تفتح منها الأبواب إلى المنازل.

وكانت هذه عبارة عن أكواخ من غرفة أو غرفتين، أو في حالة الصانع الثري، أو التاجر أو الإداري ، بنايات فسيحة من طابقين مع باحات جميلة ومقصورات بهية الزينة، لكنها مثلها مثل المساكن الشرقية جيدة التصميم جميعها حتى هذا اليوم تطل إلى الداخل على أهل البيت والأسرة التي حوتها. ولم تغط أي من المدن مساحات كبيرة، فقد كانت أور، وهي أشهرها، تغطي نحو نصف ميل مربع. وكانت أروك مدينة جلجامش أكبر من ذلك بكثير إذ كانت تمتد لنحو ميلين مربعين.

ومع تطور وامتداد المجتمع السومري أصبحت المتاجر والمصانع والمدارس وثكنات الجنود علامات تقليدية في أية مدينة سومرية. و لأن السومريين آمنوا بالتجارة أكثر من إيمانهم بأي شيء آخر كانت الأسواق على الأرصفة النهرية ،حيث كانت السفن بعيدة المدى تفرغ البضائع الآتية من العديد من البلدان ، ومن ثم فقد أصبحت أكبر وأكثر أهمية ومركزية في حياة المدن وفي تجربة أهلها.

ولقد ثبَّتَ السومريون أنفسهم كقوم عاملين ناجحين مبدعين ومرحين إلى حد بعيد مع بداية الألف الثالث قبل الميلاد. ومن حيث الجوهر، كان من شأن المدن التي شيدوها، والملابس التي ارتدوها في أسواقهم، وصدى الألسنة المتعددة أن تجعل مجتمعهم لا يختلف كثيراً عن أي مجتمع في أي بلد شرق أوسطي حتى بداية القرن العشرين الميلادي.

ولقد سبقت الإشارة إلى أن الأصول العرقية لشعب سومر غير معروفة. ولم يساعدوا على حل هذه الإشكالية بميلهم طوال تاريخهم إلى الحديث عن أنفسهم على أنهم نوعاً ما بدينون قصيرو القامة، قصيرو الأعناق، مستديرو الرؤوس. وفي الواقع، تشير الأدلة المستمدة من هياكلهم العظمية إلى أن إحاطتهم بعلم المورفولوجيا كانت طفيفة، لكنه برغم ذلك انساق كثير من المفسرين الأوائل وراء الاعتقاد بأنهم كانوا متميزين عرقيا تميزا جذريا عن شعوب الصحراء الواقعة إلى الغرب من بلادهم والذين كانوا يتكلمون لغات سامية، والذين ضغطوا باستمرار على الجماعات الحضرية التي طورها السومريون. ولكن

المميزات اللسانية لا تكشف عن نفسها في بقايا الهياكل العظمية، فالهيكل العظمي الذي يخص سومريا حضريا لا يمكن تمييزه عن الهيكل العظمي لساكن صحراء كان ينطق بلغة سامية.

وكان خلفاء السومريين – الأكاديون والبابليون ، والآشوريون – ساميين وصارت لغة البلاد وثقافتها سامية مع مرور القرون إلى حد ضياع السومرية كليا كلغة حية. ومن الأدلة المتوفرة حتى الآن يستحيل الحكم بشكل قاطع بشأن العرق السومري. وبالتأكيد فقد تصاهرت الشعوب جميعها في جنوب بلاد ما بين النهرين بحرية، والأسماء السامية في الأزمنة السومرية المبكرة على القدر ذاته من الشيوع مثل الأسماء السومرية الباقية في الحقبة البابلية المبكرة. وضمن حدود المعرفة الحالية، يفهم من عبارتي "سومري" و"سامي" ببساطة أنهما تقسيمات ثقافية ولغوية، بأكثر مما هي مجموعات عرقية متميزة.

ويبدأ التاريخ المدون للإنسان القاطن في المدن مع استقرار السومريين على أرضهم والتحول من المستوطنات القبلية أوالعشائرية والقرى الصغيرة التي أحست بالحاجة إلى نوع من "المكان المركزي" إما للتبادل أو لأداء االشعائر، وهذا أدى إلى بدايات الحياة في المدينة. ونمت المستوطنات الأولى في الشرق الأدنى – والتي تطورت في العراق ذاتها ، وإيران، وفلسطين ، وسوريا، وتركيا – نموا سريعا في سومر إلى ما يمكن للإنسان المعاصر اعتباره مدنا منظمة تنظيما لائقا. ومع حلول نهاية الألف الرابع قبل الميلاد أمضى قسم معتبر من السكان السومريين حياتهم ضمن حدود المدينة. والأمر المحزن أن يثبت أن الأمن– وهو أحد الاعتبارات الأساسية التي دفعت الإنسان إلى الحياة الحضرية كان وهما في بلاد ما بين النهرين،ذلك لأن القبائل الصحراوية الرحل والقبائل الجبلية التي أحاطت بالمدن سرعان ما اعتبرت أنها مغانم تستحق الالتهام، وأن ثرواتها تستحق النهب. وزيادة على ذلك ، وضع الإنسان نفسه بانتقاله إلى المدينة بعيداً عن أحضان الطبيعة تحت وطأة ضغوط المدينة.

وكانت هذه الحياة معا وعلى الدوام في مستوطنات عالية التنظيم ، محكمة الأسوار في العادة، خبرة جديدة تماما للبشرية . وأضيف إلى الأمل في الحد من دورة الهجمات والغزوات الكئيبة التي شوهت الاستمتاع بالحياة (بل وحتى استمراريتها) في المجتمعات اللاحقة على العصر الحجري الحديث ، والمجتمعات حديثة الاستيقاظ على المطامح التي كان على تلك الحياة تقديمها، الضغوط الاقتصادية والحاجة إلى ضوابط سياسية في اقتصاد نام قوي. ويوحي الدليل المتوفر بأن التحول من جماعات قرى العصر الحجري الحديث إلى المستوطنات المدنية، وتطوير البنية السياسية والتكنولوجيا جلباً سلسلة من التغيرات الجذرية الحادة والتوترات المصاحبة لها . وأعمق هذه الاختبارات ،أولا، بروز الفن كفرع معرفة رسمي ، والذي كان في مصادره وممارسته اللاحقة مهتما بالعالم غير المرئي بقدر ما كان مهتما بالعالم الواقعي ؛ وثانياً، في التغير من السحر إلى الدين، وبالتالي تنظيم الإيمان ومسؤولية الإنسان تجاه الآلهة بعبارات يستطيع العالم المعاصر استيعابها . وكان الفن والدين متداخلين بصورة واضحة في سومر كما كانا في الحقيقة في أي مكان آخر.

الفن السومري

يوجد أثر قليل في الفن السومري المبكر للدور الاستعطافي الذي لعبه الدين غالباً في مجتمعات الجمع والصيد . فهو يهتم بقدر أكبر بكثير بالعبادة المعلنة للآلهة، وتزيين معابدها والتزامها بالعناية بعالم الإنسان. والعقائد التي صاغها الناس في طريقة الالتزام بالدين فيما بعد، أسلوب من التنفيس، وإطلاق التوترات وتهدئة الخوف والرهبة.. فعدم الثقة ببيئتهم، والتهديد المستمر من جانب قبائل الصحراء، وتنافس المدن الصغيرة ذاتها، كل ذلك خلق درجة من عدم الثقة بين سكان المدن الأوائل والتي يراها البعض جلية في الأعمال الفنية التي أنتجوها. وبدأت أشكال وحشية تعكس أعمق المخاوف بالظهور في صيغة فنية ملموسة ، وهكذا تخلصوا من بعض مخاوفهم.

وعلى الرغم من أن ذلك الحكم شخصى إلى حد كبير، فإن الكثير من الفن السومري المبكر يبدو مرضيا في نشأته، ويعكس نوعية عصابية متوترة يمكن أن تبقى مزعجة إزعاجا عميقا. وحين وطد الإنسان نفسه على العيش في جماعة، يبدو أن تلك الأشكال الوحشية تكشف قلق السومري وعدم ثقته بالقدرة على مواجهة التوترات التي أثارتها حياته المجتمعية مواجهة ناجحة . ومع هذا فإن هذه النوعية هي ما يجعل الفن السومري المبكر مشوقا بصفة خاصة .فهوأول فن ينتجه مجتمع حضري بصورة واعية .

وعلى الرغم من أن الفن السومري قد ارتقى مع مرور القرون، وقلل من الصفات الكئيبة والمخيفة التي أبرزها آنفا فإنه لم يفقد بالكامل ذلك القلق الخفي المميز . ولا بد أيضاً من الاعتراف بأن الفن السومري المبكر، مع استثناءات هامة، متميز عند مقارنته بالفن المصري الذي عاصره من خلال عدم اقتداره فنيا. ويمكن أن يهزم السومري في المقارنة بفعل الانضباطية الصارمة التي أبداها الفنان المصري منذ أقدم العصور، ولكنهم كانوا أفضل من حيث الكلمات والأفكار منهم في المواد المرنة، وربما كان ذلك نتيجة العيش في بلاد مجردة من الأشجار والحجارة.وهذه النكهة من العصابية وعدم الاقتدار لم تقلل بأية حال من النوعية المدهشة لنحت الأختام السومرية التي حقق فيها الناس ذوو الرؤوس السوداء أعلى وأسعد مهاراتهم الفنية، كما أن افتقار السومريين للبراعة الفنية يزيد من قيمة أعمالهم.

عيلام

لم يكن السومريون وحدهم في عمليات تطوير ذلك الركن الذي احتلوه من غربى آسيا. ولقد كان التطور في الاتجاه الغربي عشوائيا، لكن في الاتجاهين الشرقي والجنوبي فيما يعرف الآن بجنوب غرب إيران، كان شعب موهوب آخر يوطد مكانته في العالم.

وأحد الأمور غير الموزونة في علم آثار الخليج في الأزمنة القديمة في العصور المتأخرة لما

قبل التاريخ على سبيل المثال، هو مدى تأثر ثقافة الخليج وطرق معيشته بالعيلاميين، وهم أحد أكثر الشعوب غموضا من بين جيران السومريين، .واحتلت عيلام بصفة عامة المقاطعة الإيرانية المعروفة تاريخيا باسم خوزستان المتمركزة على المدينة العظيمة الصامدة سوسة التي أدت بدورها إلى إطلاق اسم سوسيانا على المنطقة أحيانا . ومهما كان اسمها فقد كانت عيلام دولة غرب آسيوية قوية وذات نفوذ ، وفي كثير من الجوانب نظيرا لسومر ذاتها . وكانت أيضاً قوة خليجية هامة حيث خضع شريط طويل بمحاذاة الخط الساحلي الشرقي لسيطرتها .

وأصول عيلام على القدر ذاته من الغموض كأصول سومر. وسارت حدودهما معا في منطقة تلال جنوب زاغروس، وكانتا في الأزمنة التاريخية متصارعتين. ويبدو أن عيلام كانت دولة أكثر تكاملا مما كانت عليه سومر عادة إلا في المناسبات القليلة حينما كان يبرز حاكم في واحدة من الدول الصغيرة بقوة كافية أو قوة خارقة لبسط سيطرته على كامل البلاد . ولقد افترض أن المدن في عيلام جاءت نتيجة الحاجة لإقامة مراكز عرض وتبادل لخدمة البحث عن مواد خام ومصادر.

واشتركت عيلام مع سومر في الاستخدام المبكر لأنظمة الكتابة بالغة التطور .والنظام الذي استخدمه العيلاميون تعديل للخط المسماري السومري . ولسوء الحظ لا يعرف شيء عن العيلامية القديمة، ولا تزال حتى الآن عصية على التفسير، ولذلك فإن المعروف عن المملكة العيلامية القديمة أقل بكثير مما كان ينبغي أن يكون.

وتبنى العيلاميون في وقت مبكر ممارسة صناعة الأختام ، وهي المهارة التي اشتركوا فيها مع معاصريهم السومريين . والأختام العيلامية غنية بموضوع تصميمها والمهارة التي يبديها نحاتو الأختام في تحقيق تأثيرهم المعقد جداً في الغالب، بل وحتى أكثر من زملائهم السومريين، كان نحاتوالأختام العيلاميون قادرين بصورة ملحوظة على إظهار تأثيرات تذكارية إيجابيا في حيز صغير جداً.

ويتوفر في كثير من المواقع في الخليج وشرق الجزيرة العربية من الألف الثالث والثاني قبل الميلاد بصفة خاصة كميات من حجارة ناعمة سهلة النحت تعرف غالباً بالحجارة الصابونية، وإن كان يطلق عليها بعبارة أدق الكلورايت؛ وهذا حجر كثيف يبدو نوعاً ما شبيها باللدائن، ويتنوع لونه من الأخضر اللامع إلى الأزرق والرمادي والأسود. ونظراً لسهولة تداوله فقد كان مثاليا لصناعة الأواني اليومية التي استدعت عمومية استخدامها إنتاجا بالجملة. وقد ثبت أن الكثير من المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة قد جاءت من فارس، وتوجر بها في مدن مثل شهرسكوته، وتبه يحيى، وكان هنالك منجم للحجر الصابوني* في غرب الجزيرة العربية، ومصدر آخر بالقرب من يبرين. وتشكيلة الأنماط والتصاميم التي استخدمها صناع الكلورايت واسعة جداً، لكن بعض المواضيع تتكرر بمثابرة ملحوظة. وتمتد الآنية المستخدمة من الجرار المنزلية ، ومعظمها ذات آذان جانبية تسمح بتعليقها، وحتى آنية الشعائر الضخمة بتصاميم ذات تفاصيل معقدة مفرطة غالباً.

وليس مؤكدا إلى أي مدى بلغت الصلة المباشرة بين عيلام في الشرق، والبحرين والساحل الخليجي الغربي ، هذا إن كانت هنالك أية صلة. وبهذا الخصوص لا يبدو أكيداً أن هذه الصلة كانت بالقدر ذاته مع سومر في الشمال، ومدن وادي السند في الجنوب و الشرق. ولكن بالنظر إلى مقدار التجارة التي حملها الخليج، وبالتأكيد في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وفي بداية الألف الثاني قبل الميلاد، فمن الصعب الجزم بحتمية وجود اتصال منتظم ومألوف من نوع ما. وتوجد أدلة على مؤثرات تسربت إلى الخليج حتى من مناطق أبعد إلى الشرق والشمال (القوقاز وترانس أكزانيا على سبيل المثال) مرورا بعيلام. وكان هناك معبد في سوسة، المدينة العيلامية الرئيسة، مكرسا لإنشاغ (Enshag) الإله الحامي لدلمون، ولعل مستوطنة دلمونية كانت قد أقيمت في ذلك المكان.

---

* أوضحت الأبحاث الحديثة في الإمارات وجود هذه المادة في جبالها (العبودي).

وغالباً ما افترض أن العديد من المؤثرات الغرب آسيوية التي أصبحت جلية في مصر في الأزمنة المتأخرة السابقة على حكم الأُسَر جاءت في الواقع من عيلام. ولعل الصولجانات التي تشبه الكمثرى التي بدت هيأتها المتغيرة لبعض المفسرين كعلامة على غزو شعب جديد لوادي النيل،يمكن أن تكون عيلامية الأصل. ولعل بعض النقوش الشعائرية المُتْقَنَة على ألواح وسكاكين متعلقة بالنذور جاءت في النهاية من الإلهام نفسه.

لا يزال مدى تأثير عيلام في تاريخ مجتمعات أواخر الألف الرابع، وأوائل الألف الثالث قبل الميلاد في غرب آسيا بحاجة إلى الدراسة وتحديد المقدار. وحين يتم ذلك فسوف تعرف الدرجة التي امتد إليها ذلك التأثير إلى مصر ،وكذلك ما أسهم به في عيلام. وتجدر الإشارة إلى أن السير فلندرز بيتري كان قد ألمح إلى أن سكان جزر الخليج كانوا حملة المؤثرات العيلامية ومؤثرات بلاد ما بين النهرين إلى مصر في أواخر حقبة جرزين (نقادة الثاني)، وهو رأي بيتري الذي اقتفاه به خلفه القائل إن حكم الأسر قد دخل مصر وفرض إرادته على الوادي بالقوة. وكانت الصولجانات الشبيهة بالكمثرى أسلحة الفتح. ويبدو أكثر احتمالا للعالم المعاصر أن مثل تلك المؤثرات التي جاءت إلى مصر قد نقلت سلميا، وعلى الأرجح جلبها التجار وليس المحاربون.

وكانت منجزات شعب سومر غير عادية، وإنه لمن مظالم التاريخ أن تظل حتى الآن محرومة مما تستحق. فعراقتهم الضاربة عمقا حتى اختراع التاريخ لم تسعفهم. وحقيقة إنهم اخترعوا أساليب التاريخ ذاته من خلال اختراع الكتابة تكيل التهكم على هذا الإهمال الذي لا يستحقونه.

الفصل الخامس

الدولة في الخليج القديم

جلجامش هو الملك السومرى الذي سمع بهم معظم الناس ، فمن خلال ظهوره في قصة دلمون في إحدي وقائع الملحمة المرتبطة به، والتي تصف بحثه عن زهرة استعادة الشباب. يلقى الضوء على الطبيعة الروحية التي تمتعت بها تلك الأرض في أذهان السومريين الذين عاشوا في زمن جلجامش وبعده. والأكثر من هذا ، فقد تواصلت في شخص جلجامش الأسطورة السومرية والحقيقة التاريخية. وبالنسبة لشعب البلاد، فقد ظل واحداً من الأبطال طوال وجودهم، بل وحتى إلى مابعده، حيث إنه كان رمزا قويا لخلفائه البابليين والآشوريين . ويبدو أن جاذبيته، بمعزل عن المميزات العالمية للأسطورة، قد استندت إلى المنجزات الحقيقية لفترة حكمه وذكرى أمجادها التي احتفظ بها الشعب. ويمكن أيضاً أن تكون غزوات الملوك اللاحقين قد أسهمت فيها بالاندماج مع الأسطورة الأقدم.

أروك Uruk

وملوك أروك من أفضل الحكام السومريين الأوائل توثيقا. فلقد ثبت وجود جلجامش باكتشاف السجلات في بناية المعبد الذي يحمل اسمه في أروك، والمواجهة بينه وبين ملك تاريخي من ملوك كيش (Kish) اسمه أغا (Agga) وقد تولى الحكم عام ٢٧٠٠ ق.م وكان جلجامش قد خلف والده لوغالباندا (Lugalbanda) على عرش أروك، ودوموزي – تموز (أحد الآلهة بعد ذلك) ثم إنمنكار (Enmenkar) الذي يبدو أنه كان أول رموز الأبطال الذين استحوذوا على خيال الأجيال التالية. ومن المحتمل أن السومريين كانوا أول شعب طور مفهوم العهد البطولي، عهد أولئك الملوك القدامى، بالطريقة نفسها التي

أصبحت مألوفة في أساطير العهد المقدوني في اليونان والحكماء الشماليين والفيدا * الهندية بعده بمئات من السنين .

ولقد قدمت أروك بعض أقدم الوثائق السومرية التي تشير إلى دلمون، والتي يعود تاريخها إلى عهد بعيد في الألف الثالث ق.م . وأحد هذه المراجع القديمة لوح يعود تاريخه إلى عام ٣٠٠٠ ق.م ، ويبدوأنه يشير إلى مسؤول ضرائب . ومن المحتمل أن دلمون كانت في هذا الوقت تعني شرق الجزيرة العربية .

الملكية

وفي النصوص الباقية المتعلقة بحكم جلجامش سجل لعدد من الخصائص المرتبطة بالملكية السومرية . وكانت الملكية جوهريا وظيفة عملية في سومر، ويبدو أنها لم تكن في الأيام الخوالي على الأقل، مغشاة بأي مغزى روحي بشكل خاص . وبرز الملوك متأخرين في الحقبة المبكرة في التاريخ السومري . وكان الملك يحكم بالفعل ولكن بالتراضي، وكان عليه مرارا أن يقنع رجاله بسلامة خط سير العمل الذي اقترحه . ولعله قد انحدر من القائد المحارب الذي عينته المدينة - الدولة في أوقات الطوارئ . ولقد كانت حشود المحاربين الذين قادهم يعدون أنفسهم دائما لفرض سياستهم على حاكمهم، وكان واضحا أنه ملزم بأخذ مقترحاتهم بالاعتبار وإن لم يكن ملزما بقبولها . وكان السومريون شعبا مستقل الذهنية ولم يكونوا في العادة مستعدين للتنازل عن القوة المطلقة لملوكهم إلا في أوقات الأزمات .

ويبدو أن الخلافة في الملكية عموما كانت بحسب المبدأ الوراثي، لكن معظم الأُسَرْ الحاكمة كانت قصيرة الأجل، ويندر أن استمرت لأكثر من قرن أو ما يقرب من ذلك . وكان من الممكن أن يتولى منصب الملك مواطنون عاديون يمكنهم، من خلال عملية اغتيال أو أداة سياسية أخرى ، التظاهر بأنهم حازوا عطف آلهة المدينة التي تملك منح السلطة

---

* كتب الهندوسية الدينية (صالح) .

الملكية. وكان من بين الملوك بستانى وكذلك امرأة كانت تعمل في حانة للشراب.

ولقد حل المصريون مشكلة التناقض الواضح في الحكم الملكي كنظام سياسي حلا أنيقا وذلك من خلال تمثل الملك بالإله . ومن الصعب الاحتجاج على قرارات إدارية لحاكم متأصل وإلهي حيث تصبح الخيانة والكفر شيئا واحداً. حقا، طوبى للمجتمع الذي يمكنه أن يرى إلهه مُجَسَّداً كلما اختار أن يظهر شخصه، ليقوم بدوره الإلهي على الملأ. ويرجع كثير من بقاء مصر وعدم قابليتها للتغيير إلى الحس بالأمان الذي جلبته ألوهية الملك إلى القطرين، فهناك كان كل شيء مصوناً للأفضل بالأفضل للأوضاع الإنسانية الممكنة جميعها. أما السومريون الذين لم يكن لديهم البراءة ذاتها في وجهة النظر التي غالباً ما ميزت المصريين من الفترة ذاتها، فإنهم لم يرتاحوا إلى معرفة أن الإله كان حيا في بناية مؤثثة تأثيثا أنيقا ومحاطة بالأسوار البيضاء على مسافة قصيرة عبر الطريق، فتلك كانت الحالة السعيدة لأبناء ممفيس ومراكز ملكية أخرى في مصر.

وبالنسبة للسومريين، كان مفهوم الملكية أكثر مغزى من شخص الملك. وبالعبارة السومرية، كانت الملكية تولى من السماء وتعكس النظام الذي نظم فيه العالم الإلهي " كما في السماء كذلك على الأرض" . وكان الملك عموما يعي أنه أكثر قليلا من مراقب للأعمال المطلوبة لفلاحة أرض الإله، واعترفت الآلهة بأن عمالهم يحتاجون إلى مراقبين ولذلك كانت الملكية تنتدب من السماء إلى الأرض وأصبح الملك ناظرا لسيد إلهي. لكنه يبدو أنه كان للملكية جانبها المظلم في سومر.

أور والقبور الملكية

وأور أشهر المدن السومرية، أولا بسبب الاشارة إليها في الكتاب المقدس، وثانياً بسبب الاكتشافات غير العادية التي تمت على يد السير ليونارد وولي. وحتى عام ١٩٢٠ كان اسم مدينة أور متبوعا حتميا باللقب التوراني «الكلدانيين»، وزج بها على أنها المسقط المزعوم

لرأس إبراهيم، خليل الله. ومن المحتمل أن هذا الجد للشعوب السامية القاطنة في الصحراء السورية العربية، كان أحد شيوخ الصحراء الذين هاجر أسلافهم المباشرين إلى المدينة في بداية الألف الثاني قبل الميلاد بين موجات الغزوات السامية التي اتصفت بها مراحل التاريخ السومري جميعها. ولقد كانت أور موجودة قبل إبراهيم بوقت طويل جداً وقد أدى اكتشاف قبور ملوك سومريين في المدينة على يدي ليونارد وولي عام ١٩٢٢ إلى تجلية عظمتها بأسلوب بديع.

ويظهر في اللوح العشرين من السلسلة التي تستمد منها كامل ملحمة جلجامش وصف جزئي لشعائر دفن ملك سومري، ويبدو منه أن خدما وندماء وأعضاء من العائلة المالكة قد دفنوا أحياءً مع الملك قربانا لأبديته الملكية، وكان ذلك يحدث أحياناً على الأقل وبينما لا يشكل هذا اللوح في الحقيقة جزءاً من الملحمة ذاتها، إلا أنه مفيد بصفة خاصة في ضوء مكتشفات وولي الهامة.

وبعد العمل في أطلال مدن ما بين النهرين لعدة سنوات، ارتفعت خلالها أهمية معرفة ما قدمته سومر للعالم الذي تلاها، اكتشف وولي عددا من المدافن الكاملة لعصر فجر الأُسر الحاكمة في أور يعود تاريخها إلى أواسط الألف الثاني ق.م، و ربما في غضون قرن تقريبا من حكم جلجامش، وبعد وقت قصير من بناء الأهرامات الكبرى في الجيزة بمصر. وكان أحد القبور في حفرة عميقة ومجهزا تجهيزا غنيا بالذهب والفضة والبرونز والعاج والمشغولات النحاسية الرائعة صنعا وجمالا. واستخرجت أكواب ومجوهرات وأقداح وشارات ملكية ومحابس نحاسية قوية مترفة من مقبرتها التي قبعت فيها أربعة آلاف وخمسمائة سنة. والأهم من ذلك كله اكتشاف أعضاء من البلاط الملكي نفسه، أو على الأقل أربعة وسبعين عضوا منه ضحي بهم ووضعوا في صفوف منتظمة لخدمة خلود ملوكهم.

ممارسة التضحية الشعائرية من هذا النوع، حيث كان الأفراد يقتلون لمصاحبة رؤسائهم في الظلمة، ممارسة قديمة العهد جداً، إذ وجدت في الفترات التاريخية جميعها في معظم مناطق العالم. ولا يزال معروفاً حتى اليوم في إفريقيا حيث ضُحّيَ بنحو اثنين وثلاثين

عضوا من حاشية أسانتهين (Asantehene) الذي يعتبر أكثر من مجرد زعيم كبيرمن شعب أشانتي Asahnte في غانا وحامي روحها الجماعية، وكان ذلك قبل أكثر من نصف قرن مضى بمناسبة موت الشخص قبل الأخير من أصحاب ذلك المنصب. ومن الطبيعي – بالنسبة للعالم المعاصر الذي تعد ضحاياه بالملايين – هناك شيء مرعب بصفة خاصة في العثور على دليل على القتل المتعمد لأكثر من سبعين من رجال البلاط لمجرد اعتقاد ديني وليس لمقتضيات السياسة. وبالطبع ليس من الصعب رؤية الأساس المنطقي لهذه الممارسة، فقد مارس الملك أيضاً وظيفة كهنوتية وسيطاً بين شعبه وآلهتهم، ومن خلال هذه السلطة سوف يطلب منه القيام بشعائر معقدة وموسعة لتحقيق الرخاء للشعب. فمراسم استدعاء الآلهة، والشعائر المتصلة بقدرة القطعان على التوالد وخصوبة المحاصيل أوتجنب الكوارث الطبيعية كانت تحتاج إلى عدد كبير من المشاركين والمساعدين مع المحتفل الرئيس بالشعيرة الدينية. ومن الواضح أن من شأن مثل تلك المراسيم أن تكون فعالة إلى حد هائل إن هي أقيمت في حضرة الآلهة التي سعت للتأثير فيها. ولهذا يجب حضور المساعدين المقربين إلى الملك إلى جانبه ومساعدته حين يقدم القرابين في الآخرة.

ولقد قورنت محتويات القبور العظمى في أور بمحتويات مقبرة توت عنخ آمون، التي اكتشفت في وقت مبكر من العقد ذاته، ولكن الخناجر الجميلة، والأكواب الذهبية الرقيقة، وخوذة الالكتروم* العظيمة الخاصة بالأمير ميسكلا مدوغ فائقة في بساطتها، وتحفظ تصاميمها المطعمة بالمواد الثمينة جداً، حتى أنها تعطي لرونق هدايا الوفاة المقدمة للفرعون الطفل بهرجة أكثر مما لبعضها في الواقع. ومحتويات قبور أور غير عادية، وهي الأكثر فخامة مما سبق أي شعب صنعه. فهي غير محاكية تماماً بالنسبة إلى للطابع العام للعمل السومري حتى الأكثر دقة منه. ولا يبشر أي شيء بقي من السومريين بتوقع العثور على أعمال تضاهيها في الجودة. فقط فن الأختام، التي لبعضها جودة المجوهرات، فلها

---

* مزيج من الذهب و الفضة (العبودي).

رونقها في التصميم والشكل. ولكن المواد التي في القبور لا نظير لها في الواقع ، وهي شاهد على ما كان حتما ثقافة من أكثر الثقافات الرائعة جدارة بالملاحظة. ومن الصعب تجنب الشك بأن محتويات مقابر أور لم تكن العمل الوحيد المستقل للصناع السومريين. وإن كان المكان الذي أتت منه خارج حدود التخمين. وهناك شيء ما غير سومري بشأن وجود أور بأكمله.

ويقابل مدافن أور مدافن أخرى في الصين جنوبى بكين يعود تاريخها إلى أسرة شانغ بعد عدة قرون لاحقة . ويوجد فارق هام بين الاثنتين عدا الفوارق التي ينبغي توقع وجودها بين ثقافتين على هذا القدر من التباعد في المكان والزمان. فسكان القبور الصينية كلهم قد قتلوا بعنف، فالقبر تبعا لذلك موقع إعدام أومسلخ من مسالخ العصر البرونزي. أما القبور في أور فهي في الوهلة الأولى أكثر أهمية ، ومع ذلك يوحي التأمل بالعكس، فأعضاء الحاشية الذين توجهوا إلى الموت على ما يبدو قد فعلوا ذلك بملء إرادتهم وبدون استخدام عنف ضدهم، أو ندم على مغادرة العالم. ويوجد دليل على أنهم اضطجعوا في الحفرة وأخذ كل واحد منهم عقارا يخمن أنه كان مخدرا أو منوما يسهل عليهم موتهم، كما تشهد على ذلك الأقداح العديدة الموجودة في القبر. وحين ماتوا أو فقدوا الوعي وضعت أجسادهم بترتيب لإزالة أي دليل على تشنجات الموت التي يمكن أن يكونوا قد واجهوها، ثم ووروا الثرى إلى الأبد. وكانت إحدى النسوة على ما يبدو متأخرة تقريبا في جنازتها واضطجعت بتعجل بين رفاقها.

وعثر (وولي) على ستة عشر قبرا ملكيا دفن في أحدها أربعة وسبعون من رجال البلاط، وبينما دفن سبعة عشر في قبر آخر في بور آبي Pur Abi والذي أطلق عليه خطأ لمدة طويلة "شوباد" . وفيما يسمى "قبر الملك" كان هناك تسع وخمسون جثة. وكان لدى مسكلامدوغ ذي الخوذة البهية أربعون رفيقا. ويبدو أن هذه الممارسة قد انتهت بعد أمثلة أور، وسبب انقطاعها غامض أكثر من غموض السبب في بدايتها، أو فيمن أدخلها. ولا بد من التذكر دائما بأن علم الآثار يستطيع بناء فرضياته على الدليل الذي يجده أمامه

فقط. فنحن لا نعلم فيما إذا كانت هذه المجازر الدينية قد مورست في أوقات سابقة، لأنه لا يوجد دليل يشير إلى ذلك حتى الآن. ويمكن أن توحي إشارات ملحمة جلجامش إلى أنها كانت جزءاً من العرف السومري في وقت سابق.

ولقد افترض أن الأشخاص الذين احتلوا الأماكن الرئيسة في قبور أور يمكن أن يكونوا بدائل لأمراء أحياء يضحى بهم في نهاية احتفالات الزواج المقدس بين الإله والإلهة المنصبين في سومر على المنصة العليا للزقورة أو الجبل المقدس، لضمان خصوبة ورخاء البلاد. ولا يوجد دليل إيجابي يدعم هذا الافتراض لكن يبدو أن ممارسة قتل الملك الزائف معروفة في أحقاب أخرى من التاريخ في بلاد ما بين النهرين.

وكان لقبول الموت عن طيب خاطر ما يبرره لدي المؤمنين، فهو يمنحهم الخلود في خدمتهم للملك في ممارسة وظيفته الأبدية. ولقد كانت عقيدة تنطوى علي عزاء للشعب الذي كانت الحياة الأخرى بالنسبة له موضع شك عميق، وتوحي بعدم القناعة السومرية التقليدية بأي حياة أخرى. وعموما، فإن السومريين، مثلهم مثل خلفهم الساميين، قد اعتقدوا بأن أياً كان المصير الذي ينتظر الإنسان بعد الموت فإنه يظل قليل الجاذبية. وكان يعتقد بأن أرواح الموتى تتجمع معا في ممرات مغبرة تذروها الرياح في عالم كئيب تحت الأرض وتضربها الطيور الجارحة بأجنحتها المحرشفة.

وربما يكون عرف التضحية بأتباع على قبر ساكن مهم، والتي يبدو أنها قد مورست لفترة قصيرة، كان عرفا غريبا على سومر. وبناء على ذلك ربما يكون قد أدخلته سلالة أجنبية. و مهما كانت المبررات، يظل مزعجا التفكير في هذا الموكب الكبير المجهز تجهيزا حسنا من الرجال والنساء مع الحيوانات التي كانت تموت بصحبتهم وهو يسير متعرجا في طريقه خلال مدينة أور إلى موقع الموت (الطقوسي) في يوم من أيام سومر المشرقة.

وملوك هذه الدول السومرية شخوص خيالية، والمعروف عنهم قليل جداً. وهم غامضون مقارنة بمعاصريهم المصريين من العهد القديم والمملكة القديمة المبكرة. وكل ما هو باق من

آثارهم مجرد سجل حملة حربية، أو سجل تكريس معبد، أواختتام مغامرة تجارية.

وتراث سومر المادي والفكري تراث هائل من حيث الاختراع العلمي، أومن خلال أول أدب في العالم، حتي أن بمقدورنا أن نفترض أن الحياة في المدن الصغيرة كانت في هذا الوقت متقلبة . ومن نواح عديدة، تشبه التجربة السومرية في قوتها تجربة المدن الإيطالية في عصر النهضة، والتي يمكن مقارنة المدن السومرية بها إلى حد ما حتى من حيث الشخصية السياسية أيضاً.

وعلى أية حال، استمر الصراع بين المدن – الدولة الصغيرة والتوترات الناتجة عنه بلا هوادة حتى أصبح في نهاية المطاف لا يطاق. وفي البداية ، تمتعت الواحدة تلوالأخرى بفترة من السيادة في سومر، وخلفت سلالة أخرى متزعزعة في قصور البلاد. وكان شعب ذوي الرؤوس السوداء شعبا ميالا إلى المنازعات. وحين كانت أراضي المعبد والمدينة غير كافية لدعم شعبها ، أوحين كانت ممتلكات إله تبدوأكبر من ممتلكات آلهة أخرى طمع أتباعها في ثروات جارهم، أواستولى خادم قصر على " الملكية" من سيد ضعيف ، بدأت الضغوط تتصاعد ، مفضية في نهاية الأمر إلى انهيار الدولة السومرية.

وبرزت مشكلة أخرى أكثر إلحاحا في وعي السومريين، وإن كانت مألوفة للمدن جميعها، وهي التهديد الدائم الآخذ بالتصاعد ، والذي كانت تشكله القبائل البربرية المحيطة بهم. وكانت تلك القبائل رحلاً من الصحراء، أو رجال الجبال المتوحشين الذين ليس لديهم وعي بالثقافة الهشة التي بنتها المدن الصغيرة بصبر على مر القرون، وقد سيطر عليهم حسد وحقد كبير لما تمتع السومريون به من ثراء مادى.

سرجون الآكادي

وفي القرن الرابع والعشرين ق.م ، جاءت بداية النهاية لسومر. وقد بشر بها أحد أشهر الرجال في تاريخ العالم القديم. ولولا ضعف المعلومات الباقية عنه لاستحق أن يكون على

مصاف أعظم القادة السياسيين في أي عهد . وبينما تمكن ذلك الملك من الحفاظ علي نسيج طريقة الحياة السومرية لفترة من الزمن، فقد أدخل أيضاً إلى المجتمع ما جعل تدميره أكيدا في نهاية الأمر. فلمدة قرن أوما يقرب من ذلك كون إمبراطورية سومرية بالكامل من حيث سلوكها وتقاليدها، مع أنه هو نفسه كان عضوا متحضرا من جحافل البربرية الصحراوية التي ضغطت على سومر. ولقد كان ساميا من أولئك الساميين الذين قدر لهم أن يسهموا إسهاما عميقا في إنهاء الحقبة السومرية.

وكان في قصر كيش، في خدمة الملك أور– زبابة (Ur-Zababa) ساقٍ شاب عرفه التاريخ باسم شاروكين، أو سرجون .(Sargon) وقد قدر له أن يثبت أنه رجل ذو مقدرة عسكرية غير عادية ، وإداري بارز، ومجدد سياسي عبقري. (وكانت وظيفة الساقي من الوظائف ذات الأهمية في الدولة، ومن الواضح أنه ليس لها الدلالة الملتبسة للوظيفة ذاتها في الملكيات الإغريقية اللاحقة).

وهكذا آلت إلينا أسطورة خلابة عن مولد شاب اسمه سرجون، وتحمل تشابها ملحوظا مع الأصول الأسطورية لشخص آخر لاحق وقائد سامي أكثر غموضاً من الناحية التاريخية، وهو موسى*، وفي النص التالي فإن المتكلم هو سرجون نفسه:

" **سرجون الملك العظيم ، ملك أكاد (Agade) هو أنا.**

كانت أمي طفلة مُسْتَبْدَلَة، وأبي لا أعرفه.

إخوة أبي أحبوا التلال.

---

* قوله بأنه شخصية أسطورية خطأ فاحش فهو نبي أرسله الله إلى بني إسرائيل لعبادة الله الواحد الأحد وأما ما حاول المؤلف أن ينسجه من خيوط لما زعمه من تشابه شخصيته وشخصية سرجون الملك الآكادي فهي أوهى من خيوط العنكبوت وقائمة على تحمس مفرط لحضارة سومر وأنها أصل الفكر الديني للإنسانية كلها من خلال التفسير المادي للدين الذي ينتهجه المؤلف ،ولهذا وجب التنبيه هنا لما قد يصادف القارئ في ثنايا هذا الكتاب من مثل هذا مما لم نرد عليه بحاشية مستقلة (د.السقاف) .

مدينتي عزوبرانو (Azupiranu) الواقعة على ضفاف الفرات

أمي المُسْتَبْدَلَة حملت بي سرا

وضعتني في سلة من السمار* وختمت غطائي بالقار

وحملني النهر ونقلني إلى أكي (Akki) غارف الماء

أكي غارف الماء، انتشلني وهي يغطس دنه.

أكي غارف الماء أخذني ابنا له ورباني.

أكي غارف الماء عينني بستانيا لديه.

وبينما كنت بستانيا منحتني عشتار حبها.

ولمدة أربع وأربعين سنة مارست الملكية.

وحكمت الشعب ذى الرؤوس السوداء.

جبال قوية بفأس الحرب البربرية فتحتها.

صعدت التخوم العليا.

قطعت التخوم السفلى.

أراضي البحر طفت حولها ثلاث مرات.

ويدي احتلت دلمون.....

****

---

* نبات تصنع منه السلال و الحصر (صالح).

أي ملك يجيء بعدي

فليحكم وليسد الشعب ذو الرؤوس السوداء.

فليفتح جبالا قوية بفؤوس حرب برونزية

فليصعد التخوم العليا

فليقطع التخوم السفلى

فليطف أراضي البحر ثلاث مرات

لتحتل يده دلمون

............من مدينتي أكاد."

وثمة ما هوأكثر من التباهي في هذه السطور الأخيرة: تهديد ضيق العينين ينبعث فحيحه حتى يصل إلى أكثر من أربعين قرنا تفصل سرجون عن عصرنا. وكانت دلمون في هذا الوقت (حوالي ٢٣٧٠ ق.م) على قدر كبير من الأهمية لأي شخص يسعى إلى ملك البلاد التي كان احتلالها مفخرة حتى بالنسبة للرجال الذين كانوا سيصبحون أقوى الفاتحين في زمانهم. ولكن النقش الوارد سابقاً قد كتب في نهاية حكمه الطويل العاصف، وكان بانتظاره إنجاز الكثير قبل أن يتباهى بأن بلاده قد احتلت دلمون. ولقد هوجم سيد سرجون، أور– زبابة، وقتله حاكم أومّا (Umma) الطموح لوجالزاجيزي (Lugalzaggesi) الذي زحف على كيش بعد تسوية المواقع المقدسة في لجش (Laggash) بالأرض، وطالب لوجالزاجيزي بالملكية على كامل سومر، وهي المرة الأولى التي يصدر فيها مطالبة رسمية بالسيادة بعبارة " ملكية البلاد". وبعد استيلاء سرجون على السلطة في مدينته انطلق ليثأر لاور – زبابة وتدمير الغاصب، وجمع جيشا وهاجم أروك حيث كان لوجالزاجيزي قد ثبت أقدامه نفسه. وبرغم التحالف القوي الذي جاء

للدفاع عن المدينة انتصر سرجون وسقطت أروك. ويبدو أن لوجالزاجيزي قد هرب عندما شن سرجون هجومه، حيث نسمع به تاليا مدبر معركة بين جيش الملك وسرجون، ومرة أخرى ينتصر السامي انتصارا كليا، ودمر جيش لوجالزاجيزي، وفي هذه المرة أخذه أسيرا. ولم يعد يسمع عنه غير أنه قيد أمام سرجون من عنقه مربوطا برسن كالكلب، ويمكن أن نفترض أن حياته انتهت بسرعة.

ثم تولى سرجون أعلى سلطة، واكتسح سومر مزيلا أية جيوب لا تزال موالية لوجالزاجيزي. وفي النهاية أخضع ليس مدن سومر وحدها، بل أيضاً العديد من الأراضي المجاورة لها. وقد أجبر على هذا الاتجاه كي يكبح مؤقتا غزوات القبائل اللاحقة من حيث انحدر هو نفسه، وكانت تهدد ما أصبح إمبراطوريته الشاسعة. وبعد إخضاع الدويلات السومرية "غسل سرجون أسلحته" في مياه الخليج، وبهذا التصرف لعله كان يظهر ادعاءه بالسيادة عليها وعلى الأرض المحيطة بها. وكان بمقدوره أن يشرع في فتح أراضي دلمون المقدسة.

وفي أطلال أحد المواقع الهامة من هذه الحقبة في جزيرة البحرين، وهو قلعة البحرين، دليل على التدمير المفاجئ لأقدم المستوطنات المشار إليها هنا بالمدينة رقم ١، مع أنها كانت في الحقيقة أكبر قليلا من القرية (انظر الفصل السابع). ولقد اعتقد أن دفاعاتها غير الكافية قد سقطت في أثناء فتح سرجون، وأن قواته هي التي حملت دليل قوته حتى إلى أرض دلمون المقدسة. ويبين مستوى الاحتلال التالي أسوارا واقية موسعة حول الأبنية الجديدة المعقدة (المدينة رقم٢) كيلا يقهر الحاكم الذي ولاه سرجون، أو الأمير التابع له بسهولة كما حل بسابقه في حكم دلمون (انظر الفصل السابع)

ويمثل بلوغ سرجون منصب الملكية على سومر التغيير الأساسي في التنظيم السياسي لجنوب بلاد ما بين النهرين. ومنذ ذلك الحين فصاعدا كانت كل دويلة تتحكم بكل شيء في حياة سكانها. وكان سرجون على ما يبدو سياسياً أكثر تطورا من سلفه في الحكم السومري ممتلكا حسا ساميا بالعِرْق والمُلْك أبدا بقوة، واكتسح الولايات الصغيرة لكل

مدينة، وأحل محلها السيادة المطلقة للملك. وتحرك إلى مسافة أقرب من مفهوم المُلْك الذي كانت أحد معالم مصر (ولكنه كان في هذا الوقت مجردا من التماثل المباشر بين الإله والملك الذي طورته بلاد القطرين بهذا القدر من النجاح)، جاعلا من المنصب إظهارا لقوته الشخصية بدلا من المفهوم المعقد لمسئولية مفوضة من الآلهة . ولقد فهم السومريون الملكية على أنها تتجاوز النواب البشر الذين يمكنهم مؤقتا ممارسة السلطة نيابة عن رؤسائهم من الآلهة. وجعل سرجون من الملكية حقيقة سياسية مدشنا بذلك الخط الطويل من الحكومات الشرقية المطلقة التي انتهت بإقصاء آخر سلاطين العثمانيين.

ودخلت الإمبراطورية التي أسسها سرجون، وكانت أول كيان سياسي في تاريخ العالم يجوز له أن تسمى بهذا الاسم، في مرحلة لا مثيل لها من البهاء والقوة. وكما لو كان إبرازا لحقيقة تدشين عهد جديد في تاريخ الشرق الأدنى ، قرر سرجون بناء عاصمة جديدة بعيداً عن مدن سومر التقليدية. وأصبح المكان الذي اختاره يعرف باسم آجاد (آكاد في الكتاب المقدس). و مع أن موقعها الدقيق غير معروف الآن ، فقد كانت موجودة في مكان ما بالقرب من كيش قريبا من عنق النهرين . وكانت من الناحية الاستراتيجية أحد أهم المواقع في بلاد ما بين النهرين كما تشهد بذلك المدن التي بناها هناك الحكام المتتابعون بعد سرجون. وقد يكون جميلا أن نعتقد أن انتقاء هذا الموقع للمدينة الجديدة ينطوى على مسحة من العاطفة لدى سرجون حيث يقرر بناء مدينته الرائعة الخاصة به على مرمى البصر من المدينة الصغيرة التي بدأ منها سلسلة فتوحاته حين كان مسئولا صغيرا نسبيا . والأكثر احتمالا أنها كانت دليلاً على إدراكه القوى القدرة الاستراتيجية للموقع، كما يمثل اختياره الدليل الأول في التاريخ على التحرك شمالا الذي أصبح له تأثيره في الاتجاهات السياسية والاقتصادية للشرق الأوسط من القرون الأخيرة للألف الثالث ق .م فصاعدا، والذي قدر له أن يؤدي إلى تحول محور الاتصالات العالمية بعيداً عن الخليج إلى البحر المتوسط.

وسرعان ما أصبحت آجاد [أكاد] أقوى وأنجح مدينة في عصرها وأبحرت إلى موانئها

سفن تحمل الجزية والبضائع من أركان العالم الأربع التي ادعى سرجون السيادة عليها . ولا يزال باقيا نقش يتحدث فيه سرجون باعتزاز عن سفن دلمون وهي ترسو بلا خوف في ميناء آجاد [أكاد] ، وهو ما يدل على مقداراً ماكان يتمتع به من قوة والسلام الذي جلبه إلى عالم الشرق الأدنى :

" سرجون ملك كيش انتصر في أربع وثلاثين حملة، وهدم المدن جميعها حتى شاطئ البحر، وعلى أرصفة آجاد أرسى السفن من ملوخة (Meluhha) ، وسفنا من ماجان، وسفنا من دلمون. ولم يسمح إنليل (Enlil) لأي شخص بمعارضة سرجون الملك. وتناول ٥٤٠٠ جندي الطعام يوميا في قصره. "

وهذا المقتطف مأخوذ من نقش على تمثال لعله من حقبة تالية على حكم سرجون . وعلى الرغم من أنه جاء من الصحراء إلا أن سرجون على ما يبدو قد فهم أهمية التجارة للأمة السومرية ولرخاء المدن. وكان سرجون حريصا كل الحرص على حماية طرق تجارته، وكان سريعا في عقاب أي قطاع طرق أو أمراء غيورين يمكن أن يهددوا حركة التجارة الحرة عبر الامتدادات العريضة للأراضي التي وصلت إليها إمبراطوريته.

ولقد كان سرجون بإجماع التقارير تابعا مخلصا للآلهة السومرية . ومثله مثل الفاتحين الوصوليين بعده ، رأى أن مصيره مرهون بالمحافظة على عجائب العالم التي ورثها، وبعبادة الآلهة . ولقد حفظت إمبراطورية سرجون الكثير من أفضل ما لدى سومر، وإن جاء ذلك مقابل تحولها سامية بالكامل في اللغة والإدارة والنفوذ، وبذلك فقد مهد الطريق للإمبراطوريتين البابلية والآشورية اللاحقتين اللتان كانتا الخلف المحتوم . وهذه أيضاً كانت دولا سامية، رغم أنها مثل دولة سرجون قد حافظت على الكثير من عناصر وخصائص من الثقافة والعادات والمعتقدات السومرية.

وعين سرجون أقاربه وأعضاء القبائل السامية في العديد من أهم الوظائف في الدولة. وكان هناك بلا شك عنصر من عناصر السياسة إلى جانب المحاباة في هذا الأمر، إذ إن سرجون على

الأرجح قد عرف أن استبعاد تدخل القبائل في سومر لا أمل فيه على المدى البعيد. ولربما اقتنع بأن سياسة إشراك شعوب الصحراء في إدارة الدولة ستعد الكثيرين منهم لفهم مسئوليات الإمبراطورية وإخضاع حسدهم المدمر غير الواعي للثقافة السومرية. ومن الناحية الأخرى لعله ببساطة رغب في حشد أقاربه حوله.

وربما آتت سياسته هذه أكلها، فعندما جاء الحساب مع القبائل لم يكن الساميون هم الذين اكتسحوا إمبراطوريته، بل الكوتيون، (Gutti) وهي قبيلة على القدر ذاته من البربرية، بل وحتى أكبر شراسة، انقضوا على دولة سرجون ربما من جبال زاغروس في الشرق. وكان الغوط شعب لا يحتمل السيطرة، وجاؤوا من المنطقة التي كانت ستصبح الكاشيين (Kassite)، وهي واحدة من الأمم الوارثة لعظمة سومر. وأصبحت بعد ذلك أيضاً في الألف الأولى ق.م مركز شعب لورستان (Luristan) العامل في المعادن والمحب للخيول. وتبع الغزو الغوطي الفوضى والدمار اللذان حلا بالبلاد انتقاما من جريمة انتهاك قداسة (غير محددة) اقترفها حفيد سرجون نارام – سين. ولقد كان إنليل نفسه، حاكم الآلهة العليا هو الذى سَمَّى الكوتيين "تنين الجبل". ودمرت المدينة التي كانت ذات يوم مدينة محيدة تدميرا كاملاً، وأطلقت الآلهة على خرائبها لعنة مرعبة نتيجة غضبها عليها. فالناس الذين كانوا ذات يوم يذبحون الحيوانات كأضاحي رغبوا في ذبح نسائهم بدلا من ذبح الغنم. وعبروا عن استعدادهم لتقديم أبنائهم كأضحيات، وفي حالة الفقراء إغراقهم على وجه التحديد، وتقول اللعنة: "آجاد: ليشد قصرك بيد مرحة تُحيلُهُ إلى دمار موحش." وتضيف نغمة أخرى مشئومة: "من يقول: سوف أنام في آجاد" لن يجد مكانا لنوم مريح"

ويبدو أن اللعنة قد حلت بالفعل إذ إنه، حتى يومنا هذا لا يزال موقع المدينة الذهبية التي بناها سرجون الملك العظيم بهذا القدر من الاعتزاز غير مكتشف، فهو مدفون تحت أنقاض سهل بلاد ما بين النهرين مغمورا بغضب الآلهة.

أور– نانشي (Ur-Nanshe) ، وجوديا (Gudea) اللكشي

لعل المدينة الدولة السومرية الأكثر ذكرا بوجه عام اليوم، باستثناء أور ، هي لكش (Lagash) الواقعة في القسم الجنوبي الشرقي من البلاد. وتستمد شهرتها المعاصرة من النصب العديدة المبعثرة في متاحف العالم ، وأحد حكامها المعروف لنا باسم جوديا الذي حكم في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

ولقد برزت لكش إلى الشهرة قبل جوديا بعدة قرون حين كانت سومر لا تزال قوية ، ولعلها كانت واحدة من تلك المدن التي مثلت أهمية روحية خاصة لشعوب ذلك الزمان، مثلها مثل كثير من المدن، إذ لا وجود لسجل لملوكها بين قوائم الملوك الباقية. وكان أحد حكام لكش المبكرين أور– نانشى الذي حكم المدينة في أواسط القرن السادس والعشرين قبل الميلاد. ونقوشه التي بقي العديد منها ذات أهمية خاصة لما نحن بصدده لأنها تدون جباية الجزية من بلدان بعيدة محمولة إليه على سفن دلمونية. ويعود تاريخ نقوش أور– نانشي إلى نحو ٤٫٥٠٠ سنة خلت. ومن الواضح أن " سفن دلمون" كانت في زمانه قد أصبحت رمزا للقوة البحرية بعيدة المدى مثلها مثل " قلوب البلوط*" في الأغنية الشعبية الإنجليزية.

وفي وقت لاحق، عندما دمر الغوطي البرابرة إمبراطورية سرجون، أصبحت لكش لفترة من الوقت أهم (المدن الدول) في بلاد ما بين النهرين، إذ يبدو أن الفاتحين قد حابوا حكامها . ولعل هذا مثال قديم للتعاون مع قوات الاحتلال. وإذا كانت الأسرة التي استولت على الحكم من خلال تكييف نفسها مع الرجال المتوحشين الذين كانوا في ذلك الوقت يسيطرون على مصير سومر ، مشهورة الآن على نطاق واسع بسبب جوديا ملكها الثاني، وإذا كان سيحكم على السلالة من خلال الطموحات العديدة الباقية التي تصور جوديا،

---

* تسمية كانت تطلق على السفن البريطانية كناية عن قوتها(صالح) .

فلقد كانت أُسرة حاكمة هامة صلبة وبرجوازية نوعاً ما من حيث المظهر، وذات توجه ثابت نحوفهم إدارة التراث الرائع الذي سلمتهم إياه آلهة سومر متقلبة الأهواء، والتدخل الغوطي.

وما كان لجوديا أن يشعر بالغربة في الحاشية التيودورية*، وحتى وإن كان، فلصالحه، فهو جوهريا أقل زيغا في العين من الكثيرين من أعضاء تلك الجماعات المريبة. وبالتأكيد، مثلما كان الأمر بالنسبة إلى ملوك عائلة تيودور، كانت التجارة اهتمام جوديا الرئيس، إذ كان الكثير من عظمة سومر يعتمد على استيراد المواد الخام والبضائع التي كانت لازمة لتزيين البلاط ومعابد الآلهة.

ورصد جوديا البضائع التي تدفقت على مدينته باعتزاز، موضحا أن الكثير منها كان يشحن من دلمون حيث كانت تصدر إلى بلاد عديدة. وحملت السفن له الذهب من مصر والأناضول، والفضة من عُمان، والنحاس من زاغروس، والحديد من مصر، والعقيق الأحمر من إثيوبيا، ومن دلمون نفسها الخشب.

وخلال حكم خلفائه، هناك ما يدل على أن الآنية النحاسية، واللازورد، والمناضد المرصعة بالعاج، وأدوات عاجية أخرى، والأمشاط، وشارات الصدر، والصناديق، وزينة الأثاث، والأحجار شبه الكريمة كانت متوفرة في أسواق دلمون بشكل عام. وهناك مايفيد وجود مستوردات أخرى من دلمون لا تقل في أهميتها عن الذهب والعاج لحياة مدينة غنية مزدهرة، مثل بصل الجزيرة وتمورها التي كانت مشهورة في أرجاء الشرق الأدنى القديم جميعها، وما تشير إليه النصوص السومرية بعيون السمك، ومن المتفق عليه بالإجماع أن هذه العبارة تعني اللؤلؤ. وكان صيد اللؤلؤ حتى عهد قريب صناعة هامة في البحرين والخليج، وإن كانت آخذة في الاضمحلال اليوم. ولقد تم العثور على أكوام من المحار المنبوذ على ظهر الجزيرة وتعود إلى أبعد أزمنة التاريخ.

---

* نسبة إلى العائلة المالكة البريطانية، **Tudor** من عام ١٤٨٥-١٦٠٣ (صالح).

سقوط سومر

وسقط حكم عائلة جوديا في النهاية على يدي متفوق لامع من عرش أور التي كسر حاكمها السابق قوة الغوطي . وبغير دعم من الغزاة سقط حكم الأُسرة اللكشيه على يدي القادم الجديد أور– نامو (Ur-Nammu) الذي يتقدم الفترات العظيمة الخيرة من التاريخ السومري، ثالث وآخر الأُسر الحاكمة في أور.

وكان أور– نامو أحد قادة سومر البارزين إداريا وعسكريا ، وربما أهم من ذلك كله ، واضع القانون الذي نظم سلوك الإنسان تجاه رفاقه وتجاه الدولة، وقد سبق قانون حمورابي الأكثر شهرة بعدة مئات من السنين. ويبدوأن السومريين كانوا مجددين في القانون مثلما كانوا في العديد من أمور الحياة الأخرى التي تؤخذ اليوم على أنها مسلمات، ولكنه بالرغم من ثروته ، كان حكمه قصيرا، ويبدو أن أور– نامو قد تولى الملك لبضع سنوات فقط، ثم قتل في إحدى المعارك التي كان على القادة السومرية خوضها باستمرار. والصورة التي لا تزال باقية له تظهره رقيق الملامح، وحساس المظهر.

وبدأت إحدى المتواليات الرائعة في تاريخ سومر بتولي ابن أور– ناموشلجي(Shulgi) مُلْكَ سومر وآكاد عام ٢٠٩٥ ق م . وكانِ حكمه طويلا ومجيدا، وعندما توفي عام ٢٠٤٨ ق م كان قد أسس إمبراطورية على القدر ذاته من الاتساع مثل إمبراطورية سرجون، بل وأكثر تكاملا وتماسكا في العديد من الجوانب. وكانت عصر بناء الزقورات العظيمة التي لا تزال بقايا بعضها التي شيدت في عهد شلجي قائمة حتى الآن.

وكان شلجي مثل أبيه مُشرِّعاً مشهورا،وكان ذلك أحد أنشطة الملوك السومريين الدائمة. وكان جنديا متميزا وسع نفوذ إمبراطوريته وعاصمته إلى حد بعيد. ويبدو أن عائلته كانت تمتلك ميلا دينيا قويا يظهر من برنامج بناء معابدهم الموسع ومن خلال الممارسة غير السومرية تماماً بإعلان أنفسهم آلهة. وقد وضع ديانة للدولة تنطوي علي تقديم القرابين

لتماثيل الملك، وتسمية أحد شهور التقويم باسمه تكريما لهِ، وهو ما يذكر بالممارسات الرومانية في عهد كبار الأمراء. وشلجي مخلد في أحد النصوص الرئيسة الباقية من عهده ويصف الزواج المقدس ويحتوي على فقرات تذكر بنشيد سليمان*، والاستحضار الهيامي لروائع المحبوب. وفيه يخاطب شلجي، وبأكثر العبارات أشجانا وشوقا، الكاهنة التي كان يحيى معها واحدا من أهم الأعياد الدينية السومرية التي تضمن حلول سنة خصيبة.

ويسجل نقش من عهد شلجي إرسال الملك رسولا إلى دلمون اسمه أور-دموزي لإحضار مسؤولين مريضين، ولعل هذا ليس مثالا معتادا للاهتمام الملكي في وقت بهذا القِدَمْ. وعند وفاته، خلف شلجي المبجل أولاً أحد أبنائه، ثم ابن آخر هو شو- سين (٢٠٣٨-٢٠٣٠ ق م). وعلى غرار أعضاء آخرين من أسرته، كان شو- سين إلها، ولكن كان لديه عدد أكبر من المشاكل مما كان لأسلافه لاختبار ألوهيته وزعامته على السواء، فقد عاد الرحل من الصحراء السورية على الحدود الغربية للإمبراطورية لإثارة الفتن حتى بقية حكم الأُسره ولأكثر من ألف عام بعد ذلك، قام رجال القبائل السامية الشرسة بغارات متواصلة استمرت في إنهاك أسس الدولة السومرية والدول التي قامت بعدها. ومرة أخرى تظهر دلمون في سجلات تلك الفترة حين يقوم أحد المسئولين التابعين لشو- سين، المدعو عراد - نانا (Arad-Nanna) بإدراج لقب والي دلمون (gir-nita) بين ألقابه، وأول عناصر اسمه يتقدم أحد الأسماء الأخيرة لدلمون - البحرين. وكانت تلك الفترة أكثر فترات إمبراطورية دلمون التجارية ثراءً، وكانت أور مركز قيادتها.

ومن غرائب عائلة أور - نامو عاداتُ الدفن التي كانت مغايرة لعادات الأُسر الحاكمة السومرية. واحتوت حجرات قبور فسيحة ومؤثثة بفخامة ومبنية في مكان عميق تحت الأرض أجساد ملوك ذلك الزمان، والتي تعيد إلى الأذهان المدافن الملكية من عهد فجر الأُسر الأولى، وقبور أور الملكية، ولكن بغير الأضاحي البشرية التي كانت تصاحب

---

* إشارة إلى سفر نشيد الإنشاد في التوراة (صالح).

عمليات الدفن تلك. ومن المستحيل أن تكون مدافن السلالة الحاكمة الثالثة مرتبطة بشعائر دوموزي (Dumuzi)، إله الخضرة والنهضة السومري الذي كان كإله ميت يحكم من تحت الأرض ، وله عدة جوانب شبه مع أيزيس المصرية التي تمثل بها الفراعنة عند موتهم.

وعلى غرار الأُسر الحاكمة التي قامت على حكم تكتل المدن – الدول، بكل ما انطوى عليه التآمر وسياسات القوة والاضمحلال، فإن تلك التي كونها أور–نامو لم يقدر لها الاستمرار لمدة طويلة. وبسقوطها وباستثناء وجودين مؤقتين لاحقين،فإن نهاية سومر يجب أن تسجل بعد فترة دامت قرابة ألفي عام، قدمت خلالها شعوبها للعالم أكثر مما قدمت أية أمة أخرى بخلاف مصر. ولكن سومر في هذا الوقت كانت قد أنهكت.

وسعى المجتمع لفترة طويلة فوق ما ينبغي لتحمل الاحتكاك بين المدن المختلفة،والصبر على عدم إمكانية التنبؤ بأحوال النهرين اللذين حاول المجتمع في البداية إقامة أمة بينهما، والهجمات المتواصلة من جانب القبائل البربرية والحسودة على كافة الحدود. وعلى عكس مصر، التي كان عصر ازدهارها في بدايته، والتي ستقضي ١٥٠٠ عام أخرى كي تستنفد قوتها، كان لسومر بنية متقلبة وهشة فوق ما ينبغي، الأمر الذي جعلها لا تستطيع تحمل الضغوط المتصاعدة حولها وبداخلها. ومع ذلك كان العالم محظوظا أن تولى حكم الإمبراطورية السومرية حاكم من مدينة بابل الشمالية، وهوالأمير السامي المسمى حمورابي، والذي يمتلك شيئا من شخصيه سرجون. وعند توليه الحكم نحو عام ١٧٥٠ ق م انتهى تاريخ سومر، وبدأ تاريخ بابل. ومن أمجاد بابل الخاصة ، احتفاظها بالكثير من التراث السومري للعالم الذي لا يزال ينعم بقسط معتبر منه حتى يومنا هذا. ويرد من هذه الفترة (حوالى ١٧٤٠ ق م) آخر ذكر لدلمون في السجلات التي تتحدث عن صناعة النحاس.

وبامتصاص ثقافة الشعوب الناطقة بالسامية، الذين استوعبوا التراث الهائل الذي خلفه

السومريون (ثم الأكاديون الساميون) لثقافة ما بين النهرين ، خرج السومريون أنفسهم من التاريخ ليُنْسى وجودهم بحد ذاته. ولكن هذا الشعب اللطيف المفعم بالنشاط ، دائم الابتكار على ما يبدو حتى إلى ما وراء حدود العبقرية العادية، يمكن أن يبدو أقرب إلينا من معظم الشعوب القديمة لأنهم يكشفون عن نوعية من الإنسانية بهذه الكثافة. والتذكارات التي خلفوها لم تكن من الحجارة أوالمعادن الثمينة فحسب، بل كانت كلمات وصوراً ومفاهيم وأفكاراً أثرت تأثيرا عميقا في كل إنسان متحضر سبق له العيش في البلدان التي تستمد أصولها الفكرية من غربي آسيا. إن ضخامة منجزات سومر، مثل معاصرتها مصر، وحتى نهاية الألف الثالث ق م، يمكن قياسها فقط عندما نتحقق من أن بقية العالم كان خاويا تماماً من أي شيء ، يقرب ولو من بعيد من الحضارة، حين كانت ثقافتهم متألقة ومزدهرة.

وعلى الرغم من أن أيام سومر قد انتهت، وبقي اسمها فقط كمعادلة قديمة في ألقاب بعض الحكام ذوي الميل إلى القديم في الدول الواقعة على أرض ما بين النهرين، إلا أن تأثيرها لم يكن قد ضاع كلية ، ذلك لأن الدول التي خلفتها قد احتفظت بالكثير من تراثها. ولكن قبل تفحص الخطوط العريضة لتاريخ بلاد ما بين النهرين فيما بعد السومريين ، لعله من المناسب إلقاء نظرة على العالم كما كان عليه في نهاية الحقبة السومرية حين بدأ الألف الثاني قبل الميلاد وفقا للطريقة التي نحسب بها الأزمنة التاريخية.

الألف الثاني

بدأت عمليات التغيير بالتسارع مرة أخرى كما سبق وحدث بهذا القدر من الجلاء في نهاية الألف الرابع ق م . وحتى مصر التي كانت تبدوهادئة تعرضت لصدمة من الاضطرابات الوحشية في حياتها الهادئة. وغرق أول وأعظم عصور أسرها الحاكمة في

التاريخ في الفوضى والاضطراب بعد حكم بيبي الثاني طويل المدي حيث ظل يحكم حتى العام الرابع والتسعين من عمره، بعد إعلانه سيدا على القطرين حين كان عمره ست سنوات. وسارت أمور حكم الملوك الآلهة بصورة مثيرة للإعجاب طالما أمسكوا بزمام الأمور، أما الآلهة الواهنة فهي مفهوم مريع فلسفيا وسياسيا سواء بسواء. وسنوات حكم بيبي الطويلة، حين أصبح أحفاد أبناء الرجال الذين شاهدوا تتويجه عجائز قبل نهايته، لا بد وأنها جعلت بعض أفراد حاشيته الأكثر وعيا يتوقون إلى اليوم الذي يعود فيه الإله لحكم آلهة أخرى قبل أن ستعرض حكمه للبشر لخطر الاضمحلال.

وبعد فترة طويلة مزعجة تفشت فيها المجاعة والفوضى وعدم اكتراث كلي بالقيم المصرية على ضفاف النيل، استعيد النظام بمشقة على يدي الفراعنة المتقشفين الملتزمين في المملكة الوسطى المبكرة. وعاد السلام إلى الوادي ، واستردت مصر روحها، وأضاف توالي امنحوتب، وامنمحات وسونوسرت رونقا جديدا إلى جلال القطرين، ثم بدأت ضغوط جديدة تلقي بثقلها على مصر وتركت الأُسرة الثالثة عشر الباهتة الضعيفة غير المركزية القوة تنساب من بين أيديها، وغزا مصر شعب سامي ينتمي إلى أولئك الذين تولوا الحكم في بلاد ما بين النهرين – وكانت هذه كارثة لم يسمع بمثلها من قبل. ويبدو أن أمراء الهكسوس الذين أطلق عليهم «الملوك الرعاة»، لم يكونوا أبدا سعداء كليا بحكمهم لتلك البلاد الغامضة والمحيرة للغرباء، وحاولوا بشغف تبني أساليب المعيشة المصرية وكسب قبول الشعب ولكن بالاستقرار في الدلتا والانطواء على أنفسهم حيث راودهم شعور بأن صحراء أجدادهم السورية والعربية غير بعيدة كثيراً ، ولم يدخلوا في الحياة المصرية بكاملها. ولربما لعنوا بدون مبرر، بل بكراهية وتوبيخ لا مثيل لهما عندما طردتهم في آخر الأمر، عائلة من نبلاء طيبة الذين اشتد حنق زعيمهم على وجود الغرباء على عرش الأرض المقدسة. وحين ثار ضد الملوك الغاصبين ، استرد حكم الآلهة ورخاء عائلته. وبدأ الآن صيف العظمة المصرية الطويل المتأخر بتكوين إمبراطوريتها الرائعة المترفة المتناقضة

ظاهريا – لأن مصر كانت في أعماقها لا تزال مرتابة بكل ما وراء حدودها – والتي مجدت عرش فراعنة المملكة الجديدة عاليا فوق العروش الأخرى كلها في العالم .

وكانت عجلة التغيير في بلدان أخرى تدور دورانا لا يقاوم. ففي الغرب كانت كريت تدشن سيطرتها على البحر المتوسط ، إلى جانب ثقافة متميزة ، وإن تكن نوعاً ما عُصَابِية، ومعظم عناصرها على الأرجح آسيوية . وبعيداً إلى الشمال، أقيمت مدن طروادة لحماية الطريق التي ربطت بحر إيجة بالبحر الأسود الذي جال على شواطئه متوحشون شرسون ذوو عادات ذميمة بحثا عن طريدة بشرية . وعبر كتلة الأراضي الأوروبية وحتى جزر بحر الشمال الملفعة بالضباب عرف شعب يبحث عن المراعي أوحماية آلهة جدد، فقط من خلال الأسطورة وروايات الرحالة من حين لآخر . وفي اليونان جاء عنصر جديد من الشمال مع آلهة مختلفة ووجوه عريضة وسيمة كان زعماؤهم ذوو الأقنعة الذهبية يدفنون على جبال ميسينى المخيفة التي تذروها الرياح. وأرسلت موانئ سوريا سفنا كبيرة إلى مصر وكريت وإلى أي مكان يمكن أن يتحقق فيه الربح.

وكانت تجري في بلاد ما بين النهرين أيضاً تغيرات عميقة متلاحقة. وكانت الاضطرابات الأخيرة في الدول السومرية القديمة وسيادة الحكام الساميين تعني تحولا بعيداً عن الجنوب، وتكوين ممالك جنوبية، أولا في بابل، ثم في آشور التي كانت تتطلع إلى أرض المتوسط، تلك التي في أعالي البحار، على أنها مخرجهم للفتح والتجارة. وعندما حان الوقت، تراجعت مدن سومر الجنوبية، التي كانت ذات يوم أهم مدن العالم، إلى مستوى مستوطنات قروية بسيطة، وبقي معظمها على هذه الحال حتى يومنا هذا. ومن حين لآخر يظهر حاكم لديه حس تاريخي أو أمل في إرضاء آلهة طواها النسيان ليشيد معبدا أو يصلح زقورة. ولكن معظم المدن اختفت مدفونة تحت أكوام من الغبار والرمال التي تعصف بها الريح تكومها فوقها وتخفيها حتى كشف عنها العالم الحديث بصبر ومعاناة ، ولدواعي السرور، بحرص أكبر على أسلافه من حرص الأسلاف أنفسهم.

وفي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد اكتسحت سلسلة من الكوارث الطبيعية الكثير من العالم القديم. ففي حوض البحر المتوسط دمر بركان سانتوريني، كما هومعتقد الآن، مدن كريت مدخلا الأكيين* (Achaeans) إلى قصور الجزيرة الرائعة، كما أدخل خرافة أطلانتيس إلى العالم الحديث. وفي وقت مبكر نوعاً ما ، وفيما يعرف اليوم بباكستان، انهارت حضارة وادي السند العظمى بما فيها مدن هارابا (Harappa) القوية، وموهنجودراو. وكان تأثير هذه الأحداث وحشيا ومطلقا. وناح الشاعر بإشفاق فيما كانت سومر ذات يوم : " من كان ملكا؟ من لم يكن ملكا؟"

وحين بدأ محور العالم السياسي والاقتصادي بالتحول شمالا، تقلصت أهمية الخليج أيضاً. وإذ جرد من سوقه الرئيسة بتدمير مدن وادي السند وإنشاء طرق قوافل أكثر ملائمة وأفضل أمنا مما كانت عليه الحال في الأيام الخوالي أصبح البحر السفلى حرفيا موضعا خلفيا منعزلا.

وكانت دلمون قد شهدت عدة تغيرات في السيطرة السياسية في بلاد ما بين النهرين ولكن جاذبيتها الدينية والاقتصادية معا قد ضمنت ازدهارها . ولكن الأمر بات مختلفا لأن أهميتها التجارية قد انهارت بانهيار مدن وادي السند العظيمة التي كانت المخرج لكثير من بضاعة سومر. وبانهيار المدن الجنوبية لبلاد ما بين النهرين، ومنذ ذلك الحين فصاعدا، لم يعد لدلمون أهمية، ويرد ذكرها فقط من حين لآخر في المصادر القديمة، ثم يغرق في غموض خرجت منه البحرين ودول الخليج الأخرى في هذا القرن خروجا مؤقتا. وبالتأكيد، لن تحتل ثانية المكانة الخاصة التي احتلتها بالنسبة للسومريين وخلفائهم المباشرين . وكان العالم قد بدأ سلفا بالتغير، ونتج عن تقلص أهمية دلمون التجارية تقلص مماثل حتى في مكانتها الأسطورية كجزيرة الآلهة. وسرعان ما نسي السومريون أنفسهم، واسترعت دلمون الانتباه فقط من حين لحين إذ أصبحت الآن مجرد إقليم بعيد تابع لأية سلطة حكمت بلاد ما بين النهرين.

---

* قوم عاشوا في بلاد اليونان القديمة (العبودي).

الأحلامو (Ahlamu) يسرقون التمر

في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وأثناء حكم بورنابورياس، أحد معاصري المجدد الديني غريب المظهر إخناتون مصر، أرسلت رسالتان من حاكم دلمون المقيم ، إيلي- إباسرا إلى زميله في بابل التي كانت عندئذ تحت حكم الكاشيين، والتي كانت الجزيرة إقليما من أقاليمها. ومن الواضح أن إيلي-إباسرا كان واسع الثراء، فقد كانت ابنته تتلقى تعليمها في مدرسة في نيبور، أحد مراكز العلم السومرية القديمة وتعنى بدراسة الآلهة. وحتى في ذلك الزمان كانت المكان المناسب كي يرسل المرء أولاده لينالوا ثقافتهم، بنات وبنين على قدم المساواة. ومن الواضح أن المدرسة كانت مخصصة لأبناء الطبقة الارستوقراطية . وكانت ابنة إيلي- إباسرا تعاني من التهاب في الأنف، فكتب له مدير المدرسة ليطمئنه أنها بخير وفي طريقها إلى الشفاء. وهذه الرسائل ذات أهمية خاصة لأنها تلقي الضوء على عدد من الخصائص التي ارتبطت بدلمون تاريخيا، والتي تؤكد على ارتباطها في ذلك الحين بجزيرة البحرين الرئيسة. ولقد تم اكتشاف دليل كبير في كهف في (الحجار) في البحرين على الفترة التي كانت الجزيرة خلالها تحت سيطرة الكاشيين. وتوحي أن الظروف في الجزيرة كانت أكثر ازدهارا مما كان يبدو عليه الحال.

ويتضح من نص الخطاب الأول أن الكاتب كان بانتظار " امرأة سوتية* تجتاز الماء لزيارته . ويمكن أن يستنتج من ذلك أن الكاتب كان يعيش في المنطقة اليابسة الرئيسة للجزيرة العربية ، والتي كانت في ذلك الوقت كما في أوقات أخرى متضمنة في عبارة دلمون، والتي تصبح بذلك منطقة جوهرية تتجاوز كثيراً حدود الجزيرة ذاتها. ومن المؤكد في حدود المعقول ، من دليل المدينة الثالث في قلعة البحرين حيث قدمت بقايا احتلال الكاشيين كميات كبيرة من فخار غير جذاب نوعاً ما، أن البحرين كانت عاصمة ما يمكن أن يعتبر

---

* نسبة إلى السوتيين وهم إحدى القبائل السامية التي كانت تجوب صحراء الشام وفي النصف الأول من الألف الثاني ق.م نجدها تقوم بمهاجمة القوافل في منطقة ماري ببلاد الرافدين (د. السقاف) .

مقاطعة دلمون في عهد الكاشيين. ويروي الكاتب أن المرأة السوتية قد بلغت دلمون ذاتها، بعبارة أخرى البحرين، لكنها لم تقطع المضايق بعد إلى البر. والمرأة السوتية هذه شخصية غامضة. ومن المعلوم أنه كان يوجد في العديد من المجموعات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية في ذلك الوقت وبعده نساءٌ قويات ، وغالباً كاهنات وملكات.

"إلى إليليا أتكلم: هذا ما قال أخوك إيلي- إباسرا: حلت عليك السعادة. لتحميك آلهتي إنزاك، وميسكيلاك ، إلتام، الذي سيصل، وقد قابلته . وكذلك المرأة السوتية التي عبرت البحر وسوف تصل، وإن كنت غير متأكد من مجيئها. الآن وجهتها إلى بابل . قبل اقتراب شهر أبيولى من نهايته ستصل إلى هناك. حولي نهب "الأحلامو" التمر، وهكذا لا شيء أستطيع عمله، ولكن مدينة منفردة لا ينبغي أن يسمح بنهبها . في المدينة التي أعيش فيها سمعت من سين- نون والمعبد الذي سمعت عنه هو بيت نون القديم (......) البيت كان قديما وانهار. والآن لم يقم بأي عمل البتة وترك الأمور تسير في مجراها. ومنذ ذلك اليوم وهم يرون الأحلام وتدمير القصر أشير إليه للمرة الخامسة."

ويشكو الكاتب من أن "الأحلامو " قد نهبوا التمر . ومن الواضح أنه كان مخزونا لشحنه إلى بلاد ما بين النهرين. وكان تمر دلمون دائما مفضلا تفضيلا خاصا في العصور الغابرة ، ولعل أفضلها واحة القطيف والهفوف في العربية السعودية. وهذا دليل آخر على احتمال امتداد أراضي دلمون في هذه الفترة. وقد تم العثور في قلعة البحرين (المدينة الثالثة) على مخازن فسيحة توحي بأنها كانت تستخدم لتخزين التمور قبل شحنها، أو لاستخلاص عصير التمر* الذي ينتج عن تخميره شرابٌ مقبولٌ جيدٌ ومسكرٌ.

وفي الرسالتين يقدم النص تبريكا يستدعى فيه إنزاك **Inzak** إنشاغ السومري الإله الحامي لدلمون مع الإلهة ميسكيلاك (Meskilak)، سيدة المراسيم النقية، . وكانت الإلهة الأنسب لدلمون حيث كانت إحدى تسمياتها أرض المراسيم الطاهرة.

---

* يقصد به الدبس (العبودي)

وتحتوي الرسالة الأولى على إشارة إلى بعض المعابد في دلمون الطاهرة وحالتها المؤسفة من الخراب. وعندما يصل النص إلى وصف " بيت نين" يغري باسترجاع الكلمة المفقودة كي يصبح ننخورساك أو ننسيكيلا (Ninkhursag, Ninsikila)، وكلاهما راعيان للجزيرة. ويبلغ أيضاً عن نبوءات تدمير القصر، إلى جانب السلوك المتمرد للصوص الأحلامو ويشير إلى الحالة الفوضوية العامة التي عمت الخليج في ذلك الوقت نتيجة غزوات قبائل البدو.

أما الرسالة الثانية نتضمن معلومات قليلة، لكنها لا تزال تتذمر من الصعوبات التي كانت إدارة الكاشيين تتعرض لها على يدي الأحلامو:

"إلى إيليا أتكلم: هذا ما يقوله أخوك إيلي-إباسرا: حلت عليك السعادة. لتحميك آلهتي انزاك و ميسكيلاك، آلهة تلمون تحمي حياتك. بالتأكيد يتكلم الأحلامو معي فقط عن العنف والنهب ولا يتكلمون عن المصالحة. وأمرني السيد أن أطلب منهم ولكنهم لا يتجاوبون."

هاتان الرسالتان مهمتان لإشارتهما إلى شعبين هما السوتيون والأحلامو اللذان أتى من نسلهما القبائل العربية في الخليج والسعودية على الأرجح.

وكان كلا الفريقين بدواً رُحّلاً واصلوا مناوشة الجماعات المستقرة على شواطئ الخليج والواحات المجاورة كتلك التي جاءت منها تمور دلمون. وكان السوتيون في الأصل من المنطقة الواقعة بين ماري قطنه، (Mari, Qatna) بعيداً إلى الشمال من بلاد ما بين النهرين في سوريا، وهي المنطقة التي يحتمل أن تكون قد اندمجت فيها عناصر من الثقافة السامية والسومرية. وكان الاتصال قائما، لكن القبائل كثيراً ما انفلت زمامها، وكان لزاما إخضاعها بقسوة. وفي نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد أصدر ملك بابل تعليمات لإبادة السوتيين، لكنهم نجوا، بلا شك بالانسحاب إلى الصحراء التي كانت دائما عائقا ميئوسا منه بالنسبة للجنود الذين نشأوا في المدن.

وكانت ضغوط شعوب الصحراء، البدو، كما يطلق عليهم اليوم، مشكلة مستديمة

للمدن والشعوب المستقرة في الخليج، كما كانوا بالنسبة لمدن بلاد ما بين النهرين . ومن المحتمل أن القرار الأصلي بنقل مركز دلمون من البر أواسط الألف الثالث قبل الميلاد إلى جزيرة البحرين قد فرض على الدلمونيين من خلال أنشطة البدو . ومن خلال وجود عشرين ميلا على الأقل، أو ما يقارب ذلك من المياه التي تفصل البحرين عن اليابسة الرئيسة يمكن ضمان سلامة الناس وآلهتهم وبضاعتهم .

كان الأحلامو مجموعة قبلية عريقة ربما تشكلت بالتحالف المؤقت بين أولئك الرحل الذين استمروا في إقلاق راحة الدول من سوريا إلى الخليج. وكانوا – على أكبر احتمال – أسلافا للآراميين الذين أحرزوا مكانا قويا لأنفسهم في تاريخ المنطقة اللاحق، والذين شكلوا مع حلول القرن الثامن قبل الميلاد عائلة لغوية هامة إلى حد أن أصبحت الآرامية، وفي نهاية المطاف اللغة المشتركة لكثير من البلدان في الشرق الأدنى. ودونت أخبار العرب أنفسهم لأول مرة في كتب الآشوريين في القرن التاسع قبل الميلاد،وهم العائلة الألسنية (اللغوية) الأخرى المرتبطة ارتباطا وثيقا بالجماعات آنفة الذكر. والعناصر السامية الذين هددوا البلاد طوال التاريخ السومري، كانوا قد جاؤوا من الصحاري السورية العربية مثلهم مثل الرحل الذين لا يزالون يقيمون في الصحراء حتى اليوم ولكن بأعداد متناقصة.

ولقد كشفت عمليات المسح في أواسط الجزيرة العربية عن العديد من المواقع الأولية التي يمكن نسبتها إلى العهد البدوي الأول. ومع حلول القرنين التاسع والسابع ق. م ، تبين السجلات الآشورية للحملات في شمال الجزيرة العربية أن القبائل العربية المتطورة تماماً من رعاة الإبل كانوا موجودين من الأصل، وكانت هذه القبائل على الأرجح الذرية المباشرة للأحلاموالقدماء. والمراسلة الموجهة إلى إيليليا في بابل واحدة من الأدلة ذات الاهتمام بشؤون الجنوب، والتي بقيت من القرون المضطربة التي تلت سقوط أسرة حمورابي في بلاد ما بين النهرين. ومنذ ذلك الحين أصبح تاريخ دلمون غامضا بصورة متصاعدة، وكان العالم قد توسع توسعا هائلا منذ أيام السومريين، وكانت هناك أسواق أغزر ربحاً

وحضارات أكثر ثراءً، بفعل انفتاحها، مما كانت عليه الحال في الجزر الصغيرة والصحراء القاحلة على الساحل بمحاذاة الخليج.

تاريخ دلمون اللاحق

من حين لآخر، يرد ذكر دلمون (أو على الأصح تلمون حيث إن اللغات التي تتحدث عنها كانت سامية) من خلال سرد كئيب للغزوات والقهر اتصف به تاريخ الملوك المتأخرين في بابل وآشور ، وكانت أمراء الأخيرة الأكثر عنفا بين أمراء الشرق الأدنى القديم جميعهم. وهكذا فإن توكولتي- نينورتا الأول (Tukulti-Ninutra I)، أحد أعظم الملوك المحاربين في آشور ، والذي حكم منذ عام ١٢٤٢-١٢٠٦ ق .م ، قد فتح بابل، وجر ملكها مقيداً بالسلاسل إلى عاصمته آشور، ثم مضى في ابتلاع كامل الأراضي التي كانت سومر سابقا. وأصبحت دلمون خاضعة له، وأعلن نفسه "ملك سبار و بابل ، ملك دلمون وبلاد ملوخة (Melukhkha)، ملك البحار العليا والسفلى ، ملك جميع المناطق الجبلية والصحاري." وانتهى حكمه البربري عندما اغتاله ابنه.

وفي حوليات سرجون الثاني الذي كان ملكا على آشور منذ عام ٧٢١ وحتى عام ٧٠٥ ق. م ، قرابة ٢٠٠٠ سنة لاحقة على سَمَيِّه إمبراطور آجاد العظيم، يرد ذكر لواحد من ملوك دلمون القلائل، وهو المعروف باسم أوبيري (Uperi) الذي يعيش كسمكة في وسط " البحر الذي تشرق منه الشمس" . وهذه الإشارة إلى البحر الذي تشرق منه الشمس صدى لعبارات مشابهة استخدمت في بعض الأعمال السومرية الملحمية المبكرة. وكان يقال عن الجزر ، وهذا منطقي بما فيه الكفاية، أنها " في وسط البحر" . وكان ذلك تعبيرا شائع الاستخدام لدى الملوك الآشوريين لوصف الجزر التي فتحوها في بلاد ما بين النهرين والخليج. ويبدو أن أوبيري قد طرد بشيء من الاحتقار من قبل ملكه الذي نصب نفسه

بنفسه، مع أنه كان كالسمكة يستطيع أن يعيد إلى الأذهان مذهب عبادة السمك التي كانت مرتبطة بدلمون وإلاههم الأقدم إنكي (Inki). ولعل دلمون في عهد سرجون الثاني، وكما كانت في عهد بورنابورباس، قد غطت الكثير من ساحل الجزيرة العربية الشرقي، وربما الكويت. وكان من بين أسماء البحرين قبل الإسلام "سمك" والتي تحمل المعنى المعروف في اللغة العربية ولعل ذلك من وحي شكل الجزيرة البيضاوي.

وفي عام ٦٩٤ ق.م كان سنحاريب ملكاً على آشور وقد اشتهر بهجومه على القدس كما فتح أيضاً عيلام في جنوب غرب فارس. ومثله مثل العديد من أجداده، هاجم بابل وأسقطها ويقال إن الأنقاض من نهب المدينة عامت في مياه الخليج حتى شواطئ دلمون، وهذه الحادثة غير المحتملة روعت سكان الجزيرة فسارعوا في إعلان الولاء للملك المعظم.

ومن الواضح أن ملك دلمون في ذلك الحين رأى أن من الحكمة إظهار الولاء لمصالح سنحاريب بإيجابية أكثر من مجرد التعبير عن الولاء فأرسل فريقاً من العمال للمساعدة فى تسوية بابل بالأرض بعد سقوط المدينة بيد الآشوريين، وأحضروا معهم العدة الموصوفة بأنها نموذجية (مجارف وفؤوس برونزية)، وكانت الصناعات المعدنية حتى في هذا الوقت المتأخر لا تزال أكبر مميزات دلمون كما كانت في عهود السومريين حين كانت دلمون مركز تجارة النحاس.

ويأتي من أزمنة الآشورين المتأخرين نص غريب، بل إنه أكثر النصوص إثارة للفضول، نشر في الأصل في دراسة حول علم التنجيم عند الكاليديين. ويتضمن هذا النص نبوءة بكارثة لملك من ملوك دلمون، لا تذكره بالاسم. وتربط النبوءة مصير ملوك مختلفين بكسوف القمر في شهور مختلفة تَرِدُ الأقسام ذات العلاقة من النص كما يلي:

"تأمل كسوفه سيصدر قرار خاص بملك دلمون. شخص ما سيقتل ملك دلمون خلال تمرد وسيعتلي العرش رجل غريب. وإذا حدث الكسوف في اليوم الخامس عشر فإن شخصا ما سيقتل ملك دلمون خلال تمرد ويعتلي العرش رجل غريب.

أما إذا حدث الكسوف في السادس عشر فسوف يقتل الملك أثناء موكب وسيعتلي العرش رجل أحمق. "

ولا يعرف تاريخ لأصل هذه النبوءة الغامضة. ويشير أحد المفسرين إلى أن بعض الأحداث الأخرى التي يبدو أنها ذات علاقة بها تروي الأوقات المضطربة الخطرة ، عندما اجتاح الغوط سومر ، وهم قبائل متوحشة أتت من الجبال الفاصلة بين سومر وإيران، وأوقعوا مثل هذا الدمار.

ومزق الآشوريون المتوحشون النظام القائم في الشرق الأدنى، وفرضوا حكمهم المطلق على الناس في الأراضي التي خضعت لنفوذهم. وتمثل نقوش الملوك الآشوريين نماذج رعب وقهر. وفي السنوات الأولى من القرن السابع ق.م يورد أسرحدون، ابن سنحاريب دلمون في مقدمة فتوحاته، ويزودنا باسم ملك دلموني آخر.
" على قناية (Qanaia) ملك تلمون فرضت الجزية المستحقة لي بصفتي سيده."

وبعد ذلك بزمان يعلن آشوربانيبال (٦٦٨-٦٣١ ق . م) سلطانه باتخاذ أقدم الألقاب الملكية التي تعيد إلى الأذهان ألقاب سرجون العظيم قبل نحو ٢٠٠٠ سنة، وتظهر تلمون الآن أحد حدود إمبراطوريته، ويستخدمها لإظهار مدى العالم الذي كان يحكمه. والمثير للاهتمام أنه يذكر تلمون وصور في المحتوى نفسه مميزا إياهما ككيانين متقابلين أحدهما في البحر العلوي (المتوسط) والثاني في البحر السفلي (الخليج).
"آشوربانيبال، الملك العظيم، الملك الشرعي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أطراف الأرض الأربعة، ملك الملوك، الأمير الذي لا يبارى ، والذي يحكم من البحر العلوي إلى البحر السفلي قد جعل الحكام الآخرين يركعون عند قدميه جميعهم، والذي وضع نير سيادته عليهم من صور وهي جزيرة في البحر العلوي بعيدة عن تلمون الجزيرة في البحر السفلي، وجروا سيور نيره."

وثمة ذكر لملك آخر من ملوك دلمون الباهتين في كتب حوليات آشوربانيبال . فقد شن

قائد الملك الآشوري بل- إيبي حملة على جنوب بلاد ما بين النهرين لتوطيد الحكم الشمالي عليها ، ففتح بت-أياكين، (ربما كانت منطقة الكويت في الركن الشمالي الشرقي من الخليج)، وعيلام في الجنوب الغربي من فارس . وفي رسائله من الميدان يذكر بل-إيبي هوندارو ملك دلمون. ويبدوأن ملك آشور اعتقد أن من المناسب التعامل مع الحاكم الدلموني بالدبلوماسية بدلا من تجربة قوة السلاح ، ويعرض في خطاب التأكيد على حكم هوندارو مقابل قبول سلطان آشوربانيبال، وتقديم الدعم له في حربه على بابل. ورأى الملك الأقل شأنا أن هذا هو عين العقل، ويحكى أن سفيرا دلمونيا اسمه إيديم (I'idim) قد اعتمد في البلاط الآشوري. وفي هذه الفترة بالذات سَجّلَ وصول الجزية والغنائم، أوتبادل الهدايا بين الحاكمين، إلى العاصمة الآشورية من دلمون. وأيا كانت، فقد كانت شحنة غنية من البضائع وشملت ستاً وعشرون تولة (طالينة) من البرونز، وسلعاً مصنعة من ذلك المعدن ومن النحاس، وعصياً من الخشب الثمين تشهد شهادة مُقْنِعَه على الثروة التي كانت دلمون لا تزال تتمتع بها. وتكشف الحفريات في قلعة البحرين لهذه الفترة البابلية الحديثة (٧٠٠ ق . م) عن مدينة فسيحة ذات بنايات عامة جميلة.

الإسكندر الأكبر والخليج

بلغ العالم القديم أَوْجَه ونهايته في الشخصية الهائلة للإسكندر المقدوني .ولعله الرجل الوحيد المولود حتى الآن من امرأة وكان مخولا بأن يُشَكَّ في كونه إلها، والذي كان جسراً بين العالمين القديم والحديث، والشرق والغرب. ولا يزال حاضر الوجود في العديد من أجزاء غرب آسيا، ويوجد الكثير من التراث الفكري للغرب الذي يمكن تقفيه إلى إطلاق الإسكندر لطوفان المعرفة والأفكار والتكنولوجيا التي امتلكتها دول الشرق الأدنى والتي أنعشت أوربا بتدفقها إليها.

وفي أواخر سنوات حياته، حين صدم لوفاة هيفايستون، رفيق صباه، سقطت شخصية الإسكندر التي لم تكن مستقرة تماماً في أي وقت من الأوقات إلى ما يشبه الهوس الحاد، حين وجه اهتمامه صوب الجزيرة العربية، وكانت ذكرى الزحف المخيف عبر حدود جدروسيا Gedrosia (مكران) لا تزال حية في ذاكرته وذاكرة قادته ورجاله التعساء.

وُيْزَعمْ أنه قد غضب من رفض العرب السماح له بالسيادة التي اعتقد أنها من حقه كفاتح للعالم كانت ممتلكاته أوسع من ممتلكات أي إمبراطور سبقه. وجعلت استقلالية النفس الكلية الصارخة والحقة أصلا، وهي خاصية مميزة لسكان الصحراء، مطمح الإقرار بسيادة الإسكندر أمراً مستحيلاً لدى شعب شبه الجزيرة. وكان لدى الإسكندر آمال، لم تتحقق بالمثل ،وهي أن يعترف به إلها من جانب العربان الذين كانوا يعبدون إلهين فقط، واللذين كان اليونان يتمثلانهما في أرانوس وديونيسوس. ورأى الإسكندر أنه من غير المعقول ألا يعتبر أهلاً للتبجيل الإلهي بما أن منجزاته قد تجاوزت حتى منجزات ديونيسوس. وكان أرانيوس بالطبع إلها عجوزا فوق ما ينبغي ولا يمكن مساواته بالاسكندر.

كل هذا نعرفه من آريان الموظف البيثيني الذي كان في خدمة الإمبراطور الروماني و سطع نجمه في القرن الثاني الميلادي ، والذي كتب أكثر تواريخ عصر الإسكندر الباقية . وعلى الرغم من أنه عاش في زمان يبعد عدة مئات من السنين عن حياة الاسكندر إلا أن من الواضح أنه كان قادرا على الإفادة من مصادر معاصرة للإسكندر ذاته. ومن بين هذه المصادر سجلات العديد من ربابنة الإسكندر بمن فيهم أشهر أمراء البحر لديه، وهو نيرخوس الكريتي .وقد عاش آريان في عهد هادريان، الأكثر لطفا وتحضرا، من بين الأباطرة الرومان ، وكان جديرا بخلافة للإسكندر الذي أعجب به إعجابا عميقا.

ويقدم آريان وصفا مفصلا للأحداث البحرية، خاصة رحلة نيرخوس. ومن الملائم الآن أن نتأمل بعضا مما قاله:

« كان لدى الإسكندر أفكار للإستيلاء على ساحل الخليج الفارسي والجزر البعيدة عن

الساحل لأنه تخيلها وقد أصبحت بلدا مزدهرا مثل فينيقيا. ووجهت الاستعدادات البحرية ضد عرب الساحل،لأنهم كانوا الشعب الوحيد في ذلك الجزء من البلاد الذين لم يرسلوا أي وفد للوقوف على خدمته لإبداء احترامهم بأي عمل آخر من أعمال المجاملة. وكان السبب الفعلي للاستعدادات تعطش الإسكندر الذي لا يرتوي إلى توسيع ممتلكاته.

وتقول الروايات إن العرب يعبدون إلهين، يورانوس وديونيوس ، الأول اعتقادا بأنه يحتوي في ذاته ليس فقط النجوم، بل والشمس أيضاً، أصفى وأعظم مصادر البركة للبشر في جميع شؤونهم، والآخر، ديونيوس، بسبب شهرة رحلته إلى الهند. وبناء على ذلك ، شعر الإسكندر بأنه ليس بكثيرٍ عليه أن يعتبره العرب إلها ثالثا نظرا لأن إنجازاته قد تجاوزت إنجازات ديونيوس، أوعلى الأقل يستحق هذا الشرف إذا تغلب على العرب وسمح لهم ، كما سمح للهنود، بالإبقاء على مؤسساتهم القديمة. وزيادة على ذلك ، كانت ثروة بلادهم حافزا إضافيا ، ففيها القرفة في الواحات، والأشجار التي طرحت البخور والمر، والشجيرات التي تنتج الكمون، وينبت النرد في المروج برياً. وقد سمع بكل هذه الأمور . وكانت الجزيرة العربية بلادا واسعة، لا يقل ساحلها اتساعاً عن ساحل الهند، وكثير من الجزر تقع على مقربة منه، وهناك مرافئ في كل مكان صالحة لرسو أسطوله وتوفير المواقع لمستوطنات جديدة يحتمل أن تنعم بالثراء والازدهار.

وقد بلغه أيضاً وجود جزيرتين بعيداً عن مصب الفرات، تقع إحداهما قريباً جداً على بعد نحو خمسة عشر ميلا من مصب النهر في البحر، وهذه هي الصغرى التي كانت مكتظة بالأشجار وبها معبد لارتيسيوس الذي كان أهالي الجزيرة أنفسهم يعبدونه . والغزلان والماعز البري ترعى هناك وكأنها اعتبرت مقدسة للآلهة وكان محرماً صيدها إلا بقصد القرابين. ولهذا السبب ، يخبرنا أرسطوبولس أن الإسكندر قد سن قانونا بأن يطلق على هذه الجزيرة إيكاروس* على اسم جزيرة في بحر إيجة.

وتقع الجزيرة الثانية المسماة تايلوس** بعيداً عن مصب الفرات بنحو المسافة التي تقطعها

---

* وهي جزيرة فيلكا (صالح).

** هي جزيرة البحرين (العبودي).

السفينة في رحلتها بيوم وليلة. وكانت بحجم معتبر، معظمها لا هو كثيف الأشجار ولا هو بالبرية ، لكنها ملائمة لإنتاج المحاصيل الزراعية جميعها في مواسمها. وقد حصل الإسكندر على بعض هذه المعلومات من آرخياس الذي أُرسل في سفينة لاستطلاع الساحل توطئة لخروج الحملة المزمعة ضد العرب، ووصل آرخياس إلى تايلوس لكنه لم يغامر إلى ما وراءها ، ومن أندروسثينس الذي ذهب في قيادة سفينة أخرى ووصل أبعد من ذلك مبحراً حول جزء من الجزيرة العربية ، وأيضا من هيرو قائد السفينة الذي توغل إلى مسافة أكبر من أي منهما، وعينه الإسكندر مسئولا عن سفينة ثالثة وأصدر له تعليمات بالإبحار حول شبه الجزيرة بكاملها من مدينة هيروبوليس المصرية على البحر الأحمر. ولكنه لم يجرؤ على ذلك مع أنه أبحر حول الجزء الأكبر من الساحل العربي، فقفل راجعاً وقدم تقريره إلى الإسكندر بأن شبه الجزيرة شاسعة وأنها بقدر حجم الهند تقريبا، وأن رأسا بريا امتد إلى مسافة بعيدة في المحيط. وكان هذا الرأس بالفعل قد شاهده رجال نيرخوس في رحلتهم من الهند قبل أن يغيروا خط سيرهم باتجاه الخليج."

وهذا النص ذو أهمية كبيرة بسبب الضوء الذي يلقيه على الخليج في القدم، ولعله يستحق التريث لحظة للتبصر فيه بالتفصيل.

يستند آريان على أرسطوبولس في بعض أجزاء روايته، وكان أرسطوبولس من معاصري الإسكندر. ومع ذلك فإن معظم تحليله لرحلة نيرخوس يعتمد على مصداقية أمير البحر ذاته، ويظهر في صيغة الانديكا التي بناها آريان على صحف نيرخوس.

والنقطة الأولى التي تسترعي الملاحظة هي أن الإسكندر كانت لديه أفكار في استيطان شواطئ الخليج والجزر البعيدة عن الشاطئ ، وتخيل أن من الممكن أن تصبح على قدر من الازدهار مثل فينيقيا. و أظهر الإسكندر هنا بصيرة جديرة بالملاحظة إذ أقيمت بعد وفاته مستعمرات يونانية بمحاذاة الشاطئ العربي وفي الجزيرة العربية. وانتعشت المستعمرات انتعاشاً عظيماً إذ فتحت طريق التوابل من الجنوب ، والتي كانت حتى عهد الإسكندر تدر

ثروات عظيمة على شبه الجزيرة ، وهي النقطة التي سجلها آريان.

وتكمن الأهمية العظمى في دراسة آريان في ملاحظاته الجغرافية ، فهو يصف" جزيرتين بعيدتين عن مصب نهر الفرات" إحداهما كثيفة الأشجار وغنية بثرواتها الحيوانية، وكانت مقدسة لإلهة تمثلها اليونانيون مع إلهتهم أرتيمس . وأصدر الإسكندر مرسوما يقضي بإطلاق اسم إتيانوس عليها ، وهواختيار غريب رغم التوضيح الذي يقدمه النص. فقد حير اسم ايكاروس في الخليج المفسرين حيرة عظيمة حتى تم اكتشاف معبد هام يعود تاريخه أيضاً إلى الحقبة الهيلينستية ، وهو يوناني بكل وضوح من حيث الفن المعماري مما يوضح بجلاء أن فيلكا هي إيكاروس. (انظر الفصل الثامن أيضاً)

ويطلق على الجزيرة الثانية تايلوس، وهذه هي البحرين، وتبرز في معظم السجلات التي خلفها المؤرخون القدامى وعلماء الجغرافيا. وبالفعل لها سجل تاريخي فريد لأن الإشارة الأدبية الأولى إليها كانت أكثر بعدا عن عصر آريان من بعد ذلك الزمان عن زماننا الراهن.

وتظهر جدية نوايا الإسكندر في الاستكشاف من خلال حقيقة قيام ضباط كبار من أركانه غير نيرخوس برحلات استكشافية في الخليج. وكان هؤلاء هم آرخياس، وأندروسثينس، وهيرو، وهذا الأخير كان قد أبحر إلى أبعد من الخليج، وباشر المهمة الهائلة بالإبحار حول ساحل شبه الجزيرة العربية وعبر البحر الأحمر إلى مصر وإن لم يكمل تلك المهمة.

واستناداً إلى نيرخوس، سعى الإسكندر للحصول على معلومات عن الشعب بمحاذاة ساحل شبه الجزيرة العربية ومساكنهم، وبخاصة توزيع المرافئ الآمنة ومصادر المياه العذبة والصيد أو غيره من مصادر الغذاء. ويعتقد أن واحداً من أهم أعمال الإسكندر غير العادية كان مرتبطاً باهتمامه بالجزيرة العربية والمناطق غير المكتشفة جنوب وغرب ممتلكاته – وفي سنواته الأخيرة، استحوذت عليه فكرة ألوهيته استحواذاً كاملاً، وشاهد نفسه يحقق ما لم يحظ به أي إنسان مؤلها كان أو من الفانين. وخضع لأغرب الاستحواذات وأكثرها إلحاحا

في حياته ، ويبدو هذا في جوهره محاولة مدبرة لاكتساح الحدود التي كانت تفصل بين الشرق والغرب في ممتلكاته ، بين اليونانيين وأولئك الذين سكنوا الأراضي الأوروبية، وإخوانهم في الأراضي الفارسية التي خضعت لسلطانه .وكان زواج العشرة آلاف المشهور والباهر في سوسة حين امتزج اليونان بالفرس في قداس يُعَدُّ من أكثر الاستعراضات جدارة بالملاحظة . وحين اقترب من وفاته أصبح الإسكندر معظماً أكثر فأكثر واستولت عليه صفة من الاستعلاء ظهرت باقتناعه بأن مصيره مختلف نوعياً عن مصير الرجال الآخرين . وكان من الممكن أن تتيح له سيطرته على الخليج وساحله الغربي تحقيق التواصل بين كافة ممتلكاته وتوحيد القسمين العظميين من العالم تحت سلطته الألوهية.

وأنهى موته في بابل (التي دخلها متحديا نبوءات المنجمين الكلدانيين وكانوا من أمهر العاملين في مهنة غاية في الصعوبة والخطورة) في إحلال الأخوة الإنسانية العالمية في هذا الفجر المبكر. ولو عاش الملك حياة أطول، ولو سادت مفاهيم الأكادية بدلا من مفاهيم الكنيس وروما وما شابهها لكانت فترة الألف عام الجرداء التي تلت زمانه مليئة بالضياء والبهاء.

ودون إحساس برهبة ادعاءات الإسكندر بالألوهية ، تجاهل شعب الجزيرة العربية والخليج وجوده الهائل، وهكذا لم يدخلوا إمبراطوريته قصيرة العمر. لكنه بالنسبة لمنطقة كان لها قبل عهد الإسكندر بثلاثة آلاف سنة سمعة كونها ملتقى كامل لجماعة الآلهة فإن مقدونيا البسيطة سواء كانت ألوهية أوغير ذلك، لم تكن تعني الكثير لهم. وكانت آلهة سومر المجتمعة في دلمون أكثر جوهرية من الإسكندر، و أكثر تمرسا في الإيحاء بالرهبة بين أتباعها. وأيا كان دور الإسكندر كإله فإننا على أرض أكثر صلابة من خلال النقش الذي أمر بوضعه على جزيرة فيلكا في خليج الكويت محتفظا بها كحرم. ويوجد هذا الحجر اليوم في متحف فيلكا.

ومن بين العديد من المكتشفات التي نجمت عن سنوات الحفريات الماضية في الخليج وشرق الجزيرة العربية الاختراق غير المتوقع للمؤثرات اليونانية في المنطقة. ولقد كان اهتمام الإسكندر بالجزيرة العربية معروفا تماماً، وإصراره على فتحها من بين آخر أعماله السياسية المدونة. وما لم يكن متوقعا هو المدى الذي وصلت إليه المستوطنات اليونانية في الجزيرة العربية في السنوات التالية على وفاته.

ويمثل اهتمام الإغريق بالمنطقة إحدي النقاط البارزة في تاريخها؛ ففي أرجاء المنطقة جميعها، في البحرين وشرق الجزيرة العربية، كما هي الحال في فيلكا، بل وحتى في الصحراء العربية، يدل التأثير اليوناني على درجة من الرخاء والأهمية للمنطقة لم تكن تتمتع بها منذ العهود البابلية القديمة. ودليل حقول القبور في البحرين ملحوظ في هذا المجال، ولا يمكن حصر العدد، ولكن بينما النسبة المئوية الجوهرية من عشرات الألوف يعود تاريخها إلى أواخر الألف الثالث أو أوائل الألف الثاني ق.م، فإن عددا كبيراً يمكن تقفيّه إلى العهود الهيلينستية. ومن الغريب فعلا عاد سكان البحرين والأرض الداخلية الرئيسية القريبة في القرنين والثالث الثاني قبل الميلاد إلى ممارسة الدفن في القبور بالطريقة التي كان يمارسها أسلافهم. فليس كل حاملي التقليد اليوناني كانوا يفضلون المقابر اليونانية التي فيها القبور عبارة عن أعمدة بسيطة وإن كانت توضع في مدفن واسع واحد. ولقد عثر بالصدفة في العاصمة البحرين، في أثناء القيام بمشروع بناء، على موقع لمقابر يونانية. ومما لا شك فيه أن سكان القبر كانوا من البسطاء، لعلهم بحارة، عاشوا أو كانوا على صلة بمستوى المدينة الرابعة في قلعة البحرين المرتبطة بالأزمنة التالية على حياة الإسكندر مباشرة. وعثر على هيكلين عظميين متشابهين في القبر ذاته. ومن (سار)، الموقع بالغ الأهمية في عصور ازدهار البحرين القديمة، وجد في القبر هيلينستي العصر حصاناً فخارياً وراكبه، لعله وفاء بنذر أو دمية.

وفي فيلكا، كانت المؤثرات اليونانية عظيمة المغزى. ومن غير المعروف ما إذا كان هذا بسبب اهتمام الإسكندر بالجزيرة، أو أن تورط اليونان كان بعيد المدى، لكن تم تعرّف مستوطنة يونانية

هامة كانت إحدى بناياتها مصنعاً للتماثيل الفخارية، وحيث إن معظمها يرد دينيا فيمكن الافتراض أنها خدمت الطبيعة المقدسة للجزيرة، ربما مشيرة إلى وجود الزوار الذين سيستخدمون منتجات المصنع.

ويلاحظ الوجود اليوناني في عمق الصحراء العربية، ففي الفاو على بعد ٦٠٠ كم جنوب الرياض تم الكشف عن مدينة بها سوق تحمل دليلاً معتبراً على المؤثرات اليونانية على يدي فريق من جامعة الملك سعود بالرياض. وكان هنالك سلسلة كاملة من المستوطنات الممتدة عبر الصحراء تربط المناطق المنتجة للتوابل في الجنوب بساحل الخليج في الشرق. ومن المدن على الشاطئ الشرقي، بما في ذلك البحرين، كانت التوابل العربية* تصدر إلى المدن اليونانية في فارس، وإلى أبعد من ذلك حتى تلك التي في الهند بعد عهد الإسكندر.

ولكن أهم الآثار في الحقبة الهيلينستية في فيلكا، عدا إعلان الإسكندر، هي آثار المعبد اليوناني الصغير الذي كشف عنه في الجزيرة، وهو عبارة عن بناء جميل وإن كان متواضع الحجم، وهو في الحقيقة صورة مصغرة جميلة جداً عن الهيكل اليوناني. ومع ذلك، لا توضح نوعية فنه المعماري صورة أي شيء إقليمي فيه. ومن المحتمل أن يكون بناؤه قد تم بإشراف بناء مدرب في اليونان، وربما بالاستعانة بصناع استقدموا لهذا المشروع. وقد بني المعبد بعد وفاة الإسكندر، ولعل نوعيته نتاج الأهمية التي أعطاها المرسوم لهذا الموقع البعيد عن العالم اليوناني.

واستناداً إلى نقش آخر، مكرس من قبل شخص يدعى سوتيلس، مواطن من أثينا، حملت أرتيمس في فيلكا لقب سوتيريا، ويهتف بها ساروكونيس. ولم يكن الوجود اليوناني في فيلكا مجرد وجود ديني فحسب. وربما بنيت قلعة للدفاع عن المعبد الصغير والمدينة ضد قطاع الطرق. والنقش الذي خلفه سوتيلس يربط الجنود معه بهدف تكريسه، ومن الصعب تجنب الشعور بالتعاطف مع الجنود الإغريق وهم على هذا القدر من البعد عن موطنهم بعيداً عن رفاهيات الحياة اليونانية.

---

* كان جنوب الجزيرة العربية ينتج اللبان والبخور والمرّ أما التوابل فكانت تجلب من الهند وشرق أفريقيا (د.السقاف).

الفصل السادس

أساطير سومر و دلمون

شأنهم شأن معظم البشر قبلهم وبعدهم، كان السومريون محتارين بشأن العالم، وشعروا شعوراً حاداً بالحاجة إلى شرحه ، وكونوا من خلال وسطهم اللغوي صورا بهية وقصصا تربط عوالم الآلهة والبشر بالسهول نفسها التي نحت فيها المصريون على الحجر للغرض ذاته . واندهشوا بالعالم، وكونوا وجهة نظر متواضعة عن مكانتهم فيه . وكانت آلهتهم ، عموما عنصراً مرعباً وكريهاً ، ومع بعض الاستثناءات ، سيئة الميل عموما، وفي أفضل الأحيان غير مكترثة بالإنسان . واعتقد السومريون أن الحياة كلها غرور، والإنسان مخلوق لا حول له ولا قوة . وهم شعب من السهل أن تجد الكثير من العناصر المشتركة بين أفراده . ولعل نظرتهم المتشائمة للعالم كانت في جزء منها نتيجة موقعهم الجغرافي، وفي الجزء الآخر يمكن أن تكون من موروثات الأفكار الدينية المتشائمة للعنصر الناطق بالسامية في مجتمعهم . وكانت بلادهم تقع بين نهرين قويين لا يمكن التنبؤ بأحوالهما ، واللذان رغم كل الضوابط التي يمكن أن يمارسوها، بمقدورهما في سنة أن يأتيا بالوفرة، وفي أخرى بالدمار . وبالنظر إلى هذا الإحساس بالكارثة المشرفة، والاعتقاد السومري بأن شيئا مرعبا على وشك الحدوث، ينبغي أن نتذكر أن قصة الطوفان الواردة في الكتاب المقدس هي سجل لقصة طوفان سومرية استعادها بصورة معتمة أبناء القبائل الرحل الذين جابوا الصحراء وراء حدود المدن* . وكانت البنية السياسية والاجتماعية لمجتمعهم فيها ترجيح للجانب المضاد للاستمرارية والطمأنينة وبالتالي ،وكما حدث لاحقاً في اليونان بعد قرابة ألفي عام ،قادت باستمرار إلى الحرب بين تلك الدول الصغيرة وتدمير بعضها البعض .

---

* لقد دلت الدراسات الجيولوجية والآثارية على وقوع حادثة الطوفان كحقيقة تاريخية ثابتة .كما وردت في القرآن الكريم بأشارات واضحة في قصة سيدنا نوح عليه السلام وبالتالي فإن جعلها مجرد أسطورة منافٍ للحقيقة (د. السقاف) .

ولم يجدوا العزاء في خلق خيالات مهدئة بشأن الحياة الأخرى، والتي من ناحية يمكن أن تخفف ألم ومعاناة الوجود الأرضي، ومن ناحية أخرى من شأنها أن تكون امتدادا مثاليا للحياة على الأرض. وبالنسبة للمصريين، على سبيل المثال، لم يكن بالإمكان تصور حياة أكثر راحة من وجود دائم تملؤه الشمس في وادي النيل. ولكن السومريين سابقين على فرويد ومذهب الخطيئة الأصلية ، قالوا: " أبدا لم يسبق أن ولدت أم طفلا بلا خطيئة." وفي بعض أمزجتهم حملوا معهم عِبْئَاً مخيفا من القنوط الهادئ تجلى بكل قوة حين نظروا في مصيرهم المحتمل بعد الموت. وبشكل بائس، وصفوا حالة زحفت فيها أرواح الموتى مرتعشة جائعة وعطشى تضربها أجنحة الطيور الحرشفية المرعبة في الممرات المغبرة التي تذروها الرياح في عالم سفلي به الكثير من صفات الجحيم المسيحي أو الإسلامي، والجحيم اليوناني إن جاز التعبير. وبالفعل كل الفكرة المثبطة للهمة حول مكان العقاب والمعاناة الأبدية التي يمكن أن تحل نتيجة هذا الاعتقاد المريع لدى أهل بلاد ما بين النهرين.

آلهة سومر

كانت آلهة سومر مسؤولة عن الكثير من المشاكل والكوارث التي أحدقت بالبشر، إن لم تكن مسؤولة عنها كلها. واخترع السومريون نظرية بهية زاهية لها كانت واحدة مما يندر أن تظهر فيها الآلهة في أحسن صورها ، لأنها كانت في نظر السومريين لا خير فيها.

وتتناقض نظرة التدين التي نظر بها الكثيرون من القدماء إلى الآلهة تناقضا حاداً مع المكانة المبجلة التي سادت العصور التالية . والكل على علم بالآثار الحزينة للآلهة اليونانية، والتي كان أعضاؤها الذين استحوذت عليهم موجات متعاقبة من الطمع والشهوة وسوء الخلق قد عكسوا بدقة بالغة خلق الإنسانية ذاتها. وابتدع العبرانيون الذين تأثروا بقسوة حياة الصحراء، وعلى ما يبدو يستجيبون للجوانب الأكثر ظلمة في المعتقدات السومرية ، (يهوه) الغيور المزاجي الذي ظهر كأنه وحيد مخيف في قمة جبل القدس بعد أن تخلص أتباعه من الآلهة الآخرين الذين عبدهم العبرانيون ذات يوم ، واحتفظوا بهم كذكريات

مثيرة للشجون. والمصريون فقط ، المنعزلون نموذجيا بالمثل بحدودهم الصحراوية هم الذين أدركوا الآلهة بتحفظ، شاعرين بالإشفاق على تلك العناصر من بني البشر الذين لم يولدوا على الأرض المصرية لسوء حظهم.

إذا كان هنالك شيء واحد يطمئن له مالك الأرض الممفيسي الذي كان يعيش في القرون الأولى من الألف الثالث قبل الميلاد وهوينظر إلى ضيعته بقناعة حين يحل المساء، فذاك كان لأن الإله مصري. ولم يكن لدى السومريين عزاء مماثل يدعمهم.

في العقيدة السومرية آلهة عظام وآخرون دون ذلك، والآخرون عادة خدم للأولين إذ كانوا قد وجدوا أولاً في العالم. و نالت كل جماعة من الآلهة الكبرى قطعة من الأرض ملكاً لها، كما كانت العناصر والأشياء الخفية والظاهرة كافة مخصصة لعناية واحد منها. وجميع الآلهة العظام ، الذين يطلق عليهم جماعياً اسم أنوناكي (Annunaki) أعطيت لهم حاشية من الآلهة الأقل شأناً لخدمتهم ولتحقيق القصد المفيد بالتوسط بين الإنسان والآلهة حين خلق البشر. وكانوا – كما يعتقد البعض – السلف الروحي لملائكة العناية عند المسيحيين. وكان لكل رأس عائلة سومرية إلهه الخاص ، يوجه له صلواته، ويستجديه التوسط لدى الآلهة العليا حيث أنهم كانوا على قدر من الرهبة بالنسبة للإنسان لا تجعله قادرا على الاتصال مباشرة.

وعندما خُلِقَ العالم في البداية، ووزع على الآلهة المختلفين والإلهات ، كان كل شيء علي مايرام، لكن الآلهة شعروا، أن عالمهم كان يفتقر إلى شيء ما: كان بحاجة إلى مخلوقات مطيعة لينة العريكة ليزرعوا الأرض ويحصدوها ويحافظوا على النظام والحيوانات الأخرى. وبالفعل، حدث أول إضراب مدون حين قامت الآلهة السومرية الصغرى، الآلهة إجيجي (Igigi) بإلقاء العدة، وثاروا على الأنوناكي الآلهة العليا مرهبينها لقبول مطالبهم العادلة بالحصول على وقت الفراغ، واعتقادهم بأن الزراعة على نطاق واسع كانت مهنة غير

ملائمة حتى للآلهة الصغرى. وهكذا أجبرت الآلهة الحاكمة على اتخاذ الإجراءات لتحسين أوضاع زملائهم الصغار. ومن الواضح أن العمل كان لا بد له من شخص ما يقوم به، ولهذا خُلِقَ الإنسان بهدف القيام بالواجبات الدنيا والتي لا تليق بالآلهة. وبعد خلق الإنسان قررت الآلهة أيضاً أنه سيكون ساراً ومفيداً إدخال نظام عبادة ، وبذلك أظهروا أنهم منذ أقدم العصور قد عانوا من الإحساس الغريب المتكرر بعدم الأمان الذي يبدو أن الآلهة معرضة له، وهو عدم أمان يحتاج إلى تهدئة بأن تقول لهم حشود المؤمنين باستمرار. ما أرفع مقامكم! لذا، ومن أجل هذه الأهداف المتواضعة خلق البشر كي يكونوا مخلوقات لكل واحد من الآلهة، وعمالاً في ضيعته. وكان ذلك زمن البراءة البدائية ، عندما كان :

« الكون كله والشعب متحدا

إلى إنليل بلسان واحد قدموا الحمد ».

ولا يزال مفهوم السومريين عن زخارف وخصائص الآلهة، من بعض النواحي على الأقل، ينتاب الإنسان المعاصر. وعندما تتجلى الآلهة فهي مدركة تماماً لما يمكن وضعه في الإطار الإلهي الكلاسيكي فهم فوق البشر، وغير مرئيين، ولا يحدهم الزمان ولا المكان ، ويحكمون العناصر ومتعطشون للعبادة. ويتمثلون في الشكل الإنساني لكنهم ضخام وفي حلل متميزة، وفي حالة الآلهة الذكور ، عليهم قبعات مخيفة على ما يبدونوع من العمّة ذات القرون المصورة بلا استثناء على الأختام ، والتي هي أحد الأمجاد الثقافية السومرية (والأكادية فيا بعد) ، (مثل تلك التي تطبع على قرون ثيران.

ولقد سادت الآلهة الذكور في سومر ، والأم معروفة بالعديد من الأسماء، لكنها في أكثر أشكالها اقتداراً تدعى ننحرساك، وكانت أُمًّا عظيمة، لكنها لم تكن أبدا فائقة. وعلى عكس مصر، حيث في حالة الآلهة القديمة مثل بتاح، وحورس، وحتى أوزيريس ، من الممكن التخمين بشأن أصول إنسانية ملحوظة قليلاً ، أبطال أشداء تركوا ذكرى حكمهم

واضحة في وعي الشعب بأن رفعوهم إلى أعلى مرتبة يمكن أن يفكروا بها، بينما آلهة سومر أكثر جوهرية ومستبدين بقسوة، ولم يصلوا أبدا إلى الصفة الروحية لأكثر الآلهة المصرية غموضا ، " هو الخفي الاسم " أو بنبل آمون "غير المعروف" أوحتى الرحمة الفاترة فلسفيا نوعاً ما لآتون إله إخناتون .ولقد آمن علم الكون السومري أنه في البداية كان البحر البدائي ممثلا بأنثى، ويحتمل أن شكلها المحيطي يخلد انشغال السومريين أنفسهم بالبحر، وفي هذه الحالة مياه الخليج. ومن خلال فوضى المياه، ولد الجيل الكوني بتلك الصيغة واتحدت الأرض بالسماء في شخص إلهين عظيمين ، آن (An)، إله السماء، وكي **ki** إلهة الأرض .ونشأ عن اتحادهما انليل رب الهواء الذي أصبح عندئذ القائد التنفيذي للأنوناكي، «جماعة الآلهة العليا وملتقى جوقة الحمد التي يقدمها الشعب كافة» .

كان آن وإنليل مرتبطين بإلهين كبيرين آخرين هما إنكي، رب الهاوية وإله الماء، وأكثر جماعة الآلهة شعبية،وننحرساك سيدة الجبل الإلهة العظيمة . والأعضاء المهمون الآخرون في الأسرة الإلهية اشتملوا على آنو إله الشمس (الذي بقي اسمه الآكادي شمش في الكلمة العربية شمس)، ونانا إله القمر الذي أطلق عليه في وقت لاحق اسم سن ، وإنانة Innana إلهة الحب والشهوة عشتار- أفروديت. وكانت إنانة إلهة مبهمة إلى حد بعيد ، وتلطفت حين أصبحت الإلهة السومرية السامية عشتار تحت حكم البابليين ، ولكن كما نتبين من ملحمة جلجامش لاحقاً في هذه القصة، كان السومريون مترددين كثيراً بشأنها. ولدى إنانة جزء من الصلات الأسطورية المرتبطة بدلمون، ومن ثم بموضوع هذه الدراسة، فهي تقول عن نفسها: " أنا إنانة، المكان الذي تشرق منه الشمس" كما تحكي أنها "غسلت رأسها بنافورة دلمون " ربما إشارة إلى ينابيع المياه العذبة الكثيرة التي توجد في جنوب الجزيرة، وبشكل غريب في البحر ذاته الذي يفصل البحرين عن الأرض اليابسة الرئيسة في الجزيرة العربية. وكانت المياه الجوفية في شرق الجزيرة العربية ووسط الخليج عنصرا قويا من خلال إعطائها المنطقة سمعتها في القداسة، وتفضيل الآلهة الخاص لها .

إنكي

كان إنليل وإنكي أهم الآلهة جميعا لدى السومريين ، وكان يعتقد أن إنليل نوع من أنواع الرئيس التنفيذي الإلهي العبوس لكنه عادل في العادة. وكان إنكي الإله المحبوب محبة بالغة بين آلهة السومريين حيث إنه صديق الإنسان الذي جلب معرفة الفن والعلوم إلى الشعب ذي الرأس الأسود سابحاً عبر الخليج مصحوباً بالأسماك المبتهجة . وعيد تجلي إنكي موصوف وصفا رائعا:

« حين نهض إنكي نهضت الأسماك وعبدته

ووقف أعجوبة بين الأبسو (Apsu)

وجلب الفرح للإنكو (Enqu)

إلى البحر بدت آنو عليه،

إلى النهر العظيم بدأ الرعب يحلق حوله،

بينما في الوقت ذاته حركت الريح الجنوبية أعماق الفرات .

وعلى الرغم من أن دلمون كان لها آلهتها الحافظة الخاصة بها، أنشاك أو ننحرساك، حيث يوصف بأنه رب دلمون ، كان إنكي أول وأهم الآلهة . ولقد أشار البعض فعلا إلى أن تبجيل إنكي إله الهاوية وراعي الأسماك، يمكن أن يكون قد نشأ في دلمون وانتقل من هناك شمالا إلى الأراضي السومرية. وإذا كان هذا هوالحال، وكان إنكي الإله القبلي الأصلي للسومريين ، فإن ذلك من المحتمل أن يكون ذلك السبب في الاعتقاد بأنه جلب فنون الحضارة إلى سومر من دلمون ، ومن شأنه أيضاً أن يكون سبباً آخرا للتبجيل والمحبة اللذين كنهما الشعب أسود الرأس لدلمون على أنها فردوسهم الأرضي .

وكان إنكي محبوباً من السومريين بفعل التعاطف الذي أبداه تجاه الإنسانية، والاهتمام

اللطيف الذي بدا أنه يوليه للعنصر البشري. وكان أقل بعدا وإرهاباً من معظم زملائه، وأكثر ميلا للتصرف بصورة قابلة للتنسيق وبحسن نية تجاه الإنسان. وهوالأكثر ظهوراً من بين الآلهة العظام في النقوش في ذلك العصر، فهو يظهر فيما لا حصر له من الأختام وفي تجليات متعددة، وعلى الماء وفي بيته المصنوع من البوص (الذي يحمل تشابها بالبيوت التي يبنيها عرب المستنقعات حتى يومنا هذا) يصارع الوحوش مصارعة ودية، ويتلقى الاسترحامات .كما أنه ممثل أيضاً في إحدى أهم أنشطة الآلهة السومرية ، وهو الزواج المقدس الذي استمر الاحتفال به حتى فترة النينفيتي، حيث يمثل الملك دور الإله مزوجا لواحدة من نساء المعبد المقدس تمثل دور الإلهة . وفي العديد من تجلياته يترقرق جدولان من الماء البلوري من كتفي إنكي تخرج منهما مخلوقاته الأسماك مبتهجة. والماء جوهر إنكي الخاص، وبخاصة المياه العذبة المخفية تحت الأرض، والتي كانت إدارتها حيوية للسومريين. وفي نظرهم ركب إنكي مياه الخليج، ومن خلال تهيجها ملأ دجلة والفرات فجلب الرخاء والوفرة على شعبه.

وإنكي إله مكان سكناه الهاوية، بعيداً عن مثوى البشر، اسمه يعني الأرض، وبه يوحي بسيادته على العالم . وفي أحد الأوقات تحدى إنكي إنليل رب الهواء الذي أصبح عندئذ رئيس الأنوناكي تحت ملكية آن البعيد. وكان يعتقد بأن (آن) خالق الكون المادي الذي انسحب إلى السماوات العليا بعد أن خلق العالم.

وسبب فقدان إنكي لأسبقيته غير مؤكد، لعله ما أن استقر السومريون في وجودهم على الأرض ولم يعودوا معتمدين على البحر بصورة قطعية إلى هذا الحد (وهو أمر معقول ويستدل على صحته بالقرابين التي كانت تكوم على محراب إنكي في إريدو والشباك التي كانت تعلق حولها) حتى أصبحوا أكثر وعيا بقوى الريح الغامضة، والعواصف، والأمطار التي كانت تسقط بغزارة على الأنهار والأهوار التي استقروا عليها. وحل محل إله المياه العذبة والأسماك الأكثر لطفا آلهة جوهرية وعنيدة كان سدنتها جالبي العواصف والطوفان .

ولكن من المحتمل أن إنكي هو أقدم الآلهة الذكور الذي نعرف اسمه. والمزار الصغير في مدينة إريدو المكوم أكواماً عالية من قرابين مخلوقاته الأسماك ، هو أقدم المعابد التي يمكن تعرّفها على هذا الأساس ، وكان إنكي بالمصادفة، الإله المسئول عن تعليم مخططات المعابد الأرضية

إنكي ونظام العالم

يصف نص قديم، إنكي على أنه والد إنليل، مما يوحى انه كما حدث ثانية في الأيام البابلية مع مردوخ، والثلاثي أورانوس، وكرونوس، وزيوس، فإن بمقدور الابن أن يكون أعظم من الأب. ويوجد أيضاً أسطورة أخرى باقية تظهر إنكي – و الآن هنا كأب – على أنه كان الإله الخالق الأصلي ، ويبدي انتباها متيقظا ومرحا لاحتياجات الأرض كافة. وتصف أسطورة طويلة ومعقدة "إنكي ونظام العالم" إحلاله المرح للنظام وبركاته لبني البشر والحيوانات وأراضي ومدن سومر. وتخصص المسئوليات من قبل إنكي لجميع الآلهة من المرتبة الدنيا الذين لديهم السلطان في وظائف محددة أو عناصر محددة، أو أقسام من الاقتصاد.

وتعطى الأسطورة الانطباع عن الحماس الفوار من جانب إنكي، وتركز سعادته بالعمل الذي قام به. ويعلن إنكى عن ألقابه الألوهية على النحو التالي:

أنا الابن الأول لآن ... أنا رب الأرض.

أنا والد جميع الأراضي

أنا الأخ الأكبر للآلهة

أنا حافظ سجلات السماء والأرض

أنا زعيم الأنوناكي

ويتحول إنكي إلى إدارة الأرض، ومن بين أول البلدان التي يباركها مجان ودلمون :

أراضي مجان ودلمون

انظرا إلى إنكي،

ليتحرك قارب دلمون إلى الأرض

محمل قارب مجان إلى السماء

وكانت مجان في عهود السومريين – على أكبر احتمال – موجودة على ساحل عمان وربما أيضاً على ساحل مكران عبر الخليج.

وتتلقى سومر ذاتها لاحقاً بركات إنكي ويعلن أمجادها. وتحتفى الآلهة بأور التي قرر مصيرها إنليل، وملوخة، ولعلها المناطق الساحلية لباكستان المعاصرة، إلى جانب مدن وادي السند، ثم عودة إلى دلمون :

نظف وطهر أرض دلمون

وأعهد بها إلى ننسيكيل

يأكل السمك .... يأكل تمورها.

وتبريك إنكي لدلمون تبريك سخي بصفة خاصة، ويعطيها تمثلا قويا بالبحر مؤكدا على اعتماد الأرض على الثمار والبحر، إلى جانب المنتجات الزراعية :

ليجلب لك البحر وفرته،

المدينة– مساكنها جيدة،

دلمون– مساكنها جيدة،

شعيرها شعير صغير ،

وتمورها كبيرة جداً،

وفي وقت متأخر من الألف الثاني ق. م، بعد زمن طويل من اختفاء السومريين إلى الأبد، كانت تمور دلمون لا تزال مفضلة لدى حكام بلاد ما بين النهرين. وكانت أيضاً سبب ارتفاع معدل تسوس الأسنان بين سكان البحرين.

ومن بين أولئك الذين يستدعي إنكي قوتهم آتو إله الشمس الذي يسكن دلمون ويمكن استذكار أحد ألقاب أرض الفردوس في الفقرة التالية التي تمثل فيها دلمون بالعبارات نفسها على أنها الإلهة إنانة:

البطل، النور الذي يأتي من الغابة،

الذي يزمجر كالأسد،

آتو القوي، الثور الذي يظل آمنا،

الذي يستعرض قوته باعتزاز،

أبوالمدينة العظيمة، المكان الذي تشرق منه الشمس،

البشير العظيم لآن المقدس،

القاضي صاحب القرار بين الآلهة،

الذي يرتدي لحية من اللازورد،

الذي يأتي من السماء المقدسة،

آتو الابن المولود من ننجال،

عينه إنكي مسئولا عن الكون بكامله.

وفي بعض الأساطير التي بقيت والتى تروي أعمال الإله السمكة تظهر إنكي على ما

يبدو شخصية سيئة السمعة قليلا، بل وحتى شخصية ضئيلة القدر. ولكن على ما يبدو أحبه السومريون بينما خافوا من الآلهة الأخرى. وفي إحدى أهم وأكمل الأساطير القديمة يرتبط إنكي ارتباطاً كاملاً بدلمون لأن القصة تبدأ من تلك الأرض قبل خلق الزمان، فدلمون من الأصل هى موطن إنكي.

إنكي و ننخرساك

وتتعلق هذه الأسطورة إلى حد ما بالعلاقة المشحونة والمعقدة بين إنكي وننخرساك، أحد تجليات الإلهة العظيمة الرهيبة البدائية التي بقيت حتى عهود السومريين. وعندما خضعت سلطتها العليا لسلطة الآلهة الذكور، وصفت دلمون وصفا رائعا على أنها أرض الفرح والسلام التي كان خلقها نجاحاً صريحا، وكانت ننسينكيل إلهة حافظة لدلمون، واسمها يعني الملكة النقية:

الأرض دلمون مكان نظيف، الأرض دلمون مكان مشرق

هوالذي بمفرده واضع نفسه في دلمون،

المكان الذي بعد أن أضجع إنكي نفسه بجانب زوجته،

ذلك المكان نظيف، ذلك المكان مشرق،

هوالذي بمفرده أضجع نفسه في دلمون،

المكان الذي أضجع إنكي نفسه بجانب ننسينكيل،

المكان نظيف، المكان مشرق،

في دلمون لا تصيح الغربان،

الحدأة لا تصدر صرخات،

الأسد لا يفترس،

والذئب لم يسرق أي حمل،

ولا وجود للكلب الذي يقتل الأطفال،

ولا الدب الذي يلتهم الحبوب،

الطير في الأعالي، وليس فراخها،

الحمامة ... وليس الرأس،

ومريض العين لا يقول أنا مريض العين،

ومريض الرأس لا يقول أنا مريض الرأس،

والمرأة العجوز لا تقول أنا امرأة عجوز،

والرجل العجوز لا يقول أنا رجل عجوز،

وليس في المدينة فتاة غير طاهرة،

ذاك الذي يعبر النهر لا يقول.....

والمراقب لا يتلفظ....

والمغني لا ينطق بالنواح

وبجانب المدينة لا يطلق صوته بالعويل.

وثمة شيء واحد فقط يشوه الحياة على ما يبدو في الأرض السعيدة، وهوالافتقار إلى الماء العذب، ولكن التعايش بين ننسيكيل وإنكي سرعان ما يتغلب على هذا النقص. فننسينكيل الآلهة العملية، وإن كانت انتهازية إلى حد ما، تقنع إنكي الهادئ الدمث الخلق – من الواضح في حالة بعد الجماع – بتوفير الماء اللازم للمدينة. ويقوم فورا باستدعاء آتو إله الشمس

ليجعل الماء العذب يتدفق. ويقوم بذلك و ليتحقق في دلمون كل ما هوممكن لمتعة الناس.
وحتى الاقتصاد يتحول:

مدينتها تشرب ماء الوفرة،

دلمون تشرب ماء الوفرة،

آبارها ذات ماء أفضل، انظر وقد أصبحت آبار ماء جيد،

حقولها ومزارعها تنتج حبوبا جيدة،

انظر، لقد أصبحت مدينتها بيت ضفاف وأرصفة الأرض.

الترجمة البديلة للسطر الأخير تجعل دلمون مكان اجتماع الآلهة، وفيما يتعلق بالسومريين، مكان أصلهم. وتشير قطعة من لوح بالخط المسماري عثر عليه في آشور، عاصمة المملكة الآشورية التالية الملطخة بالدماء إلى أن E-karrara، "بيت الرصيف"، كان اسما لمعبد في دلمون. ويمكن تذكره من السطر الأخير من الفقرة السابقة، ويمكن أن يكون متسقا مع انشغال السومريين بالتجارة أن يقتضي تخليد أرصفة دلمون التجارية حتى في مضمون ترنيمة مديح لأرفع الآلهة.

والآن، على أية حال، تنحو القصة مَنْحَى آخر، ويدخل عليها عنصر غريب مشئوم. ومن الواضح لا ينبغي أن يكون هنالك مكان موهوب بهذا القدر مثل دلمون بغير نباتات وبغير منافع الزراعة. ويواصل إنكي ذلك بإدخال سلسلة من عمليات الحمل المعقدة والمعوقة في أجيال متتالية من إلهات النبات التي خلقت لهذا الغرض.

وتبدأ العملية بالأُم العظيمة ذاتها ننحرساك التي تساوي تسعة شهور حملها تسعة أيام بشرية. وابنتها ننسار سرعان ما يضاجعها إنكي الذي لا ترهقه ولا تعيقه حقيقة كونه يتعامل الآن مع حفيدته، و ينجب آتو إله النبات من ننهور.

وتعود الإلهة ننحرساك التي يبدو أنها كانت غائبة في أثناء عمليات الحمل المتتالية هذه، إلى الأرض المبذورة بالإلهات وتتولى دوراً سيئ الطالع في العملية. وتقدم لآتو نصيحة

مفيدة عن المسار المشابه لعلاقتها مع إنكي الذي لا يزال متورما. وما تقترحه لسوء الحظ مفقود من اللوح المحتوي على الأسطورة، ولكن آتو، كأية حفيدة مطيعة، تعمل بنصيحة ننحرساك بجدية، ونتيجة لذلك تلد بسرعة وإن كان غير متوقعا، تسع نبتات بدون مساعدة إنكي. وعلى ما يبدو الآن واضحا فقد أنهك الإله رغم طبيعته الإلهية من جراء المجهودات التي كان يقوم بها بهذا القدر من الإلحاح في خدمة الزراعة، ويضطجع متمددا في أرض المستنقعات، ومعه مرافقه اسمود (Isimud) ومنه يعلم اسم كل واحدة من النبتات التسع التي ولدتهن آتو. وكلما ذكر اسمود اسم النبتة قام إنكي بأكلها. هل في هذا ما يبشر هنا بالأساطير الأخرى التي وصلت إلينا عن هذه الجنة السومرية: الأسطورة العبرية عن الفاكهة المحرمة*، والقصة اليونانية عن التهام كروتس لأبنائه؟ ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن إنكي وهو يضطجع وحيدا في المستنقعات يقوم بالاستمناء، مثله مثل آتوم الإله المصري الخالق الذي جاء في أحد التفسيرات المصرية لعملية الخلق، انه بصفته الكائن الفريد، كان مجبرا على اللجوء إلى هذا الإجراء للشروع في توالي ولادة الآلهة، والذي أدى في نهاية المطاف إلى خلق الأجيال الأولى منها.

وعندما التهم إنكي النبتات جميعها، تعود تنحرساك ثانية، وفي هذه المرة شرسة غاضبة وفي حنق كالدوامة تلعن إنكي لأكله النبتات " وتقول: حتى تموت لن أنظر إليك بعين الحياة" وتختفي مليئة بالغضب، ويصاب إنكي بمرض عضال يؤثر في تسع أعضاء في جسمه، وكل نبتة أكلها انتقامها من عضو مختلف. ومن الممكن أيضاً (وإن كان محيرا) أن إنكي حمل من منيه ذاته في هذه المرحلة من القصة، ومرة أخرى معيدا إلى الأذهان موازيا مصريا، وهوحكاية الصراع بين حورس وسيت حيث يحدث شيء ليس ببعيد الشبه. وثمة سمة غريبة في آلهة سومر، وهي الميل إلى التحطم قطعا في وقت الشدة. وتظهر أسطورة الطوفان إلى أي مدى يمكن أن يتصرفوا بسوء حين تصبح الأمور صعبة حقا. فالآلهة العليا

---

* أكل سيدنا آدم وزوجته حواء من الشجرة ليس أسطورة كما يزعم المؤلف ومحاولاته المتكررة بجعل أساطير سومر هي المنبع والأصل لمعتقدات الديانات السماوية التي بعث الله بها الأنبياء والرسل تبعده عن منهج البحث التاريخي وقواعده المقررة وبالتالي فما يقوله هنا زبد يذهب جفاءً لا قيمة له. (د. السقاف) .

تصبح مُثْبَطَة الهمة، فها هوإنكي القوي وقد هزمته تنحرساك، فيقعون في قنوط عميق بيأسهم و ضعف حيلتهم.

ويدخل عنصر جديد في الأسطورة عند هذه النقطة. فقد كان السومريون على ما يبدو مغرمين بالحيوانات، وكانوا أول شعب يدون قصصا تلعب فيها الحيوانات دورا إنسانيا كتلك التي أعطاها إيسوب* اسمه لاحقا، وبالترتيب نفسه لتلك التي في المشاهد الحيوانية الكرتونية الساحرة والتي وجدت في مصر كما أن لها مقابلات سومرية عديدة. وفي هذه الحالة، الثعلب – وهو ليس ذلك المخلوق المشهور عادة بدهائه وحيله في القصة الخرافية السومرية– هو الذي يتولى زمام المبادرة في حالة مرض إنكي.

وإذ وجد الآلهة البائسة تراقب رفيقهم الإلهي غارقاً فيما بدا بصورة مريبة وكأنه الفناء، يَعرض الثعلب إعادة تنحرساك لعلها تشفي إنكي. و لأن إنليل رب الهواء وأمير الآلهة لا يستطيع التفكير فيما هو أفضل فإنه يبادر بقبول عرض الثعلب.

عند هذه النقطة يصبح النص غير قابل للتفسير، ولا نعلم بأي وسيلة يقنع الثعلب تنحرساك بالعودة، لكنها تعود بالفعل وتوافق على علاج إنكي التعس عن طريق ما يبدو أنه مسألة روتينية بالنسبة للإلهات السومريات) إنجاب سلسلة من الآلهة كل منها تعمل كبلسم لواحدة من علل إنكي. وتتوالى ابو، ننتول، نينول، ننسوتو، ننكازي، نازي، دازيميرا، ننتي، وإنشاك، متدفقة من رحم الإلهة الولود، وبعد أن شفت العضوالمناسب من جسد إنكي تعين كل منهن حامية لأرض معينة أو تزوجها بآخر. ثم تقوم تنحرساك بوضع إنكي قريبا من فرجها وتعجل شفائه، فيعود إنكي لكامل قواه وتنتهي القصيدة بالتسبيح له.

وفي التوالي لشفاء إنكي فإن للإلهين الأخيرين اللذين تنجبهما تنحرساك، وهما ننتي وإنشاك، أهمية خاصة في المحتوى الحالي. ولقد ألمح كرامر إلي أن ننتي يمكن أن تكون

---

* Aesop اسم لكاتب إغريقي مفترض،وعلى الأرجح مُخْتَرَع،لقصص أسطوريةتدور حول الحيوانات. (د.السقاف)

حواء «الأم الأولى» في الأسطورة الأصلية الوارد ذكرها في سفر التكوين ،وهذا يوحي بصلة بعيدة بين أسطورتي الفردوس*

وإنشاك ليس واحداً من الآلهة العظام في سومر، ومع ذلك كان لديه دور حيوي في تمييز دلمون والبحرين. ولاكتشاف النص المسماري الرئيس للجزيرة مع ذكره لهذا الإله مكان في قسم لاحق من هذه الدراسة.

ولقد عثر على نص في سيثيريا في بحر إيجة البعيد عن جزر الخليج يشير إلى إنشاك، وهو مكتوب بصيغة مسمارية قديمة، ويبدو أنه يشير إلى الإله إنشاك والإلهة لخامون آلهة تلمون الذي كما يقول النص: " ملك تلمون نارام–سن ابن ابيق –اداد، ملك تلمون ، من أجل حياته قدم قربانا."

ونارام – سن ليس ملك سومر وآكاد الذي كان حفيد سرجون العظيم، ولكن من الواضح أنه كان حاكم إشنونه حوالي سنة ١٨٣٠ ق .م . ويبدو أن أبيق–أداد غير معروف. والذي جاء بهذا النقش الغامض بهذا القدر إلى جزيرة في بحر إيجه البعيد هذا البعد عن جزيرته التي يفترض أنه نشأ عليها أمر غامض تماماً.

إنكي و أوانس

كان إنكي إلها سمكة ، وقد سبق تدوين واستعداد السمك الساحر لعبادته . وإحدى أكثر الأساطير جدارة بالملاحظة بالتأكيد أقدمها المرتبطة بالخليج وأصول المعرفة تتعلق بإنكي في تجل غريب كمخلوق نصفه سمكة ونصفه الآخر إنسان ويدعى أوانس، نسخة هيلنستيه عن الاسم السامي عيا.

ويظهر إنكي – بلا جدال – في الهيئة الإنسانية في فن بلاد ما بين النهرين ، وكانت

---

* تتكرر تلميحات الكاتب إلى أن الأديان ، في رأيه، مجرد تطور طبيعي لأساطير قديمة؛ فليكن هذا شأنه(صالح) .

الأسماك المقدسة بالنسبة له تشكل نتاجا مشهورا للمجتمعات التي انتعشت في الخليج من القدم، وفي بعض الأحيان يتجلى إنكي في بدن ، وكان قاربه الذي يصور فيه مرارا يطلق عليه " بدن ابسو" . وتوجد قصة أوانس في أعمال بيروسوس الذي كان من معاصري الإسكندر الأكبر وكان كاهناً من كهنة "بل" في معبد بابل العظيم. ولا يبدو أنه كان رجلا مشهورا ، كما لا يبدومن الحكم من أجزاء من «بابليونيكا » التي كتبها والتي بقيت في مقتطفات مقتبسة في أعمال رجال آخرين، رجلاً موهوبا بصفة خاصة. ونال سيرة بعد موته مجدتها وخلدتها أيادي كتاب الأساطير، بما في ذلك أُبوته لسيبيل الإيريثري.

وكان بيروسوس بابلياً من أصل يوناني ، وكان معجبا بالأشياء الإغريقية ، وسعى إلى التوفيق بين تاريخ شعبه وتاريخ السادة الجدد للعالم. وكتب باللغة اليونانية ذات القدم الهائل وغير المقبول بالقدر ذاته ؛ وقد حفظت في بابل واشتملت على أصول شعبه وانتقال الفنون الحضارية إليهم عن طريق مخلوقات غريبة طموحة تجلت في الخليج، وتضمنت قائمة بأسماء الملوك ممن كانوا قبل الطوفان وحتى الإسكندر. ويوحي بيروسوس بأنها احتوت على " تواريخ السماء والأرض، والبحر والميلاد الأول، والملوك وأعمالهم" .

تظهر المخلوقات الغريبة والغامضة التي يتحدث عنها فجأة، وتلحق نفسها بالجنس البشري، شارعة في تعليمهم المعرفة كلها. وقائد فريق الوحوش التعليمي وحش يقال له أوانس الذي " يظهر من البحر الإيرثري في مكان مجاور لبابل. وكان جسمه جسم سمكة، لكنه برأس إنسان، وقد نبت بين رأس السمكة ورأس الإنسان أقدام إنسان من ذيل السمكة" . وكان له أيضاً صوت إنسان . ولا تزال له صوره محفوظة حتى اليوم. وقضى هذا الوحش الأيام مع الناس، لكنه لم يتناول أي طعام، وعلم الناس الحرف والعلوم والصناعات من الأنواع جميعها، كما علمهم تشييد المدن وإقامة المعابد وإدخال القوانين وقياس الأراضي . كما كشف لهم أيضاً البذور وجمع الفواكه. و بشكل عام أعطى الناس كل شيء له صلة بالحياة المتحضرة . ومنذ وقت ذلك الوحش لم يكشف أي شيء آخر،

لكنه حين غابت الشمس، غاص الوحش أوانس عائدا إلى البحر، وقضى ليلة في الأعماق لأنه كان برمائيا، وبعد ذلك ظهرت وحوش أخرى . ويقول بيروسوس أنه سيناقش هذه الأمور في كتاب الملوك وكتب أوانس عن الميلاد والحكومة وقدم التقرير التالي للبشر.

ثم يصف أوانس بنفسه " الوقت حين كان كل شيء ظلاما وماءً" . وظهرت وحوش غريبة، وجاءت أنواع المخلوقات كلها ، لتحكمها امرأة أسموها أموركا. ثم نهض الإله العظيم "بل" وشق المرأة إلى شقين، ودمر أشكال الوحوش، وخلق الناس القادرين على تحمل الهواء.

وكان الكتاب الثاني بين كتب بيروسوس هو « كتاب الملوك » ، وفيه يسجل أسماء ملوك بابل من بداية الأشياء. وأقدم الملوك حكموا لعدة آلاف من السنين، وكان في معيتهم معاونون ومستشارون من مخلوقات أخرى مثل أوانس الذي طلع من الخليج. ويعطي بيروسوس أسماء هذه المخلوقات التي كانت تعرف جماعيا باسم ابكالو (Apkallo)، العبارة التي يمكن أن يكون معناها "حكماء" ، وكانوا مزيجا من الرجال والسمك.

الملوك هم الحكام الأسطوريون الذين جاؤوا قبل الطوفان، وآخرهم زيوثروس ، وهو شخصية من الأساطير الإغريقية، واسمه هوالصيغة المحولة إلى الهيلينستية من زيوسودرا البطل السومري في قصة الطوفان في ملحمة جلجامش.

ويصف بيروسوس الطوفان، ويقدم الإنذار باقترابه الوشيك إلى زيوثروس من كرونوس المعادل الإغريقي لإنكي. ويضيف قصة صغيرة غريبة تهدف إلى وصف مولد جلجامش وإنقاذه من الموت المبكر بوساطة نسر، وتربيته مثل سرجون العظيم على يدي بستاني.

والأحداث التي يرسمها بيروسوس هي كما يقول ، مبنية على سجلات تعود إلى أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ سنة . وهذا يمكن إسقاطه تماماً ، لكن هذا الوصف للرجال الأسماك ، الأبالكو، القادمين إلى بابل من الخليج أسطورة ساحرة، إن لم تكن أي شيء غير ذلك، تحفظ إيمان البابليين وأسلافهم السومريين بأن حضارتهم نشأت من البحر السفلي ، المكان

الذي تشرق منه الشمس.

وأوانس وحاشيته هم إنكي ورفاقه بكل وضوح. وحتى كهنة إنكي /عيا في وقت متأخر نسبيا كانوا يصورون وهم يرتدون أزياء تظهرهم كأسماك مع لباس رأس سمك فوق رؤوسهم ، وبذلك يشخصون بصورة مقنعة هيئة الأبالكو التي يصفها بيروسوس.

أما بالنسبة للأبالكو أنفسهم ، فلم يبق ولا واحدة من العروض (بحدود علمنا) التي يشير إليها بيروسوس. وعلى أية حال، هنالك مجموعة من التماثيل الغريبة الصغيرة ، من مصدر غير معروف، يبدو أنها جاءت من مستويات قديمة في مواقع مدن إيرانية جنوب غربية. و هذه على هيئة رجال تغطيهم حراشف السمك (وإن كان فيما عدا ذلك على هيئة البشر)، وكل منها يحمل ندبة عميقة في وجهه. وهذه التماثيل الصغيرة مصنوعة على أقسام وهي قوية بصورة ملحوظة ولا تشبه أي شيء آخر في سومر أو عيلام المبكرة . وسواء أكانت فعلا الأبالكو أم لا فالعلم عند إنكي.

ويوجد أقدم المعابد المكتشفة في بلاد ما بين النهرين في إريدو، وكان مخصصا لإنكي. ويعود تاريخه إلى العهود العبيدية، وهوحرم بسيط مبني على الرمال البكر ، كما أنه أقدم المعابد السومرية. جميعها، وقد بني فوقه سبع عشرة بناية متتالية كل واحدة منها أكثر تفصيلا من سابقتها، وقد بلغت الذروة في زقورة عظيمة من طراز الألف الثالث ق. م ، وهي بناء رائع أقيم لتمجيد إنكي بعد ما أدخل مزار العبيد الصغير عبادته بنحو ٢٠٠٠ عام.

كان في الحرم الصغير محراب مكدس بقرابين بعمق ١٥سم من عظام السمك، بقايا أضحيات وضعت هناك قبل أكثر من ٥٠٠٠ عام، وكانت أسماك الفرخ البحري مخلوقات من مياه الأهوار المالحة. وكان إنكي أيضاً مكرما كثيراً من قبل البحارة الذين خطبوا وده بإلقاء أنفسهم على رحمة غير مؤكدة لمياه مملكته . وإذا كان من الممكن أن تكون إنشاك – إنزاك تجليا لإنكي نفسه فإن الرأى الذي يذهب إلي أن عبادته في البحرين قد سبقت ديانته في سومر قابل للسند. واستناداً إلى رولينسون، أقر البابليون بتلقيهم كل معرفتهم "

من سكان الجزر الغامضة في الخليج الفارسي" - والذين - من حيث كون البابليين الخلفاء الثقافيين المباشرين للسومرين المجيدين، بكل وضوح لم يفعلوا. وبالنسبة للسومرين أنفسهم فإن المسألة مختلفة تماماً، على أية حال. وتبدو الآلهة السومرية في أحسن أحوالها في محتوى مقر جمعيتهم، أرض العبور والتي كانت دلمون. وبعد كارثة الطوفان قيل إنهم احتشدوا حول الأضحية، التي قدمها لهم الناجي الأول زيوسودرا، " مثل الذباب" وهو تشبيه غير مستاغ نوعاً ما لكنه يكشف الفكرة الثابتة لتواضع الهتهم التي احتفظ بها السومريون، ولكنهم أيضاً تحلقوا حول أرض دلمون المقدسة الأصلية، التي تنحدر من أسطورتها أساطير الغرب الأخرى كلها. وفي هذه الأساطير يظهرون كوجود هائل، أشكال عظيمة إن لم تكن ملموسة كان لها أن تمارس تأثيرا عميقا في العالم، وعلى قدر من العمق لدرجة مكنتها من الصمود خمسة آلاف سنة منذ أن بدأ الشعب الذي اخترعها يملأ عالمه بروايات من اختراعهم بتناول شؤون البشر. والعالم المعاصر حين يأخذ مثل هذه المسائل بالاعتبار، يستمد وحيه بشأن الأمور الإلهية من الإيمان الهائل العظيم الذي صاغ المجتمع على مدار الألفي سنة الماضية. ومعتقدات الأديان اليهودية والمسيحية والإسلامية جميعها تستمد إلهامها من مصدر مشترك، وإن لم يكن قطعياً بالطبع، وضعت بداياته في شعب جنوب بلاد ما بين النهرين، وكانت دلمون لأولئك الناس أرضا سحرية، مكان جنيات، نصفه حقيقي، ونصفه خرافة. هذه كانت جنة عدن، مكان الأصول، ولم يكن هنالك سقوط في الخطيئة مع ذلك*؛ فكل شيء في دلمون كان نقياً وصامداً، وليس مفاجأة أن يكون وجودها بذاته قد نسي لهذا المد الطويل. ولكن الحقيقة تظل أنه بدون هذه الجزيرة والأساطير التي حملتها لكان العالم غير المكان الذي هوعليه، ولا كان الناس قد آمنوا بما آمنوا به قبل ثلاثة آلاف سنة على الأقل.

---

* يخلط المؤلف في آرائه وأحكامه ونتائجها فيجعل من أساطير سومر المنبع الذي استمدت منه الأديان السماوية معتقداتها ولا يكتفي بذلك بل وينفي ويرفض ما يخالف تلك الأساطير،وما يقوله في هذا الصدد لا يمت للبحث التاريخي المنهجي بصلة وبالتالي لا يلتفت إليه. (د. السقاف).

الفصل السابع

البحرين

الأرض المباركة

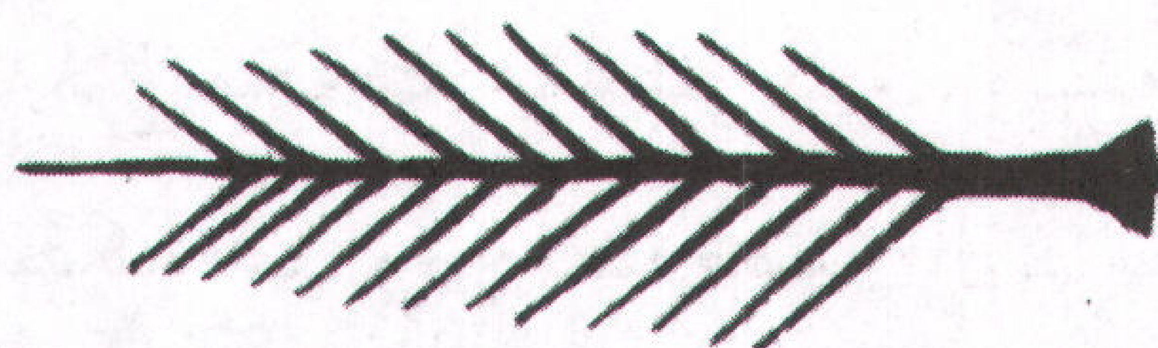
حين قام القبطان ديوراند بزيارة البحرين في شتاء عام ١٨٧٨-١٨٧٩ قام بفتح أكوام روابي القبور المحيرة التي عمت منطقة عالي الواقعة بالقرب من القرية التي تحمل الاسم نفسه، وبحماس بالغ قام بإبلاغ حكومته عمّا عثر عليه . ويبدو أنه قد وجد في أحد القبور جداراً يعرقل المزيد من الاستكشاف، ومن شدة ضيقه قال: " سوف نقوم بنسفه."

على أية حال، فإن عملية نسف القبور ليست بالإجراء المناسب في مساهمة القبطان ديوراند لكشف التاريخ القديم لجزر البحرين، لأن كشفاً واحداً تم بأسلوب اعتباطي في تلك الأيام كان لا بد وأن يكون ذا مغزى حاسم في إثبات الدور الذي كانت قد لعبته البحرين في التاريخ السابق في جنوب غربى آسيا، وبالفعل في الإدراك المتنامي لمدى تاريخ الإنسان. وعثر ديوراند على حجر من البازلت الأسود نقش عليه بالخط المسماري، وهذا واحد من الأمثلة القليلة على النقوش القديمة التي اكتشفت حتى الآن في البحرين ، وبلا جدال أكثرها أهمية.

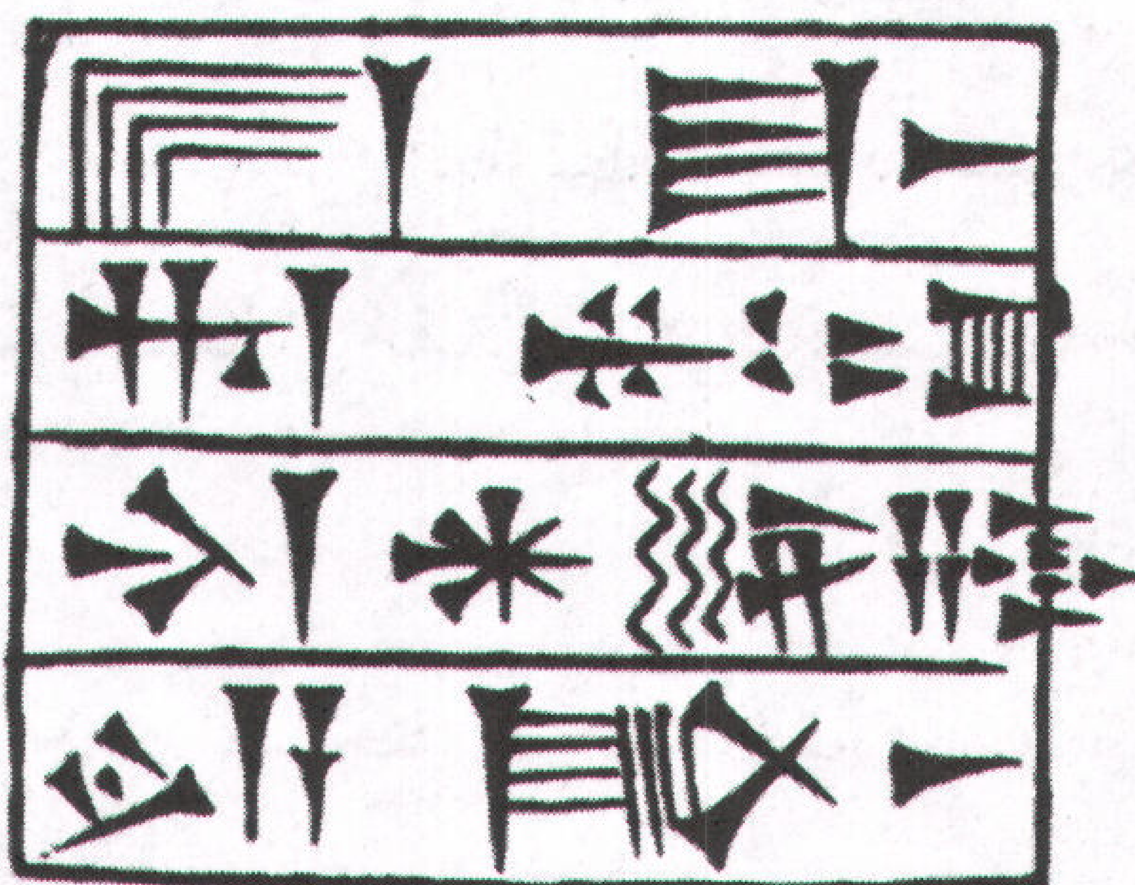
وكان النقش مطموراً في جدار لمسجد في بلاد القديم ، عاصمة البحرين القديمة، ومنها مسجد سوق الخميس ، البناء الجوهري الوحيد الباقي، وقد أعيد ترميم الكثير منه الآن. وكان حجر ديوراند بطول ٦٢ سم تقريبا، ووصفه مكتشفه بأنه يبدو مثل مقدمة قارب أو لسان حيوان، وقيل أيضاً إنه كان يبدو كالقدم. وباتجاه الطرف الضيق من الحجر نقش سعف نخيل عمودي. وإلى جانب هذا الغصن " مربع" احتوى على أربعة أسطر من النقوش بأسلوب الخط المسماري الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر ق.م في عهد الإمبراطورية البابلية الأولى تقريبا في الوقت المعاصر لحمورابي، المشرع العظيم. " وكان



رسم لحجر ديوراند



فرع من سعف نخيل منقوش على حجر ديوراند



الشكل ذاته بالآشورية

٧-١ (أ) «نقش ديوراند» المكتوب بالخط المسماري الشائع القديم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

الخط البابلي المسماري القديم قد أصبح حينذاك الخط الشائع عند معظم المسئولين في بلدان الشرق الأدنى والمراسلين التجاريين وللإنتاج الأدبي لورثة الحضارة السومرية من البابليين والآشوريين (شكل ٧-١)

نقش ديوراند

في تقريره إلى دائرة الخارجية لإدارة نائب الملكة في كلكتا، نسخ ديوراند النقش الذي على الحجر بوساطة "استمباج" صنعها في الموقع. وحاول راولينسون الترجمة عن نسخة كلكتا التي لم تكن بحالة مقبولة ، ومن الواضح أنه لم تتح له فرصة مراجعتها.

ويمكن القبول بأن الحجر من البحرين ذاتها، ولعلها الكسرة الأخيرة التي بقيت من قصر أحد كبار التجار في الجزيرة. ومن كان " ريموم" ، لا أحد سيعلم أبدا ، ولكن على الأقل فإن عمله الخالص في تضرعه إلى الآلهة قد ضمن له نصيبا صغيرا من الخلود. ويقرأ النص كالتالي:
"قصر ريموم، خادم إنزاك من قبيلة أجاروم"

ويقدم ذكر قبيلة ريموم المسماة أجاروم مثالا على الاستمرارية غير العادية التي يمكن أن توجد بين الشعوب الذين بقيت طريقتهم في الحياة تقليدية وقبلية بصفة عامة. ولقد ذهب البعض إلى أن " أجاروم" مخلدة في " هجر " ، كما كان يطلق على مقاطعة الأحساء في شرق الجزيرة العربية والبحرين في العصور الوسطى، حيث ولا تزال هناك قبيلة من القبائل الرحل تدعى "بني هاجر" ، وتمثل هذه القبيلة ظاهرة مثيرة للاهتمام حيث تظهر في لحظات هامة من التاريخ، ويبدو أنها من القبائل العربية التي دخلت في المسيحية في عصر ماقبل الإسلام بعد أن تحركوا إلى الشمال ، وكانوا موجودين أثناء سقوط* القدس

---

* يشير بذلك إلى فتح المسلمين لبيت المقدس سنة ١٥ هـ في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .وأما جعل المؤلف للقبيلة المذكورة إمتداداً لـ"أجاروم" القديمة فلا يعدو كونه افتراضاً لا ينسجم مع معرفتنا بتطور الخارطة القبلية لسكان الجزيرة العربية عبر العصور .(د. السقاف) .

عندمااستولى عليها الخليفة عمر في القرن السابع الميلادي.

الإله إنشاك – إنزاك

كان إنشاك الصيغة السومرية لإنزاك الذي يميز المرحلة الأخيرة من سلسلة الولادات التي تمت في دلمون، ومبينة في أسطورة إنكي و تنحرساك (الفصل السادس). وكان واحداً من الآلهة الرئيسة لسكان البحرين القدماء ، وفي الأسطورة المشار إليها، يصبح " رب دلمون " ، ويقال إنه يسيطر على العقل والحكمة، وهذا جانب من الاهتمام الذي ورثه كما هو واضح عن أبيه إنكي. وقد كرست له المعابد في مدن سومرية وعيلامية ، وكان يعبد في العصور البابلية باسم نابو، وأصبح لاحقاً عضواً مهماً في جماعة الآلهة . واستناداً لرولينسون ، فهو الإله الممثل في السماء بكوكب المريخ ، أقرب أبناء الشمس وإله ذو قوة وغموض في العالم القديم. وبالمصادفة، كان السومريون يطلقون على الكواكب "الكبار الذين يتجولون" تمييزاً لها عن النجوم " الصغار المبعثرة كالحبوب. "وكلا التشبيهين جميل!

كان إنشاك–إنزاك – المريخ الإله " المعتم " ، إلهاً حكيماً ولينا ، ولقد ترجم اسمه (مرة أخرى على يدي راولينسون) على أنه يعني" الرب الأدنى " ، لعله يشير إلى موقعه وموقع المريخ في النظام الشمسي. وهناك شيء من الدليل على أن أحد رموز إنشاك – إنزاك كان شجرة النخيل، وتظهر بارزة على حجر ديوراند حيث تحظى بأهمية خاصة، كما أنها أيضاً محفورة بشكل متكرر على الأختام الخليجية (انظر الفصل التاسع)، ومن المحتمل أنها كانت صورة رمزية تمثل اسم الإله. وفي النهاية، واستناداً إلى الأسطورة المشار إليها آنفا قيل أن زراعة شجرة النخيل نشأت في الخليج ، ويعتقد رولينسون أن اسم البحرين القديم ربما كان يعني الجزيرة المباركة.

وأشار رولينسون إلى حقيقة أن هيرودوت قد أشار في "التاريخ " إلى أساطير

الفينيقيين حول أصولهم، وقد عزوا بها منشأهم إلى جزر في الخليج. وإذا كانت هذه الأسطورة تحمل أي قدر من الصدق ، فإن قدرة الفينيقيين المشهورة في فن التجارة والملاحة يمكن أن تعزى إلى أصلهم الجزري بقدر معقول، ذلك لأنه إذا كانت جزر الخليج قد شهدت بداياتهم فقد جعلوا من لبنان وسوريا مقرهم النهائي ، وهي أهم المراكز التجارية في العالم القديم.

ولعله من غير الحكمة الاستناد على رواية لهيرودوت وحده. ولكن يمكن القول في كثير من الأحيان إن الشعوب في العصور القديمة قد قطعت بالفعل مسافات بعيدة ، وقاموا على ما يبدو بهجرات كبرى ولقد أظهر وجود مستعمرات إغريقية حول المتوسط، وإلى عمق بعيد في الجزيرة العربية هذا الإجراء في عصور متأخرة نسبيا . فالفينيقيون أنفسهم كانوا مشهورين بهذا العمل في أزمان أقدم من ذلك. ولا يبدو مستبعدا كليا أن ما دونه هيرودوت كان مبنياً على حقيقة تاريخية ما.

ولقد بينت نظرية " موجة الهجرة" أن الجماعات أوالقبيلة أوالتكتلات المؤلفة من عائلات أو عشائر مرتبطة بصلة قرابة من بعيد أو قريب ، يمكن أن تغطي مسافات هائلة على مر بضعة أجيال بالتقدم بقدر غير محسوس على الأغلب سنة بعد سنة عبر أراضي يتوفر فيها المرعى، غير تلك التي تتطلب الزراعة المستقرة. وإذا كان هنالك ، كما يبدو مرجحا، انحطاط في الأوضاع المناخية في منطقة الخليج في بداية النصف الأول من الألف الثاني ق . م ، فربما بدأ أهله بالتحرك غربا حتى وجدوا أنفسهم يتحركون أعلى وأسفل الساحل الشرقي في بضعة عقود نسبياً.

دلمون الأرض المقدسة

من المناسب أن نتنحى جانباً للحظة ونمعن في الرأي القائل بأن دلمون هي البحرين ، جزيرة "الفردوس الأرضي" . وتجدر الإشارة إلى أن السومريين لم يذكروا أن دلمون كانت مكاناً نقلت إليه أرواح الموتى. فآراؤهم أكثر الآراء ضبابية وتشاؤما عن الحياة بعد الموت . و أما الفردوس فكانت تعني لهم مكان الأصول ، موقع الخلق الأصلي الرؤوف، والمفهوم الأصلي عن جنة عدن شيء من الفكرة ذاتها .

ودلمون هي الأرض المقدسة الأصلية ، أول أرض في العالم تمنح هذه الصفة المقدسة*، وأجمعت كافة الأساطير التي نمت حولها على تأكيد طبيعتها المقدسة .

ويعتقد باروز (عالم فقه اللغة والمتخصص في دراسة النقوش) أن الاسم دلمون يمكن أن يكون سامي وليس سومري المصدر،ويرى أنه كان اسماً عربياً أولياً محلياً، وهذا الرأي مثير للاهتمام بالفعل ،لكنه لن يحظى بالقدر الكبير من الإسناد اليوم . والاعتقاد بما نشأ بشأن اللغة ما قبل السومرية، والذي أعرب عنه بصورة خاصة المتخصص الأمريكي بعلوم السومريين، صاموئيل نوح كرايمر، رأي نشأ منذ عهد باروز. فقد اعتقد كرايمر أن بعض الكلمات :- مثل اسمي النهرين العظيمين في سومر، وعدة أسماء في بلاد ما بين النهرين، وبعض العبارات الأكثر شيوعاً المستخدمة في عهود السومريين - كانت موروثة عن شعب أسبق احتل البلاد قبل دخول السومريين إليها . وكان يطلق على هذه اللغة: " الفراتية الأولية ، و" العبيدية" . وعلى الرغم من أن الكلمات المعنية لا يبدو أنها سامية الأصل أوسومرية، إلا أن معظم الجهات مقتنعة بأن السومريين،والذين صنعوا الفخار العبيدي شعب واحد ولا يوجد دليل على احتلال شعب أسبق لجنوب العراق قبل دخول السومريين

---

* يكرر المؤلف هنا افتراضاً نختلف معه كمسلمين ،فيجعل من مفهوم "الجنة" اختراعاً سومرياً ومن دلمون أول أرض مقدسة في العالم ويتجاهل أن السومريين أبناء آدم وأما بالنسبة للنقطة الثانية فجوابه في القرآن الكريم قال تعالى في سورة آل عمران :(إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) الآية رقم(٩٦) (د. السقاف)

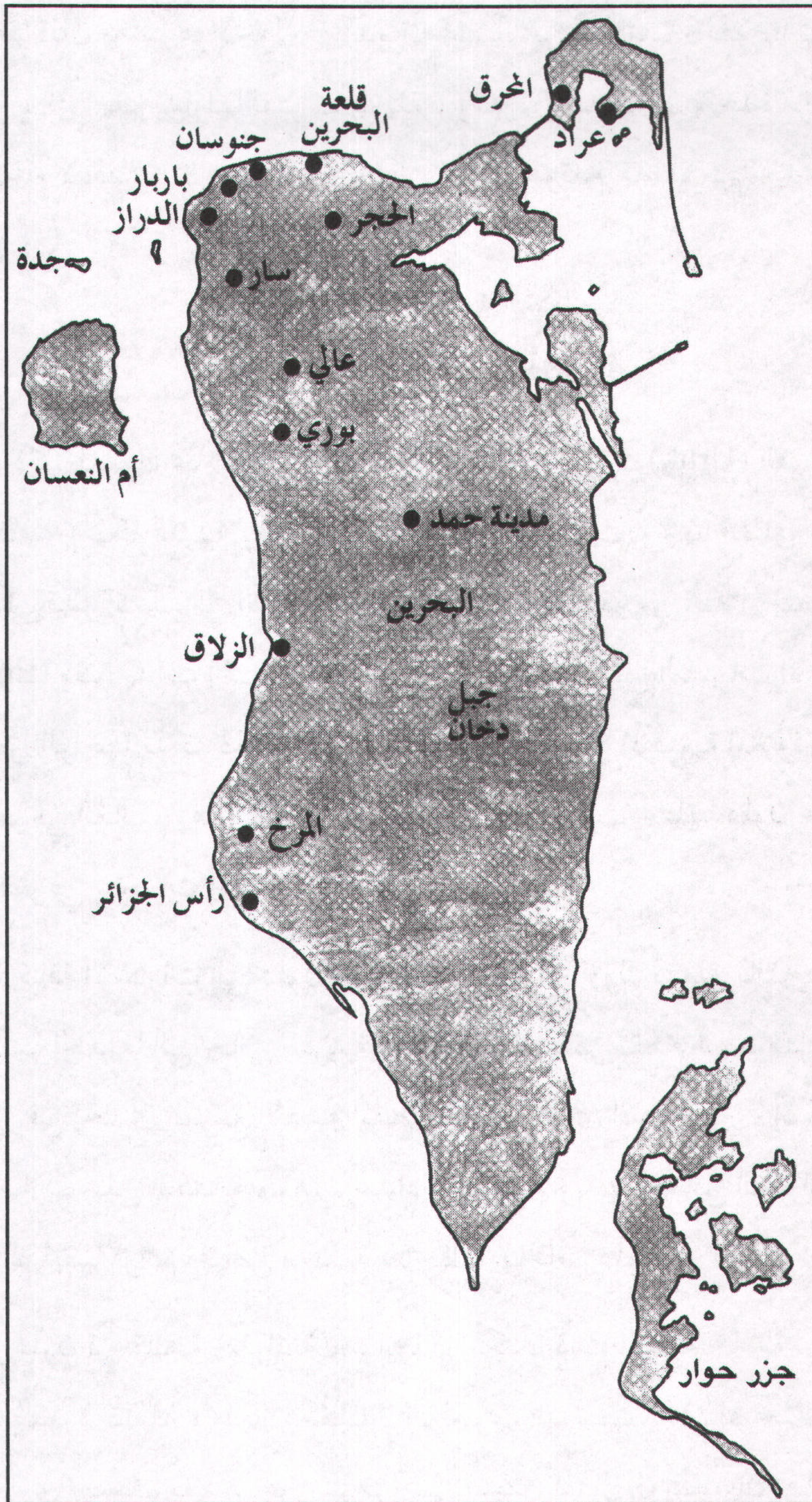
إليه. ورغم ذلك فالمحير هو دخول ما يبدو أنه أسماء غريبة تماماً ، خصوصا تلك التي تطلق على الأماكن ، التي يتم تداولها لفترات طويلة . وسواء كانت دلمون واحدة من تلك الأسماء قبل السومرية أم لا ،فهذا أمر غير مؤكد، ولكن المؤكد هوقدم هذا الاسم.

أقدم سجلات دلمون

ظهر أول ذكر لدلمون عام ٣٠٠٠ ق.م على ألواح من أروك (Uruk) التي أصبح البطل العظيم جلجامش ملكاً عليها بعد نحو٣٠٠-٤٠٠ عام تلت،ومنها أنطلق مسعاه الخالد. ولقد اكتشف قدر كبير من الألواح في قلب المدينة القديمة من أطلال منطقة المعبد في إنانا، (Enana) وقد بدأت الحفريات عام ١٩٢٨ م، لكنه في السنوات الأخيرة فقط تم إدراك أن بعض ألواحها تذكر دلمون. وهذه هي أقدم النصوص المكتوبة المعروفة حتى الآن في أي مكان آخر في العالم، وهي تؤكد على الأهمية التي كانت تحتلها دلمون عند السومريين إذ كانت تظهر في سجلات المدينة منذ القدم.

ويبدو أن كافة الإشارات إلى دلمون جميعها في ألواح أروك تتعلق بالتجارة ، وهذا أمر متوقع .ويشير إحداها إلى جابي ضريبة أو أجرة، مما يذكر بقدم عهد مثل هذه الحرف. وهذا مذكور في إحدى الصيغ الأدبية المفضلة كثيراً لدى السومريين، إذ كانوا لا يزالون يجرون التجارب على الكتابة ، وهي إعداد القوائم . ويظهر جابي الضرائب في قائمة الحرف، وهناك أيضاً قوائم أغراض معدنية يلاحظ فيها فأس دلمونية.

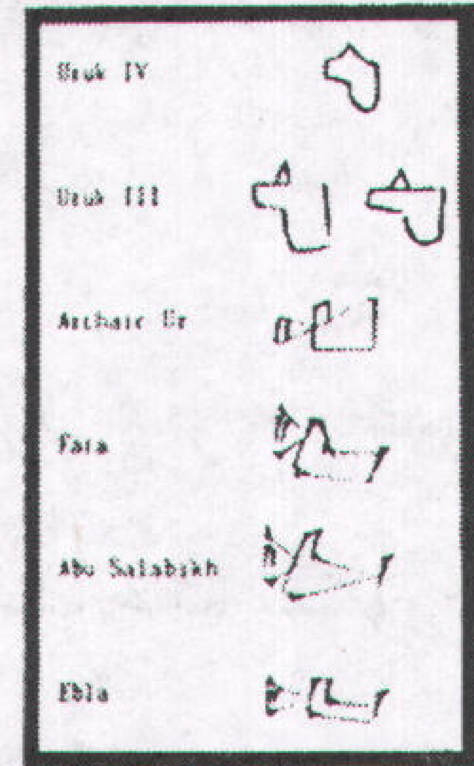
ويرد ذكر دلمون في قائمة جغرافية ، شأنها أن تكون ذات أهمية خاصة لوكان بالإمكان قراءة النص بصورة كاملة ، ولكان مفيدا أن نعرف الترتيب الذي أدرجت فيه دلمون مع الأماكن الأخرى حسب بعدها عن سومر،على سبيل المثال. ويبدو أن حالة اللوح الذي تظهر فيه تلك الإشارة لا تسمح بالتفسير الدقيق.



(الخريطة الثانية) المواقع الأثرية الرئيسية في البحرين والجزر المجاورة

وثمة ذكر آخر لدلمون يربطها بالأقمشة التي أصبحت فيما بعد الصادرات الأساسية الآتية من سومر في التجارة الخليجية الواسعة التي أصبحت دلمون تسيطر عليها طوال معظم الألف الثالث قبل الميلاد وحتى بداية الألف الثاني قبل الميلاد . و هنالك إشارة إلى مواد غذائية متعددة يظهر في محتوى إحداها اسم غريب يبدو أنه " أمير معبد دلمون المجيد " .

إن القدم الاستثنائي لهذه الألواح من أروك قد منحها أهمية فائقة في تاريخ الكتابة،ومن ثم الاتصالات .وعليه ،فإنه لأمر ذو دلالة خاصة أن يبرز الخليج، ومن خلال دلمون، في هذا التاريخ المبكر، في هذا العدد من المضامين المختلفة مما يوحي بأنها كانت مجتمعا متنوعا متعدد المستويات . وتوفر تلك النصوص القديمة الفرصة لملاحظة أسلوب كتابة علامة دلمون منذ أقدم العصور في نهاية الألف الرابع ق . م وحتى بداية الألف الثاني ق .م، وعلى مدار ألف سنة أخرى حين أصبح النظام المسماري التقليدي متطوراً تماماً (شكل ٧–١ب) .



الشكل (٧–١ ب)

وحين بدأت دلمون تظهر في السجلات للمرة الأولى كان السومريون قد باشروا رحلات بحرية واسعة .

واستخدموا الممرات المائية الكبيرة التي وجدت بصورة طبيعية في جنوب العراق . كما أبحروا أيضاً في مياه الخليج، وأقاموا الثقافة غير العادية التي انتعشت هناك، ومن خلال قيامهم بذلك، كانوا ورثة تقليد طويل . و في الماضي البعيد جداً، انطلق الإنسان فوق الماء ،ومما لا شك فيه أن رحلاته القديمة على الماء كانت غير إرادية ، ولن يعرف كيف بدأت مهنة البحرية، وكل ما نستطيع افتراضه أن الإنجاز الحقيقي ربما جاء عندما تم تبني الناس الذين عاشوا على ضفاف دجلة والفرات ومستنقعات المياه التي ارتبطت بها صناعة قوارب البوص،وأولئك الذين عاشوا في ظروف مشابهة على ضفاف النيل .ولا يعرف كيف نما هذا الاكتشاف العظيم ، لكن بناء قوارب البوص التي كانت تعتمد في طفوها على مبدأ الخوض، والتي بمقدورها أن تحمل أثقالا كبيرة ،كان أحد الاكتشافات الرئيسة للتقنية

القديمة. تمتاز قوارب البوص التي بنيت على هذا المبدأ بأنها غير قابلة للغرق فعلياً.

و حين أكمل السومريون بناء السفن الخشبية كان قارب البوص لا يزال الشكل المفضل لديهم، حين كان الأمر يتعلق بتصور الماء أو الرحلات البحرية .ولقد ارتبط هذا القارب مع آلهتهم الذين كانوا رحالة متمرسين. وعلى عكس زملائهم المصريين، كانت الآلهة السومرية أكثر ميلاً إلى استخدام نظامهم النهري لزيارة مدن بعضهم بعضاً ،وفي مجال أنشطتهم الإلهية.

وكانت الجزر– مثل البحرين– محاطة دائما بصفة غامضة ومقدسة . ولا بد أن البحارة القدماء قد شعروا بالامتنان والسعادة لوجودهم وسط عنصر لولا تلك القداسة لكان معادياً. وغالبا ما كانت الجزر تكرس لإلهات عظيمات حكمن في القدم البعيد جماعات الآلهة التي أصبحت لاحقا تحت سيطرة الآلهة الذكور. و مكان البداية عند المصريين جزيرة ناشئة مقدسة برزت أول الأمر من فوضى المياه مشكلة الهاوية التي قبع فيها الخالق الأصلي خاملا.

وإذا كان للجزر جميعاً أن تحقق ذاتها المقدسة فإنها تميل إلى أن تكون مملوءة بحس من الوجود، بشيء شبه مرموق بزاوية العين، بأرواح مسموعة في حلم، مسترجعة بصورة غير يقينية عند الاستيقاظ ، وبساتين تهتاج بقوى جوهرية غير مرئية، من أبولو أو أدونيس. وعلى الرغم من أن البحرين في جوهرها جزيرة صحراوية إلا أنها تمتلك هذه السمةالصرفية بمقدار سخي. وهنالك أجزاء من الجزيرة بالقرب من الشاطئ عند زلاقة حيث تنمو أشجار القرم والنخيل نموا خصبا مورقا وبكثافة فعلية مثل غابة بدائية. ومن السهل الاعتقاد بأن هذا ما كان عليه العالم ذات يوم. وأما البحارة القدماء فقد بدا لهم بروز أرضي بالقرب من هذه الغابات كدليل على حماية إله قوي يمكن أن يتجلى وجوده في أية لحظة.

ولقد تقدم خط شاطئ البحرين ،كغيره من أجزاء أخرى من الخليج، عبر أربعة إلى ستة

آلاف عام مع هبوط مياه الخليج. والكثير من المواقع التي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث ،والتي كانت في الأصل على البحر، تقع الآن داخل الأراضي . وكان الموقع العبيدي الرئيس في المرخ جنوب الزلاقة، حيث عثر على قطع من الفخار العبيدي ،وهي جزيرة صغيرة منفصلة عن الجزيرة الرئيسة التي تشكل اليوم جزء منها بعد هبوط مستوى الخليج، وكانت تستخدم كمضارب خيام مؤقتة لرحلات صيد السمك.

البحرين هي المرفأ الآمن الوحيد بين رأس الخليج ، (حيث كان البحارة السومريون قد تركوا وراءهم الأمان النسبي لأنهارهم ومستنقعاتهم)، و عمان مصدر النحاس الذي سعوا إليه سعياً حثيثاً . وفي هذه الرحلة التي يصل مداها إلى نحو ١٠٠٠كم(٦٢٠ ميلاً)، لا بد أن البحرين كانت مثار تفاؤل فريد بالنسبة إليهم.

و منذ عهود المستوطنين الأوائل لم يطرأ تغير على الهيئات الطبيعية للبحرين ،باستثناء مبانيها ،وشبكات الطرق ،وشتى مظاهر الحداثة وفي ذلك الحين كما هو الحال الآن، كان الجزء الشمالي فقط من الجزيرة خصبا. وفي وسط الجزيرة تقريبا يوجد أبرز مظاهرها الطبيعية الساحرة، وهو جبل الدخان. ويمكن أن يوصف بالجبل فقط في بلاد منبسطة تماماً. ويمكن أن يقال إن جبل الدخان يرتفع ارتفاعا متواضعا إلى ١٣٠م، وفي حر منتصف النهار يومض بالسديم، ومن هنا ربما اكتسب اسمه.

ولقد وجد على الجبل وحوله بعض أقدم بقايا تاريخ البحرين. وهنا وفي مواقع على الساحل قدح صيادو العصر الحجري صوانهم وبهذا تمكنوا من صنع الأدوات الجميلة والمفيدة على السواء.

ولقد عثر في تلك المواقع التي كانت ذات يوم ساحلية أهم الملتقطات الأثرية البحرينية ، وهي أول مواقع في الخليج السفلي عثر فيها على شفرات مناجل، وهذا يوحي بأن البحرين قد شاركت في التجارب والممارسات الزراعية المبكرة التي ترتبط بها مثل هذه المناجل ،

كما يمكن أن تكون قد استخدمت ببساطة لحصاد حبوب برية. وهذه المناجل وإن كانت ضئيلة الكفاءة إلى حد ما، حيث إن الأسنان قد صنعت من مواد هشة ومنها الفخار، كانت تستخدم لجمع القمح. وهذا واضح من لمعان أسنان المناجل الناتج عن سيلكا سيقان القمح،وكانت المناجل من هذا النوع معروفة في مصر ،وبلاد ما بين النهرين، والمستوطنات الفلسطينية القديمة.

فن العمارة في دلمون

من بين العديد من المواقع الأثرية الهامة في البحرين موقعان بارزان يشهدان على الارتباطات الأكيدة مع سومر ، مثل هذا التل الكبير والمركب المعروف بقلعة البحرين، وموقع آخر على بعد ستة كيلومترات(أربعة أميال) بمحاذاة الساحل في باربار. وهذا يدل على صلاتها السومرية ولكن مع اختلاف جوهري. فعلى الرغم من أن الأبنية الحجرية كانت نادرة في سومر ذاتها لغياب المواد المحلية، إلا أن البقايا البحرينية جميعها مبنية من الحجر وهكذا تحتفظ بأمانة أكبر في العديد مما خلفته بلاد ما بين النهرين من أشكال البناء في العصور القديمة. ولهذا السبب تبرر آثار البحرين سمعتها كواحدة من أهم البقايا من الشرق الأدنى. وعند استقراء عمر بعض أبنية البحرين فإنها تستحق أن تحظى بالاعتبار على أنها من بين أقدم البنايات فعلاً، لأن أقدمها- خصوصا تلك التي في موقع المعبد في باربار-لا بد أنها قد شيدت قبل زمن طويل من اختراع البناء الحجري ذاته . ويظهر كلا الموقعين الأهمية التي حظيت بها البحرين في أذهان السومريين وخلفائهم. وتُلْقي معابد البحرين المبنية من الحجر الضوء المثير على أصول تلك الصروح السومرية المألوفة جدا، ألا وهي الزقورات،(منصات المعابد المتدرجة التي نشأت عنها أسطورة برج بابل) ، ولقد نشأت فكرة الزقورات من الحاجة إلى المحافظة على قداسة الأبنية بعيداً عن سهل الطوفان، وعن ممارسة سومرية قديمة تعتبر بعض المناطق مقدسة بلاجدال.

وكان يعتقد أن البناية المقامة على مكان مقدس مكرسة للأوقات جميعها. وعندما كانت الأبنية المصنوعة من الطين بحاجة إلى ترميم، أوعندما كانت الحاجة تدعو إلى مكان عبادة أكبر، قام السومريون ببساطة بالاحتشاد في ساحات مصليات المعبد الأصلي، ورفعوا متراساً حولها وشادوا بناية أخرى فوقه. وأبدع هذا الإجراء تأثيراً مدرجاً متتالياً من هذه الأبنية المكررة، ثم نمت الفكرة حتى أصبحت الهيئة ذاتها مقدسة. وشيدت في أرجاء سومر جميعهاوالإمبراطوريات البابلية والآشورية المتأخرة الزقورات المدرجة وذات الشرفات التي أقيم في أعلاها حرم الإله الأقدس. وربما كانت الحقيقة الجوهرية الواضحة التي نتج عنها هذا التوالي إدراك أن جدران اللبن الطيني لا يمكن استخدامها مرة ثانية. وهكذا أصبح لتدمير المعبد الأصلي ما يبرره بالحفاظ عليه للأبد تحت الكوم المقام فوقه.

أما في البحرين فلم يحدث ذلك إلا في باربار لأن المباني كانت من الحجر الذي يتطلب بمجرد قطعه وتشكيله حِسّاً دينياً أكثر تطوراً مما كان لدى السومريين البراجماتيين كي يقاوموا الرغبة في إعادة استخدامه.

قلعة البحرين ومدينة دلمون

يقع التل الذي يغطي بقايا المدينة في قلعة البحرين على بعد نحو ٤٠٠-٨٠٠-متر من الشرق إلى الغرب مرتفعاً إلى علوخمسة عشر مترا. وهذه مساحة كبيرة جداً، ويتفوق على تلال بلاد ما بين النهرين التي تغطي بعض مدن سومر العظيمة. ولقد تم حفر قسم ضئيل فقط من الموقع (حوالي خمسة في المائة من إجمالي مساحة الموقع)، و يمكن لوأخليت المنطقة كلها لكشف عن مدينة قديمة كاملة. وعلى الرغم من تواضع مدى الحفريات المنفذة حتى الآن فقد طرحت وبدون تحفظ فرضيات حول طبيعة موقع قلعة البحرين، وتم التوصل إلى إستنتاجات بالغة السخاء استمدت من أدلة قليلة جداً في الواقع. وإذا قدر للموقع أن يحفر

بالطريقة اللائقة فلا ندري ما الذي كان يمكن اكتشافه. وكانت المدينة الأولى الموجودة في هذا الموقع أكبر قليلاً من مستوطنة القرية الصغيرة التي كان يستخدمها البحارة القادمون على أرجح الاحتمالات من مكان بعيد في الجنوب . وبعد استخدام الشاطئ للزيارات العابرة،والتزود بالمؤن ربما باشروا بوضع الجذور لإقامة الأسر هناك، ثم بناء مستوطنة . وقد حدث مثل هذا التوالي في مواقع خليجية أخرى نتيجة تغيرات غير ملموسة في الترسب أو المناخ.

ومن خلال موقعها القريب من الشاطئ،والتشكيلات الحجرية المرئية القابعة في المياه الضحلة ، فإن ثاني المدن في الموقع هي التي سير منها تجار دلمون تجارتهم بعيدة المدى في بداية الألف الثاني قبل الميلاد مخلدين بذلك تقليداً تجاريا كان عمره قد بلغ عدة قرون .

ولقد أثبتت البعثات الأثرية الدنمركية العاملة منذ ١٩٥٣م خمسة مستويات قديمة (قبل الإسلام) في موقع قلعة البحرين

١-المدينة الأولى على الأرجح معاصرة للأزمنة التي سبقت مباشرة الآكادية (بلغة السومريين عهد الأسر الثالث المبكر حوالي ٢٤٠٠ق.م)

٢- المدينة الثانية التي ربما تأسست في الحقبة التالية على حكم سرجون العظيم ،ملك سومر وآكاد سنة٢٣٧٠ ق. م ، ازدهرت بصفة خاصة في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الأول ق.م حوالي ٢٠٠٠-١٦٠٠ ق .م

٣- المدينة الثالثة المقابلة للحقبة الكاشية الحديثة في بلاد ما بين النهرين حوالي سنة ١٦٠٠ ق. م

٤- المدينة الرابعة المقابلة للحقبة البابلية الحديثة ٦٥٠ ق م

٥- المدينة الخامسة في العهد اليوناني حوالي سنة ٣٠٠ ق. م وتستمر إلى القرون الأولى من العصر المسيحي قبل ظهور الإسلام.

ومن الواضح أن المدينة الثانية هي أهم المدن المكتشفة في الموقع . وتبين قائمة المستوطنات

في القلعة أيضاً ضآلة حجم الاستيطان ذي الأهمية في البحرين قبل القرون الأخيرة من الألف الثالث . وفي أم النار وجدت كسرة وحيدة في المستويات السفلى من الأساسات توحي بالصلة بين الثقافة التي نشأت في عمان والمكان الذي يرجح أن تكون دلمون قدحصلت منه على الجزء الأكبر من نحاسها .

ولقد تم العثور على بقايا قطع من النحاس على الشاطئ قريبا من قلعة البحرين، الأمر الذي يقدم إسنادا ماديا لسجل تجارة دلمون التي لعب النحاس فيها دوراً على هذا القدر من الأهمية . ويبدو أن خصوبة الجزيرة وكثافة أشجارها قد أسهمت في قيمتها كمركز لتشغيل المعادن، حيث إنه في حالة وفرة الخشب يمكن إشعال النيران لصهر النحاس الخام وتحويله إلى سبائك .

ولقد لعب تقطير المشروبات أيضاً دوراً في اقتصاد دلمون القديم ، وتظهر الغرف المخصصة لاستخلاص عصير التمر* قدم هذه العملية ، والتي ربما لا تزال قائمة في بعض أجزاء الجزيرة العربية .وتم تصنيع الفخار هناك ،عثر داخل الأطلال على ورشة صانع أختام بحرينية متميزة، وقد أضاف اكتشافها بعدا جديدا إلى آثار الخليج والفنون الصغرى للعالم القديم .

بقيت جدران قلعة البحرين في حالة جيدة أجيالاً طويلة منذ أن أقيمت ، ولا يزال في المنطقة التي تم اكتشافها حتى الآن بنايات باقية غير مكتشفة يعود تاريخها إلى القرن السابع ق .م ، ومثل كثير غيرها على ظهر الجزيرة، بنيت من الحجر الجيري المقطوع من الجزيرة الصغيرة المجاورة للبحرين المسماة جيدة، ولا تزال باقية أيضاً سلالم عريضة وبوابات عالية ، كما لا تزال تظهر الأحجار المفصلة نصف الدائرية دقيقة النحت المصممة لحمل وزن الأبواب الضخمة. ولكن لقلعة البحرين تاريخ يصل إلى ٢٠٠٠ عام قبل أن تنتعش

---

*يقصد به الدبس (العبودي) .

تلك المدينة في نهاية تاريخ دلمون.

وبنيت المدينة الأولى في قلعة البحرين في وقت متأخر من النصف الثاني من الألف الثالث ق. م ،وصمدت حتى دمرتها جيوش سرجون الأكبر الفاتحة في القرن الرابع والعشرين ق .م ،وكان سرجون قد زعم بتفاخر أن دلمون كانت جزء من إمبراطوريته.

لقد أفرزت هذه الفترة واحداً من أنواع الفخار المتميزة الخاصة بالجزيرة. وهذه الأوعية كبيرة، وعلى حوافها زينات متميزة جداً ،وعدد من الأختام المبكرة ،و" حُقٌ" من الحجر الصابوني منقوش عليه تصميمات هندسية وكواكب وجد مثلها في باربار. كما عثر عليها في مستوى المدينة الأول، ووعاء الحجر الصابوني، أوبعبارة أدق الكلورايت نموذج لما عثر عليه بشكل واسع ضمن أشياء أخرى في شرق الجزيرة العربية ويعود تاريخها إلى وقت مبكر من الألف الثالث ق. م (انظر الفصل الثامن). أحد أوعية الحجر الصابوني سليم، وذو صناعة جيدة ، وله ثلاث آذان توحي بأنه كان يمكن تعليقه. وهذا إلى جانب حوافه المنحنية قليلاً التي تعطي مظهر وعاء المرمر من سايكلايدس الذي يمكن أن يكون معاصرا له.

واستعيد من المدينة الأولى بقلعة البحرين نقش مكسور مطبوع على الحافة الداخلية لجرة فخارية كبيرة ،يمكن قراءته بسهولة بإمالة الوعاء ، ويعطي قياسا للسعة . ومعبر عن المقدار كالتالي: ١١٨٫٨ باينت* ٢ باني ٤ سار ٧ قا

بعد تدميرها على يدي سرجون كما هومفترض، أعيد بناء المدينة وأضيف متراس حجري عال،على أمل أن يكون شعبها في أمان ضد هجوم ثان . ويمكن مشاهدة جدار الأساس الثاني للمدينة حول محيط المتراس من عدة مواضع . ومؤخراً كشفت الحفريات الفرنسية في الموقع عن بنايات من المدينة الثانية.

ويرجح أن تكون المدينة الثانية قد دامت إلى ما بعد أواخر الألف الثالث ق .م ، وكانت

---

* البابنت وحدة وزن تساوي ثمن جالون (العبودي).

المستقر الجنوبي لأليك تلمون (Alik Tilmun) وهي جماعة تجار أور النشيطين الذين كانوا وراء قدر كبير من رخاء البحرين . وعثر على المزيد من الأختام التي تعكس العلاقات التجارية الوثيقة التي قامت بين البحرين ومدن هرابا ، موهنجودارو . ويوجد دليل على وجود نظام جمارك متطور في المدينة . ويعتقد أن المدينة الثانية كانت معاصرة للمعبد الأول في باربار . ولا يوجد أي شك في أن الوقت الذي انتعشت فيه كان أعلى ما وصل إليه ازدهار البحرين القديم ونفوذها. ولقد كشفت الحفريات عما يبدوأنه المرفأ الفعلي لسفن صيد اللؤلؤ والذي أتاح للسفن الاقتراب من المدينة.

ولقد ترتب على التقديرات التي طرحت مؤخراً لعدد المدافن في حقول القبور في البحرين هي الأخرى تقدير لعدد السكان المحتمل في المدينة الثانية في قلعة البحرين. وآخر الأرقام الواردة البالغ ٦٧٠٠ (شخص) مبني على أساس المساحة المأهولة ضمن جدران المدينة . وبوضع هذا الرقم مقابل سكان الجزيرة ككل، والمستدل عليهم من عدد المدافن، فإن ذلك يوحي بعدد سكان إجمالي يزيد على ٦٠٠٠٠ نسمة . ومثل هذا العدد من السكان لا بد أنه كبير بالنسبة لجزيرة صغيرة في الألف الثالث ق . م.

سوف توصف مدن الموتى الواسعة والمحيرة في البحرين لاحقاً، مع الإشارة إلى ضآلة المعروف عن الناس الذين دفنوا في قبور أكوام الروابي . و لا شك أنهم القوم الذين عاشوا وانتعشوا في المدن المتعددة في قلعة البحرين والمستوطنات الأخرى على الجزيرة. وغالباً ماكانت توضع أدوات الزينة المصنوعة من العاج في القبر، وكان العاج يصنع في قلعة البحرين، حيث عثر على ناب معد لمزيد من التصنيع على يدي صانع قديم هناك . وجاء العاج على أكبر الاحتمالات من ملوخة في وادي السند حيث الموطن الأصلي للفيل المبجل جداً، ربما أخذ من الأطوم،وهي بقرة البحر التي كانت تستوطن المياه حول البحرين.

ويبدو المستوى التالي من قلعة البحرين، المدينة الثالثة، معاصرا لفترة الكاشيين ، وهم شعب

جبال إيران الذين حكموا بلاد ما بين النهرين، وكانوا شعبا بربريا إلى حد ما ولم يكن فنهم بالتأكيد على القدر ذاته من التميز عما كان لدى الشعوب الأخرى الحاكمة في البلاد. ولقد تركوا آثارهم في البحرين: وهذه عبارة عن أوعية طويلة رفيعة مصنعة بصورة فجة وبعض الأختام المسمارية القليلة جداً و التي عثر عليها هناك وإن لم ينشر عنها حتى الآن.

ويحدد الكربون ١٤ تاريخ دمار المدينة الثالثة على متوسط من ١١٩٠ سنة قبل الميلاد، يقل أويزيد عن ذلك بستين عاما. ولقد تم الحصول على هذه القراءة من حجارة عثر عليها في الأطلال، كشاهد على المنتج (Sum Dilmun بالسومرية) الذي ميزت روعته دلمون في أذهان القدامى بالقوة ذاتها التي تميزت بها كأرض مقدسة. وكانت مدينة الكيشيين مدينة جميلة جمالا واضحا وبها قصر مستطيل كبير جميل يضم غرفاً متوازية مع كلا الجانبين كأحد تذكاراتها الرئيسة. ومن السنوات الأخيرة للفترة الكيشية بقيت المراسلات بين إلي- إباسرا، وإيليليا (الفصل الخامس) الذي كان مقيما في دلمون. ولعل رسائل إيليليا قد خرجت من هذا المكان نحو العام ١٣٧٠ ق. م.

كانت المدينة الرابعة غنية بما عثر فيها، والذي يعود تاريخه إلى العهود البابلية الحديثة. ومنذ ذلك الحين، وبعد وقت كبير من أيام دلمون العظيمة، جاء قدر كبير من الفضة يعود تاريخه إلى القرن السابع ق.م. تحدد تاريخه بوساطة خاتم فضي يحمل إطارا مصري الأسلوب، لذا فقد اعتبر دليلاً على الصلة بين البحرين وحضارة وادي النيل العظيمة، والتي كانت قائمة رغم البحار والصحراء العربية الهائلة التي تفصل بينهما. و يوحي البحث الذي تم لاحقاً أن الخاتم من عمل فينيقي على الطراز المصري (إحدى حلقات الوصل القليلة الإيجابية مع البحرين التي لم يتم تعرّفها فعليا)، ولربما يدل على صلة مع ذلك المركز التجاري العظيم في العالم القديم، ألا وهوبيبلوس في لبنان. ولقد أعتقد أن تلك الكنوزكانت قد دفنت عمدا، ربما على يدي صانع فضيات كانت تخصه، في أثناء الغزوات والحروب في الشرق الأدنى والتي تكشف عنها سجلات الفترة. و يوحي البحث

الحديث بأن الكثير من الفضة يمكن أن يكون دليلاً مبكراً على "العملة" وقطع الفضة التي كانت تستخدم قبل إدخال المسكوكات.

إنها هذه المدينة المفتوحة للسماء، وهي تقريبا معاصرة لأبري (Uperi) أحد ملوك دلمون وقد استدل عليه من السجلات الآشورية . وإحدى أكثر البقايا القابلة للتمييز السريع قاعدة عمود واسعة ومربعة تقريبا من الحجر الجيري الأبيض بالقرب من قاع درج عريض قليل الارتفاع. و وجد خلف قاعدة العمود هيكل عظمي لأنثى في أحد النعوش الشبيهة بحوض الحمام من التراكوتا* المبطنة بالقار مما يُذكِّر باللازناكس الميوسيني، وإن لم يكن له صلة به. واكتشفت مدافن أخرى وطاسة ومغرفة نبيذ مبعثرة حول هذه المنطقة. وكانت بعض المدافن للأطفال وقد وضعت أجسادهم الصغيرة في أوعية بسيطة ، وكانت أخريات موضوعة بحيث تسلط ضوءاً جديداً على معتقدات وأديان شعب دلمون سنة ٧٠٠ ق. م، واستمراريتها لفترة طويلة جداً. وكشفت الديانة عن الكثير من الصلات القديمة.

وكان هنالك عدة حفر صغيرة غائرة في أرضية البنايات وقد احتوى سبع منها على هياكل أفاعي ملفوفة. كما عثر أيضاً على خرز بالقرب من مدافن الأفاعي ، وتم هذا الاكتشاف عام ١٩٥٧ ، وتصاعد صدى الأحداث في ملحمة جلجامش (انظر الفصل العاشر) عندما يسرق الثعبان من ملك أروك زهرة الشباب الأبدي التي انتزعها من قاع البحر بعد العديد من المغامرات الطويلة الخطرة.

واكتشفت في الزلاق، وهي مدينة صغيرة في وسط ساحل البحرين الغربي، أعمدة حجر عبادة قضيبية عام ١٩٥٦ م وقد نقلت من موقعها الأصلي. والأغراض القضيبية، مثلها مثل الجمال، تفرض نفسها على عين الناظر إليها. ومهما كانت هذه فإن واحداً منها لا يزال قائما في باربار، بينما الأخريات في الدنمرك بانتظار إعادتها إلى البحرين. وعلى الرغم من أن

* التراكوتا: طين محروق (صلصال) كان يصنع منه التماثيل (العبودي).

تاريخها يعود إلى حقبة أقدم بكثير من مدافن الأفاعي (ربما من الألف الثالث ق. م أوأوائل الألف الثاني ق.م) وأن شخصيتها القضيبية المزعومة تعتمد على حكم ذاتي غير موضوعي بالكامل، إلا أنها تغري بربط جلجامش - الأفعى - الخصوبة - القضيبية - مدافن الأفاعي كلها في معادلة ضاربة في القدم. وكانت الأفعى تجسد لدى الكثير من القدماء القوى الباطنة الخفية للأرض المانحة للحياة. وتظهر قطعة معمارية من أبوظبي أسفل الخليج من جهة البحرين، والمرتبطة آثارها ارتباطاً وثيقاً بهذا الأمر،أن الأفعى والقضيب يصبحان شيئا واحداً. (انظر الفصل العاشر) ويقوم علماء الآثار الفرنسيون الآن بالحفر في المدينة البابلية الحديثة في قلعة البحرين . ومن الواضح سلفاً أنه سوف يتم الكشف عن الكثير من المعلومات من الموقع تبعاً لذلك.

ويؤكد المستوى الأخير في قلعة البحرين في التاريخ القديم السابق على الإسلام، المدينة الخامسة، على مدى تجارة البحرين في ذلك العهد مع العالم الهيلينستي، لأن القدر الكبير من الفخار الأتيكي* قد عثر عليه هناك. وكانت هذه هي المدينة التي تتبعت سيرة الإسكندر اللاحقة، ولكنها مشغولاتها توحي مرة أخرى بأن التجارة مع السند كانت مفتوحة الأمر الذي يتضح بصفة خاصة من تمثال فتاة صنع،وهو من الفخار من الطراز السندي بلا ريب.

وعلى مدى تاريخ جزيرة البحرين هناك أدلة على صلات بثقافات اليابسة الرئيسة للعربية السعودية. فلقد أنتجت مدينة قلعة البحرين الخامسة ، على سبيل المثال، عددا من المحاريب المصغرة من الفخار وقطعا من تمثال فخاري كبير الإليتين والفخوذ يوضح أن الجزيرة قد شاركت ، إلى حد ما على الأقل، في عبادة الآلهة التي كانت سائدة في حينه في العربية السعودية. ولعل هذا كان متمركزا حول ثاج (Thaj) حيث تم اكتشاف آثار مشابهة من مواقع سطحية بجوار المدينة الصحراوية الواسعة.

---

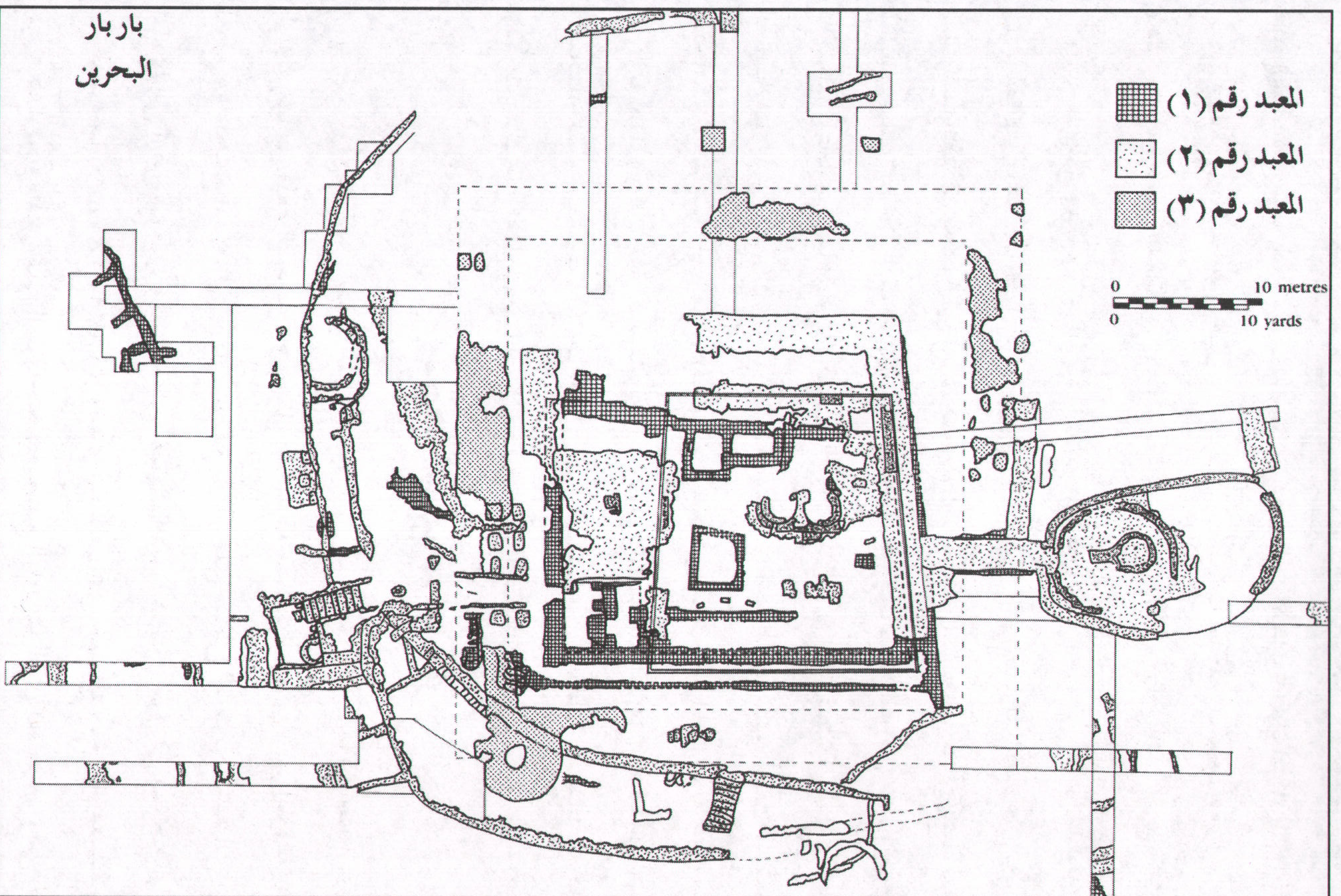
* Attic نسبة إلى أتيكا مقاطعة إغريقية تقع فيها أثينا. (د. السقاف) .

بعد هذه الفترة ، يبدو أن موقع قلعة البحرين قد هجر حتى العهود الإسلامية. وتبدو هذه الفجوة الزمنية غير معقولة وتشير فقط إلى أهمية إجراء المزيد من الحفريات في المنطقة ولكن، وكما هو الحال بالنسبة للسجلات المدونة عن الجزيرة، يظل الإسكندر وعصره خاتمه سجل القلعة في العهد القديم.

ولقد عثر على مقربة من ممر المدينة الخامسة من الخارج على جرة من الفخار مدفونة في الأرض، ربما لإخفائها إما عن صاحبها أو عن لصوص محتملين . وعثر في هذا الإناء على نحو ٣٠٠ قطعة نقد فضية يعود تاريخها إلى حكم أحد ملوك انطيوخس من العائلة الذين كتب لهم بيروسوس «البابليونيكا». وهذه النقود، رائعة ، ومعظمها دراخمات ثلاثية غير متداولة وتحمل رسماً للإسكندر ذاته مرتديا لباس الرأس ذي القرون الذي يميز فيه كهرقل ، ذلك البطل المفتول العضلات الذي يبدو أن أسطورته قد امتصت أحداثا من سيرة الملك السومري النبيل جلجامش الأكثر ضربا في القدم. وقد وضع الإسكندر القرون بعدما اعترف به كهنة سيوا على أنه ابن الإله آمون (وكان يمثل كإنسان له رأس كبش) ، ومن ثم الفرعون الحقيقي لمصر. وذخيرة الإسكندر تضع حدا رائعاً لسجل المدن التي أقيمت على الشاطئ الشمالي للجزيرة . والتي ازدهرت هناك على الأقل لنحو ٢٠٠٠ عام قبل حياة الإسكندر المقدوني.

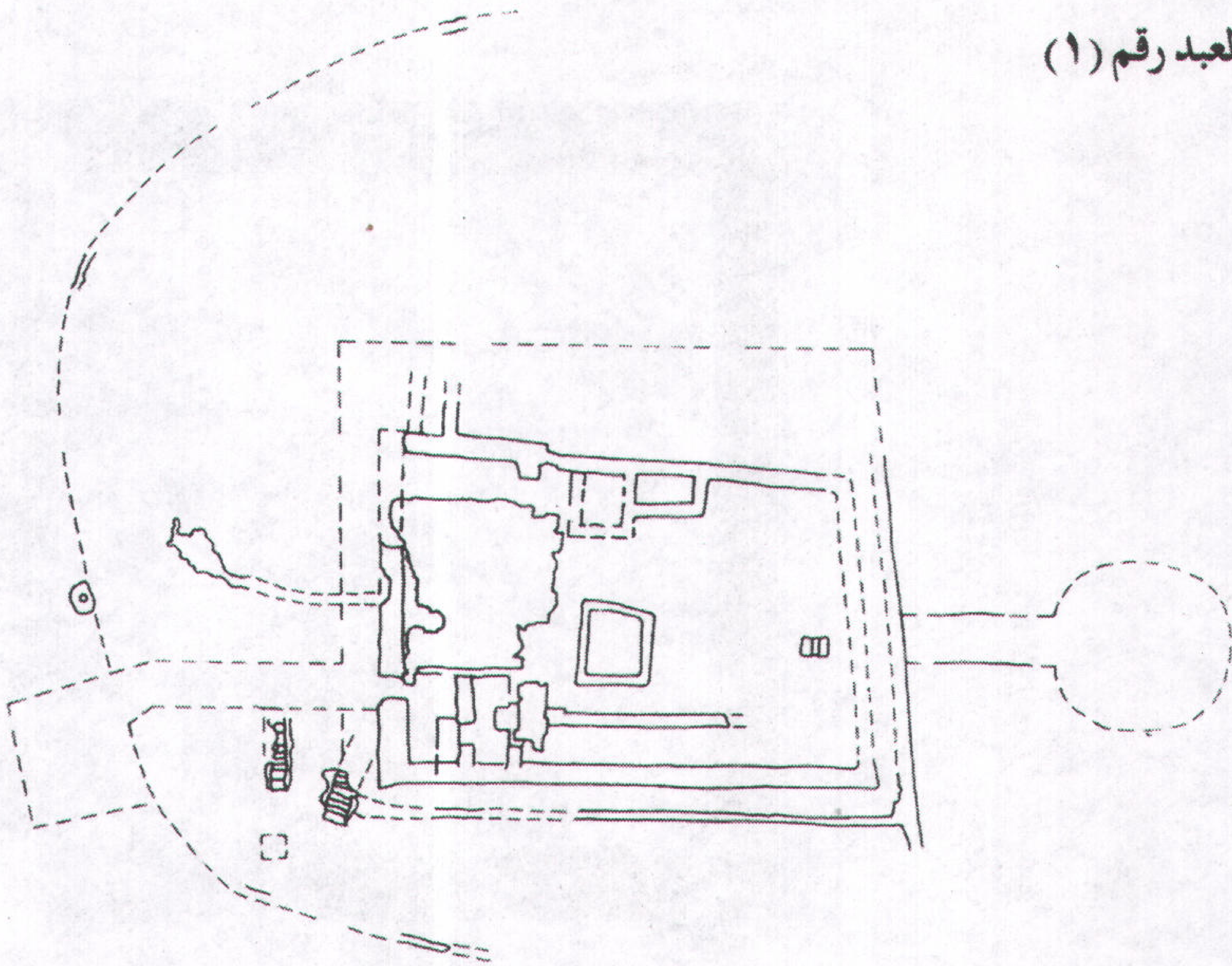
مجمع المعابد في باربار

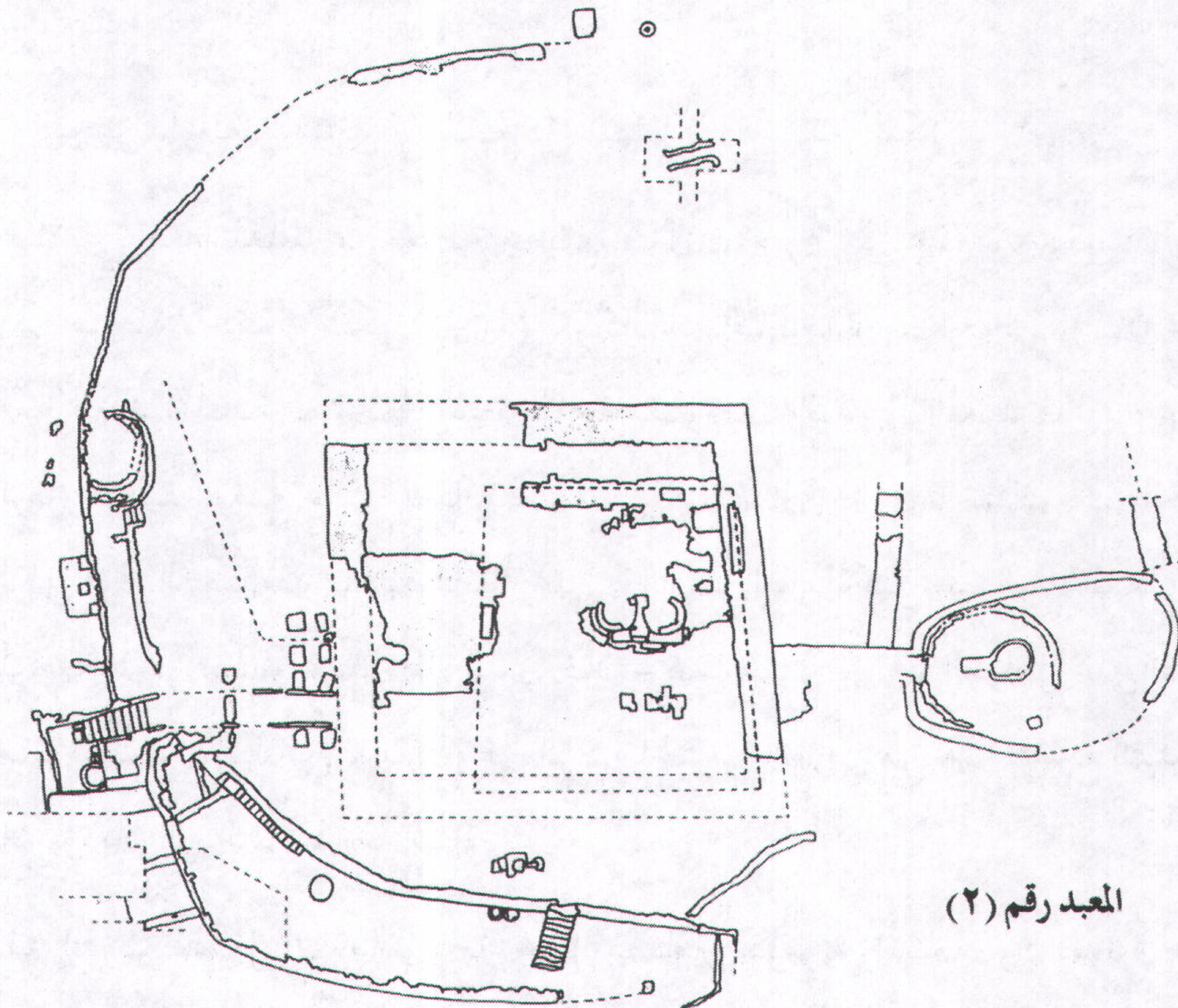
يوجد الموقع الرئيس الثاني على الجزيرة على بعد نحو ستة كيلومترات (أربعة أميال) إلى الغرب من قلعة البحرين. ويحمل هذا الموقع صلات سومرية أكثر إثارة للدهشة، وهذا الموقع هو مجمع المعبد في باربار . وتقع باربار على شاطئ البحرين الشمالي قبالة الخليج المؤدي إلى أرض سومر ، وقد ألمح إلى أهميتها ديوراند لأول مرة في مسحه الرائد للجزيرة في الفترة ما بين ١٨٧٨-١٨٧٩، والذي يكشف عن حصافته. وتقل هضبة باربار قليلاً عن هكتارين وتظهر على الفور حجم مجمع البنايات الذي تخفيه. وهي الآن محاطة



الشكل٧-٢ مخطط لموقع المعبد الرئيس في باربار. يعود تاريخ المعابد الثلاثة إلى ٢١٠٠ حتي ١٧٠٠ قبل الميلاد

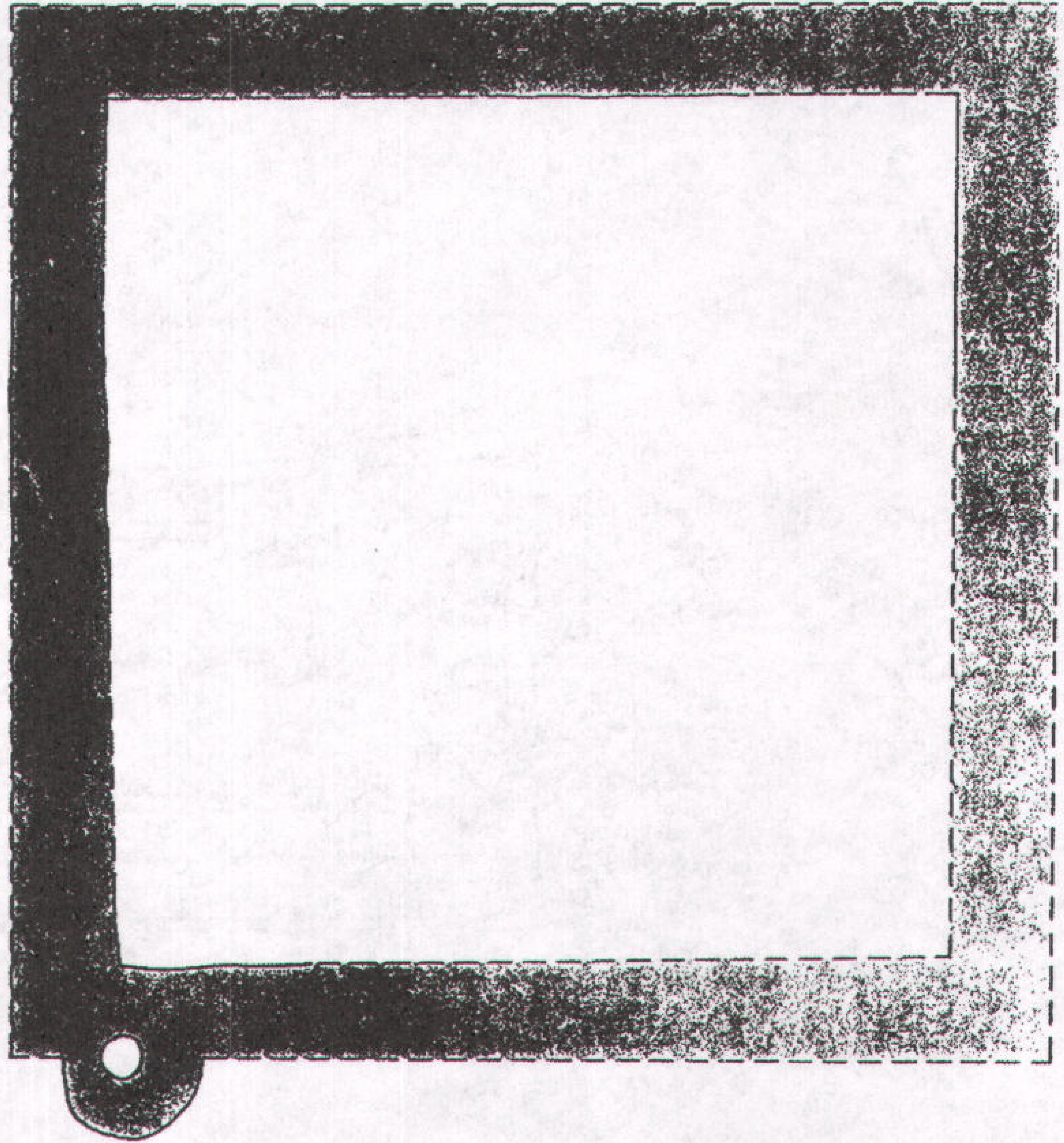
المعبد رقم (١)





المعبد رقم (٢)

٧-٣ (أ) ، (ب) مخططات المعابد ٢,١

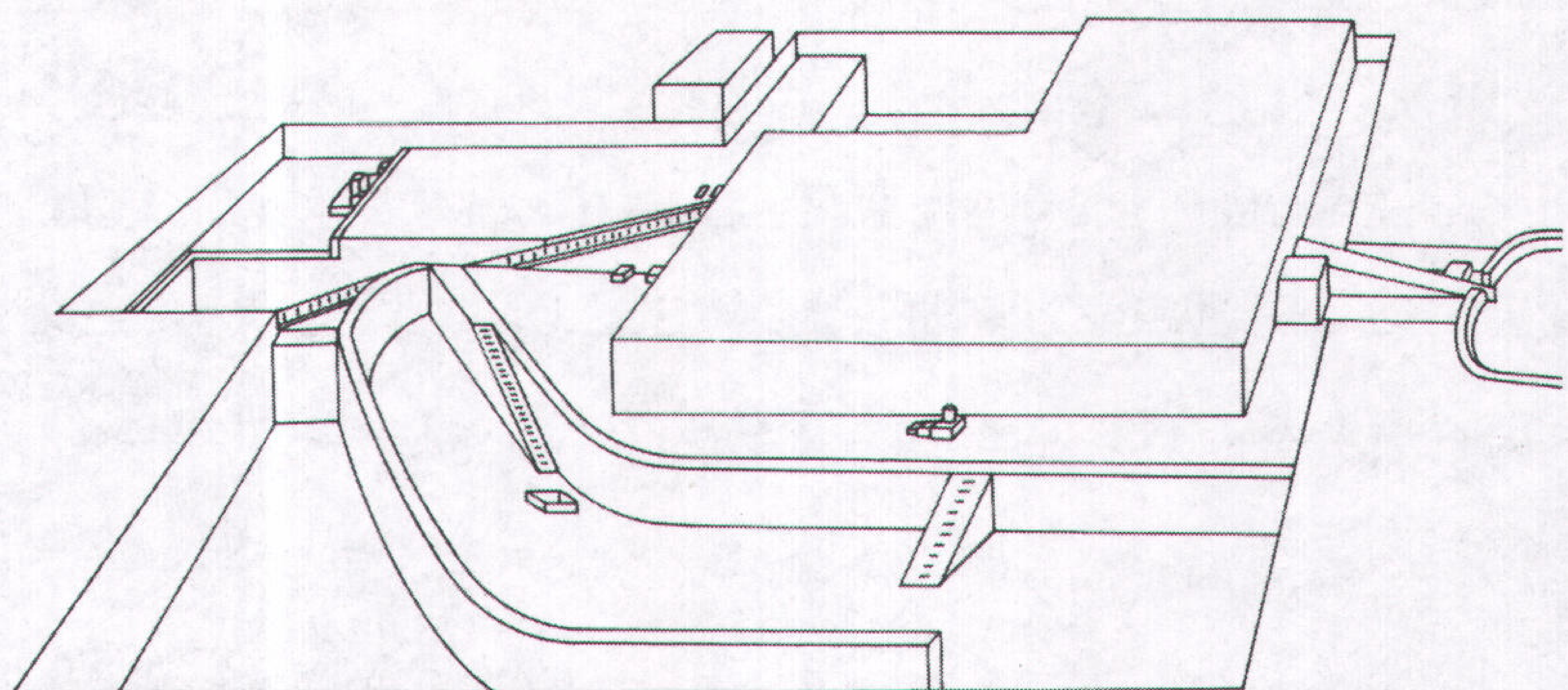


٧-٣ (ج) مخطط المعبدالثالث

بمزارع النخيل ، والمعبد الثاني والثالث كل منهما فوق سابقه(شكل٧-٢) .

ولقد بني أقدم المعابد على سطح مضلع بطول ٢٤م وعرض ١٥م ، ويمكن أن يكون قد وسع في مرحلة لاحقة (شكل ٧-٣أ) . وكان محاطا بجدار من الحجر ، وكان على قمته عدد من الغرف المبنية من الحجر تحيط بباحة مفتوحة . ويبدو أن المعبد قد بني على طبقة من الرمل النظيف وضع عليها بعناية طبقة من الصلصال الأزرق ، ثم كومت طبقة أخرى من الرمل فوق الهضبة، ربما للمحافظة على طهارتها الدينية قبل بدء البناء الفعلي . وحتى في المرحلة الأولى يظهر عنصر الماء الذي كان -كما سنرى - أهم العوامل على الأرجح في الشعائر المعمول بها في باربار . و في الركن الجنوبي الغربي من هذا المجمع القديم يوجد دَرَجَان يؤديان إلى البئر المربعة البناء.

ولقد افترض بالفعل أن معابد باربار تحمل مضامين سومرية واضحة، وإن بفوارق ملحوظة، ويمكن أن تكون نتيجة التأثير الدلموني المحلي . ويمكن هنا ملاحظة اثنتين من السمات



٧-٤ رسم مجسمات منظورية لبناء معبد باربار (رسم د . ب . دو)

السومرية فيما يتعلق بأبنيتهم المقدسة : أولا، قلدت أبنية معابد باربار ممارسة البناء فوق المعابد والمقدسات التي عاشت أبعد من حدود غايتها، أوالتي احتاجت إلى تجديد، وهو ما يعكس الاعتقاد بالطابع المقدس بلا منازع للمكان بمجرد تخصيصه لخدمة الآلهة . وروعي العرف ذاته عندما حان موعد بناء المعبد الثاني (شكل ٧-٤) ، وكان المعبد الأول قد دك من البداية، لكن مجمع المعابد المركزي قدسمح ببقائه قائما، ورفعت المحاريب الجديدة فوقه، مبدية هذا الجانب من التأثير السومري الذي استمر خلال فترة بلغت ٥٠٠ عام (شكل ٧-٣ج)

أما الممارسة السومرية الأخرى المتمثلة في باربار فتتضح من دفن "ودائع الأساس" وكميات من الفخار والمعادن الموضوعة بصورة احتفالية في الأرض عند البناء ، وربما كقرابين أو نذور للآلهة الشثونية* وعثرت بعثات التنقيب في باربار على نحو ١٠٠ إبريق مخروطي من الفخار جميعها مكسورة شعائريا في حشوة منصة المعبد . وربما كانت هذه الأباريق تستخدم في مأدبة شعائرية في الوقت الذي دشن فيه المعبد لأول مرة ، كما عثر على جرة أسطوانية الشكل من الحجر الجيري تحت المنحدر المؤدي إلى المعبد .

---

* مجموعة من وثائق البناء وأدواته تودع في أساسه بغرض تخليد ذكراه وحفظ تاريخه (د . السقاف) .

وكان المعبد الثاني امتداداً وتوسيعاً للمعبد الأول ، لكنه تتبع تصميم الأول بصورة تقريبية. وكانت المنصة المركزية قد أبقيت على حالها رغم أنها قد رفعت. وكانت تحدد المنطقة المقدسة لكنها محاطة بشرفة أقل ارتفاعا يحيط بها جدار بيضاوي بطول ٦٦م،ولا يزال قائما نحو ٢٧م من الجدار الخارجي. و إلى جنوب المعبد مطلع درج لا يزال قائما يقود إلى الشرفة البيضاوية. ويحدد أدنى مطلع الدرج بالمصادفة مستوى الأرض كما كان عليه في ذلك الوقت ، مبينا كيف ارتفعت الأرض على مدار الأربعين قرنا التي مضت. ولم تصل أعمال التنقيب إلى الجزء الأعظم من تلك المنطقة حتى الآن.

ولقد ضيف على المجمع ميزة أخرى ، وهي منطقة القرابين في ذاك الوقت، ويرى إلى الجانب الشرقي من الموقع باحة بيضاوية تقبع تحت مستوى الشرفة الرئيسة ، ويتم الوصول إليها عن طريق منحدر تدريجي. وعثر في هذه المنطقة على طبقة سميكة من الرمال احتوت على عظام محروقة للحيوانات التي كانت تقدم قرابين.

وهناك شيء في المعبد الثاني وهي البئر المقدسة أو النبع ربما لإبسو (هاوية الماء الجوفي) لإنكي والتي تقع غرب المنطقة التي يقوم عليها المعبد. ويقود مطلع درج طويل ، مدمر جزئيا الآن، إلى الماء في الأسفل. (شكل ٧-٥) وهذه البئر مثل كثير غيرها في باربار



٧-٥ بئر أبسو Absu المقدسة في مجمع معابد باربار (المؤلف)

مبنية من كتل حجرية مقطوعة بعناية جلبت من جزيرةجيرة القريبة من البحرين، وأما المعبد الثاني من الناحية الأخرى فقد بني من حجارة بحرينية محلية.

وحقيقة أن المعابد- استناداً إلى صلاتها السومرية الظاهرة – قد بنيت من الحجر في الغالب، حقيقة ذات أهمية عظيمة بحد ذاتها. وكان السومريون يبنون من الآجر المحروق لأن أرضهم محرومة من الحجارة التي كانت وفيرة في البحرين. وعلى ما هو واضح، كانت الجزيرة حتى في ذلك الوقت تمتلك صناعاً مهرة استطاعوا التعامل مع الحجر الجيري جيد النوعية ، وكانوا يعملون تحت إشراف مهندس معماري مجهول، وهو إن لم يكن دلمونيا (رغم أنه من المرجح أن يكون كذلك) كان يعلم تقنية البناء بمادة لا بد وأنها كانت غريبة إلى حد بعيد عن الناس الذين يبدو أنهم أوحوا بتشييد المعبد.

وكان المعبد الثاني الذي استخدم إبان القرون الأولى من الألف الثاني ق. م أوسع من سلفه. وفي وسط الموقع باحة مربعة يحيط بها جدار هائل من الحجر بمعمارية دقيقة (شكل ٧-٦)



٧-٦ الهضبة التي أقيم عليها معبد باربار الثاني (إدارة الآثار في البحرين)

وتوجد بقايا غرفة بمحاذاة الجدار باتجاه الغرب والشمال ، بينما الباحة نفسها رصفت ببلاط من الحجر الجيري ، ولا تزال منصتان أثريتان للقرابين قائمتين وقد صنعتا من الحجر المقطوع بدقة تسمح بمذبح بينهما في وسط الباحة . وإلى الشرق من منصتي التقدمات ثلاثة محاريب من الحجر قامت هناك ذات يوم . وإلى الجنوب الغربي تقف ثلاث كتل من الحجر يخترق كل منها ثقب دائري . ولقد قيل إن هذه كانت تستخدم لربط الأضحيات في المراسي الحجرية على غرار مسطبةالأسرة السادسة في مريروكا بعيداً إلى الغرب في سقارة بمصر.

وفي الزاوية الشمالية الشرقية من الفناء حفرة مربعة تحتوي على ودائع أساسات غنية كلها من النحاس . وهذا معقول لأن دلمون التجارية ،وهي النظير العلماني لدلمون المقدسة، كانت تعتمد على تجارة النحاس في ازدهارها الاستثنائي .

ربما غطت شرفة المعبد الثالث مساحة ١٥ متراً مربعاً، وفي مواجهة الشمال . وليس مؤكدا فيما إذا كانت البئر المقدسة وبيت الدرج الموكبي الجميل المؤدي إليها من منصة المعبد الثاني مدمجة في البناء الجديد . ويقف عاليا فوق البنايات المحيطة، المرجح أنها قد حشدت حول جدرانه والمنظر الأرضي الذي كان يقوم عليه كامل المجمع، فإن المعبد المتوهج بياضا لا بد أنه كان مثيرا للإعجاب فعلاً.

وإحدى الباقيات الغريبة من المعبد الثالث يمكن أن ترى في ملاط الجص الذي كان يستخدم لربط الحجارة في أساسات الجدران على الجانب الغربي من الشرفة العليا وعلى أرضية بناية أخرى إلى الشمال الغربي من المعبد الرئيسي . وعلى الملاط آثار أقدام عارية مطبوعة بوضوح. ولقد عثر على عدد من آثار الأقدام والكفوف في منطقة المعبد، وهناك أيضاً علامات أصابع كلب مبينة حتى في ذلك العهد البعيد، وحيث وجد الإنسان كانت الكلاب على مقربة.

وكان القَدَم أكثر الرموز استخداما في الكتابة على أختام دلمون التي سنصفها لاحقاً في هذه الدراسة. وليس هنالك دليل على أن آثار الأقدام في باربار كانت متعمدة أووليدة

الصدفة، فآثار قدم امرأة عاملة في الموقع ربما حفظت مصادفة لمدةأربعة آلاف العام التي مضت .والصلة بين المعابد البحرينية وينابيع الماء العذب صلة واضحة . وفي باربار توجد ثلاث قنوات مياه . ولعل بناء المعابد فوق ينابيع هامة يتعلق أيضاً بإدارة مصادر المياه التي كانت بأشكال متعددة مصدرا لاهتمام الناس في شبه الجزيرة والخليج إلى أمد بعيد . والفلج، وهوقناة ماء مبنية من الحجر ، والأرجح أنها إيرانية الأصل مألوفة لأي شخص عرف الخليج في الماضي القريب . وفي البحرين كان يطلق على المسالك المائية قنوات . وكانت القناة عموماً تحت سطح الأرض ، ولا يزال بيع الماء بالمزاد العلني قائماً في المناطق الريفية في عمان حيث تجري الأفلاج على السطح وفي العهود القديمة ما من شأنه أن يكون مجاريا لعرض وجهة النظر حول الكيفية التي تدبر العالم فيها أمر توزيع المياه،وجعله بين يدي الكهنة وتعاونهم إدارة المعبد . ومما لا شك فيه أن ذلك يقدم الإسناد على أهمية الموقع الذي احتله إنكي إله المياه الجوفية في أذهان السومريين، وفي أذهان شعب الخليج أيضاً .

وكثير من الأشياء التي اكتشفت في باربار من نوعية جيدة جداً مما يؤكد على درجة الثقافة العالية التي انتعشت في البحرين في الألف الثالث قبل الميلاد . وكانت باربار تنتج نوعاً متميزا من الفخار (يعرف الآن بفخار باربار) والذي تم تعرّفه لأول مرة في الموقع. ويمكن بسهولة تعرّفه من خلال حوافه الأفقية البارزة .

وكان السومريون يحترمون أدوات التجارة التي كان الشعب يمارسها،وكانت الآلهة تباركها والقصائد تُمَجدّها . وليس مستغربا بناء على ذلك أن نجد في باربار في ودائع المعبد الثاني فأسا نحاسية وقدوماً نحاسياً، والأول متعلق بالبناء، والآخر بالزراعة .

وعثر على نماذج نحاسية من رؤوس الحراب،فؤوس ذات ثقب قضيبي وعلى شكل هلال في حشوة المنصة المركزية، إلى جانب خرز من الرخام واللازورد والعقيق الأحمر. وكان اللازورد أحد المنتجات التي اشتهرت بها دلمون ، وكانت تتاجر بها مع مصر، لكن مصدرها الوحيد المعروف كان دائما شرق باداخستان في أفغانستان ، كما عثر في الودائع

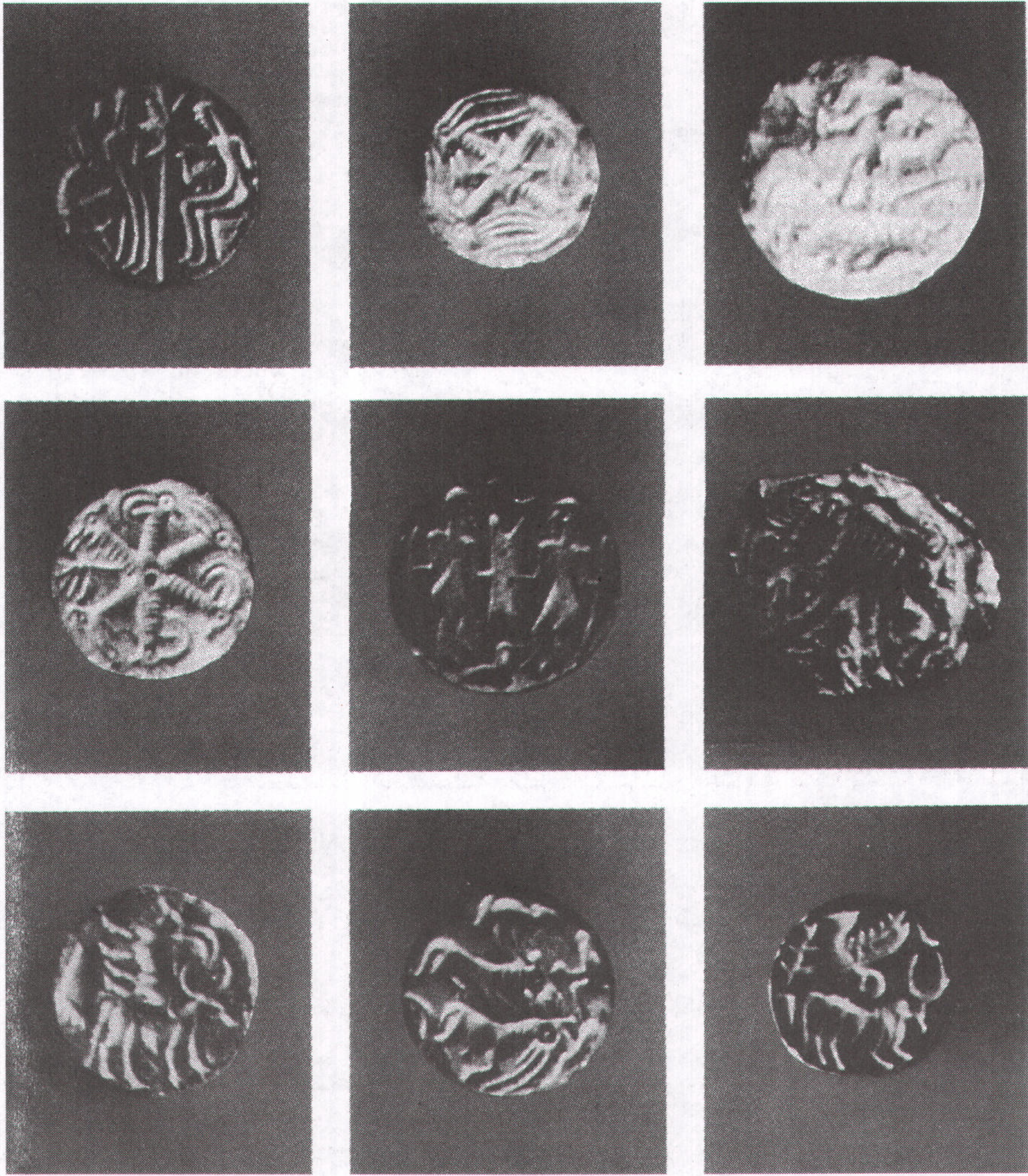
على شريط صغير من الذهب.

ومن بين أكثر المنتجات جاذبية في البحرين القديمة والتي عثر عليها في موقع باربار الأختام المنبسطة التي تتلازم بصفة خاصة مع البحرين والخليج في ذلك الوقت. ولقد عثر على العديد من الأختام في باربار ،بما فيها مجموعة من البئر المقدسة ذاتها. ولقد افترض أنها ألقيت في البئر في تصرف شعائري ما، ربما للفت انتباه الإله المقيم إنكي بلا شك ، أو ابنه إنشاك ، إلى احتياجات وطموحات مالكي الأختام.

جاءت الأختام جميعها من المستويات الثانية للمعبد، وهي من النوع المطور المميز للبحرين وفيلكا في نهاية الألف الثالث ق .م وسنوات الألف الثاني الأولى. وكان هذا هو عهد عظمة دلمون التجارية، وكانت الأختام هي على الأرجح علامات تجارية لشركات عائلات من التجار المتمركزة في البحرين لكنها تتاجر مع سومر في الشمال، وعمان في الجنوب ،ومدن وادي السند العظيمة في الشرق مثل موهنجودارو وهرابا (Harappa) انظر الفصل الثامن (شكل ٧-٧)

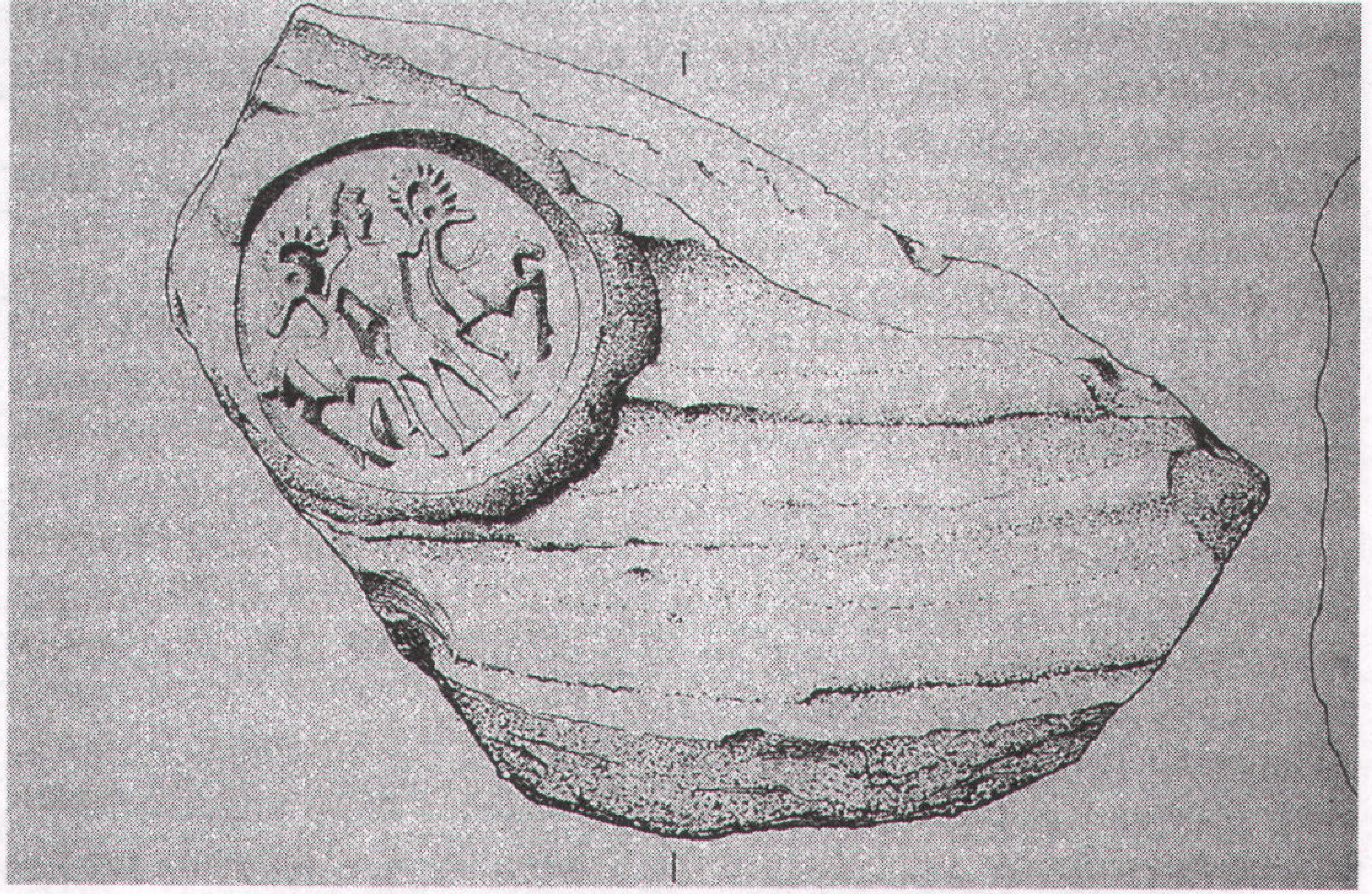
وتبقت أيضاً كسرة فخار تبين انطباع خاتم دلموني بكل وضوح (شكل٧-٨). وقد عثر عليها في البئر في باربار ، وتظهر تمثالا بطوليا يمسك بحيوانين من رقبتيهما ممارسا عليهما إرادته.

وهذا التصميم ضارب في القدم فهو معروف من سومر أواخر الألف الرابع ق .م، من جنوب غرب إيران حيث تعتقد بعض المصادر الموثوقة أنها نشأت هناك إلى الشرق بعيداً من مصر، وأثار وجودها هناك في عصر ما قبل الأسر في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد عَزّز التخمين بشأن تأثير الخليج وبلاد ما بين النهرين في المصريين في ذلك الزمان قبل توحيد مملكتي وادي النيل تحت حكم أول الملوك المصريين . ولقد ألمحنا مسبقا أن بعض المصادر، بمن فيهم بتري،قد اعتقدوا أن مؤثرات بلاد ما بين النهرين كانت قد وصلت إلى مصر "



٧-٧ مجموعة من الأختام المتميزة من البحرين في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، وقد انتشلت من البئر المقدسة في باربار (إدارة الآثار في البحرين)

عن طريق تدخل سكان جزر الخليج الفارسي" . ويظهر خاتم خليجي آخر شخصية بطولية يسيطر بالأسلوب نفسه على عقربين ضخمين، ويوحي استخدام هذا الرمز بذاته في هذا المحتوى غير المحتمل بأنه كان ذا أهمية عظمى في الماضي القديم .



٧-٨ قطعة فخارية تحمل ختم دلموني (متحف البحرين الوطني) ولقد عثر على أختام مثيلة في أرض ما بين النهرين ،وفي عيلام ، بل وفي مصر أيضاً

كانت الموسيقى سمة ملحوظة في الاحتفالات الدينية السومرية ، ولقد وصل إلينا العديد من العروض الموسيقية بما فيها بعض المشاهد السارة التي تصور الحيوانات كموسيقيين، ولكنه في احتفالات المعبد في باربار لا بد أن نفترض أنه انبعثت ترانيم رنانة ورصينة من الباحات لتهدئة الآلهة . ولا شك أن صوت المزامير والقيثارات كان يقابل حداء الكهنة والناي وآلات الإيقاع بما فيها الطبول والخشاخش وشيء ما يشبه الصنوج العصرية .

ولقد سبقت الإشارة إلى اهتمام الشعائر السومرية في باربار بالموسيقى . ويوجد في ودائع المعبد الثاني خشاخش نحاسية صغيرة لعلها من أدوات الإيقاع في الجوقة القديمة، وكانت مرتبطة بأهم وأجمل ما عثر عليه على الإطلاق،وهو رأس ثور ضخم مسكوك بصورة جميلة بالنحاس . وعلى الرغم من أنه هذا مجرد افتراض، إلا أن هذه القطعة الجميلة كانت تزين صندوق الصوت لعود سومري ، من النوع الذي وجد في حفرة الموتى العظيمة في أور، والتي حفظها بأعجوبة السير ليونارد وولي . ولقد كانت الآلات الوترية التي تحمل رؤوس حيوانات مزينة بصورة مكثفة الصفة المميزة للمعابد السومرية والاحتفالات الملكية . ومن



٧-٩ ختم دلموني (من جزيرة فيلكا) يبين قيثارة برأس ثور ومنظرا مبهما قد يكون ثوراً ثانياً قدم كأضحية

المؤكد أن رأس الثور في باربار قد أدى هذه المهمة السارة. ويبين خاتم دلموني من فيلكا التي كانت منذ بداية الألف الثاني ق. م جزءاً من "إمبراطورية" دلمون عودا على شكل رأس ثور من هذا النوع (شكل٧-٩)

والمشغولات التي اكتشفت في باربار من أهم ما عثر عليه في أي مكان في الخليج، فهي تسهم كثيرا في فهم الممارسات الدينية والمعتقدات الدلمونية قبل أربعة آلاف سنة خلت.

ضمن تخوم المعبد الأول والأكثر قدما عثر على صف مزدوج من الحجارة المقطوعة تبلغ الثماني في مجملها في الجانب الغربي من المعبد، وقد نحتت في أسطح هذه الكتل العلوية ثقوب مربعة كانت في الأصل مبطنة بالنحاس وملصقة بالحجر وبالقار، وقد غرس خلال النحاس مسامير ورؤوسها إلى الداخل، وفي بعض الأحيان مع خشب لا يزال مثبتاً بها. ويحتمل أنها كانت دعائم لأعمدة خشبية، أو قواعد لتماثيل خشبية، فالثقب الثالث في إحدى هذه الكتل يمكن توضيحه على أنه ثبتت فيه عصا صولجان كان يحملها التمثال. ونحت بشكل عشوائي على جانب واحد من الكتل تمثالان لرجلين أحدهما ذراعاه ممتدتان

للأسفل ، والثاني ذراعاه مرفوعتان وأصابع كلتا الكفين متباعدة ويبدوأن هذه الكتلة بعينها أخليت من الموقع ولم يعثر عليها حين أعيد حفر المعبد ثانية عام ١٩٨٣وعلى الرغم من أن بقايا المعبد الثاني محفوظة جيدا ومنتشرة في الموقع فإن المعبد الثالث في باربار يظل أكثر تعقيدا من الناحية المعمارية وأكثر تطورا. ففي الوقت الذي تم فيه بناؤه ، رفعت منطقة التخصيص أوالحرم الرئيس، عاليا فوق سطح الأرض المحيطة بها. ودعمت وطيدة حجرية دائرية مزدوجة مذابح المعبد الرئيسة الثلاثة وفي مواجهتها مقعد حجري أوعرش أمامه مذبح إراقة. ووجد وراء هذا المذبح حفرة تقدمات مبطنة بالحجر وبذلك تكون قد بنيت قصدا كجزء متمم للمعبد، مثله مثل سائر المعابد السومرية، وكان به آنية من المرمر، وتماثيل نحاسية لعابد عاري الجسم لعله كاهن وتمثال طير. وكانت ثلاثة من الآنية المرمرية بحالة كاملة ،لكن الأخريات مجرد قطع عثر على مثيلات لها في أور، ويمكن نسبتها إلى نهاية الألف الثالث ق .م . ولم يتم بعد الكشف عن بئر كبيرة مرتبطة بالمعبد الثالث.

لقد تم اكتشاف مجموعة واسعة من الفخار أفقي الحواف المعروف الآن بفخار باربار نسبة إلى الموقع الذي عثر عليه فيه. والنوع الآخر من الفخار البحريني المميز هوالفخار متسلسل الحواف. ولعل بعض هذا الفخار كان قد صُدِّرَ إلى سومر، إذ عثر عليه في القبور الخاصة بعصر الأسر المبكر في أور .كما أن هنالك إناء حجرياً مزيناً بدوائر متحدة المركز يشبه أخريات من مدافن أور من الحقبة الزمنية ذاتها.وعثر على مشغولات نحاسية في باربار مما يؤكد أن الجزيرة قد استمدت اقتصادياتها معتمدة إلى درجة كبيرة على تجارة النحاس . ومن بين هذه الموجودات العديد من رؤوس السهام،وهذه تذكر بأمثلة مشابهة من أور، ورؤوس الفؤوس النحاسية ، وكثير من الفؤوس المكتشفة من مواقع قرابين بحرينية محضة، ولا يمكن أن تكون وظيفية. ولا يغيب عن البال أن الفأس الدلمونية قد ظهرت في أقدم النقوش المتعلقة بالبلاد في نهاية الألف الرابع ق م.

ويردد وجود رأس الثور الدقيقة في باربار بقرونه العظيمة المنحنية للأعلى، صدى ذلك

الزمن القصي حين كان أسلاف السومريين يصنعون أهم مزايا ثقافتهم الرائعة والنافعة . ويعتبر رأس الثور أحد أقدم النقوش التصويرية . وكان يستخدم للرمز إلى الثور . وتظهر هذه العلامة على أقدم الألواح لما تطور فيما بعد إلى الكتابة الرسمية . وتطورت النقوش التصويرية تباعا من خلال تجريدات شكل رأس الثور إلى الحروف المسمارية في النهاية، كما أن رأس الثور أيضاً هو أصل الألف والألفا التي أصبحت الحرف الأول في الأبجدية اللاتينية .

ولقد كان رأس الثور رمزاً قوياً منذ الاستيطان الأناضولي لستال هيوك على سهل كونيا . وكانت رؤوس الثيران هناك عناصر لتصميم الأماكن المقدسة التي كانت على جانب من الأهمية بمكان لهذه المدينة البدائية . وبالمثل ، كرمت مصر رأس الثور ، ففي قبور الأسرة الأولى الملكية في سقارة ، عدد من جماجم الثيران موجودة فوق مسطبة منخفضة على جانبي قبر نبيل عظيم من نبلاء حكم الملكة دين كما أن الملكة هير- نيث من الأسرة الأولى دفنت في قبر مزين بجماجم الثيران .

و يتكرر ظهور الثور في الخليج رمزا على الأختام المقصورة على ثقافة المنطقة . ولقد كان الثور منذ أقدم العصور رمزا مفضلا في تصاميم بلاد ما بين النهرين ، حيث خضع للعديد من عمليات التنقيح والمواءمة متنقلا في التأويل الطبيعي إلى الأكثر فالأكثر تجريدا ، والتطوير الذي تكرر في سيرته من الكتابة التصويرية إلى الخط المسماري . ومن المدهش بصفة خاصة في الفخار الجميل القديم جداً من مواقع هالافيان في الأجزاء الشمالية من بلاد ما بين النهرين، أنها موجودة بصيغة أسلوبية في مخزون الخزافين والرسامين من فترة العُبيد .

آلهة باربار

ولا نملك سوى التخمين فيما يتعلق بالإله والآلهة الذين عبدوا في باربار. وعلى الرغم من أن إنكي هو أهم الآلهة التي عبدت في دلمون ، إلا أنه تم تعرّف آلهة سومرية أخرى ذات ارتباط بالجزيرة . وهكذا كانت إنانا (Inanna) تعبد في معبد في أور يطلق عليه الدلمونة (Ed-Dilmun-na)مخلدا صلاتها بالجزيرة. وكانت دلمون أرضا للآلهة ، وليس غريباً بناء على ذلك أن تكون المعابد الجليلة قد أقيمت تكريما لها ، مع أن عددها في جزيرة قصية وصغيرة إلى هذا الحد محير إلى حد بعيد. ولقد هنأ ملوك سومر أنفسهم على ورعهم في ترميم المعابد حين أصابها التلف . ويقول وراد –سن (في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ق.م) في نقش طويل في أور مشيرا إلى الدلمونة :

"بالنسبة لإنانا السيدة المتلفعة بالبهاء العظيم، المدبرة لكل القوى، الابنة الكبرى لسين، سيدته: وراد–سين، الأمير الذي يفضل نيبور ، مغذي أور، الذي يهتم بجرسو مع لجش، الذي يبجل إبارا ملك لارسا ملك سومر وآكاد، القوي الذي يسعى إلى الوحي الإلهي وينفذ رغباتها، والذي يشيد من جديد بيوت الآلهة، أنا الذي منحه إنكي فهما واسعا للقيام بواجبات المدينة. ولهذا السبب ، من أجل سيدتي إنانا، وبصلواتي قمت بترميم الدلمونة مقر سكناها وسرور قلبها ، كي ترى العين وكي يكون داخله مستحبا قمت بتوسيع مساحته أكثر من ذي قبل. ومن أجل أيامي القادمة بنيته ورفعت رأسه وجعلته كالجبل . وتبتهج إنانا سيدتي بأعمالي . وأسألها أياما طويلة،ووفرة من السنين وعرشا مستقر الأساس ،وصولجانا لأخضع الشعب به تمنحه إياي عطية منها."

ويبدو أن الدلمونة كانت ذات مغزى خاص بالنسبة للسومريين، ولعل ذلك بسبب طبيعة دلمون ذاتها، فإذا كانت "مكان الاجتماع" للشعب ،وليس فقط لآلهتهم، في رحلتهم إلى سومر، فهذا أمر مفهوم بما فيه الكفاية . وكان مركز ديانة سن – نانا في أور على حافة الصحراء التي تدفق منها على الدوام جحافل الرحل الشرسة الذين هددوا المدن السومرية،

ثم اندمجوا فيها، وزادوها ثراء في نهاية المطاف بلا حدود ولوعلى حساب بقائها ذاته. وكان سن- نانا أحد أعظم الآلهة وكرمته العديد من المدن غير أور بالمعابد والمزارات . وتبين سلسلة من معابد سن التي عثر عليها في خفاجة أن إله القمر كان منذ أقدم العصور إلها قدمت له العبادة المفصلة تفصيلا. ولقد لوحظ أن القمر هوالنسخة الأولية من الإله الكوني لشعب الصحراء، وأن القبائل السامية سارت على هذا الاعتقاد. وشيد عرب ما قبل الإسلام معابد القمر واعتبروه لطيفا ورؤوفا مثلهم في ذلك مثل أسلافهم ، وهذه وجهة نظر مفهومة لقوم كان عليهم تحمل العذاب اليومي من الشمس الحارقة. وهكذا تقوم الحجة على أن سن-نانا كان إلها له أهمية ومودة خاصة لشعب الصحراء حين استقروا لأول مرة في أور على حافة الصحراء.

بيضاويات المعابد

على ضوء اكتشاف معبد في باربار في البحرين، والشبيه إلى حد بعيد- في أحد جوانبه الهامة على الأقل- بالمعبد الذي بني لتمجيد سن في خفاجة، فإن من المثير للاهتمام أن تتحدث بقايا ترنيمة إلى القمر الإله عن «المعبد (سجنامسار) الذي هوجبل دلمون». ويحتمل أن في ذلك إشارة إلى مجمع معابد في دلمون، ولعله ذلك المعبد الذي في باربار ذاتها. وبينما الترنيمة موجهة إلى سن-نانا، يرى بعض المفسرين أن الآلهة قد احتفي بها على أنها إنكي الكلي الوجود. ويعزز هذا الرأي تفسير سجنامسار بأنها مخصصة لواهب الكتابة، وهولقب مناسب لإله الحكمة.

ولا يقتصر وجود أبنية المعابد البيضاوية الشرفات على بلاد ما بين النهرين. ففي مصر العليا في هيراكونيبوليس، توجد بيضاوية تضم حائط معبد مربع تقريبا ، ومجموعة من السمات غير المصرية بصورة صارخة . وبالفعل، لا مثيل لمعبد هيراكونيبوليس في مصر كلها.

وكانت هيراكونيبوليس العاصمة الأصلية لسلسلة من الأمراء أصحاب الفضل طوال

التاريخ المصري في توحيد ممالك وادي النيل . وكانت مقر " الترسب الرئيس" الذي احتوى على مشغولات مثل لوح بارمرالذي عليه عناصر نقش أيقوني مثل الرجل القوي مروضاً للأسود، والذي يوجد أيضاً في الخليج ، كان قد نشأ في غرلي آسيا) ، ورأس صقر ذهبي فاخر. وعثر في هيراكونيبوليس أيضاً على القبر المرسوم الشهير ، "القبر ١٠٠" ، وكانت جدرانه مقصورة وعليها سلسلة من النقوش الصغيرة التي وجد الكثير منها في الخليج وإن كان بعد ذلك بألف عام.

وهنالك فجوة كبرى بين التاريخ المقبول لنماذج هيراكونيبوليس (٢٨٠٠ ق. م في أحدث التقديرات المقبولة عموما) والنماذج الخليجية (٢٠٠٠ ق .م على أقرب تقدير) وهذه لاتسمح بالاستنتاج بأنها ذات صلة بطريقة مباشرة ما . ورغم ذلك فإن ظهورها في كلتا الثقافتين أمر محير.

وهنالك دراستان حول معنى اسم باربار تثيران الاهتمام من حيث إن كلاً منهما تشير إلى استنتاجات مختلفة تماماً توحي بأن مصدر الاسم يمكن أن يعود إلى الوراء، إلى الوقت الذي كانت فيه المعابد مزدهرة. باربار ليست كلمة عربية ،لذا يجب البحث عن معناها في مكان آخر.

وتشير الدراسة الأولى إلى أن باربار يمكن أن توحي بمعنى " بصمات الأصابع،" ولعل هذه يعني أن بناة المعابد لم يكونوا من مواطني البحرين الأصليين وكانوا يعرفون من قبل الدلمونيين المحليين بهذه الصفة. ويمضي صاحب النظرية ذاته قائلاً إن "شمش" إله الشمس، والإله المهم في سومر، ومثله مثل إنكي، الألطف عموما تجاه الإنسان، كان يعبد في المدينة السومرية لارسا في معابد يطلق عليها أي -بابار، والتي يلاحظ أنها تترجم "بالبيت الأبيض" ، وتعني عبارة "باب بار" في اللغة السومرية أيضاً " شروق الشمس،" وكانت دلمون مشهورة باسم " أرض الشروق" .

وتثير كثير من المواقع البحرينية المعروفة حتى الآن ، والتي يكون من أبرز عناصرها معبد أومزارا هام، أسئلة حول الشخصية المقدسة والخاصة للجزيرة في العهود السومرية . ولقد بنيت المدن السومرية جميعها حول المعابد، وكانت في معظم الحالات السبب في وجودها . و عملية بناء المدن عملية معقدة ومتغيرة، ففي حالة المدن الأولية السومرية يحتمل أنها بدأت كمراكز دينية تخدم مجموعة من القرى والمستوطنات التي كانت المدينة في بداياتهاو نواة لها . وكانت المدينة تخصص لإله أو عدة آلهة، فهي ملكهم، ولم تقم مدينة أبدا من غير معبدها .

و البنايات جميعها التي نقب عنها في المدينة المبنية في موقع قلعة البحرين حتى الآن علمانية مخصصة للتجارة ،وليس لتكريم الآلهة باستثناء قاعة واحدة واسعة تحمل بعض الشبه بأسلوب أبنية المعابد . ومع ذلك كانت دلمون أرض المعابد، وتؤكد المناطق التي تم مسحها في شمال الجزيرة على وجود صروح كبيرة عديدة، وأنتج كل موقع تم حفره (غير حقول المقابر) حصيلة من البنايات المقدسة . وفي منطقة باربار ، على سبيل المثال، لا شك أن المزيد من الحفريات سوف يؤدي إلى اكتشاف المزيد من المعابد .

ويعود السبب في ذلك إلى سمعة القداسة الاستثنائية التي تمتعت بها الجزيرة بكاملها . ولربما كانت الجزيرة بكاملها المركز الديني المخصص إلى الأبد للآلهة العليا، فقد أحاطت بها المياه بدلا من الجدران كما هو الحال في المعابد في المناطق البعيدة عن السواحل . وكل شيء داخل جدرانها المحاطة بالبحر مقدس على غرار temenos السور المقدس في كل مدينة سومرية . وإذا كان المعبد الرئيس موجود في باربار على بعد ٦ كيلومترات من المدينة فلا أهمية لذلك ، فالمدينة والمعبد على حد سواء ستكون محتواة ضمن تخوم الجزيرة المقدسة . وفي الحقيقة كانت دلمون أول أرض مقدسة ، مكان الاجتماع ليس للآلهة فقط بل للشعب أيضاً .

فن باربار المعماري

يبرز الفن المعماري لمعابد باربار درجة عالية من الكفاءة الفنية خاصة في التشكيل المتقن لكتل الحجر المربعة التي بنيت منها أبنية البئر العظيمة أوالحرم . واحتوت منطقة القرابين على عدد من الكتل التي تكون منها بنايتان دائريتان ، وشُيِّدَ حول المعبد جدار ينحني قليلاً عند زواياه. وتظهر أجزاء من الجدران المبنية من كتل الحجارة المربعة خاصية مثيرة للاهتمام وهي التشكيل غير المنتظم لمسارات الحجارة التي ينطبق بعضها فوق بعض، وهي التقنية التي تقوي الجدران الحجرية النموذجية في مصر في الألف الثاني ق .م . و يذكر نقل الحجر من قلعة البحرين و باربار بقدر أكبر بالمرتكزات التي اعتمد عليها المصريون أكثر مما يذكر بعمل البنائين السومريين. وتعود تقنية البناء الحجري في باربار إلى أوائل الألف الثاني ق .م وتعيد أيضاً إلى الأذهان أسلوب استخدام حجارة مقطوعة صغيرة نسبيا في الفن المعماري القديم في أم النار، وهي على الأرجح الجهة التي جاءت منها تقاليد البحرين المعمارية.

وشبكة الحجارة المربعة، وهي كتل كبيرة دقيقة القطع في باربار، مميزة الطابع للمعابد اللاحقة، ففي البناء الأول يلاحظ أن الحجارة صغيرة مكتظة ومتراصة مع بعضها . وتوحي بعدم الإلمام بخواص الحجر على نطاق واسع، و أثارت التساؤل عما إذا كانت من عمل صناع مبتدئين في هذا المضمار ، الأمر الذي يناقض الثقة والكفاءة التي ميزت الصروح اللاحقة.

موقع باربار أهم اكتشاف في الخليج العربي حتى الآن، وكان قد اكتشفه بادئ الأمر الدنمركيون ما بين ١٩٥٥-١٩٦٣ ،وأعيد طمر الموقع بعد إخلائه لحمايته والاحتفاظ بالبقايا كأثر ليتمكن الزوار من فهم أهميته. وقد تحقق هذا الآن تحت إشراف دائرة الآثار البحرينية.

مواقع بحرينية أخرى

هنالك الكثير من المواقع ذات الأهمية الأثرية في البحرين ، وهنالك أيضاً وعي متزايد بأهميتها لدى المشتغلين والمهتمين بالآثار، أيقظته في الأصل الحفريات الدنمركية.

ومن بين تلك المواقع أم السجور على بعد ١,٥ كم إلى الغرب من دراز وعثر به على آثار غير متوقعة يمكن أن تضفي شيئا ما على مسألة الشخصية الدينية للجزيرة. والموقع عبارة عن بئر معبد صغير أحرز شهرة لاحقة وفقاً لما تقوله الأسطورة حين قام الخليفة عبد الملك بن مروان، يحفزه ارتداد البحرين إلى آلهتهم القديمة في سنوات الإسلام الأولى، بغزو الجزيرة وتدمير البئر عقابا للشعب على هرطقتهم*. وقبل هذا الحدث بكثير، كانت هناك بناية مقدسة عثر في أطلالها على تحفة باب أوزينة مزار بني في أيام النفوذ الدلموني الرفيعة في أواخر الألف الثالث ق. م، عبارة عن تمثالين لحيوانين مقطوعي الرأس وقد نحتا من الحجر الجيري وربما قطعت رؤوسها على يدي متطرف لم يرض عنها بالقدر الكافي فعمد إلى ذبحها شعائرياً.

ولقد اشتعل اهتمام كبير عام ١٩٧١ في دوائر علم الآثار من خلال التعرف على الفخار العبيدي في المواقع العربية الشرقية، وصورة رئيسة في عين قناص، والدوسرية، وأبوخميس. ولقد تم حفر المواقع العربية بخبرة واحتراف وعثر على فخار عبيدي في الدعسة، وفي رأس أبروق ودخان ومنطقة بئر زكريت في قطر. وفي عام ١٩٧٣ جاء فريق بريطاني صغير إلى البحرين للعمل في ثلاثة مواقع سبق التأكد من أن العمل بها يكافئ المجهود، وكانت هذه هي المرخ، ودراز شرق بالقرب من بئر الثيران الذي كشف عنه الدنمركيون في الخمسينيات، وموقع آخر عند شمال جنوسان. وكانت مبادرة هذه البعثة قد تشكلت أعقاب مؤتمر عام ١٩٧٠ (انظر الفصل الثاني). وعمل البريطانيون في البحرين منذ عام ١٩٧٣ وحتى عام ١٩٧٨.

المرخ

اختار الفريق البريطاني المرخ نتيجة لبعض القطع التي عثر عليها على سطح الموقع عام ١٩٧١ وتم تعرّفها على أنها عبيدية. وتقع المرخ في أرض الساحل الغربي جنوب قرية الزلاق. وهي هضبة منخفضة تغطيها الرمال وتحيط بها سبخات من الشمال والشرق، وهي

---

* لا صحة لما ذكره المؤلف هنا فالجيوش الأموية جاءت لمحاربة الخوارج في البحرين، وقصة ردم البئر تستند إلى رواية محلية ولم تصرّح بها المصادر التاريخية (د. السقاف).

أيضاً سهول غادرة حيث أنتج التبخر قشرة هشة من الرمل المتراص. وتوجد كميات كبيرة من الصوان وعظام السمك والحيوانات الأخرى مبعثرة في المكان.

عثرت الحملة على عدد من حفر النيران التي كانت تستخدم لإعداد الطعام . واكتشفت مرحلتين في الموقع: الأولى حين كانت الأسماك متمثلة في البقايا بصورة سائدة والأخرى حين أصبحت عظام الثدييات سمة بارزة، وحين شكل اللحم على ما هو واضح جزءاً هاماً في طعام سكان الموقع. واشتملت الحيوانات على الأرنب البحريني الذي لا يزال يعيش حول الموقع، وبقر البحر التي تتناسل في الخليج بين البحرين وقطر، وكذلك الماعز في أكثر الأحيان. واستنتج المنقبون تغيرا في تقنية صيد الأسماك من خلال كون أنواع الأسماك في المستويات القديمة صغيرة ، بينما في التالية عليها تميل عموما إلى أن تكون أكبر، كما اشتملت على المزيد من السمك الآكل للحوم. ولقد افترض أن هذه ربما اصطيدت بالسنارة والخيط أوبالحربة أوبالقوس والنشاب. ومن الواضح أن الصوان المستخدم لذبح الحيوانات الكبيرة ذو كثافة أكبر من ذلك الذي يستخدم لذبح الأنواع الصغيرة.

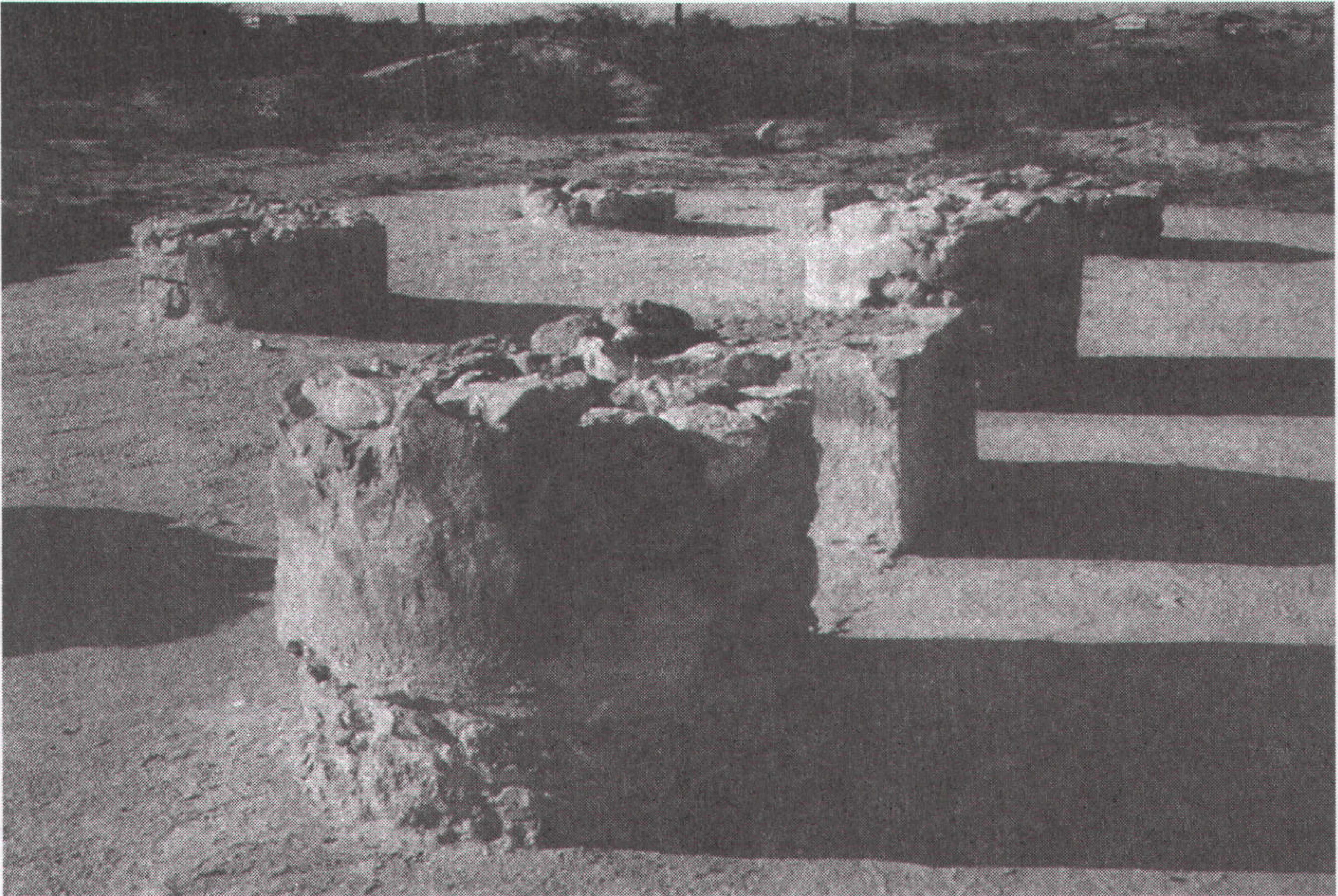
ولقدأدى تحليل إحصائي لقطع الفخار التي عثر عليها في المرخ إلى استنتاج أن الفخار كان مستخدما أثناء عمليات الاستيطان الأولى للموقع فحسب. وهذه القطع مطلية ويعود تاريخها إلى ٢٨٠٠ ق م.

وعلى الأرجح لم يكن هنالك مستوطنة دائمة في المرخ في هذا التاريخ من الألف الرابع ق م بل كانت تستعمل موسميا من قبل صيادي الأسماك القادمين من مكان آخر، ربما من جنوب بلاد ما بين النهرين ومن المواقع العربية المعاصر ة لها التي حصلت على الفخار العبيدي. ويوحي المستوى الأعلى للخليج في ذلك الزمان بأن المرخ كانت جزيرة صغيرة. والمثير للاهتمام أن نعرف المزيد عن الناس الذين استخدموا الموقع عندئذ، والوسيلة التي أبحروا بها إلى الجزيرة من الشاطئ العربي على بعد نحو ٢٠ كم ، لكن هذا النوع من المعلومات لا يتوفر في موقع المرخ الفقير والضئيل إذا ما طبقنا عليه المعايير الصارمة لآثار المناطق الصحراوية.

دراز شرق

دراز شرق، هوالموقع الثاني الهام الذي حفرته البعثة البريطانية، وهوجزء من مستوطنة كبيرة من الألف الثالث ق .م في القطاع الشمالي من الجزيرة. وكان دائما خصيبا ومسكونا على الأقل منذ حقبة باربار. وقد وجدت هناك كسرة معزولة من الفخار العبيدي.

ووصف المنقبون بقايا بناية هامة على أنها " معبد " و لأنه عثر على محراب مهدم جزئيا في بقايا البناية فإن ذلك يبدو معقولا بما فيه الكفاية (شكل ٧-١٠) وتسترعي البناية ذاتها الاهتمام بسبب صفوف الأعمدة الكبيرة التي قامت بداخلها . وكان هناك حوض واسع من الحجر والملاط بجوار البناية ذاتها ربما يكون من الحقبة البابلية المتأخرة. ووجدت قطع من فخار ذلك الزمان، واكتشفت في إحدى الغرف مدافن لخمسة أشخاص على الأقل يعود تاريخها إلى الحقبة البابلية المتأخرة . وعثر على "طاسة أفعى" كتلك التي عثر عليها



٧-١٠ بناية صغيرة من الواضح أنها مقدسة، في دراز شرق، المشهورة بأعمدتها الكبيرة التي يبدو أنها كانت تدعم طابقا علويا هاما .

في قلعة البحرين، لكنها فارغة، كما عثر أيضاً على خاتمين بدائيين.

وبسبب قيمتها كمنطقة زراعية، تم حفر العديد من مواقع دراز القديمة. ولاكتشاف المعبد في شرق أهمية خاصة إذ يعود للألف الثالث ق. م ،كما أنه لا يشبه أياً من البنايات التي يعود تاريخها إلى تلك الحقبة التي تعرفنا عليها من خلال المواقع البحرينية. ومما يثير الاهتمام أن درازمشهورة بانتشار العقارب بها، حتى اليوم ،الأمر الذي يجعل من الحفر عملية صعبة. وحتى هذا اليوم يبدو أن العقرب الذي يحيط بالأختام والتصاميم التي نعرضها يحمي دراز من المتطفلين.

اختتمت البعثة البريطانية عمليات حفر مختصرة في شرق عالي كشفت خلالها عن قبر من حجرتين يعود تاريخه إلى القرن السابع ق.م ، وعلى الرغم من أن القبر تعرض للسرقة إلا أن اللصوص لم ينتبهوا إلى وجود ثلاثة أختام: ختم أسطواني يعود تاريخه إلى عام ٦٥٠ ق. م وهو النموذج البابلي الحديث، وختم برأس مستدير على الجانب المقابل يبدو واضحا أنه مستمد من الأختام الدلمونية الأقدم بكثير وقد يكون موروثا ذا قيمة أوملكية عزيزة على أولئك الذين أخذوه معهم إلى القبر أيا كانوا.

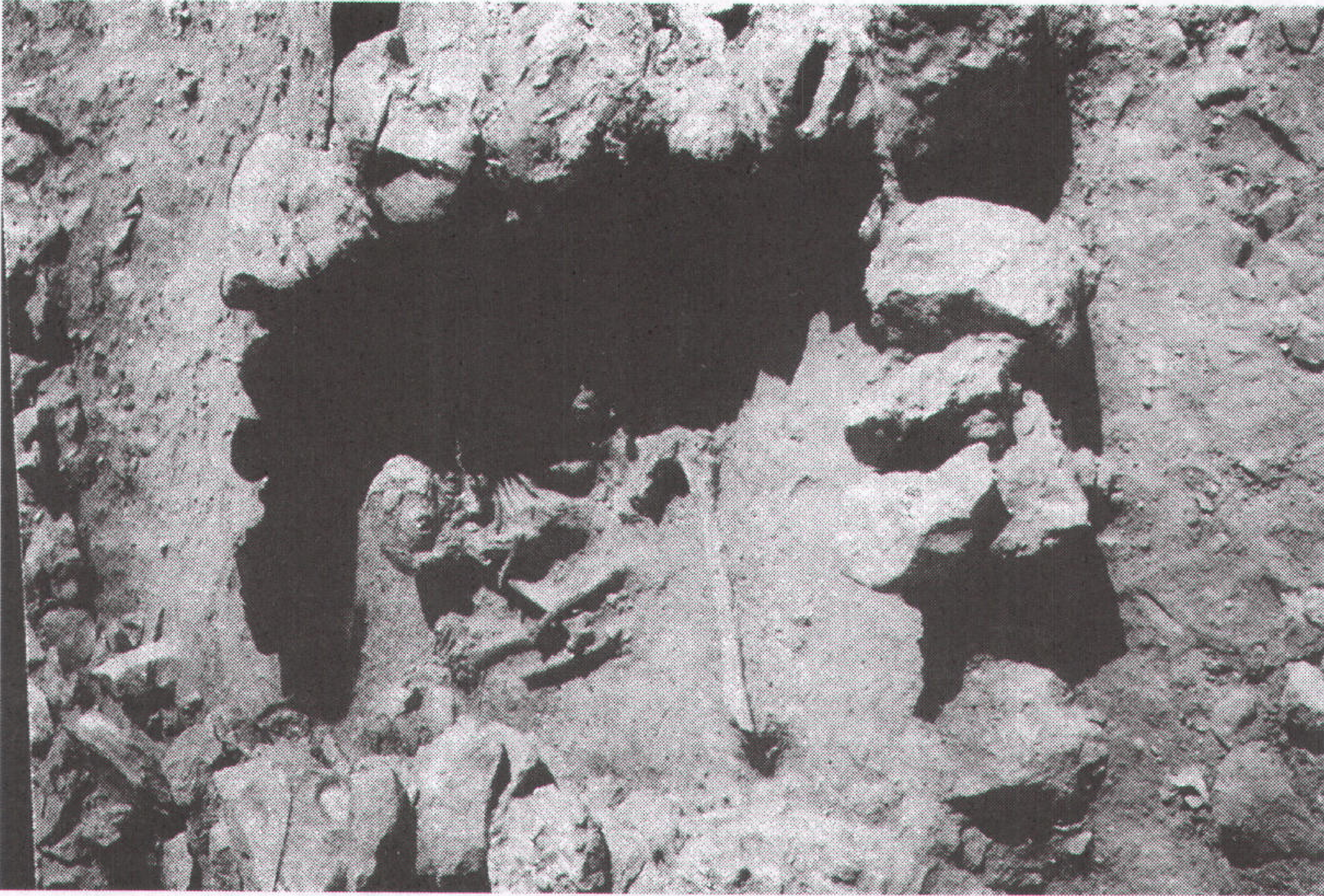
أضرحة الدفن

قليل ما قيل حتى الآن عن االقوم الذين عاشوا على الجزيرة خلال القرون الطويلة من فتراتها الممتدة. ويعود ذلك إلى قلة المعروف عنهم فقد عثر على بقايا قليلة جداً خارج المواقع الرئيسة وقليل من الأدلة عن الكيفية التي عاش الناس بها. ومن خلال فحص بقايا جماجمهم يبدو أنهم كانوا قوماً موفوري الصحة، وأطول قليلا من خلفائهم الحاليين ، وعاشوا أعماراً أطول نسبياً، الأمر الذي يتناسب مع جزيرة الآلهة، حيث كان كل شيء هو الكمال عينه ذات يوم.

والجدير بالملاحظة أن الدلمونيين من الألف الثالث والثاني ق . م قد مارسوا طب الأسنان بدرجة متطورة تماماً، فقد وفر عدد من الجماجم الدليل على أسنان متسوسة مخلوعة في أثناء الحياة . والمصريون فقط هم الذين كان بمقدورهم أن يدعوا بأن لديهم تقنية اكلينيكية مبكرة بهذا القدر . فقد كان مهيس-ري ، أحد نبلاء الأسرة الثالثة المدفون في سقارة طبيب أسنان كما هومدون في قبره . وكان للدلمونيين القدماء وجبة غنية بالكربوهيدرات ، وبخاصة التمر الذي كانت دلمون تشتهر به ، وتبعا لذلك عانوا من تسوس الأسنان . وكان السكان القدامى من النوع القوقازي، بدليل جماجمهم .

رغم أن المعروف عن طبيعة حياة الناس الذين عاشوا قديماً في البحرين قليل نسبيا فإن هناك قدرٌ وفير من الأدلة على كيفية معاملتهم بعد الموت . فالأطوار الأخيرة من الأعمال الأثرية البحرينية الرئيسة ، والتي ترادفت في أقدمها مع القرون الأخيرة من الحقبة السومرية، تتمثل بالمدافن العملاقة .

تبدوأقدم مدافن الروابي في البحرين من التصميم المعماري نفسه كتلك التي عثر عليها في أم النار في أبوظبي (شكل ٧-١١) التي يعود تاريخها إلى أواسط الألف الثالث قبل



٧-١١ هيكل في قبر من نوع قبور « أم النار » في مدينة حمد، من الألف الثالث قبل الميلاد

الميلاد، ويمكن أن تمثل مدافن المستوطنين الأوائل في البحرين.

وبالحكم من حادثة زيوسودرا في ملحمة جلجامش، (الفصل العاشر) يعتقد أن دلمون ، بالإضافة إلى طابعها المقدس والتجاري ،كانت تعتبر أرض الموتى، وهذه صورة بدائية للمفهوم الغريب الباعث على التفكير في أمر جزيرة للموتى ، تلوح مكفنة بالضباب وتحيط بها مياه الموت في العديد من الأساطير اللاحقة . ومع أنه لا يوجد شك في أن بمقدور الجزيرة توفير عدد جوهري من ساكني القبور على مر القرون، فإن أحداً لم يحاول أن يحسب الأرقام المحتملة للمدفونين في الجزيرة وأن يستخلص من ذلك عدد سكان المدينة، إلا في عهد قريب جداً . ويبدومن هذه الدراسات أن سكانا تعدادهم ٤٥٠٠ سيقدمون في فترة ١٠٠٠ عام ١٢٨٠٠٠ حالة وفاة. ورقم ٤٥٠٠ شخص منخفض على الأرجح كمتوسط لسكان دلمون في أوج ازدهارها. وهكذا كان بمقدور الجزيرة بسهولة توفير العدد المطلوب لملء روابي القبور.

وبينما يوجد ما يغري على الاعتقاد بأن دلمون ربما كانت أبيدوس (Abydos) مصر، أوكربلاء العراق (كما أشار ديوراند) كي تعتبر المكان المفضل على نطاق واسع ليدفن فيه المرء، إلا أنه لا يوجد دليل على جلب الموتى إلى دلمون للدفن فيها. وبالتالي ، لا بد من الافتراض أن معظم أولئك المدفونين فيها من مواطنيها . ولكن وجود قبور مماثلة على اليابسة الرئيسة يوحي بأنه لا بد أن كان هناك عقيدة تتعلق بالموت في دلمون عامة. وبالطبع لا يوجد شيء يمنع دلمون أواليابسة الرئيسة من أن تكون مكاناً يجلب إليه الموتى ، ومملكة تجارية مزدهرة ذات عدد سكان جوهري عاشوا على أرباح تجارتهم . وبالفعل فقد افترض بأن بعض الازدهار الذي كان ميزة واضحة للحياة في دلمون كان نتيجة لسيل الزوار الذين قدموا إلى الجزيرة لإحضار موتاهم إلى شواطئها المقدسة. فهنالك بعد كل شيء موازيات وفيرة لمثل هذه الفوائد العملية من ممارسة العقيدة. ولم يعثر على أي شيء حتى الآن في مدافن التلال في البحرين يوحي بأن ساكني القبور كانوا غرباء عن دلمون.

ولقد تم حساب احتمال وجود ١٧٠,٠٠٠ قبر على الأقل في صحاري البحرين، فحقول الروابي تخلق مظهراً متموجا غريبا في الصحراء الممتدة إلى أبعد حدود الأفق؛ فهي مكتظة إلى حد يصعب معه الآن بناء قبر جديد بين الأكمات القديمة، وكثير منها تليلات مكسرة من الأنقاض والرمال المهدمة على حجراتها المبطنة بالحجارة ، ويصعب أحيانا تمييزها ، ولا تزال أخرى مرتفعة إلى علو كبير، ومحيطها ثابت ولكن حجراتها خاوية. وفي إحدى المجموعات في قرية عالي لا تزال بعض الروابي تقف على ارتفاع اثني عشر مترا (٤٠ قدماً) بقطر يزيد على ٣٠ مترا (١٠٠قدم) . ولا يزال هناك بعض الجدل حول بناء الروابي في القديم. وتقول بعض الجهات إنها تبين اليوم الشكل العام الذي بنيت عليه الأكوام المستديرة من الرمال والكسارة المقامة على جانب داخلي مبني من الحجر. وآخرون يتبنون وجهة النظر المؤكدة بأن الروابي كانت مغلقة ضمن جدران دائرية عالية وتم تعرّف شكل من أشكال الشرفة يذكر بالزقورة في بلاد ما بين النهرين وبقبور المسطبة القديمة والأهرامات في مصر، التي كانت متدرجة أوعلى هيئة الشرفة. وإذا كانت الروابي محاطة بجدران حجرية إلى الارتفاع الجوهري الذي يوحي به القطر الحالي فلا بد أنها كانت هائلة كالجبال.

يُعتقد أن الروابي العظيمة في عالي قد تطابقت مع هذه الصيغة المعمارية غير المعروفة في أي موقع آخر في الشرق الأدنى. وحين زار مكاي البحرين عام ١٩٢٦ وقام بعملية مسح لروابي عالي استنتج أنها كانت في الأصل على ارتفاع كبير ، وأن الشرفات كانت سمة من سمات القبور الصغرى حجما و المعاصرة لها، وأنها كانت بالفعل أبراجاً جنائزية.

ربما كان هناك نوع من الشغف بالأبراج بين بنائي الصروح في الخليج في العهود البائدة. فقبور عالي أبراج ومعلوم أن الأبراج قد شيدت للأغراض الدفاعية منذ عهود قديمة جداً في عمان في الطرف الثاني من الخليج ، وكان هناك على جزيرة فيلكا برج عال يمكن أن يراه البحارة المقتربون من الجزيرة من مسافة بعيدة (انظر الفصل الثامن).

سهول قبور البحرين هائلة تمتد لنحو ٣ كم (ميلين) ، وهي مبعثرة على نطاق واسع

فوق الجزيرة، حتى أنها تمتد إلى الأراضي الصحراوية في الجنوب . ويعود تاريخ معظم القبور إلى أزمنة الرخاء في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م . ولقد تم تعرّف نوعين رئيسين : الأقدم وهوبغير حجارة قلنسوية ،والآخر به. كما تم العثور أيضاً على بعض المدافن تحت سطح الأرض، ويبدوأنه كان هناك عودة إلى بناء الروابي في الأزمنة الهيلينستية. وتعرّف أشكال بناء متعددة ، أقدمها صغير ومتراص وله أسقف ذات أطناف بارتفاع متر، والحديثة منها كبيرة، مع الإعداد لمزيد من عمليات الدفن الجماعية، ولعلها تبعا لذلك أضرحة ،أو أماكن الراحة لأناس تربط بينهم روابط عشائرية.

وتميل مداخل القبور العالية قوية البنيان إلى الاستدارة غربا صوب المنطقة التي تغيب فيها الشمس . ويتمدد الموتى عادة ورؤوسهم صوب الشمال الشرقي و توضع أيدي الميت أمام الوجه. ولعل ساكني القبور كانوا كالمصريين قادرين على الاستمتاع بغروب الشمس حيث تتجمع أرواحهم عند باب القبر كي يمكنها أن ترقب غروب الشمس يوميا في الرحلة التي سبق لهم القيام بها. ويوحي التوجيه الغربي للقبور بالإيمان بالشمس والاعتراف بألوهيتها وهذا يذكر بأوتو (Utu)، إله الشمس عند السومريين، الذي كان يعيش في دلمون . كما افترض أيضاً أن المداخل إلى القبور متراصفة مع فينوس عند الغروب ،مذكرة بالتوجه النجمي لأعمدة الأهرامات في الجيزة التي يحتمل أن ضوء النجم القطبي قد أشع عليها مباشرة حين بنيت.

وإنه لشيء ملفت حقاً أن توجد مدافن الروابي أو الأكوام في قوس عظيمة تمتد من الشرق الأوسط إلى أيرلندا. واتخذت الأكوام المكومة فوق قبور الزعماء في أجزاء من أوروبا حجما وبهاء يماثل قبور ثولوس عند المقدونيين، أو أهرامات ملوك مصر أوأبراج الروابي لحكام دلمون نفسها ، ولعل قبور الثولوس قد نشأت في غرب آسيا حيث توجد بيوت شبيهة بها في شمال العراق مع أن الدليل حديث العهد وغير أكيد.

وتذكر مدافن الروابي أيضاً بالصروح في العصور الأوروبية القديمة والعصور البرونزية

الوسطى مثل المنغليث وهي مجموعة الحجارة التي تتبع نسقا متعرجا دائريا ، ويقال أنها تمثل الإلهة الأم . ومن أشهرها ستونهنج، وتضاهيها في الأهمية والقوة إيفبيري والكرنك . وللمدافن الأرضية صلة بها . وحتى الأهرامات ، أضخم الصروح الجنائزية ، يمكن أن يكون مصدرها في رأي بعض العلماء من الروابي الصغيرة من الرمال المكومة فوق قبور الزعماء المتواضعة قبل عهد الأسر الحاكمة .

وروابي البحرين عموما مبطنة بالحجارة بقطع جيدة القطع مصممة لإقامة مكان استراحة آمن في خلود الفرد بعد الموت . ويكمن وراء بناء مثل هذه المدافن المستديمة الإيمان بالحياة الخالدة بعد الموت، وإن لم يكن هذا هو الإيمان النموذجي لدى الساميين الأوائل جميعهم الذين يبدو أن الكثيرين منهم قد آمنوا بفناء الذات المطلق بمجرد أن ينهي الموت الوجود الدنيوي .

وحتى عهد قريب ، فتح قليل من القبور البحرينية بطريقة سليمة، عدا ما تم على يدي ذلك الفريق القديم النشأة ، وهم لصوص القبور . ولا يحتمل أن يكون العديد من هذه الصروح الجلية التي بنيت بلا أية محاولة لإخفائها قد نجا من النهب، إن كان قد نجا منها شيء على الاطلاق . لكنه من الممكن تكوين فكرة عما كانت تحتويه في الأصل،وذلك من البقايا المتشظية التي عثر عليها مبعثرة في القبور .

كانت توضع الجثة عادة إما على جنبها في وضعية النوم ، أوجالسة تواجه مدخل القبر . ولم تسمح الرطوبة العالية في مناخ البحرين بالمحافظة على البقايا البشرية عدا العظام والجماجم، متشظية ومبعثرة بفعل مخلوقات الصحراء الصغيرة التي تعيش بين القبور وبداخلها .

وهناك إشارات قليلة إلى الثروات التي ضمتها القبور . وبالتأكيد فقد عثر على الكثير من الفخار الذي يدل على طقوس تقديم نذور أو توفير وسائل غذاء الروح بعد الموت .

فمشغولات النحاس والسيوف والخناجر وزينة الملابس كلها تركت آثارها في القبور. ويدل العاج الذي عثر عليه بين أنقاض المقابر على درجة عالية من الترف،وتوحي بأن الجثة أضجعت على سرير مزين بتماثيل عاجية وزخارف. وعثر على أحد التماثيل العاجية الصغيرة المحطمة يمثل فتاة نحيلة الخصر مكتنزة الأرداف تذكر بصفتها الأخيرة بتماثيل الآلهة ذات المؤخرة الضخمة من العهود القديمة، والتي كانت تنحت بأفخاذ وإليتين بالغة الضخامة. ويحتمل أن مثل هذه التماثيل الصغيرة كانت توضع في القبور . وقد وجد أحد المنقبين الأوائل في البحرين جذع تمثال آخر ربما يمثل الميت أو الآلهة الحافظة أوالخدم.

وعثر في أحد قبور البحرين التي حفرها مكاي عام ١٩٢٥ على بعض اللقى العاجية المثيرة للفضول. وهي عبارة عن عصي أوسيوف كسرت وألقيت في القبر . ولا علم لأحد بالمغزى الذي حملته العصا المكسورة ولعل تكسيرها علامة على انقطاع الرجل الميت عن العالم نهائيا. وكان عثر على عصي مشابهة من العاج في وادي السند.

ولقد نشأ عن فحص العاج الذي وجد في القبور البحرينية الاعتقاد الأكيد بأنها فينيقية الصنع. ولقد ازدهر الفينيقيون بعد زمن كبير من العصر الذي بنيت فيه المقابر البحرينية. ويحتمل أن يكون العاج على صلة قريبة بمدن سومر. وبينما بقي القليل بفعل مناخ بلاد ما بين النهرين، إلا أن العاج قد استخدم على نطاق واسع في المدن ، وكان أحد السلع الهامة التي نقلت مرورا بدلمون. وينبغي أن لا يغيب عن البال أن الكثير من العاج قد استورد عن طريق دلمون من وادي السند. والصلة السومرية الأخرى قدمتها كميات الدبابيس التي عثر عليها في القبور ، والمماثلة لتلك التي ثبت فيها السومريون كعكة الشعر المميزة ، وهي التسريحة الشائعة المفضلة لديهم في القرون الأخيرة من وجودهم.

القبور الملكية في عالي

في قرية عالي التي هي الآن مركز صناعة الفخار المحلية، أكثر مجموعة قبور في البحرين جدارة بالاهتمام ، وهي تجمعت معا في منطقة متراصة نسبيا (شكل ٧-١٢) . وهنالك نحو العشرين منهاوهي واسعة بصورة استثنائية ، ومعظمها يرتفع إلى ارتفاعات مثيرة. ويبدومن خلال حجمها وبعض الأدلة الأخرى المبينة لاحقاً، أنها قبور زعماء دلمون، بل ربما ملوكها. و تتطابق – إلا في حجمها الكبير– مع النسق العام للقبور في الجزيرة من العصر البرونزي القديم : عمود مركزي ، ومبطنة بالحجارة مع نقرتين في رأس العمود تشكلان قسما مصلبا يشبه حرف T اللاتيني. ويفترض أن هذه كانت للقرابين التي كانت توضع بجانب رأس الميت. والميزة الغريبة في هذه القبور هي أنها، بعد تكويم الرمل والكسارة عاليا فوق المدفن، بني جدار دائري عال حول الركام. وهكذا يصبح القبر اسطوانة عملاقة متوجة بقبة من الرمال. ولعلها خلدت تقليد بناء الأبراج التي تبدو واحدة من أكثر أشكال العمارة النموذجية التي نشأت في الخليج. فلقد كانت الأبراج عناصر جوهرية



٧-١٢ القبور الملكية في عالي

في معظم المستوطنات من عُمان حتى فيلكا، ولعل ملوك دلمون (إن كانوا هم المدفونين في المقابر التي في عالي) قد اختاروا أن يقضوا الأبدية في أبراج عالية.

كان ديوراند كما سبق وذكرنا قد مسح هذا الجزء من البحرين إبان زيارته لها عام ١٨٧٨-١٨٧٩ وكان قد دون انطباعاته عن عالي . و ترك بعض الرسومات المشهورة للقرية كما كانت عليه آنذاك مبينا كثافة أكبر بكثير مما هوواضح اليوم. واعترفت الحملة الدنمركية بأهمية الموقع وقاموا بأكبر وأوسع عمليات للتنقيب هناك.

وفي موسم ١٩٦١-١٩٦٢ استخرج الدنمركيون بعض الآنية الفخارية المدهشة من أحد قبور عالي ، وكان القبر قد تعرض للسرقة في وقت غير معروف لكنه عثر على قطع في النفق الذي قطعه اللصوص إلى حجرة القبر أتاحت لعلماء الآثار إعادة تركيبها وتقديم طقم يحتوي على قدحين جميلين، متناسقين بصورة أنيقة، ومطليين باللون الأسود ،مع زينة هندسية على شريط أحمر . وعثر أيضا على ثلاثة أكواب رقيقة الجدار (شكل ٧-١٣)



٧-١٣ ثلاثة كؤوس دقيقة مجمعة من قطع استخرجت من قبر في عالي ، وتعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد (متحف البحرين الوطني)

ومن حيث الجودة، تعيد الأقداح إلى الأذهان تصميما قديما وجد في إيران وباكستان يمكن رده تاريخيا إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق. م. ومن المعروف أن بيض النعام المصنوع كآنية للشرب قد وضع في القبور مذكرا بممارسة سومرية خاصة، و كماعثر على ودائع مماثلة في المدافن الخاصة في أور وكيش في أوائل عهد الأسر الحاكمة.

لكن غرضا واحداً بعينه من قبور عالي يشهد على صلات أكثر بعداً وحتى على صلات مع طروادة الأسطورية البعيدة. وهذا الغرض، الأصغر قليلا من الإبهام، عبارة عن لولب من أربع طبقات من الذهب ،والأشكال الحلزونية الأربعة موصولة بعمود في الوسط، ومصنوع بصورة دقيقة جداً على درجة عالية من الصناعة في أعمال المعادن التي كان لدى أمراء دلمون إمكانية الوصول إليها. أما الشكل فهومألوف و مرتبط من البداية وإلى النهاية بالشرق الأدنى وعبر أوروبا بمدافن العصر البرونزي. وهومرتبط بصورة خاصة بممارسة الدفن في الروابي، وعثر على أمثلة مشابهة جداً لشظايا عالي بعيداً إلى الغرب حتى اليونان بالقرب من طروادة. و الشكل ذاته الحلزوني أوالمتعرج، المقطوع من حجارة هائلة هوالرمز الذي يتكرر كثيرا على قبور التلال الواسعة في أيرلندا. ويأتي مثالان نشرا حديثا ويبدو أنهما متشبهان مع تلك المستخرجة من عالي، من مخزون الذهب الإيجي الذي حصل عليه متحف بوسطن، ويمكن تحديد تاريخهما بالقرن الخامس والعشرين ق.م من خلال الختم الأسطواني الذهبي الذي يحمل إطارين لملكين مصريين. وهذا يتطابق تطابقا جيدا مع قبر عالي الرئيس.

ويبدو أن هذه الزينة الذهبية ترتبط في أرجاء العالم القديم جميعها مع المدافن الملكية. ولم يكن متوقعا أن يكتشف واحد منها على هذا القدر من البعد في جنوب البحرين، ويوحي بصلة قريبة مع ممارسات الدفن في الحضارة العظيمة للعالم القديم في الألف الثالث ق. م بقدر أكبر ما كان متوقعا. كما يوحي أيضاً بدرجة عالية من التطور والترف ويؤكد على وجهة النظر القائلة إن محتويات القبور الأصلية لابد وأنها كانت تستحق النهب.

وهذا الأثر الذهبي الصغير دليل على الكنوز الفنية الرائعة التي دفنت في الأصل مع الملوك ، ولعله على القدر ذاته من البهاء كأي شيء دفن مع كبراء مصر العظام ، أوأصحاب الجلالة، أوالضحايا الذين يرقدون في القبور الملكية في أور.

لقد افترض منذ أمد بعيد أن قبور عالي تمثل مدافن ملكية لأجيال متتالية مبتدئة من نحو منتصف الألف الثالث ق .م وحتى القرون الأولى من الألف الثاني ق. م. ويمكن أن تكون عظام الكباش والغنم في العديد من القبور بقايا أضحيات ذبحت على عتبة القبر قبل إقفاله. ويبدو من حالة بعض القبور على أنها قد استخدمت ثانية في فترات متعددة منذ بنائها، فلقد عثر على مواد من زمن متأخر كثيراً في واحد أوأكثر منها. ففي الفترة ١٩٠٥-١٩٠٦ ومرة ثانية في عام ١٩٠٨ عثر على جرتين من الفخار ،كان في كل واحدة منهما حفنة من التمر مما يذكر بمدى أهمية التمر في اقتصاد دلمون.

لقد جرف القرويون العديد من التلال على مر السنين مستخدمين حجارتها لبناء مساكنهم ، وفي العهد القريب، من خلال الطلب على فخار عالي . وفي السنوات الأخيرة أضافت إقامة الطرق ومراحل أخرى من برامج التنمية البحرينية الحديثة إلى تدمير القبور. وعلى أية حال، لا يزال بمقدورها أن تظهر آثاراً رائعة ، فقد عثرت دائرة الآثار في السنوات الأخيرة على كوب شراب نحاسي دقيق الصنع.

ولقد تم العثور على روابي قبور شبيهة بقبور البحرين مباشرة غربي العربية السعودية في أبقيق بالقرب من الهفوف، وفي الظهران، وفي مواقع أخرى في البرية الرئيسة. ولكن العمل الذي أنجز في بناء تلك القبور قليل نسبيا مقارنة بتلك التي في البحرين، وإن كان أسلوب بنائها والتشابه في الفخار الذي أنتجته يوحي بالأصول ذاتها مثل مدافن البحرين. وكي نحكم من خلال التشابه بين القبور ومحتوياتها فإن السكان الذين قطنوا جزيرة البحرين ، وأولئك الذين استوطنوا البرية الرئيسة إلى الغرب منهم كانوا متشابهين جداً في الجوانب الجوهرية جميعها، وهوالوضع الذي لا يزال قائما حتى اليوم رغم كل شيء. ويرجح أن

سكان المستوطنات في شرق المملكة العربية السعودية كانوا بقية من عمروا جزيرة البحرين بعد منتصف الألف الثالث ق . م.

مستوطنة سار المبكرة

لا يزال العمل مستمراً في حقول المقابر البحرينية، حيث إنها ضخمة حتى إن التطور الحديث يتطلب تدمير عدة مناطق منها سنويا . ويحاول علماء الآثار في أفضل الأحوال استباق جرافات أعمال الإنشاءات. ولقد تم تعرّف ، عدة أنواع من القبور المختلفة عن الأخريات على الجزيرة بالقرب من قرية سار، حيث القبور مبنية بصورة كثيفة بشكل خاص، وممتدة على هكتارات كثيرة . ويرتفع أحدها عاليا فوق السهل محاطاً بمقابر فرعية أصغر قريبة الشبه بمدافن الأتباع حول المساطب العظيمة لملوك مصر الأوائل. لكن هذا غير ممكن لأن تواريخ قبور (سار) من وقت مبكر من الألف الثاني قبل الميلاد، أي بعد توقف هذه الممارسة في مصر بقرابة ألف عام. ويمكن بكل بساطة أن تكون القبور التي في سار لرجل عظيم أومبجل بصفة خاصة وقد اختار الآخرون أن يدفنوا حوله على أمل أن يجلب جواره الحظ في الحياة الآخرة (شكل ٧-١٤).



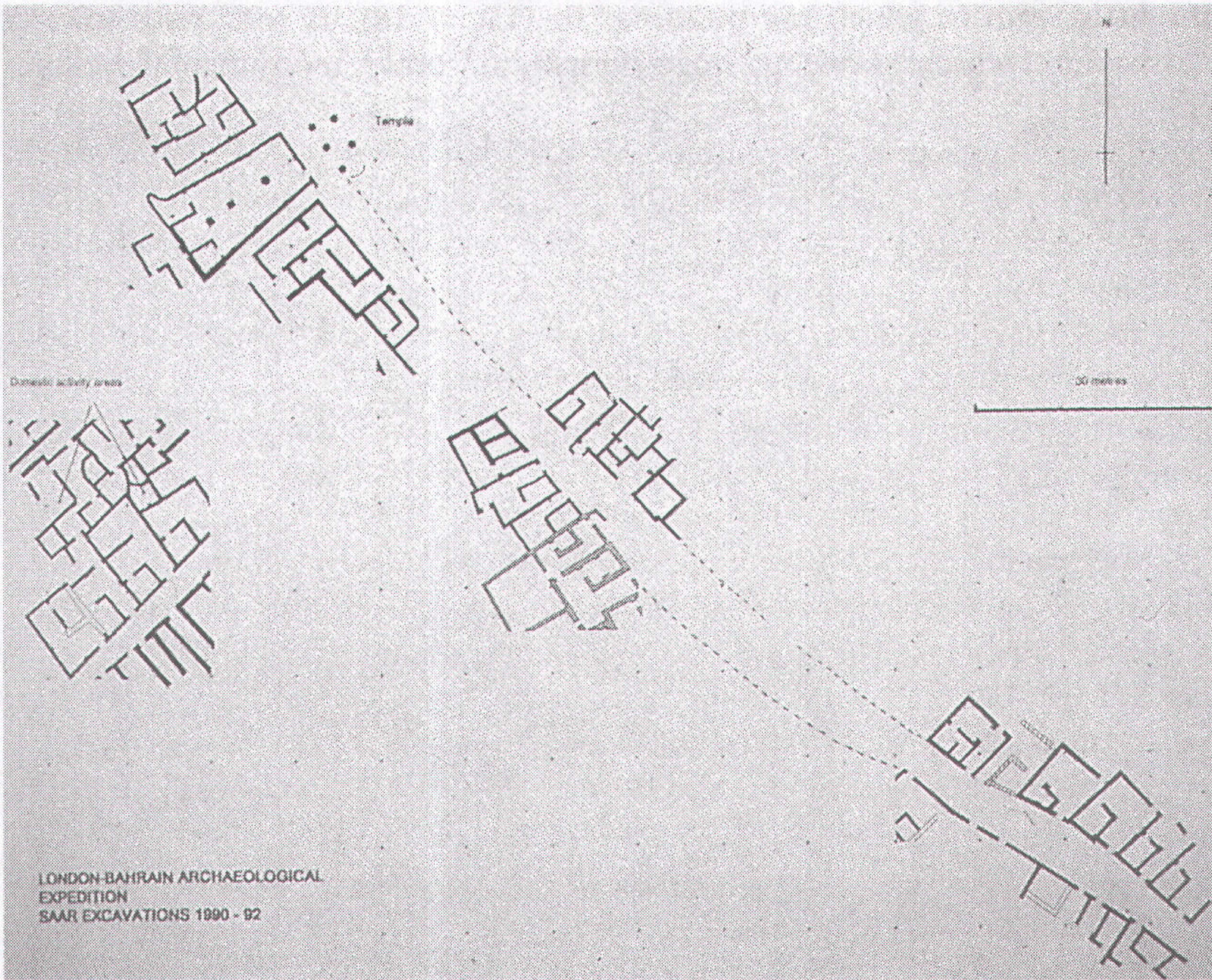
٧-١٤ قدح من النحاس من قبر في عالي (متحف البحرين الوطني)



٧–١٥ مجمعات كثيفة من المدافن في موقع (سار)

عشر في القسم نفسه من الجزيرة على مجموعة من مدافن الأطفال (شكل ٧–١٥) . وحيث إن القدماء لم يكونوا عاطفيين بصفة خاصة بشأن الأطفال، فإن تخصيص هذه المجموعة من القبور للأطفال أمر ملفت للنظر. ولعلها ميزة لسمعة دلمون " كمكان نقي ونظيف" كان المرض فيه حالة استثنائية. وربما كان طول الحياة النسبي الذي يبدو أن الدلمونيين قد تمتعوا به،والذي أوردنا ذكره آنفا عاملا على خلق هذه السمعة.

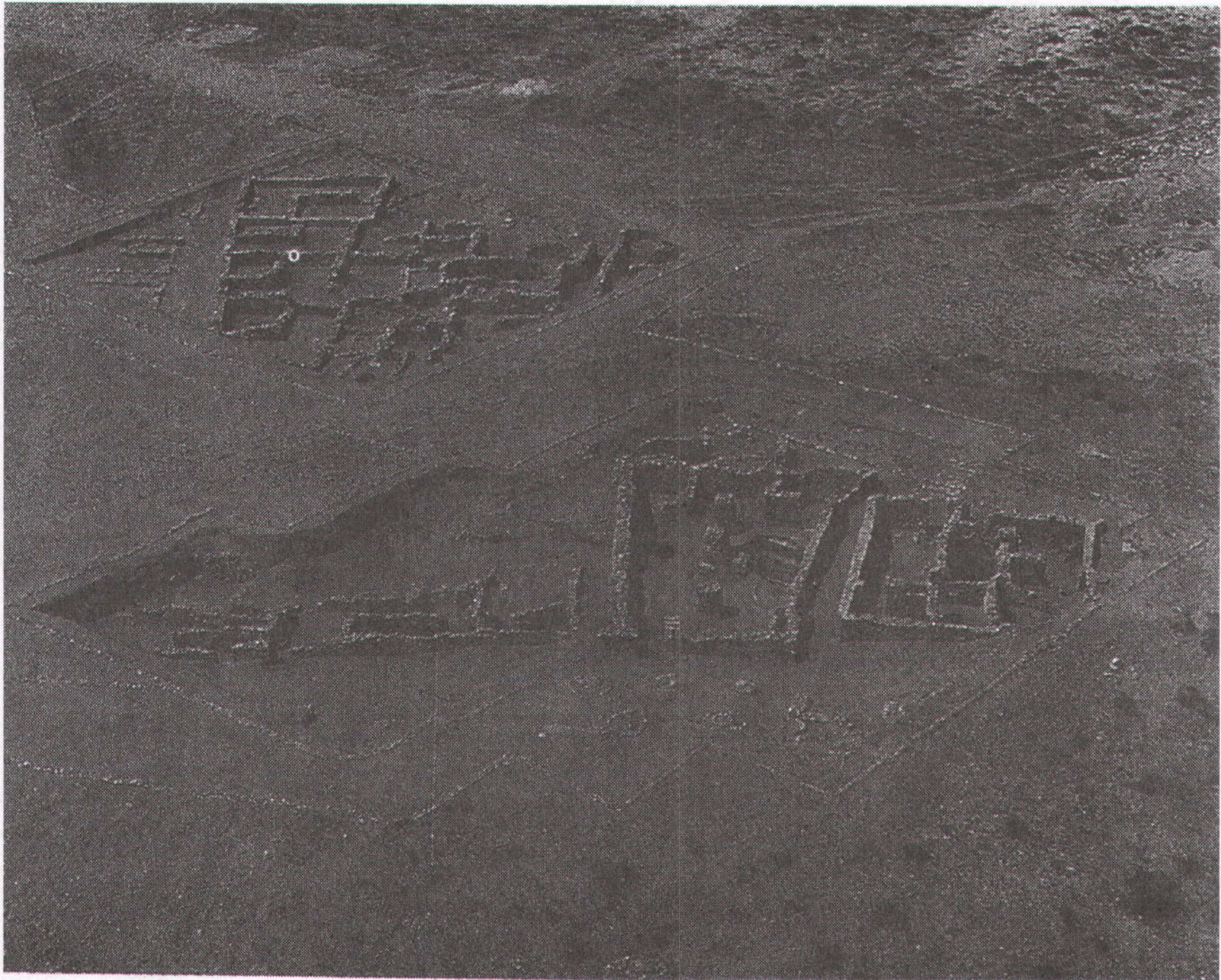
و[سار] موقع بعض حقول القبور ذات الكثافة والاتساع الأكبر في البحرين. ففي بعض الحالات لا بد من الافتراض أن هذه هي أماكن الراحة للأقل ثراءً ، أولئك العاجزون عن دفع تكاليف بناء واحدة من الروابي الكبيرة المعقدة غالبا.



٧–١٦ منطقة سار حيث قامت بالتنقيب فيها بعثة لندن – البحرين (مخطط من بعثة لندن – البحرين)

و[سار] الآن موقع مدينة حديثة لسكان البحرين ،وهي أيضاً موقع لمجمع مباني جديرة بالاهتمام من أواخر الألف الثالث ق .م إلى أوائل الألف الثاني ق . م، وتفصل بينها أزقة وطرق مقامة على حافة تطل على أرض قليل الزراعات ، وهي عند هذه النقطة ذات تضاريس غير عادية، وقريبة من الطريق التي تصل البحرين مع العربية السعودية بوساطة جسر الملك فهد . واكتشفت البنايات بادئ الأمر بواسطة فريق أردني يقوم بعملية لإنقاذ الآثار في المنطقة، وكشف عددا من روابي المدافن. ويتألف المجمع من مستوطنة صغيرة تقع عند أسفل الجرف الذي يصعد الوادي الصغير الذي تقع فيه المباني (شكل ٧-١٦) ، وترتفع طريق باتجاه بناية تبدوأنها معبد أوبناية تذكارية من نوع آخر (شكل ٧-١٧) .

معظم البنايات بالقرب من المعبد وأسفله مساكن خاصة (أول بيوت من هذا النوع يتم



٧-١٧ موقع سار ، في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. المعبد وسط المجمع في المقدمة (بعثة لندن - البحرين)

تعرّفها في البحرين) ويجري التنقيب عنها الآن بواسطة الفريق البريطاني الذي يرعاه معهد علم الآثار . وعلى الأرجح فإن المستويات الأولى للموقع تتطابق مع المدينة الأولى في قلعة البحرين ، ربما يعود تاريخها إلى قراب سنة ٢٣٠٠ ق .م . والسمة الرئيسة في الموقع هي "الشارع الرئيس " الذي يمتد من المستوطنة حتى بوابة المعبد تقريبا. والبيوت صغيرة لكنها جيدة البناء ، وعموما معمولة بتصميم واحد، غرفة تشبه حرف L اللاتيني مع غرفة داخلية أخرى مضلعة .

وتقع المستوطنة على حافة بروز صخري من الحجر الجيري ،وهي أكثف المناطق سكانا في الجزيرة الرئيسة طوال تاريخها، وهي على مقربة من موقع المدينة في قلعة البحرين والمعابد في باربار ودراز. ويقع المعبد على أعلى قسم من الموقع فوق جرف يطل على السهل الخصيب الذي يقع تحتها. وتطل واجهة المعبد على ثلاثة أعمدة شبيهة بتلك التي وجدت في المعبد في دراز والذي كشف عنه التنقيب الذي قامت به البعثة البريطانية (شكل ٧-١٠)، واحتوى المعبد ذاته على المزيد من الأعمدة المحاطة بغلاف دائري من الحجر الذي حوله إلى شكل مستدير بما يوحي بأن الأعمدة المربعة تسبق في تاريخها الأعمدة الدائرية. ويبدو أن المعبد قد تعرض لعمليات إعادة بناء متعددة، ويحتوي على بعض السمات المعمارية المحيرة، غير المستمدة من أي من الثقافات التي كانت ذات صلة بدلمون . وبهذا يمكن أن تثبت أنها بحرينية أصيلة. وهكذا، فإن عدداً من الأعمدة مفصلة بالعُمُد*، وهوالفن غير المتوفر في مواقع بحرينية أخرى من الحقبة ذاتها مع أنه موجود في جزيرة فيلكا. وتوجد أيضاً عدة منصات مرفوعة ذات أبنية هلالية الشكل في المؤخرة الداعمة للجدار تقف شامخةقريباً من الجدار المتصلة به. (الشكل ٧-١٨). وهذه تذكر بما يسمى "قرون التكريس" التي تشكل سمة من سمات الصروح في جزيرة كريت في الألف الثاني ق.م، لكنها تسبقها ببضع مئات من السنين. والمذابح هلالية الشكل مصورة على عدة أختام من

* مفردها عماد، وهوعمود بارز من الجدار مزين بتاج (صالح) .



٧-١٨معبد سار
(المؤلف)

الخليج، من فيلكا خاصة حيث تبدو ذات صلة بالشعائر التي يتنكر فيها المشاركون في هيئة ثيران. (انظر الفصل الثامن) والمذابح هلالية الشكل بحد ذاتها أكثر تذكيرا بقرون الثور البري، التي وضعت قبالة أعمدة تدعم جدران المزارات في سيتال هيوك. لكن هذه يعود تاريخها إلى ٤٠٠٠ سنة قبل نماذج سار، وعليه فإن أي تطابق ظاهري لا بد من استبعاده. وعثر على رواسب محروقة تحتوي على العمود الفقري للسمك عند قاعدة أحد المذابح هلالية الشكل. ووجد بالمعبد أيضاً بعض كسرات الجص التي يبدوأنها سقطت من جدرانه. و المعبد في سار – على الرغم من كونه قديما في طابعه –، محفوظ وجدرانه قائمة على ارتفاع أكثر من متر. ويبدوأن بنيانا أسبق يقع تحت البناية فوق مستوى الأرض (٧-١٩)

ولقد تم حتى الآن الكشف عن ستة منازل، كما تم العثور على تشكيلة من الأدوات المنزلية بما فيها غطاس شبكة ، وأوزان، ومدقات، وسلسلة عريضة من الأختام



شكل٧ –١٩ موقع المعبد بعد الحفريات التي قامت بها بعثة لندن – البحرين

الدلمونية.واحتوت عدة بيوت على أحواض من الجص . وكان أحد البيوت أهم من غيره ، فبه خمس غرف ،وربما سكنه شخص مهم أو ربما كان له صلة بالمعبد .

والفخار المستخرج من المعبد يعود إلى فترة باربار بصفة رئيسة ، ويحدد المنقبون تاريخه بنحو ١٩٠٠ ق.م ، أي في زمن ازدهار الجزيرة. ويمكن أن تكون إحدى الجرار قد استخدمت لتخمير الجعة.

ولقد وفرت سار بعض الأدلة على تغير كبير في غذاء السكان. ففي أكثر من بيت من البيوت اكتشف الخبز المعد في المكان نفسه ، ومقارنة بمواد من الفترة ذاتها من فيلكا وقلعة البحرين يوحي بأن سار قد ازدهرت في زمن كان الخبز قد اختفى من وجبة الناس ليحل محله القمح المسلوق.

ولقد عثرت في مستوطنة سار على غلة جوهرية من الأختام الكبيرة و الصغيرة التي توحي بأن المدينة كانت مشمولة بتجارة دلمون الدولية (الأشكال ٧-٢٠،٧-٢١). وهذه الأختام شبيهة بتلك المستخرجة من فيلكا ،ويعود تاريخها إلى الحقبة ذاتها في بداية الألف الثاني ق . م . والمشاهد المصورة على الأختام بشكل عام تضاهي تلك المستخرجة من مواقع أخرى في البحرين والخليج. واثنان منها جذابان بصفة خاصة ، وأحدهما (شكل ٧-٢٣أ) له مجموعتان من ثلاثة رؤوس على كلا جانبي لوحة الشطرنج المستطيلة المرسومة في خطين، والآخر (شكل ٧-٢٣ ب) له تمثال مركزي يمسك ببدنين أحدهما من قرنه، والآخر من عنقه.
وقد استخرج عدد من الأختام الصغيرة من هذا الموقع أكثر مما استخرج من مواقع بحرينية أخرى. وهذه توحي بأن البضائع كانت تحمل وتفرغ في سار سواء كانت قادمة من جهة أخرى أم كانت معدة للشحن. أما التصاميم فتظهر رموزا من الأختام التي عثر عليها في الجزيرة وأماكن أخرى (شكل ٧-٢٣ ج)

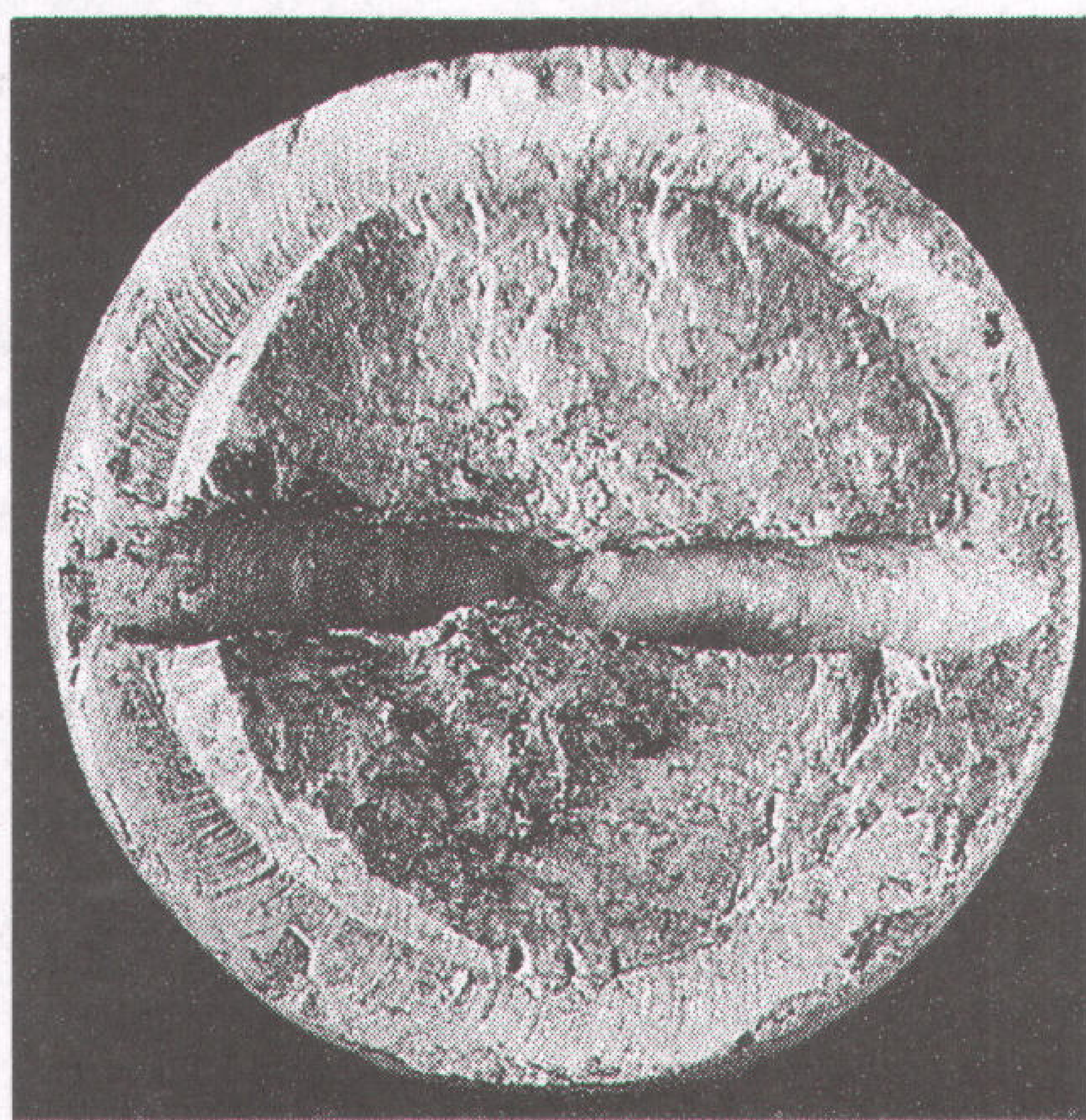
والغريب في موقع سار هو أن مداخل بيوت المستوطنة جميعها كانت مقفلة، عن قصد كما يبدو وأن الموقع كان قد هجر بشكل منظم . والسبب في ذلك غير معروف . وتم العثور على أدق آنية من الكلورايت و التي كشفت عنها الحفريات حتى الآن في البحرين في أحد القبور في سار . وكانت مستديرة الشكل ومزينة بسخاء برموز منحوتة بالصيغة السومرية كالتي وجدت أيضاً في عيلام وتصور واجهة معبد أو مزار، وهو الموضوع الرئيس والموافق الذي يوجد في طراز الأرض المقدسة (شكل ٧-٢٤) ولقد تم العثور في سار على نماذج سلال مطلية بالقار تشكل حاويات خفيفة الوزن (شكل ٧-٢٥أ) . في شرق الجزيرة العربية . وتجدر الإشارة إلى أن كورندول قد أشار إلى أنه ربما كان هنالك مصدر للقار على أرض البحرين في الماضي . وقد اعتقد بأنها قدمت الدليل على الربط بين معنى اسم البحرين القديم المركب من الأحرف السومرية التي ترجمت لتعني "سفينة النفط" .

وعثر في كل من سار ومدينة حمد على كميات من الأواني مصنعة جيدا من الكلورايت (شكل ٧-٢٦)، ويبدو بالفعل أن هذه المادة كانت إحدى الخامات الرئيسة المستخدمةفي صناعة الحاويات . ومما لا شك فيه أنها كانت تعتبر أكثر أهمية أوأكثر قيمة من سلال القار التي استخرجت من عدة مواقع في الجزيرة العربية .

وإجمالا، يحتمل أن تثبت سار أنها أحد أهم المواقع في البحرين. فهي تضيف بندا آخراً في دليل بناء المعابد الجدير بالملاحظة، والذي يعود تاريخه إلى الحقبة التي شهدت أهمية وازدهار دلمون بهذا القدر من الجلاء . بالقرب من آثار الألف الثالث قبل الميلاد يوجد معبد هيلينستي صغير يشير إلى أن المواقع في البحرين بقيت مقدسة لعدة مئات من السنين .المرحلة الهيلينستية في الخليج ممثلة تمثيلا جيدا في سار حيث أقام خلفاء الإسكندر المستعمرات هناك وكذلك في داخل الجزيرة العربية، . وتوحي القبور من تلك الحقبة بسكان هيلينستيين ناجحين . وقد استعيد من أحد القبور تمثال خلاب لفارس وجواده (شكل ٧-٢٧) .

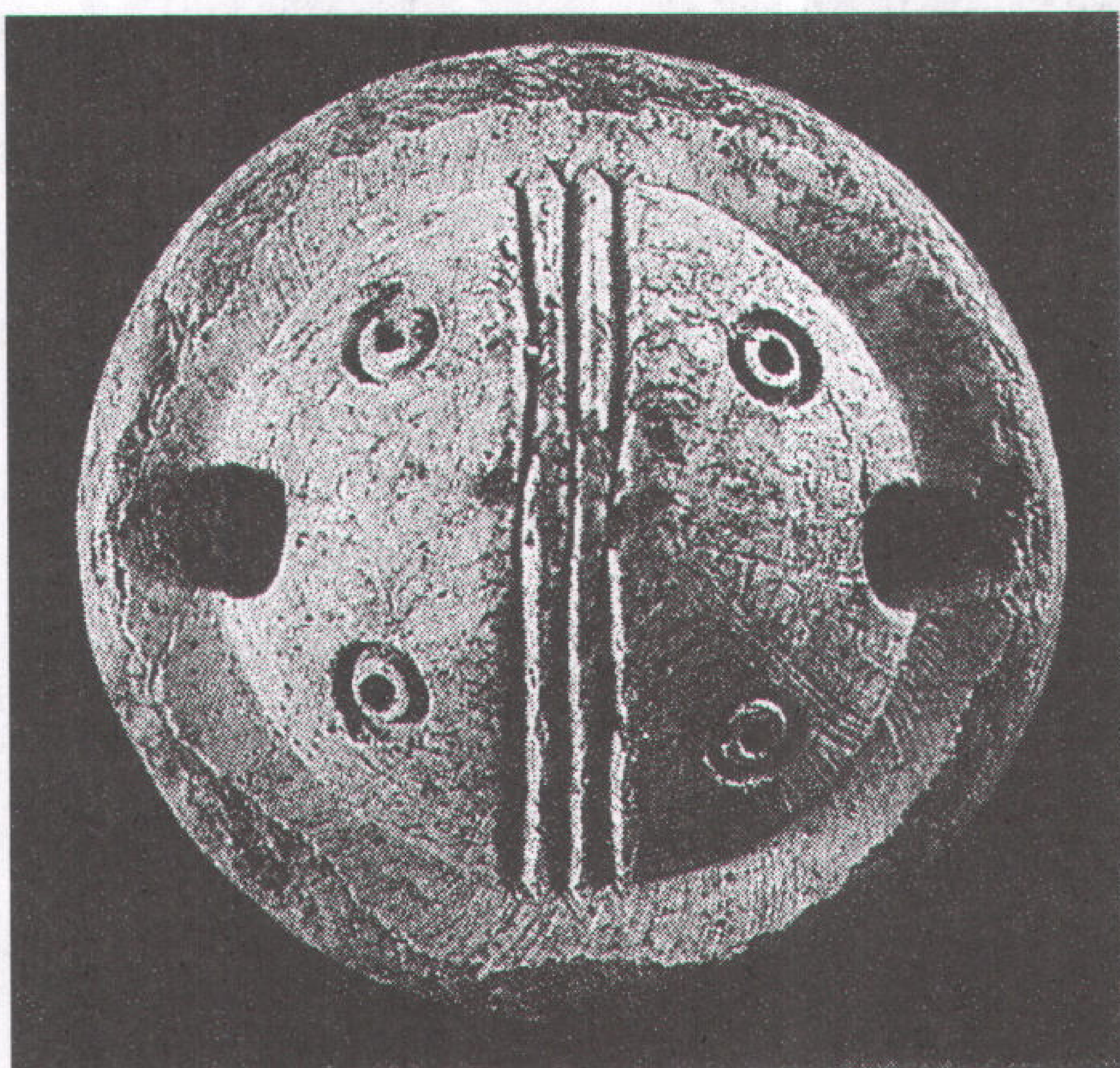


٧-٢٠ ختم دلوني من سار، بتصميم مدهش لا مثيل له (بعثة لندن - البحرين)





٧-٢١ ختم دلوني من سار




٧-٢٢ ختم دلموني من سار

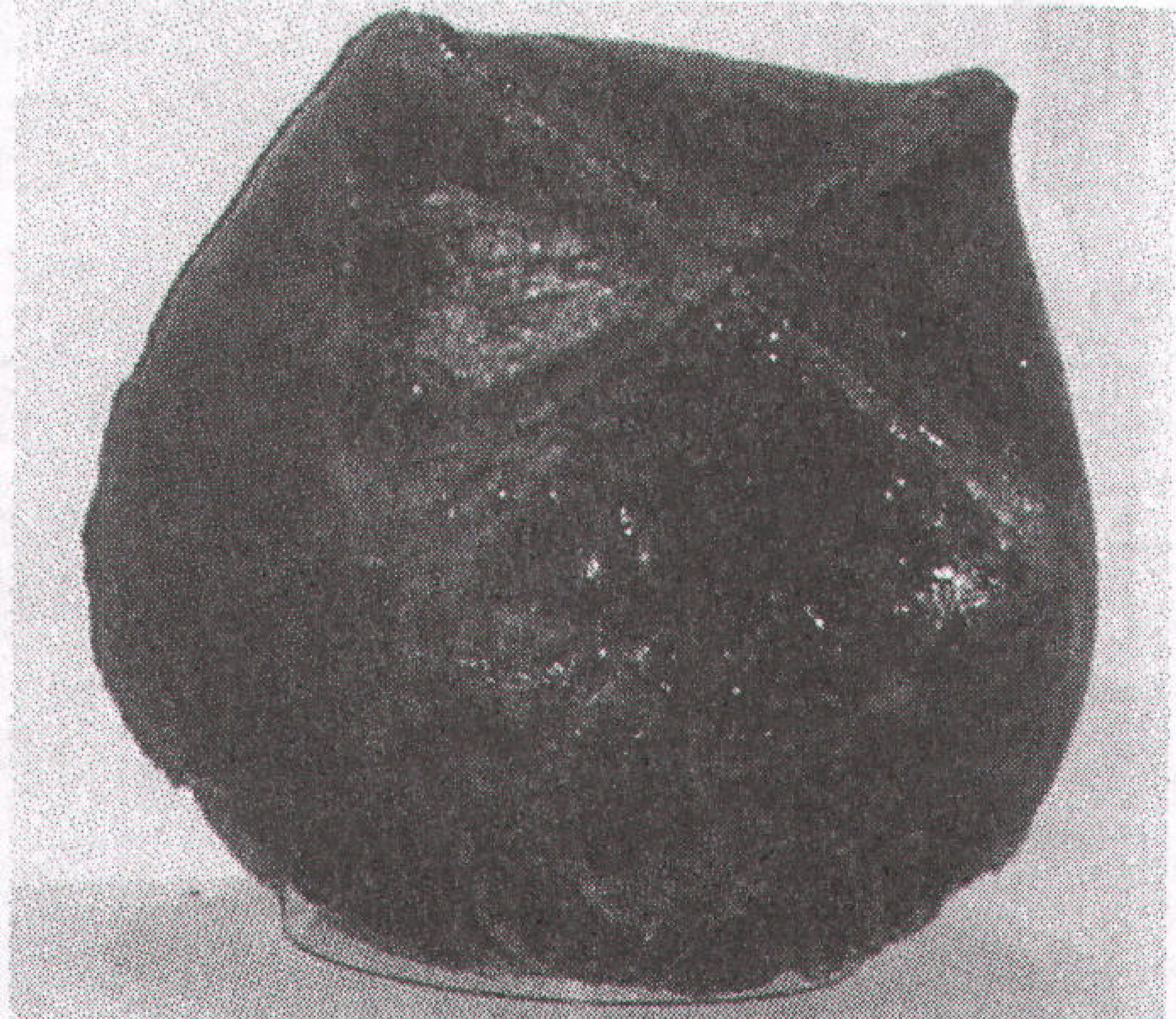




٧-٢٣ أختام عثر عليها في بيوت سار (بعثة لندن - البحرين)



٧-٢٤ إناء مستدير دقيق الصنع من الكلورايت مع تصميم واجهة معبد (متحف البحرين الوطني)





٧-٢٥ سلال مطلية بالقار من سار (متحف البحرين الوطني)



٧-٢٦ آنية من الكلورايت من قبر في سار (متحف البحرين الوطني)



٧-٢٧ فارس من الطين المحروق (تراكوتا) من قبر في سار من العصر الهلنستي
(متحف البحرين الوطني)

مدينة حمد

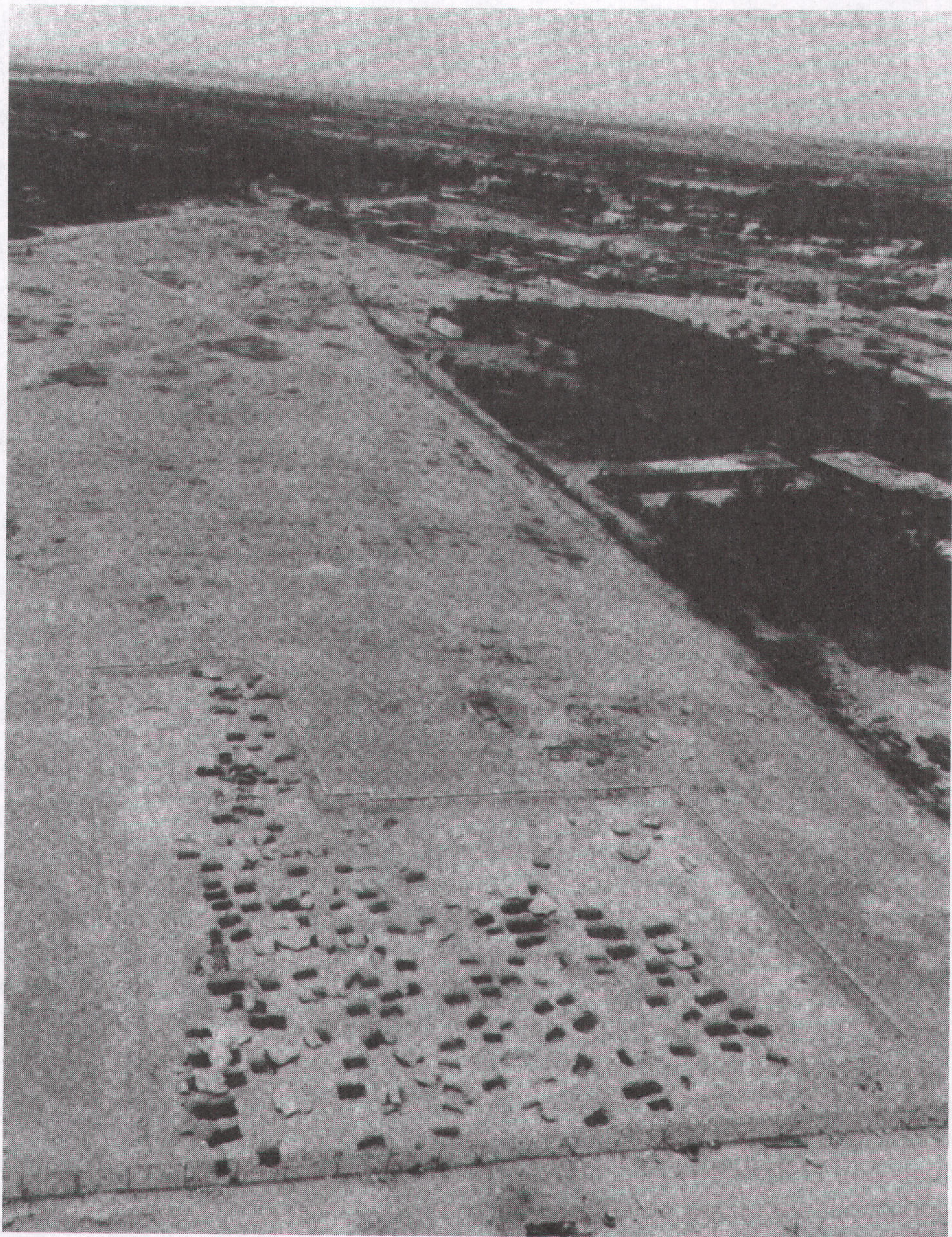
اكتشفت دائرة الآثار البحرينية مجموعة متميزة من التلال في مدينة حمد . وتلال مدينة حمد مهمة لأن معظمها لم يتعرض للنهب وهي على ما يبدو،مبكرة بشكل خاص . وتكمن أهميتها الخاصة في كونها شبيهة من حيث البناء والمخطط بقبور أم النار في أبوظبي . ولعل أم النار كانت الميناء الذي صدر منه النحاس إلى دلمون من أجل صهره، ومن ثم شحنه إلى سومر . وهنالك أيضاً قبر آخر يبدو كما لو أن له صلة بأم النار على طريق البدية (Budaiya) .وهذه الصلات ذات أهمية في محاولة تحديد الأصل المحتمل لثقافة دلمون والجهة التي جاءت منها المؤثرات الحضارية التي وجدت في الخليج في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد . كما أن الفخار من مدينة حمد يبدو معززا لصلات أم النار .

الحجر

ولقدتوفر دليل آخر على الثروات الأثرية التي لا تزال موجودة في كل مكان في البحرين تحت السطح مباشرة في عام ١٩٧٠ من رابيتين كبيرتين في الحجر . حيث اخترق هاتين الرابيتين في الأصل ذلك العدوالدائم والصديق المؤقت لعلم الآثار ، ألا هوالجرافة . وكشفت حفريات لاحقة قامت بها دائرة الآثار البحرينية عن مقبرة مركبة واسعة تحتوي على مدافن من عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، أقدم فترة في تاريخ الجزيرة، وحتى الأزمنة الهيلينستية . (شكل ٧-٢٨)

وبعض القبور لم يتعرض للنهب ولا يزال ساكنوها يرقدون مستريحين بداخلها ، ولكن بعضها قد سبق نهبه . وكان العديد من القبور مقطوعة في الصخر، وعدد منها بحجرات . وبعض القبور الأولى مختومة بنوع من الشعرية* وأضاف العديد منها عناصر جديدة إلى حصيلة ممارسات الدفن البحرينية القديمة . وكشف أحد القبور التي يعود تاريخها إلى

* Portcullis فتحة أو باب من الحديد المتشابك (د.السقاف) .



٧–٢٨ المدافن في الحجر (متحف البحرين الوطني)

الألف الثالث ق م في الحجر عملية دفن كلب – يبدو أنه كان قد أرسل لقضاء الحياة الآخرة مع سيده (شكل ٧–٢٩) . وهناك أيضاً أمثلة على كلاب وجدت في القبور السومرية القديمة . وفي أحد المدافن المبكرة بصفة خاصة رقد صبي ومعه كلب مزود بعظمة ليأخذها معه إلى الحياة الآخرة .



٧–٢٩ هيكل لكلب مدفون في مقابر الحجر (دائرة الآثار في البحرين)

ولقد عثر في الحجر على كمية معتبرة من المشغولات عالية الجودة ،ومن معظم الفترات . وكانت أول موقع يستخرج منه خاتم دلموني ذو صلة مباشرة بعملية دفن. ويبدو من موضعه أنه كان ملبوسا حول العنق (شكل ٧–٣٠) . وعثر في قبر آخر على خاتم من فترة (جمدت نصر) ،ويفترض أنه كان قديما قبل استيراده إلى البحرين، وعلى الأرجح أعيد قطعه ، وربما كان تراثا عائليا (شكل ٧–٣١) . وبالفعل ، وجدت أختام من الفترات جميعها في الحجر تشتمل على قدر غير عادي من الأختام الأسطوانية شاهدة على استمرار

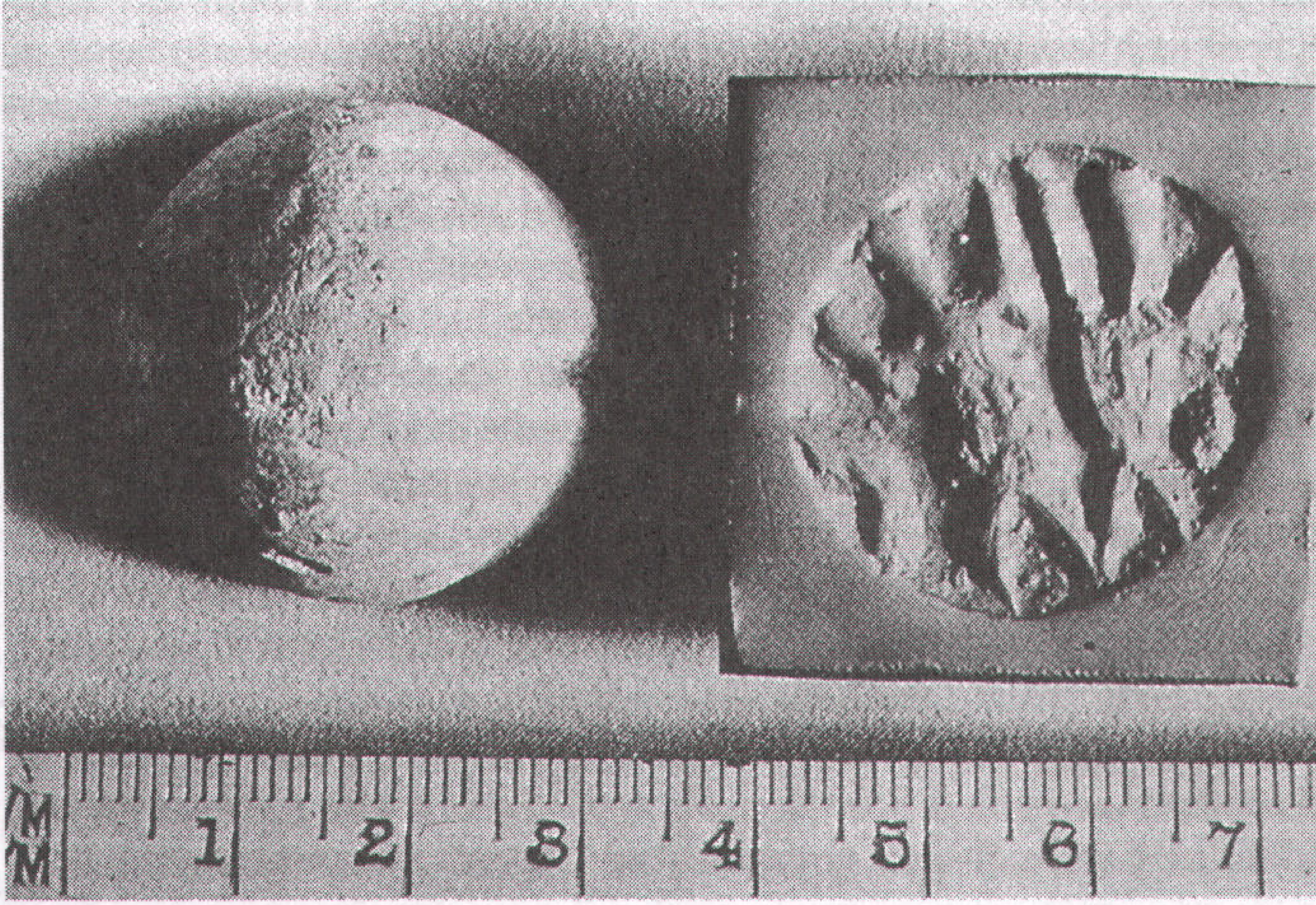
درجة ما من التجارة والنشاط الرسمي في البحرين في أثناء الفترة الغامضة في أواخر الألف الثاني ق .م.

ويذكر طفل في وعاء مستدير لا تزال جمجمته واضحة بعمليات دفن مماثلة من قلعة البحرين، على بعد بضعة أميال. وعثر في أحد القبور من الحقبة الآشورية في القرن الثامن على قدح مطلي.

كان أحد أهم العناصر من جميع الفترات في سلسلة القبور العريضة الممتدة على مدار أكثر من ٢٠٠٠ عام أوعية الكلورايت أوالحجر الصابوني الدقيقة. والجدير بالملاحظة هوجودة الصناعة وثبات التصميم لفترة طويلة من الزمن.



٧-٣٠ كانت الحجر أول موقع في البحرين يستخرج منه ختم دلموني ، مدفون مع صاحبه (إدارة الآثار في البحرين)



٧-٣١ ختم من حقبة «جمدت نصر»، سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ذات الأصل السومري وقد استخرج من أحد القبور في الحجر (متحف البحرين الوطني)

حول قدسية دلمون

وان إحدى العلامات القاطعة على حضارة دلمون هو أن جزيرة البحرين الرئيسة كانت تعتبر مقدسة بصورة خاصة وكانت هذه بالفعل صفتها الثابتة خاصة بالنسبة للشعب في بلاد ما بين النهرين. وكانت مكانتها التجارية تضاهي هذه القداسة. وكان لصفة الجزيرة المقدسة مضامينها الوظيفية الهامة بشأن تطور مجتمع دلمون ،مثل وظيفة المركز التجاري الهام. ويشتمل التركيز الملحوظ في المعابد في القسم الشمالي من جزيرة البحرين الرئيسة– باربار وأم السجور ودراز– شرق وغرب على إدارة موسعة ، وربما على هرمية كهنوتية لخدمتها. وإذا كانت معابد دلمون مرتبطة بمعابد سومر، عندئذ فإن من المحتمل أن دورة احتفالات المعابد كانت متكررة ومنفصلة.وكانت معابد دلمون دلمونية متميزة ويبدوأنها تطورت بصورة مستقلة إلى حد كبير عن أي من جيران الجزيرة الأكبر منها.

وتظهر درجة عالية من التخصص الذي كان على أغلب الظن مرتبطاً بالأديان التي

كانت تدار من دلمون في صناعاتها الرئيسة ، وهي بناء القبور الواسعة . ويمثل كل نوع من أنواع القبور المتعددة التي تطورت في البحرين آلافا من الأمثلة الفعلية التي بنيت على امتداد ٦٠٠-٨٠٠ عام. وهذا نظام هائل من التخطيط وضبط التصميم حقا.

والمقابر بحد ذاتها أبنية معتبرة ، بها ممرات حجرية مرصوفة بعناية، وبرانس حجرية مقطوعة ومركبة بحرص، وفي معظم الحالات بجدران مستديرة من الحجارة المقطوعة جيدا، فهي لم تشيد على عجل أوتبنى عشوائيا ،بل بنيت بنسق موحد حسن فوق منطقة جغرافية واسعة في شرق الجزيرة العربية والبحرين. وكان لعمان وساحلها أسلوبها الخاص المميز في بناء الصروح.

وبينما يدافع قليل من العلماء اليوم بقوة عن كون البحرين جزيرة جنائزية، فإن السمة المحيرة للروابي هي أن نسبة مئوية هامة من تلك التي كشف عنها لم تحتو أبدا على مدافن فعلية. وهذا ما قاد إلى الفكرة الخيالية بأن القبور الفارغة ربما كانت قبور لمجهولين بنيت لتخليد الدلمونيين الذين ماتوا بعيداً عن الجزيرة في أثناء السفر أوالتجارة. وعلى أية حال، إذا كان بناء المدافن في البحرين بصورة خاصة كان يتم على أساس تجاري عندئذ يحتمل أن تكون قد بنيت بصورة صناعية ، أي أنها كانت تعد فيما يمكن القول إنه "مجمعات مدافن للبيع" لا كما هو القاعدة العامة حسب الطلب سواء من جانب المتوفى أم ممن ثكلوه. وإذا كانت هذه هي الحال، يحتمل ألا تباع جميع القبور في أية مجموعة بعينها لأي سبب، وبقي بعض القبور التي بنيت بصورة رائعة غير مستأجرة أو مسكونة.

ولا يرجح أن كلا من تياري حياة دلمون الاجتماعي المقدس المتمثل في المعابد، والعلماني المتمثل في الأنشطة الاقتصادية، كانا على الدوام منفصلين. فالتجارة على هيئة نشاط منظم يدار جماعيا بدلا من مشروع التاجر المستقل المغامر أو المغامر الإداري كانت في الأصل من اختصاص المعبد. وكانت عبادة الآلهة والسعي وراء المشروع المربح الدعامتين التوأمين للمؤسسة الدينية السومرية. ونتجت هذه الحالة عن إدارة موارد المعبد من

الحيوانات والعبيد والأراضي. وعند ظهور لوكال (lugal) * سادت السلطة المدنية أو العسكرية في المدن السومرية مما أدى في نهاية المطاف إلى خصخصة التجارة وظهور الإداري المستقل . ويمكن أن يعمل التاجر بالمشاركة مع المعبد أوالحاكم العلماني، ولكن العلاقة كانت تميل إلى أن تكون علاقة الند بالند بدلا من الحفاظ على الوضع السابق والذي كان فيه التاجر أقل استقلالاً.

وسمة دلمون من حيث القداسة الاستثنائية أحد الجوانب المحيرة في تاريخها. ولا يوجد سبب واضح يبرر كون جزيرة صغيرة في الخليج العربي موقعا لهذا العدد من أبنية المعابد والمزارات لتخدم جماعة لم تكن لتتجاوز بضع عشرات من الآلاف من السكان حتى في أعلى درجات ازدهارها. ويمكن أيضاً أن تبدوسمعة دلمون كمركز ديني أولي، صعد أعلى مرتبة تعادل مرتبة المراكز الدينية التاريخية السومرية مثل كيش ونيبور، متناقضة مع وظيفتها كمحور لشبكة التجارة واسعة الانتشار في الخليج العربي.

وفي الألف الثالث ق.م بوجه خاص لا بد أن جزيرة البحرين الرئيسة بدت لزوارها مكانا مفضلا تفضيلا خاصا. وكانت نباتات منطقتها الشمالية وافرة بصورة استثنائية مع مزارع نخيل ممتدة فوق معظم الأراضي ،وغابات كثيفة من أشجار القرم التي تمتد إلى الشاطئ الأمامي. وكانت الجزيرة بصفة خاصة مزودة تزويداً جيداً بالماء. ولا بد أن المناخ اللطيف نسبيا الذي استمر من الألف الثالث ق.م قد أسهم في خصوبتها. وكذلك التجار الذين يستخدمون الجزيرة في رحلاتهم من عمان إلى سومر حاملين إمدادات من النحاس ومن سومر جنوبا وشرقا إلى مدن وادي السند، قد ضمنوا من خلال حديثهم عن مصادر الجزيرة الطبيعية أن تعرف على أنها استثناء شهير في منطقة ذات مناخ غير لطيف عموما ، وأوضاع طبيعية قاسية.

ربما كان هنالك عامل آخر في الأمر. ولأخذ هذا بالاعتبار سيكون من المناسب النظر

---

* التاجر باللغة السومرية (صالح) .

للحظة في واحدة من المحاولات العلمية القليلة لاستكشاف مصادر دائرة البروج وتسمية الأبراج . ومن المثير للفضول أن الظاهرة التي تمتعت بهذا القدر من الشهرة على مدار الألفين والخمس مائة عام الماضية حيث حظيت أصول دائرة البروج باهتمام علمي قليل جداً ومثلها دواعي انتقاء بعض مجموعات النجوم لتمثيل الحيوانات أوالأغراض التي كانت ممثلة بها. ولا يوجد أية دراسة حقيقية لاختيار الأسماء الممنوحة للأبراج التي لا يوجد تشابه واضح بينها وبين الحيوان أوالغرض الذي يرتبط بالبرج. فالدراسة المشار إليها (لميشيل أوفندين وهو من قسم الفلك في جامعة جلاسكو) تنطلق من الاعتقاد بأن اختيار الأبراج التي كانت ستتكون منها "منازل" دائرة الأبراج الأثني عشر تدل على أنها عُمِلَت لأول مرة في الألف الثالث ق م . وحيث إن هذا الزمن كان زمن التقدم السريع والاستثنائي في أرجاء العالم القديم جميعها فإن هذا الاعتقاد يبدومقبولاً تماماً. وملاحظة سماء الليل، الشغل الشاغل لشعب سومر، والمقدور لها أن تكون إحدى انتصارات العلم البابلي قد انتقلت سلفا إلى مستوى الحساب المعقد والدقيق.

لا بد أنّ معرفة الأبراج الرئيسة بصفة خاصة كان عوناً للملاحة، وهذا أيضاً رأي معقول تماماً ففي هذا الوقت باشر البحارة رحلاتهم بعيدة المدى الأولى بحثا عن المواد الخام والتجارة ، وأصبحت الملاحة علماً ضرورياً لنجاح مشاريعهم، بل ومن أجل بقائهم بحد ذاته . وكانت المراقبة تتم من جزيرة بها جبل مركزي مع جزر أخرى في الجوار على الأفق لتكون علامات مرجعية.

ويفترض أنه لا بد من البحث عن خط عرض شمالي من أجل التسمية الأولى للأبراج، حيث إن ترتيبها على دائرة البروج يحتاج إلى نقطة ملاحظة حول الثواني الثلاثين الوسطى من خط العرض. ويحتمل أن الشعب الذي يمتلك تقليدا بحريا عالي التطور،والمدفوع بالضرورة التجارية لا بد أن يتولى دون غيره إجراء على هذا القدر من الدقة والتعقيد كعملية تمييز وتسمية الأبراج كي تخدم مقاصدهم. وتشير الدراسة إلى أن الكريتيين كانوا

المنافسين المرجحين، مشيرة إلى اقتدارهم كبحارة والرحلات بعيدة المدى التي قاموا بها. وأما البابليون فإنهم مستبعدون دون روية (مع الاعتراف بأن الفضل دائما ينسب إليهم في اختراع دائرة الأبراج) استناداً إلى أن رحلاتهم البحرية كانت في الخليج الفارسي والمحيط الهندي بعيداً جداً إلى الجنوب بالنسبة لخط عرض مراقبي الأبراج.

على أية حال تنطوي الدراسة على عيبين بصفة خاصة: أولا، لا يوجد دليل على أن الكريتيين كانوا " بحارة عظماء وبالتالي تجاراً عظماء" كذلك فإنه في أوائل أوأواسط الألف الثالث ق.م، كان أبناء هذه الجزيرة لا يزالون في مرحلة ثقافة العصر الحجري الحديث. ولم يبدأ ظهور ثقافة المنوان (Minoan) الكلاسيكية في كريت إلا عند نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق م، بعد أمد طويل من خوض السومريين وخلفائهم غمار المحيط وتخطيط الرحلات البحرية بعيدة المدى.

ومن ناحية أخرى كان البابليون في هذا الجانب ،كما في العديد من الجوانب الأخرى، ورثة السومريين الذين أثرت قدراتهم الخارقة في مسار التطور الاجتماعي تأثيراً عميقاً. ومن الواضح أن هذه الملاحظات لم تدم بقدر ما دامت قائمة النجوم البابلية.

والاحتجاج بأنها بعيدة جنوبا أكثر من اللازم بالنسبة للأبراج المختارة ،والتي تقع بمحاذاة دائرة الأبراج في وقت مبكر من الألف الثالث ق م هوالآخر لا سند له. فالأبراج ترى بوضوح من الخليج ومن مدن جنوب بلاد ما بين النهرين.

ولقد اقترح منذ أمد بعيد أن السومريين وخلفائهم قد استخدموا الزقورات ، وهي بنايات المعابد العالية التي بَنَوْهَا في النصف الأخير من الألف الثالث ق.م والتي عمت جميع المدن الهامة ، لأغراض فلكية. وتبين السجلات الأكادية أن حركة الأبراج كانت تلاحظ وترسم ، ويوجد دليل وافر ، وإن يكن استنتاجيا إلى حد كبير، على أنه كان لديهم إمكانية الوصول إلى سجلات وضعها أسلافهم السومريون في وقت مبكر من الألف الثالث قبل الميلاد.

ولقد قسم السومريون السماء إلى ثلاث " طرق " أوأحزمة. وهي : طريق آنوالتي تمثل خط الاستواء السماوي، وطريق انليل التي تمر من شمالها بينما تقع طريق إنكي إلى الجنوب. ومن الواضح أن قوم بلاد ما بين النهرين كانوا على علم تام بالمناطق الرئيسة في السماء ودونوها بملاحظة دقيقة ولا يستغرب أن السماء الجنوبية كانت مرتبطة بإنكي الذي كان أهم إله ذي صلة بالخليج. ويمكن أن تكون الصروح العظيمة التي تشكل ميزة معمارية ملحوظة في الفن المعماري الخليجي في أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد خدمت غاية مماثلة كمنصات المعابد التي قام كهنة سومر وأكاد وبابل بالمراقبة منها. وبالنظر إلى الحماس الذي أبدته شعوب غربي آسيا في القدم للملاحظة الفلكية، يصعب الاعتقاد بالعكس.

وبناء على المقاييس التي طرحها أوفندين، وهي تاريخ مبكر من الألف الثالث ق.م ، وشعب ذو مهارات بحرية عالية التطور، وتجارة ممتدة امتدادا واسعا، وجزيرة بها بروز في وسطها يمكن إجراء الملاحظة منه، وتحيط بها جزر أخرى على الأفق فإن الخليج يصبح مسرحا أكثر احتمالا للمراقبة المطلوبة ، وجزيرة البحرين الرئيسة تصبح مكاناً أكثر ملائمة للملاحظة من كريت. وتمتلك البحرين بروزاً مركزياً ، وهوجبل الدخان، ومن حيث كونها جزءاً من أرخبيل، فهي مجهزة تجهيزا جيدا بالجزر المجاورة.

وبالطبع لا يوجد أي شيء ولو بسيط من الدليل في هذه المرحلة لدعم ذلك الاعتقاد. وعلى أية حال، تظل حجج الدراسة الفلكية بشأن الدور المحتمل للجزر في تسمية الأبراج في دائرة الأبراج مغرية، وإذا كان لا بد من صرف النظر عن كريت على أساس تسلسل زمني وأثري وتاريخي فإن البحرين بالفعل البديل المعقول جداً والأكثر احتمالا على وجه العموم.

وإذا كانت البحرين–دلمون قد عملت كموقع لهذا التطور المهم جداً في الشؤون البحرية السومرية ،وطابع الصدفة الذي لا شك قد حظيت به مثل هذه المعرفة ،مع الأخذ بالاعتبار

إدارة المعرفة العلمية في المجتمعات القديمة ، فإن ذلك يفسر المكانة الخاصة جداً التي حظيت بها دلمون على مر هذا العدد من القرون . ولأن الأبراج دائما متماثلة مع الآلهة العظام ، فإنه يمكن أن يقال حقيقة إن الجزيرة كانت موطنها الأصلي . و بمفهوم التسامي الذي يمكن أن يكون الكهنة قد ابتدعوه،بصفتهم مسئولين عن الملاحظات الأصلية، مكان دهشة وغموض، ومسمار عجلة الكون، والموقع الرابط بين الأرض والسماء.

الفصل الثامن

الأراضي المجاورة لدلمون

كان المجتمع الذي نشأ في الخليج في النصف الثاني من الألف الثالث ق . م والذي بقي حتى القرون الأولى من الألف الثاني ق.م عالي التطور والتعقيد . فبينما كان لديه عدد من مزايا معاصريه العظماء، مثل الثقافة النهرية لمصر وبلاد ما بين النهرين،و المجتمع راقي البنية، والأبنية العامة التذكارية، وصلات بعيدة المدى، وحقول مدافن ثرية واسعة فقد كان متميزاً في الكثير من صفاته . وكان لهذا الأمر سببان رئيسان هما طبيعة المجتمع التجارية بصفة خاصة، وحقيقة كونه مبنياً على البحر مع اعتماد كبير على الجزر كمراكز سكان ونشاط رئيسة له.

وكان انهماك دلمون في التجارة الدولية قد جعل منها حضارة مختلفة تماماً عن الحضارات المدنية المتطورة المبكرة الأخرى. وكان العديد من هذه الحضارات بالطبع مهتم بآليات التبادل وانتقال المواد الخام أوالسلع المصنعة . وفي جميع الأحوال، ومن حيث كونها متمركزة على المدن أوالبلاط الملكي، فقد استوعبت هي بذاتها كميات كبيرة من البضائع التي كانت موضوع نظم التبادل التي تحكمت في توزيعها وتحصيلها بالعزم. وغالبا ما وجد هذا الامتصاص لمنتجات المجتمع متنفسه الطبيعي في النصب التذكارية الجنائزية التي ميزت الكثير من هذه المجتمعات في الشرق الأدنى من الألف الثالث ق. م فلاحقاً.

وفي حالة دلمون كانت التجارة الأساس الفعلي للمجتمع مع تحفظ واحد مهم سنعرض له لاحقاً . ومع حلول الوقت الذي انتقل فيه مركز الحضارة الدلمونية من شرق الجزيرة العربية إلى جزيرة البحرين في وقت ما بعد منتصف الألف الثالث ق.م ، كانت التجارة بكل وضوح أساس الاقتصاد ، إذ كانت الزراعة وصيد السمك أقل أهمية نسبيا .

اعتمدت معظم المجتمعات القديمة على الزراعة في رخائها وتطوير نظامها الاجتماعي. ولم يكن الحال على هذا المنوال بالنسبة لدلمون ، ولأنها اقتصاد يعتمد على البحر فقد كانت الزراعة ذات أهمية قليلة وإن لم يكن مؤكدا مدى تأثير ذلك في حياة الشعب. ولم تسمح تقلبات المناخ بتطوير فن زراعة الحبوب، على الرغم من أن شجر النخيل، على الأقل في حالة واحة الهفوف العظيمة في شرق الجزيرة العربية، كان الاستثناء لهذا المبدأ لأن تمور دلمون كانت مشهورة.

ودلمون هي المثال الوحيد في العالم على المجتمع المبني على الجزيرة،و المجتمع الذي اعتمد على أربعة عناصر رئيسة فقط– فيلكا،وتاروت ،والبحرين ، وأم النار. (مع بعض التحفظ بالنسبة للأخيرة) ولقد كان هذا هو العامل الذي أسهم بالكثير في شخصية دلمون الخاصة كما أنه يبرز اختلافاتها عن معاصريها من جيرانها الأقربين . ولقد كانت حضارة جنوب غرب إيران مبنية على الأرض، وكانت سومر إلى الشمال تعتمد على الأنهار والأخوار في الكثير من مواصلاتها الداخلية. وكانت مدن وادي السند عناصر مستقلة في مجتمع مرتبط بوساطة الأنهار وأنظمة الوادي التي نما فيها المجتمع . وكانت دلمون مجتمعا بحريا تتطلع إلى البحر من أجل مواصلاتها وارتباطاتها الداخلية، وحين عم رخاؤها وتوسع الطلب على منتجها الأساسي ، النحاس، أقيمت مستوطنات هامة بمحاذاة ساحل الخليج الجنوبي، وهذه قد وفرت إمكانية الوصول إلى مناجم النحاس في شمال عمان والتصدير منها.

ومع حلول الوقت الذي بدأ فيه الخليج بالبروز عام ٢٤٠٠ ق.م ، كانت الكيانات السياسية في المدن السومرية آخذة بالانتعاش المتصاعد لمدة ١٠٠٠ عام . وكان الخليج – ثقافة دلمون– في الأيام الأولى وريث كامل تعقيدات الحضارة السومرية . وحين أقيمت مستوطنة المدينة الثانية وبنيت قلعة البحرين والمعابد العظيمة الأولى في باربار، كان المجتمع التجاري قوياً سلفا وبِعَيْدَ الأسفار. وأقيمت مستعمرات التجار ربما على مدار عدة أجيال وغالبا ما كانت بعيدة كثيراً عن القاعدة الأم.

وكان السومريون والأكاديون وخلفاؤهم البابليون أرشيفيين مثابرين ، ولقد تم تسجيل كميات هائلة من الوثائق التجارية إلى جانب مكتبات من المواد الأدبية . و أحد الأرشيفات الرئيسة للتجارة مع دلمون عبارة عن ألواح من بيت إيا-ناصر في أور ،والتي سنشير إليها في الفصل التاسع . ومما يخيب الآمال أن ما اكتشف من الألواح المنقوشة من مواقع خليجية قليل جداً ، خاصة من البحرين التي لا بد أنها استخدمت أنظمة ملفات وسجلات واسعة وعملية من حيث كونها مركزاً للعمليات التجارية . وكان أهل بلاد ما بين النهرين الأوائل عظماء فيما يتعلق بوضع مصطلحات الاتفاقيات المستخدمة في لغات مختلفة . فإذا ما تم العثور على مرجع متعلق بتجارة دلمون من شأنه على الأرجح أن يكشف عن اللغة التي تحدث وكتب بها التجار ،ومن ثم المجتمع .

وعلى عكس أبناء ما بين النهرين الذين استغلوا الخصائص غير القابلة للتلف في الألواح الصلصالية المحروقة، استخدم نظراؤهم الدلمونيون مواد أكثر قابلية للزوال يكتبون عليها سجلاتهم، وهذا مجرد استنتاج وإن لا يخل من المعقولية وشجرة النخيل شائعة الوجود في أرجاء شرقي الجزيرة العربية جميعها، وأصيلة فيها . ولقد أجريت الاختبارات لصناعة مادة كتابة من أوراق النخيل باستخدام عملية مماثلة لتلك التي استخدمت لصناعة البردي في مصر . وكانت مثل هذه المادة معروفة في الأزمنة السابقة على ظهور الإسلام ، لذا فإنه من الممكن أن تكون قد عرفت منذ القدم إذ بالابتكار الطبيعي لدى شعب الخليج وميلهم العام إلى الاستفادة القصوى من المواد الخام القليلة نسبيا التي وهبتهم إياها العناية الشحيحة يحتمل عموما أنهم قد استخدموا ألياف النخيل لصناعة الحبال . ونظراً للرطوبة البالغة في الصيف في الخليج، فإن السجلات المكتوبة على ورق بردى النخيل لا تعيش طويلا، ونظراً للموقف البراجماتي لشعب الخليج بشأن مسألة الحياة لا يعقل أنهم استمروا في استخدام مثل هذه المادة بدلا من اختيار ألواح الفخار المحروق . ومهما يكن الأمر فهناك ندرة في الألواح المنقوشة في أرجاء الخليج جميعها، ويمكن أن تكون تلك مصادفة من مصادفات علم الآثار ،

أو ربما كان غياب السجلات المدونة نتيجة تلفها. فالبردي المصنوع من النخيل لن يترك أي أثر يمكن تمييزه في قبر أو موقع للسكنى وإن وجدت أي بقايا فإنه سيصرف النظر عنها باعتبارها مجرد مصادفة.

وإذا كان النخيل قد قدم فعلاً هذه الخدمة لشعب الخليج القديم وهذا مجرد رأي افتراضي بحت فقد يكون ذلك سبباً آخر للارتباط بين آلهة دلمون ،وبصفة خاصة بدلمون ، إنشاك -إنزاك ،وسعف النخيل .وبالمصادفة ولا شيء آخر كان هذا الإله يمثل بكوكب المريخ الذي غالبا ما ارتبط بآلهة الكتابة والتعليم بوجه عام وبالتجارة. وكانت حركة البضائع إلى أعلى وأسفل الخليج وتوزيعها النهائي إلى أسواق بعيدة، والمحافظة على سجلات مناسبة،وإجراءات المحاسبة شغل الناس الشاغل. ولا بد أن هذه الأمور قد تطلبت درجة عالية من التنظيم والتخصص. ونجد في أزمنة أقدم السجلات الموجودة المتعلقة بدلمون جابي الضرائب، وهي الوظيفة التي توحي بدرجة عالية من البيروقراطية.

وهكذا ،لا بد من إضافة دلمون ثالثة إلى دلمون الفردوسية المذكورة في الأسطورة ،ودلمون التجارية ذات السلع والتجارة. وهذه الدلمون الثالثة هي في الحقيقة امتداد لدلمون السفن والبحارة والتجار الذين جنوا أرباحهم من المدينة على شواطئ البحرين الشمالية، ألا وهي دلمون العلمانية، ذلك الكيان السياسي الذي امتدت سيادته من وقت لآخر مع امتداد الشاطئ العربي الشرقي حتى خليج الكويت واشتملت على جزر تقع قريبا من النقطة التي ينهي عندها نهرا العراق العظيمان رحلتهما في مياه رأس الخليج.

وعند هذه المسافة من الزمن يصعب التخمين بشكل معقول بشأن أي نوع من التنظيم السياسي قد تكونت منه الدولة الدلمونية في الألف الثالث وأوائل الألف الثاني ق م حين كانت في أوج أهميتها. ونعلم أن أور-نانشي ملك لجش ادعى أنه يتلقى الجزية من دلمون في القرن السادس والعشرين ق. م . وهذا ، يعني ضمناً أن دلمون كانت دولة حتى في ذلك العهد وإن كانت تقف في موقف التابع لإحدى القوى السومرية الرئيسة،هذا إن كان أور-نانشي صادقا.وبعد نحو

٢٠٠ عام من ذلك التاريخ يبدو أن سرجون قد استولى على دلمون وألحقها بإمبراطوريته حديثة التأسيس، وادعى ملوك بعده السيادة على الأرض المقدسة ونعرف أسماء عدة ملوك متأخرين لدلمون مثل أوبرى (Uperi) الذي عاش كسمكة وسط البحر، وهوندارو (Hundaru) وقناية (Qanaia) ويبدوأن دلمون طوال هذه الفترة الطويلة امتدت وانكمشت ككيان سياسي، وكانت في بعض الأحيان محصورة بجزر البحرين، وتضم في أحيان أخرى كامل الساحل إلى الغرب والشمال. وليس غريبا ونحن نتذكر تداول الأسماء الاستثنائي الطويل في الجزيرة العربية أن مقاطعة الأحساء في المملكة العربية السعودية كانت تعرف من حين لآخر بالبحرين وإن لم يتضمن هذا أي سيطرة سياسية على البرية الرئيسة من جانب أبناء الجزر. وفي تقريره إلى إدارة الشؤون الخارجية في مكتب نائب الملكة عام ١٨٧٩، يعرض ديوراند خارطة من تاريخ أبكر نوعاً ما تبين البحرين مشتملة على شبه الجزيرة القطرية إلى جانب كامل شرق الجزيرة العربية.

وبحدود علمنا لم تدمج دلمون قطر ضمن حدودها، وهنالك تقارير عن بقايا أثرية من قطر تحتوي على مواد من باربار لكنها بادرة لا يبدو أنها تقدم أي دليل كبير على الاستيطان طويل الأجل. والأكثر احتمالا أنها كانت نتيجة حملات الإقامة القصيرة على شاطئ غير معطاء حتى في العهد القديم.

لقد كانت البرية الرئيسة التي تمتد من غرب البحرين وحتى حافة أراضي المستنقعات في جنوب العراق مرتبطة في الأصل بالمفهوم الأوسع " لدلمون" . وهكذا كانت دلمون قادرة على تعزيز روابطها الإقليمية مع سومر بعيداً إلى الشمال بحرا وبراً على حد سواء. وإذا كان السومريون قد أتوا فعلا إلى ما كان سيصبح موطنهم الجنوبي، فإن هذا التمثل لمناطق البرية الرئيسة الساحلية بدلمون يمكن عندئذٍ أن يكون قد عمل على تخليد طريقة هجرتهم في ذاكرتهم الجماعية، ولعله بسبب هذه الهجرة كانوا ميالين إلى الإبقاء على الاسم القديم لمنطقة البرية الرئيسة في وطنهم الجديد في الجزر، حين نقلوا مركز دلمون إلى هناك في القسم الأخير من الألف الثالث ق.م. ونحن نعرف أن السومريين – استناداً إلى أدلة من

مستوطناتهم البعيدة في شمال سوريا ، على سبيل المثال – قد استطاعوا زرع وتعزيز مستعمرات كانت سومرية الطابع في بيئة أجنبية بعيدة كثيراً عن أرض الوطن. ولعل هذه هي الطريقة التي نشأت فيها دلمون وتعززت بعد ذلك بارتباطها باتجاه الأرض إلى الشمال مع سومر، وكذلك بالبحر على حد سواء. و كانت المستوطنات السورية محصنة تحصينا كبيراً بينما المدينة رقم ١ في البحرين لم تكن كذلك. وفي هذا الصدد يرى البعض أن السومريين قد استداروا إلى الخليج والجنوب بحثا عن التجارة فقط بعد ما طردواخارجين من مراكزهم الشمالية المتقدمة ،خاصة المستوطنة التي كانوا قد أقاموها في الأناضول. ولا يزال الدليل في الوقت الحاضر غامضا.

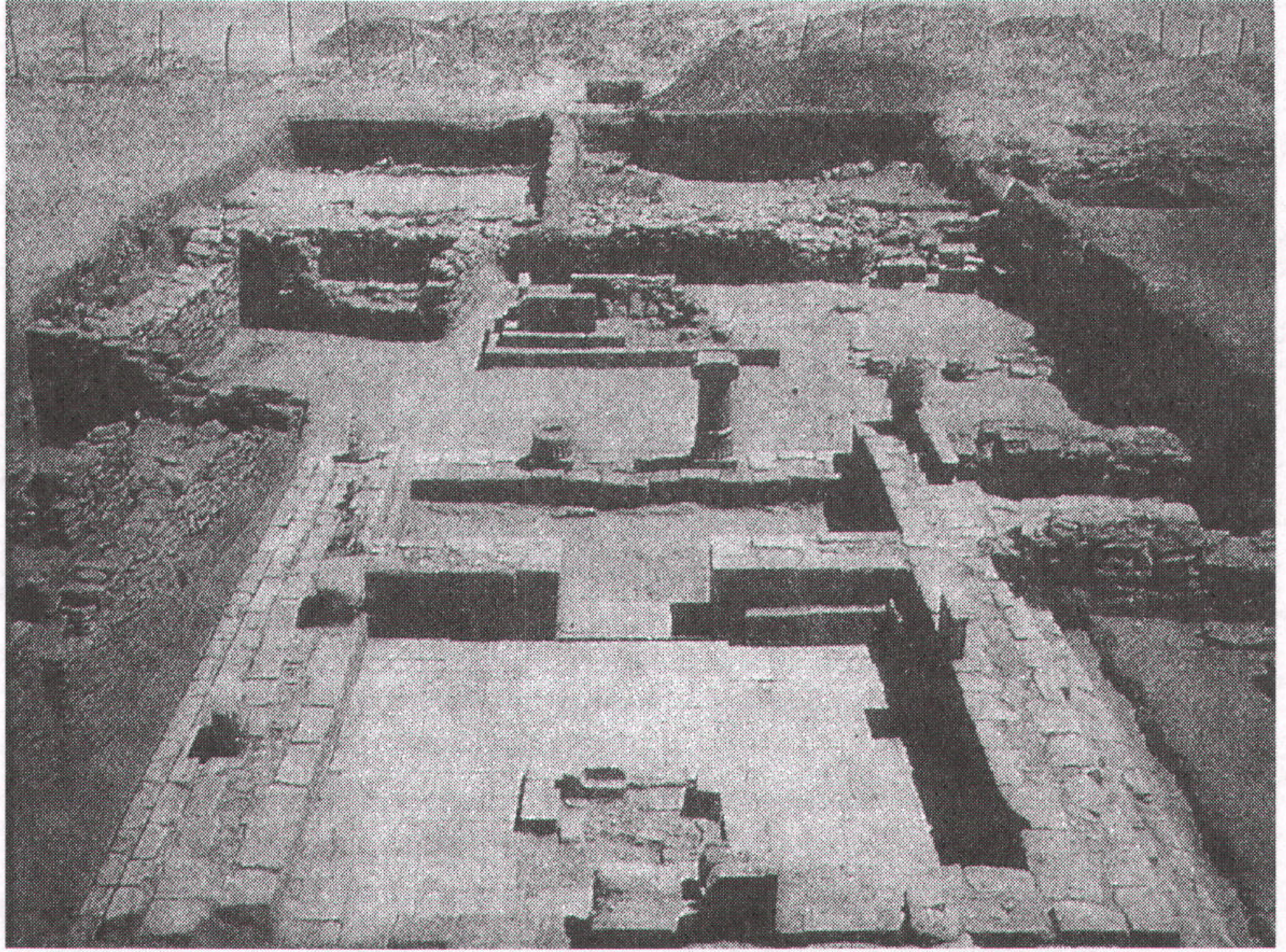
جزيرة فيلكا

أقيمت الصلة بين دلمون وفيلكا على أساس التنقيب الجزئي للمستوطنات المبكرة للألف الثاني ق.م على جزيرة فيلكا، ومخابئ الأختام الدلمونية العظيمة التي عثر عليها هناك. ويمكن أن تكون أجزاء من ملحمة جلجامش قد وقعت على وحول شواطئ الخليج ، وفي دلمون ، وأهمية تلك القصة وجود سيدوري (Siduri) الإلهة لأنها تعيش على الجزيرة على حافة المحيط المعروف بحديقة الشمس. ويزورها جلجامش في بداية مسعاه ، وكانت في أزمنة السومريين الإلهة الحامية للخليج،كماكانت تقيم في حديقتها توزع الشراب على المسافرين، خاصة أولئك الذين كانوا على وشك عبور مياه الموت التي لا يعودون منها . ويحتمل أن فيلكا كانت بالفعل جزيرة سيدوري كما يشير بروز. وإذا كان الأمر كذلك فإنه يفسر وجود الحرم على الجزيرة وسمعتها كمكان مقدس للإلهة، وهي السمعة التي تمتعت بها طويلا .

وقيل إن الحديقة التي كانت سيدوري سيدتها تحمل أشجارا محملة بالجواهر. وقد افترض أن هذه إشارة إلى الوهج الكثيف لمياه الخليج الناجم عن المرجان في المناطق الضحلة. وإذا كانت فيلكا جزيرة الآلهة سيدوري فإنها أيضاً جزيرة الآلهة أرتميس التي خصصت لها فيلكا باسم إيكاريوس.

وتم تنقيب المعبد الإغريقي الصغير الجميل على جزيرة فيلكا بواسطة الدنمركيين (شكل ٨-١) ولابد من الافتراض أنه كان مرتبطاً بمزار يبدو أن الجزيرة قد اشتهرت في الأزمنة الإغريقية بسببه. ولعل مهبط الوحي أقل ديمومة في تركيبته، وهو عبارة عن بستان مقدس، أو امرأة حكيمة ما رابضة داخل غار.

ولقد دون كورنوول، الذي لا يبدو عليه أنه يعرف الفرق بين فيلكا وإيكاروس عندما أعد بحثه، وصف سترابو وآريان لمزار قيل إنه مخصص لديانا توربوليس، مقرا لها في إيكاروس .ويفترض أن اسم المزار كان يعني شيئا مثل ديانا من مدينة الثيران ، ولكن أي مدينة ،وأية ثيران؟ وفي



٨-١ مستوطنة هامة في فيلكا من العصر الهلنستي، وعاشت بها جالية إغريقية أقامت لنفسها المعابد والصروح،وميداناً واحداً للألعاب على الأقل.

الحقيقة فإن كورنوول غير مصيب في استنساخ اللقب Taurpolis، فهو في الواقع Tauropolos ،وهذ الأمر مختلف تماماً. وبهذه الصيغة يمكن أن تعني صياد الثيران، الاسم المستعار المناسب جداً لإلهة عفيفة.

وديانا هي الصيغة الرومانية لأرتميدس اليونانية التي سماها الإسكندر الإلهة الحارسة لفيلكا والتي كانت حيواناتها مقدسة لديها. والجزيرة التي تقع في بحر إيجة، والتي يقال إنه سمى الجزيرة الخليجية على اسمها، هي إيكارا وليست إيكاروس،وإن كان لهذه أيضاً عقيدة ثيرانية عالية، من النوع الذي كان سائدا في فيلكا كما يبدو بصورة متزايدة. وهكذا سوف يبدو أن الإسكندر معترف بصفة القداسة للجزيرة الخليجية ومذاهبها الثيرانية ، والتي تبدو من دليل الأختام أنها كانت شعائر ضاربة في القدم، جمعت هذه العناصر كلها معا ،وتمثلت بإكارا بسبب شغفهما المشترك بالشعائر التي تنطوي على الثيران . ولقد طرح توضيح محير جداً لاختيار الاسم إيكاروس للجزيرة،وهذا يفترض أن الإغريق قد عرفوا أنه كان هناك معبد على الجزيرة يطلق عليه إيكارا في الأزمنة الآشورية كما

تسمى بالاسم ذاته في المصادر الآرامية أيضاً.

وكان لدى الإغريق قدرة غير محدودة على تشويه وتحريف أسماء الأماكن الأجنبية،ولا ينافسهم فيها غير الميل البريطاني المماثل في الأزمنة الحديثة،فتشويه تعابير مصرية مثل هيكوبتا، اسم المعبد الرئيس في ممفيس، والذي تحول إلى إيجيبتوس، ومن ثم إيجبت، بينما كانت ممفيس ذاتها في الأصل (من – نفر)، أحد أسماء العاصمة القديمة.

وهكذا ربما كان الحال بالنسبة لإيكارا الموجودة على الجزيرة في تخوم الخليج الشمالية. فلربما بدا ذلك للإغريق صيغة غير مميزة للإشارات، كما أن وجودالعقائد الثيرانية على كلتا الجزيرتين من شأنه أن يجعل الخلط بينهما أمراً طبيعياً جداً. و ربما كانت إيكاروس تحريفاً لاحقاً للاسم، و تظل أسباب ذلك غامضة وإن كان الربط مع أسطورة ديدالوب والتي نشأت في كريت والتي بلغت أوجها بموت إيكاروس، له علاقة ما به. ونسبة المعبد الذي في فيلكا على أنه إيكار مبنية على طاسة من البرونز منقوشة بالأكادية تشير إلى المعبد المعروف أيضاً من قائمة بالآشورية الحديثة للمعابد الدلمونية. ولقد كانت الإيكارا استناداً للنقش الآكادي مخصصة لشاماش إله الشمس الذي لعب دورا هاما في ملحمة جلجامش، والذي يواسي إنكيد المحتضر كما سنرى في الفصل العاشر.

من الصعب أن نتبين ما الذي كانت عليه طبيعة مهبط الوحي في جزيرة فيلكا. ولكن من المستحيل أن تكون الإلهة القديمة التي تمثلت مع الجزيرة،هي سيدوري ذاتها، التي كانت على وفق ملحمة جلجامش تعيش على حافة المحيط في حديقة الشمس. ويربطها تمثلها اللاحق بسيبيل الإيريثرية بمخلوق من مخلوقات الرؤيا والنبوءة. ولعل هذا الربط للجزيرة المشهورة بفعل ديانتها الثيرانية مع إلهة ذات نبوءة قديمة يفسر سمعتها في أزمنة الإسكندر كموقع مزار ديانا والثيران.

يبدو أن فيلكا قد صارت صالحة للسكنى في وقت متأخر من نهاية الألف الثالث

،أوبداية الألف الثاني قبل الميلاد . وكانت الجزيرة غير مستقرة قبل هذه الأزمنة. وحيث إن مستوى الخليج كان أعلى مما هوعليه اليوم بمتر واحد فإن الكثير منها كان تحت الماء. والمرجح أن الجزيرة حين أصبحت قادرة إعلى إعاشة سكان دائمين، استعمرها الدلمونيون من البحرين وشرقي الجزيرة العربية. ومثلها مثل شقيقتها الكبرى كانت الجزيرة، كما هو واضح مقدسة ، حيث تم الكشف عن مبانٍ دينية،كما أن سمعة الجزيرة في أيام الإسكندر الأكبر تشهد على قداسة صارمة وخاصة.

وسوف نشرح في الفصل التاسع التركيز الجدير بالملاحظة على جزيرة فيلكا في الأختام الخليجية ، ومن الصعب تفسير وجود مثل تلك الكمية في غياب أية مستوطنة من مرتبة تلك المعروفة في البحرين على سبيل المثال. وحتى الآن تم العثور على نحو ٥٠٠ ختم من فيلكا، وهو العدد نفسه تقريبا المستخرج من الجزيرة البحرينية التي تفوقها في الحجم والأهمية.

واثنان من أختام فيلكا مهمان ، ليس بسبب قيمتهما الجمالية، بل بالأحرى من أجل الإشارة التي يعطيانها لآفاق أرحب لتجار الخليج والتجارة التي مارسوها في بداية الألف الثالث ق. م. ولهذان الخاتمان وجهان لجُعلين بالأسلوب الذي شاع عندئذ في وادي النيل. وكان المصريون في السابق يميلون إلى تفضيل الأختام المستديرة، وفي نهاية الألف الثالث قبل الميلاد بدأوا يتبنون الخاتم الجُعَلي الذي أصبح بيضاوي الشكل. وفي النهاية أصبحت الأختام الجُعَلية أحد أكثر المنتجات شيوعا في المملكة المصرية مع مخزون هائل من التصاميم الخاصة بها. أما الأمثلة التي أتت من فيلكا فقد كانت تصاميم خليجية على أحد الوجهين مصرية بشكلها الجُعلي (شكل ٨-٢«أ-ب») وهذا جدير جداً بالملاحظة، ويوحي إما بأن التجار المصريين قد أقاموا في فيلكا ، حيث إنهم إذا كانوا مجرد متجولين فلا بد أنه كان لديهم أختام مصرية بالكامل لختم بضائعهم، أوتجار دلمونيين يصدرون البضائع إلى مصر ،و يقدمون لعملائهم مجاملة بتبني درجة من الممارسة المصرية على شكل أختام استعملوها.

واستخرجت الخويتمات المصرية (أو الممصرة) أيضاً من القبور في منطقة الظهران.




٨-٢ (أ) اثنان من الأختام العديدة المستخرجة من فيلكا





وتاريخها غير مؤكد وإن كان يحتمل أن بعضها يرجع إلى الألف الأول ،وليس إلى الألف الثاني ق .م.

ولعل الصلة الواضحة بين الأراضي الرئيسة في الخليج ووادي النيل ، والتي كانت جزءاً هاماً من العملية التكوينية لعهد الأسرة الأولى في مصر، قد امتدت إلى أبعد من ذلك. وعلى أية درجة من التكرار كانت تلك الصلات ، وكيف كانت تتم فهذه أمور لا تزال محل تخمين حتى الآن، لكن ثمة دليل على نوع ما من الارتباط في الحقبة التي تضم



٨-٢ (ب)مجموعة من الأختام من جزيرة فيلكا تعود لأوائل الألف الثاني قبل الميلاد

المملكة الوسطى إلى الحقبة المتأخرة، وهو يستحق مزيدا من البحث.

ولقدتم تعرّف سلسلة من مراحل الاستيطان في فيلكا تمتد في الفترة من ٢٠٠٠ إلى ١٢٠٠ ق. م متضمنة في هذا التوالي في المستويات الكاشية، وهنالك أيضاً دليل على بناء المعابد في الحقبة الهيلينستية، إضافة إلى النقوش التي سبق الإشارة إليها.

وفيلكا حالة غير عادية في الخليج من حيث ما وجد بها من نقوش مسمارية، وهذه تشمل الأختام المنقوشة والفخار والكسرات ،وبعض الألواح التي يتعلق كثير منها بالآلهة الخليجية بمن فيهم إنزاك .ومن المحتمل أن معبدا لإنزاك قد وجد بالجزيرة. وتميل النقوش إلى الإيجاز الشديد، لكنها موجودة بوفرة أكبر من أي مكان آخر في الخليج نتيجة لقرب الجزيرة من جنوب العراق. ومن الملاحظ أنه ليس هنالك أي شيء من حقول روابي القبور في فيلكا، مع أنها ميزة واضحة لسطح الأرض في كل من شرق الجزيرة العربية والبحرين.

بعد عمل الدنمركيين في موسم التنقيب الأول في المواقع في فيلكا ، كان هناك نشاط عابر فحسب في السنوات التالية ،حتى بدأ الفرنسيون العمل بالجزيرة في بداية الثمانينيات. وكانت النتائج هامة من حيث ما أضافته من فهم لذلك النوع من الأدوار التي لعبتها فيلكا في الخليج في بداية الألف الثاني ق .م ، ومرة أخرى في الأزمنة الهيلينستية.

وكان أحد الاكتشافات المحيرة التي قام بها الفرنسيون الذين يعملون على نطاق واسع في جزيرة فيلكا منذ عدة أعوام في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة. والأساسات التي اعتبروا أنها كانت برجا عالياً لا بد وأنه كان بادياً للبحارة (مثل المنارة) من مسافة بعيدة حين كانوا يقتربون من الجزيرة. وسواء كان المقصود من البرج أن يعمل كعلامة للبحارة، أم كان برجا دفاعيا لأبناء الجزيرة فهذا أمر غير معروف حتى الآن. و المدهش أن يترتب على برج مبني على جزيرة فيلكا أيا كان القصد منه، أن ينضم إلى قائمة أبراج أخرى في الخليج مثل أبراج القبور في عالي في البحرين، والأبراج الدفاعية التي بنيت بالقرب من مناجم النحاس

في شمال عُمان.

جدران برج فيلكا سميكة ،ولها قاعدة عريضة مع متاريس كلها توحي بأن البناء الأصلي كان على ارتفاع معتبر. وأخيرا، عثر على معبد آخر في فيلكا اعتقد المنقبون أنه مخصص لإنزاك كما هو مدون في نقوش مسمارية.

وأجريت عملية مسح للأرض الرئيسة في الكويت في أواخر الثمانينيات . وكان معلوما أن الخط الساحلي قد غار في البحر على مر أربعة آلاف سنة،و لهذا لم يكن متوقعا أن يعثر على بقايا كثيرة . وقد عثر على بعض الفخاريات من العصر البرونزي . ويحتمل أن الكويت كانت مأهولة في عهد ازدهار دلمون، ولكن أية مستوطنة كانت هناك لابد أنها ضاعت تحت الطمي والمياه الساحلية.

ولقد حددت البعثات الدنمركية في وقت مبكر أهمية الجزيرة والدور الهام الذي يبدو أنها قد قامت به في تاريخ الخليج من بداية الألف الثاني ق .م ، حين استعمرت لأول مرة. وعثر الدنمركيون على بناية أسموها " قصراً " أولى مراحلها معاصرة لمستوى المعبد الثاني في باربار والمدينة الثانية في قلعة البحرين ، وهذه بناية ضخمة مربعة تقريبا مساحتها ٢٢ في ٢٣م ، واحتوت على أعمدة وجدران بها أعمدة متوجة، وهي المزايا المعمارية التي كانت تتوفر في المعبد الذي وجد في سار بجزيرة البحرين. ويبدو محتملاً أن سكان فيلكا قد هجروا الجزيرة على عجل في الحقبة البابلية القديمة حيث إن المنازل التي بنيت وفق مخطط منتظم (مثل تلك التي في سار) قد أظهرت أدلة على أنها تركت على عجل.

وأقيم "قصر " ثان في فيلكا نحو عام ١٤٠٠ ق .م في الوقت الذي كان فيه الكاشيون مستقرين في بلاد ما بين النهرين كما كانوا في الخليج. وبني " قصر " ثالث على الأرجح نحو ٧٠٠ عام بعد ذلك إذ إنه يمكن تصديق النقش الذي عثر عليه بالقرب من البقايا والذي يفيد أن " هذا القصر يخص نبوخذ نصر ملك بابل" .

ولقد استمتعت فيلكا بفترة ازدهار أخرى في أعقاب وفاة الإسكندر الأكبر حين استقر السلوقيون الذين خلفوا الإسكندر على الأجزاء الشرقية من إمبراطوريته في الخليج. ومثلها مثل البحرين، كان لدى فيلكا ذخيرة من نقود انتيوخس وجد أحدها عام ١٩٦٠م ،والثاني في السنة التالية ، والملك أنطيوخوس الثالث مخلد على واحدة من قطع النقد. وقد حكم منذ عام ٢٢٣ إلى ١٨٧ ق. م، وكان أحد أسلافه سلوخس الثاني كالينيكوس المشار إليه في النقش الذي أمر بوضعه على فيلكا تدوينا لمحبة الإسكندر الخاصة للجزيرة.

توجد ترجمة حديثة لنص النقش المقطوع بأحرف يونانية ، وإن كان قد اعتراها كثير من التلف الآن. وكان القصد منه أن يوضع في محيط مقدس مقام على فيلكا في أعقاب انسحاب الإسكندر من الشرق قبل وفاته المبكرة في بابل عام ٣٢٣ ق. م. ويعود تاريخ النقش ذاته إلى قرابة قرن بعد موت الإسكندر، ويشير إلى " نقل حرم سوتيرا" الذي كان واحداً من الألقاب الملحقة بأرتميدس. ويشير إلى تنظيم مباراة جمباز تكريما للآلهة .وتم الكشف عن بقايا ما يعتقد أنه كان ميداناً للألعاب الرياضية في فيلكا ، مما يوحي بأنه كانت هناك جالية إغريقية ذات حجم معتبر وفرت العدد الكافي من الغلمان والشباب لمثل هذه المؤسسة المألوفة في المدن الإغريقية جميعها. وتشير أوامر الملك إلى حماية حقوق السكان :« على كل شخص أن يحترم مصالح الجماعة » ، « السلامة الشخصية والإعفاء من الضرائب سوف تكون مضمونة » .والأكثر استرعاء للاهتمام ،ذلك الإعفاء من الضرائب المقدم إلى « أولئك الذين يتاجرون مع الجزيرة وأماكن أبعد منها ». وتشير بقايا المعبد الهيلينستي النموذجي الذي كشف عنه في جزيرة فيلكا ،والنقوش والأدلة الأخرى من ذلك العهد، إلى القدرة غير العادية لليونان على النجاح حتى في أبعد وأكثر الظروف صعوبة وقسوة.

شرقي المملكة العربية السعودية

بعيداً إلى أسفل الساحل، فيما يعرف الآن بالمملكة العربية السعودية، يختلف الوضع بشكل واضح عن الجدب الأثري الجلي في منطقة ساحل الكويت . فلقد كشفت عمليات المسح الموسعة للمواقع السطحية في المنطقة الشرقية ،وفي أجزاء أخرى من المملكة في السنوات الأخيرة عن الكثير حتى الآن ، وتبشر بالمزيد في السنوات القادمة.

وعلى عكس الأجزاء الأخرى في الجزيرة العربية لا يوجد دليل على الاستيطان البشري في الربع الشرقي حتى أزمنة العصر الحجري الحديث . وما اعتقدنا أنه من العصر الحجري القديم (أوحتى النياندرتالي) تبين أنه من أزمنة العصر الحجري الحديث. وبصفة عامة فإن العصر الحجري القديم ممثل تمثيلا جيداً في الجزيرة العربية باستثناء المنطقة الشرقية كلها. وفي منطقة نجد، وهي المنطقة الوسطى التي تقع فيها مدينة الرياض عاصمة المملكة، تم اكتشاف دليل هائل على العصر الحجري القديم . ومع ذلك لم يرد شيء من الشرق حتى الآن. وبالفعل ، يمكن رسم خط أسفل واجهة شبه الجزيرة إلى حد ما بالقرب من مدينة الرياض، من الشمال إلى الجنوب يوضح حدود العصر الحجري العربي القديم. ويمكن أن يكون تفسير ذلك بأن مستوى الخليج في العصور الحجرية القديمة كان أعلى بدرجة كبيرة، وأن الشرق كان تحت الماء (انظر الفصل الثاني). وحين انحسر الماء في الفترة الواقعة ما بين ١٧٠٠٠ و٩٠٠٠ ق.م. تاركا الخليج ذاته مكشوفا إلى حد كبير، فالأرجح أن أياً من البشر الذين سكنوا المنطقة أقاموا بالقرب من المجرى القديم لنهري دجلة والفرات والذي صب حينئذ في الخليج، وشق طريقه في الرمال إلى مضيق هرمز. ومثل هذا الدليل المادي الذي خلفوه يقبع الآن في أعماق الخليج.

توحي أدوات العصر الحجري الحديث ،كالشفرات على سبيل المثال، والأدوات الزهرية من خور قطر والعديد من رؤوس السهام المقطوعة بشكل ممتاز، والمشغولات التي على شكل الأوراق، بأن صناع العصر الحجري قد امتلكوا فناً صناعياً راقياً لكن مع الظهور الأول للفخار

في المنطقة يمكن القول إن التعامل بصورة لائقة بين البرية الرئيسة والجزر قد بدأ . ويعتمد كثير من رخاء المنطقة الشرقية في العهود القديمة ،كما هو الحال الآن ،على واحة الأحساء العظيمة، وجاء من المنطقة المحيطة بالواحة أقدم دليل على الاستيطان.

وكانت منطقة الأحساء قبل التطور الحديث تغطي ٨,٠٠٠ هكتار، إلا أن الأرض المتاحة للزراعة الآن قد ازدادت إلى نحو ٢٠,٠٠٠هكتار. هذا إلى جانب مدنها الواسعة ، وما يربو على خمسين مستوطنة أخرى مما جعل من الأحساء أكبر واحة في الجزيرة العربية ، وبالفعل هي أكبر الواحات في العالم.

ولقد توفر هذا الحجم الهائل من الأراضي الزراعية من خلال الكم الهائل للماء الصادر عن طبقة صخور جوفية على شكل جداول. ولكل من الجداول الأربعة الرئيسة في الواحة معدل تدفق يربوعلى ١٠٠,٠٠٠ لتر في الدقيقة . وبسبب توفر هذا الماء فإن لواحة الأحساء تاريخ من الاستيطان البشري يعود إلى الأزمنة الحجرية الحديثة . وليس معروفا متى ظهر نظام الري المنظم لأول مرة ، لكن يبدو أن واحداً من الأنظمة كان يعمل على الأقل في الأزمنة الإسلامية الأولى.

ويأتي الماء في شرق الجزيرة العربية اليوم بصورة رئيسة من جداول من واحة الأحساء ، والقطيف، والبحرين. وهذا الماء محجوز تحت ضغط في طبقة صخرية في العلاة والخبر ،وأم الرضومة التي تأتي مياهها إلى السطح من واحات شرقي الجزيرة العربية من خلال شقوق وصدوع في الصخور. وتصل حرارة الماء في جداول الأحساء من ٢٩-٣٩ درجة مئوية ، ويبين التحليل بالكربون ١٤ أنه مرنحو ٢٤٠٠٠-٣٠٠٠٠ عام منذ سقوطه كأمطار. وأنه ينتمي إلى عهد رطب قديم.

إبان حقبة العصر الحجري الحديث ، نحو ٧٠٠٠ سنة قبل يومنا هذا دخل عامل جديد تماماً تاريخ الخليج ، وهو عامل ذو أهمية حاسمة ، وكان قد تسبب في عودة الجدلية القديمة حول أصول السومريين. وكان الدليل مدار البحث تعرّف كسرات فخار ، (في الأصل على أيدي اثنين من المتحمسين لعلم الآثار من أرامكو، شركة البترول التي تتخذ من

المنطقة الشرقية مقرا لها) يمكن تصنيفها على أنها تنتمي إلى الثقافة العبيدية في جنوب العراق ، وهي أول ثقافة من هذا النوع تقوم في الأرض التي كانت ستصبح سومر بعد عدة مئات من السنين.

وللفخار العبيدي المتميز تميزا عاليا، والذي ما إن يشاهد فمن الصعب الخلط بينه وبين أي فخار آخر ، مخزون هائل من الأنساق السندسية الأنيقة بصورة طاغية . ولقد تم تعرفه الآن في عدد من المواقع في التخوم الشمالية لساحل الجزيرة العربية الشرقي، وقطر، والبحرين،والإمارات العربية المتحدة. ولعل كثيراً من المواقع قد ضاعت الآن وغرقت نتيجة التغيرات التي حدثت في مستوى البحر في الخليج منذ أيام العبيد. ولقد تم تعرف نحو أربعين موقعا عبيديا منتشرة حول عين قناص وأبوخميس في شرق الجزيرة العربية.

منذ عهود العصر الحجري الحديث فصاعدا يكشف الوضع في شرق الجزيرة العربية عن أدلة على جماعات، واتصال بعيد المسافة، وازدهار متنام. وكان لدى العديد من المستوطنات حيوانات مستأنسة لكنها بكل وضوح مستوطنات تعود إلى العصر الحجري الحديث، وتتألف من صناع أدوات حجرية وصيادين -جامعين. والناس الذين شكلوا هذه الجماعات هم أول مستخدمي الفخار المدفون في الجزيرة العربية، وهم معاصرون للحقبة العبيدية في العراق. وتم تعرف ثلاثين موقعا على الأقل أفرزت أدلة على الفخار العبيدي. وهؤلاء الناس قد أقاموا الاتصال منذ البداية مع المناطق البعيدة جداً التي استوردوا منها - من خلال اهتمام المنطقة الأول بالتجارة- منتجات طبيعية مثل الديورايت*، وكبريت الرصاص، وحجر الدم**، والمغرة الحمراء*** والسبح****، والقار.

---

* صخر بركاني (صالح) .

** أكسيد الحديد ،أحد أصناف خام الحديد (صالح) .

*** من خامات الحديد (صالح) .

****رخام بركاني (صالح) .

ولقد حفرت دائرة الآثار السعودية في ثلاثة مواقع هامة في شرق المملكة العربية السعودية من هذا العصر. وهذه المواقع هي : عين قناص والدوسرية وأبوخميس. وقد استعيد من بقايا محفوظة في عين قناص دليل على تدجين الماشية. وكشف الموقع عن استمرار تقلبات طفيفة في المناخ حددت تدفق جدول بائد وجد في قاع الحفر، والذي كان بلا شك السبب في اختيار الموقع للمستوطنة في المقام الأول.

يقع فخار العبيد في بلاد ما بين النهرين في أربعة أصناف. الاثنان الأول والثاني مسميان على اسم مواقع عراقية جنوبية تم فيهما تعرّفها لأول مرة :

عبيد ١	إريدو	حوالي ٥٣٠٠–٥١٠٠ ق.م
عبيد ٢	حاج محمد	حوالي ٥١٠٠ –٤٣٠٠ ق.م
عبيد ٣	عادي(فخار)	حوالي ٤٣٠٠–٣٩٠٠ ق.م
عبيد ٤	متأخر(فخار)	حوالي ٣٩٠٠–٣٥٠٠ ق.م

وينتمي الفخار العبيدي في المواقع العربية لأنواع الفخار العبيدي ٣ و ٤ عدا ذاك الذي في موقع عين قناص، حيث يبدو أنه من فخار الحاج محمد (عبيد ٢). ولقد أظهر التحليل أن فخار العبيد من أصل ما بين النهرين الجنوبي، وعليه فقد وصل إلى شرق الجزيرة العربية بالتبادل أو التجارة.

وتوجد فخاريات أخرى في مواقع تم استيطانها في الجزيرة العربية في العصر الحجري الحديث وهي معالجة بالنقش، ومصنوعة يدويا ،وحمراء اللون من الخارج، ولعلها كانت مصنوعات محلية مقلدة. وكانت هناك سلسلة العدة الصوانية الشبيهة بتلك الثقافات العربية لصناعة الشفرات القديمة.

والفخار من المواقع الأخرى (كما في البحرين،وقطر ،والمناطق إلى الجنوب) من عبيد ٣

٤ . وكان الفخار في الأصل يحمل إلى الجزيرة العربية من جنوب العراق،و خصوصا من مدينة أور، حيث كان يصنع الكثير منه .ومن بين الأدوات الحجرية رؤوس السهام الدقيقة الشوكية والمسيلة ومكاشط صوانية مبسطة وأنبوبية.

كما عثر في موقع الدوسرية على فخار عبيدي كان من أَشْهَرِه ما شكل دليلاً على مساكن البوص أوالجدران المصنعة من من عدة قطع من الملاط الجيري المضغوط بالبوص. كما عثر أيضاً على آثار طلاء أحمر يوحي بأن الجوانب الداخلية من الأبنية تميزت بشكل ما من أشكال الزينة. ويوحي وجود القطع الركنية بأن " البيوت " كانت مضلعة. ولقد أقامت الدوسرية اتصالات بعيدة المدى ويستدل على ذلك من الشفرات المصنعة من خام الحديد أناضولي المنشأ ،والخرز الجيري، وفؤوس الحجر الأخضر والأغراض التزيينية الأخرى ، والتي تشهد على تطور التجارة وظهور حسٍ جمالي بين السكان فاق التوقعات. وجاء من هذا الموقع أيضاً مقادح حجرية صغيرة يمكن أن تكون قد استخدمت لثقب الصدف أو ربما اللؤلؤ. وعموماً ثمة سبعة مستويات استيطان واضحة بجلاء في الدوسرية.

كثير من المواقع العبيدية في شرق الجزيرة العربية مستوطنات ساحلية صغيرة ، ربما تتعلق بصيد السمك ، ويبدو أن بعضها قد استخدم لفترات طويلة. والفخار الذي اكتشف بالمصادفة للأدوات الحجرية العائدة إلى أواخر العصر الحجري الحديث معظمه من الفخار العبيدي المتأخر نسبيا . ويبين وعاء كامل تقريبا من خراسانية أنه قد صنع على عجلة بطيئة. ولقد دل التحليل الطيفي على أن معظمه صنع بالقرب من أور.

وعلى الأرجح فإن وجود الفخار العبيدي في مواقع في شرق الجزيرة العربية دليل على الاتصال، وإن بطريق غير مباشر، بين صانعي الفخار في أور والمضارب قليلة الكثافة من الناس شبه الرحل الذين أقاموا في الخيام موسمياً لصيد السمك. و في ذلك أيضاً دلائل على المسافات التي يمكن أن يكون قد توجر فيها بالفخار حتى في ذلك العهد البعيد جداً. وربما جاء صيادو سمك من المدن السومرية إلى الخليج بحثاً عن صيد من مياه البحر. ولقد استغلت

مياه الخليج لمدة طويلة من الزمن ، وأفرزت المواقع الساحلية من تاريخ متأخر نوعاً ما أدلة على ما يحتمل أنه كان من حصاد مصايد اللؤلؤ . وكان الأكثر ارتباطاً هنا اكتشاف مقادح صغيرة، ومخارز مرتبطة بشظايا أصداف توحي بأنه ، حتى قبل خمسة آلاف سنة أويزيد ، كان اللؤلؤ يهيأ لصناعة الحلي . وتدل فلكات المغازل من المستويات ذاتها على أنه كانت تمارس هناك صناعة نسيج من نوع ما .

ولقد نتج عن حفر مستوطنة عين قناص عبيدية الحقبة تحليل ترسبات جدول أظهرت أنه إبان الحقبة الواقعة ما بين ٥٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م كان مناخ شرق الجزيرة العربية أكثر رطوبة من حين لآخر مما هوعليه الآن .

ويوجد موقع الدوسرية الواسع على بعد ١,٥ كم من خط الساحل الحالي . وكانت اللقى التي عثر عليها على السطح وفيرة ويعود تاريخها إلى نحو ٤٢٠٠ ق . م وإلى فترة أوروك بعد ٣٥٠٠ق .م . وقدمت أدنى طبقة تاريخاً [بكربون ١٤] يعود إلى عام ٤٩٠٠ ق .م . وهذا الموقع لاحق على عين قناص حيث تترادف المستويات القديمة . وقدم سطح الموقع الثانوي الهام في الخرسانية تاريخا بلغ ٤٢٠٠ ق م .

ولقد أفرزت الدوسرية كميات كبيرة من الفخار العبيدي الممزوج بأنقاض، الصوان، وهذه تعود إلى العصر الحجري الحديث ، وكانت أوسع مما يمكن توقعه من موقع غير مأهول بصفة منتظمة، وكان هنالك إشارات على مدى أكثر تعقيدا من الاتصالات والتبادلات التجارية، ليست كلها مما هو معتاد بالنسبة لجماعات صيد سمك عابرة . وكان هناك شفرات من خام الحديد، على الأرجح من الأناضول، وخرز حجري من الحجارة شبه الكريمة، وفؤوس من الحجر الأخضر، وحلي أخرى توحي بموجودات أكثر ثراء مما كان معقولا توقعه .

وتوحي الأدلة المستنبطة من الدوسرية – إلى جانب تلك المستخرجة من مواقع أخرى

بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية – بصلات بعيدة المدى بحرا حول شبه الجزيرة في الحقبة العائدة إلى العصر الحجري الحديث والتي تمت باستخدام قوارب صغيرة مع القيام بقفزات قصيرة بين المستوطنات الساحلية. ولا بد أن قوارب صيد السمك الصغيرة كانت ضمن حدود القدرات التقنية تماماً لشعوب العصر الحجري الحديث هؤلاء.

وكان هناك سبع طبقات للسكنى واضحة، تتخللها طبقتان هجر خلالهما الموقع (شكل٨–٣). وكان السطح بكامله مغطى بالأصداف، ويفصل بين كل مستوى وآخر طبقة رخوة من الصدف.

يحتمل أن الماء كان متوفرا في القديم في شرق الجزيرة العربية، بأكثر مما هو الحال اليوم. وكانت هذه حقيقة مؤكدة في الألف الثالث ق .م، الوقت الذي بدأت فيه المنطقة لأول مرة بالتطور جوهريا. ويوجد دليل في تل الرماد على مستوطنة كبيرة واقعة على بحيرة قديمة ،



٨–٣ إعادة بناء مستوطنة من عصر « العبيد » على الساحل الشرقي للجزيرة العربية ، ٣٨٠٠ قبل الميلاد، (متحف الهفوف)

وبها شفرات غمست في القار ومغلفة بلمعان السيلكا الناجم عن حصاد الحبوب ، دليلاً على الزراعة. ولقد جمعت أدلة مشابهة من واحة يبرين في الفترة المعاصرة لتل الرماد وأبقيق، و في هذه المنطقة آلاف من روابي القبور على نمط تلك التي في البحرين، والتي توحي بوجود تقليد ثقافي موجه إلى البحر، بينما المستوطنات التي أقيمت على البرية الرئيسة كانت مختلفة. وفي عمان كانت الثقافة مبنية على الزراعة ،لكنها كانت ستصبح أكثر اعتماداً على المناجم وتوريد النحاس إلى مدن بلاد ما بين النهرين. و يمكن تعرّف بدايات زراعة الواحة في الأحساء، وأبقيق، ويبرين.

في أوج ازدهار الخليج القديم، حيث انتعشت دلمون وكانت تجارتها تبعا لذلك عالمية حيث إنها بلغت معظم العالم المعروف آنذاك، أقيمت مستوطنات واسعة وثرية في البرية العربية الرئيسة. وأهم ما عثر عليه حتى الآن تلك الموجودة في جزيرة تاروت الصغيرة قريبا من البرية الرئيسة المرتبطة بها اليوم بجسر على مقربة من جزيرة البحرين. وجاء من الرفيعة أو تاروت أهم ستياتيت وفخار يستخرج من المنطقة. وعملت تاروت بلا شك كنقطة وصول إلى مناطق البرية الرئيسة حيث الشعوب التي سعى التجار الدلمونيون إلى المتاجرة معها ومقايضة بضاعتهم بمنتجات المنطقة وبخاصة التمر. ولم تكن تاروت المستوطنة العربية الشرقية الكبرى الوحيدة على أية حال. فقد تم تعرّف موقع جوهري بالقرب من أبقيق قريبا من الظهران حيث توجد أيضاً حقول روابي مقابر. وفي ذات يوم كانت مجمعات روابي المقابر على أطراف الصحراء تطل على بحيرة كبيرة من العصر الحجري الحديث ونهر بائد تدفق على ما يبدوواضحا من واحة الأحساء إلى الخليج في ذلك الوقت. وعثر أيضاً على حقول مقابر بالقرب من واحة يبرين العظيمة في القسم الجنوبي من المقاطعة. كما لوحظ أيضاً فخار يعود إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد اعتبره بعض المراقبين سلفا لفخار باربار البحريني، وهومعاصر لفخار أروك في جنوب بلاد ما بين النهرين ويعتقد أن إناء من تصميم أم النار قد جاء من أبقيق.

ومن السهل تعرّف بنيتين اجتماعيتين صامدتين أخريين في شرق الجزيرة العربية في ذلك الوقت طبعتا المنطقة بطابعهما منذ ذلك الحين، وهما جماعة استوطنت في الواحات الغنية

في المنطقة الخلفية وعلى الساحل، بحيث تم تكوين مستوطنات ساحلية. ونمت هذه في نهاية المطاف من قرى صيد أسماك صغيرة إلى مدن ، وشكلت الأساس للمواقع التجارية في أواخر الألف الثالث وأوائل الألف الثاني ق .م.

ولم يكن بالإمكان حفر التل حفراً كاملاً في تاروت. وحقيقة كونها من قدم استثنائي واضحة بجلاء من خلال الفخار العبيدي الذي لوحظ على السطح .وفي النهاية، لا شك أن الحفر سوف يبدأ في موقع يمكن أن يثبت أنه أحد أهم مواقع شرق الجزيرة العربية ، لأن من المرجح أن مركز دلمون قبل انتقاله إلى جزيرة البحرين كان في ذلك الموقع.

ولقد جاء من محيط تاروت إحدى أهم المواد القديمة في شرق الجزيرة العربية، والتي توحي بأهمية الأزمنة الدلمونية وازدهارها، وهذه كانت تمثالاً دقيقاً جداً من الحجر الجيري بطول متر تقريبا لرجل في وضعية العبادة، وله وجه عريض بل بدين نوعاً ما ، وعينان واسعتان عابدتان اعتاد السومريون رسمهما عند انهماكهم في الصلاة، وهوعارٍ مما يحي بأنه ربما كان كاهنا أوشخصية رسمية،إذ إنه ثمة دليل في الأزمنة السومرية على أن الكاهن كان يؤدي طقوسه وهو في حالة من العري الشعائري. (شكل ٨–٤)

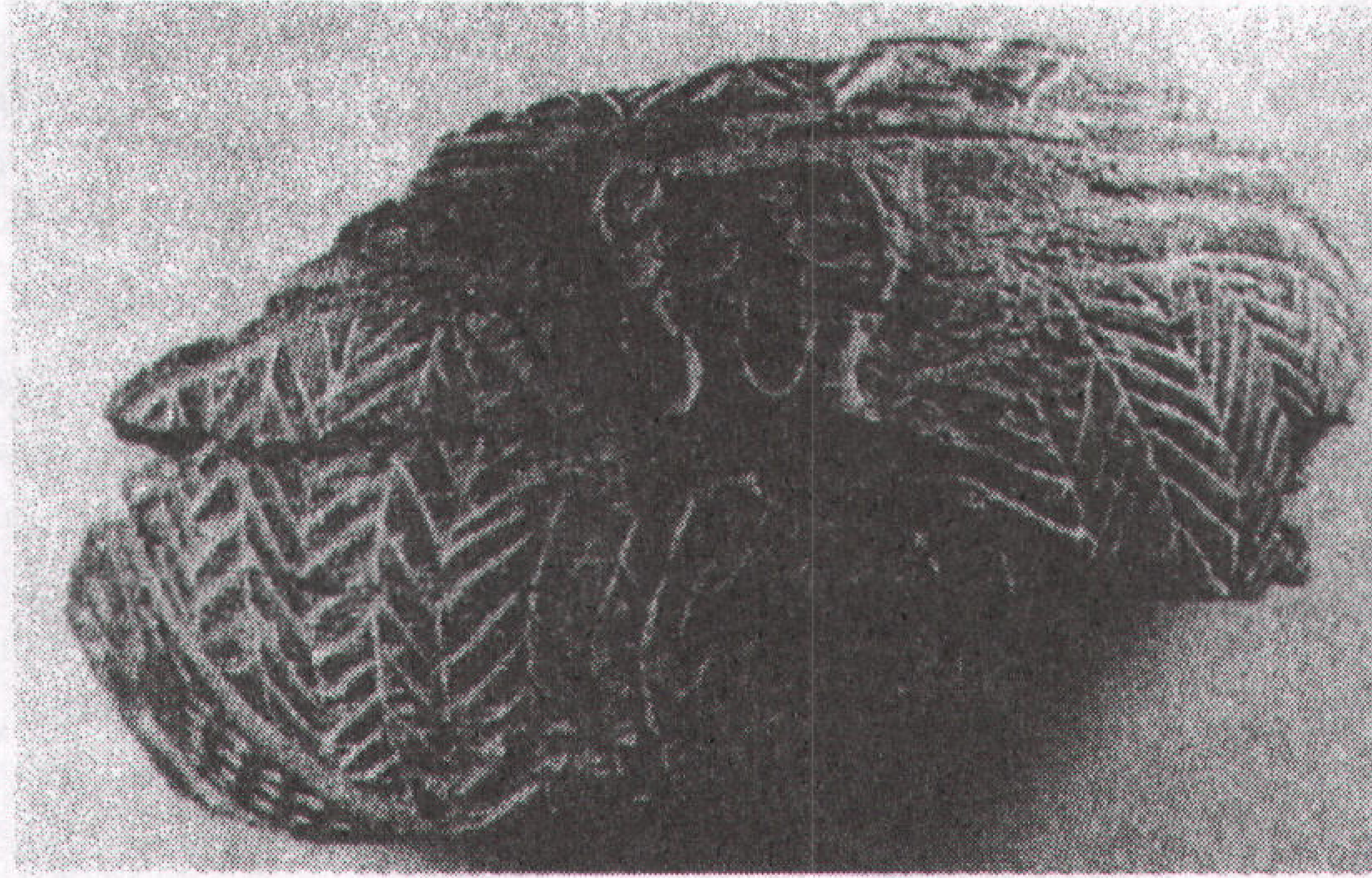
والتمثال جيد الصنع بصورة فريدة. ولوأنه وجد في مدينة سومرية لكان جديرا بالملاحظة بالقدر الكافي،ولاعتبر قطعة دقيقة من نوعية جيدة بصفة خاصة، ولكن العثور عليه على مسافة ١٠٠٠ كم (٦٠٠ ميل) من أقرب مدينة سومرية قد جعل منه أكثر جدارة بالملاحظة. وهذا دليل هائل على الرخاء والأهمية التي تمتع بها الخليج في بداية الألف الثالث ق .م والتي يعود لها تاريخ تمثال تاروت. ولقد عثر عليه مزارع مدفونا في حقل بينما كان يحرث أرضه. وطبيعي بما فيه الكفاية،أن يقرر القرويون (حيث كان ذلك في الخمسينيات قبل وصول الأفكار المتطورة إلى المنطقة) أن هذا الشيء القليل الحياء كان جنيا متحجرا أوروحا شريرة، لذا أطيح برأس التمثال وقص جسده إلى قسمين . ولقد أعيد الآن تجميعه على الأغلب محتفظا بنقائه الأصلي عدا بعض التلف الذي لحق بالوجه.

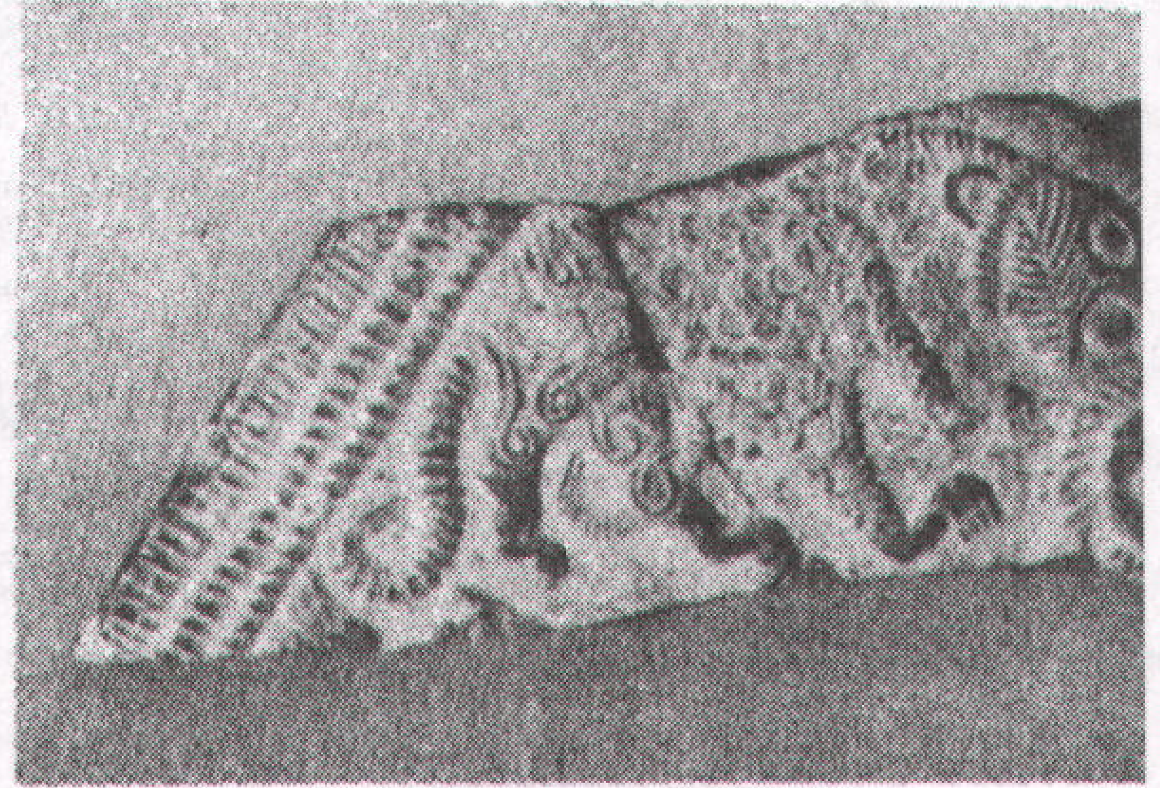


٨–٤ تمثال من الحجر الجيري به شبه من عصر الأسر المبكر الثاني في سومر ، ٢٧٠٠ قبل الميلاد
(متحف الآثار والتراث بالرياض)

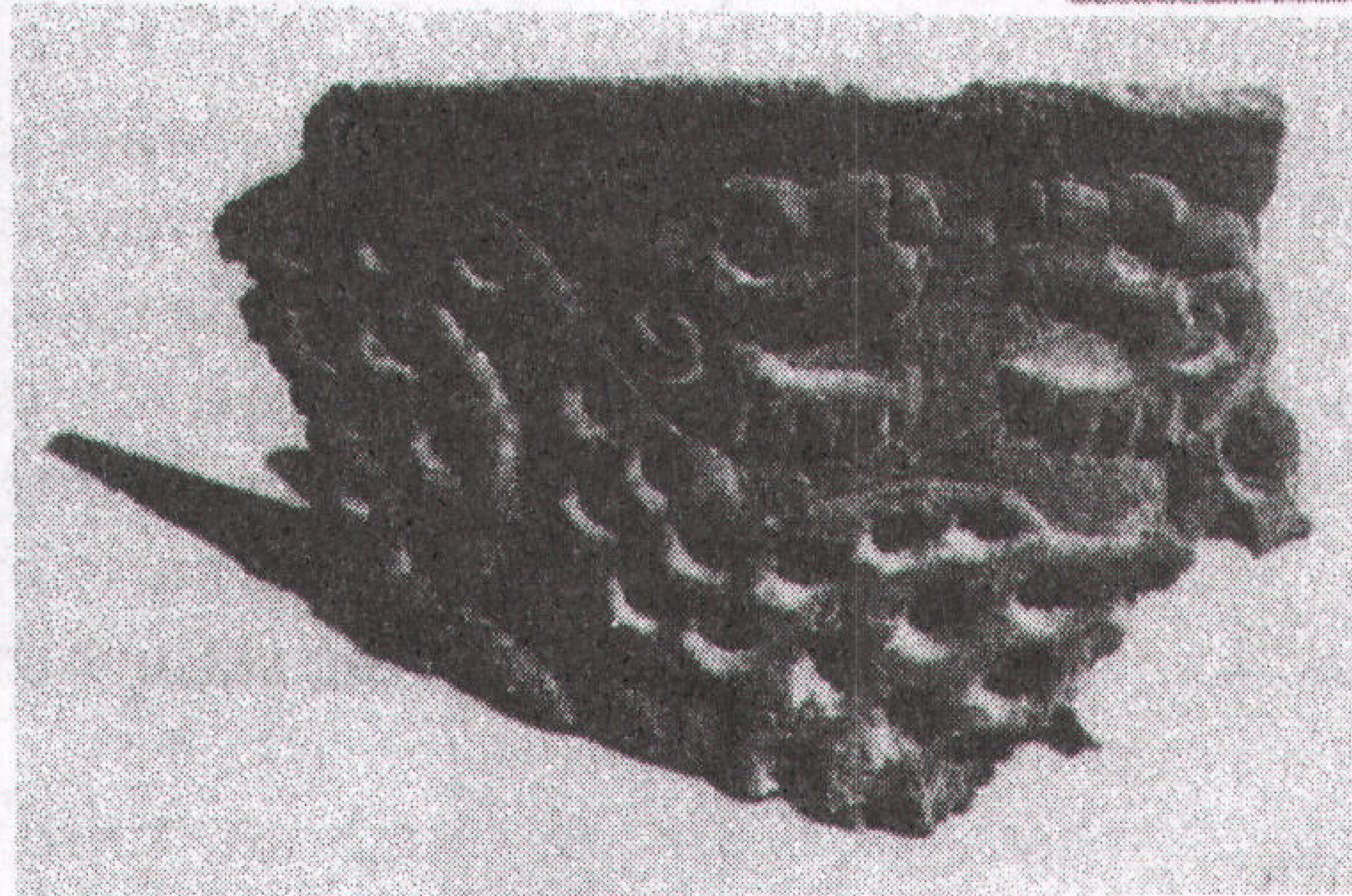
وهوعمل جدير بالملاحظة، ومن نوعية عالية الجودة وغير متوقعة.

ولقد تم العثور على كميات كبيرة من الأستينات المشغولة في مواقع في شرق الجزيرة العربية يعود تاريخها إلى الألف الثالث ق .م ، وبصورة ملحوظة في الرفيعة بالقرب من تاروت (شكل٨-٥) .ويبدو أنَّ جهداً كبيراً قد بذل في نحت المواد اللينة إلى طاسات ومزهريات و أنواع الأوعية جميعها. وأسلوب النحت مميز للغاية، وجريء ومؤكد وثابت بصورة غريبة ، وغالبا ساذج قليلا من حيث المفهوم ولكن ليس من حيث التنفيذ.





٨-٥ قطع من آنية مزخرفة من الكلورايت وأوعية من شرق الجزيرة العربية (متحف الآثار والأعراق بالرياض)



ومخزون التصاميم جدير بالملاحظة: حيوانات كبيرة من فصيلة النمور،و رجال ملتحون عراة وبطوليون ، ومشاهد ذات صلة بالإبحار والبحر وصيد السمك. ومن الباقيات مجموعة من تجعيدات شعر ذقن من الكلورايت، ربما تقليدا لذقون اللازورد التي زينت بها غالبا تماثيل الآلهة ورؤوس الثيران.

ويبدو أن مصدر الأستياتايت ذاته الموجود في أرجاء مستويات الألف الثالث ق. م جميعها في الخليج والأراضي المجاورة يكمن في جنوب غربي فارس ، حيث تم العثور على ما يدل على استخراج تنجيم عن الأستياتايت في شهر-إسوكته، ومعروف أيضاً مصدر بالقرب من جيرين ، وكانت التجارة التي اعتمدت على استخراج الحجارة واسعة الامتداد، وقد درست دراسة موسعة.

وعثر على بعض الأختام الدلمونية في شرق الجزيرة العربية التقط ثلاثة منها من السطح على مقربة من بعضها بعضاً، إلى الشمال من الهفوف. ويظهر مدى الصلات التجارية الخليجية ونوعية الصناعة الموظفة في تصنيع الحجر الذي صدر إليها من خلال كسرة لازورد



٨-٦ تمثال صغير من اللازورد لرجل هرم ملتف بعباءة (متحف الآثار والتراث بالرياض)

تصور رجلا متلفعا بردائه (شكل ٨-٦) . وهي قطعة صغيرة لكنها مفعمة بالحياة، ويبدو أن السومريين وجيرانهم قد أبدعوا أعمالهم ، وإن جاءت هذه في نطاق ضيق نسبياً .

وفي أرجاء المنطقة الشرقية جميعها حقول روابي قبور شاسعة من نفس نوع مدافن الروابي التي اشتهرت بها البحرين ، وتبدومنتشرة في الحقبة نفسها في النصف الثاني من الألف الثالث وحتى القرون القريبة من الألف الثاني ق م ، ومرة أخرى في الأزمنة الهيلينستية .

صناعة بناء روابي القبور التي استنفدت على ما يبدو الكثير من الأيدي العاملة المتوفرة في المجتمع ، والمصادر المتاحة ، خصوصا في أثناء أواخر العصر البرونزي ، حيث كانت في أوجها، مثال على المشروع الواسع النطاق الذي يتطلب الزج بالعديد من الجماعات العاملة في المجتمع للوصول به إلى حيز الوجود؛ فبناء الأهرامات هوالمثال الكلاسيكي على مثل هذه التعهدات الجماعية الموحدة. ولا تبدو أنها كانت مهمة بفعل حجمها والتأثير الذي كان لها حتما على الاقتصاديات التي نشأت فقط منها بل بسبب ما كان لها من تأثير نفسي كبير على أفراد المجتمع. إذ من خلال تنفيذ مثل هذه البرامج الضخمة التي تتطلب إشراك مستويات المجتمع كلها والامتداد إلى قرون، تولد لدى الشعب فهم الحاجة إلى التعاون وتبادل الخبرات والمصادر. كما أن مثل هذه المشاريع في الحقيقة شكل من أشكال الإدارة الاجتماعية في المجتمع الذي كانت جماهيره تتنامى إلى أبعد من أي مستوى سابق معروف. وهذا ما كانت عليه الحال في مصر ولا بد أنها كانت كذلك في البحرين.

تقع تجمعات روابي المدافن الرئيسة بالقرب من المطار في الظهران. وقد لاحظ "كورنوول" الروابي في هذه المنطقة في بادئ الأمر ، ولكنها لم تمسح حتى قام الدنمركيون بذلك في الستينيات ثم قامت حملة في الثمانينيات مع إمكانات وموارد أكبر من دائرة الآثار السعودية بالعمل فيها . و أمكن نتيجة لذلك ، ولأول مرة، تكوين فكرة ما عن مجتمع شرق الجزيرة العربية الذي كان على الأرجح سلفا لديلمون حين انتقلت إلى البحرين

عاصمة لها. ويشير الدليل الوثائقي على إتصال بالجماعات السومرية الأولى في أروك وكيش مع دلمون بلا شك إلى دلمون البرية الرئيسة هذه.

وروابي القبور، ومستوطنات مواقع مثل أبقيق هي بكل وضوح ،أقدم تاريخيا من الجماعات التي تظهر في البحرين. ويعود تاريخها إلى عام ٢٥٠٠ ق. م ، لذا فهي معاصرة تقريبا لأم النار في أبوظبي.

يمكن أن تكون تقديرات دائرة الآثار لحقل الظهران قد وصلت إلى نحو ٥٠,٠٠٠ رابية قبر. وعلى عكس معظم القبور البحرينية، اعتقد بأن الأمثلة لمنطقة الظهران كانت جماعية قد استخدمت لعدة أجيال.

ولقد تم العثور على تشكيلة عريضة من الفخار في قبور الظهران تشتمل على آنية أروك، وجمدت نصر ، وباربار ،الأمر الذي يوحي باكتساح زمني عريض وصلات قوية مع بلاد ما بين النهرين.

وبناء المقابر بسيط إلى حد ما وأقل تنوعا مما هو في البحرين. ولا توجد أية مقابر في شرق الجزيرة العربية يمكن مقارنتها بالمقابر الملكية الضخمة التي في عالي. وعموما، لقبور البحرين توجه إلى الشرق أي أن المتوفى يوضع ورأسه باتجاه الشرق.

واستخرجت من بين القبور التي عثر عليها في الظهران ثلاثة أختام محيرة تبين منها اتصالات واضحة مع مصر ، أو على الأقل بتأثيرات مصرية. وتأتي من المنطقة ب٢ في حفريات الظهران ، ويوصف أحدها بأنه منحوت بدقة من (الفريتة)* مع صورة أسد وعقربين مجنحين يرتديان تيجان مصر العليا والسفلى ، وجالسين على زهرة لوتس في لوحتين منفصلتين. الخاتمان الآخران أحدهما مضلع والثاني مصنوع من الفريتة الزرقاء الفاتحة ، ويظهر عليه حوروس في تنكره كنسر يقف على خرطوشة. ويتخذ هذا التصميم

---

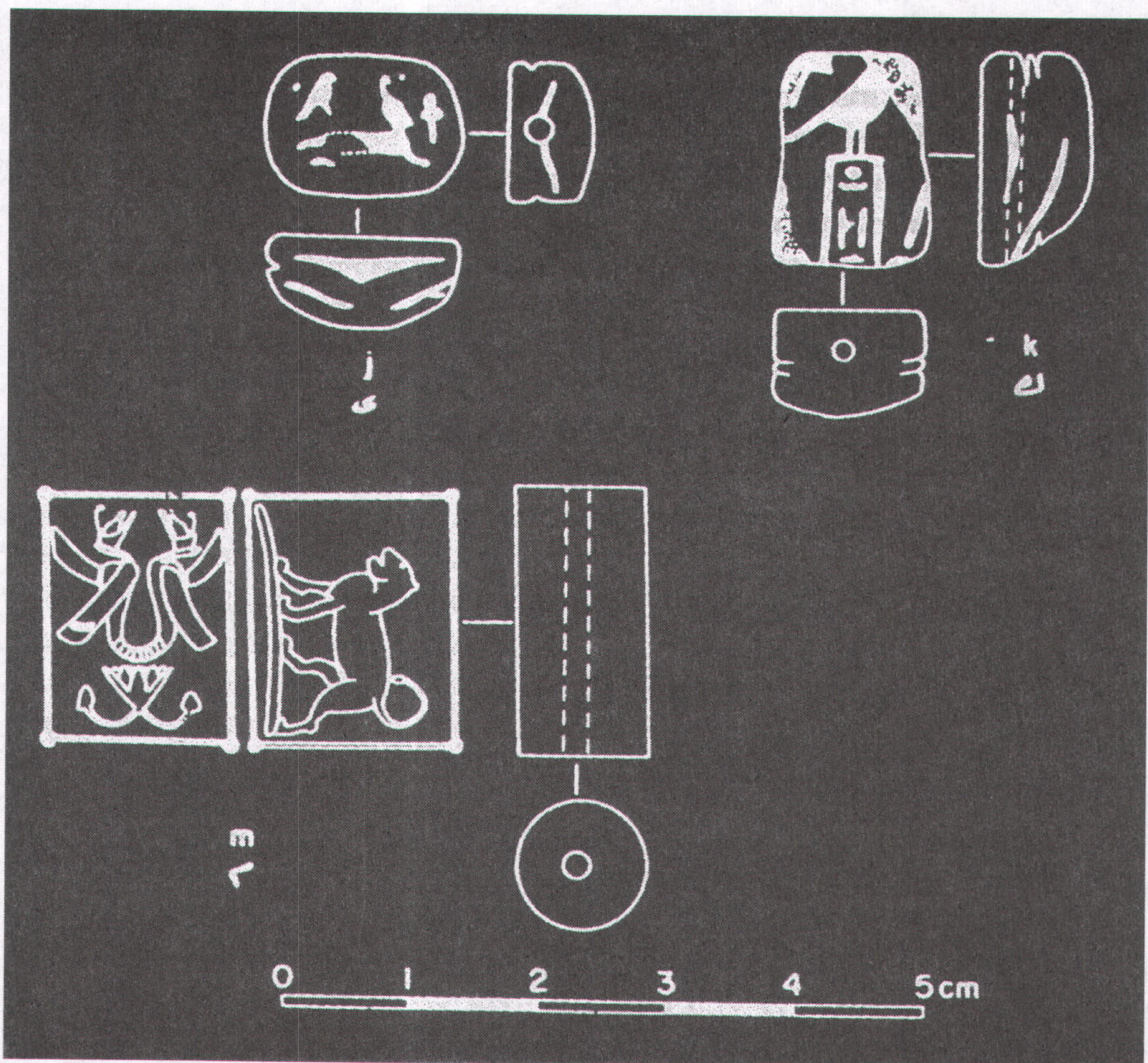
* Frit مواد متكلسة أو شبه منصهرة يصنع منها الزجاج (د. السقاف).

الضارب في القدم من مصر دائما اسم الملك، مثل حوروس المتجسد ثانية في الإله المتأصل الذي يمثل الملكية المصرية. والآخر الذي يبدو أنه أقل قدما يمثل أبوالهول المسترخي مرتديا تاج مصر العليا مع إشارات هيروغليفية أمامه وفوقه (شكل ٨-٧)، وهذه مع الأختام القطرية من جزيرة فيلكا يعود تاريخها إلى ٢٠٠٠ ق.م ، وتوحي بدرجة من الاتصال بين الخليج، وشرق الجزيرة العربية، ومصر ،أعظم وأقوى مما كان متوقعا.

كما عثر أيضاً في قبور الظهران على أقداح كتلك التي وجدت في عالي، وكانت قد طرحت على عجلة سريعة. وكانت المادة غير العادية لصناعة الأواني الموجودة في القبور التشيست المسكوبي، وهو الحجر النادر نسبيا، الذي لا بد أنه قد استورد من غرب الجزيرة العربية، مصدره الوحيد المعروف في جوار الخليج (شكل ٨-٨) .وعثر على الكلورايت بكميات معتبرة ، متوقع في ضوء المقادير الكبيرة السابقة التي عثر عليها في جزيرة تاروت. وتم تعرّف حقول مقابر في يبرين جنوب الظهران، وفي أبقيق .

وعثر أيضا في الظهران على سلال البوص المطلي بالقار. وهذه أيضاً عثر عليها في المواقع البحرينية (شكل٧-٢٥) ،وافترض المنقبون أن أقرب مصدر لتوريد القار كان هيت في العراق . ويرى كورنوول أنه كان يوجد في القديم مصدر للقار في البحرين، بيد أنه لا يقدم أي حجة موثوقة على مقولته.

ويبدوأن شرق الجزيرة العربية كالبحرين تمتع بنقطتين عاليتين من الرخاء والاستقرار: في الألف الثالث ق .م ، وفي أوائل الألف الثاني ق.م ، ومرة أخرى في أواخر الألف الأولى ق م. ولم يعثر حتى الآن على أي شيء من الموقع الذي تذمر منه ايلي – إباسرا لرؤسائه في بابل بشأن غزوات الأحلامو واستيلائهم على التمر الذي كان بانتظار شحنه إلى العاصمة (انظر الفصل السابع). ولكن في الأزمنة الهيلينستية اللاحقة نجد دليلاً معتبراً مشتملاً على بقايا مدينة كبيرة في ثاج.



٨–٧ أختام من قبور نقبت في الظهران (دائرة الآثار والمتاحف، بالرياض)



٨–٨ شست مسكوبي، ويعرف أيضاً بحجر الشمس (متحف الآثار والتراث بالرياض)

ولم يكتشف حتى الآن سوى مواقع قليلة في المنطقة الشرقية من الألف الثاني وأوائل الألف الأول ق م. ولعل ذلك بسبب صعوبة التعرف على المخلفات الأثرية المتناثرة والضئيلة وتحديد تاريخها. فبعض قبور الظهران بلا فخار، ولكن برؤوس سهام من النحاس والحديد والحلي الشخصية. ويمكن تحديد تاريخ بعض مواقع يبرين. وارجاعها إلى تلك الفترة* ،وجد في موقع جبل المخروق رأس سهم برونزي. وعموما، تتصف مواقع السكن ببقايا أبنية غير متطوّرة (على الأرجح مؤقتة) ، وأدوات حجرية غير دقيقة ، وفي بعض الأحيان فخار خام نسبيا مضغوط بالسلال.

بعد عام ١٧٠٠ ق .م شهدت الاضطرابات في العراق وإيران والشرق وانحطاط حضارة وادي النيل تدفقا في التجارة الدولية جعل الخليج العربي منطقة مزدهرة لعدة قرون. وحدثت في هذه الفترة في البرية الرئيسة تغيرات حاسمة أثرت في المواقع الساحلية في شرق الجزيرة العربية بلغت حتى حدود الخليج الجنوبية ، وذلك من خلال الاستخدام المتصاعد للجمل المدجن. ومع تزايد الجفاف بعد عام ٢٠٠٠ ق م انفصل شعب الجزيرة العربية إلى قبائل رحل من رعاة الجمال كثيري التجوال ، والمزارعين المستقرين والتجار في الواحات.

وتوحي الأدلة التي عثر عليها في دلمون بأن " المارتو" أوالعموريين، شعب الرعاة المعروفين لمدن ما بين النهرين والهلال الخصيب كانوا نشيطين في شرق الجزيرة العربية من عام ٢٠٠٠ ق .م، ولعل أسلافهم، هم الذين كانوا السبب في نقل دلمون من البرية الرئيسة إلى جزر البحرين. وكما سبق ورأينا، أرسل حاكم دلمون عام ١٣٧٠ ق .م تقريرا إلى سيده الكاشي بلاد ما بين النهرين شاكيا من الرحل الذين يطلق عليهم " الأحلامو" :من حولي الأحلامو والذين نهبوا التمر كله، وهكذا ليس بيدي حيلة ولكن لا ينبغي أن يسمح لمدينة منفردة أن تنهب"

---

* أي الألف الثاني وأوائل الألف الأول ق.م . (د. السقاف) .

وتبدأ السجلات الآشورية بالإشارة إلى دلمون في بداية الألف الأولى ق .م (والمستنسخة بالصيغة السامية " تلمون ") من عام ٧٥٠ إلى ٦٠٠ ق .م إبان حكم سرجون ، وسنحاريب، وآشوربانيبال ،والسجلات البابلية في أثناء حكم نابونيدوس الملك الذي نقل عاصمته من بابل إلى شمال الجزيرة العربية لمدة إحدى عشرة سنة تقريبا . ويبدو جلياً أنه قد جاءت فترة ازدهار واضحة في البرية الرئيسة في شرق الجزيرة العربية، ربما بفعل نمو التجارة البرية . ويقال إن الكلدانيين ، الذين طردوا من بابل قبل عام ٦٩٤ق .م على يدي سنحاريب بسبب قرصنتهم ، هم الذين أسسوا جرهاء .

وعثر في قبور الظهران من هذه الفترة ، ٨٠٠-٥٠٠ ق . م ، على أختام مسطحة وأخرى أسطوانية تبين الصلة مع الهلال الخصيب وجنوب غرب الجزيرة العربية، وفخاراً ومباخر ، إلى جانب مدافن "حوض الحمام" البابلية من النوع الذي عثر عليه من الفترة ذاتها في موقع المدينة الرابعة في قلعة البحرين.

ويظل الكثير غير المؤكد عن البنية الاجتماعية والسياسية في شرق الجزيرة العربية في ذلك الوقت، ويتعلق الغموض المستمر بمكان المدينة العظيمة " جرهاء" . وهذا غير معروف حتى الآن على الرغم من أن الباحثين والمفسرين من ديوراند فصاعدا قد أشاروا إلى عدة مواقع .

ويبقى قائما عدد من الإشارات إلى جرهاء وثرواتها الشهيرة في أعمال المؤرخين والجغرافيين الرومان الذين كتبوا عن الخليج العربي . ومن هذا المنطلق دون سترابو في كتابه "الجغرافيا" عام ٢٣ م : "بعد الإبحار بمحاذاة ساحل الجزيرة العربية لمسافة نحو ألفين وأربع مائة ستاديا* يصل المرء إلى جرهاء، وهي مدينة واقعة على خليج عميق يقطنها كلدانيون منفيون من بابل ، وتحتوي على الملح، ويعيش الناس في بيوت مصنوعة من الملح . وحيث إن قشورا من الملح تتقشر على الدوام بفعل الحرارة اللافحة من أشعة الشمس، وتتساقط بعيداً،

* وحدة طول عند الإغريق تساوي ما بين ٦٠٧ و ٧٣٨ قدماً انكليزياً أما عند الرومان فتساوي ٦٠٦,٩٥ قدماً انكليزياً على وجه التحديد (د.السقاف) .

يقوم الناس مرارا برش البيوت بالماء وبذلك يبقون على الجدران ثابتة . وتبعد المدينة مسافة مئتي ستاديا عن البحر ، ويتاجر الجرهاويون براً في القسم الأكبر ، في السلع العربية والعطور ."

ويكتب سترابو أيضاً عن الثروة الأسطورية للجرهاويين وبعض جيرانهم ومعاصريهم فيقول :

"من خلال اشتغالهم بالتجارة أصبح كل من السبئيين والجرهاويين الأغنى ، ولديهم عدة كبيرة من الذهب والأدوات الفضية مثل المقاعد والمناصب والطاسات، إلى جانب آنية الشراب والبيوت غالية الثمن جداً حيث إن الأبواب والجدران والسقوف متموجة بالعاج والذهب والفضة المرصعة بالحجارة الكريمة ."

أما المؤرخ بليني فيلاحظ أن : " طول خليج جرهاء والمدينة المسماة بهذا الاسم يبلغ خمسة أميال، و لديها أبراج من كتل الملح المربعة . وعلى بعد خمسين ميلا في الداخل تقع مقاطعة (Attene) (اتين) ويقابلها وعلى بعد خمسين ميلاً من الساحل تايروس (Tyros) المشهورة شهرة بالغة بلؤلؤها الوفير ."

وقد تعني الإشارة إلى الأبراج المصنوعة من كتل الملح المربعة كتلاً من الصلصال المغطى بالملح المأخوذة من السبخات المحلية التي كانت تحرق وتستخدم في البناء في الأزمنة الهيلينستية .

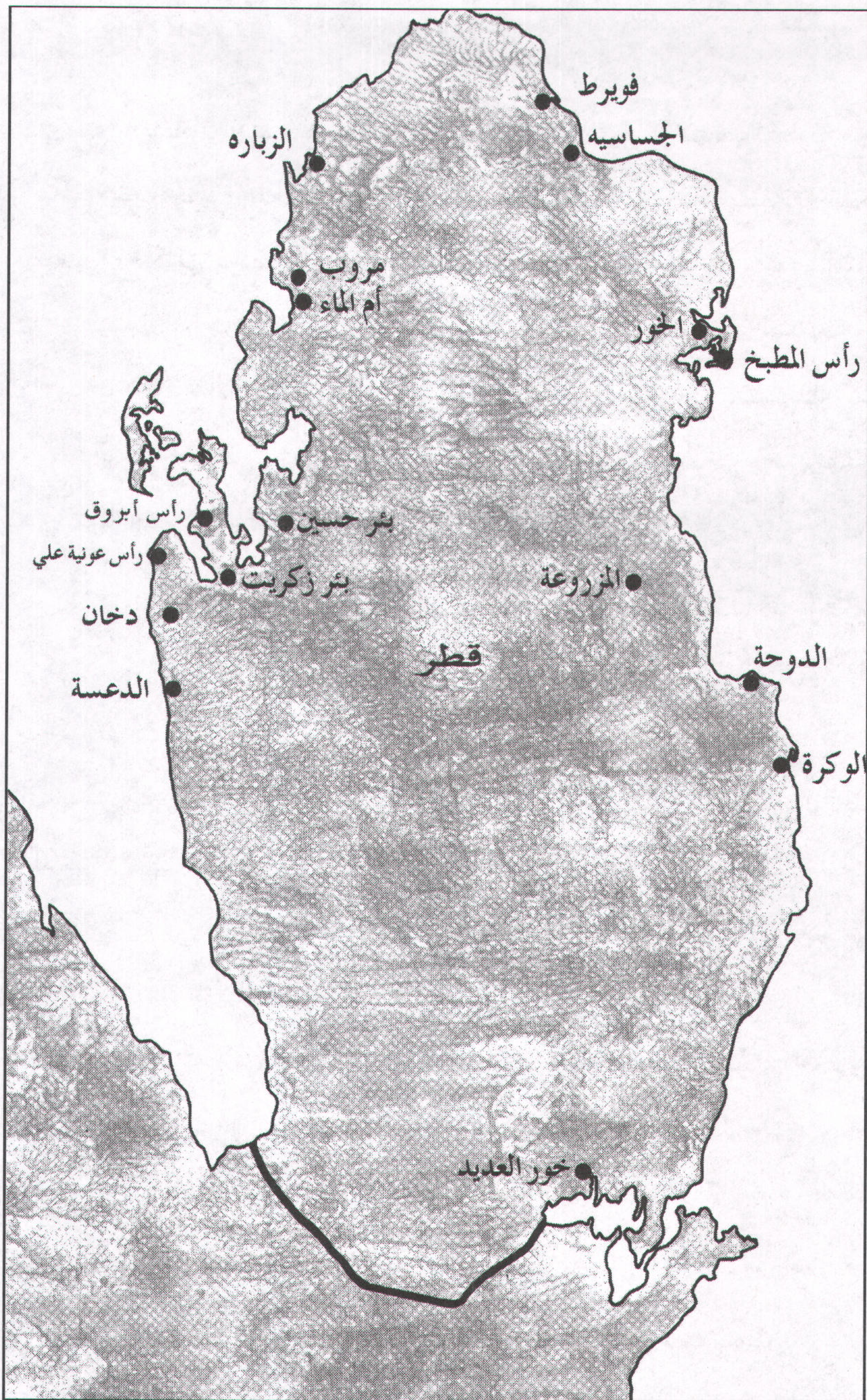
ولقد عثر على ثلاثة أختام دلمونية بالقرب من الحدود بين العربية السعودية وقطر ملقاة على السطح، وهي من بين الأختام القليلة التي اكتشفت في المملكة، ولعل ذلك بسبب انتقال المركز من البرية الرئيسة إلى الجزيرة .

قطر

من شأن قطر ذاتها أن تبدو لأول وهلة منطقة أثرية غير واعدة بالمقارنة مع العربية السعودية، فهي شبه جزيرة صغيرة مندفعة في الخليج،تذروها الرياح ويضربها البحر، قاحلة وغير معطاء. ومع ذلك فإنها تمتلك الكثير مما يجذب العين الأثرية، وكل ما بها متميز ومختلف عن البلدان الأخرى في المنطقة. وهي بالفعل واحدة من المزايا الشائعة وإن كانت غريبة، من مزايا الخليج الأثرية بحيث أن كل دولة صغيرة، مهما تشبهت سطحياً مع جارتها أو اشتركت معها في عنصر ما ، تحتفظ بفردية تميزها عن الأخريات بالقدر ذاته من الثبات الذي يميز الحدود الاعتباطية المفروضة التي تفصل اليوم الواحدة عن الأخرى.

إن التقسيمات الدقيقة والمعمولة بجهد وعناية فائقة والمقنعة في الكثير من الجوانب، التي قسم الدنمركيون بها العصور الحجرية القطرية في وقت مبكر من تنقيباتهم الأثرية في الخليج قد تمت مراجعتها على أيدي الباحثين الفرنسيين لاحقا، وكانت التقسيمات الأولى قد افترضت أن مستوطني العصر الحجري الأوائل قد وطدوا أنفسهم على أراضي الشاطئ القديمة في عمق الصحراء القطرية الحالية، وكانوا يتميزون بفؤوس يدوية ضخمة وحسنة المظهر.وأطلق على هؤلاء "المجموعة" وكانوا على صلة بصانعي الفؤوس في أواسط العصر الحجري القديم. واعتقد بأنهم كانوا متبوعين بثلاث صناعات رئيسة أخرى من العصر الحجري بلغت أوجها في المجموعة المسماة بالمجموعة (د) ، (صانعي الأدوات الدقيقةوالأنيقة من العصر الحجري الحديث). ويبدو الآن أن من المحتمل أن تكون الأدوات القطرية من أزمنة العصر الحجري الحديث ، وبصفة مشتركة مع أجزاء شرق الجزيرة العربية جميعها (وإن لم يكن باقي شبه الجزيرة كله) لا يوجد دليل على أي استيطان بشري قبل حقبة العصر الحجري الحديث.

وتظل الحقيقة أن الصحاري القطرية الصعبة الضنينة بالحياة كما بدت على الدوام ،قد أفرزت مخزونا من الأدوات الحجرية التي تظل بالفعل بلا منافس في شرق الجزيرة العربية . ولم يعثر على مواقع مساكن من الفترات السابقة من المساكن المؤقتة المحتوية على مواد



الخريطة الثالثة : مواقع أثرية في شبه جزيرة قطر

عبيدية. ويوجد عدة مواقع لورش حيث أبدع صناع العصر الحجري أدواتهم حتى أدقها بسرعة ودقة كما يبدو.

وحين ألقى الفرنسيون ظلال الشك على تاريخ موستيرنيا (أواسط العصر الحجري القديم) لبعض المشغولات القطرية فقد افترضوا أن البحر قد انحسر تاركا السبخة الموجودة خلفه قبل نحو ٦٠٠٠ عام من اليوم. ويعتقدون أنهم ميزوا فخار العبيد، المستخرج من أطراف مواقع يحتمل أنها كانت مصادر مياه عذبة دائمة . وتعرفوا موقع كمكان لتجفيف السمك، فبينما عثروا على بقايا أسماك عديدة ، فإنها لا تشتمل على الفقريات. ويوجد دليل على موقع حرق جثث ، ويبدو أنه معاصر للمواد العبيدية ذات الأهمية الكبرى.ولا يوجد دليل آخر في الخليج على أن القوم الذين استخدموا الفخار العبيدي كانوا يمارسون الإحراق. وبدلا من ذلك فإنهم مارسوا دفن موتاهم في وضع ممدد.

ولربما كان الرجم الصغير المجاور جزيرة قطرها ٣–٤ أمتار . ويعود تاريخ المواد العبيدية المستخرجة إلى فترة العبيد الثالثة. والأكثر تشويقا من ذلك إمكانية أن يكون الفرنسيون قد وجدوا بناءً باربارياً على جزيرة صغيرة في خليج الخور ، فقد استخرج من الموقع إناءان نموذجيان لفترة باربار .

ومنتجات السكان من العصر الحجري الحديث في قطر من أهم الأدوات الأنيقة التي أنتجها شعب العصر الحجري، فهي مصنوعة بدقة وجمال، وأفضلها مصنع بطريقة التقشير الضغطي. وهذه تنطوي على شطف قشور رقيقة من الطرف الحاد من الأداة في أثناء التصنيع مما ينتج حافة ثابتة ، وإن لزم، حافة مشرشرة. وتبلغ هذه التقنية أعلى ظهور لها في مصر العصر الحجري القديم حيث شكلت السكاكين بصفة خاصة لإنتاج أعمال فنية من نوعية السكاكين المراسمية المشهورة من جبل الآراك، وهي واحدة من الوثائق المصرية المثارة بأكبر قدر من التكرار لإظهار الصلة بين مصر وبلاد ما بين النهرين في القرون السابقة على توحيد مصر؛ تعرض سكين جبل الآراك مستودعا كاملاً من شعارات ما بين النهرين على

مقبضها العاجي المصنوع على قدر من الدقة التي صنع بها النصل ذاته. وبعد نحو ٢٠٠٠ عام تلت كان الصناع المصريون ينتجون أدوات قشور بالضغط بالقدر ذاته من النحافة.

ولا جدال في أن رؤوس السهام ،والمكاشط الدقيقة الشكل أشكال جمالية ، وبالطبع لا يقاوم التساؤل فيما إذا كان رأى فيها صناعها أنفسهم صفات جمالية أخاذة بقدر ما فيها من صفات المنفعة، ولعلهم على الأرجح لم يروا ذلك، على الرغم من أن بعضها قد شغلت بدرجة محسنة حتى إلى أبعد من حدود الاستفادة المجردة منها .

ومن بين المنتجات كثيرة التميز في العصر الحجري القطري الحديث ثقافة أنصال دقيقة يعود تاريخها إلى وقت مبكر من الألف السابع والسادس ق. م. ويحتمل أن تكون بعض المنتجات القطرية من العصر الحجري الحديث قد استخدمت كأدوات تشذيب مثل شفرات المنجل التي جعلت لها مقابض. ولا يوجد دليل على مرحلة زراعية مبكرة في قطر (على عكس جارتها البحرين) ،ولذا يحتمل أن تكون هذه الأدوات قد خدمت ببساطة في المساعدة على جمع الأعشاب البرية.

كان إنسان ما قبل التاريخ لا يتميز بدنيا وذهنيا عما نحن عليه، . وهويقترب منا كثيراً عندما تكون منتجات يديه على القدر ذاته من الدقة والإغراء كتلك الصادرة عن قطر. ونحن نعرف الآن من مراقبة مشذبي الصوان اليوم (أو القريب من اليوم الحاضر) الذين حافظوا على أقدم تقنيات الإنسان، مدى التقنية المدهشة لصناعة الأدوات الحجرية .وفي الحقيقة، ، إن تشذيب الصوان، مع أنه يتطلب الكثير من المهارة من أجل الإبداع فيه، ليس بالشاق ولا بالمستنفد للوقت بصفة خاصة . ويمكن صنع أدق نصل مقشر متموج في ساعات الصباح أو دون ذلك في نحو ٣٠ دقيقة أو ما يقرب من ذلك. ورأس السهم من النوع ذاته الذي وجد في قطر منتشرا انتشارا نسبيا، . لكن إحدى الصفات التي تميز صانع العصر الحجري الحديث عن أسلافه في عمل الصوان والحجارة الهشة الأخرى تكمن في كفاءته الصناعية ،وقدرته على انتقاء حجارة أكثر طواعية ، الأمر الذي يعني أنه كان قادرا

على إنتاج المزيد من الأدوات ذات الحد القاطع لكل كيلوغرام من الحجر عما كان ممكنا في الأزمنة السابقة. وعلى ما يبدو يوجد شيء ما قريب من عمليات الصناعة في المنطقة واستخدم في صناعة الأدوات الحجرية. وفي البداية كان التقطيع التقريبي للشظايا المنتجة من خامات مناسبة يتم في الموقع أو في الورشة، ثم تؤخذ الخامات بعد ذلك إلى صانع متفوق في موقع التشطيب. ولقد تم تعرّف العديد من مثل هذه (الورش) في قطر.

مواقع أناس العصر الحجري الحديث الذين كانوا بكل تأكيد مهاجرين أتوا من خارج قطر وشرق الجزيرة العربية، كانت مبعثرة بصورة متباعدة فوق شبه الجزيرة، وطبيعي أن مستوطناتهم كانت مع ذلك مستوطنات مركزة بصورة رئيسة حول خط الشاطئ، حيث إنهم كانوا ولابد صيادي أسماك إلى جانب كونهم صيادين-جماعين، وإن كان صيد السمك لديهم محصورا على الأرجح في نصب الشراك واستخدام الرماح.

ولا يزال حادث وقع مع صياد ذات يوم قبل نحو ٦٠٠٠ سنة خلت محفوظا بصورة درامية على أحد مشغولات العصر الحجري الحديث التي بقيت في قطر. ولأن الصياد كان ملحاً في مطاردة فريسته،فقد أطلق السهم ،ولابد من الافتراض أنه لم يصب هدفه، فطاش السهم ساقطا في غدير ضحل على أرض مستنقعات. وتشكلت على مر آلاف السنين رواسب كلسية حول رأس السهم المغروس الآن بثبات فيما يبدو حجراً. ومن خلال حدث بسيط تافه كهذا، ولا شك أنه كان مخيفا في حينه، تتواصل الأجيال مع بعضها بعضاً، وفي هذه الحالة على امتداد طويل إلى حد هائل،لم يكن الصياد القطري ليحلم في تلك الأيام البعيدة بأن رأس سهمه الضائع سيعمل ذات يوم كشاهد على الإنسانية التي تربط يومه ذاك بيومنا هذا.

من الممكن أن نستنتج المزيد عن نمط حياة سكان قطر في العصر الحجري الحديث، نمط الحياة الذي لا بد أنهم اشتركوا فيه مع معاصرين لهم في شرق الجزيرة العربية، والبحرين، وعمان حيث عثر أيضاً على مستوطنات من فترات مقابلة. ومن المعقول، أولا وقبل كل

شيء ، الافتراض بأن السكان كانوا على الأرجح أكثر تعدادا بصفة بارزة مما كانوا عليه في فترات أسبق، حيث إن تقنيات إنسان العصر الحجري الحديث في صناعة الأدوات أكثر مهارة ، وكانت تقنيات فن الصيد أكثر تقدما مع قدرته على التحرك في منطقة صيد واسعة والبقاء في ظروف كانت في الأزمنة السابقة لا تحتمل عبء إطعام أكبر عدد ممكن بانتظام بغذاء أكثر ثراء بالبروتين. ولقد عاش قطريو العصر الحجري الحديث على السمك والغزلان،أوكما ظهر ربما عن طريق الأنصال الصغيرة التي يمكن أنها كانت تستخدم كمناجل، حصدوا بها الحبوب البرية والأعشاب. و يؤكد هذا الاحتمال حقيقة تميز الجواريش المستخدمة في طحن الحبوب ، وإن كانت الزراعة المدبرة – على ما يبدو– خارج نطاق قدرتهم.

واشتمل الأفق الأوسع الذي حظي به إنسان العصر الحجري الحديث، نتيجة لزيادة مهارته في إدارة بيئته ومصادرها ،على العديد من التقنيات الجديدة التي حسنت حياته جوهريا. وعززت العصور الحجرية الحديثة القطرية بعض العناصر –على الأقل– في أسلوب الحياة الموسع هذا ، وتبين كوكبة مغزل –الأداة الأساسية في صنع النسيج – أن الشعب كان ينتج بعض أشكال الملابس. ورغبة الإنسان التي لا تشبع في تزيين نفسه في الحياة والممات بادية من خلال صدفة حلزون البحر التي ثقبت ربما كتميمة، أو كإضافة زينة لما يحتمل أن نطلق عليه ثياباً في أفضل الأحوال. وهذا بالفعل ما يمكن أن يقال عموما بالنسبة للسجل الأثري في قطر: ورغم التراث الغني في مشغولات العصر الحجري التي انحدرت من الأزمنة ذات البعد الأكبر في الخبرة الإنسانية ، وجزء من الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها ،أدلة أزمنة العصر الحجري الحديثة، وما يمكن أن يقال قليل بالتأكيد عن القوم الذين صنعوها واستخدموها، أو عن ارتباط ذلك بالخارج.

وتبع تعرّف الفخار العبيدي في مواقع شرق الجزيرة العربية اكتشاف مماثل عام ١٩٧٣ على يدي الفريق البريطاني الذي دعي للقيام بعملية مسح أثري لشبة الجزيرة القطرية

لصالح المتحف الوطني القطري المزمع إنشاؤه آنذاك. ولم يكن هناك أي سبب في ذلك الحين لتوقع العثور على أي آثار للعبيد في قطر. ومثل ذلك الدليل الذي استعيد من مواقع في الجزيرة العربية لم يشر إلى مثل ذلك المدى من التأثير العبيدي في مناطق الخليج الساحلية كما أصبح واضحا فيما بعد. ولم يكن وجود الفخار العبيدي في جزيرة البحرين، على سبيل المثال، قد ثبت في ذلك الوقت، ولوأنه ثبت لكان من المعقول توقع احتواء قطر أيضاً على دليل مماثل. وأيا كان الأمر، فقد وجدت [الآثار] هناك وفتح وجودها بعدا جديدا في دراسة الآثار بقطر وبذلك الجزء من الخليج. ويوجد الفخار عادة في محتوى أثري مع الأدوات الحجرية ووسائل الحقبة الحجرية الحديثة. وبالفعل كان ذلك هو الحال في قطر أيضاً.

وكان أهم موقع عبيدي يعثر عليه في قطر في الدعسة على الساحل الشمالي الشرقي، ويبدو أن الموقع كان معسكراً صغيراً وموسمياً، ولعله كان مستوطنة لمجموعة صيد–جمع–سمك كانت ترتاده من حين لآخر.

كان هناك بصفة غريبة لقى حادة في موقع الدعسة ،والتي مثلها مثل السهم المغروس، تبدو وكأنها تَصِل أكثر من خمسين قرنا تفصل بين زمان شعب الدعسة واليوم الحاضر. وعثر بالقرب من ثقوب الأعمدة على مجموعة من الأدوات المنزلية المصفوفة بانتظام: جاروشة، وطاحونة،وقطعة من مرجان تستخدم للكشط، وما شابه. وكان الترتيب بحد ذاته في طريقة رصها معا هوما كان مؤثرا بصفة خاصة، كما لوأن ربة الخيمة من العصر الحجري الحديث قد وضعتها بعناية جانبا بنية العودة إليها أو استخدامها ثانية. وأيا كان السبب فهي تقبع بلا إزعاج لعدة آلاف من السنين، ومن وضعها هناك بهذا القدر من العناية لم يرجع لطلبها.

وبينما الفخار الموجود في الدعسة عبيدي الصناعة، لا ينبغي الاعتقاد بأن اكتشافه في قطر يفترض وجود شعب العبيد أنفسهم. فالفخار في الأزمنة القديمة كان سلعة ذات قيمة

عظيمة، وكان يتاجر به لمسافات معتبرة. والقيمة التي كانت توضع لإناء من ذلك العصر تظهرها إحدى الكسرات الكبيرة القطرية العبيدية ،فهذه كسرت من القدم وأصلحت كي يستمر استخدامها .ولم يكن هناك أبدا بالطبع أي جدل أو خلاف بأن العثور على الفخار العبيدي في قطر لا يعني أنه صُنِعَ فيها، ومن غير المحتمل أن المنطقة كانت تمنح درجة الاستيطان المستقر الضروري لمجتمع يصنع الفخار كي يزدهر مع كل المعدات الضرورية في عملية التصنيع ذاتها من أفران وطلاء، بصرف النظر عن الصلصال المناسب، ولقد ثبت فعلا أن الفخار القطري كان يصنع في أور، وتوجر به في المستوطنات الخليجية .ومن المحتمل أن المستوطنات القطرية في الدعسة تمثل نوع الجماعة نفسها التي تم تعرّفها في شرق الجزيرة العربية. ويحتمل أن تكون الكسرات جزءاً من مخلفات أناس عاشوا حياة مشابهة متنقلين فصلياً في نطاق واسع نوعاً ما.

كانت الفترات التاريخية المتأخرة في قطر- حين كان الخليج الشريان الرئيس لتجارة العالم، وحين أصبحت المستوطنات على الساحل الشرقي للجزيرة العربية مدنا ذات أهمية تجارية كبرى- قاحلة كلية على الأغلب دون دليل يكتشف حتى الآن على الاستيطان المستمر. وإذا عثر على دليل هناك فمن غير المحتمل أن يثبت أنه أكثر من عرضي أوطفيف جداً، والمؤكد أنه لا توجد مدن من حجم تلك التي قامت في البحرين أو شرق الجزيرة العربية ، وهذه ميزة من ميزات المنظر الأرضي القطري. ومما لا شك فيه أن البيئة كانت قاسية أكثر مما ينبغي، والبلاد جرداء وقاحلة أكثر حتى بالنسبة لأصلب الرحالة من الأزمنة السومرية والأكادية والبابلية. والأرض القطرية أرض جرداء بصورة فريدة تمزقها الرياح الدائمة، والنباتات التي تنمو فيها قليلة ، والمرعى شحيح ، والماء لا يتوفر بسهولة. ولن يكون هنالك حافز كبير على الاستيطان في الأزمنة التي كانت فيها الحياة قاسية على كل حال.

ولقد بدأ اكتشاف جديد، وإن يكن غير متوقع على أية حال ، في تعديل هذا الرأي

بغياب الاستيطان المستمر الهام في قطر.وكان ذلك كشف الحملة الفرنسية عن موقع صغير بالقرب من الخور وقد أفرز كمية معتبرة من أصداف المريق * التي قدرت بنحو المليونين، والمريق مخلوق صغير بنيت عليه الشهرة القديمة والرخاء القديم لمدينة صور العظيمة في الشرق .

ولقد جاءت من المريق الأصباغ الفاخرة الحمراء والرمزية (تسمى خطأ بالأرجوانية) التي أضفت الرونق والأناقة البهية على الاجتماعات العامة في المدن الفينيقية ، وفي روما بعد ذلك، وتذكر الأساطير الصلات بين الخليج ومدن الشرق، و الجدير بالملاحظة أن نجد مصنعا للأصباغ في مكان قصي كشبه الجزيرة القطرية. ومن الفخار الذي أنتجه الموقع يمكن تحديد تاريخه بالأزمنة الكاشيية في أواخر الألف الثاني ق . م.

ويبدو أن البقايا الأثرية الموجودة في قطر قد جاءت من فترة متأخرة أكثر بكثير ، وهي في الحقيقة خارج مجال هذه الدراسة . ويظهر الوجود الإغريقي في الخليج وشرق الجزيرة العربية من خلال كميات كسرات الفخار السلوقي من نوع يعود تاريخه إلى نحو القرن الثاني ق .م . وكان السلوقيون حكام معظم بلاد فارس في الفترة التالية على وفاة الإسكندر الأكبر ويأخذون اسمهم من سلوقس أحد جنرالات الإسكندر الذي استولى على العرش الفارسي خلال الفوضى التي لحقت بوفاة فاتح العالم.ولا يوجد أي دليل حتى الآن على وجود مستوطنة في رأس عوينة علي ، ويبدو أكبر الاحتمالات بناء على ذلك أن آلاف القطع الفخارية من الحقبة السلوقية التي عثر عليها الدنمركيون هناك (الذين استرجعوا بمعاناة وصبر ثلاثة آنية كاملة من الحطام) ربما كان نتيجة تحطم سفينة أو أي ظرف عارض آخر.

وتم مصادفة على يدي الدنمركيين اكتشاف آخر مبهم حين غرزت شاحنة كان يقودها نفر من أعضاء بعثتهم في شق في رأس المطبخ. وعند فحص الحفرة التي كانوا قد فتحوها عثروا

---

* ضرب من الرخويات ينتج صبغا أحمر (صالح) .

على إناء كبير كان يستخدم كتابوت ،وكانت بقايا الجسم لا تزال بمحتواه. ومن خلال وجهة التابوت كان واضحا أنه غير إسلامي، إذ لم يكن موجها إلى الغرب صوب الكعبة المشرفة. وحيث أن المدفن لم يحتو على مواد ولا ممتلكات تخص الميت فإن تحديد تاريخه مسألة تخمين، ولكن استخدام الإناء البالغ ارتفاعه مترا يذكر بتوابيت " حوض الحمام" من الأزمنة البابلية الحديثة والتي وجدت أمثلة منها في قلعة البحرين. ويشير بعض العلماء إلى الدفن بهذه الآنية في شرق الجزيرة العربية،والذي يعزي عادة إلى الألف الثاني ق. م أكثر من نسبته إلى الألف الأول ق.م.

وليس أكيدا ماإذا كان هذا الإناء الفخاري قد صنع في قطر في المقام الأول، ناهيك عن الظروف التي استخدم فيها لاحتواء جسد شخص شاء سوء طالعه أن يموت هناك .وبالتأكيد يبدو أنه كان أكبر من أن ينقل براً . وكما هو الحال بالنسبة لفخار (رأس عوينة علي) فليس من صفات الشعب الذين استخدموا الساحل القطري في ذلك الزمان أن يكونوا قد أنتجوا مشغولات بهذه الفخامة، من حيث الحجم على الأقل. ولربما يكون تفسير ذلك أنه كان جزءاً من شحنة محمولة بحرا ،وأن صاحبه قد توفي خلال رحلة بحرية لكن التقاليد استلزمت إعادته إلى الأرض محضونا في تابوت وأن يكون هذا هوالبديل المتاح. ويمكن أن يكون أصدقاء الميت قد رسوا في رأس المطبخ ودفنوه في هذا المكان الموحش قبل مواصلة رحلتهم.

لا بد من النظر في نوعين آخرين من البقايا في قطر، وإن باختصار، لأنهما غامضان من حيث التسلسل الزمني، ويبدو أنهما ينتميان إلى فترات خارج مجال هذه الدراسة. وأول هذين حقول مدافن الرجوم ،أو أكوام الحجارة الموجودة في أرجاء شبه جزيرة قطر جميعها.

وكان الدفن في الرجوم الصبغة الشائعة في بناء القبور في أرجاء الجزيرة العربية جميعها قبل الإسلام: كومة من الحجارة تقع فوق مدفن صغير نسبيا. ومن الرجوم القطرية أم الماء،والمزروعة ورأس أبروق، ورأس عوينة علي، ولا يتضح تسلسلها التاريخي في أية حالة من الحالات .

وكان في أم الماء نوعان من الرجوم التي تعرفها الدنمركيون الذين حققوا فيها لأول مرة. وكان النوع الأول مقطوعاً في الصخر، والقبر مبطن بكتل حجرية مشذبة. وتم في مثل هذا القبر عمليتا دفن، الواحدة فوق الأخرى. واحتوى النوع الثاني من القبور في هذه المجموعة أيضاً على كتل حجرية مشغولة، لكنه من ثلاث حجرات في مخططه . ووجد في مثل هذا القبر هيكل عظمي مستلقيا وساقاه مسحوبتان لأعلى.

ووجد مدفن في المزروعة يبدو وأنه يربط العادات في قطر في الأزمنة السابقة على الإسلام بممارسة معروفة في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية، بما فيها البحرين، وهي نحر الجمال حول قبر البطل. وكان القبر في مزراح مكونا من رجم بيضاوي الشكل من الحجارة الكبيرة المبسطة. ووجد في الخارج هياكل عظمية لجمال جاثمة على عراقيبها . ووجد في داخل القبر قدح من الزجاج الساساني سليم على الأغلب بحالته الطبيعية، مما يوحي بأن الدفن كان في وقت متأخر قبيل الإسلام. وإلى جانب قرابين الجمال هنالك أيضاً دليل على قرابين الخيول في قطر ما قبل الإسلام.

وأفرزت المزروعة كثر بضائع القبور الشحيحة أهمية قدمتها رجوم القبور حتى الآن. واحتوى القبر المعني على مدفنين يفترض أن أحد ساكنيهما محارب .حيث أنه قد دفن معه سيف حديدي جميل ومجموعة من رؤوس السهام الحديدية الجيدة الصنع. وأما الهيكل العظمي الثاني فكان يحمل الدليل المشئوم لما كان آخر معارك المحارب بكل وضوح، إذ كان مغروسا في العظم الرئيس بساعده رأس سهم آخر ، بقي هناك حتى هذا اليوم شاهدا على نزال طواه النسيان، لكنه بالنسبة للمحارب كان النزال الأخير.

وجد آخر أثريات قطر والأكثر غموضا على قمة تلين صغيرين في أقاصي شمال شبه الجزيرة في فويرط، والجساسية. وعلى هذين التلين الصغيرين ، وكلاهما لا يزيد عن بروز صخري ناهض، هناك ما لا حصر له من المنحنيات والأنساق والتصاميم المنقوشة أو المقطوعة أوالمحفورة في الصخر على طول أكثر شواطئ قطر الشمالية جمالا. ويضيف وجود

البحر إلى الإحساس بعزلة التلين الصغيرين اللذين تقبع خلفهما الصحراء الخاوية .و هذه العزلة هي التي تسهم بحد ذاتها في غرابة هذين الموقعين.

والنقوش الصخرية مألوفة بما فيه الكفاية في أرجاء الجزيرة العربية كافة مما يجعل اكتشافها في قطر مسألة تكاد لا تستحق تعليق أوحتى تخمين. وفي الحقيقة فإن قطر عارية بصورة ملحوظة من النقوش والمنحوتات ،لكن النقوش التي وجدت على صخور التلين الصغيرين غريبة حقا. ويمكن أن يعذر المسافر في الصحاري العربية وعمان إذا تكون لديه الانطباع بأنه في الأزمنة السابقة على الإسلام على الأقل كانت شبه الجزيرة العربية مأهولة بفنانين ملتزمين حين رأوا سطح الصخر أخذتهم حمية لا تقاوم لنحت شيء عليه. والحجم المجرد لنحت الصخر العربي ، والذي يصل في المثال الفردي إلى مئات الآلاف على الأقل، يوحي برغبة واستحواذ على تزيين أسطح الصخور ،وهو الأمر المدهش لأولئك الذين عرفوا الصحراء وشعبها اليوم. ويستمر التقليد كما هو باد في عمان حيث بمحاذاة ما يمكن أن يكون تصاميم الألف الثالث ق.م رسمت سيارات لاندروفر وبنادق وأجهزة معاصرة أخرى.

فإن التصاميم المتكررة كثيرا على التلين هي تلك التي تتألف مما يمكن أن يطلق عليه عموما "علامات الفنجان" ،وهي حفر دائرية صغيرة مقطوعة على واجهة الصخر ،وتنحني جوانبها إلى انخفاض مستدير. ولا تزيد في قطرها عادة عن ٣–٥ سنتيمترات، وأقل من ذلك من حيث العمق.ونادراً ما توجد في قطر مفردة ،فهي غالبا مجمعة معا في مجموعة متنوعة غير منتهية من حيث التشكيلات والخطوط المفردة والخطوط المزدوجة والثلاثية؛ وأحيانا مستقيمة وأحيانا منحنية، وأحيانا دائرية ، وأخرى دائرة من الفناجين، واحد في الوسط في تشكيلات من ستة، وثمانية، واثني عشر، وأربعة عشر، وستة عشر فصاعداً من غير أي تقدم أوتوال واضح. وتبدو موزعة توزيعا عشوائيا على سطح التلين الصغيرين، ولا تتبع توجها واضحا لا شمسياً ولا نجمياً ولا قمرياً.

ولقد طرح أولئك الذين درسوها بصفة أساسية تفسيرين غير مقنعين. فلقد افترض على

أساس التشابه مع تشكيلات مماثلة في أوروبا، خاصة في اسكندنافيا، إنها من ناحية مرتبطة بالخصب تكاثرا للفروج التي ينهمر فيها الماء الواهب للحياة. ويمكن أن يكون أولا يكون هذا هو تفسير أشكال الفناجين في شمال أوروبا التي يعود تاريخها إلى العصر البرونزي، ويبدو من غير المحتمل في شرق الجزيرة العربية ولو بسبب كون الفناجين صغيرة إلى هذا الحد فقط، ونادرا ما تأتي الفروج في جماعات إلا في أخصب أنواع الخيال.

وأيضاً في دورة حياة الإنسان ،المطر في الصحراء ظاهرة نادرة، على الأقل إلى الحد الذي يبدو فيه من غير المحتمل أن ممارسة على هذا القدر من العمومية في شمال قطر (كعلامات الفناجين بقصد تجميع مياه الأمطار) من شأنها أن تكون قد جمعت بهذا القدر من الاتساع. والافتراض الأكثر صمودا هوأن علامات الفناجين كانت لوحات لممارسة اللعبة المسماة في الجزيرة العربية " الهويس* " والمعروفة في أنحاء العالم جميعها تحت أسماء مختلفة. وتتألف هذه اللعبة في جوهرها والتي يلعبها اثنان من تحريك عدادات (حجارة أو حبات فول أو أي بديل مناسب) حول اللوحة ، وتتحدد الحركات برمي النرد أوآلية أخرى. وتمارس اللعبة بين البدوحتى اليوم. ولقد افترض أنها إفريقية الأصل، وضاربة في القدم. وعلى الرغم من أن هذا التفسير يبدو ملائما ، إلا أنه غير كاف في النهاية لعدة أسباب. فالتشكيلات المتعددة الموزعة فيها علامات الفناجين غير منتظمة، كما أن مواضعها غير منتظمة كذلك ، وحقيقة أن مثالا واحداً فقط موجود على جانب الصخر على الغالب في وضع يظهر أنه على الأقل لم يكن بالإمكان استخدامها لاحتواء أي شيء ، سائلا كان أم صلبا.

ولكن الكمية المجردة لعلامات الفناجين في تشكيلات لا حصر لها تدمر حجة أنها كانت تستخدم فقط للعبة الهويس ما لم يكن لصناعتها مغزى شعائري كما لوأن تعليم منضدة

---

* Huwais كذا في الأصل ولعله أراد لعبة "الحويلة" المطابقة للوصف الذي ذكره كما أنها قريبة الشبه من لعبة الحالوسة المعروفة بالإمارات العربية المتحدة .(د. السقاف) .

الروليت أوصالة التنس حملت معها تسامحات جوهرية محررة معالمها من هذا القدر من سنوات التكفير والتطهر بممارسة لعبة على سبيل المثال. ويبدومن غير المحتمل جداً أن يكون اللاعبون قد أتوا بلوحة جديدة في كل مرة رغبوا اللعب ، فما أن يكونوا قد انتهوا من صنع اللوحة، فإن الليل- إن لم يكل حماسهم، سيكون قد حل- أوسيكون هنالك عدد كبير في آن واحد حتى إن عدة مئات (إن لم تكن الآلاف) من اللوحات ستكون ضرورية. ويبدومن غير المرجح أن تكون هذه البقعة القصية جداً في شمال شبه الجزيرة القطرية موقعا لهذه الممارسة المحمومة للعبِ الهويس مما يجعل صالونات لاس فيجاس أومونت كارلو تبدو مصابة بالضمور وفارغة من النشاط أوالإثارة. إن هذا التفسير وبكل بساطة قد ذهب بعيداً جداً.

وثمة تفسير آخر أكثر بساطة وهو اعتبار تشكيلات علامات الفناجين مرتبطة بطريقة ما بتجارة اللؤلؤ التي قام عليها ازدهار قطر قبل اكتشاف البترول. ففرز اللؤلؤ من مختلف الأحجام والأنواع عنصر جوهري في إدارة التجارة وأرباحها التي كانت شحيحة غالبا، مع أن كميتها مرة أخرى ومواقعها البعيدة عن المساكن العادية لتجار اللؤلؤ ، واختلاف تركيبتها وتوزيعها على الصخر يجعل هذا التفسير أيضاً غير محتمل.

ولكن علامات الفناجين ، وإن تكن واسعة، تظل صيغة واحدة من صيغ النحت على التلين الصخريين ، قريبا من شاطئ البحر. والأكثر غموضا كونها غير مسبوقة بالمرة في قطر، أو في أي مكان آخر ، وتلك السلسلة من المنحوتات الكبيرة المقطوعة بصبر وأناة على سطح الصخر ، والتي تبدو من النظرة الأولى عروضا لقوارب كما تشاهد من السطح. فالصواري ، والمقاعد المتقاطعة ومقاعد المجدافين كلها تبدو مصورة ، وتبدو بعض القوارب تجر مراسي كبيرة . ولعل تفسير هذه المنحوتات - التي وجدت بشكل مكثف في الجساسية وتظهر نوعاً من المراكب الشراعية - بسيط جداً: بعض الرسومات التي تبدو بادئ الأمر تمثل قوارب يمكن عند النظرة الثانية أن تبدو كأنها أسماك ذات أذناب طويلة رائشة،

بينما أخريات أكثر وضوحا تبدو كعقارب ضخمة تزحف على وجه الصخر. وهذه أكثر غرابة وشؤما حين ترى عند الغروب.

بعض هذه القوارب،من وجهة نظر بعض الجهات، يمكن أن تكون قوارب صيد اللؤلؤ. وإلى هذا الحد أجريت فقط دراسة واحدة جادة لنحت الصخور، ورصد مؤلفها العديد من المنحوتات ، وبقدر ما يتعلق الأمر برسوم السفن، استنتج أنهاتعود للقرن الرابع عشر الميلادي . وينبغي أن ينظر لهذا الاستنتاج على أنه تجريبي فحتى وإن كان هذا التاريخ ثابتا فإنه ما يزال لا يوضح لماذا تكلف أي شخص برسم القوارب والأسماك والعقارب بهذا المقدار، وفي مكان غامض بهذا القدر.

وتضيف منحوتات أخرى في البقعة نفسها إلى الغموض،بدلا من التقليل منه. ولقد قورنت حفر مستديرة في الصخر بحفر النيران الموجودة عبر الخليج والمرتبطة بعقائد عبادة النار الإيرانية في الأزمنة السابقة على الإسلام. وأخرى تبدوكمناضد فخمة للقرابين تمتد منها قنوات طويلة كما لوكانت بقصد السماح بتصريف سائل ما أوغيره. ويبدو بعضها أحيانا وكأن له المظهر التخطيطي لوحوش ذات قرون.

ومن نوع آخر تماماً نحت صغير أنيق ذابل ذبولاً كبيراً لبدنة أو جدي. وهذا هوالأكثر تميزا في المجموعة الشمالية لمنحوتات الصخر القطرية كافة ، وليس غريباً في المحتوى على بلاد ما بين النهرين من الألف الثالث أو أبكر. ومرة أخرى يبرز السؤال عما كانت تفعله (الآثار) في قطر بعيداً عن أية علامات واضحة للإستيطان الذي يمكن ربطها به . ولكن هذا هو حال الآثار القطرية ككل. وفي الوقت الحاضر فإنها تطرح المزيد من الأسئلة دون أن تقدم الإجابات.

الإمارات العربية المتحدة

وإلى أبعد من ذلك، وبمحاذاة الساحل الشرقي من شبه الجزيرة القطرية تقع أحدث دولة في المنطقة، ألا وهي الإمارات العربية المتحدة، وهي اتحاد من سبع إمارات اندمجت في كيان واحد لم يكن متوقعا قيامه. وهذه الإمارات السبع هي: أبوظبي، ودبي، والشارقة ،وأم القيوين، ورأس الخيمة ، والفجيرة ، وعجمان، وتمثل بشكل أو بآخر مناطق قبلية أو عشائرية. والثلاث الأولى غنية، وأبوظبي غنية بصورة هائلة، أما الأربع الأخريات فليست كذلك، وتعتمد على شقيقاتها ذوات الثراء الأكثر.

ويحتمل أن الثقافة ذات التطور الأقدم في الخليج كانت موجودة في التخوم الجنوبية، فيما يعرف اليوم بساحل الإمارات العربية المتحدة. ومن الناحية التاريخية فإنه من الصعب عدم الاعتراف بأن هذه المنطقة تمثل الامتداد الشمالي لعُمان، لأن المنطقة الساحلية التي تقوم عليها إمارات ومدن الإمارات العربية المتحدة اليوم هي في الحقيقة امتداد لسفوح الحدود الشمالية للجبل الأخضر ورأس مسندم في الشرق. وكانت بعض أقدم المستوطنات في الخليج، والتي يعود تاريخها إلى بدايات الألف الثالث ق.م تقع في الجانب الداخلي من الساحل بالقرب من مناجم النحاس. و فيما بعد كانت الجزر التي تقع اليوم قريبا داخل البحر مواقع ينقل منها النحاس إلى دلمون ومدن بلاد ما بين النهرين.

وفي السنوات الأخيرة، وبدقة أكبر منذ أواسط الثمانينيات، شهدت الإمارات العربية المتحدة أكبر إنجاز أثري مثمر يتم القيام به في الخليج. وكان معروفا منذ الأيام الأولى للحملات الدنمركية أن مواقع من إمارة أبوظبي كانت قديمة جداً ومهمة بصفة استثنائية. والشيء الذي اتضح في السنوات القليلة الماضية هو أنه كانت هناك مستوطنات على الشاطئ الجنوبي على الأقل منذ الألف الثالث ق.م فلاحقاً. ولا شك أنه هذه المستوطنات قد قامت نتيجة للبحث عن النحاس ، والحاجة لإبقاء خطوط الإمداد مفتوحة من مصدر ذلك المعدن إلى طالبيه في سومر، وفي غيرها أيضاً.

وربما كان الأقل توقعا أن هذا الجزء من الخليج،و البعيد قليلا عن مراكز السكان الرئيسة التي أقامت دلمون الصلات معها، كان مسرحاً لكثير من حركة الناس في زمن ازدهار فترة جمدت نصر في بلاد ما بين النهرين. وكان الناس الذين بنوا القبور المتميزة في شمال عمان* والذين يستدل عليهم من موقع حفيت، نشيطين بامتداد منطقة شاسعة. ولقد عثر على دليل على وجودهم من شرق الجزيرة العربية إلى ظفار في أقصى جنوب عُمان، على حافة المحيط الهندي.والنشاط الذي كان شعب حفيت منهمكون فيه ربما كان صيد اللؤلؤ، أوصيد السمك في البحار الغنية بصورة استثنائية حول ساحل عمُان، المصدر الذي لا يزال قائماً حتى يومنا هذا. و قد حدد تاريخ فخار حفيت والقبور الأنيقة التي كان الناس يدفنون فيها بنحو ٣١٠٠-٢٩٠٠ ق م.

ويحتمل أن أقوام هذه التجمعات السكانية المبكرة كانوا مسؤولين عن استيطان أراضي الخليج الشمالية بما فيها البحرين، وتحمل أقدم روابي القبور البحرينية تشابهاً قوياً مع تلك التي وجدت في أم النار، وتبدو تقنية البناء المستخدمة في الأبنية الحجرية في البحرين مرددة صدى تلك التي في المستوطنات الساحلية في شمال عمان. وقبور أم النار مصممة عادة لاحتواء عمليات دفن متعددة، على عكس غالبية روابي القبور البحرينية. ولعل كل قبر قد استخدم في عدة مناسبات لفترة طويلة حيث إن أشكال فخار أم النار إلى جانب فن المقابر المعماري،قد استمر طوال معظم الألف الثالث قبل الميلاد. والقبور دائرية ومقسمة من الداخل إلى عدة حجرات يتغير تشكيلها تغيرا كبيراً. وكانت الأمثلة الكبرى من الخارج ذات واجهات من كتل الحجر الجيري المقطوع. ولقد تم الكشف عن كميات كبيرة من الفخار وأواني الكلورايت المنحوتة من العديد من القبور التي تم فحصها، وهوالدليل الواضح على الطقوس المفصلة للقرابين من أجل راحة الميت.

---

*هناك مسافة كبيرة بين حفيت (العين) وساحل عُمان بنحو ١٧٠ كم، وبالتأكيد فإن سكان حفيت ليسوا صيادي سمك عكس ما يقوله المؤلف (العبودي).

وإحدى الصيغ المعمارية المتكررة كثيراً في الخليج هو برج المراقبة الواسع الذي عثر على أمثلة منه من فيلكا إلى عُمان. ومن المرجح استناداً إلى أمثلة وجدت في هيلي في أبوظبي أن هذه كانت أيضاً من ابتكار شعب حفيت . وإذا كان الأمر كذلك فإن لهذه الأبراج قدرة على البقاء جديرة بالملاحظة، فقد استمر تشييدها في عُمان في العصور الحديثة.

ولربما كان لشعب حفيت قرابة بالسكان الأوائل في جنوب بلاد ما بين النهرين، أو أنهم كانواعلى صلة وثيقة بهم، فقد عثر على صيغة مميزة من الطوب من المدن السومرية ذات ارتباط بهم مسطحة ومقعرة الشكل. واستخدموا أيضاً رؤوس سهام مميزة عثر عليها في مواقع في جنوب الخليج بكميات لا بأس بها. و المثير للاهتمام بخصوص صلات شعب حفيت أن الدليل القديم على شعب الخليج الذين كانوا على صلة بصناع الفخار العبيدي في القسم الأول من الألف الرابع ق.م قد عثر عليه في المنطقة نفسها تقريبا، وفي العديد من المساكن ذاتها التي عثر فيها على فخار حفيت . وبالتأكيد فقد وصل الفخار العبيدي إلى الساحل الجنوبي ، ولربما يعثر عليه في مواقع عمانية .

وبحلول بداية الألف الثالث ق.م كانت بعض المواقع على الساحل الجنوبي وإلى الداخل متوطدة، وبالقياس بزمانهم متطورة نوعاً ما على الأقل من خلال عمارتهم. ويحتمل أن يكشف التنقيب عن بقاياهم معلومات هامة عن حياة تلك المستوطنات البعيدة الصغيرة من أزمنة بهذا القدم.

ولقد عثر في جزيرة أم النار على بقايا منازل حجرية وقد شُطِّبَ الجانب الخارجي من هذه البنايات باللبن *، وهي الصيغة التي سادت في بلاد ما بين النهرين المعروفة بالمسطحة المقعرة. وبدت اللبنات كأرغفة الخبز، وهي المادة الأكثر نموذجية التي صنعت منها المباني السومرية. وفي المحتوى الخليجي، هذا الدليل من أم النار دليل محير بصفة خاصة حيث إنه إلى الأبعد في أعالي الخليج ، في البحرين على سبيل المثال، لا يوجد دليل على استخدام

* لا يوجد هذا الأمر في قبور أم النار (العبودي).

مواد بناء سومرية كهذه وإن كانت أبنية مثل المعابد التي في باربار تبدوسومرية من حيث الوحي والتصميم. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يوحي بتأثيرات ما بين النهرين أو بفعل الوجود الحقيقي لشعب على علم وثيق بتقنيات البناء في بلاد ما بين النهرين، والمطابقة لتقاليد البناء الخليجية. بعض الأبنية في أم النار يحتل الواحد منها أكثر من ٣٠٠ متر مربع. والأبراج الشبيهة بتلك الموجودة في مواقع في الأراضي العمانية مثل عبري، وبات، وجدت في هيلي أيضاً مما يوحي بأن السكان احتاجوا إلى حماية جماعاتهم من قطاع الطرق. ويَلْقى شيوع الأبراج كصيغة معمارية سائدة في الثقافات الخليجية المبكرة تأكيدا زائدا من هذه الأبنية.

وكان سكان هيلي من الألف الثالث ق.م أقوياء البنية، حيث كان متوسط الطول المبني على التحليل الأثري لنحو ٢٠٠ فرد ١,٧٨ متراً للذكور و١,٧٢ متراً للإناث، وهذا أمر جدير بالاهتمام بالنسبة لشعب عاش قبل ٤٠٠٠ عام خلت.

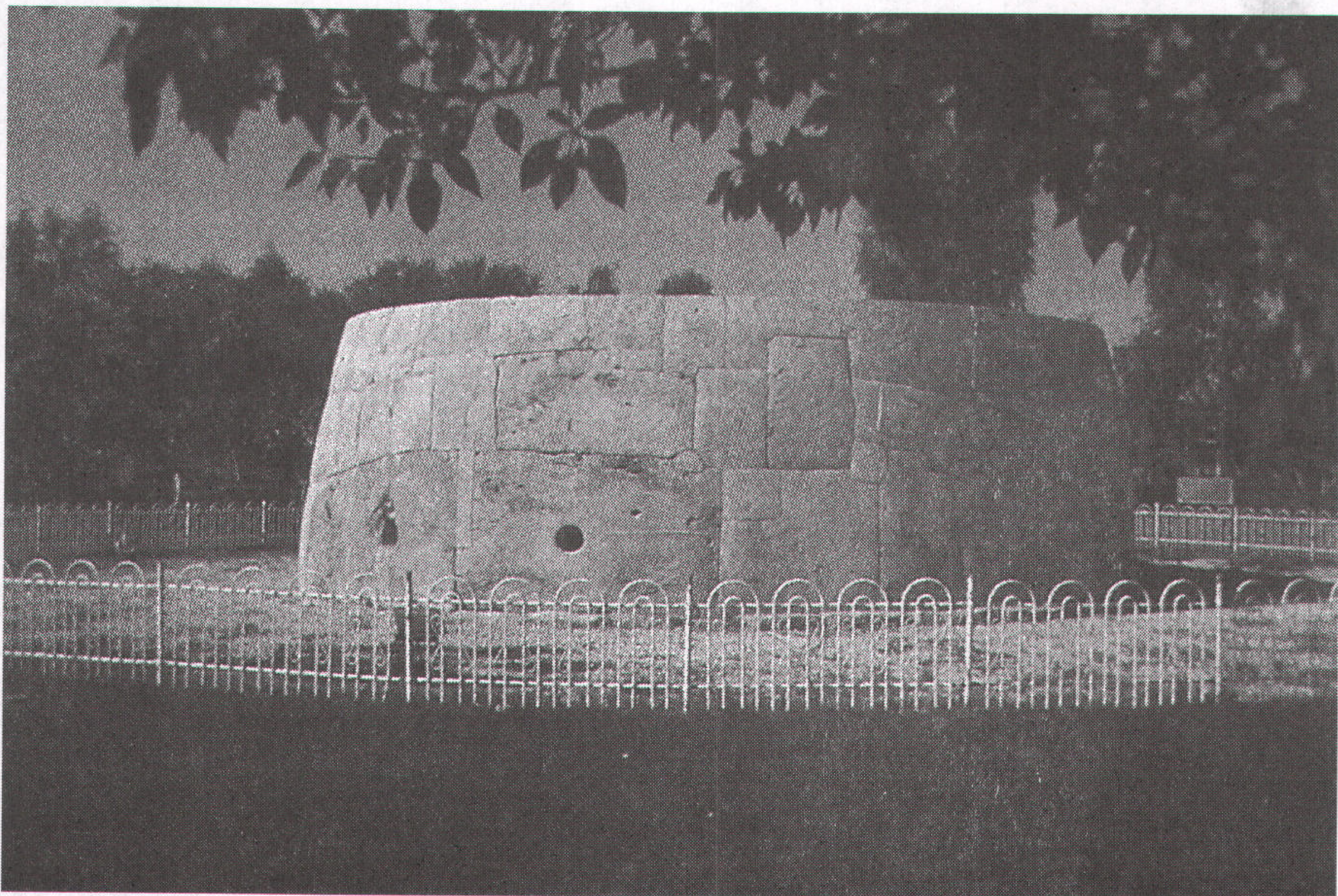
من نوعية العمارة ومواد القبور المستخرجة، وبصفة خاصة الفخار، يتضح أن شعب أم النار، وإن كان على الأرجح جماعة صغيرة، قد تمتعوا بمستوى رخاء عال وسريع التقدم في السنوات الأولى من الألف الثالث ق.م. ويبدو أن هذه الجماعة أقدم إلى حد بعيد من أول شعب عاش في المدينة الأصلية في قلعة البحرين. ولقد كان فخار أم النار بالفعل قد اكتشف في قاع أقدم الجدران السفلى هناك. ويحتمل أن الناس في أم النار كان لهم صلة بنشؤ المستوطنة الأولى في موقع القلعة في البحرين. وتوجد مقابر من طراز مقابر أم النار أو تأثيراتها في الوقت الحاضر في البحرين، وهي الأقدم في دليل عمارة الجزيرة الجنائزي الطويل. ولقد تم الآن تعرّف مقابر أم النار في مساحة عريضة في شرق الجزيرة العربية وحتى جنوب الخليج تصل إلى رأس الحد في ساحل سلطنة عُمان الأوسط.

وفخار أم النار متميز جداً، ومثله مثل الفخار الأحدث الذي وجد في المواقع الساحلية مثل رأس الخيمة، فإن له ارتباطات مع مواقع عبر الخليج في جنوب غرب إيران، وربما أخرى

في بلوشستان وأفغانستان. وتكمن أهمية مجتمع أم النار للخليج في القرون الأولى من الألف الثاني قبل الميلاد في حقيقة أنه النقطة التي يشحن منها النحاس المستخرج مما يعرف اليوم بسلطنة عمان في مواقع جنوب أم النار في واحات البريمي ، وعبري عن طريق دلمون إلى مدن سومر.

وأحد العناصر المحيرة في آثار مجتمع أم النار هو الدليل على تركيبة غذائهم، . فلقد كانوا إلى حد بعيد جماعة من صيادي السمك ،وقد عثر بين أنقاض مساكنهم على بقايا بقر البحر. وعلى ما يبدو فإن هذه قد ذبحت في أم النار لتغذية السكان هناك . كما أفرزت مستوطنة أم النار أيضاً دليلاً على استهلاك الجمال، ولا ندري إذا كان هذا سيعتمد إثباتا على التدجين، ولعله على العكس من ذلك استناداً إلى أدلة عامة أخرى.

وتوجد بعض الأدلة على أن الذرة كانت تزرع في هذا الجزء من الساحل، ولهذا مغزاه



٨-٩ القبر الدائري المزخرف في هيلي بأبوظبي على الصورة التي رمم فيها، ويعود تاريخه إلى الألف الثالث قبل الميلاد (شيرلي كاي)

بصفة خاصة إذ إنه معروف عموما أن الذرة زرعت لأول مرة في جنوب السودان ، وتظهر في المستويات القديمة جداً في هيلي في بداية الألف الثالث ق .م . وعرفت في عُمان منذ أزمنة أقدم من ذلك. وتظهر في الهند عام ٢٠٠٠ ق. م ، ويبدو تبعا لذلك أنها نقلت من الغرب إلى الشرق، ومن إفريقية عبر الجزيرة العربية إلى الهند.

وساد في هيلي وضع مختلف كليا عن الوضع في أم النار ،وإن كان تاريخ الموقع يعود إلى أوائل الألف الثالث ق .م والبناء الجنائزي الذي وجد في هيلي جدير بالملاحظة في مجمله، فقد أعيد بناء قبر دائري كبير شبيه بالطبل في هيلي يعرض عددا من النحوت الجديرة بالملاحظة ، وهو نحت يبدو أنه قد استخدم لأغراض تجميلية في بناء بعض القبور الكبيرة (شكل ٨-٩) ،وهي استثنائية تماماً ولا تشبه أي شيء آخر في مضمونها المباشر.وبينما تزين أسطح الصخور عادة يبدو أنها شغلت حماس السكان القدماء في الكثير من شبه الجزيرة العربية إلى درجة الاستحواذ، غير أن منحوتات هيلي من نوع آخر. وتوجد عدة مشاهد مصورة: شخصان متعانقان (شكل ٨-١٠) وتصميم يكرر بالضبط تصاميم أخرى أكثر قدما من "ستا هيوك" في الأناضول، و"عين صخري" الموقع النطوفي (Natufian) في فلسطين ، وقطتان ربما كانت نمرتان تمزقان حيوانا صغيرا (شكل٨-١١)ومجموعة من المسافرين (شكل ٨- ١٠)،ماريتان جميلتان(شكل ٨-١٢) وكان أحد أهم التطورات في آثار جنوب الخليج تعرف فترة الفخار العبيدي في عدد من المواقع.وحتى الآن فإن عُمَان فقط لم تكشف عن أي دليل على الاتصال بصناع الفخار العبيدي وربما يتغير الوضع مستقبلا.

وتتضح حقيقة أن لدى المنطقة الجنوبية من الخليج الكثير مما تكشف عنه يظهر بصورة واضحة من خلال الحفريات التي كانت ولا تزال تقوم بها مجموعة من الفرق من مختلف البلدان التي تواصل ذلك العمل من مواقع على طول ساحل الإمارات العربية المتحدة. وفي العديد من الحالات من الألف الثالث ق. م . كُشف عن أن خطوط الشواطئ تقع على بعد



٨-١٠ رجل يركب حمارا (يسار) وشخصان متعانقان أو يرقصان (يمين)، قبر هيلي



٨-١١ قطان يمزقان حيوانا أصغر حجما، قبر هيلي

واحد كم أو أكثر إلى الداخل «أي إلى اليابسة» على سبيل المثال بالنسبة لرابية كبيرة مثل تل الأبرق على حدود الشارقة – أم القيوين، وأفرز هذا دليلاً على الاستيطان المستمر من منتصف الألف الثالث إلى منتصف الألف الأول ق . م .

كان في تل الأبرق على ما يبدو جليا جماعة هامة وكبيرة . ولقد تم الكشف عن صرح لبرج واسع هناك يبلغ قطره ٤٠ مترا ، وهذا يعني أنه أكبر إلى حد كبير من أبراج يعود تاريخها إلى نفس الفترة وتقع إلى الجنوب في مواقع مثل هيلي، وبات، والتي تصل إلى نصف حجم برج تل الأبرق.

والاكتشاف المتكرر للأبراج في أرجاء الخليج كافة من جزيرة فيلكا في الشمال إلى المواقع ذات الصلة بالنحاس في عمان ، والتي يعترف بها الآن على أنها نموذجية كميزة معمارية خليجية مثلها مثل حقول روابي القبور، مظهر جدير بالملاحظة في أعمال التنقيب عن الآثار في العقدين الماضيين. ويبدو أن أقدم الأمثلة على البروج في الساحل الشمالي لشبه



٨–١٢ اثنان من حيوانات المها يتناطحان مع تمثالين بينهما وتحتهما يمسكان أيدي بعضهما بعضاً (قبر هيلي)

الجزيرة العمانية هو ما يوجد فيما يعرف اليوم بأراضي الإمارات العربية المتحدة وفي عمان ذاتها.

ولقد أضاف تل الأبرق قدراً كبيراً إلى ما نعرفه عن حقبة أم النار على الساحل كما أثرى مخزون فخار الفترات التي انتعشت فيها.

وبينما استحوذ العمل في المواقع القديمة في الإمارات العربية المتحدة على الاهتمام في تقارير علماء الآثار في البلاد فقد تمت أعمال التنقيب الخاصة بفترات لاحقة في مدار السنوات الأخيرة. وبينما تشهد معظم المخلفّات الأثرية على الاتصالات الدولية المستمرة والتي بلا شك لها ارتباط بالتجارة في المنطقة، إلا أنها متميزة تماماً وليست مجرد انعكاسات للثقافة الدلمونية ذات التقدم والتأثير الأكثر في أعالي الخليج.

ويبدو أن أحد أنماط القبور كان يميز ذلك الجزء من ساحل الخليج إبان الألف الثاني ق. م وهو قبر جماعي طويل ضيق غائر جزئيا في الأرض. ولقد استعيد من القبور آنية كلورايت (شكل ٨–١٣) ذات قاعدة نافرة مستديرة باتجاه العنق الضيقة ومنقوشة بدوائر مثقوبة، وعدد من زينة الملابس بعضها مصنوع من الذهب والفضة والبرونز. ولقد عثر على قبور من هذا النوع في القطارة (شكل ٨–١٤)، والقصيص بالقرب من دبي، وشمل في رأس الخيمة. وفي هذه الأخيرة كشف عن مشغولات من هارابا وفخار وثقالة توحي بالصلات مع وادي السند. ويبدو أنه كان هناك مستوطنة واسعة في شمل عند سفح سلسلة جبال صغيرة (شكل ٨–١٥) ،كما عثر على مستوطنة مماثلة في ضاية.

ولقد أقيمت مستوطنة كبيرة في العصر الحديدي في هيلي ، وأخرى في الرميلة. وكان يلحق بالمستوطنات قبور واسعة جيدة البناء ، ويوجد دليل على عبادات بما فيها عبادة الأفاعي المعاصرة تقريبا مع عبادة الأفاعي التي تبدو جلية في أعالي الخليج في البحرين.

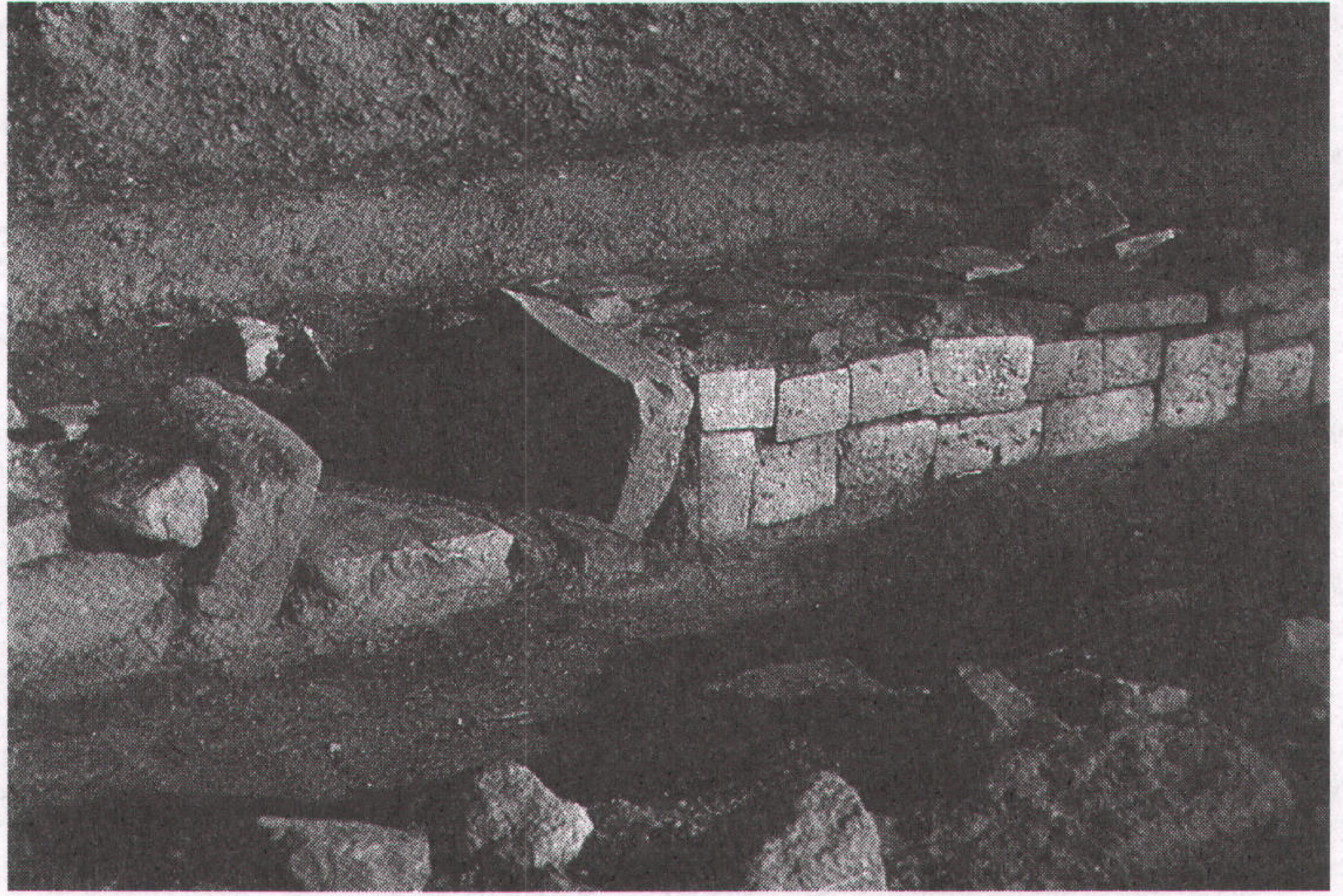
وفي الأزمنة الهيلينستية ،حين كان الخليج منهمكا بصورة نشيطة في تجارة البخور من الممالك العربية الجنوبية، أقيم ميناء رئيس في الدور في أم القيوين ، قام بالتنقيب فيه فريق



٨-١٣ إبريق من الكلورايت من وادي (عسمة) يعود تاريخه إلى الألف الثالث قبل الميلاد (شيرلي كاي)



٨-١٤ قبر جماعي في القطارة، يبين مدخله وإعادة استخدامه، مبني من الحجارة بأم النار، الألف الثاني قبل الميلاد (شيرلي كاي)



٨–١٥ قبر من شمل برأس الخيمة، الألف الثاني قبل الميلاد (شيرلي كاي)

بريطاني * كذلك قامت بعثة فرنسية بالكشف عن مدينة معاصرة لموقع الدور في المليحة، بعيداً داخل اليابسة من الساحل ،وواقعة مثل شمل في سفوح الجبال.

إن اهتمام الإمارات المختلفة بآثارها تم دمجه ووصف هنا بشكل عام وعابر. ولقد شجعت أبوظبي الحفريات وقامت بعدة عمليات طموحة لإعادة بناء بعض التماثيل الهامة والقديمة جداً. وقامت دبي بعمليات مسح واسعة بينما في رأس الخيمة قام باحث بريطاني بارز بمسح مناطقها الشمالية مما أسفر عن بعض أفضل الإصدارات عن المنطقة. وفي الآونة الأخيرة عثر على بعض الأدلة عن صهر النحاس، مما يوحي بأن رأس الخيمة كانت إحدى النقاط التي كان النحاس يعاد شحنه منها عبر الخليج من مصادره في عمان** كما تم تعرف شكل من أشكال القبور في غليلة غير مماثل بالأخرى التي يغص بها هذا الجزء من ساحل رأس الخيمة ويشبه علبة أقراص دواء.

---

* يشير بذلك إلى دو كاردي Do Cardi ونتائج المسح الأثري الذي قام به عام ١٩٧١م (د. السقاف).

– نقب في الدور – بالإضافة للفريق البريطاني – فريق فرنسي ودنماركي وبلجيكي (العبودي).

** اكتشف في جبال الإمارات مناجم النحاس وعملية صهره (العبودي).

سلطنة عمان

وآخر المناطق الخليجية التي أسهمت في الكثير من ثقافته في القدم هي تلك المحتواة اليوم ضمن القسم الشمالي من سلطنة عُمان. وعُمان ثاني أكبر بلد في شبه الجزيرة العربية، وهي في مجملها جميلة بصورة بهية، متنوعة التضاريس مع مزيج من الشعوب والتقاليد ،وهي مختلفة بصورة ملحوظة في شخصيتها عن جاراتها. فهي واحدة من الدول المتميزة في العالم العربي،و ذات هوية محددة خاصة بها .ويبدو أنها ظلت على الدوام بذلك الطابع الفريد. ويميل المؤرخون العرب من القرون الوسطى إلى التأكيد على شخصيتها الفريدة.

وفي نصوص السومريين القدامى وخلفائهم ، ترتبط دلمون مراراً وتكراراً بموقعين آخرين هما ملوخة التي تعتبر الآن منطقة وادي السند، وماجان ، أوكما تترجم أحيانا، مكان. وجاء من ماجان أهم سلعة مستوردة إلى (المدن – الدول)،وهي السومرية السلعة الأساسية في اقتصادياتها ، النحاس. وتعرف ماجان اليوم بعمان وأجزاء من الساحل الشمالي الواقع الآن ضمن الحدود الساحلية للإمارات العربية المتحدة، وربما اشتملت العبارة أحيانا على مناطق من الساحل عبر مضيق هرمز.

تحتل عَمان القسم الأكبر من الربع الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وإن كانت معزولة جغرافيا عن جيرانها. وكانت تاريخياً تميل دوماً إلى تلك العزلة التي أسهمت بالكثير في الشخصية الفريدة للسلطنة .

وفي الحقيقة فإن عُمان في جزء منها دولة خليجية ،إذ يوجد الكثير من حدودها الساحلية الشاسعة على المحيط الهندي. ولقد أسهمت هذه العزلة الجغرافية إلى حد كبير في الخبرة العمانية طوال التاريخ، التاريخ الذي كان سجلاً لارتباط عمان بالبحر. فعمان مفصولة عن جاراتها إلى الشمال والغرب بالصحاري العربية الوسطى والجنوبية التي تفصل الشريط الساحلي (الذي تتمركز فيه معظم المدن التاريخية العمانية) عن بقية شبه

الجزيرة. ويتعزز هذا التقسيم بوجود سلسلة الجبال (الجبل الأخضر) العظيمة التي تمر شمالا وجنوبا في معظم طول البلاد. ويقع إلى الغرب من عُمان و شمال الأقاليم الجنوبية الخصبة ، الربع الخالي،أوالرمال كما يطلق عليه السكان المحليون. وكانت هذه البرية العملاقة البالغة مساحتها ٤٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع (٢٥٠,٠٠٠ ميل) من الرمال العميقة دائمة الحركة في الأزمنة المتأخرة من العصر الحجري الحديث منطقة مستنقعات، وبخاصة في محيطها الشمالي، حيث وجد بوفرة كبيرة دليل على مستوطنات تعود إلى العصر الحجري الحديث. وجرت في ذلك الزمان كميات من الماء إلى بحر الربع الخالي مكونة ساحل ما كان يعرف ذات يوم بالإمارات المتصالحة ، وهي اليوم الإمارات العربية المتحدة.

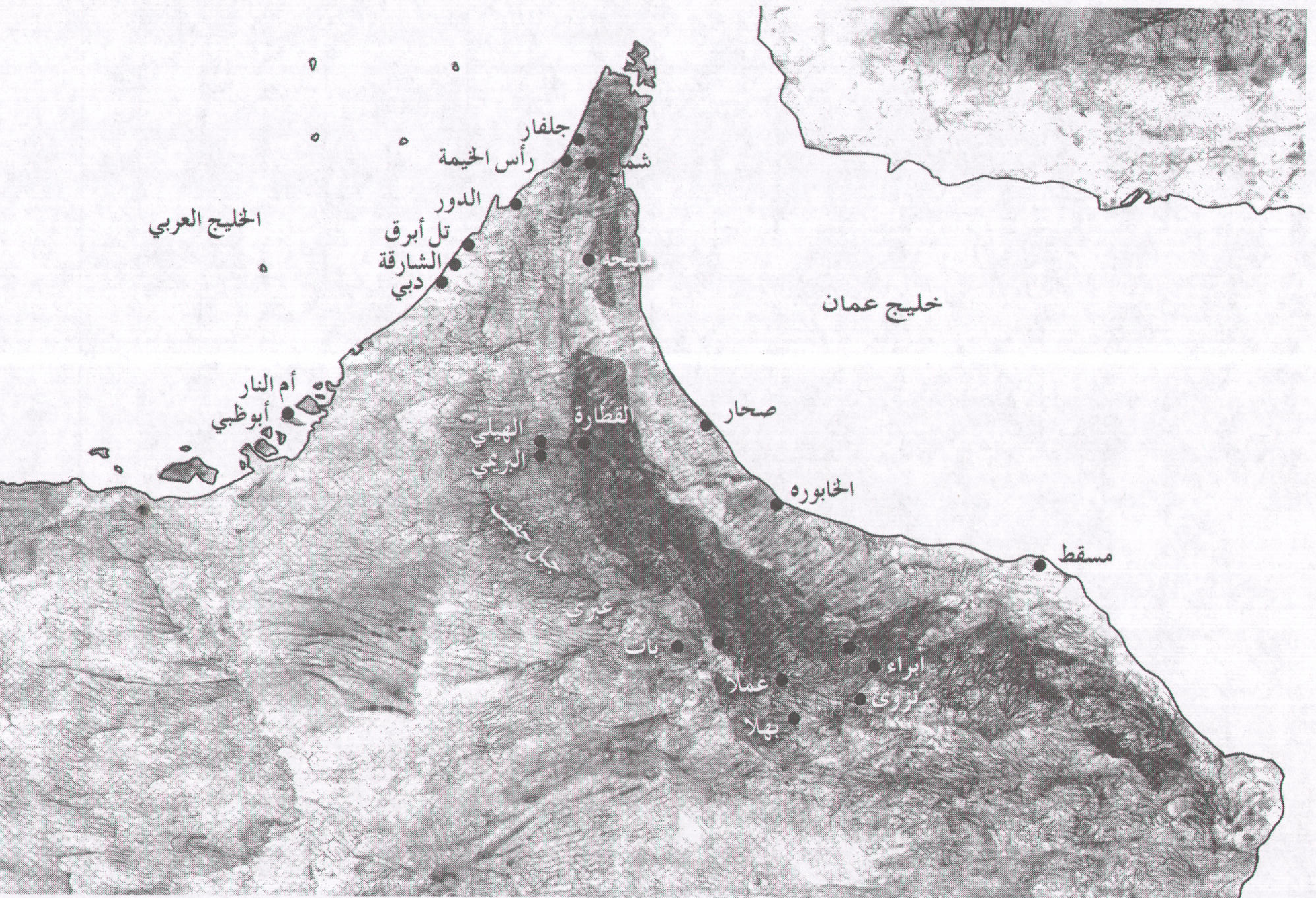
لا بد للسفن المبحرة جنوبا من الخليج من المرور في مضيق هرمز وخارجا إلى خليج عمان وبداية بحر العرب . وأول مياه المحيط التي يواجهها البحارة في الطريق إلى شبه القارة الهندية. وكان للتيارات والرياح السائدة في هذه المنطقة أثرها الكبير في تطور التاريخ العماني، إذ جذبت سفنها شرقا إلى الهند وما وراءها، وغربا إلى ساحل إفريقيا الشرقي.

وهكذا كان لساحل عُمان الطويل تأثير عميق في مسيرتها التاريخية، وكان شعبها على الدوام بحارة نشيطين وشجعاناً ، ربما من أقدم الأزمنة. والسفن العمانية متميزة، كما أن بحارتها في طليعة بحارة المسلمين ، وتنتشر شهرتهم في أرجاء العالم جميعها من عهد الإمبراطورية* العربية. ولقد فتح البحارة العمانيون الطرق البحرية إلى الصين والشرق ، وكانت مدنها في أوج الخلافة العربية تحسب بين أكثر المدن سكانا وروعة في بلاد الإسلام، وهذا كان يعني فعليا في ذلك الزمان ،العالم أجمع.

وتختلف عُمان عن الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية من حيث تنوع المناخ والبيئة الحيوانية دائمة التغير التي تتمتع بها. وقسم كبير من البلاد صحراء، موطن الرحل رعاة الجمال، وأودية الجبال وشرفاتها ، لكن بعضها خصب وينتج أنواعا من الفواكه والمحاصيل المستحيل زراعتها في

---

* لم تكن الدولة العربية إمبراطورية بل خلافة إسلامية . (العبودي)



الخريطة الرابعة : مواقع أثرية في الإمارات العربية المتحدة وشمال سلطنة عُمان

أجزاء أخرى في وسط الجزيرة العربية، بينما في الجنوب البعيد – حيث تلال ظفار الخضراء المتموجة ، موطن مربي الماشية العرب الوحيدين*– توجد القبائل القديمة التي لا تزال تتكلم بلغات غير عربية في محيطها الأسري. ويمسك جنوب البلاد بأهداب الرياح الموسمية التي تبعث أمطارها الأمل في الزراعة المكثفة في البلاد التي تلامسها. و عُمان فريدة في هذا الجانب، حيث إنها الجزء الوحيد في شبه الجزيرة الواقع تحت طائلة الرياح الموسمية.

يبدو أن عمان ،حتى في وقت مبكر بحدود أواخر الألف الثالث ق.م ، كانت على صلة بمراكز أخرى من منطقة الخليج والدليل على هذه الدرجة من الاتصالات بعيدة المدى الفخار الموجود في عدة مواقع في السلطنة، والذي يبين صلات مع أم النار شمالا وكولي (Kulli) عبر الخليج في بلوشستان ،ومع غرب إيران ، وأخيراً مع مستويات باربار في البحرين. وحتى الآن لم يفرز أي موقع خليجي آخر مواداً قابلة للمقارنة ليفسر وجود شبكة بهذا الاتساع من الاتصالات يوحي بها هذا الفخار، نعمت بها عُمان في أوقات قديمة كتلك. وكانت التجارة بوجه خاص السبب في هذا التركيز الجلي في الاتصالات الأجنبية، وفي حالة عُمان ، بنيت التجارة على بحث القدماء عن الحجارة المتينة للبناء والمقابر ، وعن مصادر أحد أهم العناصر في اقتصادياتها ، وهوالنحاس.

وردد في النقوش القديمة المبكرة المتعلقة بالتجارة ونقل البضائع عبارة " قارب مجان " . والقضية ذات صلة بأسطورة إنكي ونظام العالم الذي يعلن فيه الإله أنه "أرسى قارب دلمون إلى الأرض محملا، وحمل قارب مجان إلى السماء" .و يجب اعتبار هذا الأمر على أنه إظهار للرخاء الاستثنائي الذي جلبه إنكي لكلا المكانين، كما تشهد على ذلك الشحنات الثقيلة التي تحملها سفنها ، كما يمكن أيضاً أن تشير إلى نوع القارب الذي كان مستخدما في

---

* لا يخفى على القارئ :خطأ ما ذهب إليه المؤلف من حصر تربية الماشية عند العرب بأهل منطقة ظفار فقط وكأن بقية العرب لم يعرفوا ذلك ولو اطلع المؤلف على سبيل المثال لا الحصر على نقش صرواح السبئي الذي يعود تاريخه للقرن السادس ق.م .وماورد فيه من ذكر لآلآف الماشية لما قال ما قال .(د.السقاف) .

النقل من مجان والأسواق التي كانت تتعامل معها، وكذلك دلمون والبحرين، وربما المدن الهندية، وربما سومر ذاتها. وعلى ضوء تاريخ عمان اللاحق من الانهماك في البحر والبحرية، يعتقد أن (المجانيين) كانوا بحارة مشهورين، وأن الإشارة إليهم في محتوى كهذا من شأنه أن ينتج الدرجة ذاتها من التمييز التي يمكن توقعها من إشارة مماثلة إلى الأراضي التي هي أكثر شهرة من دلمون وسفنها الشراعية. ويمكن أيضاً أن يكون "قارب مجان" شيئا ما مثل " ما كان يعنيه قارب الصين" المشارك في تجارة الشرق الأقصى.

ويمكن طبعا أن يكون المقصود نوعاً معيناً من القوارب، ولقد أنتجت عُمان نوعاً واحداً من القوارب على الأقل يمكن أن يكون غريبا عليها ذاتها في القدم، وهو" القارب المخيط "أي المخيطة ألواحه معا بدون استخدام المسامير، والمستخدم على نطاق واسع في المياه العمانية حتى هذا اليوم. وسيتطلب هذا التوضيح أيضاً أن يمثل قارب دلمون المشار إليه في النص ذاته نوعاً محددا. ولا يوجد أي دليل على ذلك، مع أن الرسوم التي على الأختام تظهر أنواعا من القوارب المستخدمة والتي يمكن أن يكون قد نشأ منها العديد في إطار تجارة الخليج.

ولعل الذي جذب التجار والبحارة إلى عمان في عصر فجر الأسر الحاكمة وما بعده الطلب على النحاس المتوفر بكميات صناعية ويستخرج بسهولة نسبيا. ويعتقد أن الإشارات في النصوص القديمة إلى " جبل النحاس" كانت تشير إلى ماجان حيث إن عُمان مخلدة لدى زوارها الأوائل بسبب الجبال العالية التي تشكل ميزة طاغية إلى هذا الحد من المنظر الأرضي في النصف الشمالي من البلاد حيث توجد ترسبات النحاس. وهذا الافتراض أقل رسوخا الآن في آراء معظم العلماء، لكن ليس هنالك من شك في أن عُمان كانت مصدرا هاما للنحاس في القديم .والمناطق التي استخرج منها لا تزال مرئية كما هو الحال بالنسبة لأكوام الخبث الباقية من عمليات الصهر التي يتضح أنها كانت تتم بالقرب من مصدر الإمداد. ولحقيقة أن النحاس العماني يحتوي على تركيز عال نسبياً من الزرنيخ(الموجود أيضاً في مشغولات بلاد ما بين النهرين من النحاس) ، لها مغزاها ولكنه لا



٨-١٦ أعمال فنية نحاسية قديمة من أودية شمال عُمان (روجر وود)

يمكن اعتبار ذلك برهانا قاطعا على توريد عُمان لنوعيات محددة من النحاس لسومر إلى حين الوصول بتقنيات التحليل إلى أبعد مما هي عليه.

و في مناطق منظومة وادي الجزي في شمال عمان الغنية بالنحاس مسابك وورش واسعة، تم العمل فيها منذ الألف الثالث ق. م. والمشاغل السطحية التي ترى اليوم يعود تاريخها إلى الأزمنة الإسلامية حين كانت عمان متطورة كمصدر هام (شكل ٨-١٦). ويوجد بالإضافة لذلك ، مشاغل واسعة من الألف الثالث في وادي عَنْدام ،ووادي إبراء. ويبدو أن الجماعات التي وجدت هناك كانت تعتمد على استغلال مصادر النحاس. وقد سبقت الإشارة إلى الدمار الذي أحدثه الصهر على هذا النطاق في الغابات، وبخاصة على أشجار السَّنط التي كانت تنمو نموا واسعا على سفوح جبال عمان، (انظر الفصل الثاني).

ولا يعرف شيء دقيق جداً عن الآلية الفعلية لتجارة الألف الثالث ق.م في النحاس في منطقة

الخليج. ولا كيف كان التنقيب عن النحاس يتم ، سواء أكان بوساطة العبيد أم الأحرار، ولا عن طبيعة الأنظمة السياسية والتجارية العمانية في ذلك الحين، ولا نعرف فيما إذا أقيمت مستعمرات من التجار السومريين في عُمان على غرار مواقع متقدمة أخرى في ثقافتهم، أو فيما إذا كان التجار العمانيون أنفسهم قد سافروا في الخليج إلى دلمون وسومر.

ولا يعرف حالياً سوى اسم ملك واحد فقط من ملوك ماجان، و هو« مانيوم »الذي يشتهر فقط بأنه هزم نارام–سن ، حفيد ووريث سرجون الأكادي العظيم. ولقد ظل يخلط أحيانا بين مانيوم، ومينا الموحد المزعوم للمملكتين المصريتين لكن مينا عاش قبل ألف عام من مانيوم. وكان نارام–سن قد واجه ثورة عامة في إمبراطوريته حين تولى السلطة. وعلى ما يبدوواضحا كانت تجارة النحاس تستحق شن حملة كبيرة، وإقامة خطوط إمداد موسعة توسيعا عظيماً، من أكاد إلى خليج ماجان. ولكن يبدو أنه قد انتصر وسجل انتصاره على أغراض متعددة وقفها لآلهته امتنانا.

وعثر في البحرين بعيداً عن الشاطئ من موقع قلعة البحرين ، على قطع نحاس وبقايا سبائك كاملة توحي بأن الخام قد استورد إلى البحرين وصهر في سبائك قبل إرساله إلى سومر. وفي مشاغل المدن الصغيرة تحول إلى أدوات وآنية تجار وأسلحة وتماثيل وقرابين للآلهة ، وترصيع وزينة أثاث– وآلاف الاستخدامات الأخرى المختلفة لمعدن ساعد على تحويل جماعات العصر الحجري الحديث إلى سكان مدن متحضرين في الألف الثاني ق.م وما بعده. وبالمزج مع القصدير يتحول النحاس إلى برونز ذي حافة أقسى، إيذاناً بعصر جديدفي تطور الألف الثاني والثالث ، هوالعصر البرونزي في التسمية التي أطلقها علماء الآثار في القرن العشرين.

وفي وقت مبكر من الألف الثالث، وفي بداية ازدهار مدن ما بين النهرين كانت عمان مزدهرة أيضاً تضم سكانا من حجم معتبر، عاش بعضهم في مدن حصينة ذات تطور معماري وشخصية متميزة عن المراكز المدنية الأخرى في الخليج في الألف الثالث ق.م.

وبالفعل، فإن بعض أقدم المواد في منطقة الخليج، عدا العبيد،تأتي من هذه المدن العمانية القديمة. ولقد تم تعرّف أفق «جمدت نصر» من مواقع مثل جبل حفيت، وعبري،وبات،وهو بالتالي أقدم من أية مستوطنات معروفة في البحرين أو شرق الجزيرة العربية ،عدا تلك المتصلة بالعبيد على الساحل. والعبيد غير معروفة في عمان مع أنها موجودة على ساحل ما يسمى الآن الإمارات العربية المتحدة.

ومن بين أبرز الظواهر في عمان، وشاهد آخر على طول عمر الصيغ المعمارية في تلك الأنحاء ، أبراج المراقبة التي تم تعرفها في بعض هذه المواقع القديمة. وكانت على أكثر احتمال مراكز مراقبة تحمي المستوطنات الصغيرة ضد الغزاة. ويبدو أنها كانت تحتوي على آبار الماء التي يفترض أنها قامت على حمايتها ، وأنها وفرت الحماية للقرويين في حالة الهجوم. وأكثرها شهرة في عبري وبات، كما أن هناك أمثلة في الإمارات العربية المتحدة في هيلي يرجع تاريخها إلى نحو ٣٠٠٠ ق .م . وهذه الأبراج هي الأصل المباشر للبرج القائم في



٨-١٧ البرج الحصين المستدير في نزوى قبل التطور الحديث للمدينة

نزوى،و الذي بني في القرن الثامن عشر بالتصميم الذي هو عليه الآن وبذلك فإن لها أصلاً لا يقل عن ٥٠٠٠عام (شكل ٨-١٧)

وخلافا لذلك جاءت قطع فخار غير مسبوقة لكنها قديمة جداً من حفريات غير مسجلة لقبر في شمال عمان. وهذه القطع مستمدة من إناء مزود بصنبور، وهومن الفخار الأحمر الخشن المطلي باللون الأسود، وهو مهم بسببزينته التي توحي بصلات مع أراض أخرى ، وخاصة إيران ، ربما في وقت متأخر بحدود الألف الرابع ق.م.

وللزينة التي على القطعة أهمية خاصة ،حيث إنها تبين مجموعة من الراقصين يدا بيد،على منظر أرضي تسوده ثلاثة مثلثات تبدو كأنها أهرامات ،وهي بالتأكيد ليست كذلك.ولعل المقصود في الحقيقة أنها تمثل جبالا ، ربما سلسلة الجبال العمانية الوسطى العظيمة ، (الجبل الأخضر) . والملاحظ أن في ذلك الرمز من الراقصين متشابكي الأيدي يظهر في عيلام، ومصر، والأزمنة السابقة على عصر الأسر الحاكمة بينما العنصران من راقصين وجبال متحدة تكررا في الفخار المصري المتأخر من عهد الأسر.

وتتضح السمة المميزة في الشخصية العمانية في القدم أبعد من ذلك في العمارة الجنائزية لسكانها القدامى. وتشترك عُمان في الممارسة واسعة الانتشار في بناء روابي القبور، لكن قبورها مختلفة عن تلك التي في البحرين والعربية السعودية على سبيل المثال. وإحدى المجموعات شبيهة بتلك المعروفة في أم النار في أبوظبي، لكن مثال أبوظبي لا بد من اعتباره من النوع العماني الذي بلغ حتى الساحل الشمالي، كما أن هناك شكاً قليلاً بأن صيغة قبور أم النار عمانية الأصل، حيث أن النموذج نفسه موجود في أرجاء شمال عمان جميعها موزعا على منطقة عريضة.

توجد عدة أمثلة لهذه القبور الضخمة الشبيهة بخلية النحل ،والمبنية عامة على سطح الأرض، وأحيانا فرادى ولكن في أغلب الأحيان في مجموعات، كما أن تجمعها مشهور في الصيغة الشبيهة بخلية النحل الموجودة في بات(شكل ٨-١٨)، وكل واحد من تلك



٨-١٨ قبور عمانية من أواسط الألف الثالث قبل الميلاد إلى أواخره (روجر وود)



٨-١٩ ثلاثة أكوام
حجرية على جرف في شمال
عُمان، من الصوان المحلي.

القبور مكان دفن جماعي لعشيرة أو مجموعة أسر، وكان مستخدما لفترة طويلة من الزمن يمثل عمليات دفن من عدة أجيال،وهي بحد ذاتها صروح تشهد على ازدهار عمان في أوائل الألف الثالث ق.م، إذ حتى كقبور جماعية لا بد وأنها قد تطلبت قدراً هائلاً من المواد والجهد (شكل ٨-١٩).

وكانت القبور صروحاً بارزة بصورة جديرة بالملاحظة ،حيث إنها كانت مغلفة بطابوق من الحجر الأبيض المشكل بمهارة ،ومركب على محيط شكلها الشبيه بخلية النحل. وحتى



٨-٢٠ قبر من طراز قبور أم النارمبني بإتقان، استخرج في بات بالقرب من عبري، ويعود تاريخه إلي الألف الثالث قبل الميلاد

الآن لم يعثر على أي منها سليما ،إذ تعرضت للنهب منذ القدم .

النوع الثاني من القبور في هذه الفترة مميز جداً، فهو عبارة عن رجم من الحجارة بارتفاع ستة أمتار أو يزيد . وتوجد هذه القبور على قمم التلال وبنيت كما هو واضح بقصد متعمد لإقامتها مقابل خط الأفق وربما بقصد تزويد سكانها بمنظر سار (شكل ٨–٢٠) ،وفي هذا الأمر تعيد إلى الأذهان " بيوت ملايين السنين"المصرية .

ويمكن الافتراض أن كلا هذين النوعين من القبور كانا قبور الأكثر يسرا من بين مواطني عُمان القديمة. ويمكن من الكمية استنتاج أن تعداد سكان شمال عمان في الألف الثالث وأوائل الألف الثاني ق.م. كان يقدر بآلاف السكان. ويمكن الافتراض أن الفقراء لم يدفنوا في هذه القبور بل كانوا يدفنون ببساطة في الصحراء التي تستوعب كل شيء دائماً.

ولكن كان هناك نشاط جماعي أقدم في عُمان ترك آثاره في السجل الأثري. فقد عثر في رأس الحمراء ليس بعيداً عن العاصمة مسقط بالقرب من القرم، على دليل على جماعات صيد سمك قديمة جداً. وعلى أقنان الجبال المتعددة التي تميز الخط الساحلي في عُمان عُثِرَ على مدافن صيادي سمك يعود تاريخها إلى الألف السادس ق.م.

وكانت الأوضاع في ذلك الوقت من الزمان بدائية جداً ، وكان لا بد للجماعات أن تبدي مظهرا متوحشا بصورة جلية ، ومع ذلك فإن القبور كلهاجيدة التشكيل وأضجع ساكنوها بشيء من الطقوس. ولقد عثر على أدوات زينة وأسلحة إلى جانب قرابين من الحيوانات (بصفة خاصة اليمام).

ولقد انتعشت جماعات رأس الحمراء قبل اختراع الفخار حيث إنهم استمروا في صيد السمك في المياه العمانية حتى نهاية الألف الرابع ق.م ، والذي لا بد وأنه كان شحيحا بالفعل. وكذلك فقد عثر على الساحل إلى الجنوب من مسقط على آثار توحي بوجود رحالة هارابا، أو على الأقل من قوم كانوا على قدر كاف من الصلة بشعب وادي السند كي

يكونوا قد حصلوا على فخارهم.

بالاشتراك مع ما يبدو وأنه كان الوضع السائد في باقي أجزاء الخليج يبدو أن عُمان قد تعرضت لاضمحلال في النشاط، وكذا في الشواهد الأثرية الدالّة على وجود الجماعات الكبيرة المزدهرة بعد بداية الألف الثاني ق.م، وقد أجمل السبب المحتمل لهذه الظاهرة آنفا.

ولا ينبغي الاعتقاد بأن بلدا بهذا الاتساع، ويتمتع بالماء والأرض الخصبة ، قد هجر كليا. فهذا من غير المحتمل أبدا ،ولكن الظروف الاقتصادية المتغيرة في الخليج لم تتحمل إعاشة جماعات سكانية مدنية كبيرة. وفي حالة مدن الخليج العليا ، نجد أن تلك التي في البحرين والبرية الرئيسة لم تهاجر فعليا إلا أن تعداد سكانها قد هبط إلى مستوى منخفض يمثل ربما ما يعادل قوة احتلال واستيطان دائم مع قوة عسكرية مؤقتة ترابط هناك كحامية. والوضع عموما مبهم، ففي عُمان من المحتمل أن يكون السكان قد ارتدوا إلى علاقة أوثق بالأرض والعيش في قرى،أوحتى في جماعات متنقلة تركت خلفها بعض الآثار الممكن تعرفها. ومن المؤمل أن التنقيب الأكثر كثافة سوف يكشف عما يمكن أن يوجد من أدلة على الاستيطان السكاني في معظم الألف الثاني وكثير من الأول. لكن حتى الآن لا يوجد إلا القليل مما يستند عليه.

وإنه لأمر له مغزاه أن لا يكون لدى مستشاري الإسكندر الأكبر على ما هو واضح أي معرفة بعمان وهو يسعى للحصول على معلومات عن شعوب الجزيرة العربية حين فكر في فتحها في أواخر شهور حياته. فعلى الرغم من أنه تكبد المصاعب الرهيبة للزحف عبر الصحراء الجدروسية (Gedrosian) في الساحل المقابل لعمان ، فإنه لم يعرف ما كانت عليه الأوضاع على الشاطئ الغربي. وهذا يوحي بقوة أنه بعد ازدهارها السابق فإن تدهور النشاط التجاري في الخليج قد آل إلى بداية بربرية في جنوب شرق الجزيرة العربية، والمدن التي كانت قد نمت (لخدمة أولئك الذين بحثوا عن النحاس العماني) سقطت في بحر التلف والنسيان، وإن بدأت بالخروج منه الآن فقط.

عاد الازدهار مرة أخرى إلى عمان* حين برز أقصى جنوب البلاد، المنطقة المسماة ظفار اليوم، كأحد المصادر الرئيسة لتوريد العطور والتوابل ، وبصفة خاصة البخور. وكانت قد أرسلت حملات من مصر على الأقل في وقت مبكر بحدود الألف الثالث ق.م بحثا عن البخور. وأبحرت مثل هذه الحملات عبر البحر الأحمر إلى أراضي بونت (Punt) والتي كان يطلق عليها أحيانا أرض الله في النقوش المصرية التي تدون تلك الرحلات. وكان المصريون يحرقون كميات كبيرة من العطور في احتفالاتهم الدينية والرسمية. وتبين فجوة مشهورة في معبد حيشوش أو(حتشبسوت) الجنائزي في الدير البحري حملة متجهة إلى بونت، عادت لاحقا بملكة بونت قصيرة القامة ممتلئة الردفين زائرة رسمية، وإن كانت بتقاطيع غير مقبولة ، إلى ملكة مصر نظيرتها في الهيبة والجلال ،وإن كانت بكل جلاء أكثر جمالا.

كان افتقار بلاد ما بين النهرين النسبي الواضح إلى الاهتمام بالبخور يعني أن مصادر الإمداد في جنوب شرق الجزيرة العربية لم تستغل من قبل قوى بلاد ما بين النهرين. وحتى الآن لا يوجد دليل على أن المصريين ذهبوا بأنفسهم إلى هناك. ومن الممكن أنهم حصلوا على إمداداتهم من وسطاء ، حيث إن المصريين أنفسهم لا يبدو عليهم أنهم احترموا حرفة التجارة ؛ ولكن تنامي القوى الأوروبية مثل اليونان ومن بعدها روما ، واللتين برزتا في أواخر الألف الأول ق.م ، جلبت معها زيادة هائلة في الطلب وبالتالي الحاجة إلى العثور على مصادر إمداد دائمة ويمكن الاعتماد عليها.

وكانت اليونان، وروما، وممالك ما بعد الإسكندر تستهلك كميات هائلة من البخور. وكانت محاريب الآلهة جميعها مكللة به على الدوام. و اعتاد الأباطرة وهيئات المدينة على

---

* لابد من الإشارة هنا إلى أن ظفار آنذاك كانت جزءاً من مملكة حضر موت التي اشتهرت عند اليونان والرومان بأنها أرض البخور وقد دلت التقيبات الأثرية في خور روري وما عثر عليه من النقوش الحضرمية وماورد في المصادرالإغريقية والرومانية مثل كتاب « دليل البحر الإريثري» على أن ظفار كانت تابعةلملكة حضرموت في ذلك الوقت .(د.السقاف) .

حد سواء السعي إلى تكريم آلهتهم المختارة باستهلاك المزيد من العبير الثمين. وهكذا فإن الإسكندر ذاته في حياته الخاصة مشهور بورعه وخدمته للآلهة،و لم يكن مقترا في طاعتها. وحين كان أميرا شابا عوتب على إهداره البخور من قبل معلمه الأول ، واحتفظ بالذكرى في عقله، وحين فتح العالم أرسل إليه كمية كبيرة من البخور لا تقدر بثمن محذرا إياه بأن لا يكون شحيحا في تكريمه للآلهة.

وأضاف مذهب الرفاهية في روما ،وفي عالم ما بعد الإسكندر المزيد من الطلب على العطور العربية. ومن خلال استخدامها كعطور ومراهم، استطاع المواطنون الأثرياء الذين يتوقع أن تكون أنوفهم حساسة، جعل الحياة مقبولة ومحتملة في مدينة مكتظة كريهة الرائحة مثل روما.

كل هذا كان يعني ازدهارا لا مثيل له بالنسبة للجزيرة العربية ، أكثر مصادر العطور ضمانا وأيسرها بلوغا، لتلبية هذه العادات والمعتقدات. وسرعان ما نمت الممالك في جنوب الجزيرة التي كان مبرر وجودها الوحيد زراعة وتسويق وتوزيع البخور*. وبدأت القوافل المعتمدة على الجمال التي أثبتت وجودها الآن لأول مرة (وإن كانت قد أدخلت إلى الصحراء حوالي الألف الرابع ق .م حتى وإن لم تكن مدجنة) بالتحرك مع خطي العرض في الجزيرة العربية بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر، وشواطئ الخليج.

وعند نقاط بمحاذاة الطريق كانت تجبى المكوس على قوافل الجمال. وأدى توفير الطعام والخدمات لسيد القافلة ورجاله إلى نشوء جماعات دائمة عاشت بصورة قطعية واستثنائية في الغالب على هذه التجارة . وتطورت محطات تلك القوافل إلى مدن تجارية عظيمة في الجزيرة العربية ، وتلك التي في الغرب مثل مكة كانت لاحقا ستمارس دورا هائلاً في تاريخ

---

* لا يعزى وجود ممالك اليمن القديم وازدهارها لمجرد نشاطها في تجارة البخور بل إلى نشاط زراعي متطور قائم على التحكم في مصادر المياه من خلال إقامة السدود ،كسدّ مأرب الشهير ،وشق القنوات واستصلاح الأراضي فنشأت من جراء ذلك مجتمعات مستقرة قطعت في مسيرة الحضارة ،ومنذ وقت مبكر،شأواً بعيداً.(د. السقاف) .

العالم حين شهدت مولد الإسلام في القرن السابع الميلادي.

وسرعان ما دخلت ثروات الجزيرة العربية في الأساطير الأوروبية بحيث لا تنسى كلية أبدا. وأحصت كتب مثل " الجزيرة العربية المحظوظة" و" الجزيرة العربية السعيدة" ثرواتها من الراتنجات* التي تستمد من الأشجار والتي يمكن أن يقال بصدق إن ثرواتهم نمت على أغصانها. ومع تداول شائعات ثروات الجزيرة العربية غير المحدودة في الدوائر السياسية في العالم (يغذيها بلا شك الحلل الفاخرة والحاشية الثرية لأمرائها وتجارها الذين أخذوا يصبحون شخصيات مألوفة في مدن المتوسط) بدأت طموحات الأوروبيين،خاصة أولئك الذين في الجمهورية الرومانية وإمبراطوريتها الخليفة في التركيز على الجزيرة العربية بهدف



٨-٢١ نحت على الصخر في عمان

---

* راتنجات مادة صمغية تسيل من غالبية الأشجار عند قطعها أو جرصها، ويمكن أن تصنع كيمائيا لأغراض صناعية (العبودي)

السيطرة على ممالكها، إن لم يكن إخضاعها ،حيث بدت أنها قد احتوت على الكثير من ثروة العالم. والمقارنة الموازية بظروف الحاضر لا تقاوم، ففي ذلك العصر كما هوالحال اليوم، بنيت ثروة الجزيرة العربية أساساً على اقتصاد السلعة الواحدة ، السلعة التي كانت فريدة في مقدارها وسهولة بلوغها. وفي ذلك الزمان كما في هذا الزمان ، كانت مصادر الجزيرة العربية محط حسد العالم وهدفا للاستحواذ من جانب القوى ، واستمتعت عمان بثروة عظيمة ، وكانت مدن في ظفار،مثل سمهرم Sumharam (خور روري) واسعة الحجم والثراء*.

هناك آثار من الماضي البعيد تظهر ثراء عمان الفريد – ألا هي منحوتات الصخور، هو أيضاً ثراء مختلف يميزها عن جاراتها الخليجيات، إذ إن شرق الجزيرة العربية عموما لديه القليل من ممارسة النحت على الصخر وإن كان أمرا موجودا في شمال وغرب الجزيرة العربية من أقدم أزمنة العصر الحجري الحديث (شكل ٨–٢١)

وتوزيع النحت على الصخور في الجزيرة العربية وما وراءها مثير للاهتمام والإيحاء . وعُمان أوضح مثال لتلك الظاهرة . أما في الغرب فقد سرى إلى الصحراء الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية وإلى المناطق الساحلية للبحر الأحمر،مخترقاً في بعض الأحيان إلى بعد كبير في الداخل . ويظهر بكميات كبيرة في أنظمة الأودية في الصحراء المصرية الشرقية. وتوجد رسومات على الصخور في أشكال مختلفة إلى أبعد من ذلك غربا في الصحراء شرقي إيران. ويبدو أن بعض المواضيع مشتركة بين عدة مناطق، وإن فصل بينها مسافات بعيدة عظيمة.

---

* لاشك أن مملكة حضر موت آنذاك كانت تعتمد بصورة أساسية على منطقة ظفار في إنتاج البخور لكنها لم تكن أي ظفار المنطقة الوحيدة التي تنمو فيها أشجار البخور واللبان بل شملت مناطق نموه السهول والوديان الجنوبية لمنطقة المهرة وسفوح المرتفعات الجنوبية لوادي حضر موت مثل كورسيبان ومنطقة وادي حجر بالإضافة إلى جزيرة سقطرى .كما دلت المصادر اليونانية على إنتاج اللبان والمرّ في بلاد قتبان وأوسان بمنطقة الوسر من وادي مرخة وفي حبان مثل جبل كدور وشعب ينبق(د. السقاف) .

ولقد جرب وينكلر، أول من حاول تحليل منحوتات الصخور تحليلا علميا مستخدماً تلك التي في وادي الحمامات بمصر، إِعمال التسلسل التاريخي على الرسومات التي فحصها. وتبعه في ذلك أناتي الذي نشر العديد من الأمثلة من مخزون جنوب غربي الجزيرة العربية ، وكلاهما اعتقد أن بمقدوره اكتشاف أساليب متعددة من الرسومات التي من خلال الدليل الداخلي للملابس، والأسلحة، والسلوك موضوع النقش، إلى جانب تكرار عناصر الكتابة التصويرية المألوفة من مضامين أخرى جعلت نسبة تدريج زمني لها ممكناً. وأي محاولة مثل هذه لتطبيق التسلسل الزمني كانت بالضرورة تعميمية على نطاق واسع ،واعتمدت كثيراً على تكوين تواليات أساليب مجموعات الرسومات المختلفة.



٨-٢٢ النقوش الغامضة على واجهة صخرة كولمان (الدكتور باولو كوستا)

و محاولة تحديد تاريخ النحت على الصخور محاولة محفوفة بالصعوبة،و يمكن أن يتيح اللوح القابل، شرط تفسيره تفسيرا صحيحا، إجراء الفرضية بأن الرسم المسقط فوق رسم آخر احدث من الرسم الذي يترادف عليه. كما أن غشاء العتق في الصخرة التي يقع عليها الرسمان اعتبر ذات يوم أنه مؤشر موثوق على العمر، لكنه غير موثوق به حيث إن الرياح السائدة التي تواصل تغيير سطح الصخرة بذرات الرمال تبني أكثر أغشية العتق إقناعا بقدم العهد، وبسرعة نسبية.

والمشكلة في عمان معقدة أكثر من ذلك من خلال حقيقة أن شعوب الصحراء قدواصلوا النحت على الصخور حتى سنوات حديثة جداً ،وهكذا أظهرت إحدى الحالات تكرار رسم لزوجين متعانقين والمعروف من قبور هيلي من الألف الثالث ق. م كما ظهرت الصورة المكررة أنها ذات تاريخ حديث جداً. وهذا هو الحال بالنسبة للمواضيع المتكررة في الفن الشعبي في أرجاء العالم جميعها.

وتظهر الوحوش العظيمة ذات القرون مرارا في هذه الرسومات. كما رسمت القطط والأسود الجبلية، وربما النمور، وكلها استوطنت عُمان في الماضي. وفي أحد المشاهد الدرامية صورت قطة ضخمة وهي تلتهم رجلا صغيرا. وتبدومنحوتة جميلة تبين محاربا بخوذة عالية التاج ،أوريشة على رأسه مشابهة كثيراً للأسلوب المعروف في إيران. وإحدى أكثر المجموعات جدارة بالملاحظة،و التي توجد في عُمان هي الموجودة على صخرة كولمان في مناطق الداخل جنوب جبل عبري (شكل ٨-٢٢)، ومنحوت على هذه الصخرة بمهارة أربعة أشكال عظيمة أكبرها يزيد طوله عن المترين. وأحد الأشخاص، وهوالشخص المركزي في المجموعة المكونة من ثلاثة يرتدي قلنسوة مبسطة ،وله ملامح قوقازية واضحة، ويقف إلى جانبه شخص ضخم زنجي الملامح.

وهذه المجموعة المحيرة من الرسومات غير مسبوقة ،كما هو الحال في أسلوب عرضها أيضاً، فنحوت التجويف الدقيقة لم تكن من بين التقنيات المعتادة لفناني الصخور في عُمان أوأي مكان آخر في الجزيرة العربية عدا هيلي. ومن المفهوم أن الشخوص التي على

صخرة كولمان يمكن أن تحمل علاقة مع نحوت هيلي ، مع أنه من الصعب أن نكون أكثر تحديدا في هذه المرحلة.

يظهر الحصان في عدد من النحوت، بما في ذلك مشاهد الصراع الحماسية، حيث يشهر المحاربون سيوفهم الصغيرة على الدوام. وهذه ترتبط في بعض الأحيان بنقوش من عصر ما قبل الإسلام بالخط العربي الجنوبي مما يسمح بتحديد تاريخها التقريبي بالقرن الأول الميلادي. وكما يمكن أن يتوقع ،فإن الحصان وقد وصل متأخرا قليلا إلى هذا الجزء من الجزيرة العربية .ويكثر تمثيل الإبل من نحو ٢٠٠٠ عام خلت حين أصبحت هذه جزءً مألوفا من الاقتصاد.

ومواقع النحوت ملحوظة جداً وبصورة متكررة، وطبيعي أن يوجد العديد منها في الملاجئ الصخرية تحت سقوف صخرية، وفي أماكن يسهل بلوغها عموما. وبعضها منحوت في أماكن عالية على واجهة جرف الوادي مما يثير التخمين حول الكيفية التي عمل بها الفنان في مواضع على هذا القدر من الصعوبة، ويعيد إلى الأذهان الصعوبات التي فرضتها على الفنانين بعض الأماكن المتعذر بلوغها،التي اختارها فنانو الكهوف في الأزمنة الحجرية القديمة١٠,٠٠٠ سنة أو يزيد قبل المثال العماني.

ويحتمل أن تكون الآثار العمانية غنية جداً، فالمستوطنات فيها مستقرة منذ أمد بعيد، ويمكن أن تمسك بواحد أو اثنين من مفاتيح فهم أكبر لمنطقة الخليج في القدم. ولقد خمن بعض مؤرخي القسم الأول من هذا القرن أن السومريين أنفسهم نشأوا في عُمان ،ويوحي اهتمام شعوب بلاد ما بين النهرين بالجبال أن أصلهم من بلاد جبلية، وتبدوعُمان مكاناً مناسبا. ولا يوجد دليل حتى الآن يدعم هذه الفكرة،لكن قيل ما فيه الكفاية بشأن الأصول الجنوبية الممكنة للسومريين دون رفض تخمين معقول بشأن موطنهم الأصلي.

ومع ذلك لا بد من القول إن السومريين قد أدركوا منذ وقت قديم جداً أن عمان كانت

غنية بالنحاس فإذا كانت حقاً وطنهم أوقريبا منه،فإنهم بالتأكيد تذكروها من هذه الحقيقة وحدها . فبأي طريقة أخرى كان لهم أن يعرفوا بوجود النحاس هناك، على الأقل مع حلول نهاية الألف الرابع ق.م. ؟ولربما تجيب السنوات القادمة عن هذا السؤال كما أجابت السنوات الماضية عن الكثير من الأسئلة الأخرى.

كانت معظم المجتمعات التي عاشت على الجانب الغربي من الخليج معنية بشكل أو بآخر بتطور أو إدارة أو إمداد تجارة دلمون التي كان عنصرها الرئيس تنجيم النحاس وتحويله. وأخذت حينئذ الآلهة بالخفوت من هذه الرواية ليحل محلها في ذلك الوقت رجال الأعمال الدلمونيون والسومريون الذين يستغلون الأسواق العالمية، ويسعون إلى اتصالات جديدة على أمل كسب ألمينا* شريفة.

* وحدة وزن ونقد قديمة استخدمت في آسية الصغرى تعادل واحداً من ستين من التالنتون اليوناني القديم أو ما يساوي ما بين رطل أو رطلين إنكليزيين (د. السقاف) .

الفصل التاسع

تُجار دلمون

في عـهـد عظمـة سـومـر والازدهار الذي احـتـفظ به خلفـاؤها من الدول، دبت الحـيـاة بالاشتغال في المدن بالرغم من بلاط الموت للملوك أو نوابهم، وعدم استقرار النظام السياسي السائد، والتـهـديدات الدائمـة بالغـزو وإقلاق الراحـة. ولكن لأن السـومـريين كـانوا شعـبا متواضعا بسيطا فقد ساد حياتهم التركيز على العمليات البسيطة لكسب العيش. ولقد كـان حـافز الربح قويا في سومر، وكـان السعي وراءه أكثر مسرة ، وكـان لعب قوى السوق عزيزا أكثر بالنسبة لابن أور العادي،- على سبيل المثال- من السعي وراء خلود غير أكيد من خلال حاشية موتى أومظاهر ومخططات العظمة لدى الأمراء الصغار.

كانت معظم(المدن-الدول)القديمة في سومر تتركز بالقرب من التقاء النهرين العظيمين: دجلة والفرات اللذين اعـتـمـدت عليـهـمـا حـضـارة القـوم سـود الرأس .ولقـد كـان عليـهـم استكشاف البحر إلى الجنوب عبر الخليج إلى البحر المنخفض وخارجه إلى المحيط غير المحدود الذي اعتقدوا أنه يحيط بالعالم. وأصبح السومريون في وقت قصير جداً بحارة معتبرين ، فـهم يشكلون بالفعل أول أمة بحرية تجارية في تـاريخ العـالم، وكـانت القـوارب التي أبحـروا فيها لا تختلف كثيراً عن البوم الحالي والطرافة عالية المقدمة الخاصة بعرب المستنقعات.

والتجارة والأسطورة مختلطتان بحيث لا سبيل للفصل بينهما في تاريخ سومر. وتقف دلمون في وسطهـمـا ،تماماً كـمـا تشغل جزر البحـرين موقعـا مركـزيا ملائمـا بين بلاد ما بين النهرين ،وساحل الجزيرة العربية ،وعُمان ،مصدر نحاس وحجارة سومر، وأسواق الهند.

ولعدة قرون كانت دلمون البحرين المستودع الطبيعي ومركز التوزيع لإعادة تصدير المواد الخام الحيوية لاقتصاد سومر. ومثلهم مثل الفايكينج في عهد لاحق، كان أمراء سومر تجارا على مستوى عالٍ ، وتأتي معظم سجلات دلمون الجوهرية من الأنشطة التجارية للدويلات

الصغيرة ،خصوصا من مدينة أور.

التجارة

أصبحت التجارة ممكنة حين تعلم الإنسان استغلال الطبيعة والإنتاج بأكثر من حاجته الفورية. واستطاع تبادل الفائض الذي خلفه بهذه الوسيلة مع شعوب أخرى ،آخذا بدوره ما يفيض عن حاجاتهم.

نشأ تبادل المشغولات في وقت مبكر جداً من الإعجاب البسيط الذي لم يكن ليشبع بمجرد التسامر مع مالك الغرض محط الإعجاب .وتطورت تقنيات معقدة من التخزين والتوزيع وأعمال المصارف في نظام تبادل مبني على أسعار قائمة على القيم والسلع ، وأوجه النظام الاقتصادي المعقد كافة ، على مر الفترة من الألف الرابع وحتى منتصف الألف الثاني ق.م نتيجة تعرّف الحاجة والاستجابة المدروسة لها. وبدأ الجدل الحاد بين احتياجات الدولة وتلك التي تخص القطاع الخاص في الاقتصاد، و يمكن سماع التذمر حول مستويات الضرائب وتدخلات الحكومة المركزية في شؤون التجارة وقد غطى على صخب أقدم الأسواق.

وقامت مدن عظيمة وسقطت بسبب العوامل الاقتصادية والاستجابات السياسية المترتبة عليها. وفي نسبة هامة من الوثائق الباقية من بلاد ما بين النهرين سجلات تجارية من نوع ما أو آخر،وفواتير ومذكرات ،بل وحتى خطابات تتسم بالإلحاح من دائنين قلقين يسعون إلى سداد الدين.

وفي تجارة الشرق الأدنى القديم، وبالتأكيد في القرون الأولى ،كانت حضارة بلاد ما بين النهرين آخذة بتوسيع نفوذها وصلاتها . وكان للخليج ، وبصفة خاصة الجزر وعُمان دور في أكثر طرق التجارة حيوية عن طريق البحر في ذلك الزمان، تلك التي مرت جنوبا وشرقا من بلاد ما بين النهرين إلى الهند. وفي الوقت الذي كتبت فيه أسطورة جلجامش بشيء يشبه الصيغة التي وصلت إلينا بها، بنحو ألف سنة أوأكثر بعد رحلة جلجامش الفعلية المدونة إلى دلمون، كانت دلمون مستودعا مزدهرا وهاما ويحكمها ملوكها الذين كان ينظر إليهم في أرجاء

المنطقة جميعها على أنهم أمراء تجار أقوياء. ولم تعد دلمون ببساطة أرض الجنيات في الأسطورة السومرية، بل مكان السفن التجارية والمرافئ المكتظة ،ومخازنها مكدسة بثروات الدول التي وضعت على طرقها التجارية بهذا القدر من الاستراتيجية.

وكانت الطرق التجارية بعيدة القِدَم ومجربة جيدا ،سواءً تلك التي امتدت على البر،والطرق البحرية في وقت لاحق. وكان ينتشر على الطرق الرئيسة سلسلة من المراكز التجارية ، وكان أحد أكثر الادعاءات تكرارا للملك المصلح أن التجار تحت حكمه تنقلوا بأمان، وخاصة في المسافات الكبيرة ،يتزودون بالمؤن من خلال محطات القوافل على مراحل منتظمة ، ومحميين بعملاء إمبراطوريين على طول الطريق.

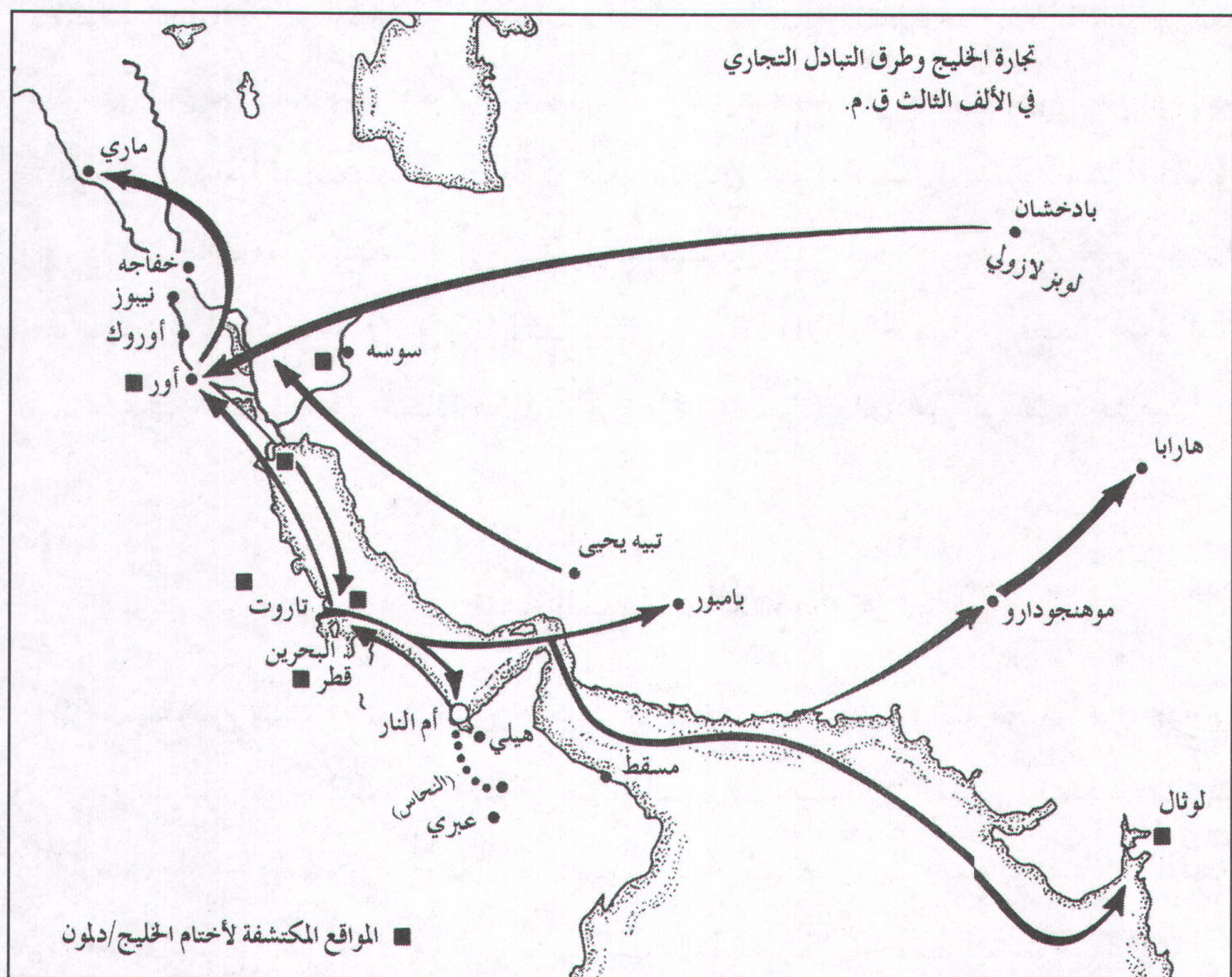
واتخذت آليات التجارة القديمة عدة أشكال مثلها مثل نظيرتها اليوم. وكان التجار في بعض الحالات، كما نعلم من الشواهد الوثائقية، يتخذون لهم قاعدة في الخارج بعيداً عن أوطانهم. وكانوا من هذه المراكز البعيدة، يحافظون على الاتصال بمقر قيادتهم، ويدبرون الشراء والتبادل أوتوزيع المنتجات مع المجتمعات التي أسسوا أنفسهم بين ظهرانيها. وارتحلت المشغولات ذاتها أحيانا إلى أبعد بكثير مما وصل إليه أكثر التجار جرأة، فالإناء الجميل أو قطعة المجوهرات أو السلاح يمكن تسليمها عبر مسافة هائلة، وتمريرها عبر أيدي العديد من الوسطاء المختلفين.

آلية التجارة القديمة

كانت التجارة بالنسبة للسومريين مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بكل مرحلة من مراحل حياتهم. وأوجدوا الوفرة من خلال التحكم في مياه النهرين العظيمين اللذين اعتمد عليهما ازدهارهم، بل وحياتهم. ومن خلال تخطيطهم لعامهم بعناية بالنسبة لفيضانات النهرين دبروا وقت الفراغ ليطوروا فيه الصناعات والمهارات الفنية . وحيث أن سومر كانت أرضا عارية من الأشجار والمعادن فإن هذه المصادر الحيوية لرخاء الأرض وشعبها الطموح والمبدع

فقد كانت الوسيلة الوحيدة هي جلبها من خارج حدودهم . و لقدمنحتهم خصوبة أرضهم ،ووفرة محاصيلهم وقطعانهم المجال للمتاجرة بفائضهم لسد حاجاتهم الأخرى.

وأسس السومريون منذ أقدم الأزمنة اقتصاد استيراد وتصدير منتعش، يدار في بداية الأمر بوساطة المعبد، ثم تولت إدارته السلطة العلمانية وتجار يعملون لحسابهم الخاص.ومع نموالمدن أصبحت نقاطا تجارية هامة للقوافل التي جاءت من الهضبة الإيرانية. وامتدت المدن الإيرانية فوق الطرق البرية المؤدية إلى كثير من مصادر مواد الخام المطلوبة في الألفين الثالث والرابع ق.م، مثل الكلورايت واللازورد . وقد افترض أن هذه المدن في الحقيقة برزت إلى الوجود ببساطة استجابة لمطالب التجارة والبحث عن المواد الخام، وكان بعضها بحجم معتبر. (الخريطة ٥)



الخريطة الخامسة: الطرق التجارية في غرب أسيا في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد

كانت الطريق التجارية السومرية ،ثم الأكادية والبابلية القديمة، تمر من الشمال إلى الجنوب . وكان النهران ذاتهما أهم الوسائل وأسرعها لتدفق التجارة من الخليج ،وعبر أراضي سومر ذاتها،ثم باتجاه البحر المتوسط إلى ما كان سيصبح آشور، مرتحلين شمالا إلى أبعد من ذلك: إلى الأناضول، وإلى الغرب عبر البحر العالي، وربما حتى قبرص. وكان أهم الأصناف التجارية النحاس،سواء على شكل سبائك ،أومحولا إلى منتجات مصنعة . ويمكن تخليد دور الفرات في نقل هذه التجارة من حقيقة كون اسمه السومري أورودو (urudu) أي نهر النحاس. أما دجلة ، وهوجدول سريع الجريان، فقد سمى بما يليق به " دجلات" أي " السهم " . وأصبحت المدن المختلفة على الطريق النهرية النظام الرئيس لتوزيع البضائع المصنعة، وللتجارة ما بين المدن.

ولقد أفرزت حفريات الرابية في تل مرديخ (Mardikh) في سوريا، ومدينة إيبلا (Ebla) الدليل على المدى الذي وصلت إليه تجارة دلمون في وقت مبكر بحدود منتصف الألف الثالث. وتكمن أهمية موقع إيبلا في ألواح الخط المسماري المكتوبة بلغة سومرية قديمة كشف عنها بكثرة، إلى جانب كونها عاصمة المملكة الواسعة المعقدة التي أقامت العلاقات مع دول أخرى على الصعيد الدولي، والتي سيطرت على جزء جوهري من سوريا وبلاد ما بين النهرين العليا.

ومن هذه الألواح التي لا تزال قيد الترجمة، تم تعرّف عدة إشارات إلى تجارة دلمون . وحتى حوالي ٢٥٠٠ ق. م دُوِّنَ القصدير على أنه يجلب من دلمون. ويبدو أن عددا معتبراً من المنتجات قد تم تعرّفه من خلال عبارة " دلمون" متبوعة باسم المنتج. وهذا يوحي أنه حتى في وقت مبكر كهذا كانت دلمون تمثل مقياسا من نوع ما للجودة أوأنها كانت مرادفا للامتياز. و" هاربس" (بر لاغ بلغه إيبلا)، "بير-بيد" (بابير) "تمرالنخل" ،(جس)، وقصدير (نجا) ،ونحاس (أورودو) جميعها مدونة بهذه الطريقة.

ويتضح من هذه القائمة أن دلمون كانت تعتبر مركزا تجاريا هاما حتى في إيبلا البعيدة.

وتظهر مرة أخرى في قائمة للمواقع الجغرافية حيث تدرج بين أشهر المدن السومرية. وهذه هي أروك، لجش ، نيبور، أداب (Adab)، شروباك، أومّا (Umma)، عيلام، ودلمون. ثم هناك فاصل (يعتقد مترجم القائمة أنها مطموسة لثلاثة أماكن) وتنتهي القائمة بعلامة مكررة يفترض أنها تمثل مصر.

وقائمة أسماء المواقع الجغرافية مشوقة بشكل خاص، فقد كانت أروك مدينة جلجامش الذي بحث عن سلفه المؤله زيوسودرا، ملك شوروباك، في مكان يمكن أن يكون فقط دلمون الواردة في الأسطورة. وكانت لجش الدولة التي تفاخر حاكمها أور-نانشي بأن سفن دلمون أفرغت بضائعها على أرصفته. ونيبور وأومّا كانتا مراكز مقدسة ضاربة في القدم مع سمعة في القداسة مقابلة لسمعة دلمون .وعيلام،مثل دلمون،تختلف عن الأخريات ،حيث أنهما كانتا بلداناً أو مناطق محددة ،وليست دويلات مدن.

وإنه لدليل محير لأنه يشير إلى أنه كان ينظر لدلمون كمكان بالغ الأهمية، حتى قبل انتقال مركزها إلى جزر البحرين. ويفترض أن دلمون في زمن نص إيبلا كانت لا تزال في شرق الجزيرة العربية. وحتى الآن لم يكتشف موقع من تاريخ أواسط الألف الثالث أو أوائله بصورة مقنعة على أنه مركز دولة تستحق أن توضع في مصاف أكثر المدن السومرية هيبة.

ويكشف مزيد من الدليل عن مكانة دلمون، على الأقل بقدر ما كان يهم تجار إيبلا، من خلال الإشارة إلى "دلمون-شيكل" . ويبدو أن هذا كان وحدة وزن مقبولة على أنها مقابلة لوحدات القياس في إيبلا ، تقديرا لمكانة تجار دلمون وإن قدموا من مكان قصي.

دلمون : مستودع الخليج

امتدت من أراضي المستنقعات حيث يصب دجلة والفرات في الخليج طريق مفتوحة للتاجر السومري المغامر ،جنوباً إلى الجزيرة العربية ،وخارجا إلى الشرق إلى المدن الغنية القوية في وادي السند، موهنجوداروهرابا. وشغلت دلمون على هذه الطريق موقعاً حساساً بوقوعها على بعد

٤٨٠كم (٣٠٠ ميل) من رأس الخليج والمرفأ الوحيد في بحر خطر لا يمكن التنبؤ بأحواله. ومع حلول الألف الثالث ق.م نجد الحكام السومريين يتعاملون مع دلمون مباشرة. ويدون أور-نانشي ملك لجش في نقش معبد بناه تكريما لآلهة سومر أن سفن دلمون جلبت له الجزية. والنقش من نقرة باب مخصصة من قبل الملك:

« أور-نانشي ، ابن جونيدوبن جرمو بنى بيت ننجيرسو : بنى بيت نانشي : بنى بيت جاتومدوغ، بنى بيت الحريم : بنى بيت ننمار. سفن دلمون أتت له بالخشب كجزية من بلاد أجنبية. وبنى الإبقال : بنى الكنير : بنى بيت الصولجان. "

وهكذا وفي وقت مبكر كأول ملوك مسجلين للجش في الوقت الذي كانت فيه أهرامات مصر حديثة جداً كانت سومر تروج بنشاط تجارة واسعة مع دلمون. وملك وملكة لجش كانا مشتغلين في التجارة بصورة مباشرة وقدما مقابل نحاس دلمون وتمرها الرائع الشعير والتفاح والزيت و الطحين والملابس والفضة.

وترد أيضاً سجلات شحن التمور والبصل وكلاهما من السلع الخاصة بدلمون، في حكم أور-نانشي . وصدرت زوجة لوغالاندا ،وهو حاكم آخر من حكام لجش، القمح وخشب التفاح والجبن والشعير إلى الجزيرة : " ٢٣٤ مينا من خام النحاس ، وخام النحاس ملْك لوقونتو(زوجة لوغالاندا) والتي جلبها التاجر أور-إنكي من جبل دلمون ، لوغالاندا، عنسي اللجشي دفع الثمن في الموقع. " وكان يطلق على نحاس دلمون باللغة السومرية " اورودونتوكي " . وأور-إنكي المركب اسمه مع اسم الإله الرحيم إنكي، هوأحد أهم التجار الذين يعرفون بالاسم. والمشوق أن السلطة الدنيوية في ذلك الوقت كانت ممثلة في شخص زوجة الحاكم حيث تشتغل بالتجارة المفترض أنها كانت حكرا على المعبد والتي يعتقد أنها كانت كذلك في عصر الأسر الأول، واشتغلت أيضاً زوجات الحكام مثل أزواجهن في تجارة السمك.

وتكشف سجلات لجش في الأزمنة السومرية عن شيء من آلية التجارة في دويلات المدن

قبل أن يظفر التجار بالاستقلالية التامة. ومن الواضح أن الحكام قد وفروا البضاعة للتجار لتمكينهم من المتاجرة فيما يشبه أنظمة المستودعات المركزية، ومقايضة بضائع لجش بمنتجات دلمون.

وعلى سبيل الافتراض كان التجار يعملون على أساس العمولة. وكان أور-إنكي يعمل على نطاق واسع: فهومسجل على أن لديه ١٠٠٠ كغم من النحاس في شحنة واحدة من دلمون « من مستودعات شوبور المركزية أعطاه المفتش كمية من خشب التفاح والحبوب والطحين لمقايضتها في دلمون. و كان هذا بتاريخ السنة الخامسة من حكم لوغالاندا».

وكان للوغالنادا، كما هوواضح ما لا يقل عن زوجتين من ذوات العقلية التجارية. وإلى جانب نوفونتو هنالك أيضاً "برمبارا" زوجة لوغالاندا سلمت نحاسا للتاجر دوغيلام ليأخذه إلى مدينة أومّا ومقايضته بالفضة"

ويمكن أن نستنتج، من خلال سلع مختلفة بما فيها فخار باربار المتميز الموجود في المدن السومرية،أنه كان لدلمون صناعتها التصديرية في وقت مبكر،وربما نشأت في زمن وصول السومريين إلى السلطة لأول مرة في البلاد وحتى القرون الأخيرة من الألف الرابع ق. م. وأقدم إشارة مكتوبة لدلمون كما رأينا، تأتي من هذا الزمن وتشير إلى التجارة.

وادي السند

انتشرت مدن وادي السند شمالا وغربا في سلسلة بمحاذاة ضفاف نهرهم العظيم. ويوجد قليل من الدليل القديم في الوقت الحاضر على الثقافات التي تطورت وانتعشت في المنطقة،التي يوجد معظمها الآن ضمن باكستان الحديثة في الوقت الذي تأسست فيه المدن السومرية .ومواقع المدن السندية مثيرة وتوحي بأهمية تخطيط المدن، فمعظمها مصممة وفق نسق رسمي مع رجوح في البنايات العامة الواسعة والشوارع المنتظمة العريضة .ويميل

فن العمارة في وادي السند إلى الضخامة مفتقرا إلى الفجوات أو البروزات ، ولا بد أن مدنهم كانت أماكن كئيبة للعيش فيها .

وكان قوم المدن السندية قد وضعوا خطا تصويريا متطورا إلى درجة عالية نسبيا لفهم واستخدام العلامات القديمة . ويظهر على فخار المنطقة ،وعلى أختامهم المتميزة المربعة التي تبقى منها العديد من النماذج . ولا تزال بوجه عام قيد التفسير .

وفي أوج حضارة وادي السند شكل نحو مائة مدينة، مما كان يعتبر دولة مركزية . وكانت مدن هرابا ،وموهنجودارو أكبر بكثير ،وقد افترض أنهما ربما كانتا عاصمتين توأمين لدولة كبيرة هائلة الحجم . وفي أرجاء وادي السند كلها هنالك إشارات إلى ارتباطات مع بلاد ما بين النهرين ،بل وحتى مع السومريين، ولكن هذه الإشارات أضعف من أن توحي بنفوذ عميق ومستمر للحضارة الأقدم على الحضارة الصغيرة .ولا شك في أن شعب وادي السند أيا كانوا قد استمدوا إلهامهم الأول من بلاد ما بين النهرين. واستمر الاتصال بينهم بصورة رئيسة عن طريق التجارة من خلال البحرين-دلمون والخليج، وخاصة عُمان في الأيام الأولى .

يوحي القليل الباقي من فنون وادي السند بوجود مؤثرات سومرية . ويمكن أن يكون جذع الحجر المنحوت الفريد لكاهن أوملك أوآلهة من موينجو-دارو عملاً سومريا إقليميا مستشرقا . وتعكس تماثيل فخارية للآلهة ذات الوجوه المقروضة الشبيهة زملائهم الأقدمين من بلاد ما بين النهرين ،الأمر الذي ينطوي على أفكار شبيهة نوعاً ما حول لباس الرأس المناسب للآلهة .

ويمكن أن يكون أصل الخرز الشبيه بالكلية الموجود في دلمون من وادي السند، ولا شك في أن العاج الذي كان جزءاً هاما من تجارة دلمون مع المدن السومرية قد جاء من هناك . ويذكر تمثال صغير من العاج بإحدى أشهر القطع من ميونجو-دارو. والتي لا تمثل في أناقتها وروعة شكلها ما نعرفه عن فن شعب وادي السند . وهو عبارة عن راقص برونزي عار مفعم بالحيوية ومليء بالمرح .

ولقد عثر على فخار من وادي السند في الخليج العربي في أبوظبي في واحة البريمي وجزيرة أم النار وإن كان إثبات المصدر أمر مختلف عليه. وعلى أية حال فإن الدليل في البحرين ذاتها قاطع بقدر معقول ولا يوجد أي سبب ينفي زيارات تجار من وادي السند لنقاط أخرى على ساحل الخليج . ولقد تم تعرف مواد من هرابا أيضاً في الساحل العماني في رأس الحمراء بالقرب من مسقط .

دور التاجر

تبين الوثائق القديمة جداً من المدينة المقدسة شوروباك، التي كانت ذات يوم تحت حكم زيوسودرا، أن العملاء والبحارة الذين انهمكوا في التجارة كانوا يعرفون باسم " جال-دلمون" gal-Dilmun وهي لفظة تتقابل مع العبارة البابلية القديمة " أليك-تلمون" Alik Tilmun التي تصف الجماعة التي كانت تمثل التجار الذين تاجروا مع دلمون في أوائل الألف الثاني ق.م.

وسارت الطرق البرية من سومر إلى الهند عبر فارس وكانت طويلة وخطرة موبوءة بالقبائل المتهنة للسلب والنهب وكانت الطريق البحرية مفضلة أكثر تبعا لذلك،إلى حد مؤسف وكان لهذا السبب أن قامت دلمون الأرض المقدسة في الألف الثالث وأوائل الألف الثاني ق.م بدور أكثر دنيوية لعبت فيه دور السوق التجارية بين الشرق والغرب. وعلى القدر ذاته من الأهمية، كانت نواة موقع جيد بين الأراضي الجنوبية الغنية بهباتها رغم بدائيتها، وبين الدول الشمالية المتطلعة للمواد الخام والنحاس ،والحجارة ،والعاج ،والذهب اللازمة لاقتصادياتها الغنية الموجهة للاستهلاك.

كانت التجارة في الأزمنة قبل عهد سرجون ، المطلب الأساسي لإدارة المعبد حتى حين كان يسيره الحاكم، وهي الممارسة المنطقية بالقدر الكافي، حيث إن جميع الأراضي

والبضائع ملك لإله المدينة والسلطان والحاكم والكاهن يديرونها لصالح الإله. وهكذا كان المعبد يتولى تجهيز الحملات التجارية واستئجار ربابنة البحار والتجار الذين تخصصوا في المضاربة في التجارة التي يمولهاالمعبد. وفيما عدا مدفوعات التجار كانت الأرباح تعود على المعابد،فصارت لذلك غنية جداً.

ونتيجة تغير غير معروف حتى الآن في النظام الاجتماعي السومري بدأ التجار الأفراد بالظهور يتاجرون لحسابهم الخاص كأعضاء روابط ممولة تمويلا خاصا.

و نمت ثروة التجار الذين تاجروا لحساب المعبد، ورأوا على مر الأجيال في مطمح تحقيق أرباح أكثر حافزاً أكثر جذبا من فضل الآلهة الذين كانت مدفوعات أسهمهم في نظر السومرين آجلة أطول مما ينبغي، هذا إن كانت تأتي أبدا. وخلال الفترة التي انتعش فيها المشروع الحر قام القصر، وأحيانا بعض المعابد، بجباية الرسوم على الواردات وبخاصة النحاس بالغ الأهمية. وفي السنة الأولى من حكم الملك إبي-سن لأور حوالي (٢٠٢٩-٢٠٠٦ق.م) قام قبطان بحري اسمه أور جور الذي كان يقود قاربا كبيراً بشحن ما قيمته ١٠ طالينات من الصوف من نوعية عادية إلى دلمون. وهناك دليل على أنه كان يعمل تحت رعاية أحد المعابد في تلك الصفقة.

بعد ذلك بقرن من الزمان قدمت امرأة اسمها آماد- ننجال **Amad-Ningal**، يرجح أنها كانت مواطنة من أور، قرباناً إلى الإلهة ننجال من ريع حملة إلى دلمون. وتظل مسألة تخمين فيما إذا كانت تقدم زكاة نيابة عن شخص آخر، أو كانت تتاجر لحسابها الخاص، حيث إن النساء السومريات لم يكن يواجهن أي عوائق في المجتمع السومري (كما تشهد بذلك زوجة لوغالاندا).

لم يقتصر تدفق التجارة على اتجاه واحد فقط موجهة من سومر إلى مواطني دلمون وإلى مناطق أخرى بعيدة، حيث إن عدة أسماء دلمونية في نصوص ذلك العهد توضح بجلاء أن

سكان الجزر أنفسهم قد تاجروا في أور ومدن سومرية أخرى . وهكذا في نهاية القرن العشرين ق . م دونت عطايا لمعبد ننجال من شخص من لارسا يدعى إدين-نين-إنزاك، Idin-Nin-Inzak الذي يخلد المقطع الأخير من اسمه اسم الإله الخاص بدلمون . ومن بين البضائع المدرجة في نقش إدين-نين-إنزاك " عيون السمك " ، وهو بالتأكيد لؤلؤ من دلمون كانت تجارته من القدم البعيد جداً . وكان إدين-نين-إنزاك ناجح بالقدر الكافي كي يصبح الذهب ، الإنتاج النادر نسبيا في سومر، من بين هباته إلى معبد نينجال .

ونقش آخر عبارة عن قائمة بالمواد التي عثر عليها في روابي القبور العظيمة في البحرين : خرز من العقيق الأحمر، قضبان من الحديد ، أمشاط من النحاس والعاج، كلها مسجلة كخراج حملة إلى دلمون .

ويظهر دلموني اسمه إيدين-إيلوم، يقدم عشرا من الفضة، بينما يشهد دومودوغا على صحة المقدار . وكان تجار دلمون ناجحين وذوي نفوذ ، وكانت سمعتهم على قدر من الاعتبار حتى إنه في الأزمنة البابلية أصبحت عبارة " لو-تلمن-آي " : « رجال دلمون » مرادفة لمهنة التاجر . أما العبارة السومرية الدالة على التاجر ، بالمصادفة، وهي من زمن بعيد، فهي " دام-جار " ، ويمكن أن تكون من الكلمات المفترض أنها ما قبل سومرية أدخلت على اللغة من طبقة أكثر قدماً .

كانت إحدى تقنيات التجارة القديمة التي طورت للمساعدة في تبادل البضائع والاتصال بين الشعوب المتباعدة إقامة المستعمرات التجارية في المدن التي تربط بينها مصالح تجارية متبادلة . وكان هذا أمرا مرغوبا فيه بين الشعوب التي لم يكن لديها لغة مشتركة .(وإن كانت الأكادية مستخدمة لهذه الغاية مع حلول منتصف الألف الثاني ق.م)، وكانت معرفتهم بالقراءة والكتابة محدودة . وهكذا نمت الجماعات التي كانت وظيفتها « سمسرة » السفن الكبيرة التي كانت تمخر من وإلى الأراضي التي جاء منها المستوطنون . وفي بعض الأحيان كانوا يعيشون خارج أسوار المدينة، في جماعات مستقلة يحكم بينهم قضاتهم

الخاصون بهم والذين كانوا مسؤولين عن الحفاظ على النظام العام وعودة الضرائب إلى السلطات المركزية. وكانت حقوقهم محترمة لكنهم كانوا غرباء يشكلون نوعاً من (الغيتو) في وسط مدينة أجنبية، أويعيشون خارج محيطها. وتظهر الأختام الموجودة في أور، والمرجح أن تكون من أصل هندي، وجود مثل هذه الجماعات في مدن بلاد ما بين النهرين.

ويبدو أن السومريين كانوا - أكثر من خلفائهم البابليين والآشوريين - شعبا ميالا إلى البحر، لكن موقفهم من البحر والإبحار كان محاطا بالحذر البالغ . وبهذه الطريقة كانوا نموذجاً لمعظم الشعوب القديمة . وعلى الرغم من أنهم اعتادوا أن يحيوا الخليج في أحد أمزجتهم كأب للمحيطات، إلا أنهم في مزاج آخر وصفوه بأنه البحر المخيف. ولقد كانوا مجبرين على ركوب البحر للحصول على أسواق أكثر ربحا لصادراتهم لأنهم كانوا بعيدين كثيراً. و ساعدت حقيقة أن مياه الخليج تدفقت بعكس دوران عقارب الساعة (انظر الفصل الثالث) على تطور الإبحار الشراعي. وكانت السفن التجارية تبحر من رأس الخليج إلى الشاطئ الغربي ،وتدفع إلى الجنوب بفعل التدفق المعاكس. وفي رحلة العودة كانوا يبحرون بمحاذاة الساحل فيما يعرف الآن بإيران ،ويحملهم تدفق الخليج إلى وطنهم.

وكانوا أكثر ثقة بقدرتهم التجارية من قدرتهم البحرية، وما يزال باقيا العديد من قرابين النذور التي تعلن عن امتنان هؤلاء التجار المغامرين للآلهة الذين ضمنوا عودتهم سالمين من مخاطر المحيط. وكان نينجال المتلقي لمعظم قرابين التجار الأوريين ،فقد وصف وصفا جيدا كنوع من "النوتردام" أوالحارس السومري. ولم يكن أهالي بلاد ما بين النهرين غرباء عن البحر كما كانت الحال بالنسبة لبعض معاصريهم. واعتبر المصريون البحر " الأخضر العظيم" مقتاً إيجابياً ورأوا في عدم اعتمادهم عليه علامة فريدة أخرى على نعمة الآلهة الذين جعلوا مصر، باعتقادهم، أرضا كاملة بقدر ما كان ممكنا حتى للآلهة أن تجعلها بذلك الكمال.

وكان مدى التجارة الدلمونية بالبر هائلاً بالقدر ذاته . وهو ما يدل عليه اجتماع في

بلاط ملك ماري Mari ، -المدينة التي تقع على الفرات بعيداً إلى الشمال من سومر في شمال سوريا، لجماعة من الرسل من الجزيرة في القرن التاسع عشر ق . م، فحقيقة أن يكون بمقدور مبعوثيها أن يقطعوا تلك المسافات بصورة مستقلة، -شاهد على ازدهار ونفوذ دلمون في ذلك الزمان. وأمر ملك آشور شمسي ادد الأول (١٨١٤-١٧٨٢) بمنح الدلمونيون العطايا من الزيت والسمسم وخشب البقس والصندل. وأرسل الآشوريون قافلة إلى دلمون وجهت في عودتها إلى تسليم البضائع إلى حمورابي البابلي الذي حكم من ١٧٩٢-١٧٥٠ق .م. ويبدوأنها واجهت المصاعب على الطريق قبل وصولها إلى المدينة.

وكان خليفة حمورابي كملك على بابل سامسو-إيلونة Samsu-Iluna الذي حكم من ١٧٤٩-١٦٨٤ ق م . ويرد في السنة الحادية والعشرين من حكمه ذكر تجار دلمون في نص من مدينة إقليمية اسمها ليجابا .وتسجّل تلك الوثيقة تسليم كمية من الشعير ،لعلها ملكية الدلموني شمش -ناصر، المقيم في المملكة البابلية، إلى اثنين آخرين أحدهما إنزاك-جميل ، لديه مركب تقليدي دلموني باسمه.

معظم التاريخ القديم سجل لأعمال الملوك والفاتحين ،شخصيات تبدو أكبر من الحياة،وظلالهم تطمس الشعوب التي استمرت حياتها رغما عنهم. ولكن ميزة خلابة في سجلات بلاد ما بين النهرين القديمة، هي أن الأفراد يلعبون دورهم، مواطنون عاديون يمكن تعرفهم اليوم ساخرون من المغزى الرصين الذي يعطيه التاريخ للأحداث الحاصلة حولهم،مثل مهرج يقهقه بسخرية بين يدي الأباطرة.

وثائق التجارة

وأكبر مجموعة من الألواح المسمارية التي عثر عليها في روابي المدن من بلاد ما بين النهرين على مدار الأربعة آلاف سنة هي بلا جدال تلك المتعلقة بالتجارة بوجه عام. والكثير منها عقود بين تاجر وآخر ،مع استئجار قباطنة لرحلات محددة، وملاحظات تبادل و(فواتير) بل واتفاقيات حول تمويل رحلات تجارية. وهذه الأخيرة ذات أهمية خاصة من حيث إنها على ما يبدوتصف أقدم الأمثلة على الأعمال المصرفية حيث يقدم ممول (الرساميل) مقدماً مقابل عرض معين، مثل نسبة متفق عليها وينص التعاقد على نمط رجال المصارف منذ ذلك الحين ، على أن المدين وحده هوالمسئول عن أية خسارة. ولقد حاول حمورابي بلا نجاح تغيير ذلك وجعل المصرفي مسؤولا بالقدر ذاته. فحتى هو، أحد أقوى ملوك العصر القديم، لم يستطع ذلك ، مما يوحي بأن لقوة رجال البنوك الأسطورية جذور تاريخية عميقة. وتوجد وثيقة مثيرة للاهتمام بصفة خاصة يبدو أنها " ضمانة إفراديا وجماعيا" من قبل عدد من الشركاء تجاه المصرفي الذي قدم لهم قرضا.

وهنا يظهر الأنتماءلأول مرة في التاريخ التجاري كعامل مساعد ويعترف به عاملاً في تقويم مقدار المال الذي يمكن بصورة معقولة تقديمه إلى التاجر . وتعادل العبارة السومرية " تدميقتو" بصورة تقريبية مفهوم " الاسم التجاري باعتباره" عاملاً في تقويم قيمة المصلحة التجارية، ومن ثم ضمان القرض. وهكذا أتيح للتجار نظام خطابات اعتماد العمل من مسافات بعيدة عن موطنهم بغير الحاجة لحمل مبالغ كبيرة من الثروة معهم ، مع كل المخاطر المصاحبة لذلك. وأقيمت العلاقات بين شركة تجارية وأخرى في سوق أجنبية ،وساعدت أعضاء الشركة على المتاجرة معا لما يفيد الطرفين. ووجدت عدة شركات لفترات طويلة ، وغالبا لعدة أجيال.

وظهرت فكرة العملة المعيارية لأول مرة في نهاية الألف الثالث ق.م حيث يعبر عن قيمة السلعة بمقابل من الفضة. وبينما استخدم السومريون معيار الفضة فإنهم لم يذهبوا إلى

المرحلة التالية ، إي إصدار عملة فعلية للتبادل . ومع أنهم تبادلوا فعلاً أقراصاً وحلقات من وزن معياري من الفضة مقابل خدمات أومنتجات، فقد تأخر اختراع النقود حتى القرن السابع،وقد جاء على يدي الليديين في آسيا الصغرى. لكن غيابها لم يمنع السومريين من تطوير نظام عالي التطور للأعمال المصرفية التجارية باستخدام معيار الفضة كأساس متفق عليه يتيح تقويم القروض والفائدة بمقتضاه. ولقد تحقق هذا إلى حد بعيد بمقارنة الأوزان. وكانت الفضة تتداول بالألواح مع علامات رسمية وشهادة بالوزن.

ويبدو أن دلمون كانت ذات أهمية كافية كمركز تجاري قرب بداية الألف الثاني ق.م كي يكون لديها قياس مثقالها الخاص بها،و المختلف عن تلك التي لدى المدن التجارية العظيمة الرئيسة في ذلك الزمان، وهي أور. ويبدوأن مثقال دلمون يمكن أن يكون من قيمة ذاك المستخدم في مدن وادي السند . ومجموعة المثاقيل التي وجدت في المدينة الثانية في قلعة البحرين مساوية لمثاقيل السند ويمكن أن تكون دليلاً على الوجود الفعلي للتجار من تلك المدن في دلمون

إيا- ناصر التاجر الدلموني

إبان حكم ريم-سين (١٨٢٢-١٧٦٣ ق.م) ، أحد ملوك السلالة العيلامية التي حكمت مملكة إيسين – لارسا Isin-Larsa، برز في مدينة أور ، التي ظلت لعدة قرون أحد أهم المراكز التجارية السومرية، عضوفي جماعة تجار دلمون كان اسمه إيا-ناصر. وتألفت الجماعة التي عرفت فيما بعد بصيغتها البابلية " إليك-تلمون" من أولئك التجار الذين كانوا يعملون لحسابهم الخاص في الخليج، وقد أسسوا عمليات الشحن على أرصفة دلمون المزدهرة الكريمة. ولحسن الحظ بقيت مراسلات واسعة بين إيا ناصر وشركائه في أطلال بيته في أور الذي انسحب إليه على أمل الاستمتاع بتقاعد ناجح بعد سيرته التجارية التي لم تكن نظيفة تماماً على ما يبدو. وكان نشيطا في التجارة حوالي مطلع القرن التاسع عشر ق . م .

وتجدر الإشارة إلى أن التجارة الخاصة التي يتوفر عنها معلومات مفصلة نسبيا كانت بين دلمون وأور. ولربما كان هناك تجار تمتعوا بوضعية الأوريين الذين تعاملوا مع دلمون، لكن لا يعرف شيء عن تنظيمهم إن وجد مثل ذلك التنظيم. وكان إيا-ناصر تاجر نحاس كبير، بائع سبائك بالجملة، وتعامل في بعض الأحيان في المنتجات تامة الصنع المصنوعة من هذا المعدن، وفي أي شيء آخر استطاع أن يرى فيه فرصة للربح.

ومن بين الكم الكبير من المراسلات التجارية المسمارية التي بقيت منقوشة على ألواح الفخار المحروق تومض خطابات إيا - ناصر بصورة شريرة،حيث إن الكثير مما هوباق من (أرشيفاته) يمكن أن يصنف على أنه خطابات إلحاح بالوفاء من دائنيه ،وغالبا بتلك الجمل المعربة عن المفاجأة المؤلمة والعتاب المألوف للعديد من الدائنين اليوم. وإيا -ناصر ،الذي يشكل المقطع الأول من اسمه الصيغة السومرية أو البابلية من إنكي ،كان يعتبر بوضوح موضع ثقة بالحكم من المبالغ التي اقترضها، فالسجلات تشير إلى اقتراضات كبيرة من النحاس. و على ما يبدوكان يعمل في بداية سيرته لحساب القصر، يشتري ويبيع لصالح الملك. وتظهر فيما بعد سلسلة من الصرخات الحادة التي تعبر عن القلق المالي الموجه إليه من جانب ضامنيه في أور ،بينما هو بعيد في دلمون. ويبدأ الإنذار القضائي بعبارة « قل ل... » تستبق النص في معظم الرسائل، مشيرة إلى أنه في أكبر الاحتمالات لا المرسل ولا المرسل إليه كانا يعرفان القراءة والكتابة. وكانت المراسلة في الحقيقة تعرف ب: « قل لهم » وكانت تكتب وتقرأ من قبل كتبة محترفين أصبحوا بدورهم ذوي نفوذ وقوة، مطلعين على الأسرار السياسية و التجارية في زمانهم.

ويبدو أن ناني متألم بشكل خاص من إيا-ناصر الفاتر، بل وغير اللطيف: فمهما يكن الأمر، أليس كلاهما من السادة وبالتأكيد يليق بهم التصرف على هذا الأساس؟

"قل لإيا-ناصر ؛ هكذا يقول ناني: الآن عندما أتيت كنت قد قلت هكذا: « سوف أقدم سبائك جيدة لجميل-سين ، هذا قلته لي عندما أتيت . ولكنك لم تفِ بذلك: لقد

عرضت سبائكك الرديئة على رسولي قائلا:' إذا أردت أن تأخذها ، فخذها، وإذا لم تكن تريد أن تأخذها انصرفْ .من أنا لتعاملني بهذا الأسلوب-تعاملني بمثل هذا الاحتقار؟ وهذا بين السادة أمثالنا! لقد كتبت لك لأتسلم مالي لكنك تجاهلت رسالتي- من بين تجار دلمون تتصرف معي بهذه الطريقة؟"

ويبدي رجال الأعمال السومريون والبابليون حسا قويا بنبلهم، ويأسفون لغيابه لدى أقرانهم. وفي الحقيقة كانوا محقين. فمكانة " السيد" كانت محددة بالقانون، وبالتأكيد في زمان حمورابي. وكانت ، على سبيل المثال ، مكلفة أكثر بكثير من حيث التعويضات التي كان لا بد من دفعها لجرح سيد مما هو الحال بالنسبة لواحد من العامة أوالعبيد .وفي خطاب آخر يبدوناني مستاءً من حقيقة أن إيا-ناصر قد نقل كمية من الفضة من بيته، والآن " تقوم بهذا النقاش" . ولقد قلق أيضاً من أنه وآخرون قد أقسموا بشأن مشروعية العقد في معبد شمش. وكان إله الشمس تقليديا الشاهد على كل الأيمان من هذا النوع، وبذلك يجعل منها مقدسة، وكان يولي التجار عناية خاصة. وفي ترنيمة حمد للإله يقال فيها:" التاجر بصرته، تنقذه من الطوفان" . ويتابع أبيتورام Abituram باقتضاب أكبر وبالتهديد بأنه سيستدعي ضامني إيا-ناصر . و يشعر المرء أن أبيتورام قد أفحم إيا-ناصر في الكتابة ، ويقدم نيجا-نانا، حامل اسم من الصعب أن تتحداه اليوم مهما كان المرء مديناً له، أول ظهور له من مناسبات ظهوره المتكررة.

"الفضة وأرباحها أعطها لنيجا-نانا ....، لقد جعلتك تصدر لوحا. لِمَ لمْ تسلم النحاس؟ إذا لم تسلّمه فسوف أستدعي ضامنيك"

ويسود الحنق افتتاحية الخطاب التالي، ولا يزال مقتضبا كغيره في مخاطبة إيا-ناصر :

"قل لإيا-ناصر: هكذا يقول أبيتوورام: لم لمْ تسلم النحاس إلى نيجا-نانا؟ " وينتهي بعبارة ألطف، ولكن لا تزال لطلب نحاسه" العمل الذي قمت به جيد....... النحاس.... أعطه لنيجا-نانا" . والبقية لا شك مألوفة للقارئ المعاصر، حيث إنه يعطي

انطباع المصرفي المجهد وهو يصرف عميلا متعبا . .

"قل لإيا-ناصر : هكذا يقول عمقوي-سين. ليبارك شمش حياتك! أعط نحاساً جيداً مختوماً نيجا-نانا والآن لديك مسألة واحدة ١٠ شيكلات من الفضة ،ومن أجل عدم تعب قلبك أعطه نحاساً جيداً. ألا تعلم كم أنا متعب؟ وعندما تصل مع إتسو-رابي خذها وأعطها نيجا-نانا . "

ويحل محل ناني في المراسلة أبا الذي لديه مشكلة ما مع إيا-ناصر والذي يريد أيضاً (غلاية) نحاس، وهذا أمر غير محتمل قليلا .

"قل لإيا-ناصر هكذا يقول أبا : النحاس الذي يخصني أعطه نيجا-نانا . - نحاساً جيداً لكي لا يقلق قلبي . وغلاية نحاس بسعة ١٥ ربع من الماء و١٠ مينا نحاس أخرى أرسله لي وسأدفع مقابله فضة . "

من الواضح أن إيا-ناصر له شريك اسمه إلسو-إلاتسوIlsu-Ilatsu، حيث إن إحدى الرسائل موجهة إليهما معا. والأخرى، نوعاً ما حذرة، يبدوفيها إلسو-إلاتسو قلقا خوفا من أن يتسبب شريكه في ضيق للعميل ، موجهة منه إلى إيا-ناصر:

"قل لإيا-ناصر هكذا يقول إلسو-إلاتسو : بالنسبة لنحاس إدين-سين سيأتي إليك زيجا. أَرِه (١٥) سبيكة كي يختار ستّاً منها جيدة، وأعطه هذه. تصرف بحيث لا يغضب إدين-سين" .

ومن المفرح أن أنه في النهاية احترم إيا-ناصر جميع التزاماته، وعاش في سعادة على طول الزمان مع الممولين الآخرين في أور على أرباح تجارة نحاس دلمون؛ فهويظهر ثانية ، وهذه المرة في تجارة الملابس، خط تصدير مربح جداً إلى دلمون ، وخط من الصعب ألا تشعر بأنه كان مناسبا بصفة خاصة لإيا-ناصر المشين.

وللأسف، لم تجر الأمور على ما يرام بالنسبة لإيا-ناصر على المدى الطويل. واستنادا إلى وولي الذي نقب بيته في أور، فإن جزءً منه كان متحدا مع البيت المجاور في نهاية فترة إسين-لارسا حين عاش وانتعش إيا-ناصر يحدوه الأمل. و عثر دولى في سجلات إيا-ناصر

الخاصة على دليل على أنواع مختلفة من الفوائد وأنواع من الارتباطات التجارية حتى إنها تبهر الإداري المعاصر– (مضاربات أراضي، وعقارات ، ومراباة، وملابس مستعملة، كانت كلها على ما يبدو حبوبا لمطحنة إيا–ناصر) .

ويبدو أن طموحاته قد تجاوزت قدراته، على الأقل من وجهة نظر وولي، وفرض على تاجره النشيط المغامر تقليصا جوهريا في مستوى معيشته وحجم منزله . وعند هذه المسافة من الزمن دمج جزء من منزل إيا–ناصر في منزل جاره . ونحن مدينون لوولي بمكان موقع ومخطط منزل إيا–ناصر في أور في عهد ريم–سين. و كان وولي منقبا رائعا وعالم آثار بصيراً. وكان غالبا غريب الأطوار ، وعندما نشر نتائج أبحاثه الهامة التي قام بها في أور،والتي هي أكثر جدارة بالملاحظة من الموجودات في مقبرة توت عنخ آمون في ذات الفترة (العشرينيات)،قدم وولي مخططاً واضحاً ودقيقاً لشوارع المدينة كما كانت في أيام إيا–ناصر. ولسبب ما اختار أن يعطي الشوارع ، أوعلى الأقل الرئيسة منها، أسماء شوارع أكسفورد حيث تلقى دراسته في السنوات الأولى من هذا القرن (معاصر التي .اي. لورانس) . ونشأت عن ذلك بعض النتائج الغريبة : فأصبح عنوان إيا–ناصر ١ الشارع القديم . وبعد توحيد بيته مع بيت جاره صار رقم ٧ شارع الكنيسة، ويستدعي الأمر اليوم عالم آثار جرئ ليخط طريقين على مخطط مدينته مثل جاي ستريت وستريت ستريت ،على التوالي، حتى وإن كان قد درس في أكسفورد.

من السهل أن نتندر بمخاصمات ودهاء رجال الأعمال القدماء هؤلاء الذين يشبهون إلى هذا الحد في مواقفهم وسلوكهم ، بل وحتى لغتهم، خلفائهم المعاصرين . ومع ذلك،ينبغي ألا يغيب عن البال أنه للسلف المباشر لإيا–ناصر وزملائه الفضل في واحدة من أرفع المنجزات وأمجدها .

وعودة إلى الوراء حتى منتصف الألف الرابع ق.م ،حيث كانت التجارة في سومر قد حققت معدلات عالية حتى إن أولئك الذين اشتغلوا فيها قد احتاجوا إلى الوسائل لتدوين مبيعاتهم ومشترياتهم ومخزون البضاعة والحيوانات التي احتفظوا بها . وبحدود علمنا،

تطورت الكتابات جميعها من النظام الذي ابتكروه، وتنحدر أقدم الأمثلة عليه من تلك الألواح المحروقة من مدينة جلجامش أورك التي يعود تاريخها تقريبا إلى نحو سنة ٣٥٠٠ ق.م . وتطورت من أقدم صيغها حين كانت لا تعدو ارتباط رموز كمية مع تمثيل الغرض المعني، لتصبح بسرعة أداة معقدة ومرنة، ليس لتدوين عدد الأغنام التي يملكها المعبد فحسب بل أيضاً طموحات ومخاوف وأفراح البشر. وبحلول القرون الأولى من الألف الثالث ق.م كان قد وجد أدب رسمي بلغ ذروته في قصة مسعى جلجامش، ولعلها الأكثر تأثيرا وجلالا من بين الأساطير القديمة جميعها، لكنها في مجملها تتسق مع الشخصية السومرية حتى إن أقدم كلمات صوتية تكتب توجب أن تكون "دام-جار" أي " التاجر" .

وكان إيا-ناصر ، التاجر الدلموني، أكثر اهتماما بالربح من اهتمامه بالشعر؛ لكن له مكانه المتواضع في الخط الذي يمتد من الكتبة القدماء من أروك ،وكيش، من خلال أناقة وروعة الخط المسماري السومري، وجميع اللغات المكتوبة في العالم حتى فيرجل، ودانتي، وشكسبير .

وعلى الرغم من أن ربط إيا-ناصر وزملائه بالشعر والشعراء مقبول فإن ذلك جزءٌ من الحكاية، فحسب . وجدليا، ليس أهم إسهام قدمته الخبرة التجارية القديمة للتقدم والتطور الإنساني .وقبل تكوين الجيوش ،وهو تطور متأخر نسبيا، كانت الشخصية الاجتماعية والثقافية لأرض ما تتأثر بأخرى من خلال التجارة والصلات والتبادلات التي أدت إليها . وكان التجار بالضرورة رحالة، وبطبيعتهم ملاحظين وحريصين على الاستفادة من أية فرصة يمكن أن تكشف عن نفسها . وحين يجدون مجتمعا أقل تطورا من المجتمع الذي جاؤوا منه أنفسهم كان بمقدورهم إدخال أفكار جديدة، وطرق جديدة للقيام بعمل ما ،بل حتى معتقدات جديدة وسلوكيات دينية . وهكذا لا بد أن هذا صحيح بصفة خاصة عندما كان هناك شيء ما، معدن ربما أوخشب، كانوا يريدونه من أرض أقل تطورا. وجلبوا من تلك البلدان التي كانت تمتلك حرفا متطورة البضائع التي قايضوا بها تاركين خلفهم منتجات بلاد أخرى والتي بدورها مارست نفوذا وأسهمت في التغيير والتقدم.

ومنذ أقدم العصور امتدت حركة هذا النشاط بعيداً عبر العالم المعروف. إن الكثير من الفضل إنما يعود إلى التجار وربما بصفة خاصة التجار الذين يجوبون البحار في جلب فنون الحضارة إلى البلاد المتخلفة وليست الآلهة كما تحاول الكثير من الأساطير أن تدعي لمثل إنكي، أوفي مصر إلى أتباع حورس ما لم يكونوا هم أيضا قد جمعوا بين التجارة والألوهية.

والكتابة شيء ،وتسيير مسئوليات إدارة التجارة اليومية المباشرة شيء آخر. ومن الواضح أن قليلاً من التجار كانوا يتقنون الكتابة. وكان لكل شركة عدد من الكتبة الذين كانوا مسؤولين عن الأرشيفات وإدارة مراسلات الشركة. ويمكن ترك إنتاج النصوص الأدبية لكتبة المعبد، أو إلى السيدات اللواتي يمتلكن عقلية أدبية مثل ابنة سرجون العظيم التي كانت رئيسة كهنة في أروك في القرن الرابع والعشرين ق. م . وكانت ميالة إلى التأليف من حين لآخر.

الأختام و طبعاتها

من أجل ال تسييرشؤون العادية للأعمال التي قام عليها هذا القدر الكبير من ازدهار سومر ودلمون تم ابتكار تقنية أخرى غير عمليات التأليف الكتابي الشاقة المكثفة والمكلفة بلا شك، وهي ممارسة وضع علامات على السلع والوثائق والممتلكات بطبعة تصميم مقطوع على وجه خاتم أسطواني أومسطح. والصيغة الأخيرة، الختم المسطح، واحدة من الأمجاد الخاصة للمدن الخليجية. ولقد جعل استخدامها معرفة الكتابة أمر غير ضروري. فبينما كان من الصعب على تاجر منهمك أومساعديه تحليل نصوص مكتوبة، فإن أي شخص يستطيع معرفة تصميم خاص به أوبغيره جعل منه تكراره أمرا مألوفا بسرعة كبيرة. وقبل وصف مجموعات أختام دلمون من البحرين والمدن الخليجية الأخرى فإنه من المناسب النظر في الغرض من الأختام في القديم بوجه عام، إذ إنها أكثر الأشياء صمودا من بقايا تلك الأزمنة البعيدة جداً. وهي ذات إغراء خاص لأولئك الذين تعاملوا مع العالم القديم من موقف إنساني عفا عليه الزمن وغير مألوف هذه الأيام، إذ إنها أغراض ذات طابع شخصي

إلى حد بعيد ومعظمها فريد، وبذلك يمكن نسبتها إلى مالك بعينه.

لدى الإنسان ميل إلى السعي إلى حلول ميكانيكية لأي مشكلة تواجهه.ففي وسط الأناضول في ستال هيوك في الألفين السادس والسابع قبل الميلاد، يبدو بصورة ملحوظة أنه قد ابتكر أسلوب للطبعة المتكررة لتصاميم أسلوبية بوساطة الفخار المحروق ، والتصميم معلم تحت سطح الختم المسطح. ولأن التصاميم التي أنتجت كانت تعتبر غالبا مقدسة وتمجد الآلهة يمكن أن تكون الأختام ذاتها قد صنعت كتعويذات ، وبذلك نقلت فائدة حمايتها إلى مرتديها. وتوجد رابطة قوية بين استخدام الختم ،والكتابة، والتمدن.

ومع ابتداء الإنسان بالعيش في جماعات دائمة، تطورت فكرة الملكية الخاصة ومعها الحاجة لحمايتها وتعرفها. ولتلبية هذه الحاجات، تم أولا اختراع الختم ،ثم الكتابة ذاتها مع استخدام الرموز التي يوضح تاريخها الطويل المقدمة الغريبة لتطوير الخطوط.

ولقدقدر لاستخدام الأختام أن يصبح أكثر ممارسات الشعوب تميزا، خاصة التجار في الشرق الأدنى القديم. وسواء نشأت في بلاد الأناضول أم لم تنشأ فليس من الممكن في الوقت الحاضر الجزم بذلك بصورة إيجابية، ولكنه بالتأكيد لم يعرف أقدم منها. وإذا ظهرت أولا هناك فيبدو أن تلك الممارسة قد انتشرت من هناك رغم أن ليلة ظلماء من النسيان قد هبطت على المستوطنات الأناضولية التي ارتفعت في الجيل السابق فقط،حيث إن الأشكال الأولى والرمزية محفوظة وارتحلت إلى سوريا مرورا ببلاد ما بين النهرين وإيران جنوبا حتى وادي السند . ومع مرور الزمن طورت كل منطقة شكل أوصيغة لخاتم خاص بها، مع أن كثيراً من عناصر تصميمها كان مشتركا أوممزوجاً من ثقافة إلى أخرى. ويوحي التنقيب عن الآثار في المدن القديمة بحثاً عن أصول الكتابة والمدنية بأن استخدام الأختام الأصلية التي عثر عليها هناك كان وسيلة للوشم التجميلي على الجسم، وفيما هوبالتأكيد أول طباعة كعملية إعادة إنتاج ميكانيكية، طبعت التصاميم على القماش. ويمكن أن يحدد تاريخ هذه الممارسة في صناعة الأختام بالألف السابع ق. م.

وفي الخليج ، كانت الأختام مبشرا للرأسمالية ، ولكنها طلسمية أيضاً، كتعويذات قوية لاستجداء حماية الآلهة للبضائع التي وصمت بها، أوحتى لمالكيها أنفسهم إذ إن بعضها عثر عليه في مواضع تشير إلى أنها كانت مع مالكيها في قبورهم.

الأختام بصفة عامة نوعان : "الأختام المسطحة" التي تشكل الخليجية نموذجا منها، و"الأسطوانية" والتي كانت الأناضول، والبابليون القدماء ،والإمبراطوريات الآشورية في بلاد ما بين النهرين من صناعها المشهورين. والقصد منها هو إثبات، تمييز الملكية في مجتمع لا يعرف الكتابة على نطاق واسع، وليس كما ينبغي ملاحظته في المجتمعات السابقة على معرفة القراءة والكتابة تحديدا، إذ إن استخدام الأختام وممارسة الكتابة وجدتا معا مرارا. ويختلف الأسلوب المتبع في العملية الفعلية لطبع الأختام بنوعيها، ففي حالة الختم المسطح تطبع "طبعة" مفردة من الختم في الصلصال إما على الغرض المراد تمييزه ، كجرة فخار، أولوح منقوش أوختم يمكن تعليقه مع المادة المعنية. أما الختم الأسطواني بالمقابل فيدحرج ليعطي طبعة مكررة من التصميم الذي ستتميز ملكيته به.

وكانت الأختام لمسطحة أقدم اختراعاً ، وأما الأختام الأسطوانية فمن نتاج أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق.م في بلاد ما بين النهرين.وأحد الأدلة التي تبين تأثير بلاد ما بين النهرين في مصر في عهد ما قبل الأسر، ومصر القديمة حوالي (٣٢٠٠–٢٨٠٠ ق م) هي ظهور الأختام الأسطوانية التي تحمل تصاميم ذات عناصر من بلاد ما بين النهرين، أوعيلامية. وكان تبني الأسطوانات في مصر ظاهرة مؤقتة، سواء من تأثير بلاد ما بين النهرين أم من غيرها . وقد حل محلها في نهاية المملكة القديمة أحد أكثر المنتجات المصرية نموذجية وهو الخنفساء، (ختم مسطح). ولقد صنعت مصر في بعض الأحيان في أثناء الفترة الفاصلة الأولى قبيل تشكيل المملكة الوسطى مباشرة (٢٠٠٠–١٧٨٠ ق م) نوعاً من الأختام المسطحة المستديرة ، الذي يطلق عليه أحيانا (ختم الزر) وهو يذكر كثيراً بأختام الخليج. وبينما لا يوجد بالتأكيد أي دليل فإنه ليس بعيداً عن حدود الاحتمال أن أوائل

الألف الثاني ق.م ،ومن النشاط التجاري في الخليج وإلى ما بعده، شهدت اتصالا ما بين التجار الدلمونيين ومصر. والدليل الجدير بالملاحظة على الأختام الخنفسائية من فيلكا المشار إليها في الفصل الثامن ،والتي سنستدعيها في هذا السياق إلى الذاكرة(شكل ٨-٢) . ولقد كان ذلك زمن لاختراق آسيوي جديد لوادي النيل . وفيما بعد، في المملكة الحديثة وما تلاها، أصبح الخنفساء أعم وأشهر المشغولات المصرية، وحل محل الختم المستدير.

وكان الختم الأسطواني من جوانب عديدة أداة أكثر كفاءة من الختم المسطح، إذ إنه سمح بتعريض سطح أوسع. ولهذا فإن الكثير من الأختام الأسطوانية تحمل نقوشا نصوصية وهذه ليست الحالة المعتادة بالنسبة الأختام الخليجية، والأسطوانات بالتالي قادرة بتكرار أكبر على أن تنسب للمالكين مما هي الحال بالنسبة للأختام المسطحة.

و أكثر و آخر الأختام الخليجية نموذجية صيغة عالية التميز يبدوأنها تطورت على مدى فترة من القسم الأخير من الألف الثالث، وبالتالي إلى القرون الأولى من الألف الثاني. وحين انتقل الكاشيون للسيطرة على سهول بلاد ما بين النهرين والخليج اختفى الختم الأسطواني الذي أثبت تفوقه الوظيفي . والصيغة كاملة التطور للخاتم الخليجي هي خاتم مستدير يندر أن كان بقطر يزيد على ٢-٣ سم ،وغالباً أصغر من ذلك. ووجهه منبسط ، ينقش عليه التصميم: حيوانات، مشاهد عبادة، أوما يبدو غالبا للوهلة الأولى عناصر عشوائية توجد مكررة في مجموعات متعددة على أختام مختلفة. ويظهر شعار الدائرة المثقوبة أو" العين" على القفا المدبب مكررا كثيراً في منتجات خليجية أخرى من الفترة ذاتها، وغالبا ما يكون عنصراً من عناصر التزيين في آنية الأستياتايت التي توجد بكميات كبيرة في المواقع في طول المنطقة وعرضها.

ويعود تاريخ أقدم الأختام المعروفة غير تلك التي في المواقع الأناضولية القديمة، إلى الألف الرابع ق.م ، وقد استخرجت من مواقع سورية وإيرانية. ويميل أقدم هذه الأختام إلى أن يكون منبسطا ليطبع بثبات ممسوكا بالأصابع على الفخار الذي كان سيتخذ شكله ، مثل الأختام التي أتت من بلاد ما بين النهرين القديمة، ويصور حيوانات مهيأة ربما بمغزى فتشي

أوطوطمي* لقد أفرز كل مستوى من مستويات مواقع المدن السومرية ومدن خلفائهم حصيلة من الأختام تبين، أقدمها التصاميم المجردة رائعة الشكل، بينما استقرت الأجيال اللاحقة على التصاميم التصويرية التي تبدو روائية في مقاصدها. وتبين هذه الأختام مظاهر يمكن ربطها بأسطورة بلاد ما بين النهرين، مثل البطل والرجل الثور يتصارع مع الحيوانات، وهو التصميم الذي ينسب عادة إلى ملحمة جلجامش، أو مشاهد عبادة ومناسك دينية تخص صاحب الختم أو ربما كفيله وراعيه، معروضا على أحد الآلهة الكبرى. وتعرض حلقات من قصص الآلهة من بينهم إنكي، وشمش، ونانا ،وانانا، الأكثر تصويرا. وتبدي أنواع فيما بين النهرين بصورة جيدة الوظيفة المزدوجة للأختام، فبالإضافة إلى العمل فهي تعويذات تضفي حماية الآلهة على المستدعي إحضارها على الغرض الذي تختمه، وأصبحت أيضاً وسائل لتمييز الملكية في المجتمعات الأمية بصورة سائدة. وهكذا ومع مرور الزمن صنعت إدارة المعابد وحكام المدن ثم التجار أنفسهم علاماتهم الخاصة بهم والتي جعلت تمييز ملكيتهم سهلا وأكيدا. ومن غير المحتمل أن تكون الأختام قد فقدت صفتها التعويذية كلية . وتستخدم أيضاً على الوثائق القانونية لتؤكد على وجود الشهود أوقبول الأطراف المعنية.

ومع أن أمراء العصر القديم قد استخدموا الأختام لإعداد المعاهدات والأوراق الرسمية يبدو أن لا شك في أن غالبية الأختام الباقية هي التواقيع الرسمية للتجار ورجال الأعمال .ويمكن القول إنها أصل العلامة التجارية ، وبالتأكيد خدمت وظيفة الشعار الشخصي ومثلت بدايات شعارات النبالة**وفي كريت، حيث اتضح مدى التجارة القديمة بالمصادفة وأفرزت تلك الحضارة الرائعة بوجود الأختام البابلية القديمة كما هومتوقع بعض أكثر الأمثلة أناقة على الإطلاق كانت عادة صنع الأختام متبعة بجدية ، و فيما يبدو أنه

* الفتشية تقديس الجمادات وعبادة مظاهر الطبيعة والطوطمية جعل حيوان أو نبات أو طائر رمزاً للأسرة أو العشيرة أو الاعتقاد بأنه الحارس لها (د. السقاف).

** Heraldy وهي شعارات تتخذها الأسر النبيلة رمزاً لها وتتوارثها أجيالها (د. السقاف) .

عادة كريتية من التعقيد الزائد الذي يتجلى في هذه الدائرة كما في دوائر أخرى من مجتمعهم، فإن الأختام الكريتية في الحقيقة مجوهرات ،وتصنف تكرارا على هذا الأساس. ومن بين الأختام الكريتية الختم منشوري الشكل. وتم تعرف الأختام المنشورية من ميسر (Maysar) في عُمان، وهذه تعود إلى تاريخ أقدم من الأمثلة الكريتية،و مستمدة في الحقيقة من أم النار في الألف الثاني قبل الميلاد.

وفي مدن وادي السند، تطورت صيغة مميزة للخاتم المسطح مربع الشكل في العادة، وبحجم ملفت للنظر من حيث عناصر التصميم المدمجة على الوجه. ويظهر نقش وادي السند على الكثير منها ،وغالبا في تجاور مع ثيران ضخمة ذات سنام، وهي عامل هام في الهندسة الزراعية في شبه القارة حتى هذا اليوم. ويبين ظهر خاتم وادي السند عادة ارتفاعا طفيفا ثقب فيه ثقب الضغط. وتبدو بعض الأختام تصور الآلهة التي اتخذت لاحقا في الهيكل الفيديكي.

وكانت الطرق التجارية مفتوحة بين المدن السومرية، ومدن وادي السندومعروفة منذ أمد بعيد باكتشاف الأختام السندية في مدن مثل أور. والنوع التالي عالي التميز من بين جميع الأختام التي تمت معرفتها ، وكان واضحا أنه لا هو بالسندي بالكامل ،ولا هوخاص ببلاد ما بين النهرين مع أن الأمثلة المكتشفة المدونة تحتوي عناصر تصميم يمكن نسبتها لكلا المجتمعين. وهذه النوعية الثالثة من الأختام التي عثر عليها في سومر كان مصدرها الخليج ، ولقد أكدت الحفريات في البحرين، وفيلكا ذلك، وأن هذه الأختام خاصة بدلمون وتحمل اسمها.

والأختام ، وبخاصة تلك التي أتت من مواقع خليجية،هي في الغالب صور مصغرة عن الأعمال الفنية شديدة التعقيد والروعة. ولا بد أن فن الصقل كان راقياً لدى جماعات العالم القديم ، ورد النحاتون والصناع، مثلهم مثل الجواهريين الأكثر دقة، على ما حظوا به من الاحترام من خلال المعايير العالية لحرفتهم. ولم يبق أية عِدد أو أدوات لقاطع صخر وإن

عثر على ما يحتمل أنه كان ورشة في البحرين. ولا شك أن مقادح صغيرة من النحاس أو البرونز قد استخدمت في قطع التفاصيل النهائية للتصميم بمجرد تمييز وجه الختم كي يصنفر السطح ويلمع.

ويظهر أحد الأختام الأمجاد الخاصة للفن القديم في الأبعاد المصغرة التي استخدمها أولئك الصناع القدماء .ويمكن تكبير التصميم إلى درجة كبيرة كالتماثيل ،ويظل محتفظا بتناسبه وتأثيره. وفي الخليج، جميع الأختام قاطبة مصنوعة من الكلورايت ، الحجر الناعم نسبيا الذي يسهل تشكيله وينحت بصورة جيدة. وفي بعض الأحيان ، وعلى نمط الأختام التي أتت من مدن وادي السند، تغسل بمحلول قلوي يعطيها تشطيباً حليبي البياض. وتوجد في الغالب في الحجر غير الملون ، وحقيقة كون أختام دلمون مسطحة، وأن العديد من أقدمها يحمل نقوش وادي السند،قد قادت إلى الإيحاء بأن الصيغة نشأت أصلاً في مدن وادي السند التي كانت جهة الوصول للكثير من بضاعة الخليج.

أختام الخليج

لقد تم اكتشاف قرابة ألف ختم خليجي ، ما يزيد على ٤٠٠ منها جاء من جزيرة فيلكا في خليج الكويت. ولقد عثر على عدد مساو ،وربما أكثر في البحرين ذاتها وإن لم تكن جميعها قد نشر عنها بعد. ويعتقد بوجه عام أن الطراز قد نشأ في البحرين.

ويوجد نوعان من الأختام: الأقدم، ويحتوي على خط أو خطين غائرين متوازيين على وجه القبة، والأحدث، وبه أربعة خطوط غائرة ،وهي في الغالب دوائر مثقوبة. ويميل النوع الأقدم إلى التركيز على أشكال الحيوانات والرموز النجمية والشمسية، أما الأختام الأحدث فيبدوا أنها تصور مشاهد شعائرية.

والأختام التي من باربار جميعها من النوع الثاني كما هي الحال بالنسبة لتلك التي من

فيلكا. ويبدوأن الانتقال من الأقدم إلى الأحدث قد تم في أيام أور الثالث حوالي عام ٢٠٢٥ ق م.

ويتبع توزيع الأختام الدلمونية الطرق التي شقها التجار الذين امتلكوها بين سومر ووادي السند، ولقد كشف الحفر في أور عن المجموعة الأولى، والعديد منها الآن في المتحف البريطاني. ويبدو أن هذه تبين علاقات خاصة مع وادي السند. وعثر على أخريات في لوثال ،أحد الموانئ البحرية التي خدمت مدن وادي السند على ساحل ما يعرف الآن بباكستان،.

شكل القبة في الظهر في حالة أكثر الأشكال القديمة، نتوءٌ أسطواني في وجه الختم أكثر منه قبة متكاملة في الختم الدلموني النموذجي. وبعض الأمثلة أبسط من ذلك، وهي مجرد حجارة مستديرة مقسومة من الوسط، ومن الممكن أن تكون القبة ذاتها قد تطورت من هذه الصيغة من صيغ الختم الزر. و التصاميم جميعها بسيطة عدا استثناء أواثنين، وتنحصر عموما في موضوع واحد ، غالبا صيغة مجردة لحيوان. ومنذ البداية ،وعلى امتداد عمر الأختام الدلمونية يظهر حيوانان، وهما العقرب والثور.

ومن بين حصيلة الأختام من مجمع المعبد في باربار يبدوأن أكثرها قد ألقي به عمدا في البئر المقدسة. وهذه المجموعة محققة تماماً من حيث الشكل والتصميم، ومعقدة تعقيداً عالياً وتسر الناظرين. وقد استخدم وجه الختم الدائري استخداما كاملاً وحساسا (شكل ٧–٧). وتصميم هذه الأختام غير مهزوز بصورة ملحوظة عند مقارنته ببعض الأختام من النماذج اللاحقة ، حيث لم يكن الصانع على ما يبدوقادرا على ملء كل مليمتر متوفر في السطح. وأشكال الرجال والحيوانات مليئة بالرشاقة والحيوية ،وتعطي إحساساً غريباً بالحركة المحتجزة التي هي دائما أحد أمجاد الفن القديم.

وتأتي أكبر مجموعة أختام من البحرين من مستوى المدينة الثانية في قلعة البحرين ومعابد البحرين المرتبطة بها .وعليه فهي تعود بتاريخها إلى نهاية الألف الثالث وبداية

الألف الثاني ق.م. وكانت الفترة الأخيرة زمن إليك-تلمون، وكان ذلك أوج نفوذ التجارة الدلمونية وأهميتها. وتراجعت جميع آثار النفوذ السندي الواضحة في الأشكال الخليجية مع أن بعض العناصر ماتزال باقية من أزمنة قديمة ومعها مؤثرات بلاد ما بين النهرين، وعيلام الواضحة.

ويعاصر هذه الأختام، والتي عثر على عدد منها في أنقاض ورشة قاطعي الأختام، الكنز الجدير بالملاحظة والذي يضم ٥٠٠ خاتم، وكان قد اكتشف في بقايا مستوطنة من أوائل الألف الثاني ق.م في فيلكا. وبينما تتطابق هذه مع النسق العام لأشكال الختم الدلموني، حيث كانت فيلكا مقاطعة من مقاطعات الثقافة الدلمونية في ذلك الزمان، فإن لها كتابتها التصويرية المميزة، ومن عدة نواح أكثر جاذبية وإثارة للدهشة من بين جميع الأختام التي عثر عليها في الخليج.

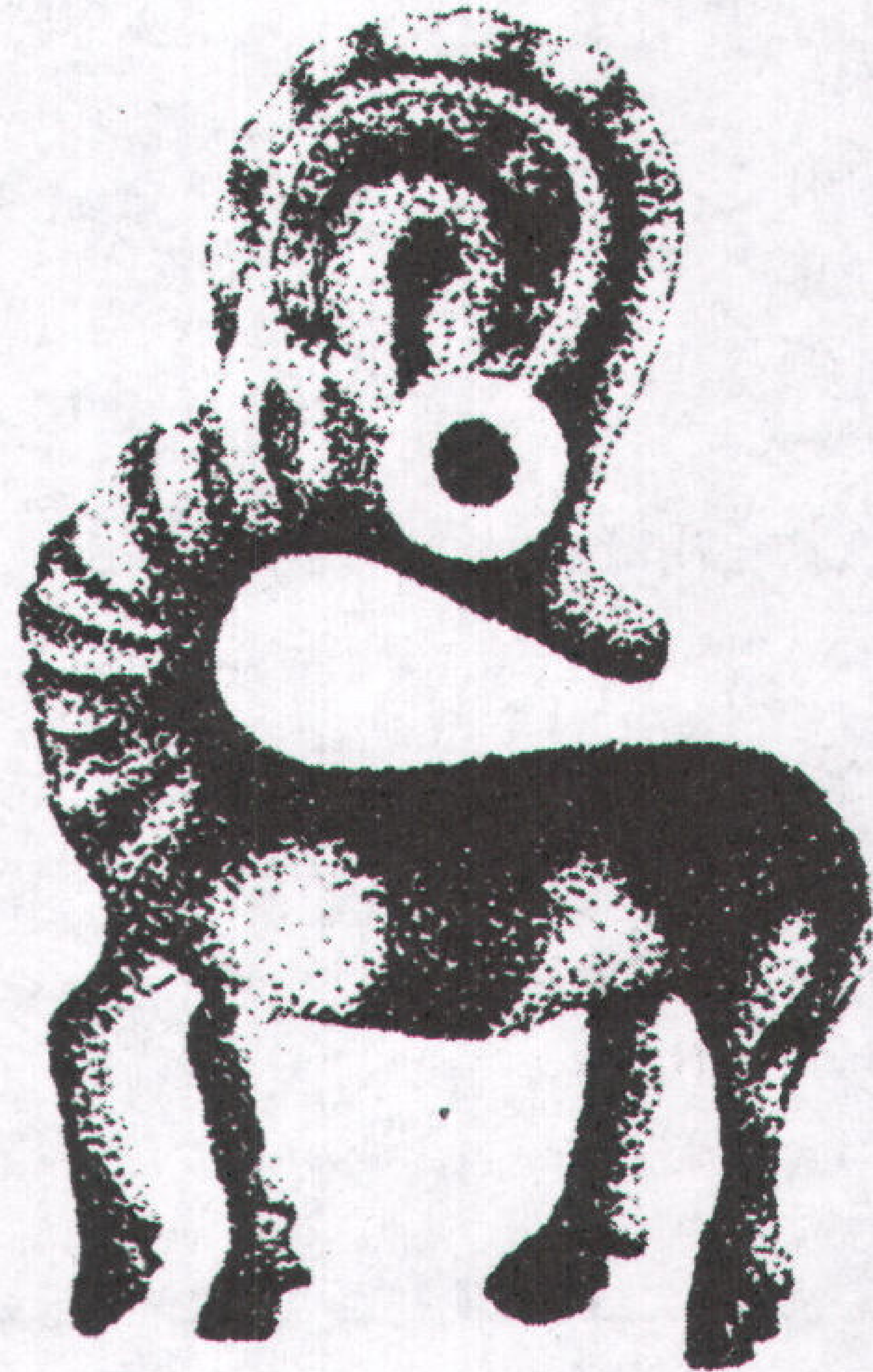
وهذه الأختام الأخيرة جديرة بالملاحظة من خلال روعتها وحيويتها ودقة صنعها، والخاصية الأخيرة وحدها تدل على أن قاطع الأختام لم يكن على ما يبدو يترك الأمور على عواهنها، بل أظهر ميلا إلى التزيين الزائد.

والأختام جديرة بالملاحظة أيضاً من جانب آخر وهو عدم فهم كتابتها التصويرية إلى حد بعيد في مرحلة المعرفة الحالية. وبالطبع يمكن تمييز العديد من العناصر، وإن لم يكن ممكنا حتى الآن تقديم تفسير ثابت لكل تصاميمها. وهذا بالطبع يفترض مسبقا أنها قابلة للقراءة وليست مجرد حشد من العناصر المختلفة (إذ لا يوجد أبدا ختمان متشابهان تماماً) تعمل على التمييز بين ما يخص مالك وآخر. ويبدو من سابقة أختام بلاد ما بين النهرين وأختام وادي السند أنها على الأرجح قد نقلت مغزى رمزيا للناس الذين استخدموها.

ولقد سبق أن لوحظ أنه في حالة أختام بلاد ما بين النهرين صورت المشاهد الشعائرية في العادة، بينما أختام وادي السند قد احتوت كثيرا من نقوش غير مفهومة. والأختام الدلمونية مختلفة من حيث احتوائها غالبا على مجموعات من العناصر العشوائية حسب الظاهر،

لكن تكرار بعضها مثل البدن والغزال، والجدي، والطير، والشجرة، والقدم، والعقرب وغيرها في أشكال من التبديل توحي بأنه كان عنصر له مغزاه الخاص ،أو أن التصميم بكامله يمكن قراءته.

أما البدن ، المخلوق المقدس لدى إنكي، فواحد من الحيوانات الأكثر تصويرا ،والموجود غالبا في أختام الخليج بالقدر ذاته الذي للثور والعقرب. ويظهر الحيوان غالبا في تجاور غريب مع العناصر الأخرى في تصميم الختم ، وحتى في بعض الأحيان رأسا على عقب، وكثيراً ما يبدو ورأسه مستديرة إلى الوراء ينظر خلفه (شكل ٩-١) . ولعل هذه محاولة للإيحاء بمغزى فلكي من نوع ما، والعلاقة بين العناصر المختلفة في التصميم كل منها يعني واحداً من الأجرام السماوية أو الأبراج. والعديد من العناصر المتكررة في التصميم على الأختام متميزة مع الأبراج تحديدا: الثور، والعقرب ،والأسد، والجدي ، والحية ، والطير (وفي بعض الأحيان النسر).

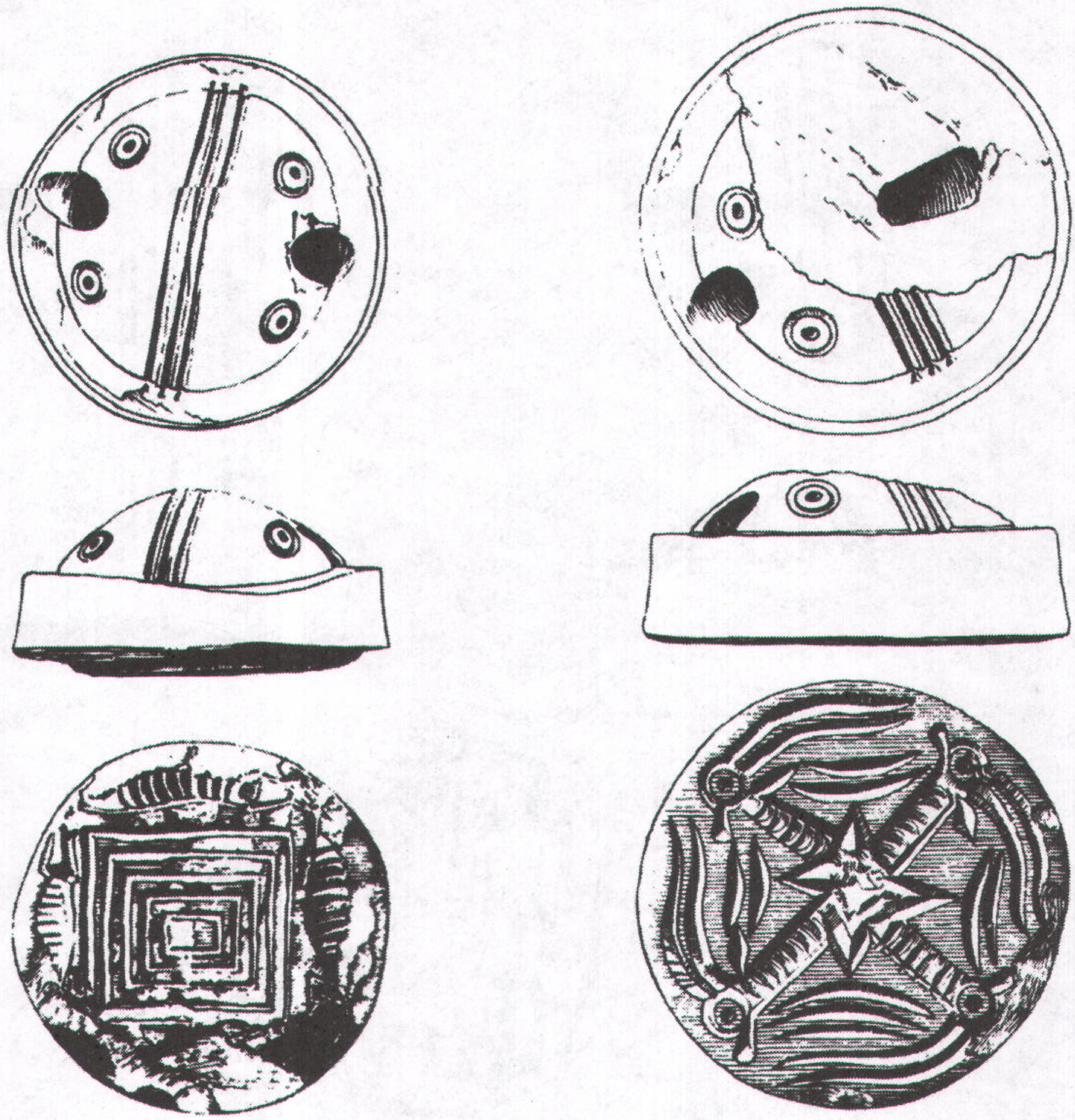


٩- ١البدن ، وصور غالبا ورأسه مستدير للخلف، موجود بكثرة في أيقونات الأختام الخليجية

ويبدو أن كثيراً من التصاميم الموجودة على الأختام مرتبطة بخصوبة الحيوانات والرجال، ويمكن أن يرمز بعضها إلى الخير والشر، أحدهما يتمثل مع مالك الختم ، والثاني يتوسل إليه استرضاءً له وتحاشيا لمكره. وفي حالة الأختام المتأخرة ، خاصة تلك التي أتت من فيلكا،تلميحات في التصاميم إلى صلات مع سوريا وشرق الأناضول. وهذا مثير للاهتمام على ضوء إمكانية أن يكون هنالك صلة ما بين شعب الخليج في أوائل الألف الثاني ، والساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

ولقد أجريت محاولات للتعرف على ما قد يربط بين أختام محددة وأساطير سومرية معروفة وافترض أنها تصور أحداثا من قصة جلجامش، أوأساطير الخلق المرتبطة بدلمون. ولا يوجد إثبات لمثل هذه التنسيبات ولوصف شكلين مذكرين كما كان الحال غالبا على خاتم من فيلكا على أنهما جلجامش وصديقه إنيكدو، فعلى الرغم من أنها أمور مغرية فإنها مضللة. ولم يعرف القدر الكافي للفهم الذي كان لدى السومريين عن أساطيرهم ، ولا بد من الاعتراف بأن ازدواجية جلجامش وصديقه، وازدواجية شكلين على خاتم، وإن كانت تمثل المبدأ ذاته، فإنها لا تمثل بالضرورة إحداها الأخرى. وحقيقة أن كل شكل لبطل يتصارع مع أسد أوثور يميل إلى إلصاق اسم جلجامش عليه، حتى في حالات تسبق على وجوده التاريخي حقيقة قد نَبَّهْتُ إليها سلفا،وتمثل ذلك النوع من المشاكل الناجمة عن المبالغة في تبسيط الأمور. و من الإنصاف إضافة أنه لا يهم بأي حال ما هية التفسيرات الملصقة بالأختام ،إذ إنها متقنة وجذابة بما يكفي لكي يعجب بها لذاتها، فهي أعمال فنية خلابة تماماً وإن تكن صغيرة، ووثائق دقيقة تلقي الضوء مهما يكن خافتاًعلى عقول الرجال الذين عاشوا في هذه المنطقة قبل ٤,٠٠٠ سنة خلت أويزيد .

وحتى الآن لم يتم نشر أختام الخليج ،غير تلك التي أتت من فيلكا ،بصورة كاملة، ولهذا فإن معرفتها،حتى في الدوائر الأثرية محدودة جداً. ومن المأمول به حين يتم النشر عن كامل الأختام الدلمونية أنها ستتميز بما لعبته من دور هام في تاريخ الفن. وفي غضون



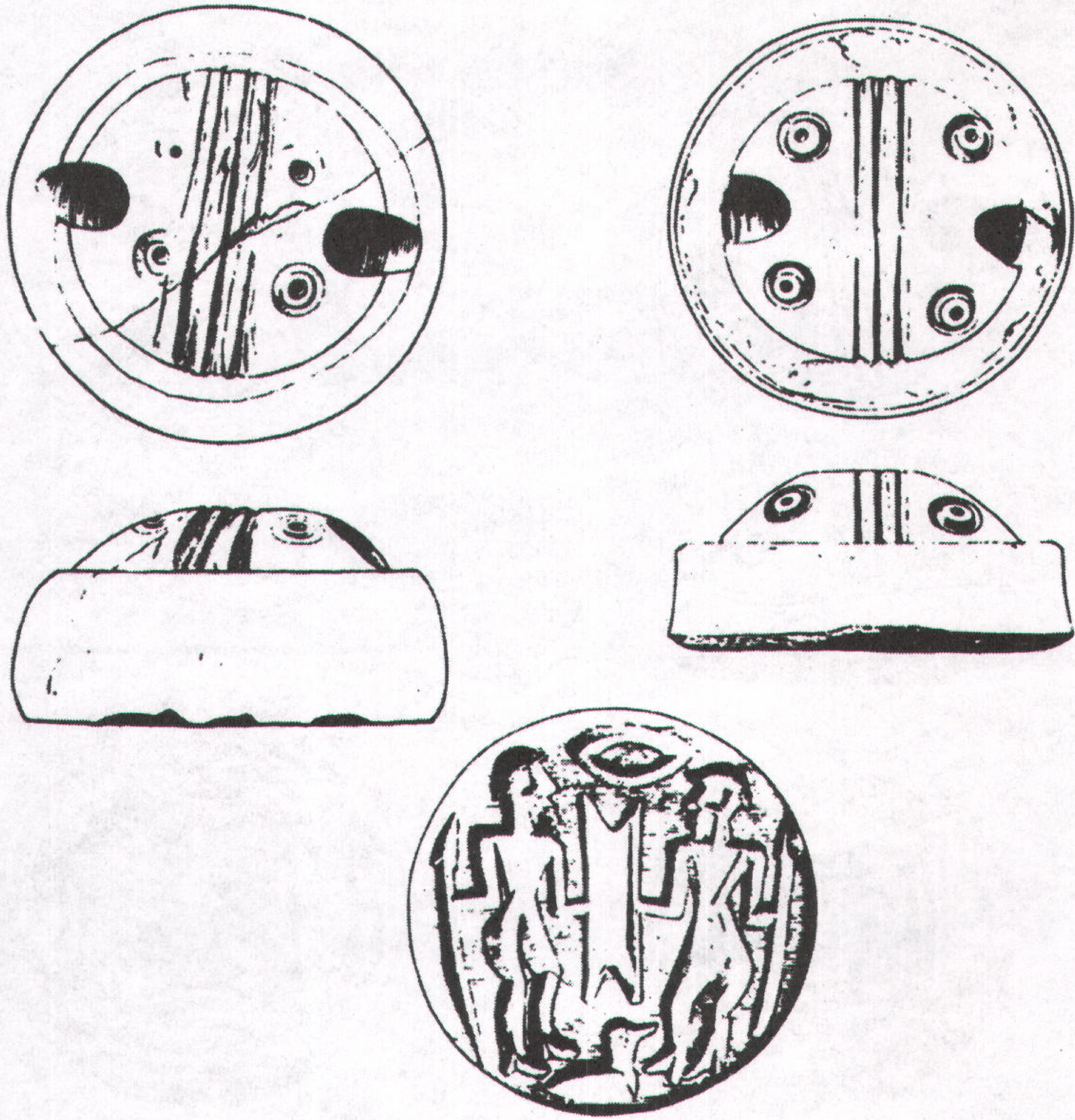
٩-٣ رؤوس وعول متصلة وتدور في تصميم الآثار القديمة.

٩-٢ ختم دلموني يبين عقربا يحيط تصميما شبيها بمتاهه المربعات المغلقة.

ذلك من الممكن إفراد بعض الأختام وبعض العناصر التي تظهر تكرارا في تصاميمها ، إذ إنه حتى ما هو بالضرورة فحص عابر فقط لبعضها قد يطرح اعتبارات بالغة الأهمية.

وتظهر الآلهة، أوعلى الأقل الكائنات الخارقة، على العديد من الأختام. وتتمثل في الحيوانات والسفن وأشكال مصاحبة مثل رجل غريب نصفه إنسان ونصفه الآخر ثور . وفي الغالب ترتدي الآلهة التاج النموذجي ذا القرون، أو العمامة ذات القرون الخاصة بالآلهة السومرية.

ومن بين الأختام البحرينية يمثل العقرب أكثر التصاميم شيوعا ،ويظهر بمفرده أو مرتبطاً مع عناصر أخرى ، وفي بعض الأحيان ممثل حرفيا،وفي بعضها الآخر مرسوم تخطيطيا.



٩–٥ خاتم يبين محاربين يمسكان بدرع

أو بترس بينهما

والعديد من أختام العقارب قريبة الشبه بأمثلة من تل براك في شمال سوريا ،و يمكن أن تكون من تاريخ أقدم. ويبدو ممكنا أن رمزاً نشأ في الخليج، وربما في البحرين ذاتها. ويظهر أحد أختام باربار مبينا أربعة عقارب تحيط بسلسلة من المربعات المسقطة والتي تمثل منطقة أوبناية مقدسة، ولعل هذا التصميم يمثل بصورة تدعو إلى الإعجاب المستويات المتتالية لزقورة كما ترى من السطح (شكل ٩–٢)

ويمكن تعرف تصميم موروث من أزمنة أقدم في صنف من الأختام، من فيلكا ومن البحرين، يصور رؤوس بدن أوغزال تدور ، أربعة أوخمسة أوستة مرتبطة من العنق (شكل٩–٣) .وتحدد هذه الأشكال الخليجية العودة إلى التمثيل الحرفي لهذه الرمزية لفروات هذا المخلوق، إذ إن الشكل قد أصبح مجرداً تجريدا عاليا بعد إدخاله في آنية سامراء من شمال بلاد ما بين النهرين في الألف الخامس والرابع ق . م.

ويبرز ختمان من مجموعة البحرين كلاهما من باربار ، تقنيتهما ومضمونهما مختلف عن الأخريات، يظهران كما تظهر الأمثلة الأخرى من فيلكا أنه وبالرغم من التقليدية الصارمة للفن القديم، فإنه لا يزال هنالك مجال كبير وفرصة للفنان المتميز.ويعرض الأول رجلين متقابلين يمسكان بترس بينهما وكل منهما معه حربة يمسك بها باليد الأخرى(شكل ٩–٥) . وتظهر فوقهما " عين" ، رمز قديم جداً لعله يشير إلى إله الشمس البصير بكل شيء. وتوجد أمثلة لا حصر لها مما يسمى معبد العين في تل براك ومواقع أخرى عديدة. ويبدو الرجال وكأنهم يرتدون خوذاً وشعرهم حليق حتى جلدة الرأس.

ويبين الختم الثاني تمثلاً ذكراً يقف في محيط مضلع بجانبين منه إناءان، صغير وكبير، مثبتان بهما (شكل٩–٦) ،وعلى اليسار خارج المحيط غزال يدير برأسه ينظر إلى التمثال بداخله، بينما يظهر عقرب على اليمين. وربما يمثل المخلوقان الحياة والموت ،فالمشهد يوحي بالدفن مع الإناءين اللذين كانا عادة يوضعان في القبر، ومن الممكن بالقدر ذاته أن يكون المقصود تمثالاً في مزار.

ومن المثير للفضول ظهور لوحة في قبر مصري من الفترة الوسطى الأولى حوالي (٢٠٠٠ ق .م) موجودة في المتحف المصري ببرلين حاليا، تبدي العناصر ذاتها إلى حد بعيد ، فهي والختم على الأرجح معاصران. وبالتأكيد يصور الختم الذي من فيلكا مشهدا شعائرياً معقدا بتمثالين يقفان في محيط يحمل رموز بلاد ما بين النهرين للآلهة.

والتمثيل المتكرر على أختام بلاد ما بين النهرين " لمأدبة" من تمثالين أوأكثر وأحيانا لبشر

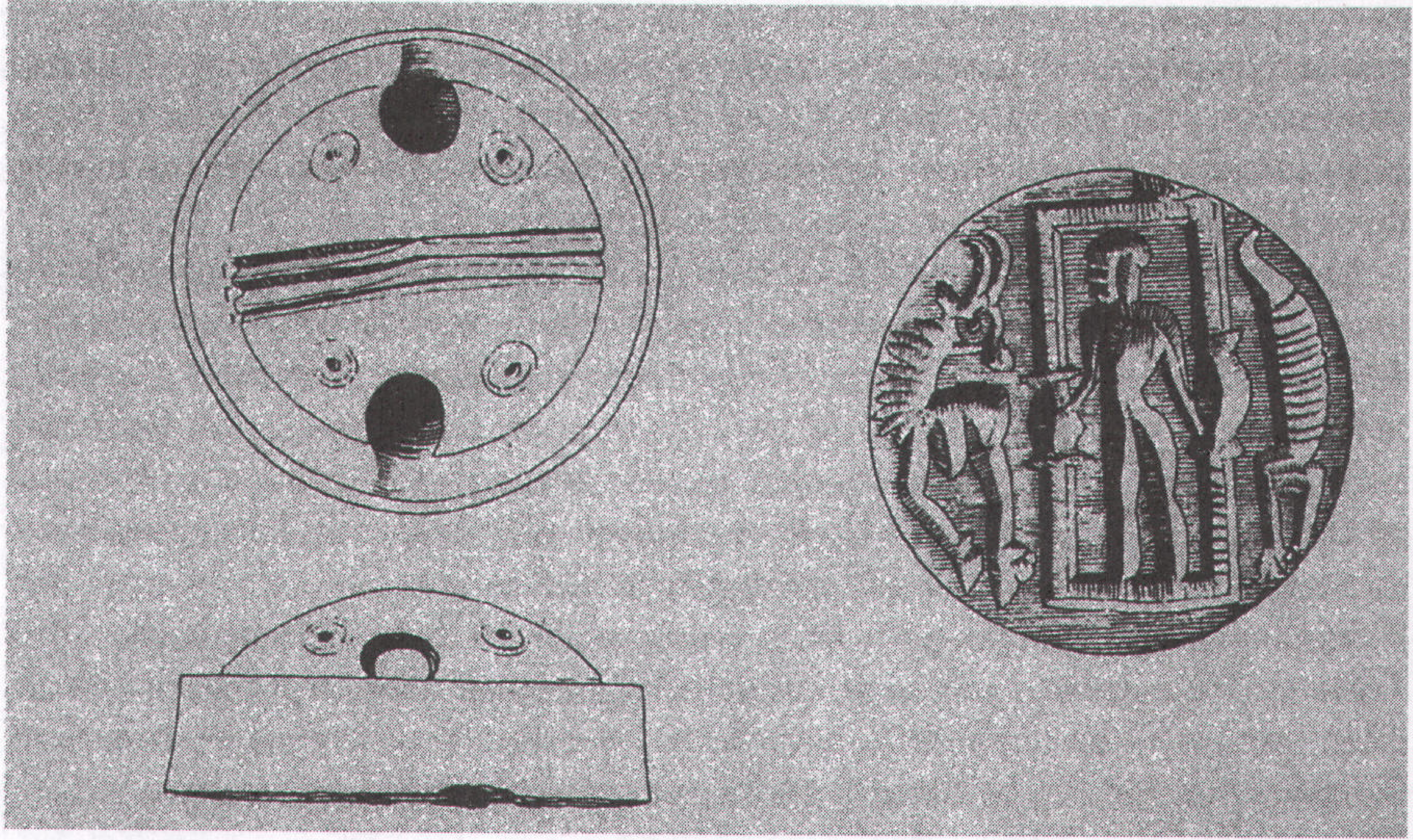
وأحيانا آلهة يشربون بوساطة بوصات رفيعة طويلة من إناء مشترك .ويظهر هذه المشهد أيضاً في الخليج يبين تمثالين يومئان إلى بعضهما معا بالقرب من نخلة ويظهر فوقهما الهلال في السماء ويسهل تبين تاجرين من دلمون ،ربما في طريق عودتهما بعد يوم حافل من العمل والشراب (شكل ٩-٧) . وتظهر العروض تمثالين على أختام دلمونية أخرى يشربان بالبوصات الرفيعة .

ويشتمل صنف هام من الأختام على تلك المصنوعة من الأصداف البحرية، في تباين مع النماذج المصنوعة من الكلورايت أوالأستياتايت ،والتي تمثل الأرجحية الواسعة من الأختام المسجلة . والصدف المستخدم لصناعة الأختام من العائلة كونداي ، وهي صدفة شائعة في الخليج ،وتتميز بشكلها الإهليجي. ويتم الوصول إلى شكل الختم بقص قاعدة الصدفة ، ويبدوأن الدلمونيين قد عرفوا أن كل صدفة لها تشكيل متميز من الداخل.

وحتى الآن عثر على أختام الأصداف في القبور فحسب . وبهذا فهي تختلف عن معظم أختام الخليج التي كانت تدفن أحيانا فقط مع أصحابها . ولقد عثر على أختام الأصداف في معظم أنواع المدافن في البحرين، خصوصا تلك التي تعود لحقبة دلمون القديمة.

ولبعض الأختام تصاميم حفرت عليها بتقنية قورنت بتلك التي استخدمها قاطعو الأختام في بلاد ما بين النهرين إبان حقبة جمدت نصر ،مع أن النماذج البحرينية أحدث تاريخيا بكثير. ويبدوأن بعضها يكرر عناصر تصميم الحيوانات والرموز الشمسية والنجومية، التي تظهر على الأختام الخليجية ذاتها.

وليس واضحا في الوقت الراهن ما إذا كانت أختام الصدف أقدم تاريخا من أختام الكلورايت أوكانت معاصرة لها . وحيث أنها توجد في محتوى جنائزي فقط فإن من الممكن أن تكون نسخا مكررة عن الشيء الحقيقي،وهي الطريقة غير المكلفة نسبيا لضمان ذهاب الميت إلى الحياة الأخرى من غير ختمه .



٩-٦ تمثال صغير يقف أو يضطجع داخل ما يمكن أن يكون قبرا، مع إنائين مبنيين في الجدار



٩-٧ ختم يبين تمثالين يومئان تحت شجرة نخيل

ولقد استخرجت مجموعة كبيرة من طبعات الأختام من باربار. وهذه حبيبات مسطحة من الصلصال يظهر عليها طبعات من أختام صغيرة ،وفي بعض الأحيان على كلا جانبي الختم. أما وظيفتها فغير معروفة ،واستخدمت عبارة خاتم لوصفها فقط لأنها في مظهرها شبيهة بطبعات الأختام التي دمغت بها في العادة لوثائق الرسمية في أوروبا في العصور الوسطى .وتطرح هذه سلسلة من التصاميم الجديدة تماماً، ويظهر أحدها على العديد منها، وهكذا يبدوكحزمة من القصب مربوطة معا من الوسط، ما مثل الحزيمة الرومانية إلى حد ما.

الرمز الذي يظهر على أختام البحرين ، كما يوجد أيضاً على تلك التي من فيلكا، وإن كان على ما يبدو بتكرار أقل، هوالقدم البشري المفردة، ويمكن أن يكون هذا متصلاً تصويريا بالمثلث المشعب لما بين النهرين . والتردد الذي تظهر فيه القدم في الكتابة التصويرية الخليجية ومضامين أخرى في الجزيرة العربية مدهش إلى درجة أن من الصعب تجنب فكرة أن ظهوره في معبد باربار ليس مصادفة فعلا. ولعل المقصود به نقل فكرة الاتصال الخالد مع الآلهة الذين كان إنكي بالتأكيد واحداً منهم، وربما الأول والأعظم، بوساطة جزء واحد من جسم الإنسان الذي هو عموما على اتصال دائم بالأرض التي تسكن تحت سطحها آلهة العالم السفلي.

أختام فيلكا

كمية الأختام من فيلكا بذاتها – حيث لا يبدو أنه كان هناك مستوطنة دائمة أوميناء هام– جديرة بالملاحظة ومحيرة صراحة. ولا يوحي أي جزء من الموقع حتى الآن بأي مستوطنة تقترب في حجمها وأهميتها كمركز مدني من موقع المدينة الثانية في البحرين. ومع ذلك فقد استخرج من الأخيرة أقل مما استخرج من فيلكا، وأقل بقدر أكبر من موقع

المعبد في باربار. ولقد قدم الموقع الوحيد في فيلكا عدداً جوهرياً من الأمثلة المعروفة جميعها. وعثر في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية على خمسة أختام ،ولكن بالطبع لم يحفر عن موقع رئيس من الحقبة ذاتها في تلك المنطقة بعد.

وأحد التفسيرات أن هذا التجمع من الأختام في فيلكا يعود إلى شخصية الجزيرة المقدسة، ولعله كان من المعتاد تكريس الأختام للآلهة السائدة في حال موت تاجر ، أوعند تقاعده عن العمل. ولكن حتى يتم حفر المزيد من موقع فيلكا فمن العبث التخمين . ويحتمل أن تكون فيلكا قد عملت كنوع ما من مراكز الجمارك للسلع المقصود شحنها ثانية إلى بلاد ما بين النهرين، ولعل الأختام كانت تشكل نوعاً من نظم القيد والمراجعة.

وتصاميم أختام فيلكا عموما أكثر تعقيدا من الأختام البحرينية،وتسود أشكال الحيوانات و مشاهد القرابين عامة، ويبدو أن الحيوان الرئيس للقربان هوالثور،وإن ظهر الغزال والبدن أيضاً . وتتكرر مشاهد الصيد. ويشير آريان إلى أن الغزلان والماعز الوحشي كانت تربى في فيلكا لتقديمها قرابين لآلهة الجزيرة في أيام الإسكندر.

وتتكرر أنواع من العناصر في أختام فيلكا ، وتتضمن الكتابة التصويرية غالبا طيراً كبيراً،ربما كان النعامة، أو " طير ملوخة" الذي يعتقد أنه كان الطاووس، حيث أن اثنين منها مصوران على خاتم ،يمتطيان ثورا من النوع السندي الكبير. وأيا كان جنسه، فإن الطائر الذي على الختم هو بكل وضوح الطائر النحاسي ذاته الذي عثر عليه في باربار.

المسألة المثيرة المحيرة في العديد من الأختام التي عثر عليها في البحرين وفيلكا هي تصميم المربعات المنتظمة في بعض الأحيان ٩،١٥، ١٦، ٢٠، ٢٤، ٢٨، وفي حالة واحدة ٤٠ من حيث العدد (شكل ٩-٨). وهذه المربعات مبينة عادة في استنباط وثيق مع أشكال بشرية أو آلهه ذات مغزى، والتي يمكن أن تكون واقفة عليها أوفوقها كما لوكانت محاريب تمسك بها أو تقدمها. ومثلها مثل الهيروغلوفية المصرية ذات الشكل ذاته يمكن أن يمثل هذا الرمز مدينة أو مستوطنة، والتمثال المرتبط بها إما الملك أوآلهتها الحارسة. وفي

بعض الأحيان تبرز رؤوس الحيوانات من تصميم المربعات.

من المتعذر تفسير نوايا الصناع والفنانين القدماء، أومحاولة تحديد ما هوالقصد الذي كان بأذهانهم. وعلى أية حال يوجد صنف واحد من الأختام يثير الاهتمام بشكل خاص، ومن خلال تكرار الرمز، ربما يكون له مغزى خاص للمنطقة بأسرها، وإن كانت الأختام قد أتت بصورة رئيسة من فيلكا. ويبدو أن المجموعة من الأختام تمثل دليلاً على عبادة ثيران واسعة الانتشار وعالية التطور.

ولو كان بالإمكان التخمين حول تلك العقيدة الدينية في فيلكا، لكان معقولا الافتراض أنها متعلقة بالثيران، حيث إن أكثر التصاميم جدارة بالملاحظة يبين الثور بكل وضوح في مضامين طقوسية. ويقدم التمثال الذي يظهر على أختام فيلكا والبحرين على حد سواء شخصية غامضة أخرى وهرمية، إذ يصور بتكرار رجلاً ذا أقدام ،وحوافر ،وذيل ،و قناع ثور،وهذه نسخة أخرى من العمامة ذات القرون للآلهة السومرية (شكل ٩-٨). وفي أحد الأختام يمسك برأس ثور مقطوع واقفا على رمز المربعات ،بينما يدير بدنان رأسيهما بعيداً، وفي الآخر تمثالان مقنعان يسندان شخصية ثالثة، أقل وضوحا، على محراب. وفوقهما واحدة من الزهرات العظيمة ذات البتلات الثماني التي تتكرر كثيراً في أختام فيلكا محتلة أرض الوسط مع اثنتين أخريين إلى جانب الكهنة عند المذبح، إن كان هذا ما يصوره المشهد. ويقف فوقهما ثوران بينما تقفز قردة على ظهريهما . والمذابح المصورة على هذين الختمين على شكل هلال، شبيهة بالمذابح الهلالية ذات القرون التي توجد في المعبد في سار بالبحرين.

وآخر الأختام التي تبرز الثيران، والذي سيوصف هنا، يعيد إلى الأذهان كنز القبور الملكية في أور. وكان بعض أروع ما عثر عليه في أور العيدان والقيثارات الاحتفالية العظيمة التي كانت مدفونة مع الأمراء وحاشيتهم. وكانت هذه ملحوظة بسبب رؤوس الثيران المشغولة بدقة،وقد زينت بها العلب المحيطة بالعيدان. ويظهر على خاتم فيلكا رجل جالس تداعب أصابعه أوتار العود. لكن العود نفسه تحول إلى ثور بينما تبرز دعامة الآلة



٩–٨ أحد أبهى الأختام وأكبرها تذكارية وقد استخرج في البحرين



٩–٩ تصميم مذهل الحداثة، يذكر بأعمال ماتيس، لثلاثة أشخاص في قارب



٩–١٠ اثنان من الأحلامو مرسومان على خاتم مطوق بالذهب

الأمامية من الحيوان ،وهذا توسع من الفنان لفكرة صندوق غناء برأس ثور . ويدون جوديا Gudea ملك لجش أن عودا خصصه لمعبد في المدينة " قد خار كالثور" عند العزف عليه.

وتقف القيثارة الثور على ظهر ثور آخر أكبر حجما يقف أمامه رجل ببلطة مرفوعة فوق رأس الحيوان الذي ينوي تقديمه قربانا. ثم هناك وغصن نخيل ،وطائر، ومربع مفتوح ،وما يرجح أنها رموز نباتية تكمل تصميماً معقداً وجديراً بالملاحظة. ومن الممكن أن الفؤوس النذورية في باربار خلدت قربان الثور الذي يبدو مصوراً هنا. ويوجد دليل على أن الحيوانات كانت تقدم كقرابين في المعبد ويحرق جزء من الذبيحة أوكلها للآلهة المنتظرة.

وتحفز رموز الثيران هذه على أختام فيلكا على تخمين المغري من مضامينها. فإذا كانت عبادة الثيران قد قامت في الخليج في الألف الثالث ق.م فإن هذا بذاته مدهش بما فيه الكفاية: ولكن بالدليل الظاهر من الطقوس والرمزية التي أصبحت في قرون لاحقة مرتبطة بساحل الشرق الشمالي، ومن هناك انتقلت إلى كريت، فإن المطمح الذي تمخض عن ذلك غير عادي في المفهوم الأثري والتاريخي. ولربما كان لدى هيرودوت فيما ذكره في تقاريره (التي أكدها آخرون والتي اعتبرت ذات يوم غير موثوق بها كليا ثم ثبتت صحتها)أسباباً وجيهة عندما أعرب عن اعتقاده بأن الفينيقيين قد أتوا أصلا من الخليج. وفي هذه الحالة، لعله لم يكن الفينيقيون الذين كان الحديث عنهم، بل أسلافهم،ذلك الشعب الذي عمر الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بالسكان في بداية الألف الثاني، والذين جلبوا معهم عبادة الثيران والتي غرست بصورة رائعة في كريت في الألف الثاني ق. م.

وإذا أمكن إثبات أن أبناء جزر الخليج قد هاجروا إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ربما قراب الربع الثاني من الألف الثاني ق.م فإن ذلك يفسر سبب حدوث انقطاع مفاجئ في الاستمرارية في الممارسة الدينية، على الأقل في البحرين وفيلكا في ذلك الوقت. وعلى الرغم من أنه قد عثر على قطع أثرية صغيرة من الألف الثاني ق.م، إلا أنه لا يبدو أن أي أعمال بناءٍ هامة قد قامت على أنقاض مستوطنة الألف الثالث في فيلكا حتى

الأزمنة الهيلينستية تماماً كما هو الحال في المعبد الأخير في باربار حوالي ٢٠٠٠ ق .م الذي يبدو أنه بعد إتمام بنائه بفترة تم إخلاؤه وهجره.

ويمكن ذكر الأختام الأخرى من فيلكا باختصار . فهي جميلة وتصميمها يذكرنا بأعمال ماتيس* وهي لرجلين على ما يبدو مقنعين ويقفان في قارب ذي مقدمة من رأس حيوان ويحمل أحد الرجلين قوسا (شكل ٩-٩)، وثالث تمثال أصغر يقفز منه وساقه ممدودة فوق المؤخرة ويحمل سيفا قصيرا. وأحد أكثر الأختام أناقة ، ولا مثيل له حتى الآن، مزدوج الجانب مع حافة رقيقة تعطيه من خلال روعة تصميمها مظهر مدالية من عصر النهضة، ويرى على أحد الجانبين رجلان في قارب يقومان بالعبادة ، أحدهما يحمل سعف نخيل ، وعلى الجانب الآخر آلهة متوجة والعبد يجلس أمامها.

والختم الذي له أهمية خاصة بالنسبة لديانة دلمون هو ذلك الذي يظهر فيه تمثال طويل شاحب واقفا في وسط الختم ،وسطح الختم محزز باتساق عمودي لنص مسماري ، وهو الوحيد حتى الآن بين ما عثر عليه من أختام دلمون. ويستحضر النص إنزاك إله دلمون ، ويعيد إلى الأذهان نقش ديوراند الذي يعاصره تقريبا وختم آخر فريد بصيغته وتفصيلاته من حجر الاستياتايت ، ويقف رجلان ينظران إلى الخارج من الختم مثبتان إلى الأبد في عمل طقوسي ما ،متجانسين تماماً. وهما عاريان عدا من حزام حول وسطيهما النحيلين نحالة كريتية، وهما متقابلان، ولكل منهما جدائل وذقن مجعدة من صيغة معروفة من سابقات سومرية ، ولعلهما من اللاحمو "كثيفي الشعر" الذين كانوا من مخلوقات إنكي الذين يعيشون في أبسو(شكل ٩-١٠) . وعلى الوجه الآخر للختم دائرة تحيط بنجم ثماني ويقف على نقطة الجهات الأربع بدن ، وبين كل بدن وآخر وردة من ثماني، بتلات. والختم مطوق بالذهب مما يوحي بأن مالكه ربما كان ملكا، ومن هذا المنطلق لا سابقة له.

ويأتي من مجموعة من الأختام من النوع الدلموني المستخرج من أور، والموجود الآن في

---

* فنان تشكيلي فرنسي (صالح) .

المتحف البريطاني، ختم له تصميم مختلف بصورة غريبة عن أي ختم آخر ، والذي يبدو مناسبا بقدر أكبر لجيل أقرب . وفيه رجل مصور يحمل على كتفه عمودا يتدلى منه إناءان،وفوقه نجمان أو وردتان، وإلى جانبه مخلوقان متوسطان . وهذا التصميم يشير بصفة خاصة إلى حامل الماء ، لعله آكي ساحب الماء المخلد في أسطورة ولادة سرجون وتربيته وهوالمصور هنا .

ولقد تم العثور في البحرين على ختم أسطواني سومري متأخر يعود إلى الفترات المبكرة جداً من الألف الثاني ق .م من زمن أسرة إسين –لارسا ،ويعتقد أنه مقابل من حيث التاريخ مع خاتم دلموني عثر عليه على لوح ، على الأرجح من أور،و يمكن تحديد تاريخه بالعام العاشر لحكم الملك جوجونم من لارسا عام ١٩٢٣ ق م . وهذا واحد من التواريخ الأكيدة بصورة معقولة للمنطقة. ويحمل عدد صغير من الأختام الأسطوانية تصاميم الخليج محورة بحيث تتناسب مع شكل الختم الذي ساد في بلاد ما بين النهرين.

تكشف دراسة الأختام القديمة بعمق عن المجتمعات التي صنعتها ،كما تمارس الأختام أيضاً إغراء خاصا من خلال كونها أغراضاً شخصية ، يمكن أن تمثل في تصاميمها ورمزيتها الخيار المباشر للرجال الذين امتلكوها على هذه القدر من القدم، وإن كان هذا لا يمكن تأكيده بصورة إيجابية .ويمكن أن يقال إن بعض الأختام الدلمونية تعادل أدق إنجازات قاطعي الجواهر من ثقافات أكثر شهرة بكثير وأنها تستحق أن تحتل مرتبة عالية في تاريخ النقش على الجواهر. ومن الصعب تخيل مطمح أكثر احتمالا عندما بدأت الحفريات أول الأمر في البحرين، ولكن أختام دلمون يمكن أن تثبت بعدة طرق أنها من بين أهم الإضافات إلى مجمل المعرفة بالعالم القديم في السنوات الأخيرة.

ويتضح بصورة متزايدة أن شبكة الخليج التجارية كانت أكبر امتدادا وتعقيدا، و أن آليتها كانت أكثر تطورا مما بدت عليه الحال قبل بضع سنوات خلت . ثم تبين أن دورها الرئيس كان العمل كحلقة وصل بين مدن سومر من ناحية، وحركة إمداد المواد الخام والسلع

المصنعة من ناحية أخرى على محور شمالي- جنوبي.

كان المدى الجغرافي للمراكز التجارية التي كانت مرتبطة بعضها ببعض بواسطة شبكات تجارية واسعا جداً . وبينما تبدوبلاد ما بين النهرين بؤرة التجارة فإن هذا يمكن أن يكون مضللا، ففي الأزمنة القديمة في الألف الرابع وأوائل الألف الثالث ق.م امتدت المنطقة التي كانت متصلة بروابط تجارية عامة من الأناضول وعبر شمال سوريا وبلاد ما بين النهرين إلى إيران وآسيا الوسطى في الشرق، ووادي السند إلى الجنوب. وكانت الأراضي المجاورة لأفغانستان مشمولة بصورة منتظمة، ووفرت السبيل إلى توزيع اللازورد الثمين الذي كان يجلب من شمال أفغانستان ووصل في النهاية إلى أسواق على قدر من البعد مثل الأزقة الصغيرة في وادي النيل في عصر الأسر المتأخرة.

ومما لا شك فيه أن دويلات المدن التي برزت في سومر في الألف الرابع ،والتي انتعشت في معظم الألف الثالث وقد وفرت الكثير من الحيوية لنظام التبادل الذي ساد في أرجاء هذه المنطقة الشاسعة. ومع حلول منتصف الألف الثالث كان هناك طبقة تجار هامة في المدن تكررت مثيلات لها في مراكز أكثر بعداً مثل إيبلا. ويتضح أيضاً أن المدن في آسيا الوسطى التي خدمت الطرق التجارية كانت نتاج مجتمعات مقابلة لتلك التي في بلاد ما بين النهرين، مع أنه ليس من المؤكد أنها قد دعمت نوع الأنظمة التجارية الذي ابتدعه أهل بلاد ما بين النهرين أم لم تدعم.

وأيا كان الدور الذي لعبته المراكز التجارية الأخرى في تعزيز البنى التجارية واسعة الامتداد والتي اعتمدت عليه البلاد ،فلا شك في أن الخليج نفسه كان واحداً من العوامل الرئيسة في خلق هذه الشبكة التجارية الدولية. إذ وفر وسيلة للاتصال والتبادل بين المناطق التي كانت ذات أهمية كبرى لحركة البضائع والمؤثرات. ولم يخدم الخليج مدن سومر ومناطقها الخلفية فحسب ،بل أيضاً عيلام، وإيران ، وسهل الوصول إلى مدن وادي السند، كما خدم أيضاً كمخرج للتجار المتحركين عبر الهضبة الإيرانية.

وتحولت البؤرة الديناميكية لتجارة المنطقة من زمن لآخر. وهكذا فإنه في فترة أروك(الألف الربع) كانت المدن السومرية هي التي سيطرت على التبادل ، ثم يبدو أن نفوذ الأروك قد حل محله عيلام المتمركزة في سوسيانا. ولهذا أهمية خاصة إذ إنه قد ظهر في هذا الوقت ما يسمى « مؤثرات بلاد ما بين النهرين والتي تصنف بدقة أكبر كعيلامية (أوعيلامية أولى) حت وصلت إلى أماكن بعيدة مثل مصر موحية بنفوذ كبير للتجار من الطرف الشمالي الشرقي للخليج في هذا الزمان. وهناك أيضاً انتشار ملحوظ لتقنيات بيروقراطية في هذا الزمان باستخدام أنظمة التدوين والكتابة واستخدام الخط ،و الانتشارالكلي لألواح الصلصال الدلموني.

ولقد كان هناك ميل للتركيز بصفة خاصة على أهمية بحث السومريين عن المعادن كعامل رئيس في تطور الخليج إلى ممرٍ. وكان اكتشاف مصادر المعادن عظيم القيمة لمدن الشمال – وربما بدرجة أقل لمستوطنات آسيا الوسطى– ولكن بالقدر ذاته من الأهمية كان البحث عن حجر جيد النوعية لأن ذلك كان معدوما خاصة في سومر. ولقد كان الحجر ضرورياً لبناء وزينة الأبنية العامة في المدن السومرية.إن إحدى العجائب الصامدة لديناميكية الثقافة السومرية هو إنشاء البناءات العظيمة في مستهل بداية عملية التمدن في الألف الرابع حين كان يبدوعدم وجود تقليد سابق يستمد منه شعب سومر.

ويمكن أن تكون تلك الحاجة للأحجار هي السبب في كون عُمان بهذه الأهمية في أوائل الألف الثاني في الوقت الذي كان فيه باقي الخليج في بداية تكوين جماعات متقدمة. والحملات لاكتشاف الحجر الجميل الذي كانت عمان غنية به مدونة في القرون الأخيرة من الألف الثالث، و توحي بأن التجارة كانت بعيدة الغور. وامتد هذا أكثر باكتشاف فخار« جمدت نصر » الذي يعود إلى عصر الأسر الثاني حوالي(٢٧٠٠ ق م) في قبور حفر عنها في عمان .ولقد وفرت حملات البحث عن الحجر في عُمان الفرصة التي تم من خلالها معرفة مصادر النحاس في شمال البلاد أصبحت عمان مصدراً هاماً للنحاس إلى سومر بدءاً

من الربع الثاني للألف الثالث ق.م. وقبل هذا يحتمل أن سومر تلقت النحاس من الأناضول، ولكن لأسباب غير واضحة حتى الآن أصبح هذا المصدر غير متاح ومن ثم كان لا بد من العثور على البديل. فكيف عرف السومريون أن عمان غنية بالنحاس؟ أمر غامض. ولعلهم وجدوا الصخور الحاملة لخام النحاس عندما كانوا يقطعون الحجر، ولكن هذا أيضاً بدوره يثير السؤال عن كيفية معرفتهم في المقام الأول أن الحجر الذي كانوا بحاجة إليه موجود في عُمان.

الفصل العاشر

جلجامش، والخليج ،وأرض الأحياء

كان السومريون أول شعب يبتدع أدباً بطولياً،وهوذلك السجل من أفعال الرجال العظماء، الذي ينطوي جزء منه على شخصيات تاريخية ،والآخر على شخصيات أسطورية. وتبعهم بحماس جلي الأكاديون والبابليون الذين سجلوا أساطير أصبحت العملة الأدبية الشائعة للرجل الغربي. وكان في تلك القصص السلف لأبطال هومر (الميسينين)،وأبطال الأساطير الشمالية الخاضعين لسلطة القدر.

وتبرز دلمون الممثلة على أنها الأرض الآمنة المسالمة والمعتدلة في أول قصيدة ملحمية، وقد بقيت من أقدم سجلات الإنسان المتحضر،وتشتمل على واحد من النماذج الأسطورية الأصلية العظيمة الموجودة في مختلف أرجاء العالم، قصة الطوفان العالمي. وهي أيضاً قصة إحدى أكثر الشخصيات الحقيقية كمالاً في الأسطورة البطولية ، إنه الملك الراعي كريم القلب ملك أروك جلجامش ورحلته عبر مياه الموت يجتازها به بحار وحيد إلى الأرض التي تشرق منها الشمس سعيا وراء الوهم الذي لا يزال يستحوذ على الإنسان، وهواستعادة الشباب المفقود.

ومن المرجح أنه منذ أن أصبح الكلام ممكنا اخترع الناس القصص في محاولة لتفسير القصد من وجودهم وعلاقتهم بالعالم الطبيعي من حولهم على أمل أن يجعلوا من العالم غير المرئي أقل رعبا. للأسطورة أهمية غامرة في تطوير الثقافة الإنسانية، فهي لا توظف العديد من المعتقدات الأساسية التي كونها الإنسان عن نفسه فحسب، بل أيضاً تشتمل في طياتها على الكثير من الحقيقة التاريخية حتى وإن استرجعت بشيء من الظلام وعدم اليقين. وتقع مواضيع وروايات الأساطير على عتبة اكتشاف الإنسان للفن.

وحين تتصادف الأسطورة مع الوجود التاريخي تصبح قوية بصفة خاصة، إذ عندها

تعكس الحقيقة أعمق رغبات ومخاوف النفس الإنسانية. وهذا ما يحتمل أن يكون عليه الحال إن كان أوديب ملكاً أعرج في طيبة، أوحين ضخمت كارثة محلية لتحيط بمخاوف السومريين من حدوث طوفان عالمي آخر. و في هذه الظروف تصبح الحادثة المسترجعة في الأسطورة ملتحمة بلا محيص في نسق الوجود الإنساني.

تحكي أقدم دورة ملحمية مدونة في العالم انتصارات وكوارث الملك السومري جلجامش ملك أروك. ففي صراعه مع المتناقضات التي تحيق به، فإن جلجامش هو النموذج الأول للبطل على قدم المساواة مع هرقل- الذي كان بالفعل هوالإلهام الذي أوحت بوجوده- وسيجفريد* لكنه ألطف بقدر عظيم من أي منهما. إن أولئك الذين وصفوا إخناتون، بالفرعون الإله فرعون للقرن الرابع عشر ق. م على أنه الفرد الأول في التاريخ قد تجاهلوا جلجامش. ولقدحكم جلجامش (يقال إن اسمه تحريف بابلي عن الاسم السومري بلجا-ميش والتي تعني حسب الظاهر "الرجل العجوز رجل شاب") في أروك في القرن السابع والعشرين ق. م. وبهذا فهومعاصر تقريبا لزوس الملك الثاني في الأسرة الثالثة في مملكة مصر القديمة ومهندس الهرم المدرج الهائل في سقارة. قليل ولا يعرف سوى القليل عن الأحداث التاريخية في حكم جلجامش، لكن الواضح أنه كان حاكما محبوبا من قبل شعبه، مذكورا بالامتنان. وكان الملك الخامس في أسرة ما بعد الطوفان في أروك، بعد حكم الآلهة. وكان من بين أسلافه المباشرين لوغالباندا الذي يبدو أنه كان شخصية تاريخية، وديموزي الذي يوصف كراع والإله الذي عرفته شعوب الشرق لاحقا باسم تموز، اسم الشهر اليهودي والعربي والذي يخلد ذكراه حتى يومنا هذا. ويتحدث جلجامش عن لوغالباندا على أنه أبوه مع أن أبوته مشكوك فيها. وقيل إن ثلثيه إلهي لأن أمه كانت الإلهة ننسون "السيدة البقرة البرية": ومن المرجح أن مولده كان بسبب اشتراك أمه في إحدى شعائر الزواج المقدس، احتفال المعبد الذي كان يضمن خصوبة المدينة سنة تلو أخرى.

---

* قصيدة ملحمية ألمانية ظهرت في القرن الثالث عشر ولا يعرف مؤلفها (صالح).

وجلجامش أحد أكثر الموضوعات شعبية في الفن السومري والبابلي حيث يصور كشاب ملتح وقوي يمثل مشاهد من تاريخ ملحمته. ويعرض مراراً بصحبة الآلهة والحيوانات عاكسا اعتقادا قديما بأن الإنسان يقع في مكان ما بين نظامي الخلق هذين. ويبدومبتسما مبتهجا في توأم القوة ، مملكته ورجولته، ويسير بسعادة كملك مع الحيوانات والآلهة .ولقدحصن مدينته ضد الغزو وسَنَّ القوانين لشعبه قبل قانون حمورابي حاكم آخر من عظماء حكام بلاد ما بين النهرين حكم بابل بعد ألف سنة من حكم جلجامش.

وقصة رحلة جلجامش إلى دلمون مدونة في « ملحمة جلجامش » والتي كتبت في صيغتها الباقية بصورة جوهرية حتى اليوم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ولكن هذه النسخة بلا شك استندت على نسخة أصلية سومرية أخرى أكثر قدما ،وقد آلت إلينا من الألف الثالث قبل الميلاد، وبقي قسم من هذه النسخة القديمة، والنسخ الأخرى فهي تسترجع أجزاء من الأصل الذي ضاع .وأكثر النصوص كمالا محفوظ في اثني عشر لوح من الفخار،وهو مكتوب بالخط المسماري الشبيه بالإسفين من الإمبراطورية البابلية الأولى. وقد عثر على الألواح في أطلال مكتبة الملك آشوربانيبال Assurbanipal (٦٦٨-٦٦٣ ق.م) الذي كان يهوى الأشياء القديمةوجمع بحماس وإعجاب سجلات أساطير الذين سبقوه على عرش بلاد ما بين النهرين.

دراسات نقدية

وفي غضون القرن التاسع عشر الميلادي أوما يقارب ذلك تم نشر عدة دراسات نقدية لهذه الأسطورة وتبرز مشكلة في سردها في مضمون علمي من حيث كون أسماء الشخصيات الرئيسة مختلفة في كل نسخة و جلجامش فقط الذي يحتفظ بهويته الشخصية على الدوام. وهكذا فإن شخصية الملك الخالد شروباك، النسخة الأصلية لنوح، يدعى زيوسودرا في النص السومري، لكنه أتونابشتم في النسخة البابلية والآشورية. وربان القارب الغامض الذي يجتاز بجلجامش مياه الموت سورسونابي وعورشنانبي بهذا الترتيب.

وفي المجمل التالي استخدمت الأسماء كما وردت في النسخ الأصلية وإن كانت الأحداث المقتبسة من المراجعات غير سومرية .

والقصة كالتالي :جلجامش، الملك الشاب القوي لأقدم وأهم الدول في سومر، محبوب في شعبه ولكن مع بعض التحفظات الواضحة . وأما طبيعته فهي ثلثا إله وثلث إنسان من خلال ولادته من الإلهة العظيمة لسومر وكاهن عظيم (أومن لوغالباندا الذي من خلال وظيفته كملك سيكون حتما كاهن الديانة)،وهوثائر وغير منضبط . ولقد أصبح مواطنو أروك بصورة متصاعدة غير متحمسين له بفعل اعتداءاته على زوجاتهم وبناتهم واستعباده لآبائهم في حملاته . وعلى أية حال،بما أن سكان أروك أناس يدركون المسئولية ويحترمون الأبوة الإلهية والمنصب الدنيوي لملكهم فإنهم يطلبون مشورة الإله العظيم إنكيل . ويتوسلون إليه أن يخلق تسلية لجلجامش تبعد طاقاته عن ذويهم .ولقد تعاطف الإله مع مشاكلهم فخلق إنكيدوكي يكون رفيقا للملك، وهورجل متوحش غير مروض يعيش بصحبة الحيوانات، ويمكن أن يكون إنكيدو رمزاً للفرع الثاني الرئيس لشعب بلاد ما بين النهرين غير سكان المدن ، الرحل الناطقين بالسامية ، والذين دخلوا البلاد من أقدم الأزمنة متزاوجين في أغلب الأحيان مع السومريين أنفسهم. وقدر إنكيدو أن يكون توأم جلجامش، وذاته الثاني. ولم يكن غريباً نظرا لسجله الجنسي غير المميز، أن يعجب به جلجامش إعجابا عميقا، ويتعاهدان على الصداقة الأبدية. وبالفعل هنالك تلميحات على كون علاقتهما علاقة جنسية. وعلى طريقة الغلمان الذين يصبحون متلازمين لا يفترقون تطورت هذه العلاقة بعدما خاضا معركة عظيمة تغلب فيها جلجامش على إنكيدو" أمسكا ببعضهما متشبثين كالثيران" .

وللأسف بدأت بذور دمار صداقتهما بالإنبات واستدرج إنكيدو إلى مساكن الناس على يدي عاهرة المدينة ، على الأرجح الكاهنة الأم في شخصيتها كإلهة للحب والشهوة، والتي تغويه على ضفة النهر. وحتى هذا الحين كان برياً حراً طليقا كالغزال والوحوش الأخرى التي شاركها عيشها في الصحراء. والآن ، وقد أحست الحيوانات التي كانت رفاقا له

بفساد إنسانية إنكيدوتخلت عنه عاتبه تاركة إياه للآلهة والناس .ويصبح إنكيدو إنسان السهل المتوحش متحضرا بقوة الحب، وعلى الرغم من شخصيته البدائية يصبح إنكيدو شخصية معقدة : فهوأول بريء في النصوص الأدبية جميعها والسلف الحرفي لبارسيفال . *

وبالنسبة لبعض النقاد (أولئك الذين يبحثون عن مغزى فلكي في الأحداث والشخصيات، ولو علم المقصودين بذلك لاندهشوا) فإن جلجامش وإنكيدو قد يمثلان « التوأم » ، الاسم الرمزي لعهد الجوزاء الذي تجاوزه الثور في مفهوم الأبراج الكونية ،والتي يعتقد البعض أنها انحدرت من بلاد ما بين النهرين. والمشكلة الوحيدة في هذا التأويل بالطبع هي أن التوأم يطيحان بالثور كما سيرد لاحقاً وليس العكس. في بعض الأحيان ظهر جلجامش وإنكيدو (أو شخصيتان من زمن أقدم تمثلهما) كثور وكبش، وبذلك يرمزان للدقة الشاعرية للاعتدالين، بل إن التوأم يهزمان ثور السماء حين يرسل متهورا لتدميرهما .ويمثلان أيضاً مبدأ الازدواجية متكرر الظهور في العالم المخلوق كله الذي استحوذ على عقول القدماء . ولقد افترض أن دورة جلجامش بكاملها هي في الحقيقة أسطورة كونية مع نبوءة ومغزى فلكي ،فهنالك اثنا عشر قسما في الملحمة – ولكن من يدري؟

وحب جلجامش لإنكيدو يشعره بمسئولياته تجاه مملكته، ولم يعد يهتم بالقفز فوق الأعضاء الأكثر جاذبية في جماعته في أروك . وبمباركة من شمش، إله الشمس الرحيم ، ينطلق الصديقان سعيا وراء هزيمة الشر المتجلي في صورة هواوة، حارس الغابة .وجلجامش قلق على تكوين اسم مخلد ،وإنكيدو رفيقه وأحياناً حاميه، وهواوة النسخة الأولية من الوحش الحزين الذي يصعب عليه ألا يشعر بشيء من التعاطف المشابه لحالة فافنير عندما يتغلب عليه سيغفريد الغبي . وكان قتل التنين أو الوحش من أكبر المهام بالنسبة للأبطال القدماء، من حوروس إلى كبير الملائكة ميكائيل، إلى يهوه فقد كان ذلك نهجهم كلهم .

وبعد عدة محاولات يتغلب الاثنان على هواوة، وحين يصبح تحت رحمتهما يميل

---

* شخصية أسطورية مرتبطة بالملك آرثر والمائدة المستديرة (صالح) .

جلجامش إلى الرأفة ، ويبقي على حياته. ويتضرع هواوة باكياً أن يخلي سبيله ،لكن إنكيدو منجزاً قَدَره لا يلين ويطالب بالقضاء عليه، فيذبح هواوة على عجل.

ويعود البطلان إلى أروك ،ويلقيا استقبال الفاتحين في المدينة. ولكنهما مذنبان، فقد أغضب إنكيدو الآلهة برفضه الإبقاء على هواوة، وبسبب انضمامه إلى جلجامش في إهانة الإلهة انانا-عشتار،وهي إلهة متقلبة المزاج في أفضل الأوقات وتحاول اجتذاب جلجامش إلى فراشها لكنه بتحريض من إنكيدو يذكرها بالمصير المروع لعشاقها السابقين. ويسخر الصديقان منها بلا رحمة وبدقة مميتة. فتتذمر إلى السماء شاكية الإثم المقترف بحقها. والأكثر إزعاجا تلك المعايرات والاتهامات بالشبق والخيانة والتي انهالت عليها من جلجامش وإنكيدو بعد صدهما لها تعلم علم اليقين أنها صادقة. ولكن بسبب هذه الآثام ولأنهما قتلا ثور السماء للانتقام من الآلهة فلا بد من موت واحد من الاثنين. ويحلم إنكيدو باجتماع الآلهة حين ينطق الإله الأعلى بالقرار ،لكن إنكيدو هو الذي يصعق.

وكان المرض العضال الذي ألم بإنكيدو ،والذي استمر اثني عشر يوما ،فرصة لحوار مؤثر وجدير بالملاحظة بين إله الشمس شمش الذي تولى باهتمام رحيم شؤون الرفيقين، و بين الرجل المحتضر.فهو وحده الذي عارض قرار الآلهة وها هوالآن يواسي أحد أتباعه في ساعاته الأخيرة. ويتلوى إنكيدو على فراش موته بائسا وليس بيد جلجامش حيلة لمساعدته. فيلعن إنكيدو حياته بمرارة تبلغ ذروتها من خلال إدراكه حتى لعبثية لعناته فيلوم بحنق الأحداث التي أبعدته عن وجوده الطبيعي إلى مساكن البشر،ويأسف حتى على أشياء لا حياة فيها والتي تصبح في هذيانه هدفا لحزنه المخيف، ويلعن الصياد الذي قاد شعب أروك إلى عرينه في الخلاء .وبأقصى درجات المرارة يلعن العاهرة التي كانت الوسيلة لوقوعه في الشرك.ولكن شمش في السماء يسمع إنكيدو فيواسيه ويذكره بأن الحياة مع جلجامش كانت مجيدة وأن أمراء العالم كرموه لأنه كان رفيق جلجامش، وبالفعل قبلوا قدميه لأنه كان صديقاً محبوبا للملك . ولقد عاش عيشة رائعة،وعليه الآن أن يموت وهو يعلم أن

سوف تقام أكبر الجنازات من أجله.

وحسبما جاء في الأسطورة: « حين سمع إنكيدو كلمات شمش الشهم سكن فؤاده المغتاظ » فيبارك الآن أولئك الذين سبق ولعنهم مع أنه يرى العالم الآتي مظلما أمام عينيه، ويموت راضيا من كلام إله الشمس.

ويحزن جلجامش على وفاة صديقه بمثل حزن أخيل* الغاضب غير القابل للمواساة أسفا على موت باتروكلوس، وبمثل بكاء الإسكندر المقدوني على جثة هيفايسشن، فيتشبث بجسد صديقه حتى يبدأ دليل التعفن المريع بالظهور ،ويرثي إنكيدو بمثل رثاء داوود لجوناثان. فيصدر أمراً بأفخم الاحتفالات الجنائزية في أروك،ثم يدرك مرتاعا بأن الفناء ذاته الذي طال صديقه لا بد وأن ينهي حياته ذات يوم مهما كان يرى نفسه رائعا وقويا. وموت إنكيدو وحزن جلجامش على صديقه يبدوان لا محالة موضوعاً معاصراً.

وينطلق مرة ثانية– وحيداً هذه المرة– بحثا عن سر الحياة الأبدية ،أكثر مساعي الإنسان ثباتا وهباءً. ولا يزال يشعر بمرارة الحزن على وفاة إنكيدو، ويتحدث على الدوام عن حبه له، وإدراكه لعدم ديمومة الحياة ويتغذى على أحزانه. وبحسب ما جاء في نص الأسطورة: "وضع الرب بفكره أمر أرض الأحياء " عبر المستنقعات وباتجاه الخليج.

ويمثل صد انانا–عشتار،ثم موت إنكيدو التالي حلقة غريبة في قصة جلجامش لأنه من بين الآلهة كلهاكان متوقعا أنها كانت الأجدر باحترام جلجامش ، فقد كانت حامية أروك نفسها، المدينة الخاصة بجلجامش، ويرجح أن أمه كانت كاهنة للديانة؛ ومع ذلك واضح أن الملك كان ضدها.

ولعل البعض يتساءلون: ألا تدون هذه الحلقة بعبارات أسطورية رفض من جلجامش للمدفوعات الحتمية المترتبة على الملكية في مجتمعات كانت لا تزال تكرم « الأم؟»

---

* Achilles بطل الإلياذة (د.السقاف).

ويتطابق جلجامش بصورة تدعو لإعجاب مع شخصية الملك المقدس. ولقد كانت أسطورة تموز-ديموزي التي لا يزال يتردد صداها في الشرق الأدنى حتى اليوم ،قصة الملك المحتضر الذي تبكيه الإلهة لكنها تخلق غيره حتى يمكن التضحية به. وحين بدأ الآلهة الذكور بالسيادة في المجتمعات القديمة أصبح هنالك رفض للتضحية بالملك المقدس، الذي يكرس للدمار تكريما للإلهة. وفي المرحلة الانتقالية ما بين التضحية بالملك ورفض تلك الممارسة فإن بديلا يمكن أن يموت نيابة عن الملك، وبذلك تتجدد حياته الملكية .ويبدو أن الممارسة كانت مؤكدة في اليونان ،وهنالك إشارات إليها عند اليهود القدماء.

وفي مصر، تعرض الملك لمحنة الولادة من جديد في عيد الهبسيد حيث تتجدد قواه. ويفترض عموما أن الهيبسيد تصرف نيابيا للتضحية الشعائرية بالملك، وإن لم يكن هنالك أي دليل على الممارسة.وفي المسيحية معروف منذ أمد بعيد أنها تحتضن مفهوم موت الإله، الذي يعاد تمثيل موته _كما بالمثل كان موت أوزوريس بمصر من خلال التمثيليات الغامضة التي كانت ميزة من مزايا أقدم الشعائر- بالتضحية بفي القداس حيث الحدث المحوري التهام خبز القرابين بدلا من المحتفى به. وهكذا يصبح الخبز بديلا عن الجسد الحي الذي التهم ذات مرة في قربان مقدس أشد رعبا.

وربما احتوت الحلقة في قصة جلجامش على بعض العناصر الجوهرية من شعيرة الزواج المقدس في سومر القديمة، وأن جلجامش كان مقصودا أن يكون خليفة ديموزي في حب إنانا، إلهة أروك. وفي أجيال لاحقة تتكرر شعيرة الزواج المقدس مرارا ،وكانت بكل وضوح جزءً متمما في القانون السومري باقية حتى أزمنة كانت فيها سومر ذاتها قد اندثرت وطواها النسيان. ولقد افترض أن حفرة المدافن في أور،التي وجد فيها التجهيزات الغنية لعمليات الدفن الملكية، تحتوي على ذات ممثلي الاحتفال الرئيسين.وربما يكون التأليه اللاحق لبعض الملوك السومريين- الذي هو بحد ذاته ممارسة غير سومرية- في عهدالأسرة الثالثة في أور صدى آخر لهذا الاحتفال القديم حيث يضمن الملك والإله خصوبة المحاصيل

والقطعان. وفي حالة جلجامش،مهما كان حبه لشعبه عظيماً ،فإنه ليس على استعداد للموت تبعا لنزوة الإلهة ،وبرفضه لدوره يضع حدا لسيطرتها.ولا يمكن أن يكون رفض جلجامش لشخصيته القربانية أمرا قاطعا، مع ذلك، فلا بد أن يموت إنكيدو، توأمه والحي العزيز عليه، بديلاً عنه.

وإلى الشمال الشرقي من مدينة جلجامش أروك تقع مملكة شورروباك. وكانت شورروباك موطن زيوسودرا (طويل الأيام) أو، كما أطلق عليه البابليون في نسختهم من الأسطورة الباقية،آوتانبشتيم، الاسم الذي يمكن أن يعني ، وبصورة لائقة كما سيتضح، " لقد وجدت الحياة" . ولقد عرف عنه أنه ، بما يثير العواطف، " القصي" .وقيل أنه حكم في شورورباك لمدة سنة،الفترة التي تعكس الحماس السومري للدرجة الستينية التي ابتدعوها. ولقد قدر له أن يكون بطل قصة الطوفان، مثله مثل نوح الوارد ذكره في الكتاب المقدس، وكزيسوثورس اليوناني، ذلك الملك الطيب الحكيم الذي اصطفته الآلهة للخلاص حين أصروا على تدمير بقية الجنس البشري الذين فقدوا محبتهم . وفي استطراد لا بد من انعكاسه هنا، توضح الملحمة سبب عدم رضاهم.

وكانت آلهة سومر أكثر استبدادا في علاقتهم بالبشر مما كان عليه إله اليهود يهوه، إذ ورد في النسخة المتضمنة في سفر التكوين أن السبب في الطوفان كان غضب الله من آثام عالم المخلوقات. ولم يقدر آلهة سومر وعلى رأسهم إنليل ، على ما يبدو، على احتمال الضوضاء التي كان البشر يصدرونها وعلى هذا الأساس قرروا تدمير الجنس البشري بالطوفان.ولم يكن الإنسان مقدوراً له أن يباد بالكامل على أية حال. فبالرغم من المرسوم الغاضب من مجلس الآلهة الأعلى، قرر إنكي صديق الإنسان وحاكم مياه الفيضان التدخل مجازفا بغضب إنليل. و لكن كي لا يتهم بخيانة قرار الآلهة جاء إلى مدينة زيوسودرا وهمس بدهاء وسعة الحيلة التي لا تفارق الآلهة الأكثر حكمة، بتحذيراته من خلال كوخ البوص الخاص بالملك. ومن خلال الجدار حث زيوسودرا على بناء الفلك ووضع عائلته وحاشيته على متنه، مع

شحنة من جميع المخلوقات الحية ليطفوعلى الماء.

وتحتوي الملحمة السومرية على فقرات درامية تختلف عن القصة كما وردت في الكتاب المقدس، فوصف الرعب المتزايد للعاصفة بقيادة قوى الشر من ريح ورعود مدهش بصفة خاصة:

مع وهج الفجر الأول

ارتفعت غيمة سوداء في الأفق

وأرعد أداد بداخلها

بينما سلحات وحانيش تقفان في المقدمة

يتحركان كنذر فوق التل والسهل

ويدمر إراجال الأعمدة

من نينورتا ويتسبب في تدفق السدود

ورفعت الأنوناكي المشاعل

ملهبة الأرض بوهجها

الحنق على أداد بلغ عنان السماء

التي حولت إلى السواد كل ما كان منيراً

وتحطمت الأرض الواسعة كالإناء

ليوم واحد هبت عاصفة الجنوب

تستجمع السرعة وهي تهب مغرقة الجبال

مجتاحة الناس كالمعركة

ولا أحد يستطيع أن يرى صاحبه

ولا يمكن تمييز الناس من السماء

فلقد ارتعبت الآلهة من الطوفان

ومتراجعة صعدت إلى سماء آنو

وانكمشت الآلهة مرتعشة كالكلاب قبالة الجدار الخارجي.

ومنذ القرن التاسع عشر الميلادي ،حين تم تفسير ألواح الطوفان لأول مرة، ارتدت الحجة جيئة وذهابا فيما إذا كانت القصة تعيد إلى الأذهان كارثة كبرى قد حلت بالسومريين فعلا، وبالتالي انطبعت انطباعا عميقا في ذاكرتهم، أو أنها مجرد التعبير الأدبي عن الخوف الدائم والعميق لدى شعب يعيش بين نهرين يصعب التنبؤ بأحوالهما مثل دجلة والفرات.

واعتقد وولي الذي نقب بمثابرة كبيرة وبهذا التأثير في المدن السومرية، اعتقاداً راسخاً في تاريخ الطوفان الكتابي، اعتمادا على دليل واه دون إنكار. وفي السنوات الأخيرة ظل تبني الرأي المخالف أمرا معتادا. ولكن بالتأكيد كان هنالك فيضانات في سومر ،و كان واحداً منها – أوجميعها – مخلدا في الأسطورة الأصلية التي تروى حول مواقد المضارب ، ربما منذ أن أسس إنكي مدينة إريدو أول مرة.

ولقد توفر دليل أكثر حداثة و يثير السؤال مرة أخرى. أولا، يبدو الآن أنه من المحتمل أن /زيوسودرا/أوتانبشتيم/نوح /كان شخصية تاريخية وليس فقط الرجل ذوالأخلاق اللطيفة وصديق الحيوانات ، والذي تصوره الأساطير السومرية والكتابية على حد سواء.وفي شوروباك، عاصمة زيوسودرا، وفي كيش أحد أكثر الموقع الدينية احتراما في سومر القديمة، تم الكشف عن رواسب فيضانية واسعة معاصرة بكل تأكيد لعهد زيوسودرا

المفترض، وكانت أكثر انتشارا مما كان معتقدا في السابق. ومن الواضح أن مياه الفيضانات غطت مناطق واسعة من الأرض، ويمكن بسهولة الاعتقاد خطأ بعموميتها عالمياً في أذهان الناجين. ولا بد أن الدمار الذي أحدثته كان مروعا إلى هذا الحد. ومن الممكن أن يكون الفيضان قد غطى منطقة من عدة كيلومترات مربعة وبعمق كبير، والأسطورة السائدة التي بقيت طوال آلاف السنين يمكن أن تكون مبنية على خبرة حقيقية مخيفة. ومن الممكن أن يكون الطوفان الذي حدث في شروروباك قد وقع قرب نهاية حقبة جمدت نصر،حوالي عام ٣٠٠٠ ق م.

وعودة إلى قصة الطوفان التي ترويها الملحمة: فمثلما فعل نوح حين هدأ الطوفان، يطلق زيوسودرا الطيور كرسل له بحثا عن أرض جافة، لكن الغراب وليست الحمامة هو الذي يهبط على الأرض في الأسطورة السومرية .وعلى قمة الجبل حيث يرسو فلكه –مركب مكعب بصورة غريبة – يقدم زيوسودرا القرابين للآلهة والذين يقال إنهم حلقوا برشاقة نوعاً ما حول الأضحيات "مثل الذباب" تواقين للعبادة التي حرموا منها بتدمير المخلوقات التي خلقوها، جزئيا لهذه الغاية بالذات. وليس أمرا غير معقول الرأي اللاذع قليلا تجاه سلوك الآلهة السومرية، ويتضح من الفقرة المقتبسة آنفا أنه عند أحد المراحل فإن العملية برمتها كانت على وشك الخروج من يد الآلهة الذين لم تكن لديهم الخبرة كما هو واضح في توجيه الكوارث الكونية، ومن ثم انسحبوا بجبن إلى السماء العليا. وتصويرهم جاثمين "كالكلاب" قبالة الجدار الخارجي لأبعد سماوات آنو صورة تعرب عن ذلك بشكل واضح.

ويكافأ زيوسودرا بالخلود على يدي الآلهة الأكثر هدوءاً الآن، وشاركته في هذه الحالة زوجته،وهذه لفتة تأملية غريبة. وينقلون زيوسودرا الملك إلى " بلد العبور "، دلمون.

زيوسودار الملك

ركع أمام آنوو إنليل.

آنوو إنليل حفظا زيوسودرا

مثل إله منحاه

الحياة الأبدية، مثل إله ألقياه عليه

ثم زيوسودرا الملك

حافظ اسم النبات وبذرة البشر

أرض العبور ، أرض دلمون، المكان حيث تشرق الشمس جعلوها مسكنه.

في بعض صور الأسطورة، يقال إن زيوسودرا وضعته الآلهة في أرض غامضة "عند مصب النهرين" . و اعتقد بوجه عام أن هذا المكان لابد وأن يكون في موقع ما بالقرب من تدفق دجلة والفرات في الخليج عبر المستنقعات إلى شط العرب. وعلى أية حال، يمكن إلقاء بعض الضوء على هذه القطعة المبهمة فمن الوصف الجغرافي السومري خلال حقيقة أن الأساطير البحرينية المحلية وأساطير الجزيرة العربية الرئيسة تؤكد على أن ينابيع البحر من المياه العذبة التي تبرز لاحقا في قصة جلجامش هي "المصبات الجوفية" للنهرين. وهي ليست كذلك: ولكن من المحتمل بالتأكيد أن الأسطورة الثابتة اليوم قد انحدرت من أزمنة قديمة جداً، وأن زيوسودرا يشير إلى تلك الينابيع "حين يتكلم عن مصبات الأنهار" على أنها المنزل الأبدي لملك شوروباك الشرعي– وهذا ما تعنيه البحرين باللغة العربية.

ويخرج جلجامش للبحث عن دلمون، فليس محتملا أن يجد سر الحياة الخالدة ،في أي مكان آخر فهي الأرض التي باركتها الآلهة ويحكمها الرجل الوحيد الذي تحول إلى الخلود على يديها. ويسافر سيرا على الأقدام وحيدا ،وتواجهه المخاطر في طريقة، بما فيها مواجهة المضيفة السماوية ، سيدوري، التي تحث جلجامش على نسيان اهتمامه بأحوال الإنسان وأن يأكل ويشرب ويمرح.

جلجامش ، أين تجوب هائما ؟

الحياة التي تبحث عنها لن تجدها

فحين خلقت الآلهة البشر

خصوا الإنسان بالموت

واستبقوا الحياة بين أيديهم

لذا يا جلجامش املأ بطنك

وامرح في الليل والنهار

في كل يوم أقم مأدبة فرح

في النهار والليل ارقص والعب

لتكن ملابسك جديدة متلألئة

ولتغسل رأسك واغتسل بالماء

انتبه للصغير الذي يمسك بيدك

لتبتهج قرينتك بقلبك

فهذه هي واجبات البشر .

سيدوري شخصية متآمرة محيرة. وكان الخليج في الأزمنة الغابرة مكتظ بالإلهات ، وسيدوري بأي المقاييس، واحدة من الآلهة الرئيسة فيه. وتعيش على جزيرة على حافة المحيط، ذلك التعميم الغامض لكل البحار غير المعروفة. وأرضها حديقة تمشي فيها الشمس كل صباح، وتحمل أشجارها الجواهر. ولسيدوري شقيقات، أو لعل الإلهات الأخريات هن سيدوري نفسها متنكرة. وإحداهن، سينارا،توصف بأنها إلهة الخليج، موكلة به من الرب إنكي ذاته .أما لخاموم فهي مدمجة في سربانيت دلمون وتمثل حاملة حراشف حورية البحر

أوإلهة السمك. ثم هنالك الإلهات المتعددات المرتبطات بدلمون المقدسة: ننسيكيلا، سيدة المراسيم النقية، وزوجة إنكي، وتنحرساك، الإلهة العظيمة التي جلبت في عيد تجليها الموت قريبا من إنكي، ليستا إلا اثنتين منهن. وعاشت سيدوري بعد لقائها مع جلجامش لتصبح في الأزمنة الهيلينستية سيبيل الإيرثرية. ثم مُثِّلتْ، بمغالطة تاريخية، على أنها ابنة بيروسوس المؤرخ الكلداني الذي احتوى كتابه «البابليونيكا» على قصة غريبة عن ظهور الأبكالو في الخليج ،نصف رجال ونصف سمك ،وقد جلبوا فنون الحضارة لشعب سومر سود الرؤوس.

وبعد هذا اللقاء مع سيدوري يواصل جلجامش طريقه فيقابل رجالاً عقارب، حراس بوابات الأمس والغد (ويعرفون أيضاً بأنهم حراس مكان شروق الشمس)، ويصيبه الخوف منهم: ويحذرونه بأن أحدا لم ينجز الرحلة التي عزم عليها. ويقابل شمش ،فحتى الإله ترهبه ادعاءات جلجامش:

كان شمش مذهولا حين اتجه إليه

ويقول لجلجامش

"يا جلجامش ،أين أنت تجوب؟

الحياة التي تبحث عنها لن تجدها

فيقول جلجامش لشمش الشهم:

"بعد السير والتجول في السهل

هل علي أن أضجع رأسي فوق مرج الأرض

كي أنام طوال السنين؟

دع عيوني ترى الشمس كي أحصل على كفايتي من النور!

الظلمة تنسحب حين يكون هنالك نور كاف

ليرى الميت فعلاً شعاع الشمس !

ولكن جلجامش لن ينثني عن مسيرته : فيعبر المستنقعات ،ويصل إلى رأس الخليج العربي . وهناك يستدعي ربان قارب زيودوسترا ليأخذه إلى دلمون، من الواضح أن جلجامش اعتزم القيام بالرحلة بحرا، موحيا بأنه ما أن بلغت القصة هذا العنصر في الأسطورة،فإن جزيرة دلمون، جزر البحرين، كانت هي المقصودة هدفا لرحلة جلجامش.وربان زيودوسترا شخصية غامضة،وكانت مسئوليته، مثله مثل شارون في الأسطورة الإغريقية، نقل الموتى إلى الفردوس. ويوافق على نقل جلجامش عبر مياه الموت التي تفصل دلمون عن عالم الأحياء.وعلى أية حال، من الجوهري ألا يلمس جلجامش الماء، وترشده سورسونابي بأن يقطع ١٢٠ عمودا بطول ٦٠ ذراعا كي يدفع القارب (كان الذراع السومري يقل قليلا عن ٥٠ سم) .و تخصيص هذا القدر السخي من الأعمدة (كل منها بطول ٣٠ مترا) ضروري كي يترك جلجامش كل واحد منها يسقط في بحر الموت ،وبذلك يتحاشى لمس الماء المميت.

ومن المعقول، وبحسب الأسطورة، أن تستغرق الرحلة شهرا وخمسة عشر يوما ، ويصل جلجامش وسورسونابي إلى دلمون في ثلاثة أيام ،شهادة على صفات جلجامش فوق الإنسانية. وفي الحقيقة فإن ثلاثة أيام هي تقريباً الوقت الذي تحتاجه السفينة من السفن السومرية لتبحر من رأس الخليج إلى البحرين.

وحينما دنا القارب من دلمون،زيوسودرا يراقب من الشاطئ، يدرك فورا أن جلجامش ليس رجلا من رجاله، حيث أن جلجامش حي. ومما له مغزاه أن تشير الأسطورة إلى هذه النقطة، إدراك زيوسودرا أن الشخص الواقف في قارب سورسونابي لم يمسه الموت، وهكذا فإنه لا ينبغي أن يؤتى به إلى شواطئه (وشواطئ دلمون) . وهذا يوحي بأن المكان الذي نقل إليه

زيوسودرا هوالمكان الذي كان يجب أن يؤتى بالآخرين إليه حيث إن عليهم اجتياز مياه الموت كي يصلوا إليه ويمكن الافتراض أنهم، هم أيضاً، موتى. وربما يكون هذا صدى للاعتقاد الذي أوجد فرصة لسمعة دلمون المدافنية. ولعل مفهوم جزيرة الموت عميق الإثارة للعواطف التي استحوذت على خيال فناني القرن الثامن عشر الرومانسيين كانت بداياته هنا . . ولعل لوحة بويكلن االشهيرة إذا رفعت فوق مياه الخليج التي هي في مثل حرارة الهرم تفقد شيئا من رصانتها الحزينة المسكونة بالحداد، لكنها تكتسب قيمة من قدمها.

ويرحب زيوسودرا بجلجامش ، لكنه يسأله سبب مظهره الحزين ،فيطلق جلجامش فورا قصة موت إنكيدو وحبهما لبعضهما ،وخوفه من تحلله هو ذاته، وبحثه عن الخلود. و يدرك أنه ما لم يعثر على السر فإنه سيموت هوالآخر ذات يوم ويوارى الثرى إلى الأبد. ويتوسل إلى زيوسودرا أن يدله كيف يجد الحياة الأبدية التي سخر نفسه للبحث عنها متحملا جميع المشاق والمحن سعيا لذلك. ويجيب زيوسودرا بيقين يثبط الهمم:

«لا توجد ديمومة . هل نبني بيتا يدوم إلى الأبد؟ هل نوقع عقدا ليدوم مدى الدهر؟ هل يصمد فيضان النهر؟ إنها يرقة البعوضة التي تتخلص من شرنقتها لترى مجد الشمس. من أقدم الأيام لا توجد ديمومة. النائم والميت، كم هما شبيهان، إنها صورة من صور الموت. ماذا يختلف السيد عن العبد عندما يوفى كل منهما قدره؟ حين يجتمع الأنوناكي القضاة معا وماميتوم أم الأقدار فإنهم معا يرسمون أقدار الناس. الحياة والموت إنهم يحددون ولكنهم لا يكشفون عن يوم الموت.

ومع ذلك فإن زيوسودرا هوالفاني الوحيد الذي ينجو من القدر العام لبني الإنسان، ولكي يشرح هذا المصير يشرع في إبلاغ جلجامش المنهك قصة الطوفان ودوره فيها. وماذا كان لدى زيوسودرا، على فرض أنه مسرور من حصوله على مستمعين يسرد عليهم قصة حياته، وما يقوله له يبدو قليل الصلة بمشاكل جلجامش، عدا استعراض أن ملك شوروباك كان فقط يفي بالدور الذي حدده القدر والآلهة له.

وعندما ينتهي زيوسودرا من هذا السرد يخضع جلجامش لاختبار آخر. كل ما عليه عمله ليصبح خالدا، يأن يقاوم النوم لستة أيام وسبع ليال. ويحاول جلجامش جهده، لكنه مرهق من رحلته وعلى الأرجح من حكاية الفيضان، يغرق في النوم. وهومتعب. فبدلا من البقاء يقظاً لسبع ليال ينام ذلك الوقت كله خارج البوص الخاص بزيوسودرا في دلمون

أما الخالد الذي راقبه بإشفاق رؤوف فقد أيقظه أخيرا ،ويبكي جلجامش بود وبكامل شخصيته قائلاً إنه فقط نعس في نوم خفيف. فيقول له زيوسودرا بلطف إن الأمر ليس كذلك، وإدراكه أنه لا يستطيع مقاومة حتى الموت الصغير فالنوم يجلب الرعب واليأس لجلجامش. فيقول: " سلفا أمسك لص الليل بأطرافي ، الموت يسكن في غرفتي: أينما وضعت قدمى أجد الموت. "

ويقدم زيوسودرا لجلجامش بعض العزاء، لكنه ممزوج بالسخرية، فإذا لم يكن بمقدوره منحه الحياة الأبدية فإنه يستطيع أن يمنحه ملابس تحتفظ بجودتها الأصلية حتى يعود إلى مدينته. وفي بعض الأحيان تعيش بعض الممتلكات بعد رحيل مالكيها.

وكان جلجامش على وشك مغادرة دلمون والعودة قانطا إلى بلده أروك عندما تحث زوجة زيوسودرا زوجها على كشف غموض واحد من أسرار الجزيرة له. وعند كشفه يهتاج جلجامش اهتياجا عظيماً ،إذ يبدوذلك هدف مسعاه بعينه. ويخبره زيوسودرا أنه ينموتحت الماء نبتة شبيهة بالنبق حين قطفها تعيد الشباب المفقود لمالكها. وبفرح جلجامش ومن فوره يستعد لينطلق بحثا عنها مقتنعا خطأ أنها سر الخلود المنتظر قبضته.

وعند هذه النقطة من الرواية يعلق الراوي تحديدا أن ما يحمل جلجامش إلى قاع البحر تيار ماء عذب إلى حيث تنبت النبتة. ويثقل نفسه بربط حجارة ثقيلة في قدميه على طريقة صيادي اللؤلؤ في البحرين حتى هذا اليوم. ولا يبدو مستحيلا أن كان أحد ينابيع الماء العذب في البحر قد حمل جلجامش إلى الأعماق بحثا عن زهرة استعادة الشباب.

هذه الينابيع ،كما لوحظ آنفا، ميزة غريبة خاصة في البحر حول البحرين،حيث تنطلق نوافير من الماء المالح من المياه الضحلة على مسافة كيلومتر ونصف من الشاطئ. وواضح من القصيدة أن جلجامش في البحر ،حيث ورد أنه حين قطف الزهرة قطع ثقالات الحجارة من قدميه فحمله البحر وألقى به على الشاطئ.

وطبيعة النبتة الفعلية التي يبحث عنها جلجامش غير معروفة.و أحد الاحتمالات أن المرجان هو هدف السعي. فالمرجان ينمو بوفرة في الخليج، ولقد أشير سلفا إلى توهجه فيما يتصل بلقاء جلجامش مع سيدوري. وأحد الأماكن التي يحتمل أن غاص فيه جلجامش في البحر لا بد وأنه خور الفشت بعيداً عن الشاطئ الشمالي للجزيرة الرئيسة حيث يوجد هناك نبع ماء عذب هائل يندفع من قاع البحر.

والآن يكشف جلجامش عن إحدى مزايا طبيعته التي يمكن أن تكون قد جلبت له حب شعبه حينما كان ملكا على أروك، والتي تضمن خلوده في ذاكرة الأجيال التي استمتعت بقصته. ويعرض النبتة مهتاجا ربان زيوسودرا ويعلن أنه سيعود إلى أروك بها كي يعطيها للرجال الطاعنين في السن ليأكلوها علهم يصبحون شبانا مرة أخرى. وحين يستعيد الرجال العجائز شبابهم سيأكل الملك منها وليس قبل ذلك.

ويغادر جلجامش منزل زيوسودرا على شاطئ دلمون ،ويبدأ رحلة العودة إلى بلاده حاملا نبتته السحرية وبرفقته سورسونابي الذي كان قد نفي من دلمون بسبب جلبه فانيا إلى شواطئها.، لكنه الآن صديق جلجامش. وهذه المرة ، ربما لأن قارب سورسونابي قد أخذ منه، فهما يسيران على الأقدام. ولكن سورسونابي أكثر من مجرد ربان، شارون سومري ينقل الموتى إلى دلمون. فهو في الواقع عضو من أعضاء أسرة الآلهة الرئيسة إذ تزوج ابنة الإله العظيم إنكي إله الهاوية، وقد افترض أن اسمه يعني ،" خادم إنكي" . وهكذا تتجلى سيادة إنكي على دلمون مرة ثانية من خلال وجود تابعه.

وبعد برهة من رحلتهما يقفان إلى جانب غدير بارد مغر. فيخلع جلجامش الملابس

الرائعة التي أعطاه إياها زيوسودرا ويغطس في الماء تاركا زهر الشباب الثمينة على الضفة.

ويعيش في أعماق الغدير ثعبان، وإذ انزعج من طرطشة جلجامش مرحا فوقه يصعد الثعبان إلى السطح ويشم حلاوة النبتة السحرية. وبسرعة يخرج من الماء ويقبض على النبتة ويبتلعها، وفورا يخلع جلده، علامة خلود الأفعى التي لا خلاف عليها في عيون القدماء.

وهكذا مارس القدر والآلهة خداعهم النهائي لجلجامش.فيدفعه الماء آسفا الآن ليس فقط على إنكيدووتحلله هوذاته الأكيد ،بل أيضاً على عدم جدوى مسعاه وتحطم آماله بتغيير مصير الإنسان.

وفي البحرين بالقرب من الطرف الشمالي الشرقي للجزيرة يوجد غدير عذارى ، وعلى الرغم من عدم وجود دليل يجيزه، إلا أنه من المفرح اعتقاد التفكير به على أنه المكان الذي هزم فيه جلجامش بعد ما راهن على نفسه بطلاً للإنسان الفاني ضد الأقدار. واليوم أصبح مكانا أكثر سعادة ، مليئا بالأطفال يسبحون،وقليل منهم يفكر البتة بالملك الذي يمكن أن يكون قد استحم هناك قبلهم.

يبعد الغدير بضعة كيلومترات جنوب الموقعين الرئيسين السومريين المرتبطين بالبحرين: باربار، وقلعة البحرين. وبعيداً عن الشاطئ، بنحو كيلومتر ونصف شمال باربار يوجد ينبوع ماء عذب آخر يتدفق من قاع البحر ويطلق عليه الشريبة.ومن المغري وضع كامل الأحداث الرئيسة في زيارة جلجامش لدلمون في هذه الزاوية من الجزيرة.وبالمصادفة ترجيحا أن عذارى كان مكان أضحيات شعائرية قبل الإسلام ،حيث هذا هومعنى الكلمة بالعربية مما يوحي أنه ذات يوم وقع الاختيار على صبية سيئة الحظ قربانا لآلهة الجزيرة وألقي بها في الأعماق. وحتى هذا اليوم يصر الاعتقاد الشعبي في البحرين على طلب أفعى في عذارى أضحية سنوية وأنه كل سنة يغرق سابح هناك.

ولكن هنالك احتمال آخر: في بعض صور الأسطورة يقال إن جلجامش قد استحم في

بئر. وعلما بتكرار غسل الإلهات رؤوسهن في الآبار أو النوافير فإن هذا يبدواحتمالا معقولا، وقد كان هناك بئر ذو أهمية شعائرية واضحة في موقع معبد باربار.

ويظهر العامل المتكرر في الأساطير والمعتقدات القديمة في الملحمة عند هذه النقطة على هيئة ثعبان سرق آمال جلجامش في الشباب الأبدي. وكانت الأفاعي مقدسة منذ أقدم الأزمنة وغالبا ما كان الثعبان مخلوقاً ذا فأل حسن بقدر ما كان طالع شر، إذ كان أحد أتباع الأم العظيمة الغامضة القوة الإلهية الأصلية الخالقة المعترف بها ومعبودة الإنسان منذ الأزمنة الحجرية القديمة فصاعدا. أما الثعبان الذي لعب دورا مؤسفا إلى هذا الحد في الجنة فلا بد أنه كان سومريا أو بابليا في أصوله الأسطورية، وإن كانت القصة التي وردت بالكتاب المقدس مبنية على سوء فهم للمصدر الرئيس. ولقد كان هنالك ماتزال ديانة عبادة أفاعي تقام في البحرين حتى بعد ١,٠٠٠عام من تاريخ أقدم نسخة من ملحمة جلجامش و٢,٠٠٠ لاحقا على الأحداث التي ترويها.

وعاد جلجامش إلى أروك يحمل العلم بأن حياة الإنسان محتوم عليها بالقدر أن تكون قصيرة، ولا مفر من الموت وحكم إجيجى،الآلهة المخيفة المظلمة الذين كانوا قضاة العالم السفلي . وعلى أية حال، وجد سببا للاعتزاز في مدينته ،ويشير لسورسونابي (إذ صادق الآن الربان المفصول من العمل) إلى الأسوار المدعمة التي بناها من الطوب المحروق قوية ويعتمد عليها ، والبساتين، وأراضي المعبد التي تمتد مع حدود المدينة. وعلى الأقل لم تضع حياته كلها سدى ،إذا كان بمقدوره أن يبني مدينة قوية ،ويختارحكومة جيدة لدولته؛ أليس هوجلجامش الملك الراعي لشعبه؟

اصعد وامش على سور أروك

فتش الشرفة في القاعدة وتفحص الآجر

أليست لبناته من الآجرالمحروق؟

وأخيرا انتهى عدد أيام جلجامش في أروك، ولا يزال يحتج على قدره وقدر البشر، ويموت ولا بد من هبوطه إلى عالم الأرواح السفلي المعتم. ويعد شعبه له جنازة رصينة، إذ إن أبهة الموت على القدر ذاته من الروعة كذاك الذي يميز موكب ملك على قيد الحياة. ويطوي النسيان جلجامش الشاب الذي لا يقنع ،ويبقى في الذاكرة فقط الراعي الملكي الذي عانى بهذا القدر من أجل شعبه . الملك جلجامش الذي انضم إلى إنليل سيد الآلهة ليعمل بعدل تحت وجه الشمس، يؤخذ إلى مثواه يندبه أسفا عليه شعب المدينة كله:

أضجع الملك نفسه ولن ينهض ثانية

رب كولوم لن ينهض ثانية

لقد قهر الشر ، ولن يعود ثانية

مع أنه كان قوي الساعد فلن ينهض ثانية

كان لديه الحكمة والوجه الحسن ،و لن يعود ثانية

لقد ذهب إلى الجبل، ولن يعود ثانية

من المركبة متعددة الألوان لن يعود ثانية.

يمكن مشاهدة أساسات أسوار أروك التي يصنعها جلجامش بهذا الاعتزاز حتى اليوم، ويبلغ محيطها ١٠ كيلومترات (٦ أميال) . أما المدينة نفسها فقد استحالت كومة من الركام ينبش فيها علماء الآثار بجد. وأعيد بناء معابدها وأبراجها الرائعة من كسور وطبقات من تراب بلاد ما بين النهرين. ولكن جلجامش حقق حياة أبدية ، على الأقل حتى يومنا هذا مادام الناس يتأثرون بالأبطال والحكماء وأعمالهم. وبالتأكيد يستحق تلك الذكرى إذ ترمز إلى تحدي الإنسان للوقت القليل الممنوح له للتجوال في جنة هذا العالم،وصراعه الأبدي ضد رغبات الآلهة القاسية.

ومن الحماقة تتبع رحلة جلجامش إلى دلمون خطوة بخطوة أوحرفيا فوق ما ينبغي. فالرحلة الموصوفة في الملحمة يمكن ألا يكون بالإمكان وضعها في أي سياق حقيقي أبداً،فكل ما نعرفه اليوم يمكن أن يكون فلكيا أوكونيا أوخياليا صرفا.

وجلال الأسطورة وتعبيرها من خلال أسلوب الملحمة لا يزيد بغرسه في مكان أوزمان، ولا ينقص بغير ذلك،فهي جزء من التراث العالمي، ومغزاها الحقيقي في المحتوى الحالي هو إنجاز رحلة جلجامش قد تم في أرض دلمون ،والتي بهذا المعنى تقع خارج حدود الواقع. ومرة أخرى، ما يعم تلك الأجزاء من الملحمة التي تتصل بها هوصفة الجنيات لدى دلمون.

وتجري كثير من أنهار الأسطورة في هذه الأرض بالغة القداسة والقدم ،حتى إن تلك الأجزاء من قصة جلجامش ليست إلا جانباً من سداة ولحمة النسيج الدلموني. وتحتشد الآلهة حول دلمون كما قيل ذات مرة أنهم احتشدوا ، مثل الذباب، حول قرابين زيوسودرا بعد الطوفان. وإضافة إلى جلجامش ، الأروع بين الأبطال، هنالك زمرة هامة من الشخصيات البطولية الذين روتهم مثل قصته تعد بالكثير من التعبير عنها في دلمون وأراضي الخليج. وهؤلاء الأبطال هم الرب إنكي، وأوانس ،وزيوسودرا ،والخضر ، والإسكندر.

وهذه الشخصيات البطولية عنصر خاص من عناصر الأسطورة الخليجية. وهكذا فإن جلجامش ونظيره الإسكندر متباعدان زمنا، لكنهما متقابلان في منزلتهما البطولية والأسطورة الصامدة،و ليسا الوحيدين كأقوى شخصيتين يجسان بين مملكتي الأسطورة والواقع. فإنكي بذاته هناك، الأقوى بين الآلهة الذي تتجسد شخصيته في أوانس الرجل السمكة المعلم المائي الذي بعد زمانه لم تنقل للبشرية معرفة بعده، أو زيوسودرا أيضاً لا بد من تأهيله شخصية بطولية، وبالتأكيد كشخص أكثر من عادي. ولكن يظل هنالك أيضاً شخصية أخرى أكثر غموضا يدخل في قصة المكان ذي البحرين الاثنين. والذي يمكن أن يتفوق على هذه الشخصيات القوية جميعها – على الأقل في نسخة أسطورته التي نتعامل معها – وفي ذاته الخيالية واحد من اعقد وأكثر الشخصيات غموضا في أسطورة

الشرق الأدنى.

وتتعلق الأسطورة بأعمال الخضر*. يبرز الخضر في آثار الخليج بفضل مزار مخصص له على جزيرة فيلكا قريبا من الموقع الذي نقب فيه الدنمركيون. ولقد طمر المزار والأساطير المصاحبة له على يدي بيبي، وهي بجلاء ضاربة في القدم الأمر الذي تدل عليه الربوة التي يقوم عليها المزار الحالي.

---

* الخضر ليس شخصية أسطورية كما يزعم المؤلف بل عبد صالح ورد ذكره بنص القرآن في سورة الكهف قال تعالى (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) الآية رقم (٦٥) (د. السقاف)

الفصل الحادي عشر

لغز دلمون

على مدار ١٠٠ عام من النشاط الأثري في الخليج والبحرين كُشفَ عن المزيد من الثقافة المادية التي انتعشت في القرون التي كان خلالها أرخبيل الجزر هو أرض دلمون الذائعة الصيت . ولقد قدمت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية على الأقل بدايات لفهم الدور الذي لعبته بلدان شرق الجزيرة العربية وعمان في تطوير ثقافة الخليج العريضة على مر الخمسين قرنا الماضية أو ما يقرب من ذلك. لكن يظل هناك سؤالان أساسيان بغير جواب ، وهما :

من هم الدلمونيون ،ومن أين أتوا؟

نحن متأكدون بقدر معقول أن الدلمونيين لم يكونوا فينيقيين، ولكننا لسنا متأكدين بأية حال الآن إن لم يكن الفينيقيون دلمونيين. ولا يوجد دليل على أن الدلمونيين كانوا سومريين، وإن كان مصير الشعبين مرتبطاً ارتباطا وثيقا . ولا نعرف ماذا كانت لغة دلمون، تُثبت النقوش التي وجدت في معظم اللغات التاريخية المرتبطة بالمنطقة أنها إما في دلمون الجزائرية أو القارية (الجزر أو اليابسة الرئيسة) أن دلمون كان لها صلات بشعوب من بلدان عديدة ،وأن الشعوب الذين كانت تلك اللغات لغاتهم الوطنية قد أقاموا هناك على أكبر احتمال .

ويمكن أن نكون متأكدين بقدر معقول أنه كان هناك عنصر جوهري في التكوين الدلموني مستمد من العرب الأوائل الذين استوطنوا القسم الشرقي من شبه الجزيرة العربية منذ أقدم استيطان إنساني . وكان هؤلاء هم المارتو، وفي النهاية الأحلامو بالآرامية، وكانوا جميعاً ميالين لأن يكون لهم صلة بالمجموعات اللسانيه السامية الغربية . ولكن إن كان الدلمونيون قد تكلموا بلسان سومري غربي في أزمنة ما بعد السومريين، فذاك أمر مشكوك فيه كثيراً .

ولا نعرف وصفاً للإنسان الدلموني. ولا نعرف ماذا كانت عاداته وملابسه أكثر من بضعة نزر من الحلي التي بقيت. ولدينا المعلومات البسيطة الكافية بأن سمعة دلمون كمكان مفضل بصفة خاصة للعيش فيه، يبدو أنها برزت من خلال حقيقة أن بقايا الهياكل العظمية الدلمونية تظهرهم على أنهم كانوا أطول قامة من متوسط معاصريهم، وأنهم عاشوا أعماراً أطول.

وفي مسألة أصل جذور حضارة دلمون، يمكن الآن فقط أن نبصر بعض العلامات غير القطعية من خلال الضباب المحيط بها، والتي يمكن في الوقت المناسب أن تؤدي إلى تعرفها كاملة. وحتى هذه، على أية حال، لن تخبرنا بالضرورة بكل ما نود معرفته عن الدلمونيين أنفسهم، وإن يمكن أن تبدأ بالإيحاء ببعض الارتباطات ذات العلاقة بهم.

ويبدو الآن أكثر وأكثر احتمالاً أن الزخم الجوهري الذي أدى في قرون الألف الثالث ق.م إلى تأسيس ما كان واضحا أنه مجتمع متطور وغني على جزيرة البحرين الرئيسة قد جاء من الجنوب والشرق. وهنالك تلميحات متزايدة إلى الصلات في الألف الثالث بين جزيرة البحرين وما هواليوم سلطنة عُمان، وحتى وادي السند ومناطقه الساحلية. ولا شك أيضاً في أن المستوطنات في عمان أقدم تاريخيا من أقدم مستوطنة معروفة في البحرين بحسب ما لدينا من علم الآن.

وثمة ثغرة تاريخية غريبة في الآثار البحرينية تبدو في الحقيقة أنها تعني وجود فجوة من عدة مئات من السنين ما بين الحقبة العبيدية المتأخرة والقسم الأخير من الألف الثالث ق.م، لا يبدو فيها قيام أية مستوطنة كبيرة في البحرين. حيث أن شعوب بلاد ما بين النهرين من الحقبة المتأخرة كان لديهم اتصال ما مع الساحل العربي الشرقي على ما هو واضح، وبما أن الشعوب التي استخدمت الفخار العبيدي قد حطت على أرض قطر وعلى الجزيرة الصغيرة القريبة من شواطئ البحرين المعروفة اليوم باسم المرخ، وامتدادا إلى أسفل الخليج عند نقاط عديدة على الساحل، فإن هذا الأمر محير. ومن الغريب بصفة خاصة أنه لا يبدو أن

البحرين ذاتها كانت مقصداً لهم.

والأكثر غرابة هو أن الشخصية المقدسة لدلمون-البحرين تبدو مرتبطة بطبيعة كونها جزيرة ، وواضح أن لها ارتباط في أذهان السومريين بأصول مجتمعهم. وتعتبر المكان الذي نشأت فيه العديد من منافع الحضارة ،ولا بد أن هذا يشير إلى وقت ما في أواسط الألف الرابع ق .م من حيث التسلسل الزمني السومري ذاته.

وكان السومريون بالتأكيد قادرين على الإبحار في مياه الخليج في وقت مبكر بهذا القدر. وبمقدورنا أن نفترض أنهم قاموا بذلك جرياً وراء المواد الخام التي سعوا إليها بهذا القدر من الجد في بلدان بعيدة عن موطنهم. ولقد كان تحويل النحاس فناً قديماً جداً، ومع حلول أواخر الألف الرابع، كان وسيلة مألوفة ، ومع بداية الألف الثالث ق.م كان يتم استخدامه مُصَنَّعاً في نهاية المطاف. وتمثل عمان أنسب مصدر للنحاس استطاع السومريون إحرازه، ولكنها رغم ذلك تبعد بنحو ١,٠٠٠ كم عن أقصى مستوطنة سومرية جنوبية. ولا بد أن متناقضات إمكانية عثورهم عليه بالمصادفة هائلة، ولا يمكن رفض الفكرة رفضا كاملاً، وعليه فإن السومريين أنفسهم قد جاؤوا إلى الخليج من الجنوب بالفعل، ربما من عُمان ذاتها أومن مكان ما قريب منها، وجلبوا معهم معرفة بمصادره. وكما افترض سابقا، فإن المحبة التي يبدو أنها كانت لديهم تجاه دلمون – البحرين يمكن أن تكون قد نشأت كونها أوتهم في رحلتهم شمالا. وفي هذه الحالة،لم اذا أخروا إقامة المعابد في باربار،لو كانوا بالفعل سومريين حتى نهاية الحقبة السومرية فعلياً؟ أم هل لا يزال هنالك مقابر أقدم بانتظار كشفها؟

وربما احتفظ السومريون مبكرا باتصالات ،أو أقاموا بأنفسهم قواعد على الساحل العربي الشرقي. ويصعب أن يكونوا قد أخفقوا في التعرف على وجود البحرين، ومع ذلك واضح أنهم لم يستخدموا الجزيرة إبان أعظم ازدهار لهم وانطلاق خلاق إلى الخارج.

ولربما يكمن التفسير في الشخصية المتقلبة للخليج ذاته في تلك الحقبة. فالخليج اليوم

أدنى بقدر معتبر مما كان عليه في الألف الرابع والثالث ق .م ومن المفهوم أن أي مستوطنات أقيمت في ذلك الزمان لا بد وأنها بنيت بمواد هشة جداً مثل البراستي* واندثرت بكل بساطة. والمواقع ذاتها يمكن أن تكون أبعد من الشاطئ، ويمكن أن تكون الآن مدفونة تحت رمال تذروها الرياح على مسافة بعيدة في اليابسة. ولكن بالرغم من عمليات المسح العديدة التي أجريت لسطح الأراضي البحرينية في الثلاثين سنة الماضية لم يتم العثور على آثار أي مستوطنات أقدم.

ومن الممكن أن تكشف الأبنية الواسعة في باربار والتي لا تزال بانتظار مجرفة عالم الآثار عن دليل أقدم مما هو متوافر حتى الآن. وبالفعل، سوف يكون مفاجأة كبرى إن لم تفعل. فالفن المعماري في باربار غريب إذا نظرنا إليه بمضمون الارتباطات السومرية المفترضة للشعائر التي مورست هناك . والعمارة القائمة من الكتل الحجرية دقيقة التشطيب غير سومرية بكل وضوح،وعليه ، فبأي تقليد معماري عمل بناؤو باربار ؟

وبالمثل، من هم بناؤو القبر العظيم في هيلي، زخارفه المنحوتة؟ هل كانوا سلف بنائي باربار؟

وسواء كان اكتشاف بقايا من الألف الرابع ،و أوائل الثالث ق .م في البحرين سيضع الحلول للمسألة التي طال الجدل حولها عن أصل السومريين أم لا فهذه مسألة أخرى تماماً. ولربما سيكون، ولكن المؤكد أن لا أحد يبدو ميالا اليوم إلى اقتراح بديل مقنع. لذا فإن التوجه جنوبا يمكن أن يكون على الأقل قابلا للدفاع عنه كأي مدخل آخر، وبالتأكيد أكثر من معظمها. فإذا كان مسموحا في الصفحات الختامية لكتاب حاول تبني وجهة نظر عريضة القاعدة للدليل على ماضي هذه المنطقة، وكان التخمين مسموحاً، فهنالك إذاً منظور يستفز الخيال بمجرد غرسه فيه.

---

*مصطلح غربي : يقصد به البيوت المؤقتة أو الدائمة التي تبنى من جريد النخيل (العبودي).

في أواخر العصر الحجري الحديث، ما بين ٧,٠٠٠ و٦,٠٠٠ سنة خلت، قدمت تخوم الخليج وشرق شبه الجزيرة العربية مظهرا مختلفا بصورة ملحوظة عما هي عليه طوبوغرافيتها الحالية. ومع ارتفاع مستوى الخليج بنحو المترين، فقد وصل البحر بعيداً في المنطقة الساحلية وما وراءها، وهي الآن بعيدة عنه كثيراً.

ولا بد وأن المرخ كانت واحدة من العديد من مثل هذه الجزر الصغيرة المنتشرة على الساحل. ولقد كانت أم النار على الساحل الشمالي لشبه جزيرة عمان واحدة منها. وقد امتد البحر عميقا في الربع الخالي والصحراء العمانية. والجماعات الصغيرة من الصيادين الذين عاشوا على ضفاف البحيرات التي تشكلت بمحاذاة الصحراء، والذين اقتاتوا على صيد أكبر كان بمقدور المنطقة توفيره في ذلك الزمان، كانوا صناعاً موهوبين بدليل أدواتهم الحجرية. ولا نعرف شيئاً عن أي منتج آخر لهم إذ إن هذه قد صنعت من مواد زائلة. ومع انسحاب البحر، وبروز الصحراء لا بد أن هذا الشعب قد خرج بحثا عن موطن. ولأنهم كانوا سكان بحيرات، فلا بد أنهم كانوا بحارة مقتدرين، ولم يكن من شأن الخليج أن يشكل حاجزا لا يمكن اجتيازه أمامهم، بل على العكس من ذلك فعلا.

وتغيرت البيئة و،انتقل سكان البحيرات شرقا وجنوبا ليشكلوا جذور سكان عُمان، بينما يمكن أن يكون آخرون قد انتقلوا شمالا صاعدين الساحل العربي، وبعضهم طاف حوله بحرا. وفي النهاية وصل أكثرهم مغامرة –وربما كانوا من بين أقدم من تولى هذه الرحلة المزعومة– وصلوا إلى مستنقعات ما بين النهرين الجنوبية وأسسوا إريدو. ولقد كانوا بلا جدال صيادي أسماك أيا كان المكان الذي جاؤوا منه، وبذلك لا بد وأنهم كانوا المرشحين البدائيين لمعرفة جزر الخليج معرفة وثيقة، فقد كان إنكي في نهاية الأمر راعيهم. وإذا كانوا أسلاف سكان الخليج اللاحقين فإن هذا يفسر ارتباطهم بجزره الصالحة للسكنى: أم النار ،والبحرين ،وتاروت، وفيلكا وكلها كانت مراكز هامة لثقافة دلمون أو معاصريها.

ويمكن أن يكون المهاجرون الأوائل أسلاف صانعي فخار العبيد . وليس هذا للتأكيد على أنهم كانوا مسؤولين عن فخار العبيد الذي عثر عليه في مواقع عربية شرقية، وقطر، والبحرين ،والإمارات العربية المتحدة، فهذا متأخر زمنا بأكثر من الحقبة التي نحن بصدد التخمين حولها .ولقد تم تعرّف أقدم فخار عبيدي مع مستويات إريدو الأولى . ويمكن أن تكون موجة الهجرة الأولى قد تبعتها أخريات لم تذهب جميعها بالطبع إلى سومر بل ظلت على اليابسة الرئيسة العربية ،وإذا كانوا قد فعلوا ذلك فيبدو أنهم قد احتفظوا ببعض الاتصال مع أبناء عمومتهم في الشمال.

وعلى مر القرون يمكن أن يكون سكان البحيرات العربية الجنوبية الغربية قد تشعبوا على منطقة واسعة. ولربما كان هنالك حركة مقابلة باتجاه الغرب،والتي إن لم تكن خالية بمجملها فربما تفسر بعض التشابهات التي يبدو أنها موجودة في فن الصخر لسكان عُمان الأوائل ،وسكان غرب الجزيرة العربية الذين عاشوا بعيداً جداً عن الخليج في المنطقة التي يطلق عليها الحجاز اليوم ،وهناك تولوا بحماس تزيين معظم واجهات الصخور المتوفرة في المنطقة مستخدمين رموزا وأشكالا مدهشة شبيهة بتلك الموجودة في الربع الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة. وهؤلاء العرب الغربيون كانوا على الأرجح حملة العديد من المؤثرات الآسيوية التي تظهر في مصر ما قبل الأسر في النصف الثاني من الألف الرابع، حتى إن بعض فن الصخر يبدو أنه يردد صدى صيغ موجودة في وادي عُمان. ولكن هذا لا يزال بحر تكهنات ويجب أن يظل كذلك في الوقت الحاضر. ويمكن أن نتذكر بصورة عابرة أن المصريين عززوا ذكرى جزيرة في وسط البحر أبعد من الأفق الشرقي، جزيرة حافة العالم.

والتسلسل التاريخي الخاص بالخليج ،والذي يتمتع بمصداقية معقولة يثير السؤال عن توالي الملوك ففي مصر . في الألف الثالث كان هذا الأمر أقل دقة مما هو الحال في الفترات اللاحقة. وبالفعل، التطابق بين الخليج ومصر يمكن أن يبدو أكثر قابلية للفهم بقدر كبير لوأن التسلسل التاريخي لمصر انخفض بمقدار ٨٠٠ سنة.

واحد من أكثر عمليات الحذف غرابة من دليل آثار البحرين (أرشيفات دلمون)،لا تزال باقية، وستكتشف ذات يوم، ربما من مكتبة ملك دلموني أوغرفة الألواح في معبد عظيم، أو نظام ملفات أحد أعضاء إليك- تلمون : إذ إن هذه الالواح لها سابقاتها في بلاد ما بين النهرين.وفي السنوات الأخيرة يعرض اكتشاف مخابئ الألواح الهائل في إيبلا (تل ماردیخ) في شمال سوريا ، والذي يكشف عن أدب كامل بلغة غير معروفة من قبل، العجائب التي يمكن أن تكشفها المصادفة أو مهارة عالم الآثار. ولا بد أن أرشيفات دلمون موجودة في مكان ما . ومن الصعب التفكير في أن ما كان مجموعة جوهرية من السجلات والأدب قد ضاعت إلى غير رجعة. أما إمكانية أنها كتبت على مادة عضوية وقد تحللت فلا يمكن رفضها تماماً. ولكن في ضوء الإشارات الرسمية والأدبية والشعائرية إلى دلمون في سجلات بلاد ما بين النهرين، يبدو من غير المحتمل أن لا يوجد مخبأ ألواح بانتظار الاكتشاف في البحرين.

ومن المفهوم أن اكتشاف مثل هذا الأرشيف سيلقي الضوء على أحد أكثر الألغاز في شخصية دلمون- البحرين في العصور القديمة. ومن السابق لأوانه فهم أهمية الجزيرة في التجارة، وقبولها كمركز أهمية في ثقافة أواخر الألف الثالث في الخليج الأوسط الذي انتشر تأثيره إلى بلدان بعيدة تماماً.والعسير على الفهم هو لماذا احتلت تلك المكانة الخاصة في التقاليد السومرية؟ ولماذا بصفة خاصة كانت مشهورة كأرض مقدسة؟ من المحتمل أن تكون قدسيتها الجوهرية أقوى مميزاتها فهي البلد الأول من بين البلدان المقدسة كلها ، وصمدت أساطيرها على مر أجيال طويلة. وقد كان نفوذها عميقا كما رأينا. ولقد كانت أكثر أهمية حتى من مزارات اليونان و أقدس الأماكن المصرية في ابيدوس حيث يقال إن أوزيريس قد دفن هناك.

ولوافترضنا أنه في الوقت الذي أقامت المدن السومرية نفسها، وانتعش مديرو المعابد، ووجد الكتبة في سومر بعض الوقت بعد الفراغ من حصر الغنم التي كان المعبد يملكها كي

يؤلفوا أغاني وقصصا رائعة تشكل مجد سومر، فإن شعب الجزر والعرب كانوا متميزين عن أبناء عمومتهم في الشمال، فنظرتهم إلى قدسية أرضهم ربما كانت مؤثرة لتاجر سومري زائر. فالتاجر ،أوالكاتب، أومسؤول البلاط، أوأيا كان يمكن أن يأخذ معه إلى سومر قصة أرض بعيدة مضاءة بضوء غريب ومشرق.

حسنا وجيد! ولكن لم اعتقد الدلمونيون أنفسهم أن بلادهم كانت أرضاً مقدسة بهذه الفردية والاستثنائية؟ لم تكن المسألة مسألة (شوفينية) بهذه البساطة (أرضي أقدس من أرضك)، أومجرد نتيجة الموارد الوفيرة،أوالماء العذب في بيئة عدا ذلك صحراوية. لا بد أن هنالك تفسيراً أكثر إقناعا ،ولكنه حتى الآن يروغ منا. وفي هذا السياق يمكن أن يثمر التبصر في صلة بالملاحظات الفلكية والملاحية المفترضة هنا .

ومن الواضح أن التصاميم الثرية والمعقدة للأختام أيضاً تكافئ مزيدا من الدراسة ،فهي تنطوي على المزيد من المعلومات بانتظار النشر عنها.

ولربما يكون من الممكن في النهاية قراءة الأختام، وبالتأكيد لا بد وأن بالإمكان فهم مغزى بعض رمزيتها ، خصوصا العلاقة بين الرمزية والمعدل الذي يتكرر به بعضها.

وهنالك أيضاً في جنوب الخليج مسائل غير محلولة بعد .وطبيعة العلاقة بين ثقافة أم النار وشمال عُمان، وثقافة دلمون العالية تحتاج إلى مزيد من التمحيص. وفي عمان ذاتها يحتاج مدى وشخصية مجتمعها في الألف الثالث ق.م إلى التوضيح ،وقد يثبت قيام صلات أقدم ، ربما في الألف الرابع ، نتيجة لمزيد من الدراسة.

وفي شرق الجزيرة العربية، وربما في المناطق الساحلية وغيرها الواقعة الآن في عمق الصحراء، سوف يقوم الدليل الذي من شأنه –على أقل تقدير– أن يكون بمستوى الدليل الذي يقام في البحرين. وطبيعة مستوطنات أوائل الألف الثالث، والتأثير الذي أحدثه القاطنون في اليابسة الرئيسة ، إن كانوا قد فعلوا، بالنسبة لشعب الجزر (إن لم يكونوا

الشعب ذاته) يحتاج إلى مزيد من التحليل.

وإذا كان لهذا الكتاب موضوع، عدا العرض البسيط لدليل الثقافة العالية التي من حيث هي سلف لنا جميعا،- ويتطلب أن يكون معروفا- فهو المسعى : البحث عن الفردوس الأرضي، مسعى جلجامش عن زهرة الشباب الدائم، بحث التاجر عن المواد والربح،و كلها عناصر تتجمع لتروي قصة دلمون البحرين والخليج العربي في قرون طويلة مضت. ومن المناسب أن يختتم الكتاب بعلامة تجريبية مؤقتة و صغيرة تشير إلى الاتجاهات (حتى وإن ظهر أنها مضللة) من أجل أولئك الذين يستمتعون بالبحث لذاته، أوالذين ينهمكون فيه من أجل علم الآثار حيث هنالك المزيد من الاكتشافات الجديدة بالملاحظة بانتظار الباحثين عنها.

التسلسل التاريخي للخليج العربي

٧٠٠٠-٣٠٠ ق.م

التسلسل التاريخي للخليج العربي ، في المراحل المبكرة على الأقل، معقد . وبرغم ذلك، فهو إلى حد بعيد مستقيم مباشر أكثر من أي تسلسل تاريخي قديم ،ولو بسبب كونه ذاتي الاحتواء ومتماسكاً نسبيا فقط. وعلى أية حال يستحق النظر فيه.

ويأتي أقدم دليل على وجود الاستيطان الإنساني في الخليج من الصناعات الحجرية الحديثة المختلفة التي تم تعرف منتجاتها في الكثير من أرجاء المنطقة من قراب عام ٧٠٠٠ ق. م ، وقبل هذا الوقت كانت جزر الخليج وكثير من شرق الجزيرة العربية لا تزال أرض غير ممكن الوصول إليها وبالتالي غير مأهولة. ولقد انتعش صناع الأدوات الدقيقة المرتبطة بجماعات الصيد التي عاشت على أطراف الربع الخالي منذ بداية الألف السادس ق. م وحتى أواخر الألف الخامسة.

والصناعات الحجرية عناصر هامة في مستودع الخليج الأثري،ومعظم الأدوات التي عثر عليها في الخليج الأوسط والشمالي محددة بالرجوع إلى تلك المدونة أصلا في قطر، على يدي الدنمركيين أولا ثم راجعها الفرنسيون.وربما يبدو الآن أن أقدم الأدوات في الخليج هي تلك التي عثر عليها على الساحل العربي الشرقي من عام ٥,٠٠٠ ق. م ومن قطر نفسها ، ربما أقدم من عام ٥,٥٠٠ق .م . وقد استخرجت أدوات أخرى من الربع الخالي يعود تاريخها إلى أوائل الألف الرابع، وغيرها أقدم من ذلك، من جماعات صيد السمك القديمة في الربع الخالي وعُمان.

بحلول العقود الأولى من الألف الرابع ق .م كان مستخدمو الفخار يقيمون مستوطنات صغيرة ، ولعلها موسمية في المقام الأول، في شرق الجزيرة العربية الساحلي، ويعود تاريخ أقدمها إلى قرابة عام ٣٨٠٠ ق م . وتم تعرفها من خلال كسرات الفخار التي خلفوها

وراءهم، والمعروفة بالفخار العبيدي من موقع في جنوب العراق حيث تم تعرفه لأول مرة.

ومن هذه النقطة فصاعدا يميل التسلسل التاريخي الخليجي إلى الثبات بالرجوع إلى الثقافات المختلفة والفترات المنسوبة إلى جماعات جنوب بلاد ما بين النهرين. وأقدم السجلات التي تتحدث عن دلمون، ثقافة الخليج الطويلة البقاء، يعود تاريخها إلى قراب عام ٣٠٠٠ ق.م واستخرجت من مدينتي كيش وأروك.

ويبدو أن دلمون قد قامت ككيان مستقل ، ربما في الأصل مهتمة بالتجارة بدلا من أية منزلة يمكن أن تكون قد اشتهرت بها كموطن الآلهة الأصلي، مع حلول نهاية الألف الرابع ق. م ، أولا من جانب البرية الرئيسة العربية الشرقية، ثم من قرب منتصف الألف الثالث على جزر البحرين. وقبل هذا الوقت قامت جماعات صغيرة لكنها ملحوظة تطلعت بصورة رئيسة إلى البحر بحثا عن معيشتها ، بعيداً جنوباً على ساحل عُمان الشمالي فيما يعرف اليوم بالإمارات العربية المتحدة ، أبوظبي ، ورأس الخيمة ، وأم القيوين، والحدود الشمالية لسلطنة عُمان. وهنا، على جزيرة أم النار في مواقع عُمانية مثل هيلي، وحفيت جماعات ذات تقليد معماري مؤكد قابلة للتمييز من قراب العام ٣٠٠٠ ق .م، بعبارة أخرى في الوقت الذي عرفت فيه أول سجلات عن دلمون من أماكن بعيدة شمالا في أرض سومر.

وكان شعب أم النار ، إن جازت تسميتهم بهذا الاسم، صناع فخار مهرة ينتجون آنية مزخرفة متميزة عثر عليها في أرجاء الخليج والأراضي المجاورة له جميعها.

وثمة بعض الأدلة على أن صانعي هذا الفخار، والذين كانوا بناة بعض روابي القبور المشهورة ، ربما كانوا القوم الذين استقروا في جزر البحرين في البداية، أقاموا قرية على شاطئ الجزيرة الرئيسة الشمالي، وهي التي وصفها المنقبون الدنمركيون بالمدينة الأولى. وكان تاريخ هذا التطور الحاسم في تاريخ الخليج قراب عام ٢٤٠٠ ق .م . وكان حاسما لأن المستوطنة التي على شاطئ البحرين الشمالي كان مقدورا لها أن تكون المهد للمدينة

الحقيقية التي تلتها (المدينة الثانية) ،والتي سرعان ما أصبحت مركز تجارة دلمون البعيدة المدى.

وتبدو دلمون قبيل النصف الثاني من الألف الثالث وقد وضعت في المناطق الساحلية في شرق المملكة العربية السعودية. وملحمة جلجامش، التي تنحدر من أزمنة الألف الثالث تأكيدات من العديد من الأساطير الحديثة وبعض الأساطير القديمة، يُتردد صداها لما يمكن أن تكون رحلة خليجية قام بها جلجامش الذي كان ملكا على أروك حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م . ويقترب بحرا من بيت زيوسودرا الذي حكم في شورورباك قراب عام ٣٠٠٠ ق.م والذي يشار إليه بصفة رئيسة على أنه بطل أسطورة الطوفان ،المتضمن أصله في الملحمة. وكان زيوسودرا قد حولته الآلهة إلى دلمون بعد أن كانت مياه الطوفان قد تراجعت. ويعود جلجامش إلى مدينته في جنوب بلاد ما بين النهرين براً، وهكذا فإن الموقعين المرتبطين بدلمون قد استرجعا هنا وتم التوفيق بينهما .وفي وقت من الأوقات حوالي ٢٤٠٠ ق.م –وبالتأكيد في حدود ٢٣٧٠ ق.م حين يعتقد أن سرجون الأكادي قد تولى السيطرة على معظم وسط وجنوب بلاد ما بين النهرين– كان مركز دلمون قد انتقل من البرية الرئيسة إلى جزيرة البحرين .وقامت بعد المستوطنة الأولى في قلعة البحرين المدينة الثانية التي يعود تاريخ تأسيسها إلى ما قبل ٢١٠٠ ق.م .وهنالك ست مراحل بناء مرتبطة بموقع المدينة الثانية ممتدة من الفترة البابلية القديمة وحتى عام ١٧٠٠ ق.م . وكانت هذه حقبة أعظم ازدهار لدلمون وقد امتدت لأكثر من أربعة قرون.

وربما يغطي المعبد الأول في باربار فترة الانتقال بين نهاية المدينة الأولى ومرحلة البناء الأولى في المدينة الثانية .أما مستوى المعبد الثاني المكون من مرحلتي بناء فمعاصر للمرحلة الثانية للبناء في المدينة الثانية. والمعبد الثالث من فترة تطوير المدينة الثانية نفسها في الحقبة البابلية القديمة. لذا تبدو باربار (عدا أقدم مستويات الموقع)، نتاج هذه الفترة الاستثنائية في تاريخ دلمون حين تركز هذه القدر الكبير من الأحداث في بضع مئات من السنين.

وأكثر الآثار صمودا من هذه الحقبة حقول روابي القبور الشاسعة في البحرين وشرق الجزيرة العربية. وبعض أقدم القبور مستمد من أم النار في حدود القسم الأخير من الألف الثالث ق.م، وتسود الصيغ المحلية المميزة لمدافن الروابي في جزر دلمون وأراضيها الساحلية.

وأحد الشواذ الصغيرة في سجل التسلسل التاريخي للخليج انعدام المستوطنات الواضحة في فيلكا قبل عام ٢٠٠٠ ق .م مع أنه تم الكشف عن موقع به مواد عبيدية في البرية الكويتية . وبتذكر النشاط المعتبر الذي دام في أرجاء الخليج جميعها في القرون العديدة السابقة ،يمكن أن يكون هذا الأمر محيرا لولا إدراك حقيقة أن خط الشاطئ عند رأس الخليج كان متقلبا بصورة استثنائية .

وقبل نهاية الألف الثالث لابد أن جزيرة فيلكا الواقعة في خليج الكويت الآن كانت مغمورة بالماء إن لم تكن تحت الماء .وبلمحة على بطاقة التسلسل التاريخي المقارن سيتبين التركيز غير العادي في البناء والنشاط السياسي والاجتماعي عموما في تخوم الخليج الأوسط والشمالي حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م. وكان ذلك زمن الازدهار الاستثنائي ،واستمر حتى أواسط الألف الثاني على الأغلب، ثم حل الكاشيون محل البابليين في السيطرة على بلاد ما بين النهرين،ووسعوا مصالحهم إلى دلمون والخليج.

وتدهور أهمية الخليج في السياسة العالمية والتجارة واضح من الفقر النسبي في العمل والأحداث في المنطقة في أثناء القسم الأخير من الألف الثاني ،مقارنة بالامتداد الذي عَمَّ بقية العالم. وهنالك نقاط يعود الخليج عندها للظهور في السجل ، بالطبع: عند نهاية الألف الثاني ومرة أخرى في الأزمنة الآشورية الحديثة عندما بنيت المدينة الرابعة في البحرين، ومرة أخرى بعد وفاة الإسكندر الأكبر.وظفرت المنطقة ككل بشيء من الانتعاش في الأزمنة الهيلينستية نتيجة لاهتمام العالم الإغريقي بتجارة العطور.

ومن المفرح تعرف الأفراد والأحداث من العصر ذاته. وهكذا فإن جلجامش كان ملكا على أروك عندما كان زوسر نتريخت ملكا على مصر ،وهوالذي بني له الهرم المدرج في

سقارة. وعندما غرقت مملكة مصر القديمة في الفوضى كانت دلمون تستمتع بالسنوات الأولى من أعظم فترات ازدهارها. وتتقابل الحضارة التجارية مع الحقبة المتوسطة الأولى في مصر حين تدفقت عدة مؤثرات أجنبية في وادي النيل.

وتعتبر وفاة الإسكندر الأكبر في بابل في يوليوعام ٣٢٣ ق .م نهاية دورة تاريخية في الأراضي جميعها،وتنعكس في التسلسل التاريخي للخليج والأراضي الرئيسة التي كان لها صلة به.